د . فخرى لبيب

الشيوعيون وعبد الناصر

التحالف والمواجهة

[١٩٥٨ - ١٩٦٥]

الجزء الأول

الشهود
لقاءات شخصية

- إبراهيم مرسى
- اسماعيل صبرى
- اسماعيل عبد الحكم
- إكرام محارب
- الين السندى
- انتصار خطاب
- إنجى أفلاطون
- أنور نعمان
- ايفون حبشى
- ثريا سعيد أدهم
- ثريا شاكر
- جمال الشرقاوى
- حسين طلعت
- حلمى ياسين
- خيرى عزيز
- داود عزيز
- ستوتة الشرقاوى
- سعد رحمى
- سيد اسحق
- شفيق اسماعيل
- شكرى عازر
- صابر زايد
- صلاح خطاب
- عبد الرازق حسن
- عبد القادر ياسين
- عبد المحسن شاشه
- عدلى جرجس
- فاروق اسماعيل
- فاروق ثابت
- فاطمة ز ى
- فخرى لبيب
- فريد رمزى
- فكرى قورة
- فوزى حبشى
- فوزى عطية
- فؤاد مرسى
- فؤاد مصطفى
- لطفى الخولى
- لمعى يوسف
- ليلى الشال
- مبارك عبده فضل
- محمد الجندى
- محمد سعده
- محمود العالم
- محمود شندى
- محمود عبد الخالق
- مصطفى المجرسى
- منجد توفيق
- نبيل زكى
- نبيل صبحى
- نجاتى عبد المجيد
- نسيم يوسف

الشيوعيون وعبد الناصر

(التحالف والمواجهة)

١٩٥٨ - ١٩٦٥

الجزء الأول

إهداء

* الى كـل مصرى

- آمن بوطنـه وبحقوق هـذا الوطن عليـه

- امتلك ارادتـه فاختـار طريقـه

- تحمل كل العذابات فى سـبيل ما اختـار

* الى كل اب وام ، شقيق وشـقيقة ، ابن وابنـة ، زوجه وخطيبـة وقف او وقفت الى جوار من اختـار يتحمـل او تتحمـل معه آلامـه

* الى ابى وامى واخوتى

مقدمة

هذا الكتاب ليس تاريخا لمرحلة ، لكنه في الأساس وجهة نظر في تاريخ تلك المرحلة . وهي مرحلة ، في تقديري ، كانت حاسمة في تقرير مصير كثير من الاحداث الهامة والعاصفة اللاحقة ، حتى انها لم تترك على المستقبل مجرد بصمات عابرة ، لكنها تركت خدوشا عميقة غائرة .

ان كتابة تاريخ هذه المرحلة يحتاج الى تناولها من زوايا عدة ، تقوم في الأساس على دراسة الوثائق الحقيقية التي تعبر عن مختلف جوانبها ، ان وجدت تلك الوثائق ، كذلك على شهادة الامناء من الشهود ، فأكثر الحقيقة دار خلف الكواليس أو بعيدا عن السمع والتوثيق .

ان التجربة المصرية عامة تجربة دسمة وسمينة وتحتاج الى دراسات كثيرة ووجهات نظر عديدة ، تطرح ما جرى فيها من أحداث تحت مجهر البحث والتقييم . تحتاج الى تشخيص مسئول يحدد ما لها وما عليها .. ويمكن لهذه الدراسات أن تشكل في مجملها مواقع الطبقات الاجتماعية المختلفة مما حدث .. ان هذا التناول ، لابد وأن يعود على مجرى الثورة المصرية بالفائدة حيث يتحدد من خلال ذلك ، وعلى لسان أصحاب المصلحة أنفسهم موقفهم الاجتماعي الصريح مما ينبغي ان تكون عليه مجريات الأمور المستقبلية . اذ أن الماضي والحاضر والمستقبل كل متصل ، فالحكم على الماضي موقف من الحاضر ونظرة للمستقبل .

ان أهمية التجربة المصرية للعالم الثالث ، أنها تجربة تتمتع بكثير من التكامل . فالطبقات في مصر لها تمايزها . والصراع الطبقي والاجتماعي فيها ليس صراعا هلاميا غير محدد المعالم . انه صراع قديم نسبيا اذا قورن ببلدان العالم الثالث ، مما يمنحه درجات من النضج لم تتح لغيره في هذه البلدان . ان الطبقات الاجتماعية في مصر قد خاضت نضالات وطنية وطبقية في ظل أوضاع متغيرة ومتميزة ، مما جعل هذه الطبقات تتوارث خبرات هامة في كيفية استخدام اسلحتها وقدراتها النضالية . ان الطبقة الاجتماعية لا تتخلى عن مصالحها أبدا . وبمله هادن ممثلوها أو تراخوا في الدفاع عنها أو فرطوا في التنقص من حقوقها أو ربما تخلى البعض منهم عن انتمائه اليها . الا أن الطبقة سرعان ما تفرز من قلب أحشائها ممثلين حقيقيين لها مدافعين عن مصالحها . وبهذا فان مصالح الطبقة متصلة حتى وإن تغير المعبرون عنها أفرادا أو جماعات .

ان معرفة الواقع الاجتماعى فى حركتـــه والاعتراف بـــه كحقيقـــة موضوعية ، والتصرف على ضوئه واساســه ، هو السبيل الوحيد الصحيح لمن يتصدى للمسئولية والقيادة . اما تجاهل هذا الواقع والقفز عليـــه وعلى قوانينه ومحاولة فرض قواعد وقوانين أخرى قائمة على تقدير ذاتى أو نزعات فردية ، فانه مهمـــا حسنت النيـــة وخلصت الطوية لابـــد وأن يقود الى نتيجة حتمية هى الصدام مع الحقيقة الموضـــوعية ، التى هى قائمة ، شاء هذا أو ذاك أو لم يشأ . انها موجودة تفعل فعلها وتسأتى نتائجها ، ولا يمكن نفيها بتجاهلها . والقائد الناجح هو الذى يدرك هذه القوانين ويتعامل معها ، يطوعها ويطور دورها لمـــا فيـــه خـــدمة الوطن وتقـــدمه .

ان الصراع الطبقى حقيقة موضوعية ، لا يمكن اعطاء الظهر لها . وهو ليس كما يزعم البعض صراعا دمويا بالضرورة ، ان هذا الصراع ان فتحت امامه السبل الصحيحة ، فهو صراع صحى ، يأخذ مجراه الطبيعى ويصل الى نتائجه الطبيعية ، وهو أن يكون الوطن لكل الوطنيين ، وأن تكون القيادة والريادة فيه انتقاء طبيعيا للاجدر والأقدر على فهم قضاياه وطرح الحلول التى تحقق مصالح الغالبية فيه . اما ان انفردت به فئة من طبقة أو طبقة بذاتها لا تمثل فى المجتمع غير اقلية محـــدودة ، وحاولت الوقوف بحركة المجتمع عند حدود مصالحها هى ، مصـــالحها الضيقـــة الانانية ، فانها لابد مصطدمة بالواقع الفاعل الذى لا يمكن ايقافه . ممـــا يعنى ويستلزم فرض العنف من جانبها ، فى محاولة لا جدوى فيها لتعويق مثل تلك القوانين ، مما يدفع بالمجتمع كله الى العنف . ان الصراع الطبقى لا يستلزم العنف بالضرورة ، لكن التصدى له ومحاولة وقفه ، أو تعويقه أو وأده ، انما هو الذى يدفع بالعنف والعنف المضاد الى المجتمع ، ويفرض على الصراع الطبقى صفة مفروضة عليه

ان الدرب الطبيعى للصراع الطبقى والاجتماعى ، هو الـــدرب الذى يتوفر فيه للمجتمع وكل قواه الطبقية المختلفة حقوق فعلية متســـاوية للتعبير والتنظيم . والحق الفعلى يعنى ضمانات حقيقية للممارسة . بمعنى أن لا يكون حق التعبير مثلا ، مجرد عملية افراغ أو تنفيس يحوطها التلاعب والاحتيال حتى تنتهى الى لا شىء غير تكريس الوضع القـــائم . اى ان تكون هذه الحقوق جزءا لا يتجزأ من البنيان الاجتماعى والسياسى ، وليست مجرد ديكور أو غطاء معلق على الجدران . ان المنافذ الحقيقيـــة للصراع الطبقى والاجتماعى تتمثل فى حريات حقيقية لكل القوى الوطنية والطبقات الاجتماعية . اما سد هذه المنافذ فلا يعنى شيئا غير الضغط

المخالف لطبائع الاشياء ، مما يولد الانفجار ، وحينئذ لا تكون المسئولية ، مسئولية الصراع الطبقى والاجتماعى ذاته ، ولا مسئولية القوى التى انفجرت ، لكنها مسئولية الذى تصدى لاغلاق هذه المنافذ لاتهمه غير اللحظة الآنية التى ينفرد فيها بالسلطة والارادة ، وتحقيق مصالح ضيقة ومحدودة على حساب باقى القوى والطبقات الاجتماعية ، فى مجتمع متعدد الطبقات ، ذات المصالح المتباينة ، او التى توجد بينها مساحات وهوامش من الاتفاق او الاختلاف .

ان الادراك الواعى بمنافذ الصراع الطبقى والاجتماعى ينعكس واقعيا فى الاقرار بالحقوق المتساوية فى التعبير ، حتى يمكن لكل أصحاب مصلحة أن يطرحوا برنامجهم على مجموع الشعب ، نصا وشرحا وتفسيرا ودعوة لتبنيه والالتفاف حوله . هذا البرنامج هو المعبر عن مصالح هذه الفئة أو تلك ، وهو يتضمن فى ذات الوقت وجهة نظرها فى تغيير الاوضاع المحيطة ان تقدما أو ارتدادا أو محافظة على ما هو قائم . ومجموع الشعب صاحب المصلحة الحقيقية هو صاحب الكلمة فى المفاضلة والاختيار ، بين ما هو مطروح عليه ، تحقيقا لمصلحة غالبيته الساحقة . ان حرية التعبير تستلزم بالضرورة حرية الاختيار . والاختيار هنا ليس امرا عشوائيا . انما هو اختيار قائم على تنوع التعبير ، أى انه اختيار ارادى ، اختيار واع بالمصلحة . ان حرية التعبير هى المقدمة الضرورية لحرية الاختيار التى تعنى ممارسة الارادة .

وتاتى حرية التنظيم لتحول تلك الاختيارات والارادات الواعية . الى اختيارات وارادات منظمة . ويتمثل ذلك فى الاحزاب التى تشكل اطارا واحدا لمجموع الارادات المتماثلة . والارادة الفردية تظل غير مؤثرة كما يجب ، دون اطار منظم يحيلها الى فعل وحركة . وبذا يصبح الحزب السياسى هو الشكل الراقى للتعبير عن المصلحة الطبقية ، حيث تتجمع فيه وتتجسد الارادات التي كانت متناثرة والتى تحققت نتيجة الاختيار الواعى ، الذى يعكس بالضرورة انتماء اجتماعيا أو انحيازا طبقيا . ويصبح كل حزب سياسى هو اداة الطبقة أو الفئة من طبقة ، المعبر عنهما والمدافع عن مصالحها ، والساعى الى احداث التغيير الاجتماعى فى اتجاه أهدافها .

ان الانسان بطبيعته كائن منتم . والانتماء يعنى الاختيار الارادى الواعى بالمصلحة والهدف .. فان قامت محاولات تستهدف ضرب الاختيار الارادى الواعى فانها فى واقع الامر محاولات تصيب الانتماء فى صميمه . الانتماء هنا فى الاساس انتماء الى الوطن فى مجمله ، الا أنه ليس انتماء

مجردا او مطلقا ، انه انتماء للوطن من خلال الانتماء الى واحدة من مكوناته، طبقاته وفئاته وشرائحه . وتأتى الاحزاب لتعكس هذا التنوع فى الانتماء الطبقى فى اطار الانتماء الوطنى العام . ومن هنا تتنوع برامج الاحزاب تعكس وجهة نظر تلك الطبقة أو الفئة او الشريحة . تعكس رؤيتها لمستقبل الوطن . وهى على الدوام تعكس هذه الرؤية فى اطار مصالحها هى . فكل طبقة ترى ان المستقبل الافضل للوطن هو المستقبل المرهون بتحقيق مصالحها هى ، اى تحقيق مستقبل افضل لها . ولما كانت هذه الطبقات غير متطابقة أو متماثلة المصالح والاهداف ، فان رؤاها لمصير الوطن غير متطابقة أو متماثلة . فرؤية مالك الأرض الكبير ، غير رؤية الرأسمالى ، غير رؤية العامل والفلاح ، وان كان الجميع مصريين .

ان كبار الملاك مثلا ، يقوم وجودهم وكيانهم الاجتماعى على استغلال ملايين الفلاحين . وبذا فانهم يضعون انفسهم فى موقف العداء من الغالبية الساحقة لبنى جلدتهم . وهم لا يستطيعون الاستمرار فى تحقيق مصالحهم دون وجود قوة تسندهم وتدعمهم وتحميهم . ثم انهم ، فى ذات الوقت ، — كما كان الحال فى مصر وقت الاحتلال — يقومون بتصدير منتجهم الرئيسى الى السوق الخارجى تحقيقا للربح الاعظم والاكبر . وبذا تكون علاقتهم عدائية لغالبية الشعب الذى ينتمون له ، وعلاقة منفعه ومصلحة بالاجنبى الذى يتعامل معهم . ولذلك تنعكس هذه النظرة المصلحية ، ان ساد كبار الملاك أو اشباه الاقطاعيين المجتمع ، أى كانت لهم السلطة والارادة عليه . اذ تعبر هذه الرؤية عن نفسها فى اختيار الأجنبى سندا لهم فى مواجهة وطنهم وبنى جلدتهم . ومن هنا فانهم ، اختيارا ، ومن واقع مصالحهم وكيفية تحقيقها ، قد فقدوا انتماءهم الوطنى بسبب انتمائهم الطبقى .

ويأتى الرأسماليون سواء كانوا تجاريين أو عقاريين أو صناعيين أو مصرفيين لتتعارض مصالحهم مع كبار الملاك الذى بسيادتهم على المجتمع والسلطة يفرضون القوانين التى تخدمهم هم فى الاساس ، وتحد من دور الطبقات الأخرى من زاوية الفعل السياسى المؤثر فى صنع القانون والقرار ومن زاوية المصلحة الاقتصادية مما يحجم نمو الرأسماليين ويحاول وضعهم فى الاطار الذى يخدم القوى السائدة . فان اضيف الوجود والنفوذ الاستعمارى الى تلك السلطة ، اصبح الرأسماليون محاصرين . وغدت قضية السوق المحلى الذى يعتبرونه سوقهم الخاص محل صدام بينهم وبين تلك القوى المحلية والأجنبية الوافدة ، والتى لا تزاحمهم فقط فى هذا السوق بل وتسعى الى طردهم منه . ومن هنا لا تصبح قضية نمو الرأسماليين وتطورهم هى القضية المطروحة امامهم ،

بل تصبح القضية المطروحة هى قضية وجودهم أصلا • ويقود ذلك الى الصدام بين تلك القوى الرأسمالية المحلية الوطنية من ناحية والقوى التى تقف فى مواجهتها ، قوى الاستعمار وشبه الاقطاع من ناحيه اخرى .. الا أن القوى الرأسمالية فى حدود ذاتها لا تستطيع الاقدام على تلك المواجهة بمفردها ، ومن هنا فهى تستعين بقوى الشعب العريضة ، قوى العمال والفلاحين ، تحت شعارات ضخمة عن الكرامة والوطنية وطرد الأجنبى الدخيل . وتأتى الثورة البورجوازية الوطنية الساعية الى تحرير السوق المحلى باسم تحرير الوطن • تحرير السوق لحسابها لا لحساب الملايين التى تستعين بها . وتنفجر فى مصر اولى حلقاتها ممثلة فى الثورة العرابية التى اصابتها الهزيمة على يد الغزو العسكرى الاستعمارى المساند لسلطة الخديوى • ثم تأتى الحلقة الثانية ممثلة فى ثورة ١٩١٩ ، والتى لم تتمكن من تحقيق أهدافها • ويعمد الاستعمار الى ضرب تلك الطبقة الرأسمالية الوطنية من داخلها ، فيقدم صيغة المشاركة لفئاتها العليا والاقرب الى مهادنته والتعامل معه • وتنضم اجزاء من تلك الفئة الى جبهة اعداء الشعب والثورة الوطنية . ويحكم مصر ذلك الثالوث البغيض فى تاريخها ، الاستعمار وشبه الاقطاع والرأسمالية المرتبطة بالاستعمار . ويتداخل الصراع الطبقى والوطنى ، وتستمر الثورة البورجوازية الوطنية تحاول تحقيق أهدافها • ويأتى عام ١٩٥٢ لتكون الحلقة الثالثة فى تلك الثورة • وتنجح البورجوازية الوطنية فى هذه الجولة فى الوصول الى السلطة نتيجة اوضاع عالمية وعربية مواتية ، وظروف محلية خاضت فيها كل قوى الشعب الوطنية من عمال وفلاحين ومثقفين ثوريين وصغار منتجين ورأسمالية وطنية ، صراعات متصلة فى المصنع والحقل ، فى المدرسة والكلية ، فى الشارع وعلى ضفاف القنال . صراعات تمثلت فى صدامات دامية فى كل مكان بين قوى الثورة والحلف المعادى للثورة والمعوق لتقدمها • صراعات تصل الى حد الكفاح المسلح وحرب العصابات فى مواجهة قوات الاحتلال • وتنفرد الرأسمالية الوطنية بعد النصر بالسلطة . وتحاول تطبيق رؤيتها فى مصير الوطن ومستقبله ، باعتباره مصير الرأسمالية الوطنية ومصالحها ومستقبلها • ان رؤيتها لمصر تنحصر فى حدود الرأسمالية الوطنية • وتحقق خلال سلطتها خطوات هامة فى مواجهة الوجود الاستعمارى العسكرى والسياسى والاقتصادى • أى تحقق خطوات هامة فى مجال السيادة الوطنية والعمل على تحقيق الاستقلال الاقتصادى وبناء صناعة وطنية وحصول العمال والفلاحين على مكاسب وحقوق فى مجال العمل والمجال الاجتماعى • كما تحققت ايضا خطوات هامة فى مجال المساهمة الايجابية فى دعم حركة التحرير العربية كمنطلق للوحدة العربية المتحررة والقومية العربية المتحررة . كما تحققت مساهمات هامة فى حركة

التحرير العالمية وتجميع دول العالم الثالث فى مواجهة الاستعمار والاحلاف والقواعد العسكرية تحت شعار عدم الانحياز .

كل ذلك كان يحقق أهدافا هامة لحركة الثورة الوطنية المصرية فى مجراها العام . وكان ايضا تحقيقا لاهداف التفت حولها القوى الوطنية قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبعدها . أى انها كانت نقاط التقاء ومساحات برنامجية مشتركة لكل القوى الوطنية التى مهدت وساهمت ولعبت دورا هاما وجوهريا فى انجاح هذه الحلقة من الثورة الوطنية .

الا ان الرأسمالية الوطنية التى جاءت الى السلطة ، ومثلها تنظيم الضباط الاحرار أو الحزب العسكرى ، قد سعت الى الانفراد بالسلطة دون غيرها من الطبقات الوطنية . وكان ذلك يعنى انها سوف تجعل تحقيق أهداف الثورة المصرية محاصرا ومحدودا بحدود رؤيتها ، أى حدود أهدافها هى ومصالحها هى . ولم يكن فى وسعها أن تفرض هذه الحدود على غيرها من القوى الوطنية الاخرى الا بالقهر والقيد . وبدأت بالعمال تقتحم مصانعهم بالدبابات وتعدم وتسجن وتعتقل قادتهم . وكان ذلك بمثابة اعلان منها عن موقفها من الطبقة العاملة والصراع الطبقى الحتمى الذى سيثور بينهما . فالبورجوازية الوطنية والتى امسكت بالسلطة لن تستخدمها اداة لتحقيق المصالح الحقيقية للعمال والفلاحين الذين كانوا وقود للثورة على مراحلها المختلفة ، بل انها تستخدمها أداة لتحقيق مصالحها هى ، تلك المصالح القائمة على استغلال الآخرين وعلى رأسهم العمال والفلاحين .

ان الرأسمالية الوطنية والتى جاءت الى السلطة نتيجة صراع طبقى ووطنى فى مواجهة الاستعمار وشبه الاقطاع والقطاعات الرأسمالية الكبيرة المرتبطة بالاستعمار ، والتى كانت خلال نضالها الوطنى تمارس هذا الصراع الطبقى وتزكية وتغذية فى سبيل تحقيق غاياتها وأهدافها ومصالحها ، قد أصبحت وهى منفردة بالسلطة أمام صراع طبقى يعبر عن مصالح الطبقات الوطنية التى مهدت وشاركت فى هذه الثورة ، ثم حمتها ودعمتها بعد نجاحها ، دون ان تحصل على نصيبها وتحقق أهدافها . وكان هذا الصراع الطبقى يعنى بالنسبة لها الحد من انفرادها بالسلطة وبالتالى الحد من سيطرتها واستغلالها وجشعها للظفر بكل مكاسب الثورة والتى دفعت جموع الشعب ثمنها ، لذا عمدت فى المجال العملى الى محاولة القمع العنيف لهذا الصراع ، وفى المجال الفكرى بدأت فى تقديم نظريات فاسدة ومضللة عن عدم وجود الصراع الطبقى ودمويته ، وهى التى اسالت الدماء

من فوهات الرشاشات وعلى أعواد المشانق . وكان انكارها ورفضها الاعتراف بوجود الصراع الطبقى ، يعنى فى الواقع رفضا لمنح هذا الصراع مساراته الطبيعية ومنافذه ومسالكه التى يعبر من خلالها ، عن نفسه ، سلميا • الا أن هذا الانكار فى ذاته ما كان فى وسعه أن ينفى الحقيقة الموضوعية حقيقة وجود الصراع الطبقى ، والذى عبر عن نفسه ، نتيجة الضغط عليه ومحاولة كبته فى صورة انفجارات حادة أو هبات عنيفة •

ان الرأسمالية الوطنية ترى انها هى الوطن • وان الانتماء اليها هو الانتماء الى الوطن • وبذا يجب الغاء ودحض كل انتماء طبقى آخر . حيث يعنى ذلك – فى عرفها ورؤيتها – انتماء لغير الوطن ، أى انتماء غير وطنى ، أى انتماء للاجنبى • وأصبح الهجوم عليها أو الاختلاف معها يعنى – فى رؤيتها – الهجوم على الوطن والاختلاف معه • انها تعمل جاهدة على تسويد مفهوم يقوم على تلخيص مصر كلها فى حدود مصالحها هى ، تلك المصالح الضيقة الانانية . ومعنى ذلك اخضاع مصالح كل الطبقات الأخرى لصالحها . وهذا أمر مستحيل . الا انها حاولت أن تفرض هذا المستحيل قهرا وقسرا . وكان سبيلها الى ذلك هو حرمان القوى ، ما عداها ، من حقوقها وحرياتها السياسية ، وانفرادها هى بكل الحقوق والحريات السياسية •

وما كان لذلك أن يتحقق الا بالعنف والارهاب والسجن والاعتقال والمطاردة فى الحياة العامة والارزاق والتنكيل والتعذيب حتى القتل •

ان الرأسمالية الوطنية الحاكمة ، وهى تفعل كل ذلك ، لم تكن تهدم فقط ركنا اساسيا يجب أن تقوم عليه الثورة الوطنية الا وهو الديمقراطية ؛ انما كانت تعمل ايضا على سحق مكون اساسى يحكم حركة المجتمع وتطوره ، الا وهو حق الاختيار ، أى ممارسة الارادة تعبيرا عن الانتماء الطبقى والاجتماعى . وبذا دفعت بالصدام فى الاساس كى يكون مصريا – مصريا ، بعد ان كان فى الاساس مصريا فى مواجهة الاجنبى ، الوضع الذى كانت قوانين المجتمع وحركته للامام ما زالت تحتم استمراره خدمة للثورة واتصالها •

ان قوانين حركة المجتمع رغم انها شىء غير مرئى الا انها تتجسد فى ارادات الطبقات والفئات الاجتماعية . ولمحاولة ضرب هذه القوانين ، وجهت الضربات الى الارادة التى تجسدها ، الارادة القائمة على الاختيار الواعى . وكانت محاولات تمزيق تلك الارادة بالالغاء الرسمى لحق الاختيار والانتماء والعمل على طحنه ، يعنى تمزيق أجيال حطمتها تلك المعركة وفرضت عليها

الاستسلام والسلبية واللامبالاة أو المداراة والمجاراة والتقية ، والبحث عن الحل الفردى مهما كانت وسيلته ، للافلات من هذا المأزق — بعيدا عن الانتماء الطبقى والاجتماعى الجماعى ، مما اثر بالضرورة على الانتماء الوطنى العام • حقيقة لم تنجح البورجوازية الوطنية ، وما كان فى امكانها بكل وسائل قهرها وسطوتها ، أن تلغى مكونا اجتماعيا اساسيا ، الا وهو حق الاختيار ، وتحيله رصيدا لحسابها ، الا انها نجحت — مؤقتا — فى طمس هذا الحق ، الذى تلاه بالضرورة طمس الشعور بالانتماء الطبقى والوطنى طمسا مؤقتا ايضا

الا ان كل ذلك لم ينجح فى وقف فعل وحركة قوانين الصراع الطبقى التى تحرك المجتمع • فالرأسمالية الوطنية نفسها طبقة غير متجانسة • بمعنى أنها مكونة من شرائح وفئات تتفاوت درجة نموها • والشرائح أو الفئات الاكثر نموا ، أو التى قدمت لها الاوضاع السائدة ظروفا أكثر مواتاة ، تحاول أن تعكس هذه القوة الاقتصادية فى صورة نفوذ سياسى يفتح الباب أمام طموحاتها الجديدة . وهذا ايضا صراع طبقى . فحتى الصراع بين شرائح الطبقة الواحدة وفئاتها صراع طبقى • واذا كانت الطبقة فى مجموعها تحاول توجيه نيران حربها الى غيرها من الطبقات و محاولة مستميتة لوأد الصراع الطبقى فى مواجهتها ، فهى فى غمرة هذا التوجه ، تفعل صراعاتها الداخلية فعلها ، وتنتظر اللحظة المناسبة والمواتية لتؤتى اكلها وثمارها .. ويأتى عام ١٩٧١ ليعبر عن انتصار شريحة من تلك الطبقة نمت وترعرعت فى ظل الظروف التى كانت سائدة حينذاك ، ويتجسد هذا الانتصار فى تحويل نفوذها الاقتصادى الى نفوذ سياسى وامساكها بمقاليد الامور فى البلاد •

ان محاولة كبت الصراع الطبقى فى مجراه العام والصحيح والصحى والسلمى أدى الى اخلال بالتوازنات الطبقية لحركة المجتمع ، وكانت نتيجة تلك المحاولة ، اعطاء الفرصة لجانب من هذا الصراع أن ينمو ويجد فرصته • الا ان هذا الجزء الذى نما وأخذ فرصته كان الجزء الذى لا يرفض الديمقراطية والحريات السياسية الحقيقية فقط ، ولكنه بحكم نموه الطبقى ووضعه الجديد يرفض ايضا الاجراءات التى نما فى ظلها ونهب وسلب وأثرى من خلالها حتى الامتلاء • فبعض تلك الاجراءات قد غدا بعد الوضع الجديد لهذه الشريحة ، قيدا على نموها . لقد اغلق الطريق امام المسار الطبيعى ، والذى يجب أن يكون ، فانفتح امام المسار الذى ما كان يجب ان يكون • وبنفس الطريقة التآمرية التى اختطتها هذه الطبقة فى ممارساتها السياسية مع الغير ، تم الانقلاب عليها من داخلها وبنفس أسلوبها التآمرى • وهكذا

لم تلد خطيئة العداء للحريات السياسية غير تلك الشريحة التى جاءت ومن قلب الطبقة ذاتها ، لتحاول محو كل شيء وهدم كل شيء ٠

جاءت هذه الشريحة لتتخذ من انعدام الديمقراطيــة خــلال المرحلة السابقة ستارا تختفى وراءه وتثبت اركانها بالعزف على اوتاره ، حتى ان تمكنت واستقرت لها الامور ، اغرقت البلد فى سلسلة من القوانين المعادية للحركة الجماهيرية ، تكاد تتجاوز خلال حقبة من الزمن محدودة ، كل ما صدر فى تاريخ البلاد ، ربما منذ الاحتلال الاستعمارى ٠ كانت هـذه الشريحة بوضعها الطبقى المتميز لا تنفصل فقط عن مجموع القوى الوطنيــة المضروبة ديمقراطيا خلال المرحلة السابقة ، بل هى تنفصـل ايضــا عن الراسمالية الوطنية ذاتها والتى كانت يوما ما جزءا منها ، وغدت اليوم فى مواجهتها . واصبحت تلك الفئات من الرأسمالية الوطنية ، والتى كانت حتى الامس القريب فى السلطة ، جزءا من المعارضــة الجـديدة ، تنــادى بالديمقراطية والحريات السياسية العامة ، التى رسخت هى يوم ان كانت فى السلطة اشكال معاداتها ومنهج حرمان الشعب منها ٠

ولم يكن هـــذا التكبيل للشعب بكل تلك القوانين المعـــادية له ، الا تحضيرا وتمهيدا لمــا هو اخطر وافدح ٠ كانت هى التمهيد الضرورى واللازم للاستسلام للعدو ٠

كانت هذه الشريحة المنتفخة اقتصاديا ترى طبقا لرؤيتها الطبقية ، ان تحقيق مصالح الوطن ، تعنى بالنسبة لها تحقيق مصالحها هى ٠ فالوطن بالنسبة لها ينحسر عن كل القوى ما عداها . ويكون الطريق الى تحقيق مصالحها ، هو تسويد اسلوبها الذى اعتادته ومارسته ٠ فتصبح الرشوة والاختلاس وكلّ اشكال الفساد هى النمط الجديد السائد والذى تروج له كل ابواق تلك الشريحة باعتباره النموذج الذى يجب أن يحتذى . ولمــا كانت هذه الشريحة محدودة للغاية وتتضارب مصالحها وتتعارض مع مصـــالح مجموع القوى الوطنية وجماهير الشعب الكادحة ، فانها تبحث عن أمنهــا وأمانها ، اى استمرار اسلوبها فى تحقيق الثروة وباسرع السبل على حساب الملايين ، وهى تجد هذا الامن والامان والسند والدعم فى القوى الاجنبيــة المعادية للشعب . ومن هنا تتعارض وتتناقض مع كــل الشعب وطنيـــا واقتصاديا وسياسيا وديمقراطيا ، وتصبح بسبب هذا الانتماء الطبقى فى صف اعداء الشعب ، لا جزءا منه ٠ ولذا تقفز الى تل ابيب ، الى العـــدو الصهيونى ومن ورائه الاستعمار الامريكى لتشكل ثالوثا جديدا ، لا بالنسبة لمصر وحدها ولكن بالنسبة للوطن العربى كله ٠ وتستسلم له باعتبار أن هذا هو انتماؤها الطبيعى ، وهذا هو اختيــارها الطبقى . وتغطى هـذا

الاستسلام بكل المزاعم التضليلية عن السلم والسلام . وتعيد مصر الى حظيرة التبعية الاستعمارية ، وتفتح أرض الوطن للاستعمار ونفوذه العسكرى والاقتصادى والسياسى . وتصبح هى وكيلة عنه وشريكة صغرى تقوم باعمال السمسرة وتلقى العمولات عن العمليات التى يتفق هذا الثلاثى المعادى على تنفيذها . وهى فى سبيل ذلك تحاول ضرب كل ما تحقق من انجازات فى مجال الاستقلال والسيادة الوطنية والاقتصادية والسياسية . كل ما كان معارضا للاستعمار . كل ما كان محققا لخطوات فى اتجاه الثورة المصرية والقومية العربية المتحررة . وتختل كل القيم والمعانى المتعارف عليها . فيصبح هؤلاء الذين اعادوا مصر الى التبعية ومكنوا للعدو الصهيونى هم الوطنيون ، والوطنيون الحقيقيون عملاء وخونة . ويعطى هؤلاء السادة الجدد لانفسهم حق تكفير كل من لا ينهج نهجهم . ويهاجمون كل معارض لهم ولسياساتهم ومنهجهم باعتباره معارض للوطن والوطنية . ويدمغون كل من يهاجم زعيم هذه الشريحة وقائدها بالخيانة والتشكيك واثارة البلبلة والخروج على المصرية . ويصبح كل تاجر مخدرات ولص وقواد وتاجر عملة وسوق سوداء وسارق أقوات الفقراء بطلا قوميا ونموذجا يحتذى . ويغدو الفساد وساما يتباهى به صاحبه ، والشرف غفلة وبله ولعنــة تصيب صاحبها بالبؤس والفاقة . وأصبحت هذه الشريحة بما حققته من نهب وسلب تحميه سيادة قوانينها التى لا تنتهى ، تعيش اسعد ايامها وازهى عصورها . ولما كانت ، كما قلنا ، ترى ان مصلحة الوطن تنحصر فى تحقيق مصالحها هى ، فقد اصبح زعيمها يباهى ويفاخر بان مصر كلها تعيش اسعد ايامها وازهى عصورها . كانت الفترة السابقة على هذه الشريحة تعالج الصراع الطبقى ، ضمن مواجهتها له ، باتخاذ اجراءات اصلاحية ، تتنازل فيها عن جزء لتفوز بالبقية الساحقة من الكل . أما تلك الشريحة فقد كانت تسعى الى الفوز بالكل دون جزئية تلقى بها الى الغـير ، وفى اسرع وقت ممكن . كان شعارها العملى ، اسرق وانهب واهرب أو هرب كل ما غنمت . وبذا اطلقت للصراع الطبقى كل عوامل العنف والحـدة . الثراء الفاحش الاستفزازى يتحدى الفقراء والبسطاء والشرفاء وعجزهم ، ويخطف كل لقمة تدخل احشائهم. يحدث ذلك جهارا نهارا ، يدعمه جهاز الأمن والامان الداخلى والخارجى الذى يحمى تلك الشريحة . واخيرا لم تعد تلك الفئة فى حاجـة للتستر وراء شعارات عن الديمقراطية الزائفة والمضللة . فافصحت عن ديمقراطيتها ذات المخالب والانياب ، ديمقراطية المفرمة والسجن والاعتقال والاغتيال . وانفضحت المرحلة كمرحلة معادية للديمقرطية معادية للوطنية ، تفرض على مصر الفساد والتبعية . ولتنتفض كل القوى الوطنية ، تدافع عن مصر الثورة الوطنية الديمقراطية . ويرتد العنف الذى زرعه زعيم تلك المرحلة وقائدها عنفا مضادا ورصاصا ينهى حياته .

اليست تلك تجربة فريدة النضج فى العالم الثالث ؟ اليست دراسة المرحلة منذ عرابى حتى السادات ، دراسة لحركة الثورة الوطنية الديمقراطية ، وهى مرحلة ما زالت مصر تعيشها وتسعى الى استكمالها كثورة تحررية ديمقراطية تمهيدا للاشتراكية ؟ اليست دراسة حركة الطبقات والحراك الاجتماعى ، وما أصاب الشعب المصرى نفسيا ووجدانيا ، خلال كل تلك الحقبة من تاريخ مصر ، ضرورة للتعرف على مستقبلها بصورة علمية صحيحة ؟ الا تطرح هذه التجربة الفذة ، القضية الابدية التى ناضل الشعب المصرى من أجلها ، وما زال يناضل ، الا وهى قضية الحريات السياسية ، قضية حريته فى الاختيار وممارسة ارادته التى هى ارادة الثورة ، وانتمائه الذى هو الانتماء المصرى العربى الاصيل ؟ اليست دراسة مثل هذه التجربة الناضجة ، اضافة هامة وجوهرية للفكر الانسانى ؟

ان هذا الكتاب يطرح رؤيتى خلال فترة محددة تمتد ما بين عامى ١٩٥٨ ، ١٩٦٥ • فترة اراها حاسمة ومصيرية ، فيما آلت اليه البلاد منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى ١٥ مايو ١٩٧١ وما تلا ذلك •

ان هذا الكتاب ليس تصفية حسابات ، لكنه شهادة شاهد عاش تلك الايام ، من موقع سياسى معين ، وبرؤية خاصة ، تقوم على اختيار ارادى وانتماء طبقى • ومن هنا فان هذه الشهادة ، من هذه الزاوية ، تعبر عما عاشه قياسا على معتقداته الفكرية وقناعاته السياسية آنذاك •

انها شهادة حتى لا ننسى ، اذ لا يجوز فى عالم السياسة ومصائر الشعوب وتجاربها أن يرفع أحد شعار عفى الله عما سلف . فان كان ذلك جائزا فيما يخص الفرد شخصيا ، فانه غير جائز ، ابدا ، فيما يخص الوطن ويمسه • فتجارب الشعوب التى تدفع فيها الثمن غاليا ، لا يملك انسان ان يهدر هذا الثمن ويضيعه . ان مدرسة الشعوب هى تجاربها التى تتعلم منها • والخطأ هنا مهما كان ضارا يصبح مفيدا ان تعلمنا منه جديدا يجنبنا مشقة التكرار • ويغدو حتى السلبى ، ايجابى ان درس بامانة ، ونقد باخلاص ، تفاديا للوقوع فيه مرة أخرى ، وتجنبا لاضراره وكوارثه • وان كان البعض يرى فى تجارب الشعوب الاخرى افكارا مستوردة ، وفى دراسة الماضى نبشا للقبور ، فهل يبغى هؤلاء السادة ان نجعل من الشعب المصرى حقل تجارب لكل من شاء وأراد واعتلى صهوة السلطة ! ان تجارب الشعوب هى كنزها الثمين ، الذى يجب أن تجلوه وتستخرج منه ما يفيدها فى دفع ثورتها . ان مواقف الطبقات التى قادت المعارك المختلفة خلال المراحل المتتالية درس بليغ لكل الشعب يتعرف من خلاله على قدرات تلك الطبقات والفئات وحقيقة اهدافها ، ومدى ارتباط تلك الاهداف باهدافه هو . مدى

الالتقاء ومدى التعارض والتناقض . ومن هنا يمارس اختيـاره الارادى والانتقاء الطبيعى لقيادته الحقيقية القادرة على تحقيق مصالحه وانجـاز ثورته . قيادة لا تساوم ولا تهادن فى حقوقه التى هى حقوق الوطن . قيادة ترتبط فى الاسـاس بالحقل المصرى والمجتمع المصرى والفكر المصرى والواقع المصرى . قيادة تتحرك به وتعمـل له ، ولا تعطى لنفسها حق الوصـاية وتمنحه هو صفة القاصر .

يجب الا ننسى حتى لا ندخل متاهات نعلم مسـبقا مدى ظلمهـا واظلامها . يجب الا ننسى حتى نجنب شعبنا آلاما تبدو كالقدر المحتوم سواء حكمه الاجنبى او المصرى . ان امانة المسئولية تعنى امانة الكلمـة وامانة الشهادة . فليحمل كل من عاش فى موقع المسئولية سـواء كان حاكما أو محكوما - ما دام اختياره حتى اليوم قائما على الانتماء الحقيقى لقـوى الثورة المصرية - قلمه وليكتب شهادته وقائعا وتقييما . وليكن مجمـوع ذلك دراسة للواقع المصرى كما كان وكما يجب ان يكون . فكل شـهادة سوف تحدد اختيارا كان وما يزال ام زال . تحدد انتماء كان وما يزال أم تحول وانتقل . ان الكثير من تاريخ تلك الفترة حتى اليوم ما يزال اسرارا فى صدور أصحابها ، الا أن هذه الاسرار ليست ملكية خاصة . انها ملك الشعب ومن حقه ان يطلع عليها . ومن هنا كانت الشهادة امانة يجب ان ترد لاصحابها طال الزمن أم قصر .

ان احدا لا يستطيع ان يوقف حركة التاريخ . لكن السؤال المطروح هو ، من منا يعمل فى اتجاه هذه الحركة يدفع بها ويذلل العقبات من أمامها ويرشدها بالفكر الواقعى الصادق ، ومن منا يعمل فى الاتجاه المضـاد لهذه الحركة ، يود أن يوقفها حيث وقفت مصالحه وتحققت . من منا يقف مع الشعب ، ومن منا يقف فى مواجهته ؟

الاختيار مطروح ، وعلى كل ان يحدد بصورة ايجابية موقعـه . والحسم فى النهاية للارادة الواعية والانتماء الحقيقى لجماهير الشـعب الكادحة ، لملايين المصريين الذين لم يمكنوا بالقسر والقهر حتى الآن من أن يبتوا فى مصيرهم ويشقوا الطريق الذى اختاروه .

الانسان فى جوهره اختيار وارادة ، وكل من يحاول قتل هذا الاختيار وتلك الارادة ، انما هو فى الواقع يحاول قتل الانسان . لكن ، من ذا الذى نجح فى تحقيق تلك الكارثة على مدى التاريخ ؟ لا احد فيما مضى ، ولن يكون هنا لك ذلك الاحد فى المستقبل . فذلك الاختيار وتلك الإرادة هى التى حملت الانسـان من الغابة والكهف الى اجواز الكون المجهول لاستجلائه . وسيظل

الاختيار وتظل الارادة هما القوة الدافعة لحركة المجتمع والكون حتى يحقق الانسان باختياره وارادته أفضل مجتمعات البشرية ٠

***

ولا يفوتنى فى ختام هذه المقدمة ان أثمن بالتقدير الكبير جهد كل هؤلاء الذين أجهدوا ذاكرتهم وانفسهم ليدلوا بشهاداتهم ٠ فقد كان تلك عونا جوهريا بدونه ما كان لهذا الكتاب ان يصدر ٠ ان بعض الشهادات رغم صغر حجمها كانت بمثابة الحلقة التى ربطت للعقد المنفرط من الوقائع والاحداث ٠ كما كانت الشهادات التى عرضت افكار ووجهات نظر اصحابها فيما جرى من احداث هامة للغاية ، حيث انها تعيد تسجيل الفكر الذى حكم الموقف ، أى موقف ، وقاد اليه ٠ وبذلك تفسر الاحداث والوقائع لا على اساس ذاتى أو تقديرى ولكن على اساس فكرى ، وحتى لا يوضع فى فم أحد غير ما قاله ، ولا يدخل فيه فكر دخيل عليه ٠ ثم يأتى التقييم بعد ذلك للفكر والحدث . وهو أمر يملكه الكاتب كما يملكه القارىء ، قد يختلف فيه وقد يتم الاتفاق حوله جزئيا أو كليا ، الا ان الامر الذى لا يجب الاختلاف عليه هو الوقائع ذاتها والافكار التى كانت بعيتها .

ورغم الجهد الذى بذله الكثيرون مشكورين ، الا اننى اعتبر هذا الكتاب دعوة للجميع ان يدلوا بشهاداتهم والا يحتجزوا فى صدورهم مخزونا ليس ملكا لهم ، انما هو ملك لمن جاء بعدهم من اجيال ، حتى تتصل الارحام ولا يبدأ الجدد كالايتام ، بلا ماضى ولا تاريخ ولا تجربة ولا عبرة ٠ ان الاجيال الجديدة من ابناء شعبنا لها حق الشرع فى هذا الميراث الضخم ٠ ومن حقها ان ترث ما هو ملك لها ، من واجبنا جميعا ان نيسر عليها ٠ فهذا الميراث ان خيرا وان شرا هو لها ، وعليها ان تنتقى وأن تختار ، فستغدو تلك مسئوليتها ، بعد ان اصبح الامر واقعا على عاتقها ، وعليها ان تمارس ارادتها وتحدد انتقاءاتها ، فذلك الذى يجب ان نفعله هو أقل ما يجب أن نقدمه تأكيدا لايماننا باتصال الاجيال واتصال النضال وعدم الغرق فى دوامة السلبية أو السقوط فى هوة اللامبالاة ٠

الشهادة تعريف ومعرفة يجب أن تنتقل لمن بعدنا . والشهادة أمانة يجب أن ترد لاصحابها ٠ والشهادة ميراث لا نملك ان نذهب به الى القبر . انما يجب أن نوثقه تاريخا أو وجهات نظر فى التاريخ هى حق لابنائنا ، حتى لا يذهب فى طى النسيان ، جزء هام من حياة الانسان ٠

فخرى لبيب

يناير ١٩٨٤

الباب الأول

١٩٥٨

عــام القمــة والأزمــة

الفصل الأول

عام ١٩٥٨ محصلة اعوام سابقة

عام ١٩٥٨ هو واحد من ابرز الاعوام فى تاريخ مصر القريب ، وكذا فى تاريخ المنطقة العربية . كانت مصر قد خاضت معركة وطنية ، عام ١٩٥٦ ، انتهت الى دحر العدوان الاستعمارى الصهيونى عليها والغاء المعاهدة المصرية - البريطانية وتمصير كل الشركات والبنوك الاستعمارية ، على وجه التقريب ، وغدا عبد الناصر بطلا وطنيا مصريا ، بطلا قوميا عربيا .

كان العدوان الاستعمارى امتحانا قاسيا لقادة ٢٣ يوليو ، وفى ذلك يقول عبد اللطيف البغدادى : « ... ونحن فى طريقنا الى الاسماعيلية .. قال عبد الناصر بصورة مؤثرة ومحزنة بعد ما شاهد العربات والدبابات على جانبى الطريق ، « انها بقايا جيش محطم ... » كما قال بالانجليزية ، لقد هزمت بواسطة جيشى » . ورأينا اهالى الاسماعيلية يحملون السلاح وهم « ... اقرب الناس الى منطقة القتال ، وهم يسيرون بهذا الهدوء وهذه الثقة ... مما ساعدنا على استرداد بعض معنوياتنا التى كنا قد فقدناها ، وبدأت الثقة تعود الى نفوسنا »(١) .

وانتهى العدوان بانسحاب قوات المعتدين ، وهلل الشعب ، فقد « مضى زمن الاستعمار » . وجاء الزمن الذى يفترض فيه ان يحصل للشعب على حقوقه التى دفع ثمنها غاليا ، أجيالا وراء أجيال . الا ان الطبقة الحاكمة ، وعلى رأسها قيادة يوليو ، استعادت « الثقة فى نفسها » ، وبدأت تخطط للانفراد بكل مكاسب هذه المعركة . وتسعى للحصول على امتيازات ، لم تدفع فيها غير القليل . وحتى تحقق ذلك ، كان لابد لها من ابتداع اشكال تنظيمية « جماهيرية » ، واستصدار قوانين وقرارات تستهدف تجميع الشعب فى وعاء واحد ، يخضع حركة كل الطبقات لقبضتها ، تكون هى فيه الوصى المطلق ، وكل الشعب فى موضع القاصر الذى لا يملك من أمره شيئا .

ان هذا الذى تجسد سافرا عام ١٩٥٨ ، لم يكن وليد هذا العام وحده . كان وليد اعوام سبقت ، ربما تعود الى نشأة القيادة التى امسكت بزمام الامور ، والى الظروف الخارجية والداخلية التى تمكنت فى اطارها من الوصول الى السلطة . كان محصلة مكونات ، لابد من تناولها ، حتى يمكن فهم ما حدث ، خلال هذا العام .

---

(١) مذكرات عبد اللطيف بغدادى . الجزء الأول .

الضباط الأحرار حزب سياسى

ان الحزب السياسى فى ابسط تعريف له ، هو مجموعة من الناس ، التفت حول برنامج يحقق أهدافا محددة ، والتزمت بلائحة أو قواعد وضوابط تحدد العلاقة فيما بين اعضائها ، واجبات وحقوقا . وهى فيما فعلت ، قد عبرت ، كطليعة ، عن مصالح طبقة بذاتها ، أو شريحة من طبقة . وهى تسعى ، كتنظيم ، الى تنفيذ تلك الاهداف ، بالاساليب الشرعية أو غير الشرعية ، من خلال الوصول الى الحكم أو السلطة .

فان طبقت تلك القواعد العامة على « تنظيم الضباط الاحرار » ، لاتضح التالى :

١ ـ برنامجيا :

تلخص برنامج الضباط الاحرار فى النقاط الست . وهى فى مجموعها تشكل برنامجا وطنيا ديمقراطيا (بغض النظر مؤقتا عن التطبيقات اللاحقة) . ونحن ان قارنا هذا البرنامج ، وقت صدوره ، ببرامج القوى البورجوازية الوطنية المصرية ، حينذاك ، لما اختلف عنها ، وان كان فى مظهره العام ، أكثر تقدما من بعضها ، حيث نص على القضاء على الاقطاع ، وعلى سيطرة رأس المال على الحكم .

٢ ـ لائحيا :

كان لهذا التنظيم هيكله الذى يتحدد فى الجمعية التأسيسية (قيادة مركزية) وبعض المناطق (قيادات وسطى) ، وقواعد لهذه المناطق . ثم هنالك تشكيلات تنظيمية داخل افرع الجيش المختلفة . أى هنالك الشكل الهرمى للتنظيم ، والانتشار القاعدى فى الاماكن المؤثرة ، عندما يتحرك هذا التنظيم .

العضوية فى التنظيم نوعية ، من الضباط متوسطى الرتب وصغارها . ثم يأتى التزام الاعضاء بعضوية هذا التنظيم فقط دون سواه ، بغض النظر عن الانتماء الفكرى أو الايديولوجى لهذا العضو . ومن يخرج عن هذه القاعدة يتم فصله ، مهما كان موقعه التنظيمى .

الاختيار أو الانتخاب ، لموقع المسئولية ، يتم بناء على دور هذا المسئول فى الحركة وقدراته القيادية ، بغض النظر عن الاقدمية العسكرية . أى أن الاختيار هنا ، رغم عسكرية التنظيم ، اختيار سياسى .

٣ ـ جماهيريا .

استخدم التنظيم المنشور لتوصيل اهدافه الى جماهيره من الضباط . كما استفاد من كل العلاقات والانتماءات التاريخية لأعضائه ، لخلق علاقات من التنسيق يمكن ، تجاوزا ، تسميتها بالعلاقات الجبهوية ، مع الاخوان المسلمين والوفديين والشيوعيين . وكانت علاقته بهذه الجماعات السياسية تتوطد ، أو تضعف ، طبقا للظروف السياسية المختلفة ، وقرب أو بعد هذه الجماعة أو تلك من رؤيته السياسية والاجتماعية (أى برنامجه) .

وقد شارك هذا التنظيم فى أهم ما يخصه ، الا وهو تدريب الفدائيين ، وامدادهم بالسلاح ، والاشتراك الفعلى لبعض اعضائه فى معركة القنال . كما عمد ، شأنه شأن أى تنظيم سياسى ، الى اختبار قوته بين جماهيره ؛ كما حدث فى معركة نادى الضباط ، حيث استطاع رجاله ان يفوزوا فى الانتخابات على رجال السراى من الضباط .

ومن هنا يمكن القول ان ما سمى « بتنظيم الضباط الاحرار » ، كان حزبا سياسيا يعمل فى صفوف الجيش ، أو حزبا عسكريا يعمل بالقضايا الوطنية والسياسية العامة . أى أنه كان حزبا سياسيا وطنيا عسكريا . الا ان هذا الحزب له خصوصيته التى تميزه عن الاحزاب المدنية ، والتى يلزم ان يلقى بعض الضوء عليها .

خصوصية الحزب العسكرى :

ان الحزب السياسى هو اعظم مدرسة لأعضائه يتعلمون فى داخله كيف يتعاملون مع بعضهم البعض ، وبالتالى كيف يتعاملون مع جماهيرهم . والحزب المدنى الذى ينشأ بين الجماهير ، ينمو ويتطور بالعمل بها ومن أجلها ، تصوبه ان اخطأ ، وتدعمه ان أصاب ، بل وتهجره أن سلك ، فى قيادته ، مسلك الصفوة ، فعمل بالوكالة عنها أو الوصاية عليها وبذا يكون الحزب السياسى افرازا طبقيا صحيحا وصحيا .

اما الحزب العسكرى فهو ينشأ فى قلب واحد من اخطر أجهزة السلطة . ولذا لابد وأن يتسم بأعلى درجة من السرية والانضباط . وتغدو الممارسة الديمقراطية فى داخله ، نوعا من الترف الذى لا يمارس الا فى اضيق الحدود والصور . فان اضيف الى الظروف المحيطة الضاغطة ، طبيعة عضويته ، التى تقتصر على الضباط ، أى على مكونات اعتادت ان تأمر

وتؤمر ، تطاع وتطيع ، فان ذلك لابد وأن ينعكس على سلوكها الحزبى ، الذى لن يتجاوز ، مع بعض المبالغة ، شعار : « تمام يا أفندم » .

ومن هنا ، فان قضية الخلاف فى الرأى ، والصراع حول هذا الاختلاف، وحسمه بالشكل الديمقراطى الصحيح ، أمر يكاد يكون مستبعدا ، الا فى حدود ضيقة ، يغلب عليها طابع الممارسة التآمرية ، أكثر من طابع الممارسة الديمقراطية . ولما كان الحسم الصحى ، لأى خلاف حزبى ، هو الممارسة من خلال الجماهير صاحبة المصلحة ، فى القضايا محل الخلاف ، وهى مسألة مستحيلة ، لخصوصية هذا الحزب ، فان مسلكه مع جماهيره ، من الضباط ، لابد وان يتسم بسمة الصفوة ، التى تبلغ رسالة ، لها قدسيتها ، ولا مكان للجدل حولها .

ان مثل هذه المدرسة الحزبية لا نملك الا أن تقدم خريجين لا يملكون من المعرفة غير ما تعلموا « فالسمع والطاعة » تلخص خبرتهم وتجربتهم التى لابد عند تعميمها ، على الشعب كله ، أن تكون محاولة لا تتوقف من أجل عسكرة الجماهير والحياة المدنية كلها .

واذا كان الحزب لم يعتد الرأى والرأى الآخر فى داخله ، فهو لن يقبل بالرأى والرأى الآخر فى خارجه . وان كان لا يقبل بالخلاف فى مجرد الرأى ، فهو بالضرورة لن يقبل بوجود أى حزب أو تنظيم خارج حزبه أو اطاره التنظيمى . لقد قام هذا الحزب ونشأ من ضباط ذوى انتماءات عقائدية تتراوح بين اليمين واليسار . وهو قد رفض ، منذ البداية ، استمرار هذه الانتماءات تنظيميا ، أى رفض الشكل الجبهوى ، وتمسك بنمط الحزب الواحد . ان للوطن الواحد ، لا يمكن أن يكون به غير جيش واحد ، وبالتالى لا يمكن أن يوجد به غير حزب عسكرى واحد . ان وحدانية التشكيل العسكرى ، قد انعكست فى وحدانية الكيان السياسى الذى يعمل داخل هذا التشكيل العسكرى . فان انتقلت التجربة الى مجال الحياة المدنية ، فليس هنالك غير حزب واحد ، للشعب الواحد .

ان للحزب السياسى ذاتيته ، كما للافراد ذاتيتهم . ونجاح الحزب العسكرى فى تنفيذ الثورة ، أى نجاحه فيما لم ينجح فيه الآخرون (طبقا لرؤيته هو) ، يعني طبقا لفهمه البراجماتى ، صحة تجربته ، هو ، منفردا ، مما يجعله يضفى على نفسه دورا متميزا ورسالة خاصة . ويترجم ذلك عمليا باعتبار ان كل ما يصدر عنه فوق الخطأ والمساءلة ، وانه ليس هنالك ارادة غير ارادته . وأن كل من يخرج عن تلك القاعدة ، التى تشبه الحق الالهى ، فردا كان أو جماعة ، ملتزما بتنظيم آخر ، أو غير ملتزم بغير

افكاره الخاصة ، يكون مستحقا للعنة ، ويغدو عدوا ، أو عميلا ، أو خائنا ، وصاحب افكار ونظريات مستوردة . ويصبح من حق هذه الصفوة القدسية أن تجرده من وطنيته ، وتعلن تكفيره سياسيا ، مما يستوجب زجه ـ عقابا له ـ فى جحيم أرضى ، أو فى مطهر يغتسل فيه من أفكاره ، حيث يعلن توبته ، لاعنا افكاره ، مستنكرا كل معتقد آمن به ، على غير ايمان الحزب العسكرى .

ان هذا الحزب وقد نشأ على التعامل مع من يثق بهم ، فقط ، فانه ، لابد ، فيما بعد ، أن يتعامل مع الكافة بنفس القياس والمعيار . وبذا يطرح فى التنفيذ العملى نظرية « أهل الثقة وأهل الولاء » ، بغض النظر عن قدراتهم او نزاهتهم .

ان الحزب السياسى المدنى ، الذى ينبت من بين الجماهير ، يحقق أمنه السياسى والتنظيمى ، بتوعية الجماهير ، والانتشار الفكرى والتنظيمى بين صفوفها . أما الحزب العسكرى ، والذى ينبت فى قلب الجيش ، فهو لا يعرف عن الامن الا الأمن الاستخبارى . ولذا فانه ، عندما يصل الى السلطة ، كحزب سياسى ، يعتمد فى الأساس على اجهزة الأمن ، لتحقيق أمنه السياسى . بل هو يحول الذين يرتبطون به سياسيا ، الى كتبة تقارير أمنية ، أى انه يشيع النهج البوليسى فى العمل السياسى ، ويتخذ من التخويف والارهاب ، لا التوعية والعضوية الاختيارية سبيلا الى انتشاره وحماية نفسه وتحقيق أمنه .

والحزب العسكرى عندما تحرك لتنفيذ الثورة ، اعتمد على القوات المسلحة لتحقيق هذا الغرض . لم يعتمد على حركة الجماهير المدنية ، بل اعتمد على الضباط والجنود والدبابة والمدفع والطيارة ، أى اسلحة الجيش المختلفة . ومن هنا ، فان استمراره فى تنفيذ برنامج الثورة (من وجهة نظره) آرتبط بالحفاظ على السيطرة على الجيش ، وسيطرة الجيش على الحياة المدنية . ومن هنا يقول الفريق أول محمد فوزى عن القوات المسلحة : « انها القوات التى تعتبرها القيادة اداة التغيير الثورى »(١) . وبهذا الفهم، يعطى العسكريون امتيازات خاصة . وتنتقل كثير من السلطات المدنية اليهم ، فيمسكوا بمفاتيح الصناعة والاقتصاد والثقافة والتعليم والاعلام والسياسة والتشريع والتنفيذ والقضاء . ويشكل الحزب العسكرى بيروقراطيته العسكرية . وتتحول اهتمامات قادة وضباط القوات المسلحة ، من الحدود وحماية الوطن ، الى مجالس الادارات ومواقع المال

---

(١) « حرب الثلاث سنوات » ١٩٦٧/١٩٧٠ ـ مذكرات الفريق أول محمد فوزى .

والنفوذ والسلطة التنفيذية والادارية ، تختل كل القيم العسكرية ، كما تختل كل الاوضاع المدنية .

ان عسكرة الحياة المدنية ، ومدينة الحياة العسكرية ، تخلط كل الأوراق ، وتذنب كل المعايير .

ان حزب الضباط الأحرار ، رغم اشتراكه مع باقى القوى والأحزاب الوطنية ، فى كونه حزبا سياسيا وطنيا ، الا أنه يتميز عنها بسمة خاصة ، هى كونه حزبا عسكريا ، له ظروف نشأته الخاصة ، ومكوناته الخاصة ، وجماهيره الخاصة . ان تلك الخصوصية تجعل منه مدرسة أخرى متميزة فى الممارسة السياسية ، سواء فى داخله أو فى خارجه ، كما تشكل له منهجه فى كل ممارسته وعلاقاته وتأثيراته .

الا ان هذه الخصوصية ، بمفردها ، لا تكفى لتفسير كل ما حدث من مواقف واجراءات ، والا فانها تكون خصوصية مجردة . ان معرفة الطبقة التى وظفت هذه الخصوصية فى خدمة مصالحها أو التعبير عنها ، أمر ضرورى للتعرف على تلك الظاهرة ، مكتملة ، قدر الامكان .

طبيعة الطبقة التى يمثلها الحزب العسكرى :

ان الجيش المصرى بطبيعة تكوينه والانتماءات الطبقية لضباطه ، وخاصة الصغار منهم ، ووجود النفوذ الأجنبى الصارخ فى مواجهة مشاعرهم الوطنية ، واحساسهم بالقهر السياسى والاجتماعى ، كل ذلك قد شكل ارضية خصبة لنمو اتجاهات وتنظيمات رافضة للاوضاع القائمة ، ساعية الى التغيير . الا ان القضية الهامة ، دائما ، هى : التغيير فى اى اتجاه ؟ اى للتغيير لحساب من ، من داخل مصر ؟ ان اى تغيير يجرى انما يتم ، فى النهاية وبشكل رئيسى ، لحساب طبقة أو شريحة من طبقة أو فئة اجتماعية محددة . والحزب السياسى (مدنيا كان أم عسكريا) هو أداة تحقيق تلك المصالح . أن التوظيف الطبقى للحزب ، لا يأتى عفو الخاطر أو بناء على رغبات فردية ، انه يتحدد فى الاساس بالانتماء الطبقى لهذا الحزب والذى يتحدد بأهدافه النهائية ، التى تتجسد فى برنامجه العام .

ان برنامج الحزب العسكرى المعادى للاستعمار والاقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم ، انما كان يعبر عن طموح القطاعات الوطنية من الرأسمالية المصرية ، أو ما اصطلح على تسميته بالبورجوازية الوطنية . وهى البورجوازية الساعية الى تخليص سوقها المحلى من قبضة الاستعمار

والراسمالية الكبيرة المرتبطة به والمشاركة فى السلطة مع السراى وشبه الاقطاع . وهذا البرنامج يلتقى فى بعض اتجاهاته العامة مع الاتجاهات البرنامجية العريضة لليسار المصرى • الا ان الفرق بين البرنامجين ، هو أن برنامج البورجوازية الوطنية ، يمثل برنامج الحد الاقصى لحركتها الوطنية ، أى الحد الذى يخلص لها السلطة من السيطرة السياسية والاقتصادية للاستعمار والطبقات المتعاونة معه داخليا ، حتى يخلو لها السوق ، فتتاح لها فرصة النمو الى قمة المجتمع ، سياسيا واقتصاديا ، واجتماعيا ، فرصة ان تصبح البديل الذى يمسك بالسلطة ، وينفرد بها ، متخذا منها اداته لتحقيق مصالحه فى الاثراء عن طريق الاستغلال . اما برنامج اليسار ، فهو بناء مرحلى يغطى مرحلة استكمال الثورة الوطنية الديمقراطية ، كخطوة على طريق بناء الاشتراكية التى تحقق مصالح الاغلبيه لا مصالح اقلية جديدة .

وتتميز طبقة البورجوازية الوطنية بانها :

(أ) محدودة القدرات ، جامحة الطموحات • تخشى الانحدار الى اسفل . ترفض الطبقات التى تعلوها ، لا رفضا لدورها الاجتماعى ، فى الأساس ، لكن لأن وجود هذه الطبقات يحد من نموها ، ويفرض نفسه على المجالات التى تعطيها فرصة الازدهار والصعود الى أعلى •

(ب) تسعى الى بناء مجتمع رأسمالى ، فى عالم لم يعد النظام الرأسمالى فيه ، هو النظام السائد أو الصاعد .

(ج) تعادى الاستعمار من أرضية مصالحها فى استخلاص السوق المصرى لحسابها ، لتمارس هى فيه ، بديلا عنه ، نفس العلاقات الرأسماليه والاستغلالية • أى أن تناقضها مع الاستعمار مرهون ، فى الأساس بقضية السوق المحلى .

(د) لا تستطيع ، بقدراتها المحدودة ، مواجهة الاستعمار والقوى الرجعية بمفردها • ولذا فانه لابد لها من الاستناد الى حركة الجماهير العارمة ، الرافضة للاستعمار والاستغلال • انها تسعى الى تحقيق مصالحها ، بمواجهة من يعلوها ، اعتمادا على من هم دونها • ويوقعها هذا الوضع فى تناقض مزدوج ، أى يجعلها ذات طبيعة مزدوجة • ان طرد الاستعمار والقوى القديمة ، بمعاونة الجماهير ودورها الاساسى والفعال ، يفتح أمامها السوق المحلى على مصراعيه ، الا انه فى ذات الوقت ، يفتح

الطريق واسعا امام تصاعد الحركة الجماهيرية واضطراد نموها ، مما يهدد طموحات تلك البورجوازية في البناء الرأسمالي الخاص بها • لذا فهي تواجه الاستعمار ، بحركة الجماهير ، تضغط بها ، عليه • وهي تهادن الاستعمار وتساومه ، ان تصاعدت حركة الجماهير الى الحد الذي يهدد مصالحها • ويضعها ذلك بين نارين : نار الماضي ونار المستقبل • ومن هنا ، فانها ما ان تصل الى السلطة وتحقق ، حسب رؤيتها ، سيطرتها المحلية على السوق ، أي خلاصها من الماضي ، حتى تستدير بنيرانها الى القوى الجماهيرية التي حملتها الى السلطة ، خشية أن تحرمها الجماهير من الاستئثار بالسوق والانفراد بها ، أي تعمد الى مواجهة المستقبل ، محاولة تجميد الوضع لصالحها هي فقط • ويكشف ذلك عما تتميز به تلك الطبقة من انانية ، وقصر نظر ، ورؤية محدودة ، تلخص مصالح الوطن كله ، والشعب كله ، في حدود مصالحها هي فقط •

وفي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نجحت هذه الطبقة ، في الوصول الى السلطة ، عن طريق حزبها العسكري ، حزب الضباط الاحرار • الا ان هذا النجاح لم يكن مرجعه اليها ، هي وحدها ، أو الى حزبها العسكري فقط • كانت الظروف الداخلية مواتية ، حبلى بالثورة ، والظروف العالمية تقدم امكانيات معاونة وفاعلة ، تمكن للظرف الداخلي ان يحقق فعله

الظروف الداخلية :

ان نظرة عامة على الوضع الداخلي في مصر ، فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، توضح ان المد الوطني كان في حالة تصاعد متصل ، في الوقت الذي كانت تتزايد فيه عزلة القوى الرجعية والعميلة ، ويفتضح دورها •

كانت القوى الوطنية عامة ، واليسارية منها بشكل خاص ، تشن نضالا ، لا هوادة فيه ، ضد الوجود الاستعماري • وتربط ما بين سلطة القوى الرجعية والمعادية لمصالح الشعب ، وهذا الوجود الاستعماري • وظهرت قيادات جديدة ، عمالية وطلابية وفلاحية ، تربط ، ربطا كاملا ، بين التحرر الوطني والتغيير الاجتماعي •

كان الشيوعيون والقوى الوطنية الديمقراطية ، كالطليعة الوفدية ، وبعض الاجنحة المتقدمة في بعض الاحزاب الأخرى ، هي التي قادت ، المعارك الوطنية المختلفة ، والتي كانت من ابرز ملامحها « اللجنة الوطنية للطلبة والعمال » ، ومعارك كوبري عباس و ٢١ فبراير و ٤ مارس ، ومعارك الفدائيين في القنال ، واضرابات العمال ، ونضالات الفلاحين •

كان الشيوعيون يناضلون على أساس ان الاستقلال الوطنى لا يعنى مجرد اجلاء جيوش الأجنبى ، انما يعنى ، ايضا ، ضرب المصالح الاقتصادية والعسكرية الأجنبية · وان القضاء على الاستعمار غير منفصل عن القضاء على الطبقات والشرائح الاجتماعية الموالية له فى الداخل · وانه من أجل ان تعود ثمار الاستقلال الوطنى ، أو الجزء الأوفى منها ، الى الشعب الكادح ، وبخاصة العمال والفلاحين ؛ وهم غالبية الشعب العظمى ، والا تنفرد طبقة واحدة ؛ او شريحة من طبقة ، بهذه الثمار ، وحدها ، يلزم أن يحاط الاستقلال والاجراءات المصاحبة له بسياج من الضمانات والحقوق والحريات السياسية ، للشعب صاحب المصلحة الاساسية فى الثورة ونجاحها واستمررها ·

كان هذا هو حال القوى الوطنية ودورها قبل حلول عام ١٩٥٢ · وفى المقابل كانت هنالك الاحزاب الشرعية والرسمية ، تحاول فى استماتة الوقوف فى وجه الموجة الوطنية العارمة · كانت كل هذه الاحزاب باستثناء حزب الوفد قد التقت فى جبهة واحدة ، تساند السراى ومن خلفها الاستعمار · وكان بعض تلك الاحزاب ، اذا ما هاجم السراى ، هاجمهما خوفا عليها مما هو آت ، وحرصا منه على ترشيد النظام .

وجاء الوفد الى الحكم ، عام ١٩٥٠ ، بشعبية حقيقية ، الا انه سعى لمهادنة السراى ، بسبب سيطرة عناصر ذات مصلحة فى ذلك ، على قيادته · ثم كان حريق القاهرة ، فى يناير ١٩٥٢ ، واعلنت حكومة الوفد حالة الطوارىء . وبذا فان الوفد قد شهر السلاح الذى تبتغيه القوى الرجعية والاستعمارية ، وضرب بذلك القوى الوطنية ، كما ضرب نفسه بنفسه . واكملت عليه السراى فاقالته · وجاءت احزاب الاقلية والسراى لتعلن ، افلاسها ، رسميا ، خلال الفترة من ٢٦ ينـاير ١٩٥٢ حتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ولتثبت عجزها الكامل ، عن الامساك بدفة الأمور ، حتى من وجهة نظرها ·

ومن هنا يمكن القول ان النصف الأول من عام ١٩٥٢ قد شهد ضرب الاحزاب الرجعية والمتهادنة ، جماهيريا . كذا ضرب الحركة الشيوعية والطليعة الوفدية وحركة الفدائيين ، بواسطة القوى الرجعية والاستعمارية . وبذا لم ينج ، من كل ذلك ، غير تنظيم الضباط الأحرار ، أو الحزب العسكرى أو حزب الضباط الأحرار .

كان ، هذا الحزب ، هو الوحيد ، من بين القوى الوطنية المصرية ، السرية أو العلنية ، القادر على ضرب الدولة القديمة من داخلها ، وبواحد من

اخطر اسلحتها ، الا وهو الجيش • ان هذا الحزب ، رغم محدودية المجال الذى يتحرك فيه ، وضيق المساحة التنظيمية التى يتكون منها ، الا انه كانت هنالك ارضية هائلة داخل الجيش بين الجنود وصف الضباط ، وخارجه بين صفوف الشعب وخاصة طبقاته الوسطى والكادحة ، تشكل رصيدا ضخما لحركته •

ولهذا فان الحزب العسكرى ، عندما تحرك بالثورة ، ضد النظام ، بطريقة سرية وبعيدة عن حركة الجماهير ، وجد الدعم والمساندة والحماية الحقيقية من حركة الجماهير ، التى سرعان ما التفت حوله • كما لقى التأييد ايضا ، من بعض اجنحة الاحزاب القديمة ، والتى كانت تعبر عن نفسها ، فى ظل الاوضاع القديمة ، بطريقة محدودة للغاية • كما حظى ايضا بتأييد « حدتو » ، أكبر تنظيم شيوعى حينذاك ، كما رحبت به فى البداية منظمة طليعة العمال الشيوعية • وقد هرعت اليه ، فى نفس الوقت ، بعضا من القوى القديمة ، فى محاولة لادارة الدفة لحسابها واستيعاب هذا الجديد .

ان الحزب العسكرى ، عندما نجح فى الاستيلاء على السلطة ، لم يكن يعبر عن قواه الذاتية ، والا كان مجرد حركة عصيان عسكرى داخل الجيش . لقد نجح فى الاستيلاء على السلطة ، لأنه كان يعبر عن طموحات قوى الثورة الوطنية الديمقراطية . تلك القوى التى سبقته ، أو عاصرته ، وكانت تنادى بنفس المطالب وتسعى الى نفس الاهداف • وتخوض نضالا لم يتوقف فى مواجهة السلطة القديمة ، دافعة ثمن هذا النضال ، تضحيات متصلة ، من سجن ، واعتقال ، وتشريد ، ومطاردة واستشهاد . كانت هذه القوى ، والشيوعيون فى القلب منها ، بمثابة المدفعية الثقيلة التى دكت وحرثت الأرض ، ليأتى فجر ٢٣ يوليو ، وقد تداعت امامه كثير من الحصون القديمة . لقد لعبت هذه القوى الدور الأساسى فى التمهيد للثورة ، ولعب الحزب العسكرى الدور الأساسى فى تنفيذ الثورة .

الظروف العالمية :

ان نظرة عامة على الظروف العالمية اللاحقة للحرب العالمية الثانية ، توضح :

(أ) هزيمة الاستعمارية الالمانية والايطالية واليابانية ، مما قاد الى اضعاف الاستعمار ، بوجه عام .

(ب) ان الدول الاستعمارية التى انتصرت ، كانجلترا وفرنسا ، خرجت من الحرب مثقلة بالدمار ، مهددة فى مستعمراتها واسواقها • فابناء المستعمرات ، الذين شاركوا فى هزيمة النازية والفاشية والعسكرية اليابنية ،

لم يكونوا يقومون بذلك دفاعا عن مصالح الامبراطورية البريطانية ، أو الاستعمارية الفرنسية ، أو الهولندية ، أو البلجيكية ، انما كانوا يقومون بذلك دفاعا عن مصالحهم هم ، وتحقيقا لاستقلالهم هم · ولـذا ، ما ان وضعت الحرب اوزارها ، حتى انطلقت قوى التحرير فى المستعمرات والبلدان التابعة تستكمل حربها ، من أجل الاستقلال والسيادة الوطنية . ومن هنا ، فان توقف الحرب العالميـة الثانية ، لم يكن يعنى توقف الحرب ذاتهـا فى مواجهة قوى الاستعمار التى كانت ما تزال متشـبثة بأراضى واسـواق غيرها .

(جـ) ان امريكا التى تشكل رأس الرمح فى القوى الاستعمارية وأقوى معاقلها ، قد فقدت تفوقها النووى ، ولاقت الهزيمة المنكرة فى حرب كوريا (١٩٥١)

(د) انقسام العالم الى معسكرين ، المعسكر الشرقى ، الذى يضـم البلدان الاشتراكية ، والذى يتناقض بشكل أساسى مع المعسكر الغربى الذى يضم البلدان الاستعمارية · وبذا انتهى الزمن الذى كان فيه الاستعمار قادرا على فرض ارادته الكاملة على شعوب البلدان المستعمرة والتابعة ·

(هـ) النمو الهائل للعالم الاشتراكى ، وتشكيله ثقلا صـاعدا فى الوضع العالمى ، قادرا على دعم ومساندة نضال الشعوب ، وتقديم نموذج آخر ، يناقض النموذج الاستعمارى ، نموذج يقوم على بناء مجتمعـات جديدة ، تحقق مصالح شعوبها ورفاهيتها ·

(و) التناقض بين القوى الاستعمارية ، حول الاسواق العالمية ، ومحاولة امريكا ، الزعيمة الجديدة لهذا العالم الغربى ، وراثة اسواق ومناطق نفوذ القوى الاستعمارية القديمة ، مما يخلق مجالا لتضارب المصالح فيما بينها ، وظهور نقاط ضعف ، يمكن الافادة منها لحساب حركات التحرير .

(ز) تواجد طبقات مؤثرة ، داخل المجتمعات الغربية ، ترفض الدور الاستعمارى لانظمتها ، وتضع هـذا الرفض موضـع التطبيق ، فى مواقف مؤيدة ومساندة لحركة الشعوب المناضلة من أجل التحرر والسيادة الوطنية .

وفى المنطقة العربية ، كان النضال يتصاعد ، ضد الاستعمار بشـكل عام ، وضد الصهيونية بشكل خاص ·

أى أن الظروف العالمية والعربية كانت مواتية لنجاح الثورة ، ان سلبا بقدرات الاستعمار ، وان ايجابا بقدرات قوى التحرير والتقدم .

ويمكن بناء على :

ان الظروف المحلية تشكل العامل الاساسى للنجاح فى ضرب السلطة القديمة ، وان الظروف العالمية تشكل العوامل المعاونة أو المساندة على نجاح الثورة ، وان الظروف الذاتية او خصوصية الحزب الذى نفذ الثورة سوف تحدد منهج وطريقة تعامل هذا الجديد مع الاوضاع المحلية والعالمية ، وأسلوبه فى استخدام السلطة لتحقيق برنامجه ،

ملاحظة :

ان الامكانات الثورية ، المحلية والعالمية ، والتى مكنت لثورة ٢٣ يوليو من النجاح ، هى بعينها التى كانت تثير مخاوف الحزب العسكرى بعد أن وصل الى السلطة · وهذه الملاحظة تطرح ضرورة معرفة :

كيف تعامل الحزب العسكرى « السلطة الجديدة » مع الظروف الداخلية والعالمية :

بداية يجب أن نوضح ان ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان ــ دون شك ــ علامة بارزة فى تاريخ مصر الوطنى . انه حلقة من حلقات الثورة الوطنية · انه محصلة نضالات متصلة للشعب المصرى ، وقواه الوطنية الديمقراطية ، فى اعقاب الحرب العالمية الأولى ، والثانية على وجه الخصوص .
الا أن الخطأ الفادح الذى وقع فيه الحزب العسكرى عندما جاء الى السلطة ، هو النظر الى تاريخ مصر وكأنه لم يبدأ الا فى هذا التاريخ ، والى نضال شعب مصر ، وكأنه لم يبدأ الا به .

كانت أهم قضية تواجه الثورة ، فى ايامها الأولى ، هى تثبيت الثورة ، والعمل على تخليص البلاد من السلطة القديمة ، وهى سلطة تتوحد فيها مصالح وقوات الاستعمار والسراى وشبه الاقطاع وكبار الراسماليين المرتبطين برأس المال الأجنبى . وكان التوحد الرجعى الاستعمارى ، يقتضى توحيدا للقوى الوطنية الديمقراطية ، صاحبة المصلحة فى هذه الثورة · والتوحيد هنا هو التوحيد الواعى الجبهوى المنظم ·

الا ان الحزب العسكرى ، عندما نفذ الثورة ، استبدل الشكل الجبهوى المنظم بالتاييد الجماهيرى العام ، التلقائى ، غير المنظم · وعندما استعان برموز من القوى الوطنية ، استعان بها كأفراد ، وليس كممثلين

لقوى وطنية ، فى ساحة الصراع الوطنى المصرى • لقد رفض ، بشكل عملى ، ومنذ اللحظة الأولى ، وجود أى قوى وطنية منظمة ، غير حزبه • وبذا لم يتعامل مع باقى القوى الوطنية باعتباره جزءا منها ، وباعتبار انها قد لعبت الدور الأساسى فى التمهيد للثورة ، كما لعبت جماهيرها الدور الأساسى فى انجاح الثورة وحمايتها • لقد تصرف ، ومنذ اللحظة الأولى ، باعتباره القوة الوطنية الوحيدة ، فى الساحة ، والتى من حقها ، وحدها ، كل الحقوق الديمقراطية •

ان الحزب العسكرى الحاكم ، فى حدود تجربته المحدودة ، قد رفض الشكل الجبهوى للجماعات المنتمية الى أصول عقائدية مختلفة داخل الجيش . وهو هنا ، فى السلطة ، يحاول فرض هذه التجربة ، تجربة الحزب الواحد ، على الوطن كله . وهو ، ان كان يملك قبل السلطة حق فصل الأعضاء الذين يخالفون قواعده ، فهو بعد ان جاء الى السلطة ، يملك كل ادواتها من قسر وقهر لفرض وجوده الواحد الأحد ، والذى اتخذ اسماء متعددة ، ابتدأت بهيئة التحرير ، ثم الاتحاد القومى • وتبلور مفهوم الوطنية عند الحزب العسكرى الحاكم ، باخضاع كل القوى الوطنية ، بالقسر والقهر ، لقيادته . فلا يرتفع فى مصر صوت غير صوته ، ولا تكون هنالك ارادة غير ارادته . ولما كان هذا النهج ضد طبيعة الأمور والعلاقات الاجتماعية والاوضاع الطبقية السائدة فى مصر ، فانه كبت التناقضات ، ولم يدعها تتخذ طريقها الطبيعى الى الحل • والتناقضات ، بالطبع ، لا تأتمر بأمر الحزب العسكرى، فتفعل فعلها بين صفوف القوى الوطنية ، لتفجرها • وبذا ، فان هذا المفهوم للوحدة الوطنية كان ، فى حقيقة الأمر ، مفجرا لوحدة القوى الوطنية ، وممزقا لها • لقد كان المستهدف من هذا النهج ، طبقيا ، ان تتخلى كل الطبقات الوطنية عن مصالحها ، لحساب الطبقة الحاكمة التى يعبر عنها هذا الحزب . وذلك أمر مستحيل .

لقد انفرد الحزب العسكرى بالسلطة ، وبكل حقوق التعبير والتنظيم السياسى والنقابى ، والغى الدستور والاحزاب ، ورفض الحياة الحزبية وجرمها ، واخضع كل وسائل الاعلام لسيطرته . وجعل القوانين الاستثنائية هى القاعدة ، واستخدم المعتقل والعزل السياسى والوظيفى لفرض ارادته . ولم يترك للقوى الوطنية ، فرصة للتعبير عن ارائها الا امام المحاكم ، متهمة ، او خلف القضبان ، سجينة •

وجاءت هبة مارس عام ١٩٥٤ تعبيرا عن رفض الجماهير لهذا المفهوم الذى يعالج به الحزب الحاكم ، امانيها الديمقراطية ، وارتفعت شعارات الحريات السياسية والجبهة الوطنية ، اى رفض عسكرة الحياة السياسية ،

والحزب الواحد ، مهما كان هذا الحزب وطنيا · ورفض الوصاية ، مهما كان اخلاص هؤلاء « الاوصياء » · ورد الحزب الحاكم ، على مظاهرات الجماهير الوطنية الديمقراطية ، بطريقة فريدة ، ربما تكون الأولى من نوعها فى مصر · رد بشراذم من الأفاقين والمأجورين ، تهتف بسقوط الحرية والديمقراطية . وكشفت مظاهرات البلطجية تلك ، أن الحزب الحاكم ، لم ينجح ، بعد عامين من وجوده فى السلطة ، وبسبب مفهومه هذا ، من فرض نفسه على جماهير القوى الوطنية والتقدمية فى مصر ، بالقسر والقهر · كما فشل ، ايضا ان يكون له وجود حقيقي ومنظم فى الشارع السياسى المصرى ·

لقد طرحت القوى الوطنية الديمقراطية ، والمؤيدة للثورة الوطنية الديمقراطية ، فى الأساس ، اختيارها لشكل الحكم . ورفض الحزب العسكرى الحاكم هذا الاختيار ، مصرا على اختياره هو · وشن حملة عنيفة ضد القوى الديمقراطية ، فى داخله وخارجه · وغالى فى تأمين نفسه ، لا عن طريق الارتباط بالجماهير والاقتراب منها ، بل بتكثيف الارهاب ، والاجهزة الأمنية ، واشاعة الخوف والتجسس وكتابة التقارير · وقبل البعض ، ممن يرفضون هذه الاوضاع ، بها ، دون قناعة أو اختيار ارادى . وظهر فى مصر وباء سياسى جديد ، هو « الشيزوفرانيا » السياسية ، ان تعلن شيئا ، وتضمر غير ما تعلن ·

ان الخطأ الأساسى الذى وقع فيه الحزب العسكرى ، والطبقة التى يمثلها ، انهما لم يفرقا بين القوى التى ساهمت فى صنع الثورة ونجاحها ، والقوى المعادية التى احاطت بها الثورة · الكل ، ان لم يخضع للحزب ، سواسيه . وأصبح الانسان الجيد فى مصر ، الوطنى فى مصر – بغض النظر عن موقفه الوطنى الحقيقى – ، هو ذلك الذى يخضع للحزب ويتلاشى فيه ، وان شكلا . لقد نظرت الطبقة الحاكمة وحزبها ، الى القوى الوطنية الأخرى ، وخاصة اليسارية ، على أنها عوائق بينها وبين فرض سيطرتها الشمولية القسرية . على أنها منافسة لها وبديلة عنها . ووضعت الخلاف بين الطبقات والشرائح الوطنية ، فى موضع التناقض الحاد ، الذى يجب ان تحسمه لحسابها · وهى بذلك قد دفعت بنقاط الخلاف لتطغى على نقاط الاتفاق ، أى دفعت بالتناقضات الثانوية بين القوى الوطنية ، لتطغى على التناقض الرئيسى ، الذى يجمع كل هذه القوى فى خندق واحد فى مواجهة القوى المعادية ، قوى الثورة المضادة · وهى ، بذلك ، قد بذرت ، ومنذ البداية ، عوامل انتكاس الثورة ·

لقد سار الحزب العسكرى على خطة ، متكاملة ، ذات شقين · الشق الأول ، والذى سبق التعرض له ، قصد به ازاحة القيادات الوطنية ،

الأخرى ، والاستيلاء على جماهيرها ، واحتوائها ، واخضاعها لقيادته ، فى وعاء تنظيم منفرد ، او حزب واحد أحد . وقد أشرف عليه ، كما حدث فى « الاتحاد القومى » ، واحد من قادة الثورة ، هو كمال الدين حسين ، ومعه ستة عشر ضابطا وثمانية مدنيين مديرى مكاتب ، هم فى مجموعهم قلب هذا التنظيم الواحد . وكانت اللجنة التى تبت فى اسماء المرشحين للمجلس التشريعى ، مجلس الأمة ، من داخل هذا الحزب ايضا ، كلها من العسكريين . ويرأسها واحد من قادة الثورة ، هو زكريا محى الدين . اى أن الحزب العسكرى كان هو القوة الفاعلة والمؤثرة فى توجهات وحركة التنظيم الواحد الشامل . هو الذى يمسك بالمصفاة ، التى تملك حق الاعتراض ، والفرز ، والمنح ، والمنع ، لمن هم داخل الاتحاد القومى وخارجه فى صفوف الحركة الجماهيرية . مما جعل الحياة السياسية فى قبضته ، ومن صياغته . وبهذا تحكم فى السلطة التشريعية ، بشكلها ، كيف يشاء .

وكان الشق الثانى من الخطة ، هو الاستيلاء على معظم المراكز الرئيسية ، الحساسة والمؤثرة . اصبح جمال عبد الناصر ، رئيسا لمجلس التخطيط الأعلى ، يتولى تحديد الأهداف الاقتصادية والاجتماعية للدولة ، واقرار خطط التنمية فى مراحلها المختلفة . وعبد اللطيف بغدادى ، رئيسا للجنة التخطيط القومى . وحسن ابراهيم ، رئيسا للمؤسسة الاقتصادية . واللواء أنور الشريف ، رئيسا لادارة التعبئة ، والتى تطورت ، حتى اصبحت الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء . وكانت لها ، لجان فى مختلف الوزارات ، يمثلها عسكريون ، يتدخلون فى المشاريع كافة ، والصاغ حلمى السعيد ، رئيسا لمؤسسة مصر .

وكما وضع الحزب العسكرى رجاله ، من الضباط ، فى الوزارة ومفاتيح التحكم فى الاوضاع الاقتصادية ، وضعهم ، ايضا ، سفراء فى وزارة الخارجية ، ومحافظين فى مختلف المحافظات .

وكما اخضع الحزب العسكرى السلطة التشريعية والتنفيذية لسلطته المنفردة ، عمد ، ايضا ، الى اخضاع السلطة القضائية ، بالقدر الذى يلزمه ويكمل سيطرته . اذ مورس التحقيق العسكرى على المدنيين ، واستخدم السجن الحربى مكانا « أمينا » لاتهامهم ، والمحاكم العسكرية ساحة قضاء فى مصيرهم .

وحتى يحقق سيطرته الفكرية وتحكمه فى توجهات الرأى العام ، اصدر صحف « الجمهورية » و « التحرير » و « المساء » و « الشعب » و « بناء الوطن » و « الثورة » و « الفجر » . وقد رأس العسكريون كل

الصحف التى اصدرتها الحكومة · كذلك ، تشكلت لهذا الغرض جمعيات غير رسمية ، مثل « جمعية الخريجين » و « رابطة اشتراكية عربية » و « رابطة مصر للعلوم السياسية » و « رابطة الوعى الوطنى » و « لجنة التربية الوطنية » و « رابطة دراسة الاشتراكية المعاصرة » على الصعيد النظرى (١) ·

وبتحقيق تلك الخطة ، انفرد الحزب العسكرى ، دون كل القوى الوطنية ، بل وعلى حسابها ، بكل السلطة ، وبكل الحريات السياسية · فرض نفسه ، بالقسر ، على الحركة الجماهيرية ، وبالغزو والفتح على أجهزة الدولة وسلطاتها المختلفة . وتداخل كل شىء وتعسكر · ونشأت ، ثم ترسخت ، قاعدة سادت الحياة السياسية فى مصر ، منذ ذلك الحين . قاعدة التداخل التام ، بين الحزب والدولة . وأصبحت ظاهرة الحزب ـ الواحد الدولة ، أو دولة الحزب الواحد ، هى التعبير والتجسيد الحى ، لمفهوم الحزب العسكرى للوحدة الوطنية : التوحد تحت قيادته والتسليم بانفراده وتفرده ، ولا مكان للاختلاف ، حتى فى اطار الوحدة ·

اما بالنسبة للاوضاع الخارجية ، وموقف السلطة الجديدة منها ، فان هذا الموقف كان محكوما بالاوضاع الداخلية ايضا · كانت المعادلة الصعبة ، التى على البورجوازية الوطنية الحاكمة ، وحزبها العسكرى ، مواجهتها ، تتلخص فى قضيتين اساسيتين :

١ ـ ان هذه البورجوازية الوطنية تسعى الى تخليص السوق المحلى من سيطرة الأجنبى المستعمر ·

٢ ـ انها تسعى لبناء مجتمع رأسمالى ·

الجانب الأول من المعادلة يعنى مواجهة العالم الراسمالى العالمى ، والجانب الثانى من المعادلة يعنى علاقات بالعالم الراسمالى العالمى .

ان نجاحها فى مواجهة الاستعمار ، وانتزاع السوق المحلى منه ، يستلزم شل قوى الاحتلال المباشر فى الداخل ، اعتمادا على عوامل التوازن الدولى . ان هذا الشلل يتوقف على مساندة قوى التحرير العالمى ، وهى القوى التى تتناقض ، تناقضا رئيسيا ، مع الاستعمار العالمى · كما انه يتوقف ، ايضا ، على كيفية الاستفادة من التناقضات الموجودة داخل المعسكر الاستعمارى ذاته .

---

(١) المعلومات فقط ، عن « قصة ثورة ٢٣ يوليو » ، للاستاذ احمد حمروش .

الا أن قوى التحرير العالمى تضم فى قمتها قوى الاشتراكية ، وهى قوى تلتقى مع البورجوازية الوطنية المصرية فى الهدف العام ، الا وهو ضرب القوى الاستعمارية ، الا انها تتناقض معها فى التوجه الاقتصادى والاجتماعى الخاص بها • والقوى التى يمكن أن تساندها من داخل المعسكر الاستعمارى ، هى القوى الاستعمارية الاقوى ، انها الولايات المتحدة الأمريكية ، والتى ترحب بازاحة النفوذ الاستعمارى البريطانى ، ليس لحساب البورجوازية الوطنية المحلية ، ولكن لحسابها هى ، كى تملأ « الفراغ » • انها تعمل كى تلتقط لها القوى المحلية « الكستناء من الجمر » •

كما أن سعيها الى بناء مجتمع رأسمالى يقتضى منها التوجه ، اساسا ، الى النظام الراسمالى العالمى ، أى العالم الغربى • فعلاقتها بهذا العالم كعلاقة الجنين بالرحم • الا أن هذا السعى ، والذى يفرضه ضعف قدراتها الاقتصادية ، وضرورة قيام بنائها على أسس تكنولوجية وآلية حديثة ، مملوكة لمثلها الأعلى فى الغرب ، محوط بحقائق لا تحسب حسابها • أولها ، أن العالم الغربى كله ، باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية ، يعانى فى هذه الفترة ، ظروفا عسيرة • انه عاجز عن تقديم العون الى الغير (هذا ان رغب فى تقديم العون !) ، لأنه هو نفسه فى حاجة لمن يعاونه . وثانيها ، أن هذا العالم الغربى الاستعمارى يقف معسكرا واحدا فى مواجهة اى قوى وطنية محلية ، تحاول انتزاع سوقها من احد أطرافه ، ولن يقدم العون لها ، ان نجحت ، لأن ذلك يعنى ، أنه يغلق ، بيديه ، سوقا فى وجه منتجاته • كما يفاقم ازمته ، ويهدد مصالحه « التاريخية » . وثالثها ، ان الذى يقف فى هذا العالم الغربى ، الى جانب القوى البورجوازية الوطنية المحلية انما يفعل ذلك من منطلق احتواء هذه القوى المحلية ، واعادتها الى الحظيرة الاستعمارية لحسابه هو ، فان لم يفلح ، فهنالك الضغوط السياسية ، والحصار الاقتصادى ، والعدوان العسكرى ، للاخضاع أو لاعادة الغزو والفتح ، و « استرداد » السوق المفقود .

أى أن العالم الاشتراكى يشكل الحليف الطبيعى للثورة المصريه الوطنية الديمقراطية فى حركتها العامة والاستراتيجية ، ومن هنا فهو مساند من واقع طبيعة سياسته ومصالحه لأى قوى وطنية تضرب الاستعمار وتضعف نفوذه ، حيث يؤدى ذلك الى اضعاف الاستعمار ، عالميا ، ويوسع رقعة الأرض المتحررة من وجوده ، وهو هدف مشترك ، تلتقى فيه القوى الاشتراكية عالميا والقوى التحررية الوطنية عالميا ، ايضا • اما مجرى الثورة وتحولها الى علاقات انتاج اشتراكية ، فذلك أمر يحدده توازن القوى داخل كل بلد على حدة ، ومدى نضج الصراع الطبقى والاجتماعى فيه .

اما العالم الاستعمارى ، فهو العدو الطبيعى للثورة المصرية الوطنية الديمقراطية فى حركتها العامة والاستراتيجية ، ومن هنا ، فهو معـاد ، من واقع طبيعة سياسته ومصالحه لأى قوى وطنية ، تمس نفوذه وتضعف قوته . الا انه يمثل الأم الطبيعية للميراث الرأسمالى ، والدفاع عن هـذا الشكل من علاقات الانتاج • وأمريكا ، التى تلبس ـ أحيانا ـ ثوب المساندة لقوى وطنية ، لن تقبل من هذه القوى أقل من التبعية والخضوع والدوران فى فلكها ومخططاتها . لقد فعلت ذلك بحليفاتهـا الاسـتعمارية التقليدية • الاوربية ، أو الاسيوية . وهى لن تقبل دون ذلك مع قوى وطنية محلية ، تتطلع اليها باعتبارها المثل الاعلى الذى تسعى لاحتذائه •

ان المعادلة الصعبة التى واجهت البورجوازية الوطنية المصرية وحزبها العسكرى ، كانت تعبيرا حقيقيا عن المـأزق التاريخى لهذه الطبقة . ان العالم الذى يساندها هو العالم الذى ترفض نموذجه ، بل تعاديه ؛ والعالم الذى يعاديها هو العالم الذين تسعى للانتماء اليه وهو مثلها الأعلى • اى انها ترفض العالم الذين معها ، ويرفضها العـالم الذين تود ان تكون معه وجزءا من نسيجه • الا أنها تحاول الخروج من هذا المـأزق ، بما يتسق مع ، مصالحها هى ويمناجها هى ، مصالحها الآنية المحدودة الضيقة ورؤيتهـا القصيرة المدى ، والتى لا تتجاوز تحت اقدامها ، فتتجه الى جزء من الغرب يمكن ، فى تصورها ، أن يساندها ، فى مواجهة الجزء الآخر . انها بذلك تحاول أن تفرض مجراها الخـاص على المجرى العـام للثورة الوطنيـة الديمقراطية ، وبذلك تجعل مأزقها التاريخى الخـاص مأزقا عاما لحركة الثورة ، على طول مداها •

ان رؤيتها للقوى الاستعمارية محصورة فى الاستعمار المباشر عليها ، والذى يتحكم فى سوقها المحلى • انها ضد هذا الاسـتعمار ، الذى هـو الاستعمار البريطانى ، الا انها ليست ضد الغرب عامة ، وامريكا بوجـه خاص • انها تتجه نحو العالم الرأسمالى ، منذ امسكت وحزبها العسكرى بالسلطة فترفع نسبة مشاركة رأس المـال الأجنبى الى ٥١٪ ، بعد أن كانت ٤٩٪ ، وتتجه الى الغرب من أجل تسليح الجيش الوطنى المصرى ، وتمويل السد العالى اهم مشروعاتها كبداية لتوفير الطاقة اللازمة للبنـاء الصناعى • ان هذه القوى الغربية عامة ترفض تقديم العون ، اتساقا مع مصالحها ، وان عرضته فهو مشروط بما يعيد لها نفوذها ويخضع « الشاة الشاردة »

أن السلطة الجديدة ، ورغم كونها سلطة رأسمالية ، ارتباطها الطبيعى بالغرب الرأسمالى ، الا انها سلطة وطنية . انها لا تقبل ان تكون فى هذا

العالم تابعة لأحد ، أو تعمل لحساب أحد ، أو خاضعة لسيطرة أحـــد . انها كبورجوازية ، وطنية مصرية ، فى الأساس ، تهدف الى الاســتئثار بالسوق المصرى خالصا لحسابها ، مستقلا عن اى نفوذ أو سيطرة . انها كلما خطت خطوة ، اتجهت ، أولا ، الى عالمها الغربى ، ولكن بشروطها هى ، لا شروط الآخرين ، باولوياتها هى ، لا أوليات الآخرين ، انها تو دان تظل عذراء فى بيت البغايا . الا ان ذلك الموقف منها يدفع بتناقضاتها مع القوى الاستعمارية الى السطح ، فيزداد ، أكثر فأكثر ويحتدم ، أكثر فأكثر ، حتى يصل الى ذروته فى معركة تأميم قناة السويس ، ثم الهجوم الاستعمارى العالمى كله عليها . ثم يأتى عدوان عام ١٩٥٦ ، والموقف السوفيتى المناصر لمصر ، والذى لعب دورا حاسما فى ردع العدوان ، والموقف الأمريكى الذى عبر بصدق عن التناقضات داخل جبهة الاعداء ، ليرفع فور انهاء المعركــه « مشروع ايزنهاور » ، لملء الفراغ . ونعلن البورجوازية الوطنية المصريــة وحزبها العسكرى ، فى خريف ١٩٥٨ ، بعد الجلاء ، والغاء الاتفاقية المصرية ـ البريطانية ، وتمصير البنوك والشركات الأجنبية ، أن معركتها مع الاستعمار قد انتهت . وهذا الموقف منها يتسق تماما ، مع رؤيتها المحصورة بحدود السوق ، وليس بحدود الحركة الوطنية والثورة المصرية فى مجراها العام . انها تعلن انتهاء المعركة مع الاستعمار من جانب واحد ، هو جانبها ، لأن الاستعمار ، وقد فقد واحد من أهم أسواقه ، سوف تزداد ضراوة محاولاته لاسترجاع هذا السوق ، وبذا فان معركته معها لم تنته ، بعد . ومرة أخرى ، تحاول البورجوازية الوطنية المصرية ، منفردة عن باقى القوى الوطنية ، فرض معركتها هى على مجرى الثورة ، باعتبار انها هى وأهدافها كـل اهداف الثورة . ولقد كان هذا الموقف بمثابة اعلان تاريخى للداخل والخارج عن الحدود التى تود البورجوازية الوطنية المصرية الا تتخطاها فى صراعها مع الغرب ، أى اعلان بعزمها على تجميد النضال المعادى للاستعمار ، وهى القسمة الأساسية التى تجمع القوى الوطنية المصرية فى الداخل ، لاستمرار الثورة حتى التحرير الكامل للأرض والانسان .

ويتواكب الموقف من الشرق الاشتراكى ، عكسيا ، مع موقفها من الغرب الرأسمالى الاستعمارى . انها تبدأ معه بالحذر والتوجس ، الناتج عن طبيعة موقفها الطبقى الطامح الى بناء رأسمالى ، والناتج ، أيضــا ، عن الفكريات التاريخية التى تسيطر على غالبية حزبها العسكرى وقيادته ، على وجه الخصوص ، فكريات العداء للشيوعية ، والتى استقتها من ارتباطاتها السابقة على تكوين هذا الحزب ، من مصادر الاخوان المسلمين ، أو النظرة القاصرة فى التعامل مع المانيا النازية لتحرير مصر من الاستعمارية البريطانية . الا ان تصاعد تناقضاتها مع القوى الاستعمارية يدفعها للتعامل مع المعسكر الاشتراكى ، توظيفا للتناقض الرئيسى بينه وبين المعسكر الاستعمارى

لحسابها • وتبدأ الخطوة الأولى بتسليح الجيش المصرى ، ثم الموقف المساند الجاسم ، اثناء العدوان ، ثم بناء السد العالى •

ان البورجوازية الوطنية ذات طبيعة مزدوجة : انها تهدف الى الاستقلال بالسوق من الاستعمار ، والانفراد به لحسابها على حساب الشعب ، اي عليها أن تواجه الاستعمار حينا ، وللشعب حينا آخر • وهى ساعة تتعرض للضغوط الشعبية تهادن الاستعمار ، وساعة تتعرض للضغوط الاستعمارية تستثير وطنية الشعب ضده • اى انها تحاول استخدام كل طرف من هذه الأطراف ، فى مواجهة الطرف الآخر ، حفاظا على مواقعها هى ، وأسلابها هى • الا أن هذا الوضع يفرض عليها تنازلات لمن تهادنه • ولما كانت غير راغبة فى هذه التنازلات ، وخاصة بالنسبة للحركة الجماهيرية ، التى تهدد ، مباشرة ، انفرادها « بمغانم » السوق المحلى ، فانها تجد فى العلاقة المتكافئة بالمعسكر الاشتراكي سندا لها ، فى مواجهة القوى الاستعمارية ، بديلا عن الشعب المصرى ، كما تجد فى تعميق أسلوبها الديكتاتورى القمعي وسيلة لمواجهة الضغوط الشعبية •

وهى بهذا تتصور أنها قد خرجت من مأزقها ، فهى تبنى الرأسمالية بمعاونة الاشتراكية ، وتحمى بناءها الرأسمالى من حركة الجماهير بالاحكام العرفية والسجون والمعتقلات والانفراد بالحياة السياسية وكل الحريات الديمقراطية . الا أن هذا المخرج يوقعها فى مأزق آخر • ان الاشتراكية لا تدعم البناء الراسمالى ، بالمعنى المطلق أو المجرد ، ولكنها تدعم البناء الاقتصادى والصناعى المستقل عن النفوذ الاستعمارى ، والذى يتم على حسابه • ان البناء الوطنى المستقل فى مواجهة الاستعمار يعنى دعم الحركة الوطنية ، وتقديم النموذج الحى لمن هم اصدقاء الشعب ومن هم أعداؤه ، على النطاق الدولى . ان الاستعمار يعتدى ، والعالم الاشتراكى يساند ويدعم . الاستعمار ينهب الشعب وثرواته ، والعالم الاشتراكى يبنى مع الشعب مستقبلة ويضيف الى قدراته • الاستعمار يسعى الى اعادة الشعب الى التبعية ، والعالم الاشتراكي يتعامل مع الشعب فى ندية ، ويقف الى جواره ، تأكيدا لحريته واستقلاله . ان كل ذلك لابد وأن تكون له آثاره العميقة بين الجماهير • انه يضع كلا النظامين العالميين موضع الاختبار العملى ، فيغضبح الاستعمار وما يمثله من تطور رأسمالى يقف هو على تمته : ويحسم الاختيار الجماهيرى الى جانب الاشتراكية باعتبارها النظام الذى تقوم الدول السائرة على دربه بتقديم العون الأخوى والمساندة غير المشروطة للشعوب المقهورة والتى تتعرض لعدوان الاستعماريين ومطامعهم • ولنتيجة ذلك دعم الاتجاه الاشتراكي داخل مصر ، اي دعم النقيض الاجتماعى للبورجوازية الوطنية وطموحاتها الرأسمالية •

ان البورجوازية الوطنية تعمل فى مواجهة هذا المـأزق ، على أن يقتصر عائد المساندة الاشتراكية على نموها هى ومصالحها هى ، لا على المجرى العام للثورة الوطنية فى مصر • وهى تحـاول أن تحطم كـل قانون طبيعى بقوانينها المفتعلة • ان للنموذج الاشتراكى يطرح البديل الطبيعى القادر على حل مشاكل الشعب المصرى واخراجه من خندق المـأزق • الا ان البورجوازية الوطنية تصر على فرض مأزقها على حركة الثورة فى مجملها وهى فى سبيل ذلك ، تملأ البلاد طولا وعرضا بالشائعات المضادة للسوفيت والمعسكر الاشتراكى حتى تبطل الاثر الايجابى لمواقف هذا المعسكر من حركة الثورة عامة • وتشدد فى نفس الوقت من قبضتها على الحركة الجماهيرية عـامة والهجوم على الشيوعيين والشيوعية خاصة بغرض ضرب القوى الاشتراكية الحقيقية والتى يمكن أن تســتفيد سياسيا وجمـاهيريا من تأثير النمط الاشتراكى العالمى باتساع التعاطف الجمـاهيرى المحلى معـه • وتعمـد البورجوازية الوطنية وحزبها العسكرى الحاكم فى ذات الوقت ، الى تنفيذ بعض الاصلاحات الاجتماعية التى تستهدف سحب البســاط من تحت الاشـــتراكيين الحقيقيين فى الوقت الذى تقوم فيه بســجنهم واعتقالهم وتشريدهم • وخداع الجماهير بالتشابه الشكلى بين ما كانوا يطالبون بـه وما تنفذه بالفعل ، والخلاف العميق فى الممارسة والتطبيق والذى يحدد الى من ترجع عوائد تلك الاجراءات • وتنهج نفس الاسلوب الذى اتبعته عندما ضربت القوى الوطنية المختلفة وسعت للاستيلاء على جماهيرها ، فترتدى هى مسوح الاشتراكية بهدف سد الطريق امام الاشتراكية الحقيقيـة ، وتقديم اعلان زائف بتحقيق اشتراكية تعاونية أو ما شابهها من المسميات المضللة .

ويضعها هذا الحل الذى تنهجه للخروج من مأزقها الى الوقوع فى مأزق جديد • ان علاقتها بالمعسكر الاشتراكي وزعمها الاشتراكية يزيد من صعوبة موقفها مع القوى الغربية ، كما انه يثير المخاوف فى شرائح من الطبقــة ذاتها ، فيزداد احجامها عن استثمار اموالها بينما يزداد توجهها الى التعامل مع الغرب دون اعتبار للثمن ، كما ان هجوم الحزب العسكرى الحاكم باسم الاشتراكية على الحركة الجماهيرية والقوى الديمقراطية والتقدمية المحلية : ثم العربية فيما بعد . يعرض الدول الاشتراكية التى تدعمه وتسانده للهجوم من كل القوى الديمقراطية والتقدمية عالميا باعتبار أن هذه الدول الاشتراكية تساند وتدعم نظاما ارهابيا يضرب القوى الديمقراطية مستندا الى الاشتراكية العالمية ، مما يحرج هذه الدول الاشتراكية .

وبذا فان هذه الطبقة الانانية تحاول حصار الثورة المحلية والعربية فى اطار مصالحها هى ، فقط ، فتدفع بالتناقضات الثانوية مع حلفائها خلال

هذه المرحلة الى مرتبة التناقضات الرئيسية ، وتعكس مأزقها الخاص على حركة التحرير كلها ، فتثير البلبلة وخلط الاوراق كلها . انها طبقة ليست فى زمان انتصارها الكلى وازدهارها ونموها الطبيعى ، انها جاءت لتقود منفردة ، فى زمن غير زمانها ، بل جاءت فى زمن مأزقها ، وهى تحاول جاهدة حلا لمأزقها أن تجعله مأزق حركة الثورة كلها .

ان الظروف العالمية والمحلية كانت مواتية لغيرها من الطبقات ، الا ان تلك الطبقات وخاصة العمال والفلاحين لم تكن لديها القيادة القادرة على الاستيلاء على السلطة . كان الشيوعيون رغم دورهم الهام ، منقسمين مما اضعف دورهم كطليعة . كما ان الحزب القادر على قيادة الثورة الجماهيرية والاستمرار بها واحداث تغيير جذرى بالمجتمع يجب ان يكون حزبا عميق الجذور والارتباطات بقواته وحلفائه من عمال وفلاحين ، اذ لا يكفى هنا القدرة على الحركة واحداث الضجة ، اذ ان تلك من سمات الاحزاب البورجوازية اساسا . كذلك لا يكفى ان يكون هذا الحزب ممتلكا لنظرية ثورية ، اذ لا قيمة للنظرية الثورية بدون تطبيقات ثورية لهذه النظرية على الواقع المحلى . كما أن تلك القيادة كانت معرضة لعمليات متصلة من المطارده والاضطهاد . لكل تلك الاسباب لم تتمكن تلك القيادة من توظيف الظروف المحلية والعالمية المواتية . وتمكنت البورجوازية الوطنية بحزبها العسكرى ، ولظروفه الخاصة ، من الاستفادة بهذه الظروف . وبذا جاءت تلك الطبقة الى الحكم ، فى غير زمانها ، وانفردت بمكان الصدارة ، وهو ليس بمكانها .

ان الظروف الموضوعية المحلية والعالمية ، والذاتية الخاصة بطبيعة الطبقة وخصوصية حزبها ، قد لعبت الدور الأساسى فى سيادة المنهج اللاديمقراطى فى الحكم . وبدلا من أن يقال ، كما قيل ، ان تلك الظروف ، قد جعلت تلك الطبقة « محكوم عليها بالوطنية » . فالقول الحق ، أنه رغم وطنية هذه الطبقة ، فانها بقيادة حزبها العسكرى ، كان محكوما عليها بانتهاج سياسة ديكتاتورية .

* * *

الفصل الثانى

على مشارف عام ١٩٥٨

ويجىء عام ١٩٥٨ ، والنضال الشعبى الذى لم يتوقف ـ رغم كل القيود ـ مع وجود سلطة وطنية ، قد حقق ، منذ جاءت ثورة ٢٣ يوليو :

(أ) ازاحة السلطة القديمة وتولى البورجوازية الوطنية السلطة ، وهى الخطوة الأولى والضرورية لفتح الطريق أمام انطلاق الثورة الوطنية ، كما تم الغاء الملكية واعلان الجمهورية .

(ب) تنفيذ الاصلاح الزراعى الأول ، وهو احد الخطوات الهامة لتوسيع رقعة السوق المحلى ، وادخال قوى جديدة ، ذات قدرة شرائية تمكنها من المساهمة فى امتصاص السلع المحلية المنتجة ، أو المزمع انتاجها . كما أن هذه الخطوة تضرب الركائز الاقتصادية ، لأحد مكونات السلطة القديمة ، وتكسب الفلاحين المستفيدين من الاصلاح الزراعى ، والآملين فى تغيير تلك الاوضاع ، كركيزة سياسية للسلطة الجديدة .

(جـ) الصدام مع القوى الاستعمارية حول تسليح الجيش المصرى ، كجيش وطنى حديث ، ثم تفاقم الصدامات حول الاحلاف العسكرية ، والقواعد العسكرية ، والموقف فى باندونج ، والتعامل مع المعسكر الاشتراكى ، وانتهاج سياسة الحياد الايجابى .

(د) الاتجاه الى بناء السد العالى ، باعتباره ـ فى الأساس ـ مصدرا للطاقة ، والقوى المحركة ، لما هو مزمع اقامته من بناء صناعى وطنى .

(هـ) تصاعد الصدام مع القوى الاستعمارية ليبلغ ذروته فى تأميم قناة السويس ، ثم العدوان على مصر وصمودها شعبا وحكومة ، والإنسحاب الاستعمارى ، والغاء المعاهدة المصرية ـ البريطانية .

(و) اجراءات تمصير الشركات والبنوك الاستعمارية .

ان كل تلك الانتصارات ، تعتبر خطى هامة على طريق الثورة الوطنية . انها تعطى القوى الوطنية مواقع افضل فى صراعها ضد عدوها الرئيسى الا وهو الاستعمار . وبالتالى يفترض فيها ، ان تشكل عوامل دفع الى مراكز أخرى أكثر تقدما فى البناء الاقتصادى المستقل والتطور الاجتماعى

والديمقراطى ، مما يحقق توحيد الصفوف ، والاستمرار بالثورة لاستكمالها ، الا ان للبورجوازية الوطنية الحاكمة رأت فيما انجز ، تحقيقا لمصالحها الأساسية . فقد :

١ ــ تحقق لها استخلاص السوق المصرى ، الى حد كبير ، من قبضة المستعمر الأجنبى ٠

٢ ــ اتسعت رقعة السوق عما كان عليه ٠

٣ ــ بدأت فى الاعداد لتوفير مصدر للطاقة اللازمة لبنائها الصناعى ٠

٤ ــ توفرت لها بعض مصادر التمويل الداخلى والخارجى ٠

وهى بانفرادها بالسلطة تسعى الى الانفراد ايضا بكل المكاسب ، دون باقى الطبقات . ويكشف هذا ، عن أن محور صراعها ، كان نضالا من أجل « حقها » فى الاستغلال ، لا حق الشعب فى الاستقلال التام ، وتقرير مصيره ومسار ثورته .

انها الآن ، وفى حدود رؤيتها القاصرة ، ترى أن الخطر الخارجى قد غدا بعيدا ٠ وأن الخطر الداخلى هو الذى يطرح نفسه فى مواجهتها ٠ خطر الحركة الجماهيرية ، الرافضة لاستبدال السيد الاجنبى ، بسيد مصرى ٠

ويتزامن مع هذا الوضع اعلان تكوين الحزب الشيوعى المصرى الواحد فى اوائل عام ١٩٥٨ ، مما يجسد امامها ، مخاطر البديل ، ووجود قائد آخر ، فى ساحة النضال الوطنى ، يتبنى مطالب الجماهير والدفاع عنها ، والاستمرار بالثورة ٠

كان تكوين الحزب الشيوعى المصرى ، واحدا من اعظم انتصارات الطبقة العاملة المصرية ٠ ان هذا التأسيس لم يأت من فراغ ، ولكنه كان محصلة نضالات طويلة وتضحيات جسيمة .

فالشيوعيون المصريون ، وهم نبت اصيل لتربة النضال المصرى الوطنى والاجتماعى ، لهم وجودهم فى أرض الواقع المصرى منذ العشرينيات . الا ان ما يهم فى هذا المجال ، هو ذلك الوجود والفعل والفكر الذى حملوه وناضلوا من أجله فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، أى منذ الاربعينيات .

ان الشيوعيين المصريين هم الذين رفعوا ، فى مجال القضية الوطنية ، شعار الجلاء بالدماء ، فى الوقت الذى كان يسود فيه المنهج البورجوازى . لحل للقضية الوطنية ، بالتفاوض قبل الجلاء أو بعده • جاء شعار الجلاء بالدماء ، فى مواجهة قوات الاحتلال ، دعوة واضحة للمقاومة الشعبية ، والنضال حتى القتال •

كما ربط الشيوعيون المصريون ، ربطا تاما ، بين الوجود العسكرى الاستعمارى ، ووجوده الاقتصادى • ومن هنا حددوا ، ان الجلاء العسكرى . فى ذاته ، لا يحقق الاستقلال الحقيقى . ولذا رفعوا شعارات تأميم الممتلكات الاستعمارية ومصادرتها لحساب الشعب ، تطبيقا لمبدأ اعادة الحق المنهوب الى صاحبه الأصلى •

وهم الذين قالوا بان قضية التحرر الوطنى ، تستلزم التحرر ايضا من الطبقات التى ارتبطت بالاستعمار ومصالحه ، وشكلت القاعدة والواجهة التى اعتمد عليها الاستعمار فى فرض نفوذه على البلاد ومن هنا رفعوا شعار ، اسقاط الملكية ، واعلان الجمهورية ، وضرورة ضرب السلطة القديمة واستبدالها بسلطة الشعب الوطنية الديمقراطية •

وهم الذين قالوا ايضا بان قضية التحرير الوطنى ، قضية تخص كل القوى والطبقات الوطنية المعادية للاستعمار ، على أساس من مصالحها الاقتصادية ودورها الاجتماعى ، وهى العمال والفلاحون والمثقفون الثوريون والبورجوازية الصغيرة ، والوطنية . وطرحوا ، ايضا ، الشكل الذى يحقق وحده هذه القوى فى جبهة وطنية ديمقراطية • وكانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال عام ١٩٤٦ واحدا من انجح تلك الاشكال واهمها • وهى التى نظمت وقادت النضال الوطنى المصرى فى فترة من أصعب الفترات ، اثر الحرب العالمية الثانية . وهى التى اعدت وقادت يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ ، فى القاهرة ، والذى دارت خلاله معركة بين المصريين والمستعمرين على ارض ميدان الاسماعيلية (التحرير فيما بعد) ، والذى رحلت على اثره قوات الاحتلال من العواصم والمدن المصرية الى قنال السويس . وهو الذى غدا اليوم العيد العالمى للطلاب .

وهم الذين قالوا ايضا ، بأن حركة التحرير فى مصر جزء لا يتجزأ من حركة التحرير العربى ، وهم فى مقابل شعارات البورجوازية عن « نيل واحد وملك واحد » بالنسبة للقضية السودانية ، رفعوا شعارات « النضال المشترك ضد العدو المشترك » و « حق تقرير المصير للشعب

السودانى » • وهم الذين رفعوا — على النطاق العربى العام — فى وجه الدعاوى الاستعمارية والرجعية عن الدفاع المشترك والحلف الاسلامى والهلال الخصيب وحلف بغداد ، شعاراتهم ضد الاحلاف العسكرية والقواعد الأجنبية •

وهم الذين قالوا بان حركة التحرير فى مصر جزء لا يتجزأ من حركة التحرير العالمية المعادية للاستعمار . ومن هنا رفعوا شعارات التضامن مع الشعوب المناضلة من اجل حريتها والتضامن مع المعسكر الاشتراكى ، لموقفه المناصر لتحرير الشعوب ، وضرورة الاعتراف المتبادل مع بلدان هذا المعسكر .

وهم الذين ناضلوا من أجل السلام العالمى ، فى مواجهة الحروب الاستعمارية والعدوانية ، ومع الحروب التحريرية ، فالسلام لا يسود الا بالقضاء على مصدر الحروب ، الا وهى القوى الاستعمارية . ومن أجل ذلك لعبوا دورا بارزا واساسيا فى تكوين اللجنة القومية المصرية لانصار السلام ، كى تكون الوعاء الجبهوى الذى يضم كل القوى المناهضة للحرب ، العدوانية ، بغض النظر عن ارضيتها الاجتماعية أو العقائدية •

وهم ، بكل ما سبق ، قد وضعوا منهاجا متكاملا ، لمواجهة الاستعمار وعملائه : تحديد جبهة العدو ، تحديد جبهة الحلفاء ، وتحديد الهدف والوسيلة • ولم يكن هنالك ، على ارضية الواقع المصرى ، حزب واحد يملك مثل هذه الرؤية المحددة ، والصحيحة ايضا ، كما اثبتت الاحداث فيما بعد •

والشيوعيون المصريون هم الذين اعطوا للقضية الوطنية المصرية ، ابعادها الاقتصادية والاجتماعية والديمقراطية . ان تحرير الوطن ، لا يعنى ابدا تحرير ارادة فئة أو طبقة وطنية واحدة ، على حساب ارادة ومصالح باقى الطبقات • فالمواطن المصرى ، وهو يناضل من اجل الاستقلال الوطنى ، ويضحى فى سبيل ذلك بحياته ، لايقدم هذه التضحية هدية أو قربانا لمستغلين وقاهرين جدد ، من بنى جلدته • انه يقدم هذه التضحية ثمنا لمستقبل افضل ، من حاضره وماضيه ، لابنائه وأحفاده ، او بمعنى عام للاجيال القادمة • ومن هنا فان الوطن لا يكون محررا بالفعل ، الا اذا تحررت ارادة كل الوطنيين وتحققت مصالحهم .

والحقيقة ان هذا البعد ، الذى قدمه الشيوعيون ، للقضية الوطنية ، هو الذى جعل الطبقات البورجوازية ، بما فيها البورجوازية الوطنية ، تنظر

بعين الخوف والعداء الى الشيوعيين • ولذا فان الموقف من الشيوعية والشيوعيين ، كان فى حقيقته وجوهرة ، موقفا من حقوق الشعب • أن البورجوازية الوطنية ، وهى تسعى الى كسب الجماهير ، الى صفها ، وتحت قيادتها ، تحقيقا لمصالحها هى ، لم يكن فى وسعها ان تفصح عن نفسها وتفضح أهدافها ، وتكشف عن أن عداءها للشيوعيين ، انما يصدر عن موقفها منهم ، لدفاعهم عن حقوق الشعب ، كان عليها أن تلجأ الى اسلوب الاستعمار نفسه ، فتستعير منه ، كل قاذوراته ومزاعمه الكاذبة عن حماية الدين والاخلاق ، بغرض تضليل الجماهير وعزلها عن القيادة الأمينة على مصالحها ، لكسبها وراءها هى ، لحسابها الخاص •

ان الطابع السائد ، لنضال تلك المرحلة ، كان هو طابع النضال الوطنى . الا أن ذلك لم يجعل الشيوعيين يغفلون عن دورهم الطبقى المتميز • أى دور الدفاع عن حقوق الكادحين والمضطهدين • ان الطبقات والقوى الوطنية التى تواجه الاستعمار ، تتحد معا فى قضية تخليص الوطن منه ، الا انها تختلف فيما بينها – طبقا لحدود مصالحها – حول ناتج هذا الاستقلال ، وعلى من يعود . ان وجود ممثلى البورجوازية الوطنية الى جانب ممثلى العمال فى الجبهة الوطنية ، لا يعنى تنازل ايا منهم عن مصالحه ، كما لا يعنى أن التناقضات التى فيما بينهم قد تم تصفيتها ، ولكنه يعنى ، انهم أمام الخطر الواحد ، خطر الاستعمار ، الذى يقهرهم . يعالجون التناقضات فيما بينهم ، فى اطار خط الوحدة ، أى أن الجبهة الوطنية محكومة بخط الوحدة والصراع .

وطبقا لذلك فانهم ، فى الوقت الذى دعوا فيه الى وحدة كل الطبقات الوطنية ، وقفوا يدافعون عن حقوق العمال والكادحين المضطهدين . فناضلوا من أجل توحيد الطبقة العاملة فى منظماتها النقابية الديمقراطية ، ورفعوا شعارات استقلالية الحركة العمالية ، وحقها فى تكوين نقاباتها واتحاداتها واتحادها العام • وقادوا المعارك من أجل تحسين شروط العمل وظروفه ، ورفعوا مطالب تحديد ساعات العمل ، والحد الأدنى للأجر والمعاشات والتامينات على العجز والشيخوخة والاجازات مدفوعة الأجر .

وهم الذين خاضوا بعض المعارك دفاعا عن حقوق الفلاحين فى مواجهة قبضة كبار الملاك العائلية ، وطالبوا بضرب هذه الطبقة ، ورفعوا شعار الأرض لمن يفلحها ، من فقراء الفلاحين والمعدمين •

ووضعوا البرامج لرفع مستوى الجماهير الكادحة بصورة عامة ، وطالبوا بمجانية التعليم والعلاج وهم الذين طالبوا بمساواة المرأة بالرجل

فى الحقوق السياسية والاقتصادية ، باعتبار ان المرأة نصف المجتمع .

وهــم الذين وضعوا برنامجــا للحقوق الديمقراطيــة والحريات السياسية ، كالغاء الأحكام العرفية ، وحق الترشيح والانتخــاب لكــل المواطنين دون قيد أو عائق ، والاقتراع السرى المباشر . وطالبوا بحريــة التعبير والتنظيم والاجتماع والتظاهر والاضراب . حرية تكوين الاحــزاب الوطنية ، بما فيها الحزب الشيوعى .

وقدموا فى مجال الثقافة والفن مدرسة جديدة ، شــدت اليهــا خيرة المثقفين المصريين . وأصبح للقصة والقصيدة والمسرحية والفنون التشكيلية دورها فى معركة الشعب . وأصدروا الصحف والمجلات الوطنية ، واقاموا النوادى الثقافية والتعليمية .

لقد كان للشيوعيين المصريين ، فى تلك الفترة الحافلة بالمعــارك الوطنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، السابقة على ٢٣ يوليو ، طرح جديد على الواقع المصرى ، فيما يختص بقضية المرحلة التى تمر بها الثورة المصرية . كان لهم برنامج استراتيجى يغطى المرحلة كلها ، أى يضع الخطوط العامة لاستكمال الثورة الوطنية الديمقراطيـــة ، واسس الانتقال الى الاشتراكية . وبرامج تكتيكية ، تعالج الفترات المختلفــة ، داخل المرحلة ، وصولا الى الاستراتيجية .

وهم قد عانوا ، من أجل ذلك ، كل صـــنوف العنف والتعــذيب والاضطهاد والسجن والاعتقال والمطاردة .

كان للشيوعيين ، هذا الســجل الحــافل بالفكر والنهج والبرامج والشعارات والنضالات ، الا ان ما كان يضعف الشــيوعيين المصريين ، ولا يجعل لفطهم نفس قوة أفكارهم ، هو وضعهم الانقسامى . ان لهذا الوضع الانقسامى ظروف خاصة ، بعضها تاريخى مرتبط بالنشـــأة ، وبعضها ذاتى ، مرتبط بالطابع الغالب على عضويتها . ودون الدخــول فى هذه القضية ، بصورة تفصيلية ، فان الانقسامية كانت احد العوامل الأساسية التى تحد من انطلاقتهم ، كما يجب ، والقيام بدورهم ، كمــا يجب . اذ استهلك هذا الانقسام من جهدهم الكثير ، فى صراعات داخلية ، أو صراعات عقائدية ، فيما بينهم . وكان الانقسام بين صفوفهم ، يشكل رصيدا ، جيدا ، للقوى المتناقضة معهم ، ثانويا أو رئيسيا ، استفادت منه تمام الاستفادة . وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ، اشتد الخلاف ، فيما بينهم ، حول تقييمها ، وبالتالى الموقف منها . فالبعض ايدها والبعض

عارضها . ومنذ تلك اللحظة ، احتل الموقف من ٢٣ يوليو ، مكانا بارزا بين صفوف الشيوعيين . وغـــدا محورا لتحليلات وتفســـيرات ، تلتقى أو تتعارض ، تؤثربالايجاب أو السلب على وحدتها •

وفى عام ١٩٥٤ وخاصة بعد هبة مارس ، تتقارب مواقف المنظمـات الشيوعية المصرية المختلفة • وتتلاحق ضربات النظام لكل هذه المنظمات ، ويتصاعد النضال من أجل وحدة الحركة الشيوعية مع تصاعد النضـــال الوطنى الديمقــراطى الجماهيرى . ويطرح الكـــادر الأســـاسى للحركة الشيوعية ، قضية الوحدة فى صلابة واصرار . وتدخل هذه المعركة فى حيز التنفيذ ، اذ تبدأ بخمس منظمات هى : الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) ، طليعة الشيوعيين المصريين ، النجم الأحمر ، نواة الحزب الشيوعى والتيار الثورى (ت . ث . حدتو) • وتنتهى تلك المعركة فى فبراير ١٩٥٥ ، بوحدة هذه المنظمات واعلان تكوين الحزب الشيوعى المصرى الموحـــد •

ويأتى العدوان الاستعمارى الصهيونى عام ١٩٥٦ ، وتقف الحركة الشيوعية المصرية فى مجملها ، صفا واحدا مع باقى القوى الوطنيـــة فى مواجهة هذا الغزو • ويلعب الحزب الشيوعى المصرى الموحد دورا بارزا ، هاما وأساسيا فى تشكيل الجبهة الوطنية مع الحزب الحاكم ، فى قلب الأرض المحتلة فى بورسعيد . ويحرز خط الوحدة بين الشيوعيين انتصارا آخرا ، اذ يتوحد الحزب الشيوعى المصرى الموحد ، مع الحزب الشيوعى المصرى (الراية) ، ويعلن تكوين الحزب الشيوعى المصرى المتحد فى سبتمبر عام ١٩٥٦ . وتأتى انتخابات عام ١٩٥٧ ، ويخوض الشيوعيون المصريون هذه المعركة ، يطرحون برامجهم على الجماهير ، ويحرزون التفافا حقيقيا منها ، حولهم • الا ان الاتحاد القومى ، يسارع باستخدام « حقه » فى الاعتراض عليهم جميعـــا ، على وجـــه التقريب ، وحرمانهم من حق الترشيح • ويتصاعد خط الوحدة بين الشيوعيين ، محققا أهم انتصار تاريخى له ، اذ يتحد الحزب الشيوعى المصرى المتحد مع الحزب الشيوعى للعمال والفلاحين (ع • ف) ، ويعلن فى الثامن من يناير عام الف وتسعمائة وثمانية وخمسين تكوين الحزب الشيوعى المصرى . ذلك الحزب الذى ضم الغالبية الساحقة للحركة الشيوعية ، اذ ظلت خارج اطاره منظمتان ، محدودتا النفوذ الجماهيرى ، هما الطليعة الشيوعية (ط • ش) ، ووحـدة الشيوعيين (و • ش) •

وبذا توحدت قيادة الطبقة العاملة وطليعتها ، على نحو لم يسبق له مثيل ، منذ عادت الحركة الشيوعية المصرية الى الظهور ، فى جيلهـــا

الثانى ؛ فى الاربعينيات • وكان ذلك الحدث التاريخى انتصارا ضخمــا للطبقة العاملة المصرية ، وانجازا من أروع انجازاتها فى تاريخ الثــورة المصرية •

ان على هــذه الوحــدة ــ من زاوية المنهج المــاركسى ــ مآخذ عدة ، بل ومبدئية ايضا ، سوف تظهر فيما بعــد • الا أن الوحــدة ، امام البورجوازية الحاكمة والشعب المصرى ، قد حققت تكوين الحزب الواحد للشيوعيين المصريين ، الجامع لهم كلهة وتنظيما •

والخلاصة ، أن عام ١٩٥٨ يبــدأ ، فى الواقع المصرى ، بحزبين أساسيين • الحزب العسكرى الحــاكم ، حزب البورجوازية الوطنيــة المصرية • والحزب الشيوعى المصرى ، حزب الطبقــة العاملة المصرية والمدافع عن حقوق كل الجماهير الكادحة •

***

الفصل الثالث

كيف تطورت الأمور عام ١٩٥٨ ؟

كان عام ١٩٥٨ ، هو عام الموقف الدقيق ، عام مفترق الطرق . كان هنالك طريقان ، طريق يقول ان ما كسبته مصر ، فى معركة التحرير عظيم ، الا ان الخطر الذى يحيط به عظيم ، ايضا . فالاستعمار الذى فقد السوق المصرى ، الى حد كبير ، سوف يقاتل لاسترداده بكل السبل ، بل وأن جنونه سوف يزداد كلما احس الاخفاق ، وتأكد ضياع السوق منه . وأن السبيل الى مواجهة ذلك ، هو وحدة كل القوى الوطنية ، فى جبهة وطنية ديمقراطية ، بارادة حرة متساوية ، يحكمها منهج الوحدة والصراع . كان ذلك هو الطريق الذى طرحه الحزب الشيوعى المصرى ، وكل القوى الوطنية الديمقراطية والتقدمية .

وكان الطريق الآخر يقوم على أساس أن السوق المصرية قد خرجت من قبضة الاستعمار ، الى قبضة البورجوازية الوطنية المصرية ، وان انفراد البورجوازية الوطنية الحاكمة بالسوق واستغلاله لحسابها ، يواجه خطرا آخر هو الذى يحتل الآن المقدمة ، خطر الطبقات العمالية والشعبية الكادحة التى سيقع عليها هذا الاستغلال ، وبالتالى خطر الحزب الشيوعي المصرى الذى يتصدى للدفاع عن مصالح وحقوق هذه الطبقات .

كان الطريق الأول يعنى أن التناقض الرئيسى ما زال بين مجمل القوى الوطنية والاستعمار العالمى ، وكان الطريق الثانى يعنى أن التناقض الرئيسى لم يعد مع الاستعمار كقوى خارجية ، انما انتقل الى الداخل ، ما بين البورجوازية الوطنية الحاكمة والطبقة العاملة ، وكل الطبقات الشعبية والكادحة . ومن هنا ارتفع شعار ، انتهاء المعركة مع الاستعمار ، وبدايتها مع اليسار . وارتفعت ، عاليا ، راية العداء للشيوعية . واستعارت البورجوازية الحاكمة ، من الاستعمار ، كل ما فى قاموسه من أكاذيب . لقد اخلى السوق من الاستعمار بمعاونة اليسار ، واليوم يجب أن يخلى السوق من اليسار بمساعدة كل اساليب ووسائل الاستعمار ، بل وبالتنسيق معه .

يقول الدكتور فؤاد مرسى : « كانت معركة ، انتهاء المعركة مع الاستعمار وبدايتها مع اليسار ، معركة ترتب لها أمريكا بالذات . ومن هنا جاءت زيارة راونترى ، نائب وزير الخارجية الأمريكى ، الى مصر . وهى زيارة ذات دلالة خاصة . لأنها بنيت على اساس مناقشة

عبد الناصر ، والنظام المصرى ، فى طبيعة الثورة المصرية ، ومستقبلها ، ودور الثورة المصرية فى المنطقة العربية . ولقد تناولت الزيارة نقطتين ، الأولى . نهنئكم على نجاحكم فى المعركة الوطنية ضد الاستعمار . لقد كسبتم معركة النضال الوطنى ، وتحررت مصر نهائيا من الاستعمار . لقد انتهت المعركة مع الاستعمار ، وبدأت المعركة الداخلية بين الطبقات ، وعليكم ان تتنبهوا لهذا ، لأن هذه المعركة الطبقية ، هى التى يمكن للشيوعيين ان يضربوكم فيها . والنقطة الثانية هى : دور النظام داخل المنطقة العربية . وهنا كان التركيز على الخطر الشيوعى متمثلا فى اوضاع سوريا ، وفى النظام العراقى . وأن دور النظام المصرى يمكن أن يكون دورا مانعا للمد الشيوعى فى المنطقة العربية . هذه النظرية التى وضعت مع روانترى ، هى التى جاءت فى خطاب بورسعيد . خطاب جمال عبد الناصر يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ . وللتحضير لهذا الخطاب ، تم القيام بحملة اعلامية ، منظمة ودقيقة ، كانت من أبرع الحملات التى نمت . فالى جانب الحملة الموجهة الى النظام العراقى ، والى دور الشيوعيين هنـــاك ، تم التركيز على فكرة أسـاسية ، هى دور الشيوعيين فى مصر . وتصدت لهذه الحملة ، دفاعا عنها ، وتأصيلا لها ، أقلام سياسية ، فى مقدمتها : يوسف ادريس ، أحمد بهاء الدين ، محمد عودة وغيرهم . ثم جاء هيكل ، بعد الخطبة ، ليترجمها الى معانيها »(١) .

وفى مدينة بورسعيد ، التى ناضل الشيوعيون بين جماهيرها ، ضد قوات الغزو والعدوان ، وقف عبد الناصر ، فى عيد النصر ، ليعلن الحرب على الشيوعية ، متهما الشيوعيين بالعمالة والخيانة . الا ان هذا الاعلان سبقته مناوشات عديدة ، تدور فى مجملها ، حول قضية الوحدة : الوحدة العربية ، والوحـدة الداخلية .

قضية الوحـدة العربيـة :

ان الوحدة العربية ليست مجرد هدف مطلق فى ذاته . انها تجسيـــد للوحدة العربية المتحررة ، يجرى انجازها طبقا لتطورات محددة ، وبالشكل الذى يخدم هذه القضية ، ويدفع بها الى الامام . اذ ان شعار الوحدة العربية ، لم يكن ، فقط ، شعار القوى الوطنية والتقدمية ، لكنه كان ، ايضا ، شعار القوى الرجعية ، ترفعه من أجل تحقيق وحدات مشبوهة ، تخدم مشاريع استعمارية فى المنطقة .

ولقد اثيرت قضية الوحدة المصرية ـ السورية ، اثر حشود تركية ، على الحدود السورية ، بتحريض من القوى الاســتعمارية ، وخاصـــة

---

(١) لقاء شخصى معه فى ١٦ ، ٢٢/٤ ـ ٥ ، ١٢/٦ ـ ١٠/٧/١٩٨١

الأمريكية ، بهدف الضغط على سوريا ، لمنعها من التحول الى الشيوعية . كما ادعت الاوساط الاستعمارية حينذاك • ووقفت مصر الى جانب سوريا ، فتزايدت المطالبة الجماهيرية فى سوريا بالوحدة بين مصر وسوريا .

ووافق مجلس النواب السورى بالاجماع ، على الاتحاد الفيدرالى مع مصر . وكان خالد بكداش سكرتير الحزب الشيوعى السورى عضوا فيه ، حيث اعلن موقف الحزب ، فيه ، بقوله : « لقد دعونا دائما الى أن يؤخذ فى كل مشروع أو سعى الى الوحدة ، الظروف الموضوعية ، فى كل بلد بعين الاعتبار • ولا نزال عند رأينا . فحتى بعد ازالة الاقطاعية والبورجوازية الكبيرة من الحكم ، تبقى لكل بلد ظروفه الموضوعية ، وان تغير محتواها ، أو طرأ عليها بعض التعديل ، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية • وعلى كل حال ، يجب التمهيد للوحدة العربية ، باقامة علاقات اجتماعية اخوية بين البلدان العربية المتحررة ، تخلق جوا من الثقة المتبادلة ، التى يجب أن تتعاظم خلال التعاون السياسى والثقافى والاقتصادى » •

كما قال ايضا ، « لقد أبدى حزبنا ، من زمن طويل ، رأيه بان شعار الوحدة العربية ، ليس وليد نشاط أو دعاية حزب من الاحزاب ، بل هو منبثق من الواقع الموضوعى للبلدان العربية • فتحليل الوضع فى العالم العربى ، على أساس الماركسية اللينينية ، يؤدى حتما الى اعتناق شعار الوحدة العربية ، فهو اذن شعار تمليه علينا مبادؤنا نفسها ، وكل ادعاء آخر ، حول موقفنا نحن الشيوعيين ، من الوحدة العربية ، هو كلام باطل »(١) .

وكان حزب البعث الاشتراكى السورى ، يرى أن يكون الاتحاد فيدراليا •

وكتب وكيلا المخابرات المصرية ، شعراوى جمعه وأمين هويدى ، الى الرئيس جمال عبد الناصر ، ان « الفروق كبيرة ، والواقع مختلف ، وقبول الوحدة محفوف بالخطر ، والنصيحة هى : التأجيل »(٢) •

وكان أغلب اعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين ، الذين عرض عليهم جمال عبد الناصر الأمر ، ضد قيام الوحدة الاندماجية فورا ، ويفضلون عليها قيام اتحاد بين البلدين (٢) •

واعترض جمال عبد الناصر على الوحدة الفورية بين البلدين ، وفضل عليها ، قيام اتحاد فيدرالى مدة خمس سنوات على أن يعاد النظر فى أمر تلك الوحدة المقترحة بعد انتهاء تلك المدة (٢) .

---

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو ــ الجزء الثالث ــ أحمد حمروش .
(٢) مذكرات عبد اللطيف بغدادى ــ الجزء الثانى .

الا أن عبد اللطيف بغدادى يقول : « اضطررنا للاستجابة ، تفاديا لنفوذ الشيوعيين المتزايد فى سوريا » .

وينتقل موقف عبد الناصر الى الوحدة الشاملة ، وليس الاتحاد الفيدرالى ، حتى تتجمع كل خيوط الدولة الجديدة فى يده وتحت قيادته (١) . وينبع قبول عبد الناصر للوحدة ، من :

التيار الشعبى الشديد المؤيد للوحدة فى سوريا . اجماع العسكريين السوريين على الوحدة وقبولهم قيادة عبد الناصر بلا تردد .

الخوف من انتشار الشيوعية فى سوريا ومصر . الطموح الى ظهور اول تحقيق عملى للقومية العربية ، ممثلا فى أول دولة (١) . ويشترط من السوريين لقبوله هذه الوحدة ، حل الاحزاب وابتعاد ضباط الجيش عن الاشتغال بالسياسة (٢) .

أما موقف الحزب الشيوعى المصرى ، فيمكن تناوله من الدراسات والبيانات التى أصدرها الحزب فى تلك الفترة .

تقول كراسة : « مفهوم القومية العربية » ، الصادرة عن الحزب بقلم الرفيقين عباس وخالد ، « ... ان القومية العربية ، على هذا الأساس الذى أوضحناه ، ليست شعارا تكتيكيا ، ولا هى عصبية دينية . ان القومية العربية ليست تطلع طبقة اجتماعية صاعدة نحو اسواق جديدة ، بهدف تكوين امبراطورية جديدة ، تخدم اغراضها التوسعية . ان القومية العربية ظاهرة تكوين أمة ، لها كافة المقومات الأساسية ، للامة الواحدة ، وتناضل كافة فئاتها الوطنية والشعبية لتجمع شتاتها المبعثر ، وتكامل اقتصادها الممزق وتطويره ، وخلق سوقها المشتركة ، واستعادة ثرواتها وأراضيها التي سلبها الاستعمار ، والقضاء على كل القوى الرجعية الاستعمارية المعرقلة لنموها ، ورفع مستوى معيشة ابنائها ، وتطوير حياتها ، وتنمية ثقافتها ، والمساهمة ، مع كافة الشعوب والدول الوطنية والاشتراكية ، للقضاء على الحروب ، وصيانة السلام العالمى .

« انها ، فى جوهرها ، حركة شعبية نضالية معادية للاستعمار . فالاستعمار هو الذى أقام الحدود والحواجز فى وجه هذه القومية . مزق وحدتها . وطمس معالمها . وعرقل نموها . لهذا كانت معركة التوحيد ، فى جوهرها ، معركة معادية للاستعمار .

---

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو ـ الجزء الثالث ـ احمد حمروش .
(٢) مذكرات عبد اللطيف بغدادى ـ الجزء الثانى .

« انهـــا ، بالضرورة ، حركة تقدمية ، من الناحية الاجتماعية ، ففى نضالها ضد الاستعمار ، تناضل كذلك ضد عملائه وحلفائه من الاقطاعيين والاحتكاريين ، وهى تحرر ثروات أرضها وطاقات شعوبها من الاســـتغلال والاستعباد . وتحقق التكامل بين اقتصادها الممزق ، وتبنى اقتصـــادها الوطنى وتطوره . وتنمى ثقافتها الوطنية والشعبية ، وهى بهذا تتيح لابنائها ارتفاعا فى مستوى المعيشة ، كما توفر لهم حريات ديمقراطية متعاظمة »(١) .

كما يصدر المكتب السياسى للحزب فى ١٩٥٨/١/٢٧ بيانا يقول فيه : « فى هذه الايام المجيدة ، تحرز بلادنا العربية انتصارا جديدا بتحقيق هدف من أكبر أهدافنا الوطنية ، هو الوحدة بين مصر وسوريا . هذه الوحدة وان تكن بين بلدين عربيين ، الا انها تعبر عن ارادة الملايين من شعوب بلادنـــا جميعا ، وهى ثمرة لنضالها وتدعيم للانتصارات والمكاسب التى ســـاهمت جميعا فى تحقيقها ، وهى كذلك نقطة انطلاق نحو التحرر الشامل والوحـــدة الشاملة لقوميتنا العربية .

ولقد حملنا نحن الشيوعيين المصريين راية القومية العربية ، ودعونـــا الى تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا ، معبرين عن ارادة شعبنا ومصالحـــه الحيوية . مدركين ادراكا علميا واعيا ان هذه الوحدة هدف رئيسى من أهداف نضالنا الوطنى . ان الوحدة بين مصر وسوريا وحدة حقيقية ، لأنها وحـــدة متحررة بين بلدين مستقلين . وهو وحدة تدعم هذا الاستقلال وتثبته وتدفعه الى الامام ، وتحمى مصر وسوريا معا من مؤامرات الاســـتعمار ومشروعاته العدوانية والاستغلالية . انها وحدة ضد حلف بغـــداد وقواعده النووية والصاروخية ، وحدة ضد اسرائيل صنيعة الاستعمار والصهيونية . وحدة ضد مشروع ايزنهاور ، وحـدة ضد القوى الرجعية فى بلادنا العربية من عملاء الاستعمار وحكامه وبقايا الاقطاع والاحتكار »(١) .

كما أصدر الحزب الشيوعى المصرى بيانا عن الوحدة السورية المصرية فى فبراير ١٩٥٨ ، جاء فيه ، « ... يستخدم الاستعمار العالمى بقيـــادة امريكا جميع الوسـائل التى ترمى الى اضعاف القومية العربية وتأخير اندفاع الجماهير العربية فى طريق الوحدة . وهذه المؤامرات توجه من خارج البلدان العربية ومن داخلها سواء بسواء (ثم يتحدث البيان عن المؤامرات الخارجية وبعدها ينتقل الى المؤامرات الداخلية) ... وفى الوقت ذاته لم تقف قـــوى الاستعمار والرجعية عند حد التفريق بين الشيوعيين العرب ، وبقية الوطنيين

---

(١) الاحزاب الشيوعية فى الوطن العربى – الطبعة الأولى – تشرين الثانى ١٩٦٤ . القسم الثانى ملاحق – الياس مرقص .

للعرب ، بل انها بدأت تثير الذعر بين الطبقة الرأسمالية الوطنية فى مصر وبين مثيلتها فى سوريا • ومن هنا راحوا يشيعون فى مصر ان الوحدة ستصيب بالخراب صغار التجار ومتوسطيهم ، وبأن التجار المصريين سوف يكونون تحت رحمة التجار السوريين • واشاعوا أن الرأسمالية المصرية - وهى الرأسمالية الاقوى - ستزحف على سوريا لتستعمر وتستنزف دماء الشعب العربى فى سوريا ، وانها تمهد لذلك بالقضاء على الحريات وتشديد الكبت ضد الحزب الشيوعى السورى متعاونة فى ذلك مع الرجعية السورية •••• ولكن هل تعنى معارضتنا فى حل الاحزاب ، أن مستقبل الديمقراطية مظلم فى الجمهورية العربية المتحدة ، كلا لأنه لا يجب النظر الى مستقبل التطور الديمقراطى من زاوية وجود الاحزاب وحدها • ولكن يجب النظر الى المسألة من زاوية :

١ - ان القوى الشعبية والوطنية ستلتقى فى الدولة الواحدة وتتجمع وتناضل بكيفية فعالة ، من أجل توسيع الحريات الديمقراطية وتدعيمها •

٢ - أن السياسة الوطنية التحررية السائدة فى الجمهورية العربية المتحدة موجهة لاضعاف النفوذ الاستعمارى وتصفيته . وهذا يحقق الظروف الملائمة لتطور الديمقراطية ، كما تخلقها السياسة الديمقراطية التى ترمى الى تصفية الاقطاع وتصنيع البلاد وتطوير الزراعة فيها .

« ويجب علينا فى الوقت نفسه ان نحذر من أن تنحرف قضية الوحدة وتدعيمها الى وضع مسألة الاحزاب فى مركز الاحداث . فان المهمة الرئيسية هى فى الدفاع عن الوحدة الوليدة وحمايتها ، والتوعية لاهميتها العظمى ورفع الشعارات التى تؤدى الى تطويرها لمصلحة الشعب »(١) •

وفى منتصف عام ١٩٥٨ قامت ثورة العراق الوطنية ، ومزقت هذه الثورة حلف بغداد ، القلعة الاستعمارية فى المنطقة العربية • وكان هذا ايذانا بانطلاقة وطنية جارفة فى المنطقة كلها ، وجاء الى مصر وفد من الساسة العراقيين على رأسه ، رئيس الحزب الوطنى الديمقراطى « كامل الجادرجي ، الذى أوضح لعبد الناصر ، أن ملاحظته الوحيدة ، هى تعطيل الحريات فى مصر ، وطالب بالغاء الاتحاد القومى واعادة الاحزاب ، حتى يمكن قيام اتحاد فيدرالى ، الا ان عبد الناصر رفض تلك الرؤية (٢) .

ويصدر المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى ، فى سبتمبر ١٩٥٨ ، بيانا حول الاتحاد القومى ، ردا على أنور السادات ، جاء فيه « ••• ان

(١) نفس المصدر السابق •

(٢) قصة ثورة ٢٣ يوليو - الجزء الثالث - أحمد حمروش .

قضية الاتحاد القومى ، هى احدى القضايا الاساسية • وفيها تتجمع قضايا لها شأن خطير فى حياتنا السياسية ، الا وهى قضية الديمقراطية ، وقضية بناء الجبهة الوطنية • واليوم حين تطرح قضية الوحدة العربية وينظر العرب الى مصر التى يتخذونها مثالا لوحدتهم الكبرى ، فمن حقهم أن يقلقوا على مصير الديمقراطية فى بلادهم ، فى ظل الوحدة . انهم بطبيعة الحال يتأملون . مليا ، ما آلت اليه سوريا بعد وحدتها مع مصر . فقبل الوحـــدة ، كانت الديمقراطية المزدهرة ضمانا قويا لقيادة الجبهة الوطنية . ولما تمت الوحدة ، وعطلت الأحزاب والحياة الديمقراطية ، تعرضت الجبهـة الوطنيـة للخطر الشديد • ومن حق العراقيين ، اليوم ، ان يحرصوا على مطلب الاتحـــاد الفيدرالى كوسيلة للمحـــافظة على حرياتهم الديمقراطية وصـــون جبهتهم الوطنية »(١) .

من كل ما سبق يتضح ، ان الظروف التى ارتفعت فيها الدعوة لوضع الوحدة العربية موضع التنفيذ تجسيدا للقومية العربية ، كانت ظروف مد عربى شامل فى كل من مصر وسوريا والعراق ، فى نفس الوقت الذى كانت هنالك مؤامرات استعمارية تحيط بالبلدان العربية المتحرة الثلاث •

وانه لم تكن هنالك قوة وطنية عربية فى كل هذه البلدان الثلاث ترفض الوحدة العربية ، وان كانت تختلف فى الشكل الذى تتم به هذه الوحدة ، رغم انها بدأت جميعا متقاربة تدور حول فكرة الاتحاد الفيدرالى .

الا ان عبد الناصر ينتقل من الاتحاد الفيدرالى الى الوحدة الاندماجية • ويتهم كل مخالف له بالشيوعية والعمالة والخيانة ، محاولا بث الخوف فى القوى الوطنية غير الشيوعية ، ومجمعا حوله كل القوى المعادية للشيوعية .

وتبدو المسألة ، هنا ، للوهلة الأولى ، غريبة • لقد كان هو نفســه مع الاتحاد الفيدرالى ، فكيف به يهاجم ويدين هؤلاء الذين ظلوا على قناعاتهم المبدئية ، ولم يتحولوا معه عندما تحول ؟ والمسألة ، فى الحقيقة ، لا غرابة فيها . حيث ان الخلاف حول الشكل الذى تتم به الوحدة العربية ، لم يكن مجرد خلاف على مسمى ، ليس مجرد خلاف شكلى ، ولكنه كان خلافا على مضمون الوحدة ذاتها . كانت القوى التى تؤمن بان القومية العربية تتجســد فى وحدة الشعوب العربية المتحررة ، وان وحدة هذه الشعوب ، بل تحررها ذاته ، أمر تستهدفه القوى الاستعمارية ، ترى ضرورة ، ايجاد الشـــكل

---

(١) انظر الملحق رقم (١) •

الافضل والانسب للوحدة العربية ، الذى يدعم وحدة الشعوب العربية ، فى مواجهة القوى الاستعمارية • وكان ذلك الشكل ، من وجهة نظرها ، هو الاتحاد الفيدرالى ، الذى يؤكد حرية هذه الشعوب وارادتها ، فى وحدتها ، مراعيا الخصائص المحلية لكل شعب من هذه الشعوب •

وكان عبد الناصر قد بدأ يرى ، أن المعركة مع الاستعمار قد انتهت ، وانها قد بدأت مع اليسار عامة والشيوعية خاصة • وبالتالى يجب أن تحقق الوحدة العربية ، « ضمانا ضد القوى الداخلية ، لا القوى الخارجية » • وكان الشكل الاندماجى للوحده (والذى تحول اليه ، ايضا ، حزب البعث السورى ، وجناح فى البعث العراقى) هو الشكل الانسب لعمليات الفرز الداخلى ، وفرض الحزب الواحد ، حزب التجربة المصرية العسكرية ، مما يشدد من قبضة عبد الناصر ، ليس فى المجال المحلى ، فقط ، ولكن فى المجال القومى ايضا • ان هذا الشكل الشمولى ، هو وحده القادر أن يمنحه القدرة على تحقيق ارادته هو ، ومن يمثله طبقيا ، والقادر ، ايضا ، على اخضاع الاوضاع الداخلية محليا وعربيا ، لنفس تلك الارادة ايضا • وقد صرح عبد الناصر فى ١٧ ابريل ١٩٥٩ للصحفى الهندى كرانجيا ، « ليس بالقومية العربية اى خطأ ، الا أنها معرضة ، فى الوقت الحاضر ، لهجوم من الحركات الهدامة . اننا نقاتل معركة دفاعية ، ضد الشيوعية ومطامعها ، كما سبق أن قاتلنا ضد الاستعمار الغربى »(١) • وفى ختام حديثه قال انه يتوقع كفاحا طويلا بين الشيوعيين والقوميين العرب •

حقيقة لم يكن فى القومية العربية اى خطأ ، لكن الخطأ كان فى نظرة عبد الناصر ، فى كيفية تحقيقها . وما أصاب وحدة الشعوب العربية ، داخليا وقوميا ، من جراء تطبيق هذا المنهج الاندماجى الشمولى . يقول عبد اللطيف بغدادى ، « ..... وقد وضح لنا ، فى بداية عملنا هناك (سوريا) قوة عبد الحميد السراج وقبضته البوليسية على الشعب السورى . حتى اطلق عليه افراد الشعب اسم السلطان عبد الحميد باشا ، اشارة منهم الى عبد الحميد سلطان تركيا المستبد فى عهد الدولة العثمانية ... وكان عبد الحميد السراج ، موضع ثقة جمال ومساندته

والتقى بنا بعض من الصحفيين هناك ، وعلمنا منهم إن الناس فى سوريا ، تشعر بالخوف وعدم الأمان »(٢) •

لقد قدم الشعب السورى لعبد الناصر اعظم الاستقبالات • قدم له الحب والثقة والالتفاف حوله كبطل وطنى قومى ، فقدم له عبد الناصر

---

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو — الجزء الثالث — أحمد حمروش
(٢) مذكرات عبد اللطيف بغدادى — الجزء الثانى •

« سلطانا سوريا » ، اطاح بكل مكتسباته الديمقراطية ، وفرض عليه الخوف والارهاب • وجعل من سجن المزة ، بإستيل القرن العشرين ، الذى تخجل منه بعض معتقلات النازية •

كان ، فى الامكان ، لو طبق الاتحاد الفيدرالى ، أن تتسرب الاوضاع الديمقراطية من سوريا الى مصر • اما فى ظل الوحدة الاندماجية ، فقد كان مؤكدا أن يسيطر الشكل الديكتاتورى للحزب الواحد ، على مصير الشعب السورى •

وتقدم اليه شعب العراق ، يطلب الاتحاد الفيدرالى ، فرفضه . وشن على العراق حربا صليبية ، متهما اياه بمعاداة الوحدة العربية ، رافعا ، فى وجهه ، راية العداء للشيوعية . ولم يكن حكام العراق شيوعيين • « ففى ٢٩ ابريل أصدر الحزب الشيوعى العراقى بيانا طالب فيه بالمشاركة فى الحكم . وقاسم يجيب ، بأنه يريد حزبا يقضى به على كل الاحزاب . قائلا ان الشعب هو حزبه • ورغم الشعارات اليسارية والصورة الحمراء التى اكتست بها العراق ، كان عبد الكريم قاسم ، لا يزيد عن كونه ضابطا عسكريا ، يريد أن ينفرد بالسلطة فى يده ، ويلعب لعبة التوازن ، ويرفض التعاون المخلص مع الطبقة العاملة ، لتحقيق وحدة وطنية كاملة ، فى مواجهة اخطار الامبريالية والرجعية »(١) •

كان الحزب الشيوعى العراقى ، مستبعدا من الحكم ، بل ويعانى من نظام الحكم القائم حينذاك • لقد كان عبد الكريم قاسم ، فى الحقيقة ، أقرب الى أن يكون عبد الناصر آخر ، وتلك كانت واحدة من أركان المشكلة • وتعددت المؤامرات للاطاحة به حتى قتل . وذبح الشيوعيون ، الذين استبعدهم ، وهم يدافعون عن النظام الوطنى العراقى •

وقال عبد الناصر ، فى أول خطاب له بعد هذا الحدث البشع ، « الحمد لله » • ثم « اهدى الحرس القومى ، الذى كان يرأسه على صالح السعدى ، ٢٠٫٠٠٠ رشاشا مصريا ، سافرت فورا الى العراق ، لتسليح الحرس القومى ، بعد أن بدأ يلعب دورا هاما وبارزا فى اشاعة الارهاب بين الجماهير »(١) .

عبد الحميد السراج وسجن المزة فى سوريا ، والقتل والاذابة فى الاحماض كما حدث لفرج الله الحلو سكرتير الحزب الشيوعى اللبنانى (٢) ، وعلى صالح السعدى ومذابح الرشاشات فى العراق . تلك كانت قوى الوحدة الاندماجية ، فى التطبيق ، كما يراها عبد الناصر .

---

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو ــ الجزء الثالث ــ أحمد حمروش .

(٢) انظر الملحق رقم (٢) .

وتعددت الانقلابات فى العراق ، حتى وصـــل الأمر الى وجود قوات عسكرية مصرية ، هناك ، تحت تصرف رئيس الجمهورية ، لحمايته • وتمزق العراق وتشرذمت منظماته السياسية ، وغرست العداوة والحساسية بين الانجاهات الوطنية المختلفة .

وكان حصاد معركة الوحدة العربية ، تجسيدا للقومية العربية ، طبقا لنهج عبد الناصر وارادته ؛ انفصـــال سوريا بعد أن مورس فى شـــعبها وقواها الوطنية والتقدمية ، ابشع صور التعذيب والتنكيل • وتمزق العراق بتمزق قواه الوطنية ، وطحنت القوى التقدمية والديمقراطية فى مصر •

انتهى هذا المنهج ، الى اضعاف الساحة العربية ، بما أوقعه فى اشد القوى عنادا فى عدائها الفعلى للاستعمار والصهيونية • حتى اذا جاء عام ١٩٦٧ ، كان الطريق سهلا امام الغزوة الاستعمارية الصهيونية ، لتجتاح المنطقة فى ستة ايام ، أو فى ست ساعات • وليثبت الاستعمار بنفسه ، خطأ نظرية انتهاء المعركة معه ، وما ترتب عليها ، وصـــدق نظرية أن العـــدو الرئيسى ؛ ما زال هو الاستعمار ، وما كان يجب ان يترتب عليها •

قضية الوحـدة الداخليـة :

كان الاتحاد القومى ، هو هيئة التحرير ، فى اســـتمرارها ، من حيث الشكل والهدف . فالشكل ، يحقق اطار أو وعاء تنظيمى واحد ، يضم كل القوى ، تحت قيادة الحزب العسكرى ، دون ســـواه من القوى الوطنيـة الأخرى • والهدف ، هو السيطرة التامة على الحركة والارادة الجماهيرية • ومحاولة حل المعادلة الصعبة التى خلقها الحزب العسكرى نفســـه : كيف يستفيد بالدعم الجماهيرى ، مع وضعه فى اطار يخضعه لارادته . يقول أحمد حمروش : « ظلت المشكلة الدائمة هى حرص المجموعة العســكرية على امتصاص النشاط العام أو اسكاته وكانت تقع دائما ، فى تناقض شديد . بين الرغبة فى اكتساب ثقة الجماهير ، مع اضعافها ، وشل فاعليتها ، معضلة بلا حل • الحرص على سلطة الديكتاتورية ، والرغبة فى لبس ثياب الديمقراطية »(١) .

كان هذا الشكل التنظيمى ، يحقق دعم الانفراد بالحكم ، وبالتـــالى يضمن الانفراد بمكاسب الثورة • ولقد ظل قادة ٢٣ يوليو ينفون عنه صفـــة الحزب ، أو الجبهة ، أو الجهاز الادارى ، ويجيبون ، ان ســـئلوا ، عن

---

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو ــ الجزء الثانى ــ أحمد حمروش •

طبيعته ، بجمل انشائية ، كما فعل انور السادات ، عندما كان رئيسا له ، اذ قال : « الاتحاد القومى هو جمال عبد الناصر الرمز » . ولقد كانت ، تلك الاجابة ، دون أن يقصدها صاحبها ، حينذاك ، تعبيرا صادقا عن حقيقة الاتحاد القومى . انه الشكل الذى يمارس من خلاله عبد الناصر ، السلطات المطلقة .

كان الاتحاد القومى ، بما اسبغ عليه من سلطات العزل وحق الاعتراض ، ومنح صفة المواطنة والوطنية ، للبعض ، وحجبها عن البعض الآخر ، أداة تمزيق قومى ، لا توحيد قومى . وكان المنهج الذى يربى عليه أعضاءه يفصح عن هويته . حيث كان أحد بنود العمل السياسى الأساسية المطلوبة من الأعضاء ، هو كتابة تقارير أمنية ، عن بعضهم البعض ، وعمن هم خارج الاتحاد القومى ، حتى أنه يمكن القول ، ان الاتحاد القومى كان مدرسة حقيقية لتدريب كثير من العناصر على ممارسة العمل البوليسى ، باعتباره عملا سياسيا .

واتهم كل معارض ، لهذا الشكل ، بتخريب الجبهة الداخلية ، وخيانة الوحدة الوطنية .

ولقد تصدى المكتب السياسى للحزب الشيوعى المصرى ، لهذه المزاعم الباطلة ، فى بيانه « حول الاتحاد القومى – رد على السيد انور السادات » فى ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ . حيث جاء فى هذا البيان ، « ...... لا يمكن أن يتهم الشيوعيون بأنهم يخربون الجبهة الوطنية ، حين يكشفون عن جوانب النقص الفادح فى تكوين الاتحاد القومى . ان الشيوعيين اشد انصار الجبهة الوطنية ، التى تحتاج اليها بلادنا لتقود كفاحنا الوطنى . انهم يناضلون من أجل بناء جبهة وطنية حقيقية ، كتلك التى توجد فى اندونيسيا او العراق . ولكنهم يرون ، الخطر كل الخطر ، على الوحدة الوطنية ، فيما يقوم به الاتحاد القومى ، وهو حزب ، فى محاولات لفرض نفسه على الشعب ، بينما يحرم الشعب من حرية تنظيم نفسه بنفسه . ان الجبهة الوطنية التى تضم العمال والفلاحين والمثقفين وصغار الرأسماليين والرأسماليين الوطنيين ، هى اتحاد حر اختيارى ، يضم عدة طبقات ، وهو بالتالى أوسع من ان يكون حزبا . وليس الاتحاد القومى ، باعتراف السيد / انور السادات ، جبهة وطنية ، بل هو ، على حد قوله : « فوق الجبهات » وبهذا الموقف نجد الاتحاد القومى ، يرفض تكوين الجبهة الوطنية ، ويمنع قيام الاحزاب الوطنية ، ويفرض نفسه على جميع الوطنيين حزبا بالاكراه . وعندئذ ، فلا مفر من

انفضاض الجماهير عن الاتحاد القومى ، ولابد ان يستمر انعزال الحكومة عن الشعب • وليس أمام السيد / السادات ، عندئذ ، غير أن يحمل على الشعب ، ويقول ، (ان حكومة الثورة هى التى كانت تتولى الى الآن ، مهام الدفاع عنا وقيادتنا • اما نحن ، كشعب ، فكان موقفنا متخلفا جدا عن موقف حكومتنا) •

« .... وحرصا منا ، فى الخاتمة ، على تحديد راينا ، بدقة ، نحاول هنا أن نجمله فى النقاط التالية :

أولا – ان الشيوعيين المصريين يناضلون لتكوين جبهة وطنية ، تضم جميع القوى الوطنية فى مصر ، على أساس حر اختيارى ، وليس على الاكراه أو التمييز .

ثانيا – ان الشيوعيين المصريين يناضلون من أجل اقامة ديمقراطية موجهة ، لا ديمقراطية على النمط الغربى ، وذلك على اساس السماح بحرية تكوين الاحزاب للطبقات والفئات الوطنية ، وليس للطبقات او الفئات الرجعية والخائنة .

ثالثا – أن الشيوعيين يعتبرون الاحزاب الوطنية ، هى الأساس الوطيد ، لتكوين الجبهة الوطنية ، فالاحزاب وسيلة لتوحيد طبقاتها ، ومن ثم ، فهى وسيلة لتوحيد الوطنيين جميعا ، فى جبهة احدة .

رابعا – أن الشيوعيين المصريين يعتبرون ان الاتحاد القومى حزب ، وأنه حزب الرأسمالية الوطنية الحاكمة ، وأنه ليس جبهة على الاطلاق • وأنه بوصفه حزبا وطنيا ، يعتبر حزبا حليفا ، نتحد معه ونتصارع ضده ، فى وقت واحد »(١) •

ويفشل الاتحاد القومى ، فشلا ذريعا ، فى تحقيق « الوحدة الوطنية » ، كما زعم قادته • كان ، بطبيعته وشكله وهدفه ، بعيدا عن احلام الشعب المصرى ، وأمانيه فيما يجب أن تكون عليه أحواله بعد أن استقل وتحرر •

واذا كان هذا الوعاء ، المنفرد بكل الحقوق السياسية والمزايا الاجتماعية ، مرفوضا من شعب مصر ، فانه كان مرفوضا ، بصورة أشد عنفا ، من الشعوب العربية المتحررة • وغدت محاولة فرضه على البلدان العربية ، عقبة كؤودا امام انجاز الوحدة العربية • والحقيقة ، انه ما كان فى وسع الشكل الذى فشل محليا ، على النطاق المصرى ، ان ينجح ، قوميا ،

---

(١) نص البيان فى الملحق رقم (١) •

على النطاق العربى · انه شكل حزبى ، يفرق ولا يوحد ، يمزق ولا يجمع ، فكيف به يكون اداة للتوحيد القومى !

ويعلن عبد الناصر ، بعد الانفصال السورى ، أن الاتحاد القومى ، لم يكن يزيد عن لافتة تنظيمية ، دون فاعلية حقيقية · وكان معنى ذلك ، فى الحد الأدنى ، انه تجربة فاشلة · وأن من رفضوه من قبل ، وخاصة الشيوعيين ، كانوا ابعد نظرا ، واعمق رؤية ، وأقدر على التعبير الصادق عن ارادة الشعب المصرى والشعوب العربية ، وطنيا ، وقوميا . وانه ، بناء على ذلك ، يلزم مراجعة الموقف منهم ايجابيا ، وكذا من أفكارهم عن الجبهة طريقا للوحدة الوطنية الا ان عبد الناصر وحزبه ، يصران على نفس النهج ، مع تغيير المسمى ، ويصبح « الاتحاد الاشتراكى » بديلا عن « الاتحاد القومى » .

ان الانفصال السورى قد تحقق على يد القوى الرجعية التى كانت تحتل مواقع قيادية فى الاتحاد القومى فى سوريا . ويتحقق نفس الأمر ، ضد عبد الناصر ، ذاته بعد وفاته ، من قلب الاتحاد الاشتراكى وقممه العليا . اذ يقوم الجناح اليمينى للحزب العسكرى ، بقيادة أنور السادات ، نائب الرئيس السابق ، والرئيس الجديد للجمهورية ، بانقلاب ١٥ مايو ، متخذا من قضية الديمقراطية المفقودة ، والتى كانت الجماهير تتطلع اليها بشغف عارم ، ساتر دخان ، يخفى وراءه أهدافه الحقيقية ، والتى هى أهداف الجناح اليمينى من البورجوازية الوطنية ، ذلك الجناح الذى نما وترعرع واتخم ، فى ظل الاوضاع السابقة ، والتى غدت تلك الاوضاع ، بعد نموه هذا، قيدا عليه . وكان الارتداد عن كل ما حققه الشعب المصرى من انجازات ومكاسب وطنية واقتصادية واجتماعية . ويقف الاتحاد الاشتراكى مترهلا ، عاجزا ، متفرجا ، على معظم قادته ، وهم يقادون الى حيث قادوا ، من قبل ، آلاف المناضلين ، الى السجون وخلف جدران الزنازين .



كان عام ١٩٥٨ هو عام القمة ، وعام الازمة ايضا · الازمة التى فرضها النظام على القوى الوطنية والتقدمية · وكان عام الاختيار أيضا ، الذى حدد فيه عبد الناصر وحزبه وطبقته ، انتهاء المعركة مع الاستعمار ، وبدايتها مع اليسار . وكان ذلك بداية الطريق الى الانكسار ، عام ١٩٦٧ ثم سيطرة الجناح اليمينى عام ١٩٧١ ، لتصل مصر ، رغم معركة اكتوبر ١٩٧٣ ، الى هزيمة كامب دافيد · والانفتاح الاقتصادى ، والزحف المتنامى فى اتجاه التبعية للاستعمار العالمى ، بشركاته عبر القومية ·

الفصل الرابع

الصراع داخل الحزب الشيوعى المصرى

صعد عبد الناصر ، عام ١٩٥٨ ، صراعه مع الحزب الشيوعى المصرى ، من خارجه وفى مواجهته ، وفى ذات الوقت ، اشتد الصراع داخل الحزب نفسه ، حول ذات القضايا ، التى كانت مثار خلاف مع عبد الناصر ٠

لقد توحدت الغالبية الساحقة من الشيوعيين المصريين ، فى الحزب الشيوعى المصرى ، فى ٨ يناير عام ١٩٥٨ ، الا ان أحد نواقص هذه الوحدة ، انها تمت على أساس وثيقة سياسية عامة ، بما يعنى ، وجود قضايا سياسية لم يتم التوصل الى اتفاق حولها ، وظلت ، هذه القضايا ، معلقة ، تحت التصفية داخل الحزب الواحد . وربما كان هذا القصور ، من الناحية المبدئية العامة ، غير ذى خطورة ٠ اذ يمكن فى الحزب السياسى الواحد الموحد ، فى أى وقت من الاوقات ، أن يتعرض لنشوب خلاف سياسى حاد ، فى داخله ، حول قضية ما يطرحها الواقع فى حركته وتجدده . الا ان الخطورة فى القصور الذى نتناوله ، انه كان تعبيرا عن تأصيلات نظرية وفكرية متباينة ، تدعمها نظريات تنظيمية انقسامية . وهكذا ، شكل هذا القصور فى الوحدة ، خطرا جسيما عليها ، اى على الحزب نفسه ٠

الخلاف حول قضية الوحدة والطبيعة الطبقية للسلطة :

لقد دار الخلاف ، داخل الحزب ، حول قضية الوحدة ، ايضا . الوحدة الوطنية المحلية والوحدة العربية . تضاف اليهـا قضية هامة للغاية ، هى قضية الطبيعة الطبقية للسلطة ، وأهمية هذه القضية ، فى أن تحديدها ، يترتب عليه مواقف عملية ، قد تتباين الى أقصى درجات التباين ٠

والحقيقة التاريخية هى أن أحدا ، من الذين اتحدوا داخل حزب ، عام ١٩٥٨ ، لم يختلف حول كونها بورجوازية وطنية . وهنا كان الاتفاق العام . الا أن هذا الاتفاق العام لم يحل دون وجود خلافات جذرية حول مفهوم البورجوازية الوطنية الحاكمة ، ودورها فى الثورة المصرية ٠ وفى هذا الصدد كانت هنالك ثلاثة أفكار رئيسية :

(أ) البورجوازية الوطنية التقليدية :

تقول هذه الفكرة بأن البورجوازية الحاكمة ، بورجوازية وطنية ، ينطبق عليها ، كل ما ينطبق على مثيلاتها ، فى البلدان المستعمرة والتابعة ٠

مصدر وطنيتها ، نضالها ، فى مواجهة الاستعمار ، من أجل استخلاص السوق المحلى من قبضته ، لبناء مجتمع رأسمالى · وهى لهذا ذات طبيعة زدوجة . اذ أن ما تستهدفه ، يجعل لها معركة فى مواجهة الاستعمار ، واخرى فى مواجهة الحركة الجماهيرية ، وخاصة الطبقات العاملة والكادحة · وتتضح تلك الطبيعة المزدوجة فى استعانتها بكلا القوتين ، فى مواجهة بعضهما البعض ، لحسابها الخاص · فهى ان تعرضت للضغوط الاستعمارية لجأت الى الشعب تواجه به هذه الضغوط · وهى ان تعرضت للضغوط الشعبية والجماهيرية ، هادنت القوى الاستعمارية كى تضمن حماية ظهرها ، وهى تواجه الجماهير ·

وهى طبقة غير متجانسة ، سوف تنمو أجزاء منها ، وتحقق مصالحها ، وتعمل على تجميد الثورة ، والوقوف بها عند الحد الذى بلغته ، والمحدود بتلك المصالح · وهذا الانسلاخ ، لتلك الشرائح أو الفئات عملية مستمرة . ولهذا لابد وأن يدور بداخلها صراع ، بين من تحققت مصالحة ، وبين من لم تتحقق مصالحه بعد · الا ان حسم هذا الصراع ، لن يكون لحساب استمرار الثورة ، ما لم تكن الجماهير الشعبية ، هى العامل الفاعل فى هذا الحسم . وهذا لن يتأتى ، الا اذا توفرت الحريات السياسية الحقيقية لهذه الجماهير ، لتكون قادرة على الفعل والتأثير . ولما كانت البورجوازية الحاكمة ، منفردة بالسلطة ، مانعة عن الشعب كل حقوقه وحرياته السياسية ، فان المعركة داخل هذه البورجوازية ، لابد وان تكون معركة علوية ، وبالتالى لابد وأن الحسم فيها ، فى نهاية الأمر ، لحساب الشرائح والفئات الاقوى اقتصاديا . وهذه الشرائح والفئات تتجه ، بحكم مصالحها الى الاستعمار ، تهادنه ، وتتعاون معه ، بل وتصبح وكيلة عنه فى استغلال الشعب وامتصاص خيرات الوطن .

ان استمرار الثورة ، مرتبط باستمرار تحقيق مصالح الجماهير العاملة والكادحة ، والتى تتجدد حاجاتها وتتطور من مرحلة الى مرحلة ، الأمر الذى لا يمكن أن تحققه الا قيادة نابعة من هذه الجماهير ، تعمل بها ، وتعبر عن مصالحها الأساسية . ان قضية قيادة الثورة ، قضية جوهرية ، فهذه القيادة تسبغ على حركة الثورة ، كثيرا من طباعها وخصوصياتها . وهذه القيادة يلزم ان تكون فرزا طبيعيا للثورة ، لا تأتى بقرار ذاتى ، أو بالقهر والقسر ، والا كانت قيادة مفتعلة ، لا تعبر ، بصدق ، عن الثورة . ان القيادة الحقيقية، هى تلك التى تملك الرؤية الصادقة لمجرى الثورة ، فى حدودها الدنيا والقصوى ، فى مراحلها المختلفة . وهى التى تملك ، ايضا ، صلابة القائد فى الدفاع عن أهداف الثورة ، والعمل على تحقيقها .

وتطبيقا لهذه النظرة ، فان البورجوازية الوطنية الحاكمة ، فصيل من قوى الثورة ، وجزء لا يتجزأ من قوى الجبهة ، التى تضم العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين والبورجوازية الصغيرة ، والوطنية • وأن هناك فئات من الاخيرة سوف تنسلخ عن مجرى الثورة ، وتقف فى جبهة العدو ، وأن البورجوازية الوطنية وان كانت تقود الثورة فى المرحلة الحالية ، الا انها ليست الطبقة المؤهلة لقيادة المرحلة كلها • اذ أن استكمال هذه المرحلة ، من الثورة الوطنية الديمقراطية ، يقتضى وضع اسس الانتقال الى الاشتراكية ، مما يتعارض مع مصالحها فى البناء الرأسمالى ، وخاصة أجزائها العليا •

وكانت وجهة النظر هذه ترى ، أيضا ، أن هنالك نقاط التقاء برنامجية تشكل خطا للجبهة فى مواجهة الاستعمار والصهيونية • وأن هنالك نقاط خلاف حول الديمقراطية والحريات السياسية والحقوق الجماهيرية • وأن هذه النقاط سوف تكون محاور صراع ، لابد أن يدار على ارض الوحدة • أى أن منهج التعامل فى داخل الجبهة ، يقتضى الندية فى الحقوق السياسية للأطراف الوطنية المختلفة ، على أسس من الديمقراطية ، والاشتراك الفعلى للجماهير ، فى كل أعمالها ، طبقا لقاعدة الوحدة والصراع . وأن هذه الجبهة تستلزم ، بناء على ذلك ، حق كل الطبقات الوطنية ، صاحبة المصلحة فى الثورة واستمرارها ، فى تكوين أحزابها ، دون أن يكون للاحزاب الرجعية هذا الحق • أى ما يمكن تسميته بالديمقراطية الموجهة ، أو ديمقراطية الجبهة الوطنية .

وان الاتحاد القومى ، طبقا لهذه النظرة ، وبالصورة التى هو عليها ، انما هو حزب للطبقة الحاكمة ، تسعى به الى نفى حق القوى الوطنية الأخرى فى تكوين أحزابها . وأن يكون هو بديلا عن الجبهة ، لا لتوحيد القوى الوطنية للاستمرار بالثورة ، ولكن لفرض قيادة البورجوازية الحاكمة على القوى الوطنية ، بعد تفكيكها وتمزيقها . وبذا فهو اداة لسيطرة الطبقة الحاكمة على الحياة السياسية ، وعلى مجرى الثورة ، منفردة . ويشكل عائقا أمام النمو الطبيعى الديمقراطى للحركة الجماهيرية ، ولمسار الثورة .

وترى هذه النظرة ، فيما يختص بالوحدة العربية ، ضرورة هذه الوحدة ، تحقيقا وتجسيدا للقومية العربية ، التى هى فى الأساس ، وحدة تحرير ، فى مواجهة القوى الاستعمارية ، للسير بالثورة على النطاق القومى • الا أن هذه النظرة ترى أن البلدان العربية المتحررة ، بالاضافة الى كل السمات القومية المشتركة ، ليست على نفس الدرجة من التطور الاقتصادى ، والنضج السياسى ، والتراث الخاص ، أى أن هنالك تفاوتات فيما بينها ، يمكن أن تسمى بالخصوصيات المحلية ، التى ان لم توضع فى الاعتبار ، عند اتمام الوحدة ، يمكن أن تتحول الى عوامل تدمر هذه الوحدة ، وبذا

تجهض قضية الوحدة ، وتنتكس بقضية القومية • ان الشكل الذى تتم بـه الوحدة ؛ سوف يحدد مسارها ، فاما الى نجاح واما الى فشل ، وأن الشكل الانسب ، الذى يراعى الخصوصيات ، هو الاتحاد الفيدرالى • والذى يبـدأ بالمستوى القـــائم ، ليرتقى به ، لا لـــيرتد عنه • وبالتـــالى فان الوحدة الاندماجية ، التى يسعى النظام المصرى ، لفرضها على البلدان العربيـة المتحررة والساعية الى الوحدة ، سوف يصيب الوحدة بالدمار ، أى أن الوحدة القومية يجب أن تكون وحدة تحررية ديمقراطية •

(ب) البورجوازية الوطنية ــ المحكوم عليها بالوطنية :

أما الفكرة الثانية ، فتقول ، ايضـــا ، بأن البورجوازية الحاكمة ، بورجوازية وطنية • الا انها ثابتة الوطنية أو محكوم عليها بالوطنية •

يقول الدكتور فؤاد مرسى ، « انها بورجوازية وطنية ، ومحكـوم عليها بالوطنية • كان هذا هو التحليل السليم لطبيعة البورجوازية الوطنية ، الطبيعة المزدوجة ، دائما ، المعادية للاستعمار ، لكنها فى نفس الوقت ، معادية للشعب • وعندئذ ، فهى عندما تلتقى مع الشعب ، يكون طابعهـــا المعادى للاستعمار بارزا ، وعندما تلتقى مع الاستعمار ، خوفا من الشعب : فان طابعها المعادى للشعب ، وخاصة المعادى للديمقراطية ، يكون بارزا . هذه الطبيعة المزدوجة ، للبورجوازية الوطنية ، يجب الا ننساه . واذا كنت ابرزت طابعها كطبقة وطنية ، فان هذا لا ينفى ، ابدا ، جانبها الثانى .

« وأحب أن أوضح أن الظروف التى يشهدها العالم ، من ازدياد المـد الاشتراكى فى العالم ، وانحسار المد الإمبريالى ، وبالتالى انحسار المـــد الراسمالى ، يفرض على هذه البورجوازية أن تتصلب أكثر فأكثر . لا يفرض هذا عليها ككل ، وهذه النقطة يلزم أن نأخذ بالنا منها • ان اجزاء منها تنفصل عنها ، الطبقات العليا التى ترى ، فى التعـــاون والتضـــامن والاندماج فى الراسمالية العالمية ، مصالحها . أجزاء أخرى منها تزداد تصلبا ، وجذرية ، وراديكالية ، وترى أنه محكوم عليها بأن تكون وطنية ، بمعنى أن الظروف العالمية تقول لها ، لا سبيل الا أن تكون وطنية لكى توجـــد . لأن الفرقة الأخرى ، صحيح تنمو أكثر ، وتصبح أكثر ثراء ، وأكثر دخلا ، لكنها تصبح استعمارية ، أو ملحقة بالاستعمار ، ولا وجود لها فى ركب وطنى داخـــل البلاد ، بمعنى أن مجال الثورة الوطنية ، لا يبقى من البورجوازية ، الا تلك الفئات التى يتصلب عودها ، وتزداد جذرية مواقفها ضد الاستعمار »(١) .

---

(١) نفس اللقاء الشخصى معه •

ويرى هذا الفكر ، أن هذه للبورجوازية الوطنية ، حليف داخل الجبهة الوطنية الديمقراطية · وأن منهج التعامل داخل هذه الجبهة ، هو منهج الوحدة والصراع ·

ويبدو هذا الفكر للوهلة الأولى ، قريبا من الفكر الأول ، ماعدا « جزئية » ، أن البورجوازية الوطنية أو قطاعات منها محكوم عليها بالوطنية · الا ان هذه « الجزئية » ، فى الحقيقة ، جوهرية للغاية ، فان كانت الفكرتان تتفقان فى المسمى العام للطبيعة الطبقية ، الا وهى البورجوازية الوطنية ، الا انها يختلفان ، جوهريا فى خصائص هذه الطبقة · فالفكرة الثانية ، قد اضفت على هذه الطبقة من الصفات ما يخرجها عن طبيعتها ، ويضعها فى اطار طبقى جديد ، ضمن الطبقات جذرية الموقف من الاستعمار ، أى أقرب ما يكون ، أن لم يتطابق ، بوجه خاص ، مع الطبقة العاملة · فهذه الاضافة ، « الجزئية » ، من الفكرة الثانية الى الفكرة الأولى ، هى فى واقع الأمر ، نفى لأى لقاء بين الفكرتين · حيث ان الألتقاء أو الاختلاف ، ليس مجرد خلاف سياسى « جزئى » ، لكنه فى الحقيقة خلاف ايديولوجى كلى · كيف ذلك ؟

ان هـذا الفكر :

* يعطى للبورجوازية الوطنية ، عامة ، أو لقطاعات منها ، خاصة ، صفات ليست لها ، بأى حال فى الأحوال ، الا وهى جذرية الموقف من الاستعمار ، حيث أن هذه الجذرية من الاستعمار ، تعنى ، فى النهاية ، ان لم يكن من البداية ، موقفا من الرأسمالية ذاتها . ويصبح تناقضها مع الاستعمار ليس مرتبطا ، فى الأساس ، بمسألة السوق ، التى هى قضية البورجوازية الوطنية ، أيا كانت قطاعاتها ، أو فئاتها ، أو شرائحها ، ولكن التناقض هنا سوف يكون متصلا ، طبقيا لازدياد تصلب بعض هذه الشرائح ، وراديكاليتها ، مما يتبعه ، بالضرورة ، المساس بأسس الرأسمالية ذاتها . وهو موقف لا يتسق ، نظريا ، أو عمليا ، مع مصالح وطبيعة العلاقات التى تسعى لها أى بورجوازية كبيرة كانت ، أو متوسطة ، أو حتى صغيرة .

* يربط الجذرية فى الموقف الطبقى بالظروف العالمية ، ان الظروف العالمية المواتية أو المعاكسة ، لها تأثير كبير ، فى كثير من المواقف ، الا انهما ليست للعامل الحاسم فى أى تغيير · اذ أن التغيير الفعلى ، لابد وأن يأتى من الداخل . والعامل الذى يمكن ان يشل تردد قطاعات من البورجوازية الوطنية ، هو عامل الحركة الجماهيرية فى الداخل ، وقدرتها على الفعل والتأثير ، لفرض هذا الشلل ، فرضا . فان كانت الحركة الجماهيرية مضروبة ، بيد

هذه البورجوازية الوطنية ، فهى ، اذن ، التى تحاول شل الحركة الجماهيرية ، ومنع فعلها الحاسم الاثر عليها . وكيف بها لا تستجيب للاثر الداخلى وتضربه حتى العجز والشلل ، ثم تتأثر بالعوامل الخارجية ، التى تتجاوب فى الاساس ، مع التوجهات الجماهيرية التى تضربها ، هى بنفسها ، فى الداخـــل • !

* يفترض ثبات الوطنية ، للبورجوازية الوطنية ، أو قطاعات منها • وهو بهذه الفرضية ، التى اعتبرها حقيقة تاريخية ، قد نفى عن هذه البورجوازية صفة الطبيعة المزدوجة . ان الطبيعة المزدوجة نفترض التهادن مع الشعب حينا ، والتهادن مع الاستعمار حينا آخر . وهـذه الصفة الأخيرة تتنافى مع جذرية وراديكالية الموقف من الاستعمار • ومن هنا ، فان منهج الوحدة والصراع ، مع هذه القطاعات الجذرية الموقف من الاستعمار ، لابد أن يكون منهج وحـدة . وان يخفت الجزء الآخر منه ، والخاص بالصراع ، قدر الامكـــان ، حتى لا تخـــاف تلك القطـــاعات الراديكالية ، وترتد عن مواقفها الجذرية •

* يطرح راديكالية الموقف ضد الاستعمار ، عند بعض قطاعات هذه الطبقة ، ثم لا ينكر ممارستها الديكتاتورية على الحركة الجماهيرية • وهو بذلك يضعنا أمام بورجوازية وطنية من نوع جديد : راديكالية الموقف من الاستعمار ، راديكالية الموقف فى مواجهة الحركة الجماهيرية • وحيث أن هذه الطبقة فى السلطة ، أو حيث أن هذه القطاعات الراديكالية ، منها فى السلطة ، وعلى رأسها جمال عبد الناصر ، يصبح ، « واجبا ثوريا » ، العمل على تحويل الراديكالية المواجهة لحركة الجماهير ، الى راديكاليـة مع حركة الجماهير . وبذا تتسق راديكاليتها الخارجية ، مع تلك المزمع أن تكون داخلية • ومن أجل تحقيق ذلك ، يجب أن تزال « العقبات » التى تخيف تلك القطاعات ، باعتبارها عقبات أمام هذا « التحول التاريخى » ، حتى وان كانت واحدة من تلك « العقبات » ، هى الوجود المســـتقل للحزب الشيوعى المصرى !

ان خطورة هذا الفكر ، كانت تكمن فى أنه يفقد صاحبه كل يقظـة طبقية . انه يضفى على البورجوازية الوطنية ، أو قطاعات منها ، صفات ليست لها ، ويسقط عليها ، قدرات وامكانيات تتجاوز حدودها الطبقية الى طبقات أخرى ثورية ، وبذلك يحرم ، « نظريا » ، « وموضوعيا » ، هذه الطبقات الأخيرة من دورها • ان خطورة اى فكر ، هى فى الدور الذى يمكن لهذا الفكر أن يقود اليه صاحبه . ان متابعة هذا الفكر تبين ، بصورة أكثر وضوحا ، ماذا كان يحمل فى طياته .

يقول الدكتور فؤاد مرسى ، « ساد نوع من المفهوم الرأسمالى للتنميه الاقتصادية ؛ وبخاصة فى سنوات المد الثورى ، وانتعاش الحركة الوطنية ، فى اعقاب ١٩١٩ ، وبخاصة الحركة الوطنية فى عام ١٩٤٦ . عندئذ ساد ، بقدر أو آخر ، مفهوم شبه رأسمالى للتنمية الاقتصادية . لذلك قامت ثورة يوليو لتعلن — عمليا — فشل هذا المفهوم .... ولهذا اعلنت ثورة يوليو ، منذ بداية الستينيات ، وبعد تجربة حافلة فى تجريب المفهوم الرأسمالى ، أن التقدم مستحيل فى ظل هذا المفهوم ، وبدأت ، من ثم تجربة أخرى ، فى ظل المفهوم اللارأسمالى للتنمية الاقتصادية .... وعندئذ فقط ، تم التخلى ، من واقع التجربة وحدها ، عن المفهوم الرأسمالى للتنمية الاقتصادية .... المفهوم اللارأسمالى للتنمية ، لم تعرفه — ولو بشكل قاصر تماما — الا لمدة اربع سنوات فحسب . بعدها لم يطبق ، على الاطلاق . (منذ اجراءات يوليو ١٩٦١ حتى عام ١٩٦٥) .... تعثر المفهوم اللارأسمالى ، لأنه افتقد ، منذ البداية ، أهم مقوماته جميعا ، وهو وجود السلطة السياسية للدولة بايدى تحالف طبقى ، تلعب فيه الطبقة العاملة دورا حاسما »(١) .

ويقول الدكتور فؤاد مرسى ، « نظام الثورة ، منذ ١٩٥٢ ، حتى وفاة عبد الناصر ، تطور فى تمثيله الطبقى . ولم يثبت ، على الاطلاق ، على تمثيل واحد . فى البداية كان يمثل مجموعة من الطبقات الوطنية ، بما فيها الرأسمالية الكبيرة ، ذات اتجاهات وطنية ، راغبة فى السوق وما اليها . وهنالك مجموعة ممثلة للاخوان المسلمين ، ومحمد نجيب ودوره ، وموقف عبد الرازق السنهورى ، سليمان حافظ وعلى — ماهر ، بمعنى أن النظام ، فى البداية ، كان ممثلا لتحالف طبقى ، موجود فيه اليمين الاجتماعى ، بصورة واضحة ، ولكن فيه ، ايضا ، يسار : يوسف صديق وخالد محى الدين ، ممثلين للفكر والحركة الشيوعية ، وعديد غيرهم من الضباط الاحرار . هنا يوجد تحالف واسع ، لكن من القوة الاساسية ؟ كانت القوة الأساسية هى البورجوازية الوطنية ، والتى لم تتبلور معالمها بعد . بعد ذلك انسلخت من هذا التحالف أجزاء وأجزاء ، حسب تقدم الثورة ، فى مراحلها المختلفة . ففى المرحلة التى وجه فيها النضال ضد الاقطاع بضراوة من ٥٢ — ٥٤ ، انفصلت عنها اجزاء ، على ماهر وغيره . وفى المرحلة التى بدأت تواجه فيها الرأسمالية المحلية الكبيرة وندعوها الى الدخول فى الاستثمارات وما اليها ، وجدنا انها تصدر قوانين وقرارات تنظيم الرأسمالية . ومن ٥٤ — ٥٦ وجدنا انها تدخل فى

---

(١) مجلة الطليعة — عدد نوفمبر ١٩٧٥ .

مفاوضات مع الاستعمار الانجليزى ، وغزل مع الاستعمار الأمريكى . فى ذلك الوقت أخذت الاتجاهات الأمريكية داخل النظام فى النمو . واخذت الاتجاهات الانجليزية فى الاضمحلال . ثم وصل الصراع الى حرب ٥٦ ، وعندئذ انكشف ، بوضوح ، الطابع الوطنى للثورة ، كثورة معـــادية للاستعمار ، راغبة فى استئصاله ، وليس مجرد التوافق معه أو التعايش معه . انها ، مستندة الى نتائج باندونج ، ودورها الجديد ، أخذت تطرح معارك قوية مع الاستعمار . وفرضت عليها حرب ٥٦ . لكنها استخلصت منها معان كبيرة ، هى التصفية الجذرية للمصالح الاقتصادية الامبريالية . ولقد دفع ، هذا ، الثورة فى طريق جديد ، هو طريق التنمية الاقتصادية ، التى كنا نقول ، انها يجب ان تكون اجتماعية ، ايضا . طريق التنميـة الاقتصادية والاجتماعية ، أوصل الثورة الى برامج التصنيع . ثم دخـل بها فيما بعد ، الى ضرورة التخطيط ، فعملت أول خطة اعتمدت فيهـا على الراسمالية المصرية بالكامل . دور قطاع الدولة كان دورا ثانويا ، وبالتالى أصبح دور الخطة فى مهب الريح . ومن هنا ، تم تصحيح هـذا العمـل باجراءات يوليو ٦١ . اذ عندما طرحت نتائج السنة الأولى من الخطة على عبد الناصر ، وجدها هزيلة تنبىء كلها بعدم تحقيق الخطة فى أوانها ، فاضطر أن يدخل باجراءات يوليو ٦١ وما تلاها ، اجراءات ٦٣ ، ٦٤ وهكذ ا. وأصبحنا فى دورة ديناميكية للحياة الاجتماعية فى مصر ، الجانب الاقتصادى والاجتماعى والسياسى كله معا . وتلك هى التى دفعت مصر الى الامام .

هنا التحالف الطبقى الذى كان ملتفا حول الثورة أو تمثله الثورة حتى ٦١ ، كان مكونا من البورجوازية الوطنية ، فى الأساس ، بأجنحتها المختلفة . عند اجراءات يوليو ٦١ ، انفصل جزء جديد ، لأن الثورة بدأت تصفى الرأسمالية الكبيرة المصرية ، وبدأت فى التصفية النهائية للاقطاع المصرى . التصفية الأولية عام ٥٢ . وعندما رأت نمو الاقطاع ونمـو الرأســمالية الريفية ، دخلت على اجـراءات يوليـو ٦١ ، وبـذا كانت اجراءات يوليو ، تصفية للرأســمالية الكبيرة المصرية ، وتصفية نهائية للاقطاع المصرى أو شبه الاقطاع المصرى . عندئذ ، وخاصة بعد ما اعلنت الميثـاق الوطنى فى ٦٢ ، وأن الطريق قد أصبح هو طريق التحولات الاشتراكية . وأن الهدف هو اقامة الاشتراكية ، والغاء استغلال الانسان للانسان ، من خلال القطاع العام ، الملكية العامة ، من خـلال التخطيط ، ومن خلال التعاون ، والاعتماد على الشعب منظما ، الشعب العامل فى الاتحاد الاشتراكى ، ثم الحزب الطليعى ، عندئذ طرح المثـل

الأعلى لما يسمى بالطريق اللارأسمالى • طرح من فبراير ٦٢ الى يونيو ٦٥ • كمثل لم يوضع فى التطبيق ، لأنه افتقد الشرط الأساسى وهو السلطة • هنا ، لمدة سنتين وربع ، فقط ، طرح الطريق اللارأسمالى ، كمثل أعلى ، حاول النظام تطبيقه ، لكنه لم يطبقه •

الأمران الرئيسيان فى الطريق اللارأسمالى ، جوهر الطريق اللارأسمالى ، السلطة الشعبية ، سلطة تتشكل لأول مرة من الطبقة العاملة والبورجوازية الصغيرة ، ومثقفيهم ، واجزاء من الراسمالية الوطنية الى تقبل المسار ، والتوجه الاشتراكى ، التوجه الموضوعى الفعلى الرسمى القومى ، كله معا • التوجه بان الاشتراكية العلمية هى الهادى والمنهج ، وأن هدفك هو الغاء استغلال الانسان للانسان • وان طريقك هو الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج الأساسية والاعتماد على التعاون كشكل مكمل لهذا ، ثم هنالك شروط أخرى ، فى تقديرى ، اقل اهمية ، ولكنها حاسمة ، شرط أول ، هو درجة ضرب اعداء الاشتراكية داخل البلد ، والشرط الثانى ، هو درجة مواجهتك لاعداء الاشتراكية والوطنية الخارجيين ، والشرط الثالث ، هو مدى ارتباطك بالعالم الاشتراكى • هذه هى الشروط الثلاث الأخرى المواتية للشرطين الجوهريين . الشرطان الجوهريان ، كان منهم شرط متوفر وشرط آخر غير متوفر . الشرط المتوفر كان هو التوجه نحو الاشتراكية ، كان موضوعا بالافعال والاقوال . التوجه نحو الاشتراكية العلمية ، اذ كان مقبولا عندئذ الدفاع عن الاشتراكية العلمية وأصولها الماركسية اللينينية .

فى عام ٥٢ ، كان حلف البورجوازية • فى عام ٥٦ البورجوازية الوطنية أساسا داخل هذا الحلف . فى عام ٦١ أصبحت البورجوازية الوطنية هى التى تقف ضد البورجوازية الكبيرة وتقوم بتصفيتها ، وعندئذ بدأت تعتمد على فئات وعناصر أخرى من الشعب ، من البورجوازية الصغيرة وتدخلها الحكم معها ، ولكن دون ان تعطيها الكيان كممثلة للبورجوازية الصغيرة . جاء التمثيل فى الميثاق الوطنى الذى طرح قضية التمثيل . المؤتمر الذى صدر عنه الميثاق تحدث بلسان البورجوازية الوطنية وبلسان البورجوازية الصغيرة • انتصرت البورجوازية الوطنية ، حتى اليمينية ، فى أعمال المؤتمر ، وهى التى أعدت تقرير المؤتمر • وهو تقرير رجعى ، لذا طمسه عبد الناصر ولم يعتمد عليه ، واستند الى الميثاق نفسه من ٦٢ حتى وفاته • التقرير كان رجعى ، بين الفرق بين خطين ، خط البورجوازية اليمينية المصرة على احتواء الثورة ، وهى توقف ، وتضع عقبات ، أو تجمد مسار الثورة ، وبين الخط الذى اتخذه عبد الناصر داخل

المؤتمر والذى يعبر عنه الميثاق الوطنى أساسا • هنا بدأ يظهر الشعب والطبقة العاملة كتحالف قوى الشعب العاملة • بدأت الايديولوجية تتوجه نحو الاشتراكية العلمية • الاشتراكية العلمية كما يراها النظام •

واستمر النظام فى هذا الوضع ، بورجوازية وطنية أساسا ، لكن فى تحالف واسع ، فئاتها اليمينية وفئاتها اليسارية ، وجزء من البورجوازية الصغيرة حتى هزيمة ٦٧ • عند الهزيمة انفصلت البورجوازية اليمينية التى كانت بداخل النظام ، لأنهـا هى التى قادت الى الهزيمـة ممثلة فى مجموعة العسكريين ومجموعة التكنوقراطيين التابعين لعبد المنعم القيسونى ومحمود يونس • انفصلت فى مارس بعد صدور برنامج أو بيـان ٣٠ مارس ، الذى كان أول عمل يقول ، البورجوازية الصغيرة تأتى لتشارك فى الحكم . وأعيد انتخاب قيادات الاتحاد الاشتراكى وبالذات أمانات الأقسام والمراكز ، أساسا ، نوابا للشعب . هذه التركيبة هى التى ادخلت البورجوازية الصغيرة ، لأول مرة ، فى السلطة . وأصبح لها لسـانها ومفهومها ، الذى عبرت عنه داخل الاتحاد الاشتراكى ٦٨ والذى حـل عام ٧١ .

وانا ازعم ان عبد النـاصر ، ابتداء من ٦٢ ، بصفة خاصة ، قـد اصبح ممثل البورجوازية الصغيرة فى داخـل مصر ، وليس فى داخـل السلطة . ومع ذلك كانت القيادة فى ايدى البورجوازية الوطنية ، بل وفى أيدى الاجزاء اليمينية منها ، مجموعة عامر وخلافه »(١) .

ان هذه الافكار التى يطرحهـا الدكتور فؤاد مرسى على صفحات الطليعة أو فى اللقاء الشخصى معه ، لم تكن هكـذا عام ١٩٥٨ . الا ان بذرتها ، بالتأكيد ، كانت موجودة فى مقولة أن قطاعات من البورجوازية الوطنية محكوم عليها بالوطنية ، ثم نضجت وتطورت فى نفس هـذا الاتجاه ، لتقدم لنا برجوازية وطنية من نوع جديدة • تأتى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتعلن عمليا ، فشل المفهوم الرأسمالى للتنمية ، وتحاول تجربة وتطبيق المفهوم اللارأسمالى للتنمية الاقتصادية ، يتوفر فيها شرط التوجه نحو الاشتتراكية بالافعال والاقوال ، وتأخذ ايديولوجيتها فى التوجه نحو الاشـتراكية العلمية طبقا لرؤيتها . أى انها فى الحقيقة ، تكاد تكون الطبقة العاملة المصرية فى مرحلة استكمال الثورة الوطنية الديمقراطية ووضـع أسس الانتقال الى الاشتراكية • الا ان الطبقة العاملة ليست فى السلطة : حتى يستقيم طريق التطور اللارأسمالى . والطبقة البورجوازية الوطنيـة التى هى من نوع جديد ، فى السلطة ، تحمل كل سمات الطبقة العـاملة وخواصها ، ماعدا اسمها ، أو رايتها • فان دمجت الرايتان ، راية الطبقة

---

(١) نفس اللقاء الشخصى السـابق .

العاملة ، الممثلة فى الحزب الشيوعى المصرى ، وراية هذه البورجوازية الجديدة ، الممثلة فى الاتحاد الاشتراكى ، فى تنظيم طليعى واحد ، فقد تحقق الشرط ، غير المتوافر ، وشقت الثورة مسارها ٠

الا ان شيئا من هذا لم يحدث ، حتى بعد تسليم راية الطبقة العاملة للبورجوازية الوطنية « الراديكالية الجديدة » ، لأن كل تلك الأفكار ، كانت اسقاطا على الواقع ، لا تعبيرا عن حقيقته ٠

ان القول ، عام ١٩٥٨ ، بان البورجوازية الوطنية ، أو قطاعات منها ، محكوم عليها بالوطنية ، يمكن اعتباره « مقولة الأساس » التى بنيت عليها تلك المتتاليات فى التحليل والتقييم الطبقى فيما بعد ٠ فان كانت مقولة الاساس مخالفة للواقع وطبائع الاشياء ، فان كل ما يقوم عليها يكون ايضا مخالفا للواقع وطبائع الاشياء ٠

ان هذا الفكر ، عند التطبيق العملى له ، فى قضية الوحدة الوطنية فى الداخل ، يدعم حزب البورجوازية الحاكمة ، « الاتحاد القومى » ، بالدعوة الى تحويله الى جبهة وطنية ، وذلك بالسماح للشيوعيين بالانضمام اليه ، مع الغاء بعض قواعده المقيدة ، كحق الاعتراض أو القانون رقم ٨ ٠ ويصبح الموقف من الوحدة العربية ، موقفا نابعا من منظور البورجوازية الوطنية المصرية الحاكمة ٠ ان الموقف من حل الاحزاب فى سوريا ، موقف يتم لاعتراض عليه ، الا ان هذا الاعتراض ، يتحول الى مجرد ، تحفظ ، لا أكثر ولا أقل ، « ان الاصح هو أن نضع قضية انجاح الوحدة وحمايتها ، فوق كل قضية داخلية »(١) ويصبح الموقف الديمقراطى ، ليس هو التمسك بالخصائص المحلية والحريات السياسية والديمقراطية ، ولكن لموقف الديمقرطى « الصحيح » أو « الأصح » هو دعم الوحدة .

ويتحدث هذا الفكر ، أيضا ، عن الوحدة والصراع داخل الجبهة الوطنية ، الا ان الصراع الذى يخوضه ضد شكل الوحدة العربية ــ وهو الأمر الجوهرى الذى لا ينفصل عنها ــ يتحول الى تحفظ يلزم التحذير من التمسك به ، والاصرار عليه ، اذ من : « الخطأ أن نحصر موضوع الوحدة فى هذه الزاوية الضيقة ، زاوية حل الاحزاب »(١) . ويصبح الموقف العام والعملى ، فى النهاية ، مطابقا لموقف البورجوازية الحاكمة . انه يضخم فى

---

(١) الاحزاب الشيوعية فى الوطن العربى ــ الطبعة الأولى ــ تشرين الثانى ١٩٦٤ ــ القسم الثانى ملاحق ــ الياس مرقص ٠

نقاط الاتفاق (جانب الوحدة) ، ويهون من نقاط الخلاف (جانب الصراع) ، بحيث يطمس الصراع لحساب ما يسمى بالوحدة . ويغدو فى آخر الأمر ، منهجا ذيليا للبورجوازية الوطنية الحاكمة ؛ يقف على أرضها ، يتبنى منهاجها ، ويؤيد مواقفها .

(جـ) بورجوازية وطنية ـ ذات قيادة تمتلك طاقات ثورية كامنة، ومتجددة :

تقول هذه الفكرة ، ان البورجوازية المصرية الحاكمة ، بورجوازية وطنية ، الا ان قادة يوليو ٥٢ كانوا يمتلكون طاقات ثورية كامنة ومتجددة .

يقول محمد يوسف الجندى ، « كنا نعتبر السلطة فى يد البورجوازية الوطنية ، وهى ليست فئة واحدة ، لكنها تمثل فئات يمينية ، وفئات أكثر تقدما ، وكنا نعتبر ، أن عبد الناصر والمجموعة التى معه ، هى التى تمثل القوى المتقدمة فى البورجوازية الوطنية . وكنا نسعى لعمل تحالف مع عبد الناصر والمجموعة التى معه ، فى السلطة . وكنا نعتبر ان القوى اليمينية التى فى السلطة تحاول ضرب هذا التحالف . وتحاول جر عبد الناصر ، والحكومة ككل ، بقيادته ، الى الاتجاه اليمينى . ولهذا ؛ عندما تشكل الاتحاد القومى ، كان رأينا ان ندخله ونكافح من داخله ، لتحويله الى جبهة . أما الخلافات التى بيننا وبين عبد الناصر ، فلم نكن نعتبرها فى الصدارة . نقول عن هذه الخلافات ، لكنها ليست الأمر الذى نبرزه . ونركز على النقاط الايجابية ، التى يمكن أن تحقق التحالف . وكان هذا هو نفس موقفنا من الوحدة المصرية ـ السورية . كنا نعتبر هذه الوحدة ، خطوة كبيرة ضد الاستعمار . وأن الاستعمار يضرب هذه الوحدة ، ونحن نركز على حماية الوحدة ، ولا نركز على النواحى السلبية بها . على أساس ان هنالك معركة ضارية ضد الاستعمار فى ذلك الوقت ، خصوصا بعد ثورة العراق ، التى كانت انتصارا كبيرا ، وسقوط حلف بغداد . وكان تأكيدنا على ضرورة التحالف بين الثورة المصرية والثورة العراقية . وأن كل القوى الوطنية فى مصر وفى العراق تقف يدا واحدة ضد الاستعمار . وكان تقديرنا أن الاستعمار ، سيحاول اللعب . وهو قد لعب فعلا فى اتجاه تقسيم القوى الوطنية ، بضرب الشيوعيين ، بغيرهم من القوى الوطنية ، وقد حدث ذلك فى مصر . وفى محاولة ضرب ناصر بقاسم ، ومحاولة ضرب الشيوعيين العراقيين بعبد الناصر ، ومحاولة تقسيم كل القوى الوطنية داخل العالم العربى . ولذا كان توجهنا هو لم

الشمل ضد الاستعمار ، وأن العدو الرئيسى هو الاستعمار ، ولذا فقد كنا ضد المقولة ، التى كان يقول فيها هيكل ، أن المعركة ضد الاستعمار قد انتهت ، وأصبحت المعركة ، الآن ، مع اليسار ، لأننا لم نكن نعتبر أن المعركة مع الاستعمار قد انتهت • وإذا كنا قد كسبنا معركة لاستقلال السياسى ، فان معركة الاستقلال الاقتصادى ومعركة حركة التحرير الوطنى العربية ضد الاستعمار ، أكثر شراسة وأكثر عنفا ، ولابد من توحيد جهودنا فى هذه المعركة • فى هذه الظروف قامت الحملة ضد الشيوعيين •

فيما يختص بالاتحاد القومى وتحويله الى جبهة ، كنا نرى أن هنالك ارتباطا بين الديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية السياسية . وكان تقديرنا أن حجر الزاوية فى تحقيق الديمقراطية ، فى عهد عبد الناصر ، هو أن تكون العلاقات ، بين عبد الناصر ومجموعته وبين الشيوعيين سليمة • بمعنى عدم انفراد أى من هذه القوى بالحكم والاستغناء عن القوى الثانية أو تجاهلها أو ضربها • وان هذا لن يقود الى الديمقراطية ، ولهذا وبناء على تقديرنا أن عبد الناصر رجل وطنى ، ويلعب دورا وطنيا ، وأن هذا الدور يتقدم ويتطور باستمرار • كان تقديرنا أنه بالنسبة للمؤسسات التى تعملها الحكومة وعبد الناصر ، يمكننا الدخول فيها ، ولعب دور ايجابى ، وتحقيق هذا التحالف ، من خلال هذه التنظيمات ، دون التخلى عن حزبنا •

ولقد حدث ، فى تلك الفترة ، اتصال بين أنور السادات وكلا من شهدى عطية ، ومحمود أمين العالم على انفراد . كان يعرض عليهما حل الحزب ودخول الاتحاد القومى ، الا انه حدث رفض كامل لهذه الفكرة وتمسك بوجود الحزب . كان تقديرنا انه يمكن التواجد داخل الاتحاد القومى ، وتحقيق التحالف من خلال نضالنا . ليس مجرد التواجد الشكلى ، ولكن للتواجد الفعلى ، ويكون لنا دورا فعالا .

طبعا اثناء معركة ٥٦ ، كنا نقول أن القضايا الخاصة بالطبقة العاملة يمكن تأجيلها ، لأن هنالك معركة ضد الاستعمار . كنا نعتبر انه قد حدث تطور بالنسبة لعبد الناصر . طبعا موقف عبد الناصر فى سنوات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ لم يكن هو موقفه فى ٥٣ ، ٥٤ . بمعنى أن سلطة يوليو عندما قامت فى البداية ، كانت سلطة تجرب . ولو راجعنا القوانين التى صدرت فى ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ لوجدنا انها كانت تعطى ، أساسا ، فرصة لانطلاقة رأسمالية ، لخدمة الرأسمالية ، ربما بصورة لم تصدر هكذا من قبل . وكان هنالك محاولات لحل القضية الوطنية عن طريق أمريكا ، والتصنيع عن طريق أمريكا وتمويل السد العالى وقضية الاسلحة ،

وسفر على صبرى الى امريكا للحصول على اسلحة ، وركنه هناك دون اعطائه سلاحا أو شيئا . كانت أمريكا تضع فى مقابل ذلك الانضمام لحلف بغداد ، أو التحالف معها ضد الاتحاد السوفيتى . ولقد رفض عبد الناصر هذا الخط ، واتخذ خطا وطنيا . بمعنى أنه فى مقابل رفض تمويل السد العالى أمم قناة السويس ، وفى مقابل رفض تسليح مصر ، طلب السلاح من الاتحاد السوفيتى . فضل الاتجاه الوطنى على الاتجاه التقليدى ، اتجاه التعاون مع الغرب ، مع الاستعمار . وكسر الحصار الاقتصادى المفروض على مصر ، فدخل فى معركة مع الاستعمار ، وبدأ يدعم علاقاته التجارية والاقتصادية والسياسية مع البلدان الاشتراكية . وبدأ يحارب الاستعمار ، ليس ، فقط ، فى اطار مصر ، ولكن فى البلاد العربية ايضا ، واطار البلاد النامية كلها ، مؤتمر باندونج ، وبعد ذلك فى اطار حركة عدم الانحياز . وبالتالى أصبح عبد الناصر له دور اساسى فى حركة التحرير الوطنى العالمية المعادية للامبريالية . ولذلك ، فانه عندما نقول ، انه فى العملية الثورية العالمية ، التى تشتمل اساسا على الدول الاشتراكية وحركات التحرر الوطنى وحركات الطبقة العاملة فى العالم ، كان دور عبد الناصر أساسيا وكبيرا وهاما للغاية ضد الامبريالية والرجعية المتعاونة معها . وكان هذا هو الاعتبار الهام الذى ننطلق منه فى موقفنا من عبد الناصر . كان تقديرنا ايضا ، ان الموقف المستمر والمتواصل والجذرى ضد الاستعمار يجعل عبد الناصر يتناقض حتى مع أجزاء من الرأسمالية فى الداخل ويمكن أن يتناقض مع الرأسمالية الداخلية ، لأن عبد الناصر قد جرب فى البداية اعطاء امتيازات كبيرة للرأسمالية . جرب ان تتم عملية الاستقلال الاقتصادى والتصنيع بواسطة الرأسمالية واعطى لها فرصة كبيرة لذلك الا أن العملية لم تنجح ، أى أن الرأسمالية المصرية لم تقم بالتصنيع أو التمويل الايجابى ، وهذا هو ما جعله ايضا — من منطلق وطنى — يتجه الى التأميمات ، وأن تأخذ الدولة على عاتقها عملية التصنيع وعملية التنمية الاقتصادية . ومن هذا المنطلق ايضا اصطدم بالرأسمالية الداخلية ، وبدأ فى ضرب أجزاء منها . وبسبب ذلك بدأت تنشأ لديه بعض الأفكار الاشتراكية ، والتى قلنا عنها انها اشتراكية غير علمية .

عندما تم تأميم بنك مصر والبنك الاهلى فى اطار افكارنا هذه ، قلنا أن هنالك فى السلطة ، ليس كل السلطة ، مجموعة فى السلطة ، اسميناها مجموعة اشتراكية ، لها أفكار اشتراكية الا انها غير علمية ، غير الماركسية اللينينية ، وقلنا ان السبب فى نشوء هذه الأفكار — الى جانب دور الحركة اليسارية فى مصر وتأثيرها — الظروف الموضوعية التى تكلمت عنها ، والتى هى الموقف الوطنى ضد الامبريالية ، موقف الرأسمالية الرافض للقيام

بأى دور للتنمية الداخلية ؛ بالاضافة ايضا الى العلاقات التى اقيمت من منطلق وطنى مع المعسكر الاشتراكى وتدعيم هـذه العلاقات فى مختلف المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية . كذلك الدور الذى تقوم بـه هذه المجموعة فى العالم العربى وافريقيا وعلى النطاق العالمى فى معركتهـا ضد الاستعمار ، وايضا تأثير الافكار الاشتراكية العالمية . كل ذلك قد أوجد مجموعة اشتراكية غير علمية مختلفة عن الاشتراكيات الديمقراطية فى اوربا والمتحالفة مع الاستعمار . هذه المجموعة كانت تحارب الاستعمار وتتعارض معه . كان هذا هو موقفنا من هذه الاشتركية غير العلمية والتى اتخذت اسماء مختلفة . كانت تسمى فى البداية بالاشتراكيه الديمقراطية التعاونية ، ثم الاشتراكية العربية ، ثم الطريق العربى للاشتراكية ثم الاشتراكية العلمية . وكان موقفنا ان هذه الاشـتراكية مختلفة عن الاشتراكية العلمية ، الا اننا نسعى مع هؤلاء ، مع هذه المجموعة ، الى تحقيق وحدة العمل من اجل هذه الاهداف الوطنية والديمقراطية . وكنا ، من ناحية أخرى ، نعتبر أنه من الممكن حدوث تطور فكرى لهذه المجموعة ، والمفروض فينا أن نبذل نحن جهدا فى اتجاه التقـارب من الاشـتراكية العلمية .... وكان فى تقديرنا ان هناك ظروفا موضوعية تسمح بدفعها فى هذا الاتجاه ، ويمكن لهذا أن يحدث أولا يحدث الا ان هنالك دورا علينا فى اتجاه هذه المحاولة . وكان تقديرنا ان فكر عبد الناصر يتطور الى الامام وليس الى الوراء ، يتطور مقتربا من المـاركسية ، وليس مبتعدا عنها . كان مثال ذلك ، رفض الصراع الطبقى فى البداية ثم تغيره الى أن الصراع الطبقى أمـر موضـوعى وحتمى ، الا أن دوره فى ذلك ان يكون الصراع سلميا . ولقد جاءت فى الميثاق كثير من الافكار التى كان يرفضها فى البداية . لقد بدأ بالاشتراكية الديمقراطية التعاونية ثم غيرها الى الاشـتراكية العربية ، ثم رفض هذه ايضا وبدأ يقول بالطريق العربى للاشتراكية ثم الاشتراكية العلمية . كان فيه تقدم من الناحية الفكرية .

كان بعض الزملاء يرون اننا فى مرحلة الثورة الاشتراكية مثل عادل حسين وعلى نجيب وربما ابراهيم عبد الحليم ، فى حين رفض آخرون فكرة المجموعة الاشتركية وكانت ترى فى عبد الناصر رجـلا وطنيـا واننـا فى مرحلة الثورة البورجوازية الوطنية ؛ مثل محمد عباس وطاهر البحرى وعبد الحميد السحرتى . الا أن الغالبية كانت مع فكرة المجموعة الاشتراكية ووحدة العمل .

ان الرأى الذى توصلنا اليه بعد ذلك ــ بعد اجراءات يوليو ٦١ والتى اعتبرناها تأكيدا لفكرة المجموعة الاشتراكية ــ فهو اننا فى مرحلة انتقالية ، مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية وانه يوجد فى المرحلة الانتقالية اجراءات

وطنية ديمقراطية واجراءات تمهد للاشتراكية مثل التأميمات وما شـابه ·
اما بالنسبة لوحدة العمل وما يتلوها فهى تنظيم يجسد وحدة العمل ، بمعنى وجود قيادتين مستقلتين يجمعهما تنظيم واحد . كانت الصياغة تجمع تنظيمنا فى ننظيم واحد ، ليست عملية ذوبان ولكن تجسيد فكرة وحدة العمل . ثم ظهرت فكرة الحزب الواحد على أساس الماركسية اللينينية . وكان تقديرنا أنه من الممكن أن نناضل فى هذا الاتجاه ، وهنالك تجربة كوبا . ان الموقف الوطنى المتواصل يمكن أن يؤدى فى النهاية الى تبنى الفكر الذى يمكن استمراره . وكنا نقول بأن انجاز الثورة الاشتراكية يتم بحزب الطبقة العاملة ، وأن هذا الحزب يمكن أن يكون نتيجة للوحدة التى سوف تتم بين الشيوعيين والمجموعة الاشتراكية ، وأن هذا الحزب بقيادة عبد الناصر على أساس أن عبد الناصر سوف يتحول للاشتراكية الماركسية وكانت هنالك ظروف تمكن من هذا التحول · كان عبد الناصر يحدد فى ذلك الوقت ان اشتراكيته تختلف عن الماركسية فى ثلاثة نقاط ، ديكتاتورية البروليتاريا ، الدين ، الموقف من الملكية الزراعية وعدم تأميم الأرض وان الشيوعيين يطالبون بتأميم الأرض وهو ضد ذلك كان فى تقديرنا أن النقطة الخلافية الأساسية هى الموقف من الشيوعيين · كان تقديرنا انه قد حدث تطور لفكر عبد الناصر والمجموعة التى معه وأن هذا التطور يمكن أن يسير الى مدى ابعد من ذلك »(١) .

يقول فاروق ثابت ، « كان التصور الموجود (عام ١٩٥٨) ان الموقف من الديمقراطية ، الموقف السياسى الليبرالى مرفوض تماما ، انما الديمقراطية الاجتماعية ، الموقف من كتل الجماهير ، من مصالح الطبقات ، الموقف الذى يكون فى مصلحة الطبقة ، يكون هو الموقف الديمقراطى بصرف النظر عن الحرية الليبرالية الموجودة . كانت الفكرة وقتها ، ان الحرية الليبرالية لا تتيح الفرصة الا للطبقات الرجعية ، لأنها هى ذات اصل ثابت وقوى فى المجتمع ، تملك النقود ولديها القدرة على الحركة وعلى عمل احزاب تنفق عليها وتستطيع أن تفعل ما تشاء ، فى حين أن القوى الشعبية ما تزال مفتتة وفقيرة ولا تستطيع فعل ذلك · لذا كان الموقف من الديمقراطية موقفا اجتماعيا اكثر منه موقفا سياسيا · لذلك فاننا رغم الضربات التى كانت توجهها ثورة يوليو للتقدميين – ونحن لسنا مع تلك الضربات – كنا نقول لهم ، انتم تخطئون طريق الضرب ، لا تضربوا هؤلاء . ولكن اضربوا اناسا آخرين »(٢) .

---

(١) لقاء شخصى معه – ١٩٨١/١٢/١٩ .
(٢) لقاء شخصى معه – ١٩٨٠/٧/٥ .

يقول محمود أمين العالم : « ... الفشل فى ادراك الطاقات الكامنة والمتجددة فى قادة ثورة يوليو وفى متابعة تطورهم الفكرى من أرض الوطنية الى ارض الاشتراكية ، كان سببا فى الفشل فى تحليل حقيقة الاجراءات الثورية التى اصدرتها هذه القيادة ! وكان التمسك بقيم ديمقراطية شكلية ليبرالية وتغليب شعاراتها فى غالب الاحيان على المعركة الوطنية ومشروعات التقدم الاجتماعى ، كان سببا فى العجز عن ادراك حقيقة الطاقات الثورية فى قادة ثورة ٢٣ يوليو ! وكان الفشل فى ادراك تداخل المراحل الثورية من تحررية واشتراكية سببا فى التمسك بتلك الديمقراطية الشكلية الليبرالية ، بل سببا كذلك فى مواقف اقليمية ضيقة من الناحية التطبيقية تتناقض مع الاقرار النظرى فى الوثائق المكتوبة ، بالقومية العربية .

وهكذا سلسلة من الاخطاء تفضى فى النهاية الى الفشل فى تحليل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعجز فى اتخاذ الموقف الثورى ...... »(١) .

ان ما جاء على لسان محمد يوسف الجندى يوضح هذه الفكرة فى تطورها ولا يقف بها عند حدود عام ١٩٥٨ فقط . أما محمود أمين العالم العالم فهو يطرح فى ايجاز ، « مقولة الأساس » لهذا الفكر ، المقولة التى قامت عليها كل التقديرات التى جاءت فيما بعد وكذا النتائج .

ان هذه الفكرة فى اوائل ١٩٥٨ ــ عند وحدة الشيوعيين فى حزب واحد ــ كانت تقول بان الطبيعة الطبقية للسلطة الحاكمة هى للبورجوازية الوطنية . ومن هنا كانت تتفق فى المسمى العام مع الفكرتين الأولى والثانية . الا انها ــ عند التفاصيل ــ تضيف الى هذه العمومية ، خصوصية أجزاء منها تتصف بالطاقات الثورية الكامنة والمتجددة ، النابعة من موقف مستمر ومتواصل وجذرى ضد الاستعمار .

ان هذه الصفات أو السمات الممنوحة ، من قبل هذا الفكر ، لجزء « متقدم » من البورجوازية الوطنية يضفى عليه من الخواص ما يخرجه عن طبيعته ، ويضعه فى اطار طبقى جديد ضمن الطبقات جذرية الموقف من الاستعمار ، أى أقرب ما يكون ، ان لم يكن يتطابق ــ بوجه خاص ــ مع الطبقة العاملة . وبالتالى تنفى هذه الخصوصية المضافة أى لقاء بين الفكر الأول والثالث فى حين أنها تحقق لقاء فعليا بين الفكر الثانى والثالث .

---

(١) كتاب الاحزاب الشيوعية فى الوطن العربى ــ الياس مرقص نقلا عن مجلة الهلال ، سبتمبر ١٩٦٤ .

الالتقاء الايديولوجى بين الفكر الثانى والثالث يوجد فى « جـذرية الموقف من الاستعمار واســـتمراريته ، مما يقتضى بالضرورة موقفا من الرأسمالية الداخلية ذاتها » . أما الاختلاف فهو موجود فى سبب هـذه الجـــذرية . الفكر الثـــانى يرى أن هـذه الجذرية جاءت من حكم على البورجوزية الوطنية ، بالوطنية ، نتيجة ظروف عالمية فى الأساس ، أى ظروف تؤثر عليها من خارجها وخارج البلاد . أما الفكر الثالث فهو يرى أن هذه الجذرية جزء من طبيعتها هى ، أى من داخلها ، الا أن المســار الفكرى واحد ، حين تستبعد كلتاهما – فى الواقع العملى – الفعل الجماهيرى فى التأثير على مجرى الصراع داخل الفئات المختلفة للبورجوازية الوطنية . فالفعل العالمى ، خارجى ، والفعل الذاتى ، من داخل الطبقة نفسها ، وبالتالى لا دور للجماهير أو الشعب المصرى . ومن هنا يصل كلا الفكران الى نهاية متقاربة ، هى وجود بورجوازية وطنية من نوع جديد تستهدف للتطور اللارأسمالى أو الاشتراكى للمجتمع المصرى ، أى تستهدف تطورا يضرب فى الاساس علاقاتها الاقتصادية ومصالحها الخاصة . وأن هـذا التطور يحدث رغم غياب الدور الفاعل والمؤثر ، الارادى والمنظم للشعب المصرى ، بل هو يحدث ايضا فى الوقت الذى تكبل فيه هذه البورجوازية من النوع الجديد ، هذا الشعب صاحب المصلحة الحقيقية فى الاشتراكية ، وتطحن فيه ايضا القوى الاشتراكية الفعلية .

أما لاختلاف بين الفكر الثالث والأول فهو خلاف جـــذرى ، اذ ان الفكر الثالث :

– يضفى على قطاع من البورجوازية الوطنية برئاســـة جمال عبد الناصر صفات ليست له بأى حال من الاحوال ، كالجذرية فى الموقف من الاستعمار ، والتقدمية ، والثورية المتجددة خـــلال مراحـــل الثورة المختلفة ، مما يجعل لهـــذه المجموعة او القطاع موقفها من الرأســـمالية الداخليـــة :

والذى يؤكـــد ذلك هـــو ما يطرحه هذا الفكر من فهم لقضيــة الديمقراطية ؟ انه يرفض الحريات السياسية باعتبارها أمرا شكليا يخدم القوى الرجعية ، وأن الديمقراطية الحقيقية هى الديمقراطية الاجتماعية . أى أن تحقيق مطالب الطبقـــة العاملة والجمـــاهير الكادحة هو جوهر الديمقراطية . وحيث ان عبد الناصر ومجموعته يحققان هذه المصـــالح الطبقية فان ديمقراطية هذه الطبقات محققة بالفعل . والديمقراطية الطبقية تعنى السلطة ، فالطبقة أو الطبقات التى تتمتع بديمقراطية حقيقية تحقق مصالحها ، هى تلك التى فى السلطة . فان كانت المصـــالح الاجتماعية

والاقتصادية للطبقات العاملة والكادحة تتحقق من خلال السلطة القائمة . فلابد وأن تكون هذه السلطة ممثلة لها ، معبرة عنها · وبالتالى فان عبد الناصر ومجموعته — من البورجوازية الوطنية — يمثلان ، طبقا لهذا الفهم ، الطبقات العاملة والكادحة ·

— لا يرى فى مواقف هذه « المجموعة المتقدمة » بزعامة عبد الناصر غير الجانب الوطنى فقط . انه بذلك ينفى وبصورة صريحة عن هذه المجموعة من البورجوازية الوطنية ، طبيعتها المزدوجة . انه فى الموقف العملى ، لا يثير القضايا التى تشكل الوجه الآخر من الازدواجية ، الوجه الناتج عن التعارض مع مصالح الجماهير · انه فيما يختص بالمطالب الجماهيرية والطبقية ، يؤجلها أو يؤجل اثارتها بحجة المعركة مع الاستعمار وحيث أن المعركة مع الاستعمار متصلة ، وحيث ان وطنية هذه المجموعة جذرية ومتصلة ، فان القضايا الطبقية فى مواجهتها متصلة التأجيل الى ما لا نهاية . وبذا تتصل الحلقة المفرغة التى تقدم تنظيرا تبريريا لتجاهل الوجه الآخر من الطبيعة المزدوجة . وتقدم فى ذات الوقت دعما فكريا يساند النظام ويدعم تجاهله لحقوق الشعب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل واغتصابها ايضا .

ان هذا الفكر بنفيه العملى للطبيعة المزدوجة لقطاع من البورجوازية الوطنية يتزعمه جمال عبد الناصر ، وقصره التعامل معه على جانبه الوطنى أى جانب الوحدة فقط ، قد عمد دائما الى سياسة التأييد ، باعتبار ان هذه المجموعة أو هذا القطاع لا يعيبه غير عدائه للشيوعية ، وانه كلما زادت جرعة التأييد من الشيوعيين كلما ساعد ذلك هذه المجموعة على الشفاء من هذا « المرض العارض » ، وخلق ارض من الثقة تصل بها الى تبنى الفكر الماركسى والوحدة مع الشيوعيين · ويطرح هذا الفكر منهج التأييد المطلق غير المشروط بديلا عن ، وفى مواجهة ، منهج الوحدة والصراع ، التأييد المطلق للايجابيات (نقاط الاتفاق) وعدم التعرض للسلبيات (نقاط الخلاف) ، وانه من خلال تعميق الايجابيات سوف تحل السلبيات من تلقاء نفسها · وهو يرى فى تناول السلبيات بالنقاش أو النقد أو المعارضة يسارية تستفز الحليف وتعمق عدم ثقته بالشيوعيين ·

— لا يرى من القوى الوطنية الموجودة فى المجتمع المصرى غير المجموعة المتقدمة التى يتزعمها جمال عبد الناصر · ومن هنا فان قضية الجبهة الوطنية الديمقراطية بمعنى وحدة كل القوى الوطنية الديمقراطية فى اطار الجبهة غير وارد فى منظور هذا الفكر · وبالتالى فان الشكل الجبهوى الذى يراه هو التحالف مع هذه المجموعة التى اطلق عليها اسم « الحليف » ..

ال ، التعريف والتخصيص • وان هذا التحالف يمكن أن يتحقق بدخولهم الاتحاد القومى والعمل من داخله • ويرى أصحاب هذا الفكر ، أن عملهم هم داخل الاتحاد القومى يمكن أن يطوره الى جبهة مع الحليف ، شيء ما مثل الكومنتانج الصينى • بل ان عملهم ايضا يمكن ان يطور هذه المجموعة جذرية المواقف من الاستعمار ويعيد تثقيفها فى اتجاه الماركسية ذاتها • وبذا يمكن أن تتحقق وحدة بينهم وبين مجموعة الحليف تشكل للحزب القائد للثورة الاشتراكية •

وطبقا لسياستهم فى عدم اثارة نقاط الخلاف حتى لا يستفز الحليف ، فان موقفهم من الاتحاد القومى كان هو دخوله والعمل من خلاله • كما هو ، دون أى شروط أو تحفظات من جانبهم •

وان كان ذلك هو موقفهم من الحريات السياسية والحياة الحزبية فى مصر ، وكان ذلك ايضا هو موقفهم من قضية الجبهة والقوى الوطنية الأخرى غير المجموعة التى يتزعمها عبد الناصر ، فان نفس المنطق والمنهج يتطبق على الوحدة العربية ، انهم يؤيدون الوحدة العربية بالصورة التى يراها الحليف ، انهم لا يرون من الوحدة الا جانبها المعادى للاستعمار ، دون اعتبار للظروف والاوضاع الخاصة بكل بلد عربى على حدة . وهم يرون ايضا ان الوحدة العربية مع المجموعة التى يتزعمها عبد الناصر هى وحدة فى اتجاه التقدم وتشديد النضال ضد الاستعمار . ومن هنا فان موقفهم من الوحدة العربية التحررية موقفا مطلقا من أجل الوحدة فى ذاتها .

ـ ان هذا الفكر فى محصلته العامة لا يطمس فقط المعالم الطبقية المميزة لكل من البورجوازية الوطنية والطبقة العاملة ، بل هو باسم الطبقة العاملة يعمل على اعادة صياغة مفاهيمها أو تشكيل هذه المفاهيم بالصورة التى تحيلها الى ذيل للبورجوازية .

اذن فقد كانت هنالك ثلاثة أفكار رئيسية :

الفكر الأول هو أقرب ما يكون الى الفكر الطبقى الصحيح ومنهجه فى العمل يحقق ، دون افتعال ، تمايز الطبقة العاملة ومصالحها عن البورجوازية الوطنية ومصالحها ، وبالتالى تمايز حزبى كلا الطبقتين مع وجود الالتقاء فى القضايا المشتركة .

الفكر الثانى والثالث يقفان على أرضية البورجوازية الوطنية وخاصة بعض قطاعات منها اسقطا عليها من السمات والصفات ما ليس لها .

الفكر الثانى يطرح خلافه أو تمايزه الا أنه سرعان ما يحيله الى مجرد تسجيل أو تحفظ يطغى عليه جانب الوحدة ويتحول منهج الوحدة والصراع الى منهج احادى هو الوحدة . اما الفكر الثالث فهو منذ البداية يرفض التمايز عن الحزب الحاكم ، انه منهج الوحدة والتأييد الى حد التلاشى ، ثم البحث للتمايز عن الحزب الشيوعى المصرى لا الحزب الحاكم ·

كانت هذه النظريات الثلاث الصادرة عن مسمى عام واحد متفق عليه للطبيعة الطبقية للبورجوازية الحاكمة تعكس مدى الخلاف الشديد داخل الحزب حول الفهم الحقيقى لهذه الطبيعة الطبقية ومدى الخلل الذى يمكن أن يصيب الحزب ، بسبب عدم الوضوح السياسى والايديولوجى الذى تمت على أساسه الوحدة بين الشيوعيين ·

كانت تلك الافكار الاساسية وتفريعاتها فى اللجنة المركزية وهيئاتها المختلفة ، وكذلك بين صفوف الحزب وكادره دون تحديد انتماء تاريخى معين · ان القيادة المركزية كانت هى البؤرة التى نعبر عن هذه الانتماءات التاريخية المختلفة ، الا ان كادر الحزب كان أكثر حركة فى افكاره من قياداته التاريخية التى ارتبطت افكارها بتاريخها القيادى والتنظيرى أو الفكرى · ومن هنا فانه فى الوقت الذى كانت تسيطر فيه الافكار اليمينية (الفكر الثانى والثالث) على قيادة الحزب نتيجة الاغلبية اليمينية المتواجدة فيها ، كانت تلقى تلك السياسة معارضة غالبية كادر الحزب وأعضاؤه ، وكان لابد لهذا الوضع ان يقود الى ازمة سياسية ·

ان بيانات الحزب فى ذلك الحين او خلال الفترة الأولى لتكوينه تعكس هذه الحقيقة · يقول توجيه أصدره مكتب العمل الجماهيرى من السكرتارية المركزية للحزب الشيوعى المصرى الى اعضاء الحزب فى ١٠ فبراير ١٩٥٨ تحت عنوان « تقدموا الصفوف الوطنية فى معركة الوحدة العربية ! » ·

« ... ولكن هل القضية الكبرى هى قضية حل الاحزاب فى سوريا ؟ كلا · القضية الكبرى هى ان تنجح الوحدة السورية ــ المصرية وتنشأ قوة سلام فى منطقة الشرق الاوسط .

« هل الأصح ان نركز كل جهودنا فى نقد حل الاحزاب والنظر الى الوحدة من هذه الزاوية ؟ كلا . ان الموقف الاصح هو ان نستفيد من المد الثورى الذى احدثته الوحدة واقترن بها واعقبها ... وهكذا نرى انه

من الخطأ ان نحصر موضوع الوحدة فى هذه الزاوية الضيقة ، زاوية حل الاحزاب . ان الاصح هو أن نضع قضية انجاح الوحدة وحمايتها فوق كل قضية داخلية . ان الموقف الصحيح الذى يخدم قضية الديمقرطية نفسها هو ان نحرك اوسع الجماهير من أجل حماية الوحدة وانجاحها .

« ايها الرفاق

« تقدموا الصفوف فى معركة التحرير العربى ، ارفعوا لواء الوحدة العربية من أجل السلام والديمقراطية والرخاء . أيدوا الوحدة فى كافة المجالات وبكافة الاشكال . افضحوا كل المناورات التى تريد اظهار الشيوعيين بمظهر معاد للوحدة سواء فى مصر أو فى سوريا »(١)

ان هذه الورقة الموجهة من المكتب الجماهيرى التابع للسكرتارية المركزية للحزب توضح أمورا ثلاث :

١ ـ ان أعضاء الحزب لا يرفضون مبدأ الوحدة ، لكنهم يرفضون أن تتم الوحدة على حساب الديمقراطية .

٢ ـ أن المكتب الجماهيرى باسم السكرتارية المركزية يحاول اقناع اعضاء الحزب بأن نجاح الوحدة هو الذى يخدم قضية الديمقراطية . وذلك تطبيق واضح للمنهج القائل بان تأييد الايجابى يقود الى تصفية كل ما هو سلبى .

٣ ـ أن هذه الورقة توضح كيف يسجل اليمين الحزبى اختلافه مع الحزب الحاكم فى صورة تسجيلية أو تحفظية يقوم هو نفسه بمحاولة تفنيدها وتغليب جانب الاتفاق عليها .

وتلك مقالة اخرى بعنوان « المنطقة المتحررة » جاءت فى افتتاحية « اتحاد الشعب » جريدة الحزب الشيوعى المصرى فى ١٥ مارس ١٩٥٨ .

« المنطقة المتحررة هى الجمهورية العربية المتحدة . انها المنطقة المتحررة فى أرض الوطن العربى الكبير . انها الدولة الوحيدة من بين جميع الدول العربية التى تتمتع باستقلال حقيقى وحرية حقيقية . انها الدولة

---

(١) كتاب الاحزاب الشيوعية فى الوطن العربى ـ الياس مرقص .

الوحيـــدة التى لا سيطرة لاستعمارى دخيـل أو لاقطــاعى رجعى على مصائرها •

« بل ان جمهوريتنا هى أكثر من هذا •

« انها قلعة الحرية فى الشرق العربى . انها المنارة التى تتطلع اليها الشعوب العربية المكافحة • انها المثل والأمل . انها اليد الرحيمة التى انقذت جميلة . وهى اليد القوية الممدودة بالسلاح للجماهير فى جبـال اطلس • انها مأوى المكافحين الذين شردهم نورى السعيد وسيد رفاعى وسعود بن عبد العزيز • وهى القاعدة التى تنطلق منها القذائف لتردى جنود الاستعمار فى صحراء عمان • انها صورة العرب الأحرار فى كـل مكان • انها دعوة للكفاح فى كل ركن من أركان الوطن العربى • ان مجرد وجودها دعوة لشعب الاردن لكى يثور ويحطم مشروع ايزنهاور ودعوة للشعب العربى فى الجزيرة لكى يثور ويحطم قاعدة الظهران . هى دعوة للعرب فى كل هذه البلاد لكى يسقطوا حكامهم الخونة والرجعيين وينضموا الى موكب التحرر فى الجمهورية العربية المتحدة •

لكل هذا لم يكن غريبا ان يتضاعف حقد الاستعمار على جمهوريتنا ، على ارضنا المتحرة • جمهوريتنا هى الشوكة فى جنب الاستعمار ، وهى الضوء الكاشف لمؤامراته واليد الضـــاربة لاوكاره ، والقوة الباطشـــة بعملائه . ويفرز الاستعمار حقده على جمهوريتنـــا فى مؤامرات تكـــاد تتابع بعدد الايام ولو استطاع لجعلها تتابع بعدد الوثائق واللحظات »(١) .

ان هذه الافتتاحية لجريدة الحزب انما تعكس بشكل واضح ومحدد النظرة الاحادية الجانب ، والتى يرتقى فيها جانب التأييد ، فقط ، الى حد التهليل والتكبير والتسبيح ، مما يخرجها عن نطاق التحليل أو العرض السياسى ، الى الغزل السياسى • المقالة هنا تركز على جانب واحد فقط : هو ما يسمى بالجانب الايجابى ، لأنها ، وهى تفعل ذلك ، كانت الأحزاب الوطنية فى سوريا قد حلت ، وبدأت مطاردة القوى الديمقراطية والتقدمية وعلى رأسها الحزب الشيوعى السورى •

ويمكن ملاحظة الفرق الواضح بين هذا المنهج ، الذى كان يعبر عن الفكر الثانى والثالث ، وما جاء فى بيان الحزب الشيوعى المصرى ، الصادر عن المكتب السياسى ، ردا على أنور السادات ، فى سبتمبر ١٩٥٨ ، وفيه

---

(١) نفس المصدر السابق •

يكون المنهج اقرب الى الفكر الأول داخل الحزب ، بعد زوال سيطرة الفكر الثانى والثالث ، اى الفكر اليمينى ، على اللجنة المركزية وهيئاتها • (راجع نص البيان ـ مرفق رقم ـ ١) •

لقد ظل هذا الفكر اليمينى ، الفكر الثاني والثالث ، يسيطر على اغلبية اللجنة المركزية وهيئاتها ، طوال الثلث الأول من عام ١٩٥٨ ، أى منذ تكوين الجزب . فى حين كان الفكر الأول ، هو فكر غالبية أعضاء الحزب وكوادره • ورغم هذه السيطرة اليمينية الفجة على الحزب ، ألا أن الفكر الثالث كان يرى ، فى التوجه العام للحزب ، « يسارية » ، لا يقبل هو بها ، فى التعامل مع « الحليف » . كان هذا الفكر الثالث يدرك ، ان الوضع القائم فى اللجنة المركزية ، حيث يسود الفكر اليمينى ، والوضع العام داخل الحزب ومستوياته المختلفة ، والتى تعارض غالبيتها ، فكر اللجنة المركزية ومنهجها ، وضع مؤقت ، لابد وأن يحسم لصالح غالبية كادر الحزب ، اى لصالح الفكر الأول . وكانت تلك النتيجة ، المحتملة ، أو المتوقعة ، تشكل بالنسبة اليه ، كارثة الكوارث • ومن هنا ، كان لابد وأن تتفجر ، فى داخل الحزب ، ازمة سياسية حادة •

ازمة سياسية ـ ومعالجة تنظيمية :

ان الازمة السياسية ، او الصراع السياسى داخل الحزب الشيوعى لمر ليس بالغريب • بل هو أمر متوقع اذ ان الحزب يعمل بين الجماهير وداخل مجتمع متعدد الطبقات ، يستمد عضويته من داخل هذا المجتمع وبالتالى فهو عرضة على الدوام لوجود أفكار او وجهات نظر تعكس ق داخله مصالح قوى اجتماعية اخرى تحاول أن تدفع به الى اليمين أو اليسار عن الخط الطبقى الصحيح . ومن هنا فان لائحة الحزب أو دستوره الداخلى حدد طريقة معالجة هذا الصراع او الاختلاف بطريقة ديمقراطية ، تقوم على فتح النقاش داخل الحزب كله حول نقاط الاختلاف وحق كل الأعضاء اصحاب وجهات النظر المختلفة فى التعبير عنها ، ثم انهاء هذا النقاش أو الصراع بشكل تنظيمى ديمقراطى ايضا يتوقف على حجم المشكلة أو الظروف التى يمر بها الحزب ، وهذا الشكل هو المؤتمر العام المنتخب او الكونفرنس المعين الاستشارى او الملزم للجنة المركزية . ولقد اشتملت لائحة الحزب عند تكوينه فى يناير ١٩٥٨ على كل تلك القواعد ، بل يمكن القول ان لائحة حزب يناير ١٩٥٨ كانت من انضج اللوائح فى تاريخ الشيوعية المصرية فى تلك الفترة •

الا ان المشكلة لم تكن مجرد وجود لائحة جيدة أو ناضجة . كانت القضية هى تطبيق هذه اللائحة أى وضعها فى الممارسة .

كان المفروض طبقا للازمة السياسية القائمة ، ولظروف تكوين الحزب الذى لم تمضى شهور معدودة على اعلانه ، وللتاريخ الانقسامى الطويل الذى يثقل الحركة الشيوعية المصرية ، ان تكون المعالجة سياسية وبمشاركة كادر الحزب وأعضاؤه ، الا أن غالبية اللجنة المركزية عالجت الازمة السياسية باعتبارها ازمة تنظيمية . وكانت تلك الاغلبية التى تشكلت خلال معالجة الازمة اغلبية ممن هم على خلاف مع بعضهم البعض ، أى لم تكن تجمعهم وحدة الموقف السياسى وهى الشرط الأساسى فى معركة أو ازمة سياسية ، كان يجمعهم موقف حلقى . ومن هنا كان هذا التجميع ، بهذه الصورة ، فى تلك الظروف ، تجمعا لا مبدئيا . اى تشكلت أغلبية لا مبدئية لمعالجة ازمة الحزب ، ضمته أطرافا من الفكر السياسى الأول مع الفكر السياسى الثانى فى مواجهة أصحاب الفكر السياسى الثالث . أى تجمعت أغلبية تنظيمية لمعالجة ازمة سياسية . فكان لابد من تجاهلها للطريق اللائحى فى معالجة الازمات السياسية وتحويل الازمة الى مجرد مخالفات تنظيمية ، تعالج باجراءاته تنظيمية ، تحسمها الاغلبية اللامبدئية أو الاغلبية العددية التى تشكلت فى اللجنة المركزية . وبذا فان الاسلوب الذى طرحته لم يكن يحل ازمة الحزب بل كان يعمقها .

فاعلية الفكر الانقسامى :

لماذا وقعت اللجنة المركزية للحزب فى هذا الخطأ الفادح ؟ السبب الأساسى فى ذلك يرجع الى نقطة قصور أخرى شابت الوحدة بين الشيوعيين المصريين والتى على أساسها تكون حزب يناير ١٩٥٨ . ويمكن تلخيص هذه النقطة فى أن الفكر الانقسامى داخل الحركة الشيوعية عامة رغم هزيمته باعلان الوحدة ، الا انه كان ما يزال فكرا قويا . ومصدر قوته أن غالبية اللجنة المركزية كانت تتشكل من عناصر تاريخية قيادية لم تكن قد تخلت بعد عن مفاهيمها الحلقية الانقسامية . وهذه العناصر التاريخية لا ترجع الى حزب واحد ، فقط ، من الاحزاب التى اتحدت معا لتكون حزب يناير ١٩٥٨ ولكنها كانت تشكل غالبية القيادات التى جاءت من الاحزاب الثلاث . وبذا حدث نفس التناقض الذى كان واقعا فى المسألة السياسية . غالبية القيادة من عناصر ما زالت تؤمن بصحة فكرها الانقسامى ، وغالبية الكادر والأعضاء تؤمن بالوحدة والحزب الواحد . لقد ناضل كادر الحركة الشيوعية كلها من اجل هذه الوحدة ، الا انه عند التوحيد وتشكيل القيادة جاءت غالبية القيادات التى تشكلت منها القيادة المركزية الواحدة من عناصر تاريخية حلقية لم تتخلى عن فكرها الانقسامى .

كان هذا الفكر الحلقى الانقسامى ، هو الذى حول المعركة من معركة سياسية الى معركة تنظيمية . كانت المعركة السياسية سوف تقود الى فرز

طبيعى يحلل هذه الحلقية ويؤكد ويدعم وحدة الحزب بأصوله التاريخية المختلفة . وكان الفكر الحلقى الانقسامى يدرك جيدا ان المعركة السياسية لن تهزم اليمين فقط ولكنها سوف تهزم بقايا الفكر الحلقى الانقسامى مما يعرض مواقع نفوذه القيادية لخطر حقيقى . ومن هنا كانت الاستدارة حول المعركة السياسية وتقديم المعركة على أنها معركة تنظيمية تعلو فيها رايات الدفاع عن القبلية التاريخية باسم الدفاع عن الحزب والشيوعية .

ماركسيون ومتمركسون :

كان حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى (ع . ف) يؤمن قبل وحدة يناير ١٩٥٨ ، بأن فى مصر ؛ تيار ماركسى وتيار متمركس . وأنهم هم الذين يمثلون التيار الماركسى الصحيح . وأن باقى القوى الشيوعية خارج حزبهم انما هى قوى متمركسة ، أى تدعى الماركسية . الا أن كادر هذا الحزب خاض معركة هامة فى مواجهة هذا الفكر داخله ، انتهت الى عقد مؤتمر اقر بالوحدة مع باقى الفصائل الماركسية ، مما يعنى هزيمة هذا الفكر الانقسامى . الا ان غالبية من رشحهم هذا المؤتمر كى يصبحوا أعضاء فى اللجنة المركزية للحزب الواحد بعد الوحدة ، كانوا ممن لا زالت هذه النظرية الانقسامية تسيطر عليهم .

لا شيوعية خارج الحزب :

وكان الحزب الشيوعى المصرى (الراية) يؤمن قبل هذه الوحدة ، بأنه ليست هنالك قضية توحيد للشيوعيين المصريين وتكوين حزب شيوعى . اذ انهم هم قد كونوا هذا الحزب واعلنوا وجوده ، ولا شيوعية خارج حزبهم . وأن الاحزاب الأخرى أو المنظمات الأخرى التى تدعى الشيوعية ليست الا منظمات انتهازية عميلة للبورجوازية الحاكمة والتى كان يطلق عليها هذا الحزب حينذاك اسم « الفاشية » . الا أنه عندما تغير موقف هذا الحزب من النظام الحاكم ، وقال بان الفاشية قد تحولت الى بورجوازية وطنية بل وايضا الى بورجوازية وطنية ثابتة الوطنية . وأمام عنف معركة الوحدة التى كان يخوضها كادر الحركة الشيعية كلها فى مصر ، أعلن هذا الحزب أن يمكن وحدة الحزب الشيوعى ــ الذى هو حزبهم ــ مع الانتهازيين عملاء الوبورجوازية الوطنية ــ الذين هم باقى الشيوعيين فى مصر ــ ، على أساس أن هذه الوحدة هى الطريق الى تصفية هذه الانتهازية باستيعاب قواعدها واعادة تثقيفها وتربيتها . ولقد جاءت غالبية العناصر القيادية من هذا الحزب الى قيادة الحزب الواحد حزب يناير ١٩٥٨ مكونة من غلاة أصحاب هذه النظرية الحلقية الانقسامية .

التنظيم الام والتيار التاريخي :

وكان الحزب الشيوعي المصري الموحد والذي تكون في فبراير ١٩٥٥ من وحدة خمس منظمات شيوعية هي : طليعة الشيوعيين المصريين والنجم الأحمر والتيار الثوري ونواة الحزب الشيوعي والحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) ، قد قام اثر معركة سياسية وتنظيمية ناضجة . الا ان غالبية قيادة « حدتو » كانت ترى في نجاح هذه الوحدة هزيمة لهـا ولمفاهيمهـا التاريخية . لقد كانت تلك الغالبية ترى أن « حدتو » هي التنظيم الأم ، وان الغالبية الساحقة من التنظيمات الأخرى ، انما هي انقسامات عليها ، وبالتالي فان الموقف الصحيح – من وجهة نظرها – هي أن تنقد هـذه التنظيمات نفسها وتعود الى حدتو الأم . وقد تبدو هذه النظرية مبدئية براقة ، الا انها في الحقيقة كان تؤكد وترسخ الوضع الانقسامي ، لأن المنظمات الأخرى كان لها رأيها في ظاهرة أن تكون « حدتو » معمل تفريخ للانقسامات ، وأن تنفرد بتلك الظاهرة وبالتالي مسـئوليتها هي عن الانقسامية في مصر . والشيء الثاني ان هذه المنظمات لم تعد تلك التي خرجت منها يوما ما بل هي في غالبيتها تختلف اختلافا اساسيا عن هـذه الأصول رغم وجود بعض العناصر بها ممن كانوا اصلا في « حدتو » . ولقد هزمت نظرية « حدتو الأم » في معركة تكوين الحزب الموحد بيـد كـادر « حدتو » نفسه وكادر باقي المنظمات الشـيوعية التي اتحدت معـا حينذاك . ومن هنا اعتبرت القيادة التاريخية « لحدتو » أن نجاح هـذه الوحدة على اسس سياسية ، وعلى اسس من الندية ، هزيمة لها .

كانت ترى هذه الغالبية من قيادة « حدتو » ، في قيادة الحزب الموحد (فبراير ١٩٥٥) أنها تمثل التيار التاريخي الثوري في الحركة الشيوعية المصرية كلها . التيار التاريخي الذي خاض نضالات وطنية واجتماعيـة مختلفة . وتمكنت غالبية قيادة « حدتو » داخل « الحزب الموحد » – وبسبب تماسكها الحلقي في الأساس – من فرض غالبية العناصر المرشحة للقيادة المركزية لحزب يناير ١٩٥٨ من عناصرها التاريخية التي ما زالت تتمسك : وبعنف ، بفكرة التيار الثوري والتيار التاريخي وحدتو الأم إى كل التراث الذي يبرر أى موقف حلقي انقسامي .

كانت غالبية قيادة « حدتو » التاريخية داخل اللجنة المركزية للحزب الواحد (يناير ١٩٥٨) ترى في هذه الوحدة ما يهدد بطمس « دورهـا التاريخي » المتميز ، وأن هذه الوحدة بالضرورة سـوف تذيب كثيرا من كوادرها في هذا الحزب الواحد وتصهرهم مع باقي كادر الحركة الشيوعية

القادم من مختلف المنابع ، مما يهدد « تماسكها التاريخى » ، ويؤدى الى تلاشى « التيار الثورى » . وكانت ترى هذه المجموعة فى الفكر اليمينى الذى يسير عليه حزب يناير ١٩٥٨ فكرا يساريا يضير الثورة ، رغم انه أقرب الى تفكيرها • كان الحزب الواحد بكل نواقصه ، يشكل خطرا مباشرا على وضعها وتحديا لنظريتها عن التيار التاريخى وخلافه . ويهدد تمايزها .

نظرة التمايز :

ان نظرة التمايز هذه ترتبط ارتباطا وثيقا بفكر هذه المجموعة الحلقى الانقسامى • فالوحدة والحزب الواحد بالنسبة لهذه المجموعة يعنى التلاشى التنظيمى والسياسى والتخلى عن الدور التاريخى أو طمسه وضياعه •

ولقد اتخذت هذه النظرية الانقسامية بعدا جديدا مع تطور الاحداث فى مصر ، واتجاه هذه المجموعة بأفكارها ونظرياتها الى التأييد المطلق للحزب الحاكم ورئيسه جمال عبد الناصر .

يقول فاروق ثابت ، « كانت هنالك فكرة لدينا ان السلطة الناصرية تنظر الى كل الشيوعيين باعتبار انهم شىء واحد • وان الخلافات التى بينهم ، سواء بالتأييد أو المعارضة أحيانا ، انما هى خلافات تكنيكية وتآمر على السلطة . ولقد كان تفكيرهم كذلك بالفعل . وحتى نخرج من هذا الوضع ، يصبح من الضرورى ان نقول لهم ، ان الخلاف خلاف أساسى مبنى على أسس من التحليل والنظرية والتطبيق • واننا نؤيدكم بالفعل ، وأننا أصحاب فكرة الديمقراطية الاجتماعية • نحن الذين نتوجه الى الكتل الجماهيرية • ولدينا ثقة انكم فى النهاية سوف تأخذون الموقف مع الكتل الجماهيرية • كان هذا الكلام فى أواخر الخمسينيات .

بدأت فكرة التمايز حتى نعلم السلطة ان الفرق ليست واحدة . وانه من الافضل لكم ان تتعاملوا معنا . ولا يعنى ذلك اتفاقات ، لكنه يعنى تعامل سياسى . بمعنى أن تتيحوا الحرية لهؤلاء الذين يؤيدونكم حتى يعملوا فى مختلف المجالات ، فى الثقافة والسياسة ، فى الحزب وفى التنظيم ، هذا ما كان متصورا فى ذلك الوقت ، لأن عملهم فى النهاية سوف يصب فى نفس المصب الذى تسير فيه ثورة يوليو ، وبذا يمكن بناء مصر بناء جديدا ،

لم تقل وقتها انهم سوف يبنون الاشتراكية . كنا نرى أن هنالك مرحلة مثل مرحلة « النب » NEP (١) مثلا ، مرحلة تأتى بعدها مرحلة الاشتراكية »(٢) ٠

كانت نظرية الدمايز نظرية حلقية انقسامية ، نابعة فى الأساس من نظرية « التيار الثورى التارخى الأم » ، على اسس سياسية وتنظيمية فرضها تكوين الحزب الواحد (ينساير ١٩٥٨) ، والموقف السياسى والايديولوجى من النظام الحاكم ، مما جعل انقسام أصحابها على الحزب ، أمرا حتميا ٠

نظرة ان يوجد الحزب او لا يوجد :

ويأتى بعد ذلك موقف الغالبة من المجموعة القيادية ، فى اللجنة المركزية للحزب الواحد ، والمنتمية أصلا الى الحزب الشيوعى المصرى (الراية) ٠

يقول الدكتور فؤاد مرسى ، « سوف ابدا من تكوين الحزب الشيوعى المصرى الواحد فى ٨ يناير ١٩٥٨ ، لأن هذا هو الحدث الأساسى فى تاريخ الشيوعية المصرية ، فيما بعد حدث تأسيس اول حزب شيوعى . اذ بتأسيس الحزب الشيوعى المصرى الجديد فى ٨ يناير ١٩٥٨ ، تحددت المواقف داخل الساحة السياسية بحيث اصبح الى جانب النظام الوطنى الذى يقوده جمال عبد الناصر فيما يعرف بالاتحاد القومى ، كيان آخر يعمل بالسياسة ، بأسلوب شبه علنى هو الحزب الشيوعى المصرى . وان الموقف الذى اتخذه هذا الحزب من النظام كان موقف للوحدة والصراع على اساس أن النظام فى أيدى البورجوازية الوطنية ، ومن ثم كان الموقف منها هو الوحدة معها فى المواقف الوطنية ثم الصراع معها فيما عدا هذا الصراع الوطنى وحتى فى مواقفها ضد الاستعمار ، ناهيك عن قضايا الصراع الطبقى الاساسية والتى طرحت فى تلك الوقت بصورة صريحة ، وقد اصبح هنالك متحدث باسم الطبقات الشعبية وبالذات العمال والفلاحين ، يسمى نفسه الحزب الشيوعى المصرى ويتبنى فى الأساس مواقف هذه الطبقات الشعبية ٠ ومن هنا بدانا ندخل فى صراع مع النظام فى جانب ونؤيد النظام فى جانب آخر ٠ الا اننا ووجهنا بعد قليل ، فى شهر فبراير ،

---

(١) السياسة الاقتصادية الجديدة والتى طبقت بعد الثورة الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى ٠

(٢) نفس اللقاء الشخصى ٠

بقضية الوحدة المصرية السورية وكان علينا ان نقول رأينا بتأييد عملية الوحدة والاعتراض على شكلها ، كان شكلها يتنافى مع الديمقراطية لأنه كان مبنيا على حل الاحزاب فى سوريا وتكريس نفس الشىء فى مصر ، والسير على عدم الاعتراف بالخصائص المحلية للقطر السورى والشعب السورى ، فبدأنا ندخل فى صراع حتى فى هذا المجال .

تجمعت بعد ذلك نذر معارك طبقية ، عمال النقل وعمال النسيج وما اليها ، لهم مطالبهم مع الدولة ، مطالبهم مع رأس المال الخاص ، تصدت الدولة لكبت حركات العمال . وكان المعروف ان الدولة وصلت الى حد محاصرة مصانع بقوات بوليس بل بقوات جيش ، وأحيانا أرسلت دبابات لمحاصرة بعض المصانع ، فكان هنالك مجال لاحتكاك مستمر بين الحزب الشيوعى المصرى والنظام .

حتى منتصف ١٩٥٨ ، انعكس هذا الاحتكاك المستمر داخل الحزب فى صورة صراع حول الخط السياسى للحزب ، وموقف الحزب من النظام . وبدأت تطرح مشاكل صغيرة ، كبرت الى حد ان اصبحنا امام مشكلة محددة . هنالك رأيين داخل الحزب الشيوعى المصرى : رأى يتبناه كمال عبد الحليم وشهدى عطية ومبارك عبده فضل ورفاق آخرون . ورأى آخر نتبناه نحن بكل تجمعاتنا . الرأى الأول يرى أن دور الحزب الشيوعى دور منحرف ، ان يتخذ مواقف صراع مع النظام ، وأن على الحزب أن يتخذ موقف المنبر الذى يدعو للشيوعية دون أن يتورط فى نضال جماهيرى . هذه الفكرة كانت قد برزت فى الفكر والنضال الشيوعى العالمى قبل ذلك بقليل عندما ادينت فكرة تحويل بعض الاحزاب الشيوعية الى نوادى للنقاش ، اى منابر لنشر الوعى دون القيام بالنضال . فوجدنا أن لها صدى فى هذا الرأى الأول ، الذى بدأ يحدد انه حتى لا ضرورة لوجود حزب شيوعى . طرحت القضية ، الفكرة ، بهذه الصورة ، طرحها الصف الثانى من كادر المناطق على أساس أن الصف الأول لا يتناول هذا الموضوع وان كان مسلمة لديه . وقيل فى بعض الاجتماعات رسميا انه لا داعى لوجود حزب شيوعى وأن المرحلة تستدعى مجرد منبر لنشر الوعى الشيوعى لا أكثر ، وأن علينا أن نبحث عن دور فى داخل النظام بتأييده ودعمه . فى البداية لم يكن الموضوع بهذا الحجم . كانت خلافات صغيرة فى منطقة القاهرة ، امتدت الى غيرها من المناطق ، ثم ارتفعت الى المستوى المركزى وهكذا . كانت تتزايد باستمرار وتنمو حتى أصبحت فى النهاية ، هذا الوضع . هل هنالك داع لوجود حزب شيوعى أم لا ؟ وكنا وقتها فى صراع مع الاتحاد القومى . وكنا نرى أن هذا الاتحاد القومى انما هو محاولة لطمس الصراع الطبقى أساسا . ان له جانبه الوطنى ، الا أن

له دورا أساسيا هو محاولة تسطيح الطبقات وطمس الصراع الطبقى ، لهذا كنا نتحفظ كثيرا على دور الاتحاد القومى وأن لنا دورا مستقلا بعيدا عنه • عندما تطورت الخلافات ، وصلنا الى حالة انقسام المجموعة الأولى انقسمت فى كل المناطق ، ثم فى المستوى المركزى » •

ويكمل الدكتور فؤاد مرسى ، « ان تقييمى اليوم يختلف عن تقييمى وقتذاك . كنا وقتها متأثرين بأحداث الصراع اليومية التى تحدث وبصفة خاصة الطعن الذى تم للوحدة الحديثة والاشكال التنظيمية التى كانت موجودة • بمعنى أنه كان هنالك بدون شك ، شعور لدى انا شخصيا بان الحزب يطعن وانها عملية خطيرة . وان الواحد منا يهب للدفاع عن الحزب ، عن وجوده • بمعنى أن العملية لم تعد خط سياسى سليم أو خط سياسى خطأ ، انما فى الافكار الجارية . كنت احس ان وجود حزب شيوعى امر مطلوب • وهنا تحركنا بنوع من الحدة ، وبنوع من الحماس للدفاع عن الحزب الوليد ، واظهر ذلك علاجنا فى صورة خط تنظيمى ، دون ان ننسى ان المعركة رفعت الى الحد السياسى فى كل لحظة . وكان للخلاف يطرح دائما من الطرفين • ولما صدر قرار الفصل فى النهاية كان مؤسسا تأسيسا سياسيا واضحا . ولو امكن الرجوع الى مثل هذا القرار اليوم فاننا سنجد ان الفهم المطروح هو فهم سياسى وليس فهما تنظيميا . لكن هنالك حق فى القول بان الاجراء كان متعجلا من جانبنا ، الا انهم هم الذين كانوا يستفزوننا ويجروننا الى هذا الوضع • كان الواحد منا يشعر وقتذاك ، وما زال على هذا اليقين حتى الآن ، بانهم كانوا غير راغبين فى البقاء معنا • كانوا يريدون ترك هذا المكان الذى يحجر على حريتهم فى الراى ويجعلهم ينتمون لسياسة ليست بسياستهم • الاجراءات التنفيذية كانت تتم من الطرفين ، هم ينقسمون بكل اجراءاته الانقسام ، ونحن نرد على الانقسام . بمعنى انه لم يكن قرارنا أن ينقسموا ، أو ان قرار الفصل كان هو السبب ، لأن قرارات الفصل كانت آخر عمل تم • هم كانوا ينقسمون بالفعل • شكلوا مناطق مستقلة • شكلوا تنظيمات مستقلة • شكلوا مركزا مستقلا . كان آخر قرار منا هو الفصل • لكن هنالك حق فيما يقال من اننا عالجنا الامر بتعجل مهما كان وبشكل علوى دون الرجوع للقواعد • وبشكل تنظيمى اكثر منه شكل سياسى . وأن الحل الذى كان يجب اللجوء اليه ، هو الدعوة لمؤتمر طارىء يناقش هذا الموضوع بصورة سياسية أكثر منها تنظيمية . كان هذا الحل سيطيل الوضع القائم ، وضع الشلل الذى كان الحزب فيه . لما زلت اذكر الحزب لعدة شهور فى حالة شلل تنظيمى وبالتالى شلل سياسى ، غير قادر على اخذ قرارات ومواجهة مشاكل البلد السياسية والاقتصادية والاجتماعية • ومن هنا كان لابد من وضع حد لهذا الشلل التنظيمى • لكن الحكمة كانت تدعو الى عدم

التعجيل ومعالجة الموضوع بالرجوع الى الكادر لجعله موضوعا سياسيا اكثر منه تنظيميا ، وكان هذا على الأقل ، ان لم يعيد هؤلاء الذين خرجوا ، كان سيجعل الباقين على الأرضية السليمة »(١) .

وخلاصة ذلك أن الوضع عام ١٩٥٨ كما يراه الدكتور فؤاد مرسى :

– كان خلافا سياسيا داخل اللجنة المركز والحزب ، حول الخط السياسى للحزب وموقف الحزب من النظام .

– كان هنالك رأى تتبنساه مجموعة من حدتو ترى بأن الحزب منحرف .

– كان هنالك ايضا – فى الصف الثانى من مجموعة حدتو – من يرى أن الحزب الشيوعى غير ضرورى .

– لم تعد المسألة خط سياسى سليم او خاطئ ، انما المسألة هى الدفاع عن وجود الحزب . يوجد أم لا يوجد .

– ان الانقسام بدا يمارس اجراءاته بالفصل ، فتمت مواجهته باجراءات تنظيمية كرد فعل .

وهو يرى الآن ، أن المعالجة كانت متعجلة وعلوية ، تنظيمية أكثر منها سياسية . وانه كان يجب الرجوع الى القواعد واللجوء الى دعوة مؤتمر طارئ يناقش هذا الموضوع بصورة سياسية اكثر منها تنظيمية .

والحقيقة ان غالبية المجموعة المركزية التى كانت تنتمى فى الأصل الى الحزب الشيوعى المصرى (الراية) ، كانت من الناحية السياسية اقرب المجموعات فى اللجنة المركزية – للحزب الواحد – من غالبية مجموعة حدتو المركزية . (وقدم تم تناول هذه النقطة فيما سبق عرضه) . كما كانت تؤمن غالبية هذه المجموعة بانهم هم الحزب الشيوعى فى مصر ، وان الوحدة مع الأخرين من « الانتهازيين » انما هى الطريق لتصفيتهم . ومن هنا احتفظوا بعلاقاتهم الحزبية القديمة ، داخل الحزب الواحد ، بعد الوحدة . مما كان يعنى التزام أعضائهم بهم هم كالقيادة « الشيوعية الثورية الوحيدة » ، وعدم الالتزام – فى الواقع الفعلى – بقيادة الحزب الواحد . وكان هذا الوضع من الناحية التنظيمية وطبقا للائحة الحزب يعتبر وضعا تكتليا يخرق قواعد التنظيم وينتهك لائحة الحزب الواحد بل

---

(١) نفس اللقاء الشخصى .

وينفيها • ولهذا فان الوضع الفعلى والواقعى لغالبية مجموعة الراية القيادية داخل الحزب ، لم يكن يختلف عن وضع غالبية المجموعة القيادية « لحدتو » داخل الحزب سياسيا أو تنظيميا • كان الفرق من الناحية التنظيمية أن الوضع الانقسامى لغالبية حدتو وضعا معلنا يمكن الامساك به لائحيا ومواجهته بالاجراءات التنظيمية ، اما وضع غالبية مجموعة الراية التكتلى فهو وضع سرى داخل الحرب السرى ، لم يكن يسهل الامساك به وقتذاك • ومن هنا فان ائتلاف غالبية هذه المجموعة المركزية ، مع غالبية المجموعة القيادية المنتمية فى الأصل الى حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى (ع • ف) والتى تختلف معها سياسيا بشكل أساسى ، انما هو موقف لا مبدئى فى السياسة ، كما أن محاسبتها لغالبية المجموعة القيادية من « حدتو » عن اخطائها التنظيمية والتى كانت هى نفسها ترتكب مثيلها ، يكون ايضا موقفا لا مبدئيا فى التنظيم . وان حقيقة هذا الائتلاف انه قد قام فى الأساس على موقف حلقى انقسامى للتخلص من تيار معاكس لهذين التيارين تاريخيا ، تحت شعار عام براق هو « حماية الحزب ووجوده » •

نظرة ضرب اليمين باليمين لحساب اليسار :

ثم يأتى بعد ذلك موقف الغالبية من المجموعة القيادية فى اللجنة المركزية الحزب الواحد ، والمنتمية أصلا الى حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى (ع • ف) •

يقول حلمى ياسين « منذ الدقيقة الأولى للوحدة اتضح ان هنالك عناصر دخلت الوحدة وفى ذهنها ان هذا الوضع مرحلى ارغمتها الظروف عليه • وبكل اسف فان مواجهة ذلك لم تتم بالطريقة المضبوطة من جانب الاغلبية . إغلبية الكوادر والقواعد ، بما ذلك هؤلاء الذين يحينون لتلك العناصر ، كانوا يريدون حزبا واحدا وكانوا ضد الانقسام . لم تكن المعالجة حكيمة ؛ وليست الحكمة هنا هى التنازل أو قبول التمرد ، الا انه كان من السهل استدراج الاغلبية لمعالجة التمرد باجراء تنظيمى والحزب ما زال وليدا وبه مشاكل تنظيمية . انت بذلك تعطى له الاذن بالانشقاق وأنت تعلم مقدما انه يحضر لهذا الانقسام •

كان وراء الانقسام عقيدة سياسية ، تقول بان هنالك مجموعة من اليساريين قد سيطرت على هذا الحزب • وفى اعتقادى أن الحزب عامة

كان يمينيــا رغم اقترابه اكثر فأكثر من النضج والاهتمــام بقضية الديمقراطية • ولقد ادى الانقسام الى معرفة كل اسرار الحزب »(١) •

وخلاصة الوضع كما يراه حلمى ياسين عام ١٩٥٨ :

ـ أن هنالك عناصر ارغمت على الوحدة على غير رغبتها أو قناعتها (بقصد مجموعة من عناصر حدتو القيادية)

ـ أن اغلبية الكادر والقواعد تقف مع الوحدة وضد الانقسام بمـا فى ذلك غالبية كادر قواعد حدتو •

ـ ان هذه العناصر ترى ان خطر الحزب يسارى رغم ان الاتجـاه العام للحزب كان يمينيا ، مما أوجد خلافا سياسيا .

ـ كانت المعالجة فى الأساس تنظيمية .

وهو يرى الآن ان المعالجة لم تكن حينذاك حكيمة ، وان الأغلبية استدرجت لاتخاذ ما يحقق صالح الانقسام .

ويقول نبيل صبحى ، « استغرق الحزب فى موضوع الانقسام . لم يكن هنالك تسييس لهذا الصراع ، فقط جمل عامة مثل (يد البورجوازية داخل صفوف الطبقة العاملة) . كان الموقف اجرائيا أكثر منه سياسيا • التسييس كان سيجعل حدتو والراية فى صف واحد تقريبا ، وهنا تصبح عملية الفصل غريبة .. الا ان الوضع الاجرائى يكتل الوضع الحلقى فى مواجهة الوضع الآخر •

ولقد تم اجتماع للاربعة عشر عضوا باللجنة المركزية الذين يمثلون ع • ف وآخرين من غير المركزيين • كانت غالبية الحاضرين ترى ان اليمين الحقيقى هو الرفيق فؤاد مرسى ومجموعته • وأن تقرير الرفيق يمثل ايدى البورجوازية واقدامها داخل الطبقة العاملة . وكان مطلب الزملاء هـو الانتظار بعض الوقت لمحاصرة الفكر الحلقى ، كما أن النزول الى الجماهير سيحاصر الفكر اليمينى . وقد اعترض على الاجتماع خمسة من اعضـاء

---

(١) لقاء شخصى معه فى ٦/١٩ ، ١٩٨٠/٩/٧ .

اللجنة المركزية هم لويس اسحق ، حسن صدقى ، نبيل صبحى ، سامى عجيب واحمد سالم وسادس من خارج اللجنة المركزية هو يوسف درويش • وكان اعتراض الزملاء قائم على أساس ان هذا الاجتماع تكتلى وغير تنظيمى الا أن الرفيق عباس رد على كل الاعتراضات واعلن مسئوليته عن الاجتماع باعتبار أن الحزب مقدم على انعطافة خطيرة ، وأن أى اهتزاز أو خلخلة سوف تزيد من تمزق الحزب ، وأن الانقسام الواحد سوف يتحول الى عدة انقسامات • ان الانقسام الذى يجرى داخل الحزب غير مستبعد عن تحركات العدو الطبقى ضد وحدة الحزب من احداث تفجير من داخله.. وان عدم اخذ فرصة لتسييس المعركة واستعجال الانقسام للانقسام يستدعى نشاطات غير عادية بين كوادر الحزب وتوعيتهم ، وأن هذا الاجتماع جزء من نشاطات التوعية تلك ، وأنه يتحمل المسئولية كاملة •

واستمر الاجتماع ، حتى الذين اعترضوا عليه ، استمروا ولم ينسحبوا • اوضح الرفيق ابو سيف يوسف انه ان لم يتم فصل المنقسمين ومواجهتهم ، وانشغل الزملاء بعملية التسييس تلك ، فانهم وحدهم الذين سيتعبون • كان تلميحا واضحا حيث ان من يسمون باليسار فى اللجنة المركزية حينذاك ، كانوا هم أعضاء ع • ف ومعهم اقلية من الموحد ، وكل الباقى يمين . والحقيقة أن المواقع السياسية بين الراية وحدتو لم تكن تختلف . كان قصد ابو سيف يوسف أن نضرب اليمين باليمين ، لحساب ما يسمى باليسار ، وهو بذلك كان يسيس المعركة بطريقته الخاصة • الا اننى ارى ان الكثيرين من الذين خرجوا مع حدتو فى الانقسام كان من الممكن كسبهم مع الوقت والعمل السياسى • وان كان هذا متعبا لليسار ، الا ان مجرى الاحداث كانت فى صالحه ، وبذا تأخذ المعركة شكلاً مبدئيا •

ان ما حدث كان نتيجة طبيعية للشكل الذى تمت به الوحدة ، حيث انها تمت بشكل لا مبدئى • كانت الخلافات بين التيارات ليست مجرد خلافات سياسية ولكنها كانت فكرية ايضا ، تجمعها راية واحدة بعد خلاف عدائى طويل ولمدة تنسيق ستة اشهر فقط • كانت الوحدة قد تمت على أساس لائحة ومبادىء سياسية عامة . وحتى نقاط الخلاف او الاتفاق لم تكن مسجلة. كان هنالك ثلاثة خطوط سياسية مختلفة لم تسجل كوثائق للوحدة ، حتى يحاسب فى المستقبل كل على صحة فكره او خطته »(١) •

---

(١) لقاء شخصى معه ـ انظر المرفق رقم (٣) .

وهذا يعنى :

ـ ان الفكر اليمينى قد تمثل فى مجموعتى الراية وحدتو القياديتين داخل اللجنة المركزية ·

ـ ان مجموعة الراية هى الذى تمثل اليمين الحقيقى فى الحزب ·

ـ ان مجموعة حدتو القيادية كانت تتجـــه اتجاها مؤكـــدا نحو الانقسام ·

ـ ان الائتلاف المعلن بين ع · ف والراية يرفض تسييس المعركة · حيث قام على اساس حلقى لا على اساس سياسى ·

ـ ان المنهج الحلقى الانقسامى الذى يعالج به هذا الائتلاف الازمة بعكس انقسامية ايضا بضرب هذا الائتلاف نفسه ، تحت شعار ضرب اليمين باليمين لحساب اليسار · وهنا يكشف المنهج الحلقي الانقسامى عن نفسه كمنهج تآمرى ·

ـ ان علاج الازمة يتم بعيدا عن مجمـــل الكادر وقواعد الحزب ، محصورا فى اجتماعات تكتلية هى فى الاساس اجتماعات قبلية تهدف الى التعبئة لمساندة الائتلاف المركزى فى رفض منهج تسييس الازمة والرجوع الى قواعد الحزب كله ، والعجلة فى سلوك المنهج التنظيمى القائم على الاجراءات الباترة .

ـ ان هنالك رفاقا من ع · ف قياديين وغير قياديين كانوا يرفضون هذا المنهج ويتخذون موقف الادانة منه .

ـ ان ما حدث كان نتيجة موقف لا مبدئى فى الوحدة ذاتها وحـده الحزب فى ٨ يناير ١٩٥٨ .

يقول فريد رمزى ، « بعـد الوحـده لم تكن الحلقية قـد انتهت . كانت بعض العناصر عاجزة عن الاندماج فى الوحدة . كانت كل تصرفاتهم ومناقشاتهم وتحركاتهم تحمل الطابع الحلقى المقيت ، والتشكيك فى العناصر القادمة من التنظيمات الأخرى · وكان البعض منهم يتخطى المسئولين من تيارهم التاريخى ليتصل بالزملاء فى الاقسام أو القواعد ، اذا كان لهؤلاء المسئولين دور توحيدى · كانت هنالك عناصر جادة فى الوحـدة

الا ان التيار الحلقى فى المركز والمناطق انعكس على بقية الكادر ، ولم يكن هذا قاصرا على ع . ف فقط ، ولكن كانت هنالك عناصر من المصرى (الراية) ايضا »(١) .

وهذا يعنى .

– وجود الفكر الحلقى بعد الوحدة ورغمها •

– كانت هنالك عناصر غير مقتنعة بهذه الوحدة من حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى (ع • ف) • ولعبت هذه العناصر دورا فكريا يشكك فى الاخرين وتنظيميا مخالفا لقواعد الحزب الواحد باجراء اتصالات حلقية .

– ان هذه العقلية ايقظت الحلقية مرة اخرى .

– ان عناصر من الحزب الشيوعى المصرى (الراية) كانت تمارس نفس الاسلوب .

– انه رغم ذلك كانت هنالك عناصر جادة فى ايمانهما بالحزب والتمسك بوحدته .

كانت غالبية مجموعة ع . ف القيادية تختلف اختلافا اساسيا مع غالبية مجموعة الراية القيادية وغالبية مجموعة حدتو القيادية • ومع ذلك فهى قد ائتلفت فى اغلبية تنظيمية مع المجموعة اليمينية الأولى ضد المجموعة اليمينية الثانية ، حيث ان المجموعة الثانية (حدتو) هى الاقوى عدديا والافعل تنظيميا وجماهيريا من المجموعة الأولى (الراية) ، وبالتالى فان ضربها بهذا الائتلاف يسهل عليها ولو منفردة مواجهة المجموعة الأولى فيما بعد تحت شعار ضرب اليمين باليمين • وسعى لتحقيق ذلك عقدت الاجتماعات التكتلية الحلقية ومارست الاتصالات الجانبية ونخطت المستويات الحزبية مما يعد خرقا تاما للتنظيم ولائحة الحزب ، وهى المسائل التى حاسبت مجموعة حدتو تنظيميا لخروجها عليها • أى ادانت السلوك التنظيمى لغالبية مجموعة حدتو فى الوقت الذى كانت تمارس فيه نفس ما تدين به الآخرين ، ومن هنا فقد كان موقف هذه الغالبية القيادية من ع • ف لا مبدئيا فى السياسة ولا مبدئيا فى التنظيم ايضا •

كانت مجموعة ع • ف القيادية هى اقرب المجموعات التاريخية الكبيرة الى الخط السياسى الصحيح ، وكان ذلك يعنى سياسيا انها اقرب

---

(١) لقاء شخصى معه فى ٣ ، ٤ ، ٨/٢٨ – ١٩٨٠/١٠/١٩ •

الى غالبية كوادر الحزب وقواعده والتى كانت ترفض الاتجاه اليمينى السائد فى خط الحزب السياسى الرسمى . وكان فى وسعها لو سارت على نفس الطريق المبدئى التنظيمى اللائحى الذى يعود الى كادر الحزب وقواعده - اذا كانت هنالك ازمة سياسية - ان تلعب دورا سياسيا مصححا لخط الحزب الرسمى ، ودورا تنظيميا مؤكدا للائحته ودستوره ، ودورا توحيديا يدعم الحزب ويدفع به الى الامام ويضرب الفكر والاعمال الانقسامية . الا ان الحقيقه التاريخية هى ان غالبية هذه المجموعة القيادية لم يكن مؤهلا لهذا الدور ، ليس من زاوية كفاءة افرادها ، ولكن من زاوية عدم الثقة فى مجمل كادر الحزب الشيوعى المصرى الواحد وقواعده ، وعدم الثقة فى جدية الوحده أو عدم القناعة بجديتها ، والتربية الحلقية المغلقة والمحاذير التاريخية والتى هى فى جوهرها فكر انقسامى يقوم على أساس انهم وحدهم الماركسيين وكل من خارجهم انتهازى متمركس .

ان كل ذلك - فى الأساس - يرجع الى الخطأ الفادح فى الشكل الذى تمت به الوحدة التى تكون على أساسها الحزب الشيوعى المصرى الواحد ، حزب ٨ يناير ١٩٥٨ . ان التيار التوحيدى العارم فى الحركة الشيوعية كلها ، لم يعكس صورته الحقيقية فى اللجنة المركزية للحزب الواحد . لقد جاءت الغالبية من الاحزاب الثلاثة التى اتحدت ، تمثل القيادات التقليدية بفكرها ومنهجها الانقسامى .

ان الوحدة نفسها كانت تعنى هزيمة العقلية الانقسامية لهذه القيادات التاريخية . وكان قبول غالبية هذه القيادات التقليدية بالوحدة هو نوع من التسليم دون قناعة ، او الهزيمة او الخضوع للارادة العارمة لغالبية الكادر والقواعد او الضغوط العالمية والعربية . وكان على غالبيه هذه القيادات وقد امسكت بالسلطة فى الحزب ، ان تحاول اثبات صحة رؤاها التاريخية الانقسامية . ولذا كان من الطبيعى ان تكون اللجنة المركزية هى بؤرة الانقسامية فى الحزب . وأن يكون منهجها بعد الوحدة فى علاج مشاكل الحزب ، هو نفس منهجها الحلقى الانقسامى قبل الوحدة . فهى وان كانت قد هزمت فكريا الا انها لم تتخلى عن افكارها كما انها لم تهزم تنظيميا فما زالت هى القيادة ايضا . كان كل فريق يحاول اثبات صحة مقولته الانقسامية : غالبية قيادة حدتو وضرورة التمايز امام خطر تلاشى التيار الثورى التاريخى فى ظل اغلبية معادية لها تاريخيا . غالبية قيادة ع . ف ونظرية الماركسيين والمتمركسين ، غالبية الراية ونظرية تصفية الانتهازيين بالوحدة معهم . وتحول الصراع الحلقى الانقسامى التاريخى من فوق منابر مختلفة الى صراع حلقى انقسامى داخل الحزب الواحد . وبذا حولت غالبية هذه القيادات التقليدية الحزب من

وعاء للتوحيد الى وعاء يحقق لها تصفية حسابات تاريخية عجزت عن تحقيقها قبل الوحدة ، كما يحول ايضا هزيمتها بوحدة الشيوعيين الى انتصار لها بانقسامهم مرة أخرى أو استحالة التعايش معا فى حزب واحد مما يؤكد صحة مقولاتهم التاريخية الانقسامية الحلقية ٠

وهكذا أصبح من مصلحة غالبية القيادات التقليدية للاحزاب الثلاثة السابقة ـ حتى دون اتفاق ـ الدفع بتسييس الازمة الى الخلف ، ووضعها على ارضية تنظيمية تخدم بالكامل منهج الانقسامية السائد ٠

موقف الفكر التوحيدى :

كان ذلك هو موقف غالبية القيادات التقليدية فى اللجنة المركزية ٠ وكانت تواجه تلك الاغلبية اقلية فى اللجنة المركزية تمثل الفكر التوحيدى والذى كان يعبر بالفعل عن الاتجاه العام لوجهة نظر غالبية الكادر والأعضاء الذين قاتلوا من اجل الوحدة وتكوين الحزب الواحد ٠ وكانت تتكون تلك الاقلية فى اللجنة المركزية من عناصر كانت تنتمى فيما سبق الوحدة ، الى المنظمات التى كونت الحزب الشيوعى المصرى الموحد ، بما فى ذلك حدتو ، ومن بعض العناصر الشابة اساسا من ع ٠ ف واقلية ضئيلة من الراية ، وان كانت لم تسفر عن مواقف عملية ٠

كانت تلك الاقلية ترى أن الازمة فى الحزب هى فى الأساس ازمة سياسية ، وان حل هذه الازمة لن يتحقق بالانقسام على الحزب بغرض التمايز ، أو الاجراءات التنظيمية باسم حماية الحزب من التخريب ، انما يلزم ان تلتزم اللجنة المركزية بلائحة الحزب فى اطار قواعد المركزية الديمقراطية ، بفتح الصراع الايديولوجى حول نقاط الخلاف على نطاق الحزب كله ٠ وانهاء هذا الصراع بعد استيفائه فى صورة مؤتمر عام ملزم للجنة المركزية ، بل ومن سلطاته تغيير اللجنة المركزية ، اذا راى ذلك فى مصلحة الحزب ووحدته ، أو فى صورة كونفرنس استشارى أو ملزم للجنة المركزية ٠ ان هذا المنهج الذى يضع القضية فى يد اصحابها من كادر الحزب وقواعده ، كان فى وسعه ان يعالج ما شاب الوحدة من نواقص فى السياسة أو الفكر الانقسامى ٠ اى يمكن للكادر بعد الوحدة ، وتمسكا بها ، تدارك ومعالجة ، ما لم يمكن تداركه ومعالجته قبل الوحدة ٠ وبهذا تتدعم وحدة الحزب ، وتصوب الاخطاء ، ويرسخ المنهج الديمقراطى فى تناول المشاكل التى تعترضه ٠

وكان هذا المنهج يحرك ايضا أنه يمكن - بمشاركة الكادر - محاصرة الانقسام الى أقصى الحدود وتعريته ، بحيث يعود الضرر على المنقسمين وحدهم ، لا على الحزب نفسه . وان استخدام سلطة الاغلبية المركزية على نحو تنظيمى ، لمعالجة الوضع الانقسامى ليس بالامر الصائب . انه استخدام قاعدة حزبية صحيحة فى غير الموضع والموقف الصحيح .

ولقد بنى هذا المنهج موقفه على أساس :

- ان الخلاف السياسى فى الحزب أمر متوقع ، وان احتمال سيطرة اغلبية يمينية أو يسارية على اللجنة المركزية أمر وارد وليس بالمستبعد أو الغريب أو الذى لم تسبقه سابقة • الا ان المسألة على الدوام ، ليست فى الخلاف السياسى ذاته ، ولكنها فى كيفية معالجته ، مما يؤدى الى هزيمة هذه الافكار الغريبة عنه وعن ايديولوجيته ، ويقود إلى المزيد من وضوح سياسته أو تصويبها وتعميق رؤيته الطبقية وتوحيد صفوفه • وبالتالى فان الفكر اليمينى أو اليسارى فى الحزب ، لا يثير الفزع أو رد الفعل المتسم بالعصبية وفقدان الاتجاه ، انما يثير اليقظة والعمل الواعى من خلال الممارسة الجماهيرية والوضوح النظرى والفهم الصحيح للواقع بما يحاصر هذا الفكر ويحد من نفوذه الى اقصى درجة ممكنة •

- ان الفكر الانقسامى قد هزم حقا باعلان الوحدة والمعركة التى خاضها مجمل كادر الحركة الشيوعية المصرية ، الا انه لم ينته • والقضية انه يسيطر على عناصر تملك مراكز مفتاحية فى الحزب ، تتيح لها الممارسة الفعلية لهذا الفكر الانقسامى ودفع الحزب اليه . وان تلك الافكار تنتظر أول بادرة تتيح لها الانقضاض ، حتى تثبت صحة موقفها التاريخى وخطأ موقف الذين نادوا بالوحدة .

- ان الاتصالات الحلقية - بعد عمر طويل من الانقسام والعداء وفقدان الثقة - أمر طبيعى للغاية ، داخل الحزب الواحد بعد تكوينه • ولا يعنى ذلك الاقرار بصحة هذه الاتصالات أو بصحة الخروج على التنظيم واللائحة ، لكنه يعنى الاقرار بحقيقة موضوعية ، مطروحة للعلاج ، وصولا الى القضاء عليها وتأكيد وتعميق الانتماء للحزب الواحد •

ان هذه المعالجة تأتى بالتوعية واعادة التربية واعطاء المزيد من الثقة فى الحزب الواحد ، والعمل على تحويل الولاء للقيادات التاريخية والاقتناع بها ، الى ولاء لقيادة الحزب الواحد والاقتناع بها • ولا يمكن أن يتم ذلك بشعارات عامة عن الدفاع عن الحزب ووجوده أو اتهام الآخرين بالتخريب

والعمالة للبورجوازية او الاجراءات التنظيمية ، والتى تمثل فى مثل تلك الظروف والاحوال والاوضاع الخاصة بالحزب الشيوعى المصرى ، عسفا بالغا فى حدها الادنى • الا أن تلك الممارسات لا ينفرد بها طرف دون الآخر ، ولا يمكن لاحد هذه الأطراف أن يستبيحها لنفسه بينما يدينها بالنسبة لغيره مهما كان المبرر « الثورى » لذلك •

الا ان الفكر الانقسامى من أجل « التمايز التاريخى » وتصفية « المتمركسين والانتهازيين » كان يقاتل بضراوة • اصحاب النظرية الأولى يسعون للخروج من الحزب بأكبر عدد من الأعضاء وأكبر قدر من الامكانيات الفنية المادية ـ وأصحاب النظرية الثانية ، يسعون الى استبعاد أكبر قدر من الأعضاء الذين ينتمون تاريخيا الى الحزب الشيوعى الموحد . ومن هنا وقع التيار التوحيدى ـ وهو يناضل من اجل منع الانقسام أو الحد منه ـ بين فكى الرحى . بلغ موقف الفريق الأول منه حد الاعتداء على افراده والفريق الثانى حد اتهامه بالابقاء على الانتهازية وتخريب الحزب . وكان هذا أمرا طبيعيا ، فالفكر الانقسامى يرى فى الفكر التوحيدى عدوا له يستحق الردع ، كما يرى فيه مدمرا لمنهجه •. وكانت القضية أن الفكر الانقسامى يعتبر « تخريب » منهجه بتأكيد الوحدة « تخريبا للحزب » نفسه •

ونجح الانقسام نتيجة الجهود المكثفة التى بذلتها كل الأطراف الانقسامية فى اللجنة المركزية • واعلن الانقسام أنه هو الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) . وسرعان ما حقق تمايزه عن الحزب الشيوعى المصرى الواحد ، وعدم تمايزه عن الحزب العسكرى الحاكم ، ووقف على منصات الاتحاد القومى جزءا لا يتجزأ من حليفة البورجوازى الوطنى . وعاد اسم حدتو (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) الى الظهور رسميا مرة أخرى • وكان المفروض أنه قد انتهى باتحاد حدتو واربع منظمات أخرى عام ١٩٥٥ وتكوين الحزب الشيوعى المصرى الموحد • وكان ذلك اعلانا واضحا على أن غالبية قيادة حدتو التاريخية ، كانت تنتهز الفرصة لاعلان حدتو مرة أخرى ، وبذا فانها لم تكن تؤمن بالوحدة بدءا بالحزب الموحد فى فبراير ١٩٥٥ أو الحزب المتحد عام ١٩٥٦ أو الحزب الواحد فى ٨ يناير ١٩٥٨ .

كانت البورجوازية الوطنية الحاكمة وحزبها العسكرى يرصدان كل ما يجرى داخل الحزب الشيوعى المصرى باعتبار ان الانقسامية ، اى ضرب الحزب لنفسه بنفسه من الداخل ، سوف يصيب الحزب بالعجز ثم التمزق وعودة الوضع الانقسامى الى ما كان عليه . وبذا يكون

الشيوعيون قد وفروا بايديهم ما على الحزب العسكرى أن ينجزه بيديه ، أى ضرب الحزب من الخارج .

ولم ينجح الانقسام فى ذلك ، الا ان العقلية الانقسامية خلال الازمة ، طرحت كل اسرار الحزب على الملأ . وكشفت كثير من الاسماء الحزبية التى لم تكن معروفة لدى أجهزة الأمن من قبل . فالصراع الانقسامى العدائى دفع الأطراف المختلفة الى عدم الحرص على أمان وسرية الأطراف الأخرى ، مما مكن أجهزة الأمن من تحقيق نصر سهل سقط فى ايديها دون جهد منها ، مما جعلها قادرة على استكمال كشوفها وبياناتها عن قوات كل الفرق ، وأن تعد عدتها ليوم موعود .

*** *** ***

خرج الجزء الأكبر من مجموعة حدتو فى الانقسام (الحزب الشيوعى المصرى « حدتو ») ، الا أن الغالبية الكبرى ممن كانوا ينتمون الى منظمات أخرى فى الموحد ، ظلت داخل الحزب ، وكذا جزء هام ، وحدويا وسياسيا ، من الكادر والاعضاء الذين ينتمون تاريخيا الى « حدتو » .

يقول صابر زايد ، « انا فى الأصل من حدتو ، الا أنه عندما حدث الانقسام ظللت داخل الحزب . كان هناك ما يسمى بالحزب وما يسمى بالمنقسمين وكان اغلبهم من حدتو . انا رجل مبدئى ، قلت لابد وأن يكونوا مخطئين . كان رأيى أنه يلزم بقاؤهم داخل الحزب . كان هذا يثير ضيقهم منى للغاية . كان هنالك فصائل أخرى مثل ع . ف والراية ، وكان المنقسمون يسمون هؤلاء بالتكتل . لكننى كنت اعتبر الحزب هو حيث كنت وبقيت . كانت وجهات نظر الآخرين ان ع . ف والراية يتآمرون على تنظيمهم ، وأنهم قد فصلوا البعض وفى طريقهم لفصل الآخرين ، ولذا خرج الباقون قبل أن يفصلوا لكننى ظللت فى الحزب »(١) .

وكان هذا القطاع الذى ظل فى الحزب ، ينتمى فى أصوله التاريخية الى الحزب الموحد ، يشكل قوة فاعلة ومؤثرة فى التيار التوحيدى بالحزب .

وأدى خروج غالبية العناصر القيادية المنتمية فى اصولها التاريخية الى حدتو ، اما بالفصل او بالانسحاب من الحزب ، الى فقدان اليمين لسيطرته على الحزب . ولما كان فقدان هذه السيطرة قد تم بطريقة اجرائية وليس بطريقة سياسية فان نفوذ الفكر كان ما يزال قويا فى الحزب . فقد ازيح الأفراد ولم تزح الأفكار .

---

(١) لقاء شخصى معه فى ١٩٨٠/٩/٢٣ .

وأعيد تشكيل اللجنة المركزية بتضييقها ، كما أعيد تشكيل المستويات الحزبية الأخرى . وتمكن الحزب بجهد خارق من لملمة صفوفه واعادة تنظيم قواته . وأدى التشكيل الجديد للجنة المركزية الى وجود اغلبية سياسية يمكن أن تتجه بالحزب الى مواقف ومواقع أكثر طبقية • كما أن التيار التوحيدى فى الحزب ، رغم انه لم يتمكن خلال الازمة من فرض منهجة الصحيح لمعالجتها ، الا انه ازداد قوة بعد الازمة ، حيث ثبت بصورة ملموسة ومباشرة لكثير ممن جرفتهم روح القبيلة ونداشها ، صحة ما قاله ، من أن ادارة المعركة بالاسلوب الحاقى التآمرى قد وسع من خسائر الحزب فى الكادر والعضوية واستباحة كل أسراره الداخلية . كما اعطى مثلا حيا لكيفية ممارسة الصراع الداخلى والالتزام الحزبى ، مهما كان مخالفا فى المنهج او الرأى مع اللجنة المركزية ، مع موقفها من اللائحة نصا وروحا ، وأمام اصرار هذا التيار التوحيدى فى مجمله ، والذى كان يضم قوى من كل الأصول التاريخية المكونة للحزب ، وافقت اللجنة المركزية على فتح الصراع الايديولوجى فى الحزب ، وتنظيم هـذا الصراع على أن يختتم بانعقاد مؤتمر عام أو كونفونس مركزى طبقا للظروف ، يضع خطة ثابتا وواضحا للحزب خلال المرحلة السياسية القادمة ويعيد انتخاب القيادة المركزية . وكانت ازمة الحزب هى احدى النقاط الهامة التى ستطرح خلال هذا الصراع والتى سيقول المؤتمر فيها كلمته . كان الصراع فى مجمله سوف يدور ضد خطر الفكر اليمينى على الحزب وضد بقايا الفكر الخلقى والانقسامى .

وخسرت البورجوازية الوطنية وحزبها الحاكم رهانها على ان الانقسام سوف يفجر الحزب من داخله ويعيد الوضع الانقسامى الى سابق عهـده .

ثورة العراق وحملة العداء للشيوعية :

فى تلك الاثناء تلاحقت الاحداث . قامت ثورة العراق ، واطيح بحلف بغداد ووقع الاعتداء على لبنان وهزم ، ووقف الحزب الحاكم فى مصر والحزب الشيوعى المصرى وكل القوى الوطنية تساند ثورة العراق وتواجه الهجمة الاستعمارية ، واثيرت قضية الوحدة بين مصر والعراق • وأصر جمال عبد الناصر على منهجه فى الوحـدة لا الاتحاد • ووقف الحزب الشيوعى المصرى يؤيد الاتحاد الفيدرالى وبدأت الصحافة المصرية تلمح الى السيطرة الشيوعية على ثورة العراق ، كمدخل للهجوم عليها . كانت ثورة العراق تختلف عن ثورة مصر فى موقفها من الاحزاب الوطنية المعادية للاستعمار ، فقد تعاونت معهم منذ اللحظة الأولى ، وكانت تلك الاحزاب

فى الأساس أربعة احزاب هى ، الحزب الشيوعى العراقى ، الحزب الوطنى الديمقراطى ، حزب البعث وحزب الاستقلال • وكان هنالك شكل من اشكال الجبهة يربط فيما بينها ، ومن هنا رفع الحزب الشيوعى فى مصر – تأكيد لموقفه من الديمقراطية – شعار جبهة وطنية ديمقراطية مثل الجبهة العراقية • كانت ثورة العراق الوطنية قد اضافت الى الحركة الثورية العربية عمقا وبعدا يدعم المنهج الديمقراطى فى الوحدة الداخلية والوحدة العربية . وكان ذلك مناقضا لمنهج الحزب العسكرى الحاكم فى مصر ، فى الوقت الذى كان يدعم فيه نضال القوى الوطنية والتقدمية فى كل المنطقة العربية وخاصة مصر وسوريا •

واحست البورجوازية الوطنية المصرية وحزبها الحاكم فى مصر ان العراق سوف يشكل قطبا ثوريا جديدا فى المنطقة يشد اليه القوى الوطنيه الديمقراطية والتقدمية ، ويعطى نموذجا آخر غير النموذج الذى قدمته . نموذجا يجسد مطالب هذه القوى ويثبت صحة ما نادت به • ومن هنا بدأ التحول من مساندة الثورة العراقية بشكل عام الى مساندة اجنحة معينة تتفق والنهج المصرى الحاكم ، الأمر الذى شكل تدخلا فى شئون العراق واثار الحساسية بين القوى الوطنية المختلفة .

فى تلك الاثناء نشب الصراع الفكرى فى الحزب الشيوعى المصرى • وبدأت تظهر ملامح فكر جديد ومواقف سياسية جديدة . مواقف تجعل الحزب اكثر تمايزا بطريقة موضوعية وطبيعية . موضوعية من حيث قربها من الواقع والحركة الجماهيرية ، وطبيعية من زاوية موقعهما الطبقى فى التعبير عن الطبقة العاملة والكادحين ، مطالبهم وطموحاتهم • أصبح الحزب اكثر اهتماما بتطوير موقفه من القضايا السياسية وتنشيط العمل الجماهيرى ، وان كان الحزب فى موقفه العام ما يزال متأثرا بالفكر اليمينى ، ما يزال يغلب عليه مفهوم البورجوازية الصغيرة للوحدة الوطنية ، ذلك المفهوم الذى يسلم بالقيادة للبورجوازية الوطنية الحاكمة •

الحزب العسكرى يعلن انتهاء المعركة مع الاستعمار وبدايتها مع اليسار

وجاءت مؤاتمرات الاتحاد القومى ، تلك المؤاتمرات التى كانت تحاول اضفاء شعبية على هذا الحزب الحكومى ، وتضيف الى كل وسائل الاعلام المملوكة للحزب والدولة ، وسيلة الحشد الجماهيرى حوله .

كانت البورجوازية المصرية الحاكمة ترى ان الأمر قد استتب لها محليا وعربيا ، الا من الشيوعيين الذين فشل الانقسام فى تمزيق حزبهم

فى مصر ، وتزايد دورهم فى العراق ووضوح ، ونضج موقفهم فى سوريا . من هنا صعدت من حملتها على اليسار عامة والشيوعيين خاصة . ومما زاد الامور سوءا بالنسبة لها ، ان مؤتمرات الاتحاد القومى والتى كان يحتل منصاتها كبار رجال الدولة والحزب الحاكم ، وجماعة حدتو التى انقسمت على الحزب الشيوعى المصرى وبدأت تهاجمه وتتهمه باليسارية مما يعد سياسيا تحريضا للدولة عليه ، قد فشلت فى السيطرة على جماهير تلك المؤتمرات ، فى الوقت الذى نجح فيه الحزب الشيوعى المصرى . من خلال اعضائه ، فى طرح شعارات الحزب داخل هذه المؤتمرات وحشد الجماهير حولها ، مما اضطر الحزب الحاكم الى وقف هذه المؤتمرات ، بعد عقد ثلاثة منها فقط ، فى حين كان المفروض عقد ثمانية مؤتمرات .

كان الحزب الشيوعى المصرى يدعو الى اطلاق الحريات السياسية وحرية تكوين الاحزاب الوطنية ، وتكوين جبهة وطنية ديمقراطية من كل هذه القوى الوطنية . وعندما تحقق هذه الدعوة انتشارا بين الناس فى الشوارع والمصانع ، حيث تتفق وتلتقى مع المصالح العريضة لكل القوى الوطنية ، وبالتالى تعبر بصدق عن الطريق الواجب اتخاذه دفعا للثورة الى الامام وحماية لها فى الداخل والخارج ، يكون رد الفعل عند الحزب الحاكم سلبيا . اذ يرى فى هذه الدعوة مساسا بانفراده بالسلطة وبحقه المطلق فى الوصاية . كما يرى فى هذه الدعوة ايضا ، طبقا لنظرته الانانية وضيق افقه ، منازعة له وتقديم بديل عنه ، وهو لا يرى اسلوبا لمواجهة ذلك غير السلطة وادواتها . وبدلا من المزاعم المعلنة عن مواجهة الفكرة بالفكرة ومقارعة الحجة بالحجة ، يقوم بحملة اعتقال تتناول عددا من شباب الحزب الشيوعى المصرى ، الذين لعبوا دورا بارزا فى مؤتمرات الاتحاد القومى ، ويرسل بهم فى سبتمبر ١٩٥٨ الى معتقل الاجرام فى قنـا .

واضيف بذلك تصعيد جديد للهجوم الذى بدات تشنه بعض اقلام الحزب الحاكم فى الصحف عن اليسار والاستعمار . كانت حملة سبتمبر انذارا عمليا الى الحزب الشيوعى المصرى ان يكف رايده عن الشارع المصرى ، خاصة انه بدأت فى تلك الفترة تحركات عمالية استخدم العمال فيها سلاح الاضراب عن العمل فى النقل العام والسكك الحديدية وغيرها . كما كان يعد لاضراب عمال مزارع ومصانع كوم امبو . وبدأ الصراع الطبقى يطفو الى السطح فى مواجهة الاستغلال الطبقى للطبقة الحاكمة . وأخذ الحزب الحاكم يدفع بالصراع الطبقى دفعا ، بتعميقه للتناقضات الاجتماعية وانفراده بالسلطة وبكل الحقوق الديمقراطية مما وسع رقعة الرفض فى مواجهته .

كان الحزب الحاكم لا يرى فى الحزب الشيوعى المصرى حليفا ، بل بديلا • ومن هنا أصبح موقفه فى مواجهته ليس الالتقاء والتحالف كما كان ينادى الحزب الشيوعى المصرى ، بل المواجهة العدائية والحسم البوليسى • وكان الحزب الشيوعى المصرى ، برغم فقدان اليمين لسيطرته التنظيمية عليه ، ما يزال واقعا بشكل عام فى اسار الافكار والاتجاهات اليمينية • ويتضح ذلك فى موقف غالبية قيادته من حملة سبتمبر حيث انها لم تر فيها ما كان يجب ان تراه ، من كونها مؤشرا لنقلة جديدة بين حزبها والحزب الحاكم • لقد أخذت الحملة على انها مسألة محدودة تمثل نوعا من المناوشات التى تقوم بها الاجهزة الأمنية • والمقصود باليمينية هنا هو ان غالبية القيادة لم تكن على الدرجة المطلوبة من اليقظة الطبقية • كان يجرفها النضال الوطنى • حقيقة كان الحزب على رأس كل النضالات العمالية ، الا انها كانت نضالات فئوية فى الأساس • ومن هنا كان رد الفعل خافتا ، مما شجع الحزب العسكرى الحاكم والاجهزة على التخطيط لما هو أبعد من ذلك • لقد كانت حملة سبتمبر ١٩٥٨ هى البداية الحقيقية لحملة يناير ١٩٥٩ ، الا ان عدم ادراك غالبية القيادة لهذه الحقيقة عرض الحزب للمخاطر الشديدة التى تلت فيما بعد •

ورغم ذلك فان الحزب كان يبذل جهدا حقيقيا وجادا من أجل فهم انضج للواقع المصرى وكيفية معالجة قضاياه وتناقضاته • كان الصراع الايديولوجى مفتوحا وكانت الافكار اليمينية تتبلور اكثر فأكثر فى منهج يسود الوحدة على الصراع ، ليس بالمعنى الصحيح لهذا المنهج ، اى معالجة نقاط الخلاف أو الصراع على أرضية الوحدة ، ولكن بمعنى يقود الى تحويل نقاط الخلاف أو الصراع ، فى الواقع العملى ، الى مجرد موقف تسجيل ، باسم الوحدة والحفاظ عليها • ورغم ان هذا المنهج كان يمثل الاقلية فى اللجنة المركزية والحزب ، الا انه كان يكتل قواه بأساليب غير تنظيمية ليشكل ضغوطا لا مجدئية على الحزب • وكان المنهج الآخر ، وهو المنهج الصحيح الذى يجعل للحزب دوره المتميز من خلال مواقف عملية صحيحة تعبر عن مصالح طبقته وكل الكادحين فى اطار الدعوة الى الوحدة الوطنية ، يتحسس طريقه من خلال النضالات اليومية ، ليتعرف على انسب الطرق واصدقها فى الممارسة ، بحيث لا تخفق الوحدة جوانب الصراع ، ولا يطغى الصراع على الوحدة • فى هذا الوقت الذى فشلت فيه الانقسامية فى تفجير الحزب ، وفشلت حملة سبتمبر فى ارهابه ، تقدم الحزب العسكرى الحاكم ، عن طريق واحد من قادته هو محمد انور السادات ، بانذار صريح مباشر الى الحزب الشيوعى المصرى • فقد استدعى أنور السادات ، محمود أمين العالم ، وهو أحد قادة الحزب الشيوعى المصرى ، الى بيته فى الهرم •

يقول الدكتور فؤاد مرسى ، « فى هذا اللقاء الذى دار الى ساعة متقدمة من الليل والساعات الأولى من الفجر ، جرى حديث قوامه الآتى : نحن لا نقبل فى مصر بأى تنظيم سياسى سوى الاتحاد القومى ٠ اذا كنتم تريدون أن تعملوا بالسياسة فلا مجال لكم الا داخل الاتحاد القومى ٠ اذا كنتم مصرين على البقاء كحزب شيوعى فنحن لا نعترف بكم ، ولن نسمح لكم بالعمل ، ولن تكونوا اقوى من الاخوان المسلمين الذين سحقناهم . اذا أردتم ان تعيدوا النظر فى موقفكم فهنالك مجال كبير للتعاون بيننا وبينكم ، اما اذا اردتم الاستمرار فسنسحقكم ٠٠ كما اننا لن نكتفى بهذا وانما سنقضى على قضيتكم بين الجماهير ، فالمطلب الذى يمكن أن تطالبوا به باسم الجماهير ، سننفذه قبل أن تطالبوا به »(١) .

كان يطالب بوضوح بحل الحزب الشيوعى المصرى والتعامل الفردى مع الاتحاد القومى ٠ وأصر محمود العالم فى رده ، على حق الشيوعيين فى التنظيم ، وانهم قوة وطنية ، وان الشيوعيين العرب قوة وطنية ايضا . دافع عنهم وعن الحزب الشيوعى المصرى واعلن ان أى تفكير فى اتخاذ اجراء ضد الحزب الشيوعى سوف يكون ضربة للنظام ايضا ؛ وليس للشيوعيين وحدهم ٠ وانتهت المناقشة كما بدأت .

يقول حلمى ياسين ، « ايدت السكرتارية المركزية هذا الموقف ، الا انها لم تر فيه الانذار الكافى بعد اعتقالات سبتمبر . كان هنالك احساس من القيادة أن الصدام قادم ، الا ان مدى هذا الصدام لم يكن واضحا امام الجميع الا اقلية ضئيلة ، منها ابو سيف يوسف وفخرى لبيب ، كانت تحس بأننا مقدمين على معركة كبيرة وان الحزب سوف يتعرض للطحن من البورجوازية . وكانوا يهيأون انفسهم على هذا الاساس ٠ كانت الاغلبية ترى ان هنالك ازمة قادمة ، الا انها سوف تكون فى حدود قضية الامساك ببعض الزملاء وترك البعض الآخر »(٢) .

وظل الحزب يواصل نضاله بين الجماهير ، الا ان القيادة لم تتخذ الاجراءات الواجبة لتأمين الكيان الحزبى امام الاخطار الآنية والآتية .

عندما فشل أنور السادات مندوب الحزب الحاكم فى تحقيق ما استهدفه ، نزل جمال عبد الناصر رئيس الحزب بشخصه وثقله السياسى والجماهيرى الى أرض المعركة ٠ واختار عبد الناصر يوم ٢٣

---

(١) نفس اللقاء الشخصى السابق ٠
(٢) نفس اللقاء الشخصى السابق .

ديسمبر وهو عيد النصر : ليقف فى بورسعيد حيث تمت التجربة الجبهوية الوحيدة رسميا بين الحزب الحاكم والشيوعيين فى مواجهة الغزو الاستعمارى عام ١٩٥٦ ، ليعلن من ارض نجاح التجربة والانتصار على العدوان ، تدمير هذه التجربة ورفضها • وشن على الشيوعيين ، من هناك ، ابشع حملة استعان فيها بكل التهم البساطة والنعوت غير الحقيقية ، والتى لم يسبق لها ان صدرت من أى قائد وطنى فى مصر • ثم لحق به حسنين هيكل ، ليضع فى « صراحته » النقط فوق الحروف وليعلن انه يتوجب على الشيوعيين ان يضعوا على افواههم اقفال من حديد والا .

يقول الدكتور فؤاد مرسى ، « اجتمعت السكرتارية المركزية بعد ٢٣ ديسمبر بيوم واحد ووضعنا خط سياسى للحزب واجراءات تنظيمية لمواجهة الحملة المقبلة . كان ذلك يوم ٢٥ ديسمبر ، قرارات ٢٥ ديسمبر • الخط السياسى كان كالآتى : الثورة المصرية هى ثورة وطنية ضد الاستعمار • وأن هذه الثورة لم تنته بعد • وأن الاستعمار بذكائه يوقع النظام فى مخطط ، وهو توهم انتهاء الخطر الاستعمارى عن بلادنا وعن المنطقة ، بينما اذا سلمنا أن مصر قد كسبت استقلالها السياسى ، فان امامها ان تكسب استقلالها الاقتصادى ، وان معركة كسب الاستقلال الاقتصادى لا تتم الا فى مواجهة الاستعمار اساسا ، وهى أشد ضراوة من معركة كسب الاستقلال السياسى • وأنه بالتالى على القوى الوطنية ان تحذر الفخ المنصوب لها من قبل الاستعمار • وعلى النظام أن يدرك أنه ما زالت أمامه معارك ومعارك مع الاستعمار ، وأن المعركة مع الاستعمار لم تنته ، بل يمكن القول مجازا انها قد بدأت • وأن البورجوازية الوطنية لها جانبها الوطنى الذى لا نقلل منه ، ولكن لها ايضا جوانبها الأخرى التى علينا نحن ان نبصرها بها من خلال الوحدة والصراع . طرحنا منهج الصراع والوحدة بقوة فى هذا الكلام الجديد • ثم دعينا الى وحدة القوى الوطنية ووحدة النظام معنا ووحدتنا مع النظام لمواجهة الاستعمار • وتحذير النظام الا ينزلق الى الفخ المنصوب له وللقوى الوطنية بضرب الشيوعيين • فان بدأ ضرب الشيوعيين ، لابد سيعقبه ضرب قوى أخرى وطنية ، وسيحيق الامر بالنظام نفسه ، لأن هذا النظام ، مهما كان ، هو فى النهاية نظام وطنى . هذه هى النظرية التى اعيدت صياغتها فى هذا الخط ، والتى طرحناها باصرح عبارة • أن هذا الذى يفعله النظام خطأ ، وأن هو ضربنا سوف تدور المعركة عليه هو نفسه ، كما عليه أن يتوقع معارك لا تنتهى مع الاستعمار • ووضعنا فى نفس الوقت الخط التنظيمى الذى يقوم على السرية الكاملة والتأمين الكامل »(١) •

---

(١) نفس اللقاء الشخصى السابق •

يقول نبيل زكي ، « عندما حدث الانذار بعد لقاء محمود العالم وانور السادات ، كان هنالك بين كادر الحزب رايا يرى ضرورة الاختفاء ، غير انه لم تصل كلمة رسمية من القيادة . كنا نرى ضرورة الاستعداد خاصة بعد خطبة عبد الناصر واتهامه للشيوعيين بالعمالة وبأنه لا مكان لهم »(١) .

ويقول شكرى عازر ، « بعد خطبة عبد الناصر فى ٢٣ ديسمبر ، والتى هاجم فيها الشيوعيين السوريين والعراقيين والمصريين ، كان هنالك توقع ، بصورة كبيرة ، أن تجرى عملية قبض على الشيوعيين المصريين والقوى المعارضة . كنت فى ذلك الوقت اوشك ان انتهى من امتحانى فى نهائى طب . ذهبت الى منزل الهام سيف النصر حيث قابلت د. فؤاد مرسى أو د. اسماعيل صبرى . قلت لهم ان هنالك احتمال قبض علينا ، قالوا أن هذا التفكير مستبعد تماما ، ولا يمكن حدوث قبض او قضايا أو أو اعتقالات فى هذه المرحلة على الأقل . دهشت من هذا القول ، اذ كنت اشعر ان احتمال القبض كبير للغاية . كان عندى انطباع أن عملية القبض يمكن ان تتم فى اى وقت . حملة كبيرة او صغيرة ، انما فيه فيه هجوم واضح جدا ضد الشيوعيين . كانت المسألة واضحة ، الا انني ذهبت الى الامتحان طبقا لكلامهم وقبض على بالليل يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥٨ »(٢) .

ويقول صلاح خطاب ، « كنا قد اعددنا المؤسسة ، مكتبة مكونة من ثلاثة طوابق . كان المفروض فيها أن تكون أكبر مكتبة فى الشرق الاوسط . كان بها عشرات الألوف من الكتب .

كنا قد ناقشنا المسألة بعد خطبة ٢٣ ديسمبر وحددنا أن هذه الخطبة انذار . الا اننا خلصنا الى أن المؤسسة قد تفلت من هذه الضربة المتوقعة باعتبار انها عمل تجارى ، اذ كنا قد نجحنا فى ارساء قواعد معاملات دولية ، فيها اتفاقيات رسمية مع السوفيت والصين ، وما يصل منها يمر على الرقابة وتدفع عنه الجمارك ، عمل تجارى بحت ، بل اكثر من ذلك كنا قد وقعنا اتفاقية مكتوبة مع وكالة الشرق الاوسط الحكومية . كانوا يصدرون نشرة باللغة الانجليزية ، تحتوى على ملخص لما قالته الصحافة

---

(١) لقاء شخصى معه فى ٢٤ ، ١٩٨٠/١٠/٣١ .
(٢) لقاء شخصى معه فى ١٩٨٠/٩/٢ .

المصرية خلال اسبوع وتوزع فى انحاء العالم • وبالطبع لم يكن ممكنا عقد مثل هذا الاتفاق دون أن تضىء لهم الحكومة النور الاخضر . ومن هنا نفينا عن انفسنا فكرة الهرب ، وكنا نعد ليوم افتتاح كبير يحضره وزير الثقافة وكذا المثقفين المصريين ورجال الاعلام •

وضرب كل ذلك ليلة راس عام ١٩٥٩ »(١) •

ويقول فتحى عبد الفتاح ، « •• قبض على عبد العظيم انيس فى الفجر •••• كانت المظاهر والاحداث فى الاسابيع الماضية تسير فى اتجاه يمكن ان يصل الى هذا الحد • ولكن احد لم يكن يتوقع أن تجرى الاحداث بمثل هذه السرعة ، بل ان الدكتور عبد العظيم نفسه كان قد قال لى صباح اليوم السابق : اننى اتوقع ان يسود العقل فى النهاية ، فليس هنالك مصلحة لاحد فى استمرار هذا الشقاق بين القوى الوطنية •

كان عبد العظيم متفائلا مثل كثيرين من قيادة الحركة الشيوعية المصرية فى تلك الفترة »(٢) •

ويقول حلمى ياسين ، « كانت مقالة هيكل كلمة واضحة جدا ، لا لبس فيها • وامسك فى اول يناير بكل قيادات اليمين (حدتو) ونحن ايضا ، باستثناء الزميلين أو الثلاثة الذين كان لديهم شعور بالازمة الشاملة • وحتى بعد القبض علينا ، لم يكن هنالك تقدير سليم للموقف ، بمعنى انه عندما جاءتنا الصحف داخل المعتقل فى القلعة ، وبها البيانات التى اصدرتها صحف العالم مثل الديلى ووركرودى برافو والبرافدا تهاجم اضطهاد الشيوعيين فى مصر ، وكان عنوان « اخبار اليوم » ـ « الاوركسترا تعزف من بكين الى لندن » ، تفاءلنا فى القيادة بان الازمة لن تطول • انها ازمة طارئة . فترة اعتقال محدودة ، بسيطة ، تمتد عدة شهور وتنتهى وانها لن تكون بالازمة الطويلة »(٣) •

كان الموقف السياسى للحزب الشيوعى المصرى فى اتجاهه العام داعيا الى ضرورة التمسك بوحدة القوى الوطنية ونبذ سياسة العداء للشيوعية ، باعتبار انها سياسة تقود الى تمزيق القوى الوطنية لا وحدتها • كانت نقاط الاتفاق الواقعية بين الحزب الشيوعى المصرى والحزب العسكرى الحاكم اكثر بكثير من نقاط الاختلاف .

---

(١) لقاء شخصى معه ـ ١٩٨٠/٦/٦ .
(٢) كتاب « شيوعيون وناصريون » •
(٣) نفس اللقاء الشخصى السابق .

وكان الموقف السياسى للحزب الشيوعى المصرى (حدتو) هو التأييد شبه المطلق ، غير المشروط ، للحزب العسكرى الحاكم . وكانت وجهات نظريهما تكاد تتطابق فيما يجرى من أمور .

وهذا ما جعل غالبية الشيوعيين ، خاصة القيادات ، لا تتصور امكان ان تصل الأمور الى مذبحة راس العام الجديد . وهكذا لم يستعدوا لهذا اليوم كما يجب . لم يعدوا احزابهم لمواجهة الهجمة القادمة . وكان الخطأ الفادح الذى وقعت غالبية القيادات فيه ، ان القضية انما هى قضية حوار واقناع ، وأن العقل فى نهاية الأمر لابد وأن يسود .

كان ذلك فى الحقيقة ، وفى ظل كل تلك الظروف والملابسات ، منطقا بورجوازيا ، احال الصراع الطبقى واحتمالاته الى مباراة نقاشية اسلحتها للحوار والاقناع . ولم يكن الأمر كذلك عند عبد الناصر وحزبه وطبقته . كان الأمر موقفا طبقيا يرى انتهاء المعركة مع الاستعمار وبدايتها مع اليسار . كذلك لم يكن الأمر مع عبد الناصر وحزبه الواحد ، أمر اتفاق او اختلاف مع الآخرين ، وقدر هذا الاختلاف أو الاتفاق . كان الامر بالنسبة اليه والى حزبه أمر وجود شكل تنظيمى مستقل ، له ارادته المستقلة وموقفه المستقل . كان يمكن لهذا الموقف المستقل أن يؤيد النظام بنسبة مائة فى المائة أو سبعين فى المائة ، الا انه فى كلا الحالتين تأييد صادر عن ارادة غير ارادته . وهو ان قبل اليوم بحقه فى التأييد فذلك قبول بحقه مستقبلا فى أن يختلف مائة فى المائة أو سبعين فى المائة . المسألة عند عبد الناصر وحزبه وطبقته هى وجود ارادة مستقلة بعيدة عن ارادته . وهذه الارادة تتجسد فى حزب مستقل بعيد من الناحية التنظيمية عن حزبه ، خارج عن التزامه المطلق . وبذا يتعين ضرب هذه الارادة ، وتمزيق الحزب الذى تجسدت فيه .

وبذا جاء فجر العام الجديد عام ١٩٥٩ ليضرب عبد الناصر قيادات الحزب الشيوعى المصرى ، والحزب الشيوعى المصرى (حدتو) على حد سواء دون تمييز أوتمايز . ضرب حزب التأييد سبعين فى المائة وحزب التأييد مائة فى المائة . وكان بعمله هذا يضرب القوى الوحيدة المنظمة فى مصر اراديا ولها موقف ايجابى منه باعتباره وطنيا . وهى فى ذات الوقت القوى الوحيدة المنظمة القادرة على دفع حركة الثورة بصورة أو أخرى . كان حزبه لا يملك قدراتها الفكرية أو التنظيمية أو حتى علاقاتها الجماهيرية الفاعلة . وهو بذلك قد فتح الباب واسعا أمام كل القوى المعادية له وللثورة وللشعب المصرى . كل القوى الرجعية والعميلة ، والتى تراصت

صفوفها تطعن الوحدة الوطنية والوحدة العربية تحت الراية الرثة المفننة لمكافحة الشيوعية . كان بذلك يضرب اقدر الناس من اعضـــاء الحزب الشيوعي المصرى ، على حماية الثورة وتقدمها ، واوضح الناس موقفا منه ، ليفتح الباب لاعداء الثورة واعدائه . ان موقفـــه الطبقى الانانى الذاتى محدود النظر ، قد افقده رؤية من هم اعداء الثورة الحقيقين ومن هـم اصدقائها ، فشن هجمته الشرسة على النطاق المحلى والقومى ، تلك الهجمة التى مزقت كل القوى الوطنية وفتحت الباب على مصراعيه للغزوة الاستعمارية عام ١٩٦٧ .

كان يملك السلطة ، الأجهزة وانظمة الأمن المختلفة ، والسـجون والمعتقلات • كان واثقا فى نصره الآنى ، لكنه لم يستطع ان يرى أو يحسب حساب هزيمة مصر والمنطقة العربية كلها فى المستقبل •

بدأت المذبحة ، واشتعل المشرق العربى بالحريق ، وانفتحت أبواب الجحيم •

***

الباب الثانى

الحمـــــلة

الفصل الأول

• الأول من ينــاير

يبدأ عام ١٩٥٩ حيث ينتهى عام ١٩٥٨ ، فى منتصف ليل الواحد والثلاثين من ديسمبر ، عندما تدق الساعة الثانية عشر ، فيطفىء الناس الأنوار يودعون عاما مضى ، ثم يضيئونها يستبشرون بعام جديد • الا انه فى تلك الليلة المشئومة ، كانت القوى الحاكمة ، قد قررت أن تكون هى ساعة صفرها ، ساعة امساك بلحظة الاظلام لتفرضها واقعا متصلا على شعب مصر • ان ضياء الارادة المصرية يجب اخماد جذوته • ان قبس الاختيار فى ضمير المصرى يجب الاجهاز عليه • يجب ان يذهب الى غير رجعة • فقط ترتفع راية الحزب العسكرى وحده ، وتمزق كل الرايات سواه . وأن يحل محل الارادة المصرية ، الممثلة فى الشيوعيين المصريين والقوى الديمقراطية والليبرالية والنقابية والسلامية ، قضبان من حديد • وان يضع كل مصرى على فمه قفلا من صنعه • اصبح الاختيار المطروح على المواطن المصرى هو واحد من اثنين ، اما غياهب السجن والمعتقل والمنفى ، واما البقاء خارج الاسوار ، يحمل قفله بيمينه « اختيارا » ، ان اراد لنفسه ولأهله « الأمن والأمان » •

لم تكن تلك اللحظة فى الفجر الأول من يناير عام الف وتسعمائة تسع وخمسين غير بداية لحملة سوف تتصــــل ، تضرب وتضرب الارادة المصرية • تمزق وتمزق الوحدة الوطنية • تصيب فى الصميم كيان وبنيان الانسان . وتسعى الى تحويل الكل الى قطيع يسلم أمر نفســـه وزمام مصيره الى عبد الناصر وحزبه •

وكما جمعت تلك الحملة الشيوعيين خلف أسوار القلعة ، جمعت رايتها كل القوى المعادية لمستقبل مصر وثورتها تحت نداء الحرب الصليبية ضد الشيوعية •

لم يكن السجن أو المعتقل وحده كافيا ، فالشيوعيين المصريين لهم تاريخهم الوطنى الطويل بين فئات الشعب المصرى . كانوا دوما فى صدارة كل معركة وطنية ، وكل معركة ديمقراطية ، وكل معركة تدافع عن حق الشعب وفئاته المضطهدة والمقهورة . لم يكن السجن والاعتقال بالأمر الغريب عليهم أو الامر الغريب على شعب مصر بالنسبة لهم . فهم الذين وقفوا مع كل القوى الوطنية أمام الرجعية والاستعمار يناضلون من أجل اجــلاء الأجنبى والسيادة الوطنية .. وهم الذين وقفوا مع كــل القوى التقدمية

يواجهون السراى وشبه الاقطاع وجبروتهما . وهم الذين قبل أن يظهر يوم ٢٣ يوليو الى الوجود ، ومعهم كل القوى الوطنية ، قد حرثوا الأرض للثورة . ثورة شعب مصر كى يمسك مصيره بيده وارادته بنفسه . وهم يعلمون مقدما أن لهذا النضال ثمنا باهظا من حريتهم الشخصية ومن مصيرهم ومصير ذويهم · كان السجن والاعتقال والمطاردة والاضطهاد أمرا يعلمه كل المصريين كمصير للمناضل الشيوعى · وكان ذلك يزيد من اكبار الذين يعرفونهم · وكان عبد الناصر ، ايضا ، وحزبه يعرفان تلك الحقيقة المشرفة الناصعة · ولذا لم تكن حملة الأول من يناير عام ١٩٥٩ ، مثلها مثل ما سبقها من حملات · كانت الحملة التى ترى أن المعركة مع الاستعمار قد انتهت ، وانها قد بدأت مع اليسار عامة والشيوعيين خاصة ، حملة ابادة واجهاز وتصفية · ومثل تلك الحملة ، لا تكفى فيها القضبان ولا يكفى فيها السجان ، فان ذلك لن يهز ثقة المصريين بهم ، بل على عكس ذلك ، سوف يثبت جذور الثقة بهم وبتضحياتهم وبجدارتهم للتصدى للقيادة دفاعا عن مصر وشعبها ·

كان لابد أن يضاف الى سوط الارهاب البوليسى ، سوط الارهاب الفكرى · وكان لابد وان يضاف الى قضبان السجن التى تحاصر من سجن واعتقل من الشيوعيين ، قضبان من الفكر الزائف والقائم على التضليل والخداع والاكذوبة ، يحاصر من بقى خارج السجن والمعتقل . كان لابد من تحويل مصر كلها الى معتقل كبير ، تتنوع فيه وسائل الاعتقال والحصار · وبدأت ابشع حملة ضد اليسار المصرى كله باسم مكافحة الشيوعية · اصابت الصحافة هيستيريا مجنونة · نوع من السعار لم تصب به مصر من قبل . الخطب فى الجوامع ضد اليسار باعتباره الكفر والكفرة · تلاميذ المدارس يعبأون ضد الشيوعية ويدفعون الى رسم الجوامع والكنائس تحترق ، تشتعل بالنيران ، فى لوحات مكبرة تعلق على واجهات دور العلم ، ومن تحتها كتب الزيف والبهتان « هذا من فعل الشيوعيين » · كل الدعايات العفنة العطنة المعادية ، استخرجت من مزابل التاريخ وسخم بها وجه الشيوعيين . هم الخونة ، هم العملاء ، هم الكفرة ، هم الذين يحرقون دور العبادة ، هم سبب كل فساد ، هم سبب الفقر ، هم سبب المرض ، هم سبب كل شقاء وبلاء تعانيه مصر وشعبها ، هم اعداء الوحدة الوطنية ، هم اعداء القومية العربية ، اعداء الاستقلال ، اعداء الحرية ، اعداء الديمقراطية ، اعداء الشعب ، الشعوبيين ، الملاحدة ، الزنادقة ، الذين لا أسر لهم ، الذين بلا أنتماء ، الذين يرتكبون الفحشاء مع ذويهم . لقد اكتشف النظام المارد المعادى مصدر آلام هذا الشعب وهو يسحقه بلا رحمة فى معركة « البطولة والشرف » . كل موبقات البشرية ، كل آثام الشيطان ، ما فعله ، وما يحتمل أن يفعلة حتى يوم الدينونة ، وضعت

فوق رأس الشيوعية والشيوعيين . ونشطت فى هـذا الجو النتن كل العناصر الفاسدة والمأجورة . وتداخلت رايات الحزب العسكرى الوطنى الحاكم مع رايات العملاء . واختلط الحابل بالنابل . واشتعلت المنطقة كلها بالعداء .

رد الفعل الحزبى :

فى هذا الجو المشحون بالجنون ، وقف الحزب الشيوعى المصرى يواجه الاعصار بارادة الثوار والمناضلين الاباة . كانت حملة يناير قد استهدفت القيادات ، كل الصف الأول وذوى القدرات المالية لضرب امكانيات الحزب المالية ، وضرب الاجهزة الفنية وأجهزة الاتصال المركزية . كان النظام يتخيل الحزب الشيوعى كحزبه فى التنظيم والعمل ، ان ضربت منه الرأس تفككت اوصاله وقواه . ومن هنا وجه الضربة الى رأس الحزب الشيوعى المصرى ، وكذا رأس الحزب الشيوعى المصرى (حد تو) . الا ان الحزب الشيوعى المصرى والقائم على قوى كادره وارادته واختياره الحر وارتباطاته الجماهيرية ، سرعان ما استعاد اتزانه واعمل قدراته .

فى القاهرة كان بعض رفاق المستويات دون المركز قد هربوا واختفوا . الغيت مناطق القاهرة بعد الضربة ، لتتشكل لجنة قيادية واحدة للمدينة كلها . وروعى فى تكوينها أن تكون ضيقة وفاعلة ، تملك القدرة السياسية والنضالية . وتشكل المستوى الجديد من رشدى خليل ، نبيل زكى ، بولس لطفى الله وعبد الحميد الازهرى . كان رشدى خليل هو المسئول السياسى للمنطقة ، ونبيل زكى مسئول الدعاية . واعلن الرفاق أن العمل الحزبى لا يحتاج الى تصريح رسمى من المركز للانطلاق ، فهو واجب يلزم تأديته . واعدت أجهزة فنية بدائية فى كل مكان ، وصدر عدد من البيانات المتتالية . واعد احتياطى من رفاق المستويات دون لجنة المدينة لتعويض المستوى القيادى فى حالة ضربه أو سقوط افراد منه . ووجه تحذير الى كافة الرفاق بعدم التوجه الى منازلهم ، خاصة والشهر رمضان والعيد يقترب ، وأخبار تترى أن الدولة تعد كشوفا جديدة لتوجيه ضربة أخرى . وأصدرت القاهرة فى ذلك الوقت ردا على كتابات هيكل بعنوان « صراحة ام شعوذة » . ولقد بذل الرفيق رشدى خليل جهدا خارقا من أجل اعادة البناء والحفاظ على وحدة الحزب (١) .

---

(١) من شهادة نبيل صبحى .

وفى الصعيد لم تتأثر مناطقة بالحملة كثيرا . لقد القى القبض على الرفيق لويس اسحق عضو اللجنة المركزية ومسئول القطاع الشمالى فى الصعيد ، والرفيق شبل اسماعيل عضو منطقة بنى سويف والمناضل الجماهيرى بها • ورغم ما كان من أثر للقبض عليهما ، الا ان رفاق مناطق الصعيد نجحوا ، فى فترة زمنية مناسبة ، من الامساك بالاوضاع الحزبية فى مواجهة جنون الحملة والجو الارهابى السائد حينذاك • وكان مرجع ذلك ، فى الدرجة الأولى ، الى عدم تأثر الصعيد عموما والجنوب خصوصا ، بالصراعات والنشاطات الانقسامية اليمينية ، طوال عام ١٩٥٨ . اذ رغم الانتماء التاريخى لغالبية كادر جنوب الصعيد الى مجموعة « حدتو » الا انهم اتخذوا موقفا مبدئيا رافضا لاية علاقات أو اتصالات جانبية أو تكتلية او انقسامية • ولقد كان للموقف المبدئى الذى اتخذه نبيل صبحى المسئول الحزبى للجنوب سواء من الناحية السياسية أو التنظيمية دورا هاما فى الحفاظ على وحدة الحزب ، كما أن التنظيم الحزبى فى الجنوب اتجه الى العمل الجماهيرى ، مما حافظ على سرية التنظيم ، وازدياد علاقاته العمالية والجماهيرية •

وفى شمال الصعيد امكن حصار ومعالجة بوادر أعمال تكتلية لبعض الرفاق الذين كانوا ينتمون فى الأصل لمجموعة « الراية » سواء قبل الضربة أو بعدها (١)

لقد استطاع الحزب ، بعد ضربة يناير ، أن يجمع صفوفه ويعيد تنظيمها وتشكيلها • كما اخذت مواقفه السياسية ايضا فى الاتساق والتبلور فى فكر تخلص ، الى حد كبير ، من النفوذ اليمينى •

بدأ كادر الحزب يعمل فى كل مكان : فى الدلتا والصعيد ، فى الاسكندرية والقاهرة . يقاتل باستماتة دفاعا عن الحزب ووجوده • وتشكلت لجنة مركزية جديدة من الزملاء الاربعة الاصليين الذين افلتوا من الضربة (ابو سيف يوسف – فخرى لبيب – محمد بدر – عبد المنعم شتلة) مضافا اليهم عدد من الزملاء الاحتياطيين . كما تشكلت سكرتارية مركزية ضمت الثلاثة الأول ، حيث قبض على عبد المنعم شتلة ، فيما بعد .

بيان ٩ يناير :

وفى التاسع من يناير عام الف وتسعمائة تسع وخمسين ، اصدرت السكرتارية المركزية الجديدة للحزب بيانا ، اشتهر فيما بعد باسم بيان

---

(١) من شهادة نبيل زكي .

٩ يناير (١) ، وقد جاءت فى هذا البيان ملامح سياسية مختلفة ، تعبر عن صحوة وتماسك فكرى ونظرة اكثر سلامة وطبقية للاوضاع السياسية وخاصة قضية الديمقراطية . وقد ركز البيان على سياسة معاداة الشيوعية ، وان راية هذا العداء هى راية الاستعمار والرجعية وتفتيت القوى الوطنية . وهى ما ان ترفع حتى تصحبها سياسة ديكتاتورية معادية لكل القوى الوطنية والديمقراطية فى البلاد . وانها سياسة تستهدف ضرب اى حريات سياسية ، والضغط على القوى الشعبية ، وتحريم الاحزاب وحرمان الطبقة العاملة من تنظيماتها الديمقراطية ، وفرض الاتحاد القومى كتنظيم ادارى عليها · وفى ظل مثل هذه السياسة تجنى الاحتكارات المصرية ورأس المال المشارك للأجنبى أرباحا طائلة ·

كان لصدور هذا البيان أهمية سياسية ونضالية · ولقد جاءت اهميته السياسية من اتجاهه ، اكثر فأكثر ، نحو التمايز الطبقى ، بصورة طبيعية . وجاءت اهميته النضالية لصدوره فور الضربة ، ليعلن أن الحزب باق ، وأن الضربة لن ترهبه ، فيكف عن الدفاع عن قضايا الشعب وحقوقه ·

ردود الفعل داخل المعتقل :

واقتيد الذين قبض عليهم من قيادات الحزب الشيوعى المصرى ، والحزب الشيوعى المصرى (حدتو) ، الى معتقل القلعة · كانت المفاجأة قد اخذت الجميع ، وبدأت التحليلات السياسية المختلفة ، تفسيرا لضربة الأول من يناير .

يقول الدكتور فؤاد مرسى ، « وضعنا فى القلعة ، كانت المعاملة عادية وطيبة جدا · أهم حدث فى هذا المعتقل هو المسكرين اللذين كانا به . كان التقييم عند اخواننا الآخرين (يقصد مجموعة حدتو) انها غلطة حدثت ، وبعد ايام سوف يكونوا فى مساكنهم ، من جديد · هنالك خطأ ما .. وكان تقييمنا نحن لها ، انها ضربة وان النظام قد اقبل على مواجهة الشيوعية المصرية فى جديد ، بعد ما سكت عدة سنوات · النظام فى عام ١٩٥٥ دخل فى هدنة نسبية مع الشيوعيين . ويمكن القول بشكل عام ، ان النظام ، فى نهاية هذا العام ، قد اقر نوعا من الهدنة مع الشيوعيين .

(١) من شهادات لبيب ونبيل صبحى · -

وكانت سنوات ٥٦ ، ٥٧ ، ١٩٥٨ هى سنوات للعمل شبه السرى العلنى • ويمكن أن نقول انه كانت هناك علاقات متبادلة بين النظام وبين الحزب الشيوعى ، وكان فيه أعمال مشتركة بينهما • تحرير بورسعيد كان عملا مشتركا . وكانت هناك أعمال متبادلة يتم فيها تعاون فى مجالات بحث قضايا عمالية وما اليه • مشاكل معينة كان يتم فيها بحث مشترك • التقييم للضرب كان مبنى على التحليل السياسى لكل فريق • الفريق الذى كان يرى أن النظام وطنى بالكامل ، وربما به اتجاهات اشتراكية ولا داعى للحزب الشيوعى ، يرى أن الضربة من قبيل الخطأ ، وأنها لابد تصحح عما قريب • الفريق الآخر ، والذى يرى أن العلاقة مع النظام هى وحدة وصراع ، وجد فى الضربة صورة من صور الصراع السياسى باستخدام السلطة • وفى الحقيقة كان تقييمنا للنظام بالنسبة للحركات الجماهرية يتلخص فى عدة نقاط : أن النظام يخشى أيضا حركة جماهيره هو ، ولذلك كانت الأشكال التى يعتمد عليها ، اشكالا تنظيمية موسمية فصلية مناسباتية ، تتحرك بأوامر من السلطة ومن أعلى • المبدأ الأول هو الخشية من حركة الجماهير المنظمة • المبدأ الثانى هو موقف الحذر ، ان لم يكن العداء ، من حركة الطبقة العاملة بالذات واذن من حركة الشيوعيين أيضا •

هاتان النقطتان كان تقييمنا لهما واضحا جدا ، منذ وقت مبكر • وبالتالى كان فى مقدورنا أن نقول ، انه من الممكن أن يتهادن النظام معنا ، لكنه من الممكن ان يضرب . ولكن ان ضرب ، علينا الا نخطىء فى تقييمه • وتلك كانت نقطة خلافية فيما بيننا • جزء كبير من زملائنا ظن أنه ما دام النظام يضربنا ، اذن تكون طبيعته الطبقية ليست هى البورجوازية الوطنية ، انما هى طبيعة أخرى . ولقد وصل الحد ببعضهم الى القول بأن النظام يمثل الاحتكارية ، أو الاحتكار فى مصر • تقييمنا هو أن النظام ، نعم يضرب ، لكنه بورجوازية وطنية . هو بورجوازية وطنية ويمكن أن يضرب ...

عندما وصلنا خط ٩ يناير فى القلعة ، انا شخصيا اعتبرت ذلك انقلابا على سياسة الحزب وقيادة الحزب »(١) •

ويقول حلمى ياسين « عندما رأيت أناسا من المنقسمين (يقصد مجموعة حدتو) معنا فى القلعة ، قلت لابد أنهم قد أحضروا كى يكونوا شهودا علينا • لقد كان فى ذهنى أن هؤلاء مع الحكومة ، وخناقتهم مع الحزب

---

(١) نفس اللقاء الشخصى .

باعتباره يساريا سوف يودى بهم فى داهية . وأنهم قد تركوا الحزب حتى لا يصطدموا بالدولة ، وحتى يؤيدونها دون تحفظ ، فى الوقت الذى كانت تتصاعد فيه تحفظاتنا فى مواجهة الدولة . ولذا ما أن رأيتهم حتى قلت لنفسى لابد أنهم سيشهدون علينا .

منذ أول دقيقة فى القلعة ظهر تفكير يقول ان هذه انما هى ازمة طارئة لن تستمر غير أيام ، ثم يذهب كل الى حال سبيله . وتفكير آخر يقول انها سوف تطول . التفكير الأول كان يجمع بين قسمين ، قسم داخل حزبنا ، وهو يرى انه سوف تحدث بعض المشاكل ، والقسم الآخر هو جماعة المنقسمين . وهم قد روجوا ، منذ أول دقيقة وبأعلى صوت بين زملائهم ، انهم قد جاءوا بطريق الخطأ ، وانه ما أن تتضح الأمور حتى يظل التكتل (الحزب الشيوعى المصرى) فى المعتقل وهم يخرجون (الحزب الشيوعى المصرى « حدتو ») . كان عبد المنعم الغزالى يصرخ قائلا ، يومان فقط وتتضح الأمور . ثم اصبح اليومان اسبوعا وهكذا . وكان شهدى عطية يقول للشباب ، لا تقلقوا ، ليس لنا شأن بما يجرى ، انهم اعضاء التكتل ، اما نحن فقد جئنا بطريق الخطأ ، والمسائل كلها معروضة على الجهات العليا ، ولسوف تنتهى فى أيام قليلة .

فوجئنا فى ٢١ مارس بالطرود قادمة وليس فيها الملابس العادية . كانت الملابس شورتات وقبعات وقمصان بنصف كم . قال الزملاء الذين سبق اعتقالهم ، ذلك مؤشر لترحيلنا الى معتقل الطور . اذ ما دام الأهالى قد أرسلوا لنا ملابس الصيف ، فلابد قد عرفوا بترحيلنا الى هناك . وجاءت نفس الملابس الى جماعة المنقسمين ، الا انهم قالوا ان التكتل هو الذى سوف يرحل ، وهم سوف يفرج عنهم ، وأن ارسال اهلهم لهم بنفس الملابس ، غفلة وعدم دراية بالاوضاع . ورحلنا جميعا الى الواحات مربوطين فى الحجلات . مكثنا هنالك حوالى خمسة عشر يوما ، ثم استدعينا الى القاهرة ، للمحاكمة . كان كل المستدعين من الحزب . فصاح المنقسمون ، ها هى المحاكمة لهم ، تمهيدا لتصفية الاوضاع والافراج عنا . بعد قليل سحبوا هم ، ايضا ، للمحاكمة . فى كل المراحل ظلوا متمسكين بفكرة انهم شىء متميز عنا ، وانهم لن يعاملوا مثلنا . الا ان المعاملة كانت متماثلة .

عندما وصلتنا ، فى معتقل القلعة ، نسخة اصلية من بيان ٩ يناير ، فى اواخر فبراير او اوئل مارس ، اقيمت بهذه المناسبة احتفالات رهيبة فى المعتقل . كان الزملاء يجتمعون فى مجموعات ليتلى عليهم البيان من الأصل نفسه . ثم يبدأ النشيد والهتاف . وارتفعت معنويات الزملاء

الى اقصى درجة . لقد اثار البيان موجة من الحماس والتوحيد ، فوق ما يتصور العقل . ان الحزب موجود ، والضربة لم تقض عليه . كان البيان قويا ومطبوعا بالمطبعة . ولم يظهر خلاف واضح حوله فى ذلك الوقت »(١) .

كانت ضربة يناير اختبارا للمناهج المختلفة التى تسود الحركة الشيوعية المصرية آنذاك . منهج الوحدة والتأييد ، والذى كان يسود الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) ، والذى بسببه تمايزت عن الحزب الشيوعى المصرى وانقسمت عليه . كان هذا المنهج لا يتوقع ما يجرى ، وبالتالى لا يتصوره ولا يصدقه . والحقيقة أن الموقف هنا ليس موقف ضعف نضالى أو خشية السجن والمعتقل ، فحدتو تاريخيا ، وبغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف الفكرى والسياسى معها ، كانت قد قدمت أكبر عدد من المناضلين الاشداء الى السجون والمعتقلات . وكانت هى التى لعبت دورا هاما فى ارساء تقاليد نضالية داخل السجون والمعتقلات ، دفاعا عن حقوق المعتقلين والمسجونين السياسيين . وهى قد لعبت دورا هاما ، ايضا ، فى ارساء تقاليد نضالية امام النيابة والمحاكم . الا انها ، اليوم ، وهى تسير على منهج التأييد المطلق وعدم التمايز عن النظام قد فقدت البوصلة الطبقية ، وبذا فقدت التوجه النضالى فى مواجهة السلطة وقهرها . وأصبح سبيلها الى الخروج من خلف القضبان ، هو المزيد من التأييد ، دعما لثقة موهومة . الموقف النضالى هنا كان انعكاسا للموقف الفكرى والسياسى والمنهج الذى يحقق هذا الموقف السياسى .

يقول فاروق ثابت ، « جاءت ضربة ينــاير ١٩٥٩ . وحينئــذ صدر قرار ، حتى نكسب ثقة الحكومة اكثر ، ممنوع الهروب . عليك ان تنتظر فى بيتك حتى يقبضوا عليك . لا أحد يهرب . انها أزمة ثقة بيننا وبين النظام وسوف تمر . أزمة ثقة وعلينا احتمالها فوق اكتافنا . وعندما يتضح الموقف سوف يكون التعامل بيننا وبينهم جيدا . علينا ان نتحمل والهروب ممنوع . ولذلك عندما جاء ضابط المباحث العامة (فتحى قنة) للقبض على فى الساعة السادسة والنصف صباح ٢٨ مارس ، فتحت له الباب ، وكنت عائدا لتوى من الخارج الساعة الرابعة والنصف بعد ان انتهيت من اجتماعاتى واعمالى ، قال لى ، انا فلان . قلت ، أهلا وسهلا ، تفضل . قال ، انتم فى انتظارنا ؟ قلت له ، نعم فى انتظاركم . قال ، انت تعلم انى آت اليك ! قلت له ، نعم اعلم انك آت الى ، تفضل .

---

(١) اللقاء الشخصى السابق معه .

قلت هذا ببساطة شديدة جدا ومذهلة بالنسبة اليه • كان لدى قرار بعدم الهروب »(١) •

لم تكن ضربة فجر الأول من يناير غير فاتحة الحملة • كشوف القبض أو الاعتقال الأخرى كانت معدة • وتوالت الضربات • وهنا ايضا ، وضع المنهجان اللذان كانا فى الحزب الشيوعى المصرى نفسه موضع الاختبار • منهج الوحدة بابراز نقاط الاتفاق والصراع بتسجيل نقاط الخلاف ، باعتبار أن الأمر أمر حوار بيننا وبين النظام الحليف ، وأن العقل لابد سوف يسود فى نهاية الامر .. ومنهج الوحدة والصراع الصحيح ، والذى يقوم على وحدة كل القوى الوطنية بما فيها البورجوازية الوطنية الحاكمة ، دون التخلى أو التهاون أو التهادن حول مطالب الجماهير الديمقراطية والاجتماعية ، وكان هذا المنهج يرى أن الحزب الحاكم لا يخوض معنا معركة « حوار موضوعى » أو معركة تسجيلية مثلما نخوضها نحن ، انما هو يخوض معركة تصفية للحزب الشيوعى المصرى ، ومحاولة اجتثاثه من الجذور . معركة حياة أو موت • وكان كلا المنهجين يرتب ، بناء على فكره وفهمه السياسى ، مواقف عملية ونضالية متباينة ، تظهر بداءة حول الموقف من بيان ٩ يناير والقيادة فى الداخل والخارج ، داخل المعتقل وفى قلب المعركة ، وغيرهما من القضايا التنظيمية والسياسية ، مما جعل الصراع يحتدم داخل الحزب ن جديد •

مارس ١٩٥٩ :

ثم جاءت ضربة الثامن والعشرين من شهر مارس عام الف وتسعمائة تسعة وخمسين • ضربة ساحقة ، تحمل فى طياتها كل معانى الصراع العدائى ، ليس فقط فى مواجهة الحزب الشيوعى المصرى أو الشيوعيين المصريين ، ولكن ، ايضا ، فى مواجهة كل صوت ديمقراطى ، وكل ارادة حرة . واصابت الضربة الحزب بخسائر فادحة فى مناطقه المختلفة . كانت حملة واسعة غير مسبوقة ، حتى انها نالت من اربعة اخماس القوى الحزبية . كانت محاولة مستميتة لاجتثاث الحزب من جذوره • كان زكريا محى الدين وزير الداخلية ، حينذاك ، قد اعلن انه : « كان من المتصور ان الحزب الشيوعى السورى اقوى من الحزب الشيوعى المصرى ، الا انه قد ثبت ان الحزب المصرى هو الاقوى » •

لقد استهدفت الحملة الاجهاز على الحزب ، ومن هنا شملت كل من يشتبه فى وجود صلة ما له بالحزب ، أو اى صلة بالفكر الديمقراطى التقدمى • ومن هنا شملت ، ايضا ، عناصر كثيرة من بين المثقفين

---

(١) نفس اللقاء الشخصى .

والصحفيين واساتذة الجامعات والنقابيين ، عمالا ومهنيين · تحولت الحملة المعادية للشيوعية ، وهو أمر طبيعى تماما ، الى حملة ارهاب للشعب كله ، وتكريس ديكتاتورية لم يسبق لها مثيل ·

يقول لطفى الخولى ، « ٢٨ مارس كانت حملة واسعة ، لم تشمل فقط الماركسيين ولا التقدميين ، بل شملت حتى الليبراليين ، ايضا · كنت اسكن فى ٤٤ شارع القصر العينى . وكان يسكن معى فى نفس العمارة الدكتور لويس عوض ولطف الله سليمان . ليلة الحملة طرقوا باب لويس عوض ، فاعتقد انهم مخطئون ، فقال لهم ، الذى يقبض عليه هو لطفى الخولى ، وهو أعلى فى الدور السابع ، وذلك لانه كان قد قبض على اكثر من مرة ، من قبل · الا انهم قالوا له ، كلا ، نحن قادمون من أجلك ، ايضا »(١) ·

الحزب ، منذ ضربة يناير ، لم يتوقف لحظة واحدة · جمع صفوفه . اعاد تشكيل تنظيماته ، اندفع يواجه الحملة ولا يتخلى عن دوره ومسئولياته قبل الشعب ، قبل قضية الديمقراطية والمطالب الشعبية . وادرك الحزب الحاكم انه لا يواجه حزبا كحزبه ، تتركز القيادة فى راسه ، فعجل ذلك بضربة مارس ، ضربة تصيب الحزب حتى الاعماق ، تصيب لجان المناطق والاقسام والقواعد . ضربة تعبر عن الفزع والذعر ، وتكشف النظام وتفضحه أمام شعب مصر والعالم الجمع ، تفضح عجزه الحقيقى عن مواجهة الفكرة بالفكرة ، والحجة بالحجة ، كما كان يزعم . لم تكن اسلحة الحزب غير كلمات ، منشورات ، تحمل وجهة نظر الحزب فيما يجرى من احداث . كل هؤلاء الذين اعتقلوا كانوا مجرد اصحاب رأى يعملون على أن تصل الحقيقة ، كما يرونها ، الى آذان وبصائر شعبهم . لم يحمل احد سلاحا أو يطلق طلقة واحدة . لم يوجد فى منزل أحد منهم مدفع رشاش أو قنبلة . الا ان النظام الذى كان يخشى الرأى الآخر ، يخاف حتى الاتفاق معه بعيدا عن ارادته المنفردة وحزبه الواحد ، كان يدرك جيدا مدى خطورة الكلمة ، الكلمة عندما تعبر عن اختيار وارادة · انها الوعى ، الوعى بما للمواطن وما عليه · فضح الزيف والاكاذيب . ومن هنا كانت مضبوطاتهم كتبا وأوراقا · كلمات ، كلمات وكلمات · الا انها لم تكن مجرد نقوش على ورق ، كانت الحقيقة ، التى كان يرى الحزب الحاكم فى حاملها مجرما يستحق السجن والاعتقال والابادة ·

---

(١) لقاء شخصى معه فى ٦/١٩ ، ١٢/٢٨ /١٩٨٠ ·

يقول لطفى الخولى ، « فتشـــوا المنزل تفتيشـــا كاملا . أخذوا مجموعات لكتب عربية واجنبية وبعض مخطوطات خاصة بى ، ومقالات ودراسات أو بدايات قصص . رفضوا ان آخذ معى حقيبـــة ملابسى . ذهبنا الى المباحث العامة ومنها الى القلعة »(١) .

ويقول الدكتور عبد الرازق حسن ، « كان الوقت رمضـــان . عدت من زيارة بعض الاصدقاء ، دق الجرس وقت السحور . احسست ان هنالك امرا ما رغم انه لم يسبق لى مثل هذه التجربة . لكن من الذى يدق الباب فى مثل تلك الساعة ؟ قلت لهم ، ارجوكم لا داعى لازعاج البيت ، ان اردتم التفتيش ، فها هى المكتبة وها هى الكتب .

من الاشياء الطريفة أن الضابط وهو يفتش بدأ يجمع الكتب ذات الغلاف الاحمر . قلت له ، ليست المسألة بلون الكتاب . حـرام عليك فانى قد دفعت دم قلبى فى هذه الكتب وليس لى ثروة غيرها . كانت هنالك كتب عن المـاركسية ، اراد جمعها واخذها . قلت له ، لا ، انا لن انكر ملكيتى لهذه الكتب ، فهى كتب علمية موجودة فى السوق ، وكتاب واحد منها دليل على الكل ، وهو يكفى .

وجد موضوعا بخط يدى عن (التخطيط فى ظل الاشتراكية) . مسودة بحث أعده . قلت له ، ان أخذت هذا المخطوط ، فلابد وأن تأخذ معه بعض الاوراق الأخرى . وكانت تلك الاوراق تشتمل على رســالة من الدكتور حلمى عبد الرحمن ، وكيل وزارة التخطيط ، يرجونى فيها ان استعجل كتابة المحاضرة التى القيتها عن التخطيط فى ظـــل النظـــام الاشتراكى . كانت محاضرة قلتها بناء على طلب وكيل وزارة التخطيط ، وليست منشورا .

بعد ذلك اخذونى الى القلعة »(٢) .

الحملة الواسعة كانت موجهة الى كل الشيوعيين المنظمين المنتمين الى الحزب الشيوعى المصرى والحزب الشيوعى المصرى (حدتو) وهمـا الحزبان الكبيران آنذاك ، والى الطليعة الشيوعية (ط . ش) ووحـــدة الشيوعيين (و . ش) وهما منظمتان ظلتا خارج دائرة الحزب الواحـد الذى تكون فى ٨ يناير ١٩٥٩ . كذلك كانت موجهة الى كل القوى الوطنية الديمقراطية غير المنتمية الى تنظيم سياسى ، سواء كانت هذه القـوى من

---

(١) نفس اللقاء الشخصى السابق .
(٢) لقاء شخصى معه فى ١٩٨٠/١٢/٥ .

انصار السلام أو النقابيين أو الليبراليين أو اساتذة الجامعات والصحفيين والمثقفين • وكان هذا الاتساع في الحملة أكبر بكثير من قدرات اجهزة المباحث العامة ، ومن هنا استعانت بقوى من ضباط الشرطة العاديين • ومن هنا تفاوتت صور زوار الفجر •

يقول خيرى عزيز ، « يوم ٢٨ مارس ايقظتني والدتى الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، وجدت ضابطا (يوزباشى) واربعة مخبرين يقفون فوق رأسى • كان الضابط متوترا للغاية ، اصابعه ترتعش • كان يحمل مسدسا وضعه فوق المكتب • دهشت للغاية من تصرفه • كان في وسعى أن اخذ المسدس واوجهه اليه • استنتجت انه حديث في هذه العملية وعديم الدراية • عثروا ، اثناء التفتيش ، على خنجر جميل كان في دولابي ، وهو في الاصل ملك لوالدى • آثار احد المخبرين مسألة ان هذا الخنجر بدون ترخيص ويلزم تحريزه • قلت هذا خنجرى وكنت استعمله ايام المدرسة في فرقة الكشافة • لم يبد اليوزباشى حماسا للاخذ برأى المخبر ، فترك الخنجر • لم يجدوا شيئا غير كتب ومجلات • كتب ادبية لمكسيم جوركى ومجلات سوفيتية • وكلها كانت تباع في السوق • كانت هنالك حجرتان ينام فيهما اخوتى الصغار فقلت لليوزباشى : أوقظهم حتى تفتش ؟ قال لا داعى • كان منظرا غريبا يدعو للتأمل والدهشة • انا في طريقي إلى المجهول واخوتى ينامون نوما عميقا صافيا • تأثرت من موقف الضابط كثيرا ، لم يلجأ الى الاساليب الجهنمية التى كان يلجأ اليها الآخرون •

اخذونى الى مبنى المباحث العامة • هنالك اخذ البكباشى رئيس المباحث العامة بالمنيا يبلغ بالتليفون عن المضبوطات • كان يقول ، عثرنا على كتب جواركى ، مما يدل على قدر طيب من الجهالة • في المباحث العامة وجدت الرفيق عبيد عياد مرجان ، وهو فلاح من الارياف وكان البكباشى قد اعتدى عليه بالضرب • ناقشه فلم تعجبه المناقشة ، فلطمه على وجهه مرتين • لم يعجبه ان يكون الفلاح اكثر منه فهما وثقافة • سافرنا بالليل الى القاهرة • كان في المحطة مكتب تشهيلات خاص بمسائل الاعتقال »(١) •

ويقول محمد سعدة ، « يوم ٢٨ مارس الساعة الرابعة والنصف فجرا ، دق الباب ، قمت لافتحه وقد ادركت الوضع • كان هنالك اثنان من الضباط ومعهم مقدم من الاسكندرية • دخل وقال ، هل يمكن ان نقوم

---

(١) لقاء شخصى معه

بالتفتيش ؟ قلت ، فتش كيفما شئت ، الا ان هنالك وضعا خاصا ارجو مراعاته ، ان والدتى ترقد فى الفراش نتيجة عملية انفصال شبكى . لقد مضى عليها ستة ايام وهى ممنوعة من الحركة . اصدر أوامره لمن معه بتفتيش باقى المنزل . توجه هو الى غرفة والدتى . سألنى ان كانت مستيقظة . قلت ، بالطبع على صوت الطرقات . دخل وقال ، مساء الخير ياحاجة . قالت ، مساء النور . من ؟ قال ، أبدا لا شىء ، فقط بعض الجيران اشتكوا ان ابنك يعاكس بناتهم ، نحن نبحث عن خطابات أو صور . قالت له ، بنات مين يا ابنى ؟ قلت له ، انها تعرف فخفف عنها الامر . لم يكن لدى غير كتب ماركسية ودوسيه قضيتى القديمة . بعد التفتيش سألها ، من معك هنا ؟ قالت ، الشغالة . قال ، هل تودين ان اترك معك مخبرا ، سوف نأخذ محمد فى كلمتين ثم يعود لك . قالت له ، لا داعى ، شكرا . كان اسمه المقدم حسين . كان المفروض ان العربة المرافقة لهم سوف تذهب الى اماكن أخرى ، الا انها تأخرت . سألنى ، أين قسم باب الشعرية ؟ قلت ، قريب من هنا . قال ، هيا نتمشى سويا . وطوال الطريق كان يسألنى عن عملية والدتى ويقص لى عن احد اقاربه والذى عمل عملية مماثلة وشفى محاولا طمأنتى وتخفيف الامر على »(١) .

ويقول ابراهيم مرسى ، « هاجمت الشرطة منزلى فجر ٢٨ مارس . كنت قبل ذلك باسبوع وبناء على تعليمات الحزب باحتمال ضربة قريبة ؛ هاربا انا ومحمود العطار ويحى لطفى . فتشوا المنزل وعثروا على خطابات منى لمؤتمر السلام باعتبارى مندوبا عن العمال فى المؤتمر . حاول المخبرون استفزازى اثناء التفتيش ، بان قلبوا المرتبة وعليها ابنتى نائمة ، الا ان الضابط منعهم من الاستمرار فى ذلك .

اخذونى الى قسم الازبكية ، كان معى فى نفس البوكس انور العطار رئيس نقابة التأمين . بعد نصف ساعة احضروا الزميل عبد الله النوبى . قال لنا انهم عندما دخلوا منزله ، كلم زوجته بالنوبية ، قال لها اصرخى . فأخذت فى الصراخ وهى تقول اللصوص اقتحموا منزلنا ، اللصوص يأخذون زوجى .

ادخلنا الحجز . وجدت هناك الزملاء رزق عبد المسيح وسامى عبد المسيح وسلامة عبد الواحد . استدعانى الضابط . سألنى ان كانت الخطابات المضبوطة تخصنى . قلت نعم ، وانا مع السلام ولست ضده . قال ، ومجلة الصاروخ الروسى تلك ؟ قلت ، انا رجل فنى واطلع على

---

(١) لقاء شخصى معه .

كل المجلات الفنية · سأل عبد الله النوبى عن الكتب النقابية ، قال له ، انه نقابى . سأله كيف يوجد لديك مصحف وانجيل · قال له ، انه يحب الاطلاع على كل شيء .

بقينا حتى الرابعة صباحا · ثم نقلنا الى معتقل القلعة مباشرة »(١) ·

ويقول محمود شندى ، « كان اليوم ١٩ رمضان ، كنت اقضى السهرة فى قهوة ، اتوقع الامساك بى فى أى وقت . اذ منذ ضربة يناير وهذا الاحتمال قائم . كان هنالك كلام عن ضرورة الهرب والتأمين الا أن هذه المسألة كان من الضرورى توافرها جماهيريا ومن خلال امكانيات الزملاء الا ان الامكانيات لم تكن وافرة ، وكان هذا الوضع محيرا ·

كنت حينذاك اسكن مع جماعة من السودانيين ، امام قسم عابدين مباشرة . احسست قبل ذلك بمراقبات شديدة . فوجئت بعد عودتى الى المنزل وانا فى حجرتى بضربات وخبطات شديدة على الباب . كان الوقت حوالى الثالثة صباحا . كان رجال المباحث منزعجين للغاية ، لقد ذهبوا الى منزلى فلم يجدونى ، فهددوا اخى فاخبرهم بمكانى ، فجاءوا مسرعين ، شاهرى السلاح ، فى حملة كبيرة وكأنهم سيقبضون على عدد ضخم من الناس . كانت سلالم المنزل مليئة بالجند المسلحين · سألوا ، هل هنا شخص اسمه شندى ؟ قيل لهم ، نعم ، انقضوا على حجرتى بطريقة ارهابية فظيعة ، حتى انه كانت توجد امرأة سودانية من سكان هذه الشقة حامل فاجهضت من الذعر · كما كان هنالك طالب سودانى تبول على نفسه من المنظر الذى رآه . واخذ بعضهم يبكى · وجدونى داخل الحجرة سألونى ، انت شندى ؟ قلت نعم ، كان معهم صول سبنى سبا مقذعا ، قلت ، لا تسب · قال ، انت تهرب من بيتك . قلت ، انا اسكن هنا . واذا كنت تريد اعتقالى ، فاعتقلنى دون سب أو شتيمة · قال ، انت وسخ وابن كلب ، قلت ، ان سببت سأسبك ايضا . فسبنى مرة أخرى ، فسببته وبعنف ، فقال له الضابط . اسكت · قال ، قم ، انزل . قلت آخذ شنطتى ومنامتى وملابسى . قال ، كلا . انت مطلوب خمس دقائق فقط وسوف تعود . قلت ، انا اعلم جيدا . لن اعود ولو بعد خمس سنين · استمر فى الاستفزاز ، ورفضوا أن آخذ شيئا ·

ذهبنا الى القسم · هنالك فى التخشيبة التقيت بواحد نظيف ومعه شنطة . سألته ، ما حكايتك ؟ قال ، لا اعرف . بدأ آخرون فى المجيء ،

---

(١) لقاء شخصى معه .

دكتور لويس عوض ودكتور فايق فريد ، وشلة من عابدين واخرى من شبرا . كان لويس عوض متوترا يدخن فى شراهة بينما كان فايق فريد يضحك ويهزر . انتظرنا حتى السادسة مساء ورحلنا الى القلعة »(١) .

ويقول محمد فكرى فورة ، « قبض عليه يوم ٢٨ مارس . كان يوم خميس على ما اذكر . كنت هاربا قبل ذلك . كانت تلك هى الليلة الوحيدة التى توجهت فيها الى منزلى فى الريف . امسكوا بى فى الفجر . كان الضابط الذى قبض على يدعى مصطفى جنيدى ، ضابط مباحث عامة من المنصورة ، وكان قد قبض علىّ من قبل عام ١٩٥٣ . سأله والدى ونحن نغادر المنزل ، ما المصير ؟ قال ، لا تنتظر ان يعود اليك مرة اخرى . استعوض الله فيه . فى مركز الشرطة جلس جنيدى يسألنى عن مجموعة من الناس . قلت له ، انت تعرف ، اننى لو اعرف مكان أى احد فلن اخبرك به . أخذ فى سبى ، يا اولاد الكلاب يا خونة . قلت له ، نحن الخونة ام انتم ! انقض على الضباط وهرسونى علقة رهيبة فى حجرة المأمور ، حتى انى فقدت الوعى . فى تلك الاثناء احضروا معتقلا آخر يدعى أحمد شوقى . كان متين البنيان . وعندما رآنى ، أخذ يصرخ فيهم ، دعوه يا اولاد الكلاب ».

نقلنا الى سجن المنصورة . كان امام المركز كمية هائلة من الناس ، اخذت تسب المباحث وتلقى بالحجارة على السيارات . وهنالك فى السجن ورد علينا زملاء آخرون ، من شربين والمنصورة ، ممدوح الجندى ومختار السيد ومحمود ندا وغيرهم . ومن هنالك نقلنا الى القلعة ، حيث ظللت شهرا لا استطيع ضبط حركة فكى بسبب الاعتداء على فى مركز المنصورة . كنت (اظلط) الطعام مباشرة ، اذ كنت عاجزا عن المضغ .

كان عبد السلام الخشان قد هرب بعد ضربة مارس . كان معروفا بالاسم ، الا ان أحدا لم يكن يعرف شكله . هرب من الدقهلية الى الشرقية . وكان قد جند احد الشبان ، امسكت به المباحث العامة وهددته كى يسلمه ، فاخذ منه موعدا فى المقابر ، حيث فوجىء الخشان بعربة رش فى المقابر وعمال بلدية ترش المقابر . دهش لهذا الوضع الا انهم انقضوا عليه وامسكوا به قبل ان يتصرف . كان مفتش مباحث الشرقية هو رؤوف حمدى اخو الممثل عماد حمدى ، اخذوه الى المباحث وضربوه على رجليه حتى صارت مثل خف الجمل . ظلوا يضربونه ست ساعات ، ورؤوف حمدى هذا يقول له ، الا تكفيك الدقهلية ، تود ان تصبح مديرا للشرقية

---

(١) لقاء شخصى معه .

ايضا ! يقول عبد السلام الخشان ، ان ما كان يغيظ رؤوف حمدى ، ليس انى ضد السلطة ، وليس انى شيوعى أو أى شىء آخر • ان ما كان يغيظه هو انى اريد ان اكون مدير مديرية الشرقية الى جوار كونى مديرا لمديرية الدقهلية » •

ويقول نبيل زكى ، « تركت منزلى بعد ضربة يناير • كان اليوم ٢٨ مارس حينما فكرت فى زيارة سريعة ومفاجئة لمنزل والدتى فى شبرا • كان الوقت قبل الظهر . كنت اتبع على الدوام طريقة معينة قبل دخولى . كانت هنالك حارة صغيرة تقع فى مواجهة باب البيت مباشرة . وكانت تلك الحارة توفر لى رؤية مباشرة للبيت . وأنا فى أول الحارة رأيت والدتى ومعها رجل غريب على باب المنزل • كان وجه والدتى نحوى وكذلك ظهر الرجل • عندما رآنى والدتى اشارت بيدها ان ابتعد ، ففهمت على الفور واسرعت بالهرب • نظر الرجل صوب اشارتها فرآنى هاربا فانطلق خلفى ، الا انه لم يستطع اللحاق بى ، اذ دخلت شارع الترعة البولاقية ومنه الى شارع شبرا .

علمت فيما بعد أنهم هاجموا البيت فجر ٢٨ مارس ، الساعة الثانية والنصف صباحا . مزقوا كتبى والقوا بها على الأرض • قلبوا السرير والمراتب . بهدلوا البيت . الا أن افظع ما حدث هو الامساك بساق شقيقى وهو نائم باعتباره أنا رغم أن والدتى اخبرتهم أنه أخى ، فاستيقظ فزعا ، وهو ما يزال حتى اليوم يهب من نومه فزعا ان سمع صوتا وهو نائم . هددوا بأخذه رهينة ، فصرخت أمى تستنجد بالجيران الذين تكاثروا فتركوه •

كان البواب قد أخطأ . فذكر لهم أنى احضر الى المنزل فى بعض الاحيان • كان رجلا طاعنا فى السن ، فضربوه ضربا مبرحا ليعترف لهم بمواعيد حضورى ، وهل انا مقيم أم هارب مختفى • قرروا ابقاء أحد المخبرين داخل الشقة ، فان طرق الباب أى امرىء ادخل وأسر داخل الشقة • امضى هذا المخبر بقية الليل واليوم التالى . احتاج الى سجائر ، وكان يهم ساعة وصولى بترك المنزل لشرائها • عاد بعد ملاحقتى الفاشلة منكسرا . قال انه سيضطر الى اخفاء الحقيقة عن رؤسائه حتى لا يعاقب . لقد كنت فى متناول يده وافلت • استمر هذا الوضع عدة ساعات أخرى ثم غادر البيت وقد ترك خلفه عددا من الاهل والمعارف الذين احتجزهم ، وشاءت الصدفة التعسة ان يزورونا فى هذا اليوم .

اتجهت الى صديق لى يعمل فى احدى الوكالات الصحفية ، فعلمت منه بالحملة وانه قد قبض على المئات »(١) •

---

(١) نفس اللقاء الشخصى •

استشهاد الرفيق محمد محمود عثمان : -

حملة مارس اتسمت بالغيظ والحنق والبربرية • ان هؤلاء الذين خيل اليهم انهم قد قضوا على الحزب فى حملة يناير ، قد اصبحوا فوجدوا انفسهم يواجهونه فى كل مكان • فقدوا صوابهم وحاولوا مداراة فشلهم بالاجرام • ان بعض رجال الأمن لم يكن مكانهم الطبيعى غير الليمانات كابشع القتلة والسفاحين ، بل ان البعض منهم كان مكانه الطبيعى مستشفى الأمراض العقلية •

كان الجنون قد افلت عقاله ، ينطلق يعربد يرتدى حللا وازياء رسمية • ويملك سلطة التصرف فى العقل والرشاد • وفى طنطا قتلت مجموعة من هؤلاء المناضل البطل الشهيد محمد محمود عثمان • اول روح ازهقت ومزقت وقدمت قربانا للسادة وللعلم الرث الدامى ، علم مكافحة الشيوعية ، فى قسم أول طنطا ، حيث يحكم البكباشى انور منصور ، رئيس المباحث العامة ، الخلق وكانما هو الخالق سبحانه • انهال الضرب الوحشى البربرى على محمد محمود عثمان وأحمد عيد وسعيد النحاس • « كانت تعليمات مكتب مكافحة الشيوعية المركزى بالقاهرة لرجاله بطنطا ، هى الحصول على اعتراف من الشهيد بخريطة التنظيم فى الغربية واماكن الهاربين بأى ثمن • هنالك فى هذه الغرفة المغلقة انهال عليه زبانية أنور منصور ضربا بالعصى الغليظة • وكعوب البنادق والاحذية • وكلما سقط مغشيا عليه ، ألقوا على وجهه الماء ليفيق • ليسأله ضابط المباحث ان كان سيعترف ، فيجيب بالرفض ، فيأمر رجاله باستئناف الضرب •

واستمرت هذه العملية الاجرامية حتى الرابعة صباحا ، الى ان فقد محمد عثمان النطق • فألقوا به فى مؤخرة احدى السيارات البوليسية ، ووضعوا الاثنين الأخرين فى سيارة أخرى وانطلقوا بهم الى القاهرة • وأمام ادارة المباحث العامة فى شارع خيرت ، توقفت السيارتان ، وانزلوا الرفيق الشهيد محاولين اسناده ، لكنه سقط منهم ، فجره الحراس من قدميه على الأرض حتى وصلوا به الى حجرة فى قبو اسفل المباحث العامة •

وفى تلك الحجرة حاول رجال المباحث العامة ان يعيدوا الى الرفيق وعيه حتى يعاودوا استجوابه • لكنه كان قد لفظ آخر انفاسه • وفى الظلام نقلت الجثة الى مكان مجهول »(١) •

---

(١) الاقدام العارية ـ طاهر عبد الحكيم •

ويقول سعيد النحاس ، « اقامتى فى محلة مرحوم مركز طنطا • فى أول ابريل ١٩٥٩ ، أخذونى من سهرة رمضانية فى بيت العمدة ، حضرت المباحث العامة بقيادة أحمد شوقى عبد الرحمن معاون المباحث ومعه خمسة اشخاص منهم مخبر اسمه عطيه وألقوا القبض على ثم اتجهوا الى بيت شخص آخر اسمه أحمد حسين عيد والقوا القبض عليه ايضا • فتشوا بيوتنا ثم نقلونا الى مبنى المباحث العامة • عندما دخلنا انا والمعتقل الآخر كانت الساعة حوالى الواحدة والنصف أو الثانية الا ربعا بعد منتصف الليل . كان النور خافتا ، ووضعونا فى صالة المبنى حيث تفتح عليها بعض الحجرات . فى ذلك الوقت خرج علينا بعض المخبرين واشترك معهم الضابط أحمد شوقى عبد الرحمن فى ضربنا بالايدى والعصى ووضعوا كلبشات الحديد فى قدمى • ضربونى على اذنى فسقطت على الأرض وفقدت الوعى ، اما زميلى أحمد عيد فقد قيدوا يديه وقدميه ووضعوا خشبة فى رجليه وضربوه بالعصى عليها حتى اغمى عليه ، وعندما افاق اجلسوه الى جوارى •

بعد ضربنا قال الضابط احمد شوقى عبد الرحمن للمخبرين ، هاتوا لهم محمد محمود عثمان حتى يروا ماذا فعلنا ليعترفوا • رأيناهم يجرون شخصا لا ادرى من يديه أم قدميه . كانوا قادمين من ممر يفتح على الصالة ، وكان فاقدا الوعى ، وظل أمامنا هكذا ساعتين • كان يئن خلالهما • فى تلك الفترة سمعت المفتش انور منصور ، الذى كان فى مكتبه ، يقول ، احضروا له كورامين من الصيدلية الليلية حتى يفيق • ولما احضروا الكورامين لم يتقبله ولفظه • كان فاقدا الوعى • بعد الساعتين اخذونى أنا وأحمد عيد ووضعونا فى أحد دورات المياه فى نفس الشقة .

فى الصباح كان المجنى عليه ملقى كما هو ساعة نقلنا الى دورة المياه • انزلونا الى فناء واسع وجدنا به سيارة بوكس وسيارة ملاكى ، وشاهدت المخبرين هابطين من أعلى يحملون محمد عثمان من تحت ابطيه ومحيطين به من كل جانب • كانوا يقصدون من ذلك ايهامنا بانه ماشى على قدميه ، الا انه كان فاقدا الوعى وارقدوه على الكرسى الخلفى من السيارة الملاكى وجلس مخبر امامه حتى يسنده فى مكانه ، وركب أحمد شوقى عبد الرحمن الى جانب السائق .

اركبونى انا وأحمد عيد فى البوكس ، وتحركنا . كانت السيارة الملاكى تسير خلفنا حتى وصلنا الى مبنى وزارة الداخلية • ووقفت السيارة

البوكس فى حوش الداخلية ، بينما دخلت السيارة الملاكى الى الدور الأرض من المبنى • مكثت انا وزميلى داخل البوكس يحرسنا المخبرون من اول الصباح حتى آخر النهار • وعندما حل الظلام نقلتنا نفس السيارة الى قسم الموسكى دون محمد محمود عثمان • انتظرنا يومين فى قسم الموسكى ، ثم اخذنا أحمد شوقى عبد الرحمن ومعه بعض المخبرين الى وزارة الداخلية مرة أخرى لتحقق معنا النيابة • كان أحمد شوقى معاون المباحث حاضرا معنا اثناء التحقيق • كان الاتهام الموجه الى هو انتمائى الى تنظيم شيوعى ، وكانوا يدعون انهم وجدوا مع محمد محمود عثمان اوراقا وكتبا كثيرة • فى التحقيق لم يسألونى عن محمد محمود عثمان ، الا انهم سألوا زميلى احمد عيد عن صلته به • قدمنا بعد ذلك للمحاكمة امام محكمة أمن الدولة العليا بطنطا • محمد محمود عثمان متهم أول وانا المتهم الثانى وأحمد عيد الثالث • فى المحكمة روينا كل ما حدث الا انهم حكموا علينا بالبراءة وعلى محمد محمود عثمان بخمس سنوات باعتباره هاربا »(١) •

قتل القتلة محمد محمود عثمان باسم القانون وحماية الأمن العام والنظام ، واخفوا جثته فى مكان غير معلوم • وتتصاعد المأساة لتبلغ ذروتها فى محاكمة هزيلة هزلية ، يعلن فيها المتهمون عن جريمة القتل التى وقعت ، الا ان المحكمة لا تصغى اليهم ولا تحقق فى وقائعها ، بل تدين الشهيد ولا تدين القتلة وتحكم عليه بالسجن خمس سنوات • وتبدو المسألة كمؤامرة محبوكة تشارك فيها اطراف عديدة • اذ عندما يقف الرفيق عبد المنعم شتلة عضو اللجنة المركزية بالحزب امام المحكمة العسكرية العليا فى الاسكندرية والتى انعقدت لمحاكمة قادة الحزب عام ١٩٥٩ ، متحدثا عن الحملة المعادية للشيوعية وعن تصعيدها ، مستشهدا بواقعة اغتيال الرفيق محمد محمود عثمان فى مدينة طنطا ، مسجلا تفاصيل تعذيبه الوحشى الذى أدى الى موته ، متسائلا عمن هو الجدير اذن بالوقوف موقف الاتهام ، الجانى أم المجنى عليه ؟ العناصر الوطنية الشريفة التى تقدم حياتها رخيصة من أجل الوطن أم تلك العناصر التى لا هم لها سوى الدس والتآمر والتى يشهد تاريخها بالصلات المريبة مع المستعمرين وعملائهم . فينبرى له رئيس المحكمة يقاطعه ، يأمره بالتوقف عن الكلام ، الا أنه يستمر متحديا : « اننى اتهم المباحث العامة بارتكابها جريمة قتل أحد رفاقنا ، الشهيد محمد عثمان ، واطالب بالتحقيق فى هذه الدعوى ، كما اتقدم للنيابة الموجودة هنا ، بطلب استدعائى والتحقيق معى فيما نسبته للمباحث العامة » •

---

(١) امام النيابة بعد عام ١٩٧٠ •

وعاد رئيس المجلس يقول : « اسكت والا امرت باخراجك » .

الا ان عبد المنعم شتلة لم يتوقف . وقال ، « طبقا للنظام المطبق فى المجالس العسكرية يحق لى ان اتقدم بدفاعى بالطريقة التى اراها مناسبة لابراز وجهة نظرى ، كما انى مستعد لكى يحقق معى فى اية عباره اقولها وتعتبر ماسة بأى شخص من الاشخاص » .

ويعود رئيس المجلس ليقول : « اجلس و لاتتكلم ، والا طبقت عليك المواد الخاصة بالاخلال بنظام الجلسة » .

الا ان عبد المنعم شتلة لا يلزم الصمت ويعلن ، « انى احتج شديد الاحتجاج على هذا الاسلوب ونطلب تسجيل احتجاجى فى المحضر الرسمى للجلسة »(١) .

المؤامرة تقتضى الصمت ، والاطراف عديدة .

يقول فوزى حبشى « حين دخلت معتقل القلعة كان معى بالصدفة فى نفس الزنزانة سعيد النحاس . كان قد قبض عليه مع الشهيد محمد محمود عثمان . كانوا قد ضربوا معا فى قسم طنطا . فذكر لى وقائع محددة عن ذلك ، وكيف انه رأى محمد عثمان وهم يحملونه يكاد يكون جثة هامدة ، وكيف القوا به فى خلفية السيارة ونقلوهما الى القاهرة حيث لم يعرف مصيره بعد ذلك .

وعندما استدعيت للتحقيق فى اليوم التالى ، رفضت الاجابة ، واصريت على ابلاغ النائب العام بواقعة قتل محمد عثمان ، وذكرت اسم الشاهد الذى قال لى كل تلك الاحداث ، وانه معتقل فى يد الحكومة وعليكم بسؤاله حتى تستدلوا على القتلة .

كان المحقق الذى يحقق معى هو أحمد موسى ، وقد رفض تسجيل ذلك الطلب فى المحضر ، فلما اصريت على موقفى ، اعطانى ورقة كى اكتب بلاغى الى النائب العام . وبالفعل كتبت البلاغ وسلمته للمحقق واثبت ذلك فى محضر التحقيق الخاص بى ، وذكر أن البلاغ قد سلم له بواسطتى كطلب للتحقيق فى واقعة قتل الشهيد محمد محمود عثمان .

---

(١) الاقدام العارية ــ طاهر عبد الحكيم

ودارت الايام وكان النائب العام وقتها على نور الدين . وقابلته فى المحكمة أمام المصعد . وكان أحمد موسى موجودا ، فمال على أذنه وقال له فى هدوء ، انه هو الذى اعطى امرا باعطائى الورقة لكتابة البلاغ . لانى رفضت الادلاء باية اقوال الا بعد كتابة البلاغ ، وانه قد سمح لى بكتابة البلاغ ازاء اصرارى على ذلك . الا ان على نور الدين مزق ورقة البلاغ فى وجهى وقال : « شوف مين هيحقق لك فى الكلام الفارغ الى انت كاتبه دا » . وقد دعانى ذلك الى تخصيم النائب العام اثناء نظر قضيتى وبالفعل رفعت عليه قضية تخصيم ، فرفعت الجلسة لدفع رسوم التخصيم . وبالفعل دفعت الرسوم وقدرها مائة وخمسين جنيها ، باعتباره انه هو الذى وضع نفسه موضع الخصم لى . واصبحت قضية قائمة بذاتها على أساس انه أخذ ورقة من ملف قضيتى ومزقها والقى بها فى وجهى . وبالفعل عقدت جلسة خاصة بهذا الموضوع . ولما كانت قضايا التخصيم لابد وأن تكون علنية ، ولأنى كنت حالة خاصة فقد سحبونى الى مكتبه بدار القضاء العالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وبدون وجود أى موظف أو أى شخص ، فتحوا الابواب على لا شىء . وقالوا ، نحكم علنا على فوزى حبشى بغرامة قدرها مائة جنيه على اساس أنه قام بازعاج السلطات والتقدم ببلاغ كاذب . كانت مهزلة . النائب العام يمزق وثيقة هامة من أوراق قضيتى ، وبذا يكون قد عمد الى اخفاء معالم جريمة شهودها فى قبضة الحكومة والجناة من الحكومة . وجثة الشهيد مخبأة بأيديهم فى مكان غير معلوم »(١) .

الابلاغ عن مقتل محمد محمود عثمان ، بيد رجال المباحث العامة ، أمر يستثير المحكمة العسكرية العليا ويستفز النائب العام ويصبح بلاغا كاذبا يعاقب من يبلغ عنه بالغرامة . وكان ذلك أمرا طبيعيا اذ قبلت النيابة ايامها أن تجرى تحقيقاتها مع المعتقلين أو المتهمين السياسيين فى مبنى المباحث العامة وتحت اشرافهم بوجود ضباط منهم اثناء التحقيق . كيف يكون الأمر مشاركة الى هذا الحد ويدين رجال النيابة حينذاك هؤلاء الذين يشرفون عليهم ويراقبونهم أثناء تأدية عملهم ؟ ! لقد غدا الكل واحدا . تداخلت نيابة أمن الدولة والمباحث العامة تداخلا يصعب الفصل فيه .

الا ان مؤامرة محاولة فرض الصمت على مقتل محمد محمود عثمان لم تقف عند هذا الحد ، حد القتل واخفاء الجثة وتجريم من يبلغ عن هذه الجريمة البشعة ، والزعم بهروبه ومحاكمته شهيدا ، وادانته والحكم عليه بخمس سنوات . ان المؤامرة تتواصل ليصبح بيت الشهيد مداسا لزوار الفجر

---

(١) حديث شخصى معه فى ٧/٢٢ ، ١٩٨٠/٨/٥ .

يقتحمونه وقت يشاءون حيث انه هارب محكوم عليه ، ويلزم الامساك به لتنفيذ حكم « العدالة » .

تقول السيدة ستوتة أحمد الشرقاوى والدة البطل الشهيد :

« آخر مرة رأيته فيها ، كان يعد ملابسه . سألته ، الى أين ؟ قال مسافر الى طنطا . قلت ، عند من ؟ قال ، بعض الاصدقاء وأعود . قلت ، هل اعرف هؤلاء الاصدقاء ؟ قال ، لا ، ولا داعى لأن تعرفينهم . قلت ، طيب يا ابنى تروح وتيجى بالسلامة . ومن يومها لم أره مرة ثانية .

بعد ما يقرب من شهر ، وجدت خطابا أسفل الباب . كان الخطاب يقول ، انهم قبضوا على محمد وعذبوه وبهدلوه وأهانوه وقتلوه . قال الخطاب ، انه مرسل من زملاء له رأوه بأعينهم عندما وضع فى السيارة فاقدا الوعى والدماء تنزف من فمه .

فقدت صوابى ، حملت الخطاب الى وزارة الداخلية . قلت ، اين ابنى ؟ قالوا ، لا نعرفه . قلت لهم ، اذا ماذا يعنى هذا الخطاب ؟ قالوا ، من الذى احضره لك ؟ قلت ، لا أحد ، عندما فتحت الباب وجدته اسفله . لم يسلمه لى أحد فى يدى . قالوا ، طيب ، اذا جاءك اى شخص آخر بأى خطاب ، احضريه لنا ومعه الخطاب . قلت ، انا لم اتسلمه من أحد . الخطاب كان تحت الباب ، وأنا جيت ليكم . انتم بتقولوا انكم وطنيين وبلد وطنية ، لا بتموتوا الناس ولا حاجة ، وانتم الضبط والربط . دلونى على مكان ابنى ، قالوا ، إذهبى انت الآن . هدى السر ، واذا احضر لك أحد خطابا ، فأحضريه لنا .

قال لى بعض الناس ، اذهبى الى مباحث طنطا . السر معهم . سوف يخبرونك بما حدث . سافرت الى طنطا ، ووصلت هناك متأخرة ، لم اكن اعرف أحدا هناك . نمت فى الجامع . وسألت عن المباحث فى الصباح حتى وصلت اليها . دخلت حجرة بها ثلاث ضباط . قلت ، فين محمد عثمان ؟ قالوا ، ومن تكونين له ؟ قلت ، أمه . قالوا ، ولماذا تبحثين عنه ؟ قلت ، ابنى ، كبيرى وابن عمرى . قالوا ، لو كان يخاف عليك ما كان يضعك فى المهانة . قلت ، ابنى فين ؟ محمد فين ؟ قالوا ، لا نعرفه . قلت ، انتم الذين قبضتم عليه . ومعى جواب يثبت ذلك . قالوا ، اين الخطاب ؟ قلت ، فى المباحث العامة . قالوا ، من الذى كتب هذا الخطاب لك ؟ قلت ، فليكتبه من يكتبه أنا باسأل ابنى فين ؟ قالوا ، ابنك هرب عند خروشوف . قلت ، انا لا اعرف خروشوف . أنتم الذين اذا احتجتم تذهبون الى خروشوف بارجلكم . قالوا ، هل تعرفين ماذا كان يفعل

ابنك ؟ قلت ، ابنى طيب وابن حلال ، يقلع قميصه لحبيبه ، ويعطى ما فى جيبه لصديقه . يحب الناس ، ووطنى حر . انا ابنى فيه ايه ؟ قالوا ، دا بيكسر مبادىء الرسول ، وينشر مبادىء خروشوف . قلت ، انتم ذكرتم الرسول ، الرسول ايضا لما كان بيكافح ، كانوا بيقولوا عنه سحار وكداب . وهو كان بيدافع عن الدين . بس انا عاوزة طريق ابنى . ان كان مات قولوا لى ، وان كان حى قولوا لى . أنا مش هاعمل حاجة . انا طيرة ضعيفة قدامكم . قالوا ، هو هرب عند خروشوف ، وتانى مرة حد يجيب لك جواب ، هانيه علشان نعرف ، هو عرف الحاجات دى ازاى .

بعد المباحث ما اخذت منى الجواب ، انا كنت فاكره المكتوب فيه ، فخليت واحد يكتبه تانى لى ، وعملت كذا جواب . اخذت واحد ورحت لحقوق الانسان . لقيت عسكرى واقف على المبنى ، سألته عن حقوق الانسان . قال ، لا اعرف . سألت راجل ماشى . قال لى ، ماهية دى اللى واقف تحتها العسكرى . زعقت فيه وقلت له ، انت ما انتش عارف بتحرس ايه ، علشان كده حقوقنا ضايعه . دخلت حقوق الانسان وانا باصرخ ، قابلتنى واحدة ست اجنبية . قالت لى ، مالك ، قلت ، خدى شوفى الجواب دا ، وأنا عاوزة اشوف هنا مين المدير ولا الوزير . قعدتنى فى اوضة ، وقالت لى ، طيب هاتى الجواب . أخذت منى الجواب ودخلت ، ثم خرجت . طبطبت على وقالت ، انتى تروحى ، مهدية السر ، واحنا حنعمل كل حاجة . قلت ، انا عاوزه بس تخبرونى ابنى فين ؟ وبعد كده سمعت انهم بيسألوا على محمد من بره . والراديو جاب اسمه . وبدأوا بره يسألوا عن الاسماء الغايبة . كمان رحت الهلال الأحمر . قالوا لى المدير مش فوق . قلت لهم ، أنا مجنونة ، وماحدش يقدر يقف قصادى ، وانا عاوزه اوصل يعنى هاوصل . السكرتيرة بتاعته قالت ، مش جوه . هوه ضرب الجرس ، فدخلت وقالت له ، فيه واحدة عاوزة تقابلك ومش عاوزه تقول ليه . قال لها ، خليها تخش . كان الجواب صورة اخرى ، بس فيها كلام عن الظلم والحكومة خاينة . فالراجل بعد ما قرأ الجواب ، قال لى ، انت ست مظلومة ، بس اللى كتب ليكى الجواب ماكانش فيه داعى يشتم ، ويغلط . انت تروحى وترتاحى واحنا هنبحث الموضوع ونرد عليكى . ولا حد رد ، ولا حد سأل . رحت القضاء العالى برضه . دخلت وحكيت الحكاية . وكان النائب العام وحوليه ناس ، وأخذ الكلام وعمل محضر . وقال لى ، طيب يابنتى ، انت تروحى واحنا هنبحث الموضوع ده ونرد عليكى . ولاحد سأل ، ولاحد رد .

كان هناك ضابط يسكن الى جوارنا . وقد حضر الى واخبرنى ان محمد مات . وانهم بعد ما احضروه من طنطا الى الداخلية ، ارسلوه للقلعة

ومات هناك ، فأعادوه للداخلية ثم طنطا ، وقتها تأكدت انه مات • هو قال كده لأنه رآنى فى حالة فظيعة • كل ما حد يقول لى على مكان اسـافر ليه ، أو أحد المنجمين اذهب اليه • وسمعت انهم دفنوه فى طنطا وانهم دفنوه فى مصر •

لما كان الموسم بيجى ، كنت اروح القرافة • اقعد هناك بالاربع ايام • احط قطن فى ودانى علشان ما اسمعش مدافع العيد • وساعات الف فى الشوارع ، اقعد على الرصيف دا شوية ، وعلى الرصيف دا شوية ، مش عارفه لابنى دليل •

كنت احيانا احط الامل فى نفسى واقول ، يمكن يفتح على الباب ومعاه مراته وولاده ، ويقول ، يا أمى انا كنت صحيح هربان وادينى رجعت تانى • كنت هاتجنن • اصابنى السكر والضغط والروماتيزم وعينى الشمال باظت ، واحيانا احس ان النار بتشتعل فى جسمى كله •

بعد سفر عبد الناصر ليوغوسلافيا ، ومحاولته ابعاد شبهة قتل شهدى وفريد حداد عنه ، خبط الباب الساعة ثلاثة الفجر • قلت ، مين ؟ قالوا ، تلغراف • انزعجت وفتحت الباب ، لقيت خمستاشر واحد واقفين على الباب • قعدت على الكنبة ، بصيت لقيتهم ملوا البيت ، قلت ، اللهم صلى على النبى • انتو لسه فاكرينى ؟ انتو جايبين محمد ؟ يبقى يا مرحبا اذا كان معاكم • قالوا ، هوه فين محمد ؟ اننى مخبيه محمد ليه ؟ أمسكت بالضابط • قلت له ، يبقى انت اللى تعرف محمد فين ، فين محمد ؟ قال ، هدى نفسك عقبال مانفتش • قلت ، تفتش على محمد عندى انا ! قال ، آه • فتح الحجرة • كان أبو محمد نايم • قام فزع • قال ، انا لاشفت ابنى ولا اعرف طريقه فين • ومن يومها الراجل اصيب بالمرض • دخلوا على ابنى سيد • قالوا له ، اخوك فين ؟ قال ، ما اعرفش • كان عندنا ضيفة نايمة صحوها وسألوها ، محمد فين ؟ قالت ، انا ضيفة وما اعرفش حاجة • قوم انا ربك والحق ، رحت ماسكة الضابط ، وقلت له ، ليلتك اسود من النيلة • هات لى محمد • انت اللى عارف سكة محمد • هات لى محمد ، ولا تكونوا قتلتوا حسن كمان (ابنها الثانى وكان معتقلا ايضا) • انا اجيب لكم محمد من فين يا سفاحين يا قتالين يا ظلمة ، يا بلد كلها ظلم • طبطب على وقال ، هنجيب لك محمد والله • محمد حى وموجود • قلت له ، امال بتفتش عليه ليه • قال لى ، بس هو هرب من مطرح ما هو محطوط • واحنا قلنا دا راح عند امه • هرب مش عارفين راح فين • قلت له ، هو حد بيهرب منكم • انا مش هاسيبكم • انت اللى تعرف مكانه • ميت

اعرف . حى اعرف . يا حكومة خاينة يا سفاحين . قال لى ، انت ام ومعذورة . واحنا هنجيب ليكى محمد . واخذوا عربيتهم ومشيوا .

رحت لحسن فى معتقل القصر العينى . حكيت له الحكاية . قال لى ، يا امى دى محاولة ابعاد شبهة . الله يصبرك يا أمى . برضه ماتسكتيش لكن عليه العوض .

ابو محمد بعد ثلاث ايام مرض وخرج للعمل راكب دراجته . كان دايخ . حاولت امنعه ، رفض . كان هو عائلنا . الترماى خبط العجلة عند الاسعاف . اخدوه للهلال . قعد عشر ايام كان سخن باستمرار . الدكتور قال ، احنا مش عارفين ننزل السخونة وهنبعته الحميات . قلت ، لأ . دا راجل اكال عيش وابنه راح منه . انا اخده فى بيته ، اكرمه احسن . جه الدكتور عمر مكاوى واستلمه من المستشفى للبيت . واحضرت له الحسن دكاترة ، لكنه مات بعد يومين . يعنى مافتش جمعتين على حركة التفتيش .

بعد انور السادات ماجه ، قالوا فتحوا باب التظلمات . انا عملت توكيل لنبيل الهلالى . وطلبنى اروح دار القضـــاء العالى . طلبوا منـنـــا شهود . جه فوزى حبشى وجه النحاس . ثالث مرة اروح قابلته . قال لى ، احنا اللى شفنا كل حاجة بعنينا . بس معلهش ، استحملى الكلام اللى احنا هنقوله . فوزى قال انه كان صديقى وكمان عريان نصيف ، لكن النحاس هوه اللى كان معاه وقت ما حصل اللى حصل . دخلته وياه عند النائب ونبيل الهلالى . قال اللى شافه واللى حصل ، وازاى قالوا لهم علشان يبقى عبرة . انا مابقتش دريانه واغمى على . كل اللى كنت باسمعه قبل كده كلام واشاعات ، لكن دلوقت باسمع اللى حصـــل من واحد شافه . حسيت ان محمد بيتعذب قدامى . قلت ، انا عاوزه ابنى ، انا مش هتنقل من هنا غير لـــا تجيبوا لى ابنى . انتو تعرفوا كل حاجة . وكيل النيابة قال لى ، اهدى . قلت ، اهدى ازاى . قال ، هنوصـــل لكل حاجة . كونى صبورة . قلت له ، وبعد كده يبقى فيه صبر . يا عالم انا أم . بعد كده حولوا القضية لطنطا . وخلصت على كده .

انا ابنى راح منى وعليه العوض . وليه رب يخلص لى ذنبى . انا مش رفعت التظلم علشان فلوس ، انا رفعته علشان يعرفوا ان الواحد مهما يكون له الف سنة ، ليه اهل تدور عليه . ما يكلوهش كده . أى حد يحصل له حاجة يسلموه لأهله . الأهل تشوف ابنها بعنيها »(١) .

---

(١) لقاء شخصى معها فى ١٩٨٠/١٠/١٧ .

مؤامرة الصمت تواجه بالفضح فى كل مكان · فى كل تحقيق ، فى كل محاكمة ، فى كلّ اضراب عن الطعام افتتح له محضر نيابة ، سجلت واقعة مقتل الشهيد محمد محمود عثمان ، فى بيانات الحزب وفى الاذاعات الخارجية ·

اغتالوا محمد محمود عثمان ، واغتالوا اباه ايضا . وظلت الأم تنتظر طرقات ابنها ، يعود اليها . املت ان يتحول الوهم الى حقيقة ·

ان محمد عثمان لم يذهب حتى يعود · انه ما زال هناك ، لم يترك مكانه علىَ راس طابور شهداء الحملة البربرية · انه ما يزال كما كان على الدوام ، شامخا ابيا يحمل العلم وقد اصطبغ بحمرة دمه القانية ·

بدا محمد محمود عثمـــان عمله السـيـاسى فى النصف الأول من الاربعينيات ، مناضلا وطنيا ديمقراطيـــا شـيوعيا فى منظمـــة الشرارة (اسكرا) ، يناضل فى مواجهة الاستعمار والاقطاع . يعيش آلام جيله ويرفضها ويقاتل من اجل تغيير حقيقى لذلك الواقع المر · يشـارك فى حملة مقاومة الكوليرا تحت راية رابطة الطلبة المصريين ونشكل معا (١) لجنة مقاومة الكوليرا فى منطقة جزيرة بدران وروض الفرج · لجنة تبدأ بنا نحن الاثنين فقط لتتسع لشباب الحى ، تصل الى حوالى السبعين عضـوا . يقومون بتطهير المنازل ونقل المرضى وتحصين المواطنين . كان لا يهـاب الموت دفاعا عن الآخرين . كما شارك ايضا فى تأسيس النادى المصرى السودانى فى شبرا ، ناد رياضى ثقافى لشباب الحى ، افتتحه اسـماعيل الأزهرى الذى صار رئيسا للسودان فيما بعد ، واغلقه اسماعيل صدقى فى حملته البربرية عام ١٩٤٦ · شارك فى كـل الاعمال النضـــالية من مظاهرات وحشود وصدامات مع قوات الاحتلال والسلطة القديمة · واصبح عضوا فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) بعد ان اتحـدت منظمة الشرارة التى كان عضوا بهـا مع منظمـــة الحركة المصرية للتحرر الوطنى (حمتو) · وعندما تفجرت حدتو بالانقسامات ، كان ممن خرجوا عليها · وشارك فى أواخر الاربعينيات فى تأسيس منظمة طليعة الشيوعيين المصريين ، وكان عضو اللجنة المركزية بها . ولعب دورا بارزا فى دعم الوجود التنظمى والجماهيرى فى منطقة شبرا وشبرا الخيمة مشاركا العمال معاركهم من اجل حقوقهم ومطالبهم ·

وفى اواخر مايو ١٩٥٤ قبض عليه ، ووقف امام المحكمة يدافـــع فى وضوح وصلابة عن فكره المـاركسى وتطبيقه على الواقع المصرى ، مطالبا

---

(١) محمـــد عثمان وفخرى لبيب .

بانهاء الحكم الديكتاتورى العسكرى على شعب مصر من أجل حكم وطنى ديمقراطى حقيقى . وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات . وداخل السجن كان محمد محمود عثمان مثالا للمناضل البسيط الثابت الجنان ، القادر على المواجهة والصمود الثورى . كذلك لعب دورا هاما فى معركة الوحدة من اجل توحيد كل الشيوعيين المصريين فى حزب واحد . وعندما عاد مرة أخرى الى الشارع ، عاد اشد صلابة مما كان ، وأكثر ايمانا بقضية شعبه ووطنه وقضية الاشتراكية فى مصر . عاد جنديا فى صفوف الحزب المتحد ثم الحزب الواحد الذى طالما ناضل من اجل تحقيقه . وأصبح محترفا سياسيا ، متفرغا للعمل النضالى يمنح كل وقته وجهده وفكره وحياته للحزب وقضية الطبقة العاملة .

وبعد ضربة يناير عام ١٩٥٩ ، كلفه الحزب — فى اطار خطته لاعادة التماسك التنظيمى وتوزيع الكادر الرئيسى فى المناطق الحزبية — بالتوجه الى منطقة الغربية حيث قبضت عليه مباحث طنطا فيما بعد . ونال القتلة جسده فاغتالوه ، اما محمد محمود عثمان المناضل فقد صمد فى وجه تعذيبهم لا يقر ولا يعترف ولا يخون المسئولية ، شيمة المناضلين الاباة . وعجزت كل عصيهم الغليظة وكل ركلاتهم ودنياءاتهم واجرامهم وخستهم من أن تنال من ارادته . لقد ضحى محمد محمود عثمان بجسده فى مقابل ارادته . اختار عقيدته وأمانة المسئولية فى مقابل حياته . ان محمد محمود عثمان سوف يظل ابد الدهر رمز لمقاومة الحزب البطولية فى تلك الحقبة ، وصورة حية لما كان يمتلكه كادره من انكار الذات والتضحية والصلابة والعناد دفاعا عن قضايا الشعب وتمسكا بحريته فى اختياره الارادى للطريق الذى يسوغ مستقبله .

وفى كل معتقل وسجن ، فى كل اجتماع حزبى على أرض مصر ، وقف رفاق محمد محمود عثمان يقسمون بدمه الذكى الطاهر ، ان يسيروا على دربه ، درب المقاومة الصلبة العنيدة ، وأن يحموا راية حزبهم من كل الاعاصير التى تحيط بها .. وأن يحققوا لشعبهم ما نذروا انفسهم من أجله ، خلاصا وحرية ، ديمقراطية وحقوقا طالما اهدرت ، ومستقبلا غير الحاضر وافضل منه .



لماذا نجحت الحملة :

الحملة المجنونة مستمرة . ومن افلت من قبضتها غدا مطاردا مطلوبا فى كل مكان . علقت الصور فى محطات السكك الحديدية وبعض المحلات العامة ، ومع البوابين ، وإنتشر رجال المباحث كالذباب يتطلعون فى الشوارع والنواصى وعلى محطات الترام والمترو وسيارات الاتوبيس .

والحزب يلملم صفوفه ، يتلقى اللطمة اثر اللطمة • لكنه لا يخضع ولا يستسلم • يجدد اساليبه ، ويعمل على أن يتكيف مع الظروف التى استجدت عليه . كان الحزب حتى اواخر عام ١٩٥٨ ما يزال يعمل بطريقة شبه علنية شبه سرية . وبذا كانت كثير من عناصره معروفة من خلال دورها الجماهيرى • كما كانت ايضا كثير من عناصره القيادية معروفة من سابقة اعتقالها وسجنها مرات ومرات من قبل ، منذ العهد الملكى حتى تلك الفترة من الزمان •

كانت العناصر التى تنتمى فى أصولها التاريخية الى الحزب الشيوعى المصرى الموحد ، وكذلك الحزب الشيوعى المصرى (الراية) معروفة ومكشوفة بصورة أكثر بكثير من تلك التى تنتمى تاريخيا الى الحزب الشيوعى للعمال والفلاحين (ع . ف) . الا ان الحركة الشيوعية وقعت خلال عامى ٥٧ ، ١٩٥٨ فى اخطاء ادت الى انكشاف الغالبية من عناصر الحركة عامة .

ففى خلال المعركة الانتخابية التى جرت عام ١٩٥٧ ، اصدرت القيادات تعليمات الى كوادرها وقواعدها بضرورة التوسع فى تجنيد العضوية الجديدة لاحزابها حينذاك . وهذا أمر طبيعى لا غبار عليه ، فواجب كسب عضوية جديدة أمر حيوى لأى حزب سياسى يعمل بين الجماهير ويسعى بجدية الى توسيع ارتباطاته وتوثيق تلك الارتباطات • الا ان هذا التوجيه تزامل فى تلك الفترة مع معركة الوحدة التى كانت تدور بين الاحزاب الشيوعية الكبرى الثلاث (الموحد ـ الراية ـ ع . ف) • وكان من المعروف خلال مفاوضات الوحدة تلك ، ان اللجنة المركزية الجديدة للحزب الواحد والتى سوف تتشكل من تلك الاحزاب الثلاث ، سوف يتم تمثيل كل حزب فيها ، طبقا لقواته واعداد عضويته ، أى ان الحزب الاكثر عضوية سوف يكون اعلى تمثيلا ، وذلك ما عرف وقتها بالتمثيل النسبى . ومن هنا ارتبط تنفيذ ذلك التوجيه بالتوسع فى العضوية بمفهوم الزيادة العددية ، أى زيادة الكم دون مراعاة الكيف أو النوع كما يقتضى الواجب الحزبى . وبذا انفتحت ابواب تلك الاحزاب لكسب عناصر دون التدقيق فى شروط العضوية ، مما اتاح الفرصة لتسريب عناصر بوليسية او ضعيفة يسهل سقوطها عند وقوعها فى يد الاجهزة الامنية • •

يقول فريد رمزى ، « فى عام ١٩٥٧ صدرت لنا التعليمات بتجنيد اكبر عدد ممكن خلال المعركة الانتخابية • واعتقد ان نفس الامر قد حدث فى كل التنظيمات الموجودة حينذاك ، حيث كانت فكرة التمثيل النسبى فى

اللجنة المركزية مطروحة فى ذلك الوقت . وانضم عدد كبير فى ظل ظروف مفتوحة ، حيث كان ذلك وسيلة لانتشار العناصر البوليسية فى القاعدة »(١).

كانت فكرة تشكيل اللجنة المركزية للحزب الواحد بالتمثيل النسبى ، فكرة من اخطر وأسوأ الافكار التنظيمية التى قامت عليها وحدة الشيوعيين المصريين فى حزب واحد ، اذ كانت ، بالاضافة الى الممارسات الخطيرة الاضرار السابقة ، تقتضى ـ عند الوحدة ـ ان يتقدم كل حزب بما يسمى كشوف قواته او قوائم قواته وموقعها التنظيمى ، وربما استلزم التحقق من صحة هذه القوات ان يجرى التفتيش عليها . وكان معنى ذلك فتح باب الحركة واسعا امام اى عناصر بوليسية او عناصر مدسوسة لتحويل كل قوى الحزب الجديد الى كتاب مفتوح ، يضرب سرية او بقايا سرية كل حزب من تلك الاحزاب . كما كانت هذه الفكرة ايضا ، تطرح وتغرس الشك بين القوى التى سوف تتوحد بدلا من دعم الثقة ، التى هى أمر ضرورى وواجب عند الاقدام على مثل تلك الخطوة الهامة والتاريخية فى حياة الشيوعيين المصريين .

ثم جاءت ازمة الحزب بعد الوحدة وسيادة المناهج الانقسامية فيه مرة أخرى ، مما جعل الاطراف المتصارعة داخلة ـ وخلال معركة سيطرت فيها الاساليب اللامبدئية والعدائية ـ تكشف اى اسرار أو اسماء للطرف الآخر ، مما اهدر سرية كل القوى واتاح للعدو المتربص فرصة ما كان يحلم بها لاستكمال كشوفه هو عن الحزب واوضاعه وخريطته .

كل ذلك كان يشكل عبئا ثقيلا على قيادة الحزب بعد ضربة يناير ١٩٥٩ واحتمالات ضربات أخرى متوقعة ، وقد وقعت بالفعل بعد ذلك : وطرحت حينذاك فكرة سحب العناصر الجديدة وغير المعروفة أو المكشوفة والعمل بها على اساس خطة طويلة المدى تشكل توأما آخر للحزب يتم تربيته واعداده مع اتخاذ اشد صور السرية والحيطة ، حتى اذا تعرض الجزء المكشوف والمعروف من الحزب الى عملية الابادة التى كانت تتضح أكثر فأكثر من خلال الحملة ، يظل هذا الجزء الآخر بعيدا عن يد الدولة وقبضتها ليكمل المعركة باساليب جديدة فى العمل الجماهيرى والدعائى والاثارى . وبدأت القيادة بالفعل فى تنفيذ تلك الخطة الا ان الضربات المتلاحقة وازدياد ضعف الامكانيات والفترة الزمنية اللازمة وقدرات الكادر ايضا قد حالت دون تحقيق هذا الهدف . والذى كان يتوجب الاخذ به عندما بدأت نذر الازمة مع النظام تتوالى منذ منتصف عام ١٩٥٨ .

---

(١) نفس اللقاء الشخصى .

ولقد اضيف الى تلك الاوضاع التنظيمية شعور التحدى المصحوب بالاندفاع عند الكادر واعضاء الحزب بعد ضربة يناير ١٩٥٩ . ان التحدى فى أى معركة سياسية أو نضالية أمر مطلوب ، ان كان يعنى الصمود الثورى والتفكير الصحيح لابتكار اساليب تساعد على استمرار الحزب فى معركته . الا ان التحدى المصحوب بالاندفاع سوف يقود الى اعمال شجاعة حقا ، لكنها فى مثل تلك الاوضاع سوف تكون اعمالا متهورة تؤدى الى السقوط فى الانتفاخ والشراك المنصوبة ، مما يحقق غرض العدو أكثر مما يحقق اغراض الاستمرار والديمومة . ولقد كان الاكثار من اصدار البيانات عن اللجان الحزبية المختلفة واحدا من الاخطاء التى وقع فيها كادر الحزب . حقيقة كان ذلك بسبب حماسه وتفانيه واستعداده اللانهائى للتضحية من أجل القضية ، الا انه فى ذات الوقت اعطى للنظام صورة غير حقيقية عن قوة الحزب ، صورة مغالية للغاية عن قوته ، مما جعل ردود الفعل فى مواجهة هذا التقدير شراسة متزايدة وحملات متلاحقة .

ان الانطلاقة الجماهيرية الواسعة فى اعوام ٥٦ ، ١٩٥٧ ، ومواقف الشيوعيين ابان معارك التحرير وبرامجهم التقدمية خلال هذه الانطلاقة ، قد جذبت اعداد كبيرة الى صفوف الشيوعية . غير ان الكوادر المدربة كانت قليلة واستغرقت جل نشاطها فى المعارك الجماهيرية أو الصراعات الداخلية ، فسارت عملية تربية صفوف احتياطية للكوادر ببطء ، فضلا عن عملية تنظيمها وترتيب دورها وتحديد مسئوليتها .

كان يجب ادراك ان المعركة تحتاج الى نفس طويل . وان القوى المعادية للشعب قد وجدت الراية التى تتجمع حولها خلف عبد الناصر . ولذا فان المعركة سوف تكون شرسة متعددة الاسلحة .

لم يكن الحزب بوضعه وانكشاف اعضائه مؤهلا لمعركة طويلة المدى . كان عليه ان يتراجع الى الخلف ليعد نفسه الاعداد الذى لم يكن قد تم انجازه ، دون ان يظهر نفسه بأكثر من قوته .

لقد كان الحزب بعد ضربة يناير قادرا على الحركة الجماهيرية ، لكنه لم يكن بقادر على تنمية هذه الحركة وحمايتها . كان فى مقدوره التأثير فى قطاعات معقولة بل وتحريكها ، الا انه لم يكن بمقدوره مداومة هذا الاتصال والتأثير والتحريك . أى انه لم يكن بمقدوره حينذاك استيعاب واحتواء رد الفعل المضاد . هذا ما كان يتوجب عليه أن يعد له (١) .

ويقول نسيم يوسف ، « جاءت ضربة أخرى فى ١٦ أو ١٧ ابريل . وبدأ لدينا احساس قوى بان الكماشة تطبق علينا وتضيق

---

(١) من شهادة نبيل صبحى .

خناقها . فى هذه الضربة سقط عدد هام من الطلبة الذين كان لهم نشاط فعال .

بدأنا نعيد تشكيل منطقة القاهرة من جديد . واصبحت انا مسئول المنطقة . كان عدد من الزملاء الذين على اتصال باللجنة المركزية والسكرتارية المركزية فى هذه الفترة قد قبض عليهم . وبذا انقطع الاتصال بهذه الهيئات . وبدأت مناقشات داخل لجنة المنطقة حول الاستفادة من خبرة الحزب الشيوعى العراقى على أساس عدم الانجفاع فى أعمال اثارية . وعلينا تجميع الاقسام والخلايا والسير خطوة خطوة فى مواجهة الظروف الارهابية الفظيعة التى كانت موجودة حينذاك . كان هنالك اقتراح من عدد من الزملاء باصدار منشور وتوزيعه فى ميدان عابدين بمناسبة ٢٣ يوليو ، وليحدث ما يحدث . الا اننى وعدد من رفاق المنطقة رفضنا هذه الفكرة وقلنا أن هذا العمل عمل انتحارى ولا يمكن القيام بمثله ، حيث ان اضراره تفوق فوائده ، وأن القضية ليست مجرد ظهور الحزب أو الاعلان عن وجوده ولكنها قضية وجود عمل مستمر ومنظم »(١) .

ان عمق ضربة مارس وما تلاها من ضربات يرجع فى الواقع الى تمكن الاجهزة الامنية من معرفة قوات الحزب ، لا لقدراتها الفائقة أو امكانياتها التى لا تقاوم ولكن للاخطاء التى وقع فيها الشيوعيون انفسهم ، خطأ تشكيل القيادة بالتمثيل النسبى بين الاحزاب التى سوف تتحد معا وما ترتب على هذا الخطأ قبل الوحدة وبعدها ، كذلك الى ازمة الحزب وانقسامه وتفشى اسراره . ثم يأتى عامل الحماس المندفع بعد ضربة يناير ليغالى فى قوة الحزب الشيوعى ويعجل بالضربات التى كانت كشوفها معدة بالفعل .

خطة مايو :

ويحاول الحزب بعد هذه الضربات مراجعة حساباته التنظيمية واساليب عمله الدعائية بغية الاستفادة من تلك التجربة التى لم تمر الحركة الشيوعية المصرية بمثلها من قبل . وتحاول القيادة فى ذات الوقت اعادة صياغة افكار الحزب وتطويرها ، فتصدر فى مايو ١٩٥٩ خطة سياسية تكتيكية ، عرفت باسم خطة مايو ، توضح موقفه السياسى وبرنامجه ازاء هذه المرحلة .

---

(١) لقاء شخصى معه فى ٤ ، ١٩٨٠/٩/٨

ولقد ركزت خطة مايو على التمثيل الطبقى ، وتناولته من جوانب ثلاث ، الاقتصادية والسياسية والايديولوجية (١) .

الجانب الاقتصادي :

قدمت الخطة الارقام الخاصة بارباح الشركات الاحتكارية الكبرى وركزت على مجموعة بنك مصر ومجموعة عبود ومجموعة بنك القاهرة ، كما ناقشت مناقشة سريعة ، المؤسسة الاقتصادية ، من زاوية الهدف منها ، وأن الاجراءات المأخوذة ضد رأس المال الانجليزى والفرنسى والصهيونى بعد عدوان ١٩٥٦ قد نتج عنها أن الجزء الاكبر كان فى المؤسسة وجزء تم تمصيره ، بيع للقطاع الخاص . واستشهد بكلام حسن ابراهيم رئيس المؤسسة الاقتصادية فى ذلك الحين ، والذى قال ان مهمة المؤسسة الاقتصادية اعداد المشاريع وتنميتها ثم تسليمها للقطاع الخاص . وأن مهمة المؤسسة فى الوقت الراهن هى خدمة الاقتصاد عن طريق تنمية الاستثمارات الخاصة . (وتم - فيما بعد - تأكيد هذا الكلام فى ملاحق ، اتحاد الشعب ، جريدة الحزب ، ومقالاتها دعما لصحة الخط السياسى ، والاستشهاد بما جاء فى خطب عبد الناصر تمهيدا لاحتفالات يوليو ١٩٥٩ والتى زار فيها شركات بنك مصر ، وهنالك قال ، ان الثورة هى بنك مصر ، وان بنك مصر هو الثورة) .

الجانب الايديولوجى

سياسة معاداة الشيوعية والشوفينية والعرقية والتبشير بانتهاء المعركة مع الاستعمار وبدايتها مع اليسار . وتناولت الخطة النقطة الخاصة بالعداء للشيوعية بالتحليل منتهية الى القول بانه : كما ان الموقف من الديمقراطية حاسم وفاصل فى الموقف من الشعب ، فان الموقف من الاتحاد السوفيتى حاسم وفاصل فى الموقف من الاستعمار .

الجانب السياسى :

يتمثل فى الديكتاتورية الفردية . حكم الحزب الواحد الذى هو الاتحاد القومى ، وحرمان الطبقة العاملة من استقلاليتها النقابية ، وتفتيتها فى النقابات المصنعية . ثم المادة ٨ وهى ضرورة ان يكون عضو مجلس ادارة النقابة عضوا فى الاتحاد القومى ، وذلك لاخضاع النقابات لسلطان الحكومة .

---

(١) عن فخرى لبيب ونبيل صبحى .

وقالت الخطة بالنسبة للتمثيل الطبقى للنظام انه يمثل الاحتكار وشبه الاحتكار .

ولم يرفع الحزب فى هذه الخطة شعار الاسقاط ، بل رفع شعار التحذير من مغبة هذه السياسة على الحركة الوطنية ، والتحذير ايضا من شعار انتهاء المعركة مع الاستعمار وبدايتها مع اليسار . كما طرح ايضا ضرورة الديمقراطية حتى يمكن تكوين تحالف وطنى معاد للاستعمار ، مؤكدا ان الاستعمار هو العدو الرئيسى وان مؤامراته مستمرة . وقد استخدم فى ذلك الحين تعبير البورجوازية القومية وحرصها على السوق المصرى لمصلحتها هى دون الشعب المصرى كله .

وقد انتهت الخطة بوضع برنامج يطالب بتأميم شركات عبود وبنك مصر وابو رجيله (وكان قد رفع شعار تأميم أبو رجيلة عام ١٩٥٨ ارتباطا بمعركة عمال النقل واعتصامهم بمقر الاتحاد العام) . وكذلك بالنسبة لعبود . وكان الحزب يعد فى الصعيد اضرابا لعمال تفتيش كوم امبو وكان رئيس النقابة حينذاك المناضل الحاج سيد العطار . وكانت تلك المعركة خاصة بالأجور وساعات العمل ولوائح الجزاءات والفصل التعسفى . وربما كانت هنالك مطالب ايضا خاصة بتأميم المحلات الصناعية وسباهى ..

كما رفعت الخطة شعار حرية الاحزاب الوطنية بما فيها الحزب الشيوعى المصرى ، وحق الطبقات الوطنية فى تشكيل احزابها المستقلة ، وائتلاف هذه الاحزاب فى جبهة وطنية ، رافضة فكرة تحويل الاتحاد القومى الى جبهة .

كانت الخطة تكتيكية ولم تكن استراتيجية . الا ان بعض المختلفين معها من زملاء (الراية) سابقا ، قالوا بانها خليط من التكتيك والاستراتيجية ، ودمغوها باليمينية وهم فى الخارج ، ثم اتهموها باليسارية فى الداخل بعد اعتقالهم .

والحقيقة انها كانت فى حدود خطة تكتيكية لمواجهة الظروف التى كانت تمر بها مصر حينذاك ، بها قصور بعض الشىء نتيجة الظروف التى كان يعيشها الحزب . الا ان هذا القصور فى بعض دراساتها لم يكن يمس منهجها الطبقى فى الأساس والذى وضع الحزب على الطريق الصحيح فى مواجهة ما كان يجرى وقتذاك .

والنقد الذى يمكن أن يوجه الى هذه الخطة هو تحديدها الطبيعة الطبقية بانها احتكارية ، حيث ان ذلك يعنى انقلابا فى السلطة وتغيير اساسى فيها ، ولم يكن شىء كهذا قد حدث . لم يكن هذا التحديد دقيقا أو صحيحا • وكان التعبير الادق هو ما جاء فى بيان ٩ يناير ١٩٥٩ ، وهو ان الاحتكارات المصرية ورأس المال المشارك للاجنبى يجنى فى ظل مثل هذه السياسة ارباحا طائلة • كما انها تحقق نفوذا هائلا ايضا • حيث انه فى ظل شعار انتهاء المعركة مع الاستعمار وبدايتها مع اليسار ، وفى ظل الحملة المسعورة المعادية للشيوعية وكل القوى الديمقراطية ، وموقف النظام من حركة الجماهير ، يتزايد نفوذ وتأثير الاقسام اليمينية من البورجوازية المصرية وخاصة الاحتكارية وشبه الاحتكارية ، فهى ما تزال الاقوى اقتصاديا وصاحبة المصلحة الحقيقية فى مثل هذه السياسة المعادية اصلا لمجرى الثورة المصرية وتطورها . أى أن النظام حينذاك كان كما كان يمثل البورجوازية الوطنية المصرية والتى خضعت حينذاك لتأثير ونفوذ تلك الاقسام المعادية ، بل خضعت ايضا للنفوذ الاستعمارى ومنهجه الاصيل المعادى للشيوعية ووحدة القوى الوطنية وتقدم الثورة فى مواجهته باعتبار انه كان وما يزال العدو الاساسى لاستمرار الثورة واتصالها ، اى ان النظام خضع لنفوذ الجبهة المعادية رغم انه لم يكن جزءا منها .

وقد قابل اعضاء الحزب الذين يعيشون المعركة هذه الخطة بحماس شديد • اذ كانت بمثابة دفعة قوية للعمل الحزبى •

***

العنف حتى القتل :

رغم كل الضربات ما زال الحزب يعمل ، وما زالت كوادره قادرة على التجميع واعادة التنظيم ، ومحاولة الارتباط الاوثق بالجماهير ، عن طريق الدراسات الميدانية لواقع الاقسام ، فالجماهير هى الدرع الواقى والحامى الحقيقى للحزب واعضائه .

وفقدت اجهزة الأمن اعصابها • وكان اغتيال الشهيد محمد محمود عثمان ومداراة كل الاجهزة على مقتله واخفاء جثته ، يعنى ان خطا جديدا هو جزء من سياسة الدولة ، قد اضيف الى الاعتقال والسجن وحرمان المواطن من حقوقه وحرياته ودفعه الى ما وراء القضبان . هذا الخط هو استخدام العنف حتى القتل مع المخالفين . لم يعد الاحتجاز وحده يكفى ، انما اضيف السب والضرب والاعتداء والتعذيب والقتل الى مقومات الحملة . اضيف الارهاب الدموى • واصبحت الاجهزة الأمنية والتى تنكر

رسميا قيامها بأى عمل من أعمال التعذيب بل وتنكر على لسان رئيس الجمهورية نفسه وجود معتقلات فى مصر ، هى نفسها التى تقوم بتسريب أعمال التعذيب كشائعات بهدف ان تحقق غرضها فى غرس الفزع والذعر بين الناس .

وفى السجون والمعتقلات ، بدأت الدولة بكل ثقلها تمارس على اسراها من المعتقلين المنزوعى السلاح والمحتجزين خلف الاسوار والاسلاك وقضبان الزنازين ، كل صنوف البربرية والهمجية التى اعادت للقرون الوسطى « امجادها » المظلمة . وبدأت صفحة سوداء قاتمة تسجل فى تاريخ مصر . صفحة خضبتها دماء إخلص ابنائها على يد نفر من ابنائها ايضا .

الا أن شيئا واحدا لم يدركه النظام . وما كان فى وسعه ان يدركه . وهو أنه يواجه بشرا ، وان كانوا مقيدى المعاصم والاقدام ، مكممى الافواه ، الا نهم يملكون ارادة الانســــان . تلك الارادة التى نبعت من اختيارهم الحر للطريق الذى اختطوه دفاعا عن وطنهم ومن أجل مستقبل أفضل له . لم يدرك النظام ان الانسان العارى من كل شىء الا ارادته واختياره يملك اثمن الاسلحة وأقواها وأمضاها .

وغدت المعتقلات والســـجون ســاحات قتال بين الانســان واعداء الانسان . بين ذوى الارادة وهؤلاء الذين وضعوا امام اعينهم هدف اغتيال هذه الارادة « كهدف اسمى » .

وهنالك فى معتقلات قنا والقلعة وعزب الفيوم والســجن الحربى وأمام المحاكم العسكرية ، خلال الفترة من سبتمبر ١٩٥٨ حتى اكتوبر ١٩٥٩ انتفض السجناء فى وجه سجانيهم يحمون ارادتهم ، يحمون الانسان فى اعماقهم وفى اعماق كل مصر . فقد كان راسخا فى وجدانهم وايمانهم وقناعاتهم وعقيدتهم أن الانسان اختيار وارادة .

الفصل الثانى

معتقـــل قنـــا

اسماعيل عبد الحكم

شـفيق اسـماعيل

في اوائل سبتمبر ١٩٥٨ بدأ الاتحاد القومى سلسلة من المؤتمرات في الاحياء • كانت هذه المؤتمرات تستهدف توفير شعبية وتأييد للاتحاد القومى بين الجماهير ، حيث قام على اساس علوى وبقرار من السلطة . كان مقدرا ان يعقد ثمان مؤتمرات يتحدث فيها الوزراء والنواب تحت اشراف عبد القادر حاتم وزير الارشاد القومى حينذاك ، في محاولة لاغلاق الطريق امام الحزب الشيوعى المصرى وكجزء متمم للحملة التى كان النظام يشنها عليه .

بدأت المؤتمرات بمصر الجديدة ثم الوايلى ثم شبرا ثم عابدين • وبعدها توقفت ، اذ لم يعد في الامكان استمرارها • كان من المفروض ان يكون المؤتمر التالى في حلوان •

كان يحتل منصة المؤتمرات ، كبار رجال الدولة والاتحاد القومى . يعاونهم اعضاء من جماعة « حدتو » التى انقسمت على الحزب الشيوعى المصرى ، في محاولة دؤوبة لفرض اتجاهاتهم على تلك المؤتمرات ، وتأكيدا لشعارهم في التمايز عن الحزب الشيوعى ، وعدم التمايز عن النظام الحاكم والوقوف بلا حدود ولا شروط خلفه

وهنالك في الحشد بين الناس ، كان اعضاء الحزب من الشباب يرفعون شعاراته التى سرعان ما تسود المؤتمر ، وينقلب الغرض الرسمى للمؤتمر من انعقاده في مواجهة الحزب الى سيادة شعارات الحزب فيه .

كان مؤتمر عابدين هو قمة تلك المؤتمرات • فالدائرة دائرة عبد القادر حاتم • انعقد المؤتمر في سوق الحنفى . وكان الحشد هائلا • كان هنالك انصار عبد القادر حاتم ورجال المباحث العامة • كما كان هنالك ايضا اعضاء من الحزب الشيوعى المصرى وانصاره ، وجماهير الحى . بدأ عبد القادر حاتم خطابه ، وبدأ الرفاق الهتاف . كانت الشعارات تدعو الى « حرية تكوين الاحزاب » ، « جبهة وطنية ديمقراطية » ، « زى قاسم يا جمال » ، « زى سوكارنو يا جمال » ، « الافراج عن المسجونين الشيوعيين » • كان عبد القادر حاتم في وضع لا يحسد عليه ، فهو في دائرته الانتخابية ، ولا يستطيع مواجهة شعارات الحزب ولا الاستجابة العارمة لها بين الناس • هجم رجال المباحث العامة على الرفاق ، لدفعهم خارج السرادق ، فصاحوا يسألون حاتم ، ان كان يسمح لرجال الأمن باخراجهم من السرادق وهم في دائرته حتى لا يعبرون عن آرائهم ؟ فطلب من رجال الأمن ان يتركوهم ، كما طلب من الرفاق التزام الصمت . احاط رجال الأمن بالرفاق . يقول اسماعيل عبد الحكم ، « جلس رجال الأمن

عن يمينى ويسارى · لم نكف عن الهتاف · كنا ننتظر الكلمة الختامية لنفلت من تحت السرادق ، حتى لا يتمكن رجال الأمن منا بعد انتهائه · كان من المحتم ان توقف تلك المؤتمرات بعد ذلك . فهى فى الحقيقة قد حققت عكس ما استهدفته ·· وعجز رجال الاتحاد القومى عن الدفاع عنه ، بدلا من ترسيخه وتعميقه بين الناس »(١) .

ثم جاءت حملة سبتمبر تأكيدا لهذا العجز ، واستخداما للوسيلة الوحيدة التى يجيدها النظام ، بعد أن فشل فى مواجهة الحجة بالحجة · الا وهى سلطة الدولة القاهرة ··

الحملة

بدأت الحملة فجر الثانى والعشرين من سبتمبر عام الف وتسعمائة ثمان وخمسين ·

فى الرابعة صباحا علا رنين الاجراس ، ودقت القبضات ابواب منازل خمس من الشباب اعضاء الحزب واقتحم عبد الكريم نجيب ، ضابط المباحث العامة ، قسم مكافحة الشيوعية ، منزل اسماعيل عبد الحكم · كانت والدته هى التى فتحت الباب ، وتلقت الصدمة الأولى . اندفع الضابط الى حجرته . كان ما يزال نائما هو وأخيه ، فاستيقظ ليجدهم وقد ملأوا المكان · طلبوا تفتيش المنزل . سألوا عن مكتبه . اعترض والده ، وطلب امر النيابة · حدث نوع من الشد والجذب · قال الضابط انهم لا يستخدمون مثل تلك الاشياء الخاصة بالنيابة · حاول الايهام بانهم من رجال المخابرات وليسوا من رجال المباحث العامة . حملوا كل ما فوق المكتب ـ وهو مشترك بينه وبين أخيه ـ لموا اية كتب ، حتى الكتب الدراسية ، على اساس ان يجرى الفرز فيما بعد · كانوا متعجلين ·

اخذوه الى المباحث العامة . ادخلوه احدى الحجرات · توالى حضور المعتقلين الآخرين · لم يكن فى وسعه ان يرى الجميع . راى ابن خالته حسن ابراهيم الطالب فى الثانوية العامة والذى كان قد خرج لتوه من السجن فى شهر فبراير من قضية صدر فيها ضده حكما بالسجن عام مع ايقاف التنفيذ · ثم سمير كامل زميله بالجامعة .

فى قرية المرماح الواقعة خلف سجن بنى سويف ، كان شفيق اسماعيل يطل من نافذة المصنع الذى يتكون من مصنع ثلج ومطحن دقيق ·

---

(١) لقاء شخصى معه .

فوجىء بالمكان يحاصره الجند المسلحين بالبنادق والتومى جن ، وهم فى وضع استعداد للهجوم . كانوا يعلمون أن له سابقة هرب اثناء نظر قضية برء منها . ادرك ان هنالك عملية قبض . دخل ثلاثة يرتدون الملابس الملكية ، اثنان من القاهرة وثالثهم رئيس المباحث العامة ببنى سويف ، لكنه استقبلهم على انهم بعض زبائنه . تساءل احدهم ، « الاستاذ شفيق ؟ » اجاب بالايجاب . اصطحبوه الى منزله . كان محاصرا ايضا بل والقرية كلها كذلك . لم يكن التفتيش دقيقا . اهم شىء - على ما يبدو - كان اعتقاله . غادر المكان معهم بناء على طلبهم « دقيقة واحدة » الى القاهرة . الى وزارة الداخلية مباشرة .

اجرت المباحث العامة تحقيقا سياسيا . كانت تستدعيهم واحدا بعد الآخر . ما اسمك ؟ مهنتك ؟ ما هو رأيك السياسى ؟ وما رأيك فى الاتحاد القومى ؟ ما رأيك فى عبد الكريم قاسم ؟ تحقيق دون تهمة أو محضر ، اعلن الرفاق موقف الحزب : جبهة مع السلطة باعتبارها سلطة وطنية . جبهة مثل تلك التى فى العراق . سألوهم ، ما الفرق بين الوضع فى مصر والعراق ؟ قالوا بان السلطة هنا فردية ، غير ديمقراطية ، وانهم يطالبون بجبهة توحد كل القوى الوطنية فى مصر ، من أجل حماية مصالح الشعب المصرى ودعم اقتصاده الوطنى . لم تكتب المباحث كل ما قيل . كتبوا موجزا فى صفحة او أقل فقط ، ثم لك الشكر وتفضل .

كانت تلك الحملة رغم محدوديتها العددية انذارا محددا ومباشرا للحزب ، بان النظام جاد فيما يعنيه بعدم السماح له بالحركة أو التواجد كمنبر مستقل . وكان القبض على هذه المجموعة من شبابه بمثابة اختبار لرد فعل الحزب ، والتعرف عن كثب على عضويته ومدى صلابتها ودرجة ارتباطها . وذلك بطرحها للمؤثرات المختلفة . كانت تلك الحملة واحدا من المجسات التى اقدمت عليها الدولة تمهيدا لمخططها الأساسى الذى يهدف الى تصفية الحزب بكل الاساليب المتاحة لها ، والتى تشمل فيما تشمل ثقل جهاز الدولة وبطشه .

الترحيلة

كان الوقت ظهرا عندما اقتيدت تلك المجموعة الى مختلف اقسام الشرطة : اسماعيل عبد الحكم الطالب الجامعى وفتحى رفاعى عامل النسيج النقابى الى قسم السيدة ، سمير كامل الطالب الجامعى وشفيق اسماعيل المشرف على مطحن للدقيق الى قسم الازبكية . ابراهيم حسن طالب الثانوى وغنيم مصطفى عامل بالسكك الحديدية والنقابى الى قسم قصر

النيل . كانت التعليمات مشددة بضرورة عزل المعتقلين عن باقى المحتجزين فى الاقســام . الا ان بعض الضباط ، لم يدرك بالضبط ، ماذا يجرى ، فوضعوا المعتقلين مع المحتجزين العاديين فى تخشيبة واحدة .

وقد حدث فى قسم السيدة ان مر تفتيش فى منتصف الليل . وتصرف اسماعيل وفتحى على سجيتهما ، فقــابلا الضــابط المفتش والســجائر مشتعلة فى ايديهما . صرخ الرجل فى ضابط القسم ، يســال عن هـــذه الفوضى ، فالسجائر ممنوعة . الا ان اسماعيل اعلن ، انهما شيوعيان . واصاب الذعر المفتش فأخذ يصرخ هلعا ، كمن اصــابه مس . وانطلق ضباط القسم وجنوده يضربون المحتجزين العاديين حتى ساقوهم كومة واحدة الى حجرة اخرى . واغلق باب التخشيبة عليهما .

ظل الجميع اربعة ايام فى الاقسام . لم يكن أحد من الناحية الرسمية يدرى اين هم . الا انهم نجحوا منذ اليوم الأول فى الاتصال بأسرهم . فأحضروا لهم الطعام والبطاطين .

الساعة الثامنة مساء اليوم الرابع ، نقل الجميع الى ترحيلات المحكمة المختلطة . وهنالك وضعوا فى سيارة لوري واحدة . قيل لهم انهم ذاهبون الى معتقـــل قنا ، فارتفعت هتافاتهم ، « عاش الحزب الشــيوعى » ، « لا اعتقال للشيوعيين » ، « لا سجن للاحرار » . كان كل منهم مقيدا الى جندى من جنود الحراسة ، وهنالك ضابط الترحيلة والحرس المسلح . فى المحطـــة تجمع الاهالى . كانوا قـــد عرفوا بالترحيلة من الرفيق حسن ابراهيم . وتعالى الصراخ المتحدى ، « الى اين بابنـــائنا ، يا ابنـــاء الكلاب » . يقول اسماعيل عبد الحكم ، « بصق اخى فى وجه ضـــابط الترحيلة . قال له : يا خائن ، يا عميل امريكا » . ارتفعت هتافاتنا ، فتجمع الناس ، مثلما فعلوا على صفى الطريق من المحكمة المختلطة حتى محطـــة مصر . كانت المسالة تلقائية ، وفى ذات الوقت مفاجاة لضباط السـفرية الذين لم يكن لديهم خبرة بمثل ما يجرى الآن » .

كان واضحا ان المباحث العامة نفســـها لم تكن تتوقع حـــدوث ما حدث . لم يكونوا غير ست أفراد من وجهة النظر الادارية ، الا ان هؤلاء الشبان كانوا قوة سياسية له يحسب حسابها على هذا النحو . اسرعوا فوضعوهم فى القطار ، ثم أمروا القطار فاسرع يغادر المحطة . اعتذر الرفاق لقائد الترحيلة الذى بصق فى وجهه . قال الضابط ، « لوكنت مكـــانهم لفعلت فعلتهم » . وضعوا كل ثلاثة فى ديوان من دواوين الدرجة الاولى . اغلقوا الابواب . وبعثت طراوة المقاعد فى نفوسهم شعورا بالراحـــة .

مضت اربعة ايام فى التخشيبة وهم يغالبون البق والبراغيث . وغلبهم النوم فلم يستيقظ البعض منهم الا فى قنا . وكان الصباح ، صباح ١٩٥٨/٩/٢٧ ، حيث حملتهم سيارة البوكس من المحطة الى المعتقل .

المعتقـــل

يقع المعتقل بعيدا فى الصحراء فى منطقة اسمها العـزب . كان فى الأصل معسكرا للجيش الانجليزى ثم تحول الى معتقـــل للخطرين على الأمن . وهؤلاء هم الذين تخشى الحكومة نشاطهم الاجرامى الا انهـــا عاجزة عن الامساك بهم ، متلبسين بما تتهمهم به .

المعتقل مكون من اربعة عنابر ، تحيط بها الاسلاك الشائكة التى تفصلها ايضا عن مبانى الادارة منطقة حرام . ولا فاصل بين العنابر التى يوجد امامها فناء المعتقل . ثم هنالك حجرة الكانتين والتى توجـد زنزانـة التاديب الى يسارها والادارة الى يمينها ، وحول المعتقل سور خارجى . كما كانت هنالك ثلاث قباب تعلو المعتقل ، واحدة فوق الادارة ، والثانية فوق المخزن ، والثالثة فوق الكانتين ، وهى قباب تهوية مبنية على النظام المصرى القديم المنتشر فى الصعيد . والمعتقل تابع للاشراف المباشر لضابط المباحث العامة بقنا .

الشخصية البارزة فى المعتقل هى معاون المعتقل ، الرائد صدقى ، وهو على علاقة خاصة بالمباحث العامة فى قنا . أما قائد المعتقل فهـــو صورة لا أصل لها ، ولا تشغل حيزا اداريا فاعلا . كان يجلس فى الصباح فى مكان ظليل ، يضع امامه منضـدة ، وعلى كل معتقـــل فى طريقــه الى « المسعف » ، أى تومرجى الاسعاف ، أن يلقى عليه تحية الصباح ، ويضع سجائرا على المنضدة التى امامه . كان المعتقلون يشـــترون ســـجائر الجولد فلاك أو السجائر الأجنبية خصيصا لتحية القائد .

سقف عنابر المعتقل جمالون ، محمول من الداخل على اعمـدة . المسافات بينها تشكل ما يمكن تسميته بالبواكى . يوضع فى كل باكيـة منها عدد يتراوح من ستة الى ثمانية معتقلين . ويحتوى العنبر فى المتوسط على ستين معتقلا ، تزداد أو تقـل حسب حركة الوارد أو الصـادر من المعتقلين .

يتكون المعتقلون من عتاة النشـــالين وتجار المخـدرات والقوادين ولصوص الخزائن ومحترفى القتل والخطف والسرقة والذين شاركوا فى

عراك مثل الهوارة والفلاحين أو قتال خاص بالنار سواء من الوجه البحرى أو القبلى ، والعنابر مقسمة على أساس اقليمى ، اذ نجمع الادارة العصبيات مع بعضها البعض . والعصبيات محافظات . الذين من اسيوط معا ، والذين من سوهاج معا وهكذا . كان معاون المعتقل يمسك فى يده بالاوضاع داخل العنابر وهو فى سبيل ذلك ، وحتى يشغلهم بامورهم ، كان يضع الذين بينهم ثارات فى باكيتين متقابلتين داخل العنبر الواحد ، وفى كل باكية جاسوس ينقل اليه اخبار كل ما يحدث داخل العنبر . يقول شفيق اسماعيل : « كانت علاقات المعتقلين ببعضهم البعض علاقات سيئة . علاقات متعفنة ، الكثيرون منهم انهارت اخلاقياته . الشذوذ الجنسى طبيعى ومنتشر فيما بينهم . ويمكن ان مارس احد الشواذ ، من عصبية ما ، علاقة جنسية بآخر ، من عصبية أخرى ، أن تنشب المعارك . والادارة تشجع ذلك . هم يتصرفون بوحشية ، حتى ان واحدا منهم شق — فى احد الايام — خصيته ووقف يتحدى الجميع بما فعل »(١) .

والمعتقلون انفسهم يستخدمون بعضهم البعض فى التعدى على الادارة . يقول اسماعيل عبد الحكم « كان هنالك احد المعتقلين ويدعى اسماعيل . انه ليس بلص أو سارق ، لكن مهمته فى الخارج كانت حماية النشالين اثناء تأدية اعمالهم . هو فى الاصل كان جنديا بالبحرية . متين البنيان ، لا تصله اية طرود أو نقود . كان يمكن استئجاره لضرب احد ضباط المعتقل بخمسين قرشا . ولقد حاول ذلك مرة اثناء وجودنا فى المعتقل ، وافلت منه الضابط باعجوبة . كان يخافه بالفعل . وعندما اصبحت علاقتنا طيبة بهذا الضابط فيما بعد ، قال ، لنا ان هذا المجرم فى وسعه حقا ان ينالنى (ببشلة) ويضيعنى ماذا ستفعل لى الحكومة » .

والحقيقة ان ادارة المعتقل كانت هى التى تغذى فى كل هؤلاء كوامن الخبث والوحشية . كان معاون المعتقل يعد لكل ضيف جديد وارد على المعتقل حفل استقبال مشهود . يصل الواحد من عتاة المجرمين نافخ الصدر ، نافش الشارب ، فيمسك به ويعلقه فى الفلكة ويضرب بالكرباج ضربا مبرحا حتى يعلن انه امرأة ، ويتخذ لنفسه اسما نسائيا ، عائشة ، زينب ، فتحية ... الخ فيحلق له شاربه وشعره ، ويدهن وجهه بالميكروكروم ليجمل على طريقتهم الخاصة . ويمزق واحد من جلاليبه ليعد كطرحة زفاف توضع فوق رأسه ، ويستولى الجنود على ما بقى منها ، ثم يأتى عدد من المعتقلين ليزفوه بالطبل الى عنبره مطاطأ الرأس مكسورا ، ليظل هنالك فى مكانه لا يدرى من أمر نفسه شيئا ، خجلا ذليلا لا يعرف ماذا يقول أو ماذا يفعل .

---

(١) لقاء شخصى معه .

الى هذا المكان الموحش الوحشى . اقتادت المباحث العامة سبعة من اشرف الوطنيين المصريين ومن اجسر ابناء الحزب الشـيوعى المصرى . كانت جريمتهم انهم احبوا وطنهم وشعبهم ودافعوا عن حقهم فى الانتماء الى التنظيم المستقل بعيدا عن حزب الدولة الواحد الاحد .

كانوا جميعا شـبابا تتراوح اعمـارهم ما بين السـابعة عشر والعشرين ، لا يبدو من مظهرهم الخارجى ما ينبىء عن قدراتهم النضالية . جميعهم ، باستثناء احدهم ، نحافا . وحتى الوحيد منهم ، الذى كان يطلق شاربه على عواهنه ، كان شاربه لا يرهب أحدا .

جاء الجميع معا ، ماعدا سعيد عارف الذى لحق بهم بعد اسبوع من وصولهم الى قنـا .

بدأت معهم خطة المباحث العامة بشقين . الشق الأول أن معاملتهم تختلف عن المعاملة التى يسير عليها المعتقل مع نزلائه . والشق الثانى ان تجرى معهم حوارات سياسية . ومن أجـل ذلك بـدأوا بعزلهم فى الزنزانة ، بعيدا عن باقى المعتقلين . استدعوهم واحدا بعد الآخر أكثر من مرة لمناقشتهم والتعرف على مدى صلابتهم وتمسكهم بقناعاتهم . شاركت المباحث فى ذلك ، وكذا ادارة المعتقل . كانوا فى البداية « فرجة » المعتقل . عند كل نوبطشية من نوبطشيات المعتقل الثلاث ، يفتح عليهم الضـابط النوبطشى الباب ليلقى نظرة على هؤلاء الذين خافت منهم الدولة فالقت بهم الى غياهب الصعيد . وما أن يراهم حتى تأخذه الدهشـة فيقول : انتم الذين . . لكنه لا يكمل . ويبدأ الجميع فى الاحتجاج : « اننـا نحتج على اعتقالنا » . فينظر اليهم ، ويسأل كلا منهم عما يعمل . وعندما يتعرف على « التوليفة » الغريبة ينصرف للحال متعجبا . واثارت المناقشات السياسية دهشتهم . كان احد الزملاء يناقشهم فى الاقتصاد والسياسة والفلسفة وموقف الحزب . كانوا يعتقدون انه استاذ جامعى ، فوجئوا انه عامـل نسيج قال لهم : « كل الشيوعيين هكذا . ان اى مشتغل بالسياسة لابد وان يكون على معرفة بكل تلك المعلومات والقضايا » .

ظلوا فى هذه الزنزانة عشرة ايام . كان المعتقلون الجنائيون يضربون امام زنزانتهم . كان ذلك بمثابة تهديد وانذار لهم . الا ان شيئا من ذلك لم يغل من عزيمتهم . اكتشفت الادارة والمباحث العـامة الا جـدوى من استئناسهم بالترغيب أو التهديد ، بالنقاش أو الوعيد . كانوا متماسكين ومتمسكين بارائهم . يقول شفيق اسماعيل « كنا نزداد تماسكا واصرارا لا تنازل على الاطلاق . كان رأينا اننا موضع اختبار للضغط على الحزب

وان هذا الضغط يمكن ان يصل الى حد اعدامنا . فقررنا ان نأخذ مواقف ثابتة وشريفة ، ترفع رأس الحزب ورايته » . وعندما لم تعد هنالك فائدة امام ذلك الاصرار وتلك الارادة ، غيرت المباحث العامة من خطتها ، اصبحت ذات شق واحد ، هو الاجهاز عليهم بدلا من ترويضهم • وهكذا تقـرر تفريقهم بهدف تمزيق وحدتهم • والالقاء بهم فرادى وسط عتاة المجرمين ، بغرض اذابتهم لافسادهم وتحطيمهم نفسيا وخلقيا ، اى لانهائهم ، ليس فقط كسياسيين ، بل كادميين ايضا . ان يوضع فى كل عنبر اثنان منهم ، يسكن واحد منهما فى طرف العنبر ، والثانى فى طرفه الآخر • يقول اسماعيل عبد الحكم ، « رفضنا . قلنا ، لم يسبق للشيوعيين ان وزعوا فى عنابر على هذا النحو • اننا نريد عنبرا مستقلا • طالبنا بتسجيل احتجاجنا على الاعتقال وحرماننا من الجرائد والاذاعة • طالبنا برفع احتجاجنا ووجهـة نظرنا الى المسئولين • لم يكن لمعاون المعتقل سابق التعامل مع امثالنا . اصبحت مهمته لم الموضوع باسرع ما يمكن • فوجىء هذا العاتى بمجموعة (عيال) بالنسبة لما اعتاده ، تحتج وترفض • كان لأول مرة يسمع كلاما غريبا على اذنيه . اصبحت كل مهمته الا يسمع الآخرون ما نقول . انتهت المساومة فى النهاية الى ان نتواجد معا فى عنبر واحد ، فى باكية واحـدة ، بينها وبين باقى المعتقلين مسافة » . ويقول شفيق اسماعيل ، « كان هدف التوزيع تعريضنا لاعتداء المجرمين علينا بتحريض من الادارة • ان نتحول الى الفكر الاجرامى بدلا من الفكر السياسى . اتفقنا على ضرورة وجودنا معا ، ابلغناهم اننا لن ننفذ هذا التوزيع • وان هذه المؤامرة التى تسعى لتحويلنا الى مجرمين لن تنجح . اننا سياسيون ، وسنظل كذلك حتى لو بقينا فى المعتقل عشرين عاما . وكانت نتيجة ذلك اننا وضعنا معا فى عنبر اربعة » •

شيوعيون فى المعتقل

منذ اجتمع الرفاق معا فى معتقل قنا ، بداوا فى تنظيم انفسهم سياسيا ومعيشيا • اختاروا شفيق اسماعيل مسئولا لهم • وعندما وصل سعيد عارف ، اعادوا الاختيار ، واصبح غنيم مصطفى غنيم هو المسئول عنهم • حيث اعدت لشفيق عدة قضايا تموينية كان يستدعى الى بنى سـويف بسببها ، واختير فتحى رفاعى للادارة والحياة العامة .

بالنسبة للظروف المعيشية كان الفتح طوال اليوم ، منذ السابعة صباحا حتى الغروب والنوم على ابراش وبطاطين • كان مسموحا لهم بارسال خطابات واستلام خطابات ، وامانات ، واستقبال طـرود اكـل وملابس • الزيارة الرسمية مرة واحدة كل شهر ، ويمكن ان تكون يومية

« مدفوعة الثمن » • التغذية عن طريق متعهد ردىء . الافطار قطعة جبن حلوم ورغيف عيش ، والغداء عدس اصفر أو بجبة أو فول ، والعشاء لحم وخضار وارز . الا ان كل الأنواع سيئة والكميات ضئيلة • غالبية المعتقلين العاديين قادرة من الناحية المادية ، وغير القادرين يخدمون القادرين بالثمن • أى ان هنالك حالة رواج عامة فيما بينهم . كان القادر منهم يشترى عشرين رغيفا ، ويتركهم فى الشمس عدة ساعات ، ثم يستخدمهم بعد ذلك كوقود للطبيخ • كل ما يريده المعتقل الجنائى يمكن شراؤه •

نظم الرفاق حياتهم المعيشية . المصادرة ١٠٠٪ • وهنالك كميونات سجائر للمدخنين منهم • تنظيف المكان وغسيل القروان نوبطشيات متبادلة ، أى هنالك مساواة كاملة فى الحقوق والواجبات فيما بينهم • كان سلوكهم هذا تجربة جديدة على المعتقلين الجنائيين لفتت الانتباه اليهم • ارسل اليهم نائب قنا الدكتور اسماعيل معتوق طردين ، سلمهما الى أحد الضباط الذى هربهما الى المعتقل ، حيث كان من اللازم مرور الطرود على المباحث العامة قبل ارسالها •

كانت الظروف المعيشية اقرب ما تكون للظروف العادية . الا ان الرفاق كانوا يتوجسون من حدوث مؤامرة فى اية لحظة . كانت الادارة قد خصصت لهم ثلاثة من عملائها للتجسس عليهم داخل العنبر . واحد الى جوارهم وواحد عند اقدامهم والثالث قرب باب العنبر . كان عليهم ان يدبروا اتصالا بالحزب فى الخارج حتى يبلغوه عن وضعهم اولا بأول . وكان عليهم فى ذات الوقت خلق علاقات بالمعتقلين الآخرين ، علاقات انسانية وثقافية وسياسية قدر المستطاع . كان لابد من تحويل الخطر المحتمل فيما بينهم والذى يمكن ان يوجه ضدهم ، الى الادارة ذاتها وفى مواجهتها •

بدأوا فى تنظيم انفسهم وتحديد مهامهم • وقرروا ان يجروا مع المعتقلين الآخرين لقاءات بهدف التعارف ، وندوات بهدف التعريف بانفسهم ومبادئهم • وزعوا انفسهم ، كل على « بلدياته » مبتدئين بالوضع السائد ، صعودا الى اشكال ارقى من العلاقات . بدأوا بمحاولة تعليم الراغبين منهم القراءة والكتابة . كما كانوا يقومون بكتابة خطابات هؤلاء المعتقلين الى ذويهم • ومن خلال ذلك ، بدأوا هم انفسهم يهربون خطاباتهم الخاصة • وبعد التمام ، عندما تغلق العنابر ، ويسود بعض الهدوء ، كانوا يقومون بتقديم محاضرات سياسية وحواديت واغانى سيد درويش .

كانت مهمة جواسيس الادارة أن يبلغوها بكل همسة تخرج من افواههم . الا انهم ، وهم يدركون ذلك جيدا ، لم يأبهوا بهؤلاء الجواسيس أو مهمتهم . كان عليهم ان يكسروا الخوف عند المعتقلين . كان ان دخل ضابط العنبر وقف الجميع ماعداهم . وكانت تلك المواقف تثير حيرة المعتقلين العاديين ، الا انهم رأوا فيها جديدا . « استبشروا بها خيرا واعتبروها مواقف تستحق الاحترام »(١) .

كان الحديث مع المعتقلين فى مشاكلهم الخاصة والمحاضرات السياسيه والاجتماعية ، قد خلقت حولهم جوا من الحماية . وغدت مهمة العملاء عسيرة ، اذ لو تعرض واحد منهم لاحد من رفاق الحزب ، فان ذلك كان كفيلا بتفجير الوضع فى العنبر . لقد غدوا قبيلة سياسة ، قبيلة متميزة ذات شكل ونوع خاص . قبيلة لها كيانها الفكرى والنضالى . ولقد بسبب ذلك الذعر عند الادارة ، اذ بدلا من تحطيمهم واخضاعهم واذلالهم ، اصبحوا هم قيادة لهؤلاء العتاة . .

لم تكن المسألة مجرد نقاش أو حديث . ففى هذا العالم يصبح الموقف الصلب والشجاع حاسما فى تحديد شكل التعامل . يقول شفيق اسماعيل ، « لم تكن هنالك رعاية صحية . كان ضرسى يؤلمنى وطلبت عرضى على الطبيب ، لم يكن قائد المعتقل يرفض صراحة ، لكنه كان يماطل . كان يقول غدا ، فاذا جاء الغد قال باكر وهكذا . ثالث يوم كان الالم شديدا . قال احد عتاة المجرمين . « لماذا تطلب طبيبا ونحن موجودون » . كنت اعرف طريقتهم فى الخلع . لكن لم يعد امامى من سبيل آخر . لا استطيع الرفض والا قيل انى (خرع) ، أو أى كلام من هذا النوع . احضروا كرسيا . جلست عليه . امسكت به . فتحت فمى . اخرج الرجل قطعة حديد صدئة طويلة مدببة الطرف . ادخلها فى فمى . اخذ فى تقطيع اللثة حول الضرس . لم اكن فى ذلك الوقت احتمل أى شىء قرب ضرسى ، فماذا يكون حالى وهو يسلك اللحم من الضرس ، وانا عاجز عن الشكوى ، والا قيل انى لست (رجلا) . احضر زردية صدئة ايضا وامسك الضرس بها ، ثم اخذ يشد ويشد ، احس بالضرس يخرج كالمسمار من الخشب ، اخذ (يزيق) حتى خلعه . احس آلاما رهيبة . رفع الضرس لزملائه والذين التفوا حولنا ، اخذ يصيح فيهم ، « انظروا لم يتأوه ، انا الذى يخرج الضرس بلا ألم » . نظرت اليه وانا اتمزق وجعا . كان فمى مملوءا بالدم

(١) اسماعيل عبد الحكم .

فبصقته فى وجهه وأنا العنه . أصبت بالاغماء فحملنى الزملاء ، وبقيت هكذا طوال نصف ساعة » .

مثل هذه المواقف جعلت عتاة المعتقلين ، لا ينظرون اليهم فقط باعتبار انهم مجرد شباب يعمل بالسياسة ، ولكنهم بالاضافة ايضا رجالا شدادا أندادا لهم ·

المعـــــركة

كان الضرب للمعتقلين الجنائيين ارهابا ومهانة . كان الرفاق عنـد ضرب أى من المعتقلين العاديين يقفون عند السلك الفاصل ما بين مبانى الادارة ومبانى المعتقل ويحتجون · كان الضابط صدقى معاون المعتقـل يحاول فصلهم عن الباقين ، « مالكم وهؤلاء المجرمين ، انتم لكم معـــاملة خاصة » · وكان الرفاق يردون ، « نحن نعيش معا ، وما يجرى عليهم اليوم ، يمكن ان يجرى علينا غدا » كانوا يحتجون ايضـــا على الضرب كوسيلة للتعامل · بدأ المعتقلون العاديون فى الاقتراب من السلك الحاجز ومتابعة ما يجرى · كما بدأ جواسيس الادارة ينقلون ما يدور بين الرفاق وبين الضباط من نقاش حول هذه المسألة ، واشتهر عنهم فى المعتقـــل قولهم ، « اننا لا نرضى بذلك » · وكانت الجمـــلة تعنى الكثير عنـد المعتقلين ، اذ ان معاون المعتقل كان يفرض بطشه على أعتى العتاة · ولو حدث ان تكلم أحدهم عنه أو تذمر داخل العنبر ، فيما بينـــه وبـين زملائه ، فانه يسحب الى الفلكة ، ليأخذ نصيبا وافرا من « الاصـــــلاح والتهذيب » . كان الضرب بالنسبة للمعتقلين ، سحقا لكرامتهم · ولذا ما ان بدأ الرفاق فى الاحتجاج على الضرب وتصعيد هذه الاحتجاجات ، حتى بدأت تتخذ النظرة اليهم مستوى أعلى من مجرد « الصلابة والجدعنة » . بدأ المعتقلون ينظرون اليهم كمنقذ لهم مما هم فيه ·

وقرر الرفاق ، وكان قد مضى على وجودهم بالمعتقل نحو خمســـــة اسابيع ، ضرورة دخول معركة لتجميع المعتقلين وتحسين احوالهم . بدأوا الاتصال بمشايخ القبـائل والعصـبيات طارحين قضــــايا ثلاث : وقف الضرب اذ انه غير جائز قانونا ، كما أنه اسلوب غير انسـانى وغـير متحضر · ان تكون الزيارة اسبوعية بدلا من شهرية ، وان تفتح الابواب ليلا . وابدى المعتقلون الجنائيون ترحيبـا حارا واستجابة شديدة لهـذه المعركة . كان الضرب بالنسبة لهم مسألة حساسة للغاية ، وبالغة الاذلال ايضا . اخذ الرفاق بعد هذا التمهيد فى التحضير والتخطيط الدقيق ، بحيث لم يصل شيئا مما يعدون الى اسماع الادارة · بل ان جواسيسها وقـد

احسوا ان اتجاه الريح قد تغير اخذوا هم انفسهم فى نقل اخبار الادارة اليهم ٠

ارسلوا خطابا الى الحزب يشرحون له فيه الاوضاع التى يعيشونها ، وعزمهم على ضرورة خوض سلسلة من المعارك النضالية لتحسين تلك الاوضاع ، وانهم بصدد التحضير لاضراب عن الطعام يشارك فيه المعتقلون العاديون الذين هم على استعداد لاتخاذ هذا الموقف ، ويطالبون بمساندة الحزب لهم وضرورة نشر هذه الاخبار فى جريدته ٠ كان الرفيق سعيد عارف هو الذى كتب هذا الخطاب وارسله الى زميل له رسام فى جريدة الشعب ، وانتظروا ٠ الا ان انتظارهم لم يطل ٠ كانت المباحث العامة تراقب الخطابات الواردة الى الجريدة ٠ وهكذا سقط الخطاب فى يدهم وبه خطة الاضراب كاملة ٠ استدعت المباحث العامة رجلها فى قنا واعطته « حقه » فى التأنيب و « التهزىء » ٠

استدعى سعيد عارف الى الادارة ٠ كان الاستدعاء أمرا عاديا ٠ ربما كان له طرد أو خطاب . الا انه تأخر فى العودة ٠ وساد التوتر المعتقل . بدا كأن المعتقلين العاديين يودون قول شىء ، الا انهم يخشون فى ذات الوقت قوله . الا ان احدهم لملم شجاعته وهمس لاحد الرفاق ، بأن هنالك من يضرب فى الادارة ٠ جمع الزملاء انفسهم على الفور ، واعلنوا الاضراب عن الطعام . اسرعوا الى سور الاسلاك الشائكة الفاصل بين الادارة والمعتقل يحملون الخبز والطعام ويهتفون ٠ اعلنوا قائد المعتقل ومعاونه باضرابهم . كان المعاون عصبيا للغاية ٠ سألهم ان كانوا يعرفون حقيقة ما حدث ٠ قال ان سعيد عارف هو الذى بدأ بضربه ٠ قالوا انهم يعرفون ذلك ، وانهم يخطئون زميلهم لأنه لم يضربه اكثر ٠ اعلنوا احتجاجهم على الاعتداء على زميلهم ، وطالبوا بحضور النيابة فى التو واللحظة ٠٠

عندما عاد المعاون بعد اجتماعه بضابط مباحث قنا ، كان يحس المهانة . لقد وضعه هؤلاء (الصغار) فى مأزق ٠ كان لابد له من اثبات قدرته على احكام قبضته على المعتقل ٠ استدعى سعيد عارف ٠ سأله : « لقد أرسلت خطابا الى الخارج ، كيف حدث ذلك ؟ » رفض سعيد الاجابة قال له ٠ « ليس من حقك أن تسألنا مثل تلك الاسئلة ٠ ان ارسال خطاب منا الى حزبنا ، أمر طبيعى للغاية » ٠ قال له المعاون ٠ « فى استطاعتى ان اضربك » . قال له سعيد عارف فى تحد ، « لن تستطيع » ٠ قال الضابط « استطيع » ، قال سعيد « لا تستطيع » ٠ بدأ الضابط فى

الوقوف ، عاجله سعيد عارف بلكمة فى وجهه . تكاثر عليه الجسد . امسكوا به ، علقوه فى الفلكه ، ضربوه بالكرباج ، لطموه بالايدى ، ركلوه بالاقدام . حاولوا معه مثلما كانوا يفعلون مع المعتقلين العاديين ، أن يتخذ لنفسه اسم امراة . كان سعيد عارف شجاعا وباسلا . كان يردد ، « أنا سعيد عارف . عضو الحزب الشيوعى المصرى » .

يقول شفيق اسماعيل ، « كان وقوفنا عند الاسلاك الفاصلة ، نحتج ونهتف هائجين ، بمثابة اعلان عن موقف جماعى ، لا تراجع فيه ، واننا على استعداد لمواجهة اى احتمال . كان هذا الوقف امام القائد والسجانة والمعتقلين يؤكد اننا خامة جديدة ، لم يعتادوا رؤيتها من قبل ، حتى أن المعتقلين العاديين صفقوا لنا فيما بعد » .

اصر الرفاق على الاضراب ، فطلب منهم معاون المعتقل أن يعودوا الى العنبر . كانت الادارة قد ارسلت بسعيد عارف الى التأديب . فلم يغادر الرفاق مكانهم الا بعد الاطمئنان عليه . ذهب اليه فتحى رفاعى باعتباره مسئول الادارة . احضروا له (سلفا) وطحنوها ووضعوها على قدميه اللتان مزقتهما الكرابيج . دخلوا عنبرهم وساد اللغط المعتقل . الكل يترقب ، وماذا بعد ؟ ماذا سيفعل هؤلاء (الصغار) ؟ وماذا ستفعل بهم الادارة ؟ عندما جاء الضابط نوبجاتى الليل لاغلاق العنبر عليهم ، احتجوا على الاعتداء على زميلهم ، واكدوا استمرارهم فى الاضراب حتى حضور النيابة . واستمر الاضراب ليومه الثانى .

عقدت المباحث العامة مع ادارة السجن إجتماعا . كان الخطاب امامهم وفيه الخطة بالتفصيل . لقد انكشفت كل استعدادات الرفاق . وكان قرارها ضرورة عزلهم فورا عن باقى المعتقلين . لقد تحطمت خطة المباحث فى الاجهاز عليهم كمناضلين وآدميين . وها هى تراهم امامها اليوم اشد صلابة وأقوى نفوذا داخل المعتقل . وبدلا من أن تجرفهم اوضاع المعتقل المتدهورة انسانيا ، اصبحت تبضتهم هى العليا عليه . كان لهم فى انتمائهم وقناعاتهم زادا دعم صلابتهم وقوى من ارادتهم . لم تكن المسألة كما رأتها اجهزة الأمن مجرد شبان يمكن اضعافهم بحرمانهم من مباهج الحياة ، او دفعهم فى قلب جحيم رذائلها . كانوا اعضاء فى الحزب الشيوعى المصرى . لا تزيدهم مثل تلك الاساليب الا اصرارا وعنادا . فالعقيدة والقناعة تصهرها التجربة مهما كانت مريرة .

فى اليوم الثانى للاضراب جرى نقاش بين الرفاق وبين معاون المعتقل . حاول الملاطفة . قال لهم انهم ضيوف عليهم ، وانه سيدبر لهم

مكانا مستقلا . ناقش الرفاق الامر فيما بينهم . كانت هنالك معارضة محدودة لهذا الحل . الا انهم اجمعوا على أن الانتقال الى مكان مستقل اوفر ضمانا لهم . ان احتمال أى عمل غادر أو ارعن أو أية حماقة من اداره المعتقل أو أجهزة الأمن ، أمر وارد . فبين المعتقلين الجنائيين ، من هو على استعداد لشراء حريته بأى ثمن . طالبوا بان يغادر سعيد عارف التأديب فورا ، وان يلحق بهم فوافقت الادارة . ووضعوهم تحت واحدة من قباب المعتقل الثلاثة .

كان الرفاق قد اطلقوا على قباب المعتقل الثلاث ، قباب الامام احمد ، ملك اليمن . وكانت الحجرة التى نقلوا اليها مخزنا لا تتجاوز مساحته خمسة عشر مترا مربعا . كان الجزء القريب من بابها معرضا لهواء قاتل لا ينقطع ، فخصصوه لجرادل البول ومياه الشرب . وبذا اصبح الجزء المتروك لنومهم محدودا للغاية . كانوا ينامون فى وضع تبادلى ، قدمى الواحد منهم فى بطن الآخر . كانت منافذ الحجرة الزنزانة ، بابها وطاقة فى السقف ، وأخرى فى أحد جوانبه . كانت هنالك ثلاث نقاط حراسة عند المنافذ الثلاث . واطلق الرفاق على مقرهم الجديد ، « قلعه الامام » .

كانت دورة المياه فتحة فى الأرض ، امامها عدد من قوالب الطوب . كانوا يخرجون الى هذه الحفرة فى الصباح والعصر من كل يوم ، واحدا بعد الآخر ، وخلف الذاهب منهم جندى يحمل مدفعا رشاشا مصوبا اليه اثناء قضاء حاجته . كان الاغلاق ليل نهار . وكان عليهم أن يعيدوا دراسة خططهم من جديد .

طوال تلك المدة لم تصلهم اية رسائل من الحزب . ثم جاءت رسالة — دون قصد — عن طريق الدولة ذاتها . كان شفيق اسماعيل قد قدم لقضية اتهم فيها بزيادة نسبة الرماد فى الدقيق ، باعتباره مسئولا عن مطحن دقيق . كانت القضية فى بنى سويف . وكان عليه أن ينزل من قنا الى بنى سويف حتى يمثل أمام المحكمة هنالك . نقلوه تحت حراسة مشددة . المحطة محاصرة بالجنود والخيالة . المنظر يدفع الاهالى للتجمع فى الميدان وشرفات المنازل . الرفاق هنالك ، فى بنى سويف ، كانوا يعرفون . كان يراهم هنا وهناك بين الناس . وعلى الحوائط كانت هنالك شعارات الحزب ، « افرجوا عن ابطال قنا » ، « عاش الحزب الشيوعى المصرى » . ودخل الرفيق قاعة المحكمة . كانت خالية تماما . وللحال أخذ فى القاء خطبة عن الحزب الشيوعى وسياسته . صرخ القاضى . « براءة ، براءة » . واعيد الى المعتقل يحمل الى رفاقه الرسالة .

الحزب فى الشارع وقضية الرفاق مطروحة بين الناس • كانت تلك هى الرسالة ، وهى ليست برسالة خفية على ورق يجرى تهريبه اليهم • انها رسالة معلنة فوق جدران الميادين •

فى قلعة الامام

كان على الرفاق أن يكسروا سور العزل المضروب حولهم فى قلعة الامام تلك التى وضعوا فيها • ان علاقتهم تكـاد تكون مقطوعة تمـاما بالحزب فى الخارج . ومن هنا كان عليهم أن يستفيدوا من كل ثغرة توفر لهم منفذا خارج هذا الحصار .

ذات ليلة كان الرفيق غنيم مصطفى يغنى « انا اللى بدعت الصبر » ، فرد عليه أحد جنود الحراسة الموال . وكانت تلك بداية حديث وتعارف . كان الجندى يسكن فى جوار اسماعيل عبد الحكم . وانتقـل الحديث الى عرض لخدماته • وكانت الخدمة خطابا وجريدة • وتكتشف الجندى عن انسان لم يلتقوا بمثيله . رفض البتة الاستفادة من حالهم أو استغلاله . كان يحضر لهم الجريدة بثمنها فقط ، متحملا المغامرة والمخاطرة فى ادخالها الى المعتقل ثم توصيلها اليهم • ثم تطور الامر فغدا الضابط النوبطشى من اصدقائهم • يقف الى جوار الباب ويجرى معهم الاحاديث والمناقشات • وبذا نشأت علاقة انسانية ، حتى انه فاجأهم فى احد الايام ودعاهم الى مكتبه كى يستمعوا الى ام كلثوم ويشربون الشاى • ثم اصبح يعطيهم مذياعه الخاص ليستمعوا اليه فى الزنزانة • ثم بدأ فى اعداد قصاصات من الجرائد اليومية ، بها اهم الاخبار العالمية والمحلية ليلقى بها اليهم • ثم تطور الأمر فأصبح هو الذى يحضر لهم الجرائد اليومية .

ويبدو انه بسبب تلك العلاقات الانسانية والمناقشات السياسية المتبادلة أن اخذ الضابط النوبطشى فى مناقشـة ضرورة وجـود علاقات طيبة بين الرفاق وادارة المعتقل • وكان معاون المعتقل ، بعد حادثة سعيد عارف ، قد غدا حريصا للغاية فى تعامله معهم . كان الرائد صدقى ضابط سجون قديم ، جاب البلاد من الاسكندرية الى الصعيد . وبدأت الاحوال تتغير . اصبح فتح باب الزنزانة من الصباح حتى المساء . واستمر هذا التحسن فى اضطراد ، حتى ان وقع ما يدفع الى الصدام ، كان يتم البحث عن حل مشترك •

كان سعيد عارف قد احضر من خارج المعتقل بطريقة رسمية عـدة رسم : ألوان الزيت والجواش ، والفرش والشـاسيه . وجاء حكمدار قنا يزور المعتقل ؟ فمر على الرفاق . أخـذ يسـألهم عمن يكونون ؟ وماذا يفعلون ؟ كان من الواضح انه قد سمع بوجودهم • رأى رسـوم

سعيد فأعجبته • كانت هنالك بعض « بورتريهات » ضباط السجن ولوحات عامة • وفى المساء جلس الرجل فى نادى الضباط يروى ما رأى ، ويبدى اعجابه بهؤلاء الشبان وما يرسمون • كان من الحاضرين بعض ضباط المباحث العامة ، ورغم علمهم رسميا بأدوات الرسم ، الا انهم بدأوا يتجسسون على الرفاق بصورة محققة • واكتشفوا وجود سلك كهربى ، كان الرفاق قد اوصلوه من الادارة الى الزنزانة لانارتها • فاعلنوا انهم قد اكتشفوا اتصالا لاسلكيا بين الداخل والحزب فى خارج المعتقل . وأن عدة الرسم لم تكن غير ستار يخفى هذا الاتصال اللاسلكى ، وعليه يجب رفع السلك وسحب عدة الرسم • واصبحت امامهم مشكلة . من الذى يعلق الجرس فى رقبة القط ؟ واعتذر الرائد صدقى معاون الادارة ورجلهم فى ذات الوقت . فهو قد اصطدم بالرفاق حول مشاكل عدة ، واقترح ضابط آخر ، كان فى تقديره أقرب اليهم واقدر على التفاهم معهم . روى الضابط لهم القصة كلها فى وضوح وبساطة . وتم الاتفاق على تسليم البعض وتهريب البعض الآخر • وفى صباح اليوم التالى صودر الجزء المتفق عليه وكذلك السلك الكهربائى . وسجل الرفاق احتجاجهم • واستمر سعيد يرسم بما تبقى ، ثم لجأ الى استخدام الفحم فيما بعد •

وبدأ وصول معتقلين آخرين • جاءهم الرائد صدقى فى أحد الايام • قال ، « ان هنالك معتقلا مثقفا فى الادارة ، انه محام ، ويقال عنه أنه من قيادات الاخوان المسلمين • اننا لا نرغب فى أن نضعه مع الآخرين ، ونود ان يكون معكم ، فما رأيكم ؟ » طلب الرفاق فرصة للتفاهم فيما بينهم • اثيرت قضية احتمال ان يكون جاسوسا يسعون لدسه فيما بينهم • يقول اسماعيل عبد الحكم ، « الا اننا انتهينا الى انه فى وسعنا ، ان كان كذلك ، ان نفضحه فيصبح وجوده بغير جدوى . واعلنا موافقتنا . وكان الرجل فى الحقيقة اكثر من ممتاز . كان من أهم المحامين فى الاقصر • كان رجلا متفتحا مرحا ظريفا للغاية . يهرج ويضحك وينكت ويناقش بالعقل والمنطق • كان يقف معنا فى كل موقف نتخذه ، ونحن ايضا وقفنا معه فى كل مشكلة تعرض لها . كان كل منا يحترم حق الآخر فى الطريقة التى يفكر بها ، وان القضية المشتركة هى اننا نزلاء معتقل واحد ، نعيش ظروفا واحدة » •

وفى ٢٥ ديسمبر ساد المعتقل جو ما من التوتر . كان قد وصل اليه معتقلان جديدان • كانا عاملين فاعتدت الادارة عليهما وارسلته بهما الى عنابر الجنائيين • يقول اسماعيل عبد الحكم ، « اخبرنا المعتقلون فى العنابر ان معتقلين قد اضيفا إليهما ، وانهما مثلنا • كانا من الاسكندرية ، فلم يستطع احد التعرف عليهما • الا اننا توجهنا الى الادارة واعلنا احتجاجنا على ما حدث لزملاء لنا ، فاحضروهما معنا . كانا بالفعل زميلين

من العمال ، قبض عليهما وهما يوزعان المنشورات • وكان ذلك فى الحقيقة انذارا مباشرا بأن الحملة الكبيرة قد أوشكت على البداية • كان ذلك يعنى ان كل من تسول له نفسه فعل أى شيء ، فان المعتقل سوف يتلقفه . وحضر الزميلان معنا احتفالنا برأس العام الجديد . ثم توالت النذر • المح لنا أحد الضباط بان الخير كل الخير فى وجودنا هنا • ان فى القاهرة احداثا خطيرة • قال لنا ما يفهم منه ان حملة اعتقالات واسعة قد تمت . لكننا أخذنا كلامه فى حينه على انه نوع من الضغوط التى تبثها المباحث العامة بهدف الاحباط • الا انه ثبت لنا فيما بعد ، ان ضربة يناير كانت قد وقعت فى ذلك الوقت » •

الترحيل الى الواحات :

فى ٢١ مارس ١٩٥٩ فوجيء الرفاق بنبأ ترحيلهم . عقدوا على الفور اجتماعا قرروا فيه ان هنالك احتمال مرحلة جديدة • ربما تكون السجن الحربى ، وربما تكون أى مكان آخر . لابد مهما حدث الاستمرار على نفس الموقف وبنفس الصلابة • كانت صلتهم بالحزب فى الخارج ما زالت مقطوعة • وليس لديهم من المعلومات اليقينية ما يجعلهم يقطعون بشيء • كان زادهم الاساسى هو عمق انتماؤهم وثقتهم فى ذواتهم والتى ازدادت تأكيدا من خلال التجربة الى مروا بها • يقول اسماعيل عبد الحكم • « جاءنا الرائد صدقى ، كان التأثر باديا عليه ، قال سوف ترحلون اليوم الى الواحات ، لا أحد يعرف ماذا يجرى هناك • ليس بينى وبينكم أى ضغينة • ارجو رجاء خاصا ان تنسو اية اساءة ، وان تتذكروا الايام الطيبة . ولسوف تعرفون ان المعاملة هنا ، مهما كانت ، فهى افضل من غيرها . غادرنا المعتقل . كان هنالك تعاطف شديد ودموع فى عيون الضباط والجنود » •

وهكذا اغلق معتقل قنا كمعتقل سياسى . ربما لتبدأ جولة جديدة أو مرحلة جديدة ، أو تتخذ اساليب جديدة للتصفية . الا انه فى يوم ٢١ مارس ١٩٥٩ . كانت تلك المجموعة من شباب الحزب قد هزمت واحدة من اشكال التصفية . سحقت تلك المجموعة الغضة الصلبة بارادة الثوار ذلك الاسلوب الاجرامى المعادى لكل القيم والقوانين ، والذى تجسد فى محاولة المباحث العامة استخدام الجنائيين فى تصفية المناضلين نفسيا أو سياسيا أو جسديا أو خلقيا • خرجت تلك المجموعة أكثر قوة وأكثر صلابه وأكثر حنكة ، لتنضم الى قوى أخرى من رفاقها وانخوض معارك أخرى ، متنوعة ومتجددة فيما بعد •

الفصل الثالث

معتقـــل القلعـــة

ابراهيـم مـرسى

اكـرام محـارب

حـلمى ياسـين

خـيرى عـزيز

سـعد رحـمى

شـكرى عـازر

صـلاح خطـاب

عبد الرازق حسن

فـاروق ثـابت

فخـرى لبيب

لطفى الخـولى

محمـود شـندى

نبيـل صـبحى

القلعـــــة

القلعـــة بنـــاء شـــيده صـــلاح الدين الأيـوبى · وغـــدت منـــذ ذلك التـــاريخ مقـــر حكم الأيوبيين ثم المماليك ، ثم العثمانيين ، ثم محمد على الى حكم اسماعيل الذى انتقل الى عابدين عام ١٨٧٥ ·

وقد كان للفرنسيين بها ـ أثناء احتلالهم لمصر ـ حاميـة كبيرة · كما استخدمت أيامهم فى ضرب الأزهر بالمدافع أثناء ثورة القاهرة الأولى عام ١٧٩٩ · كما كانوا أول من استخدمها معتقلا للوطنيين · كما استخدمها محمد على ككمين ذبح فيه المماليك وأجهز عليهم ·

ولقد بنى صلاح الدين القلعة على طراز القلاع الصليبية ، وخاصة قلعة الكرك ببيت المقدس . بناها كمدينة على شـكل قلعة حتى يتحصن داخلها من بقايا الأسرة الفاطمية وأنصـارها فى مصر ، والصـليبيين فى فلســـطين .

ثم قام محمد على ببناء توســعات واضــافات للجناح الشـــمالى الشرقى ، والذى يتم الدخول اليه من شـــارع المحجر المعروف بالمدخل الشـــمالى للقلعـــة .

وعندما احتلت القوات البريطانية مصر ، كان لها فيها حامية كبيرة للسيطرة على القاهرة ، كما استخدموها سجنا حربيا لجنودهم ·

ثم جاء عبد الناصر واســتخدمها معتقلا سياســيا لكل مخالفيــه فى الـــراى .

وأصبح ذلك الاثر التـــاريخى القابع فوق جبل المقطم والمطل على القاهرة ، والذى يتوافد السياح لرؤيته والاستماع الى ماضيه ، أصـــبح ذلك الأثر فى جزء منه ، حاضرا كريها وكئيبا ، معتقلا للمناضلين المصريين ، وتخشيبة خاصة للمباحث العامـة .

وفى أول عام ١٩٥٩ فتح ابوابه الخلفيـــة المستترة كالعورة ، بتلقى باكورة الحملة التترية التى جرت ضد الشيوعية على ارض مصر .

ان لهذا القطاع من القلعة بوابة ضخمة ، ما ان يدخلها المرء حتى يجد نفسه فى فناء صغير يؤدى الى باب فيه حجرة الضباط المنـــاوبين ،

والذى يجرى فيها تفتيش المعتقلين تفتيشا دقيقا ، ثم تسجل اسماؤهم وأماناتهم فى سجلات المعتقل . ولهذه الغرفة باب آخر يقود الى دهليز طوين تمتد على جانبيه الزنازين الضيقة المرتفعة ذات الجدران المصمتة الا من باب مزدوج ، جزء منه من القضبان الحديدية والجزء الآخر من خشب سميك ، به ما يشبه الثقب بحجم العين . وفى السقف كوة هى المنفذ الوحيد الى السماء والهواء • ومن تلك الكوات يتلصص الحراس على نزلاء الزنازين يحصون عليهم انفاسهم وما يفعلون .

المعاملة فى القلعة ، بسبب خضوعها خضوعا مباشرا للمباحث العامة ، تبدو ذات مظهر غير عدوانى بصورة مفضوحة • فان لزم الأمر تعذيبا أو تنكيلا ، فالايدى القذرة والوجوه الشائهة تختفى وراء اقنعة واسماء وهمية زائفة •

وخلال تلك الحملة ، بدأت المعاملة عادية ثم تدرجت وتنوعت •

حملة يناير :

مع بداية العام الجديد ، عام ١٩٥٩ ، بدأت صفحة جديدة فى تاريخ مصر • صفحة خطت وبعمق مصير هذا الوطن . ان النظرة المحدودة الضيقة للقيادة السياسية فى مصر ، لم تر فى الاختلاف فى الرأى ، حول بعض القضايا ، الا الخصومة والعداء • وحتى تريح نفسها من تلك الاصوات ، سلكت السبيل الايسر لها ، سبيل الزج بمن تختلف معه الى خلف القضبان والجدران • ان كل حملتها المسعورة المضللة لم تنجح فى ارهاب كل ذى معتقد يؤمن بصحته خدمة لوطنه . ومن هنا اعلنت الحرب من طرف واحد ، وأخذ هذا الطرف فى جمع اسراه العزل من كل سلاح الا سلاح الايمان والاصرار ، وفتحت قلعة صلاح الدين ابوابها معتقلا للشيوعيين . واستقبلت أول ما استقبلت دفعة من القيادات ، من الكادر الحزبى • لم يكن بها أى من المستقلين . كان ممن قبض عليهم د. فؤاد مرسى ، د. اسماعيل صبرى ، سعد زهران ، حلمى ياسين ، لويس اسحق ، حسن صدقى ، فؤاد شحتو ، سعد رحمى ومحمود أمين العالم ، من قادة الحزب . وكان بها ايضا عدد هام من قيادات المناطق الحزبية : شبل اسماعيل ، نبيل الهلالى ، محمد سيد أحمد ، محمود المستكاوى ، عادل سيف النصر ، د. عبد العظيم انيس ونور غنيم وغيرهم من الزملاء •

كان الذين قبض عليهم فى الاسكندرية هم أول ايراد يصل الى القلعة وكان محمد الليثى هو أول معتقل ولج بابها . ثم توالت الدفعات • كان التسكين فى البداية انفراديا ، كل واحد فى زنزانة ، ثم بعد يوم أو اثنين ، اصبح كل ثلاثة فى زنزانة •

وبدأ مشوار الأحرار خلف الأسوار .

فى البداية كانت أبواب الزنازين مغلقة على البعض منهم بسبب التحقيق معهم . الا ان الادارة تركت العنابر مفتوحة فيما بعد . كان الفتح طوال النهار . لم تكن بالزنازين جرادل بول أو مياه .. وكان الاكل من المتعهد : فول وفطير وشاى فى الافطار ، ارز ولحم وخضار فى الغذاء ، وجبن وحلاوة وزيتون وزبادى فى العشاء . ان كل تلك الأصناف لا تأتى دفعة واحده ، ولكن يقدم منها فى الوجبات المختلفة .

لم يكن مسموحا لهم بالخطابات أو الكتب أو الصحف او الاذاعة . الا انهم كانوا يهربون الصحف . كان مسموحا لهم بطرود الادوية والسجائر ، والأمانات تتراوح من سبعة الى عشرة جنيهات .

اقيمت فيما بينهم حياة عامة . وقد ظهر ، بين الزملاء ، اتجاهان حول هذه المسألة . الغالبية تطالب بان تكون المصادرة مائة فى المائة ، حيث ان هنالك عددا كبيرا من الزملاء بلا امكانيات . واقلية ترفض ذلك وتراه خطأ يضر ولا يفيد . بدأت الحياة العامة بستين فى المائة مصادرة لصالح الجميع ، وتترك اربعون فى المائة لصاحب الامانات - وقد ظل هذا الهامش الفردى يضيق حتى اصبح عشرة فى المائة ، ثم انتهى بعد ذلك ايضا . كانت الحياة العامة قاصرة على اعضاء الحزب فقط . اقيمت مسابقات لنظافة الزنازين ، وكانت زنازين العمال هى الانظف على الدوام .

كان هنالك تنظيم حزبى داخل المعتقل . ولقد قام هذا التنظيم طبقا للتشكيل الحزبى فى الخارج وقياداته . كانوا يعرفون اخبار الحزب من الرفاق الذين يخرجون للتحقيق أو يذهبون الى القصر العينى للعلاج . وقد وصلت اليهم نسخة اصلية من بيان ٩ يناير فى أواخر فبراير أو أول مارس . واقيمت بهذه المناسبة احتفالات عاصفة فى المعتقل . كان الرفاق يجتمعون فى مجموعات ليتلى البيان عليهم من الأصل نفسه (وقد أخذوه معهم فيما بعد الى الواحات) . ثم يبدأ النشيد والهتاف . وارتفعت معنويات الرفاق الى اقصى درجة . لقد اثار البيان موجة من الحماس فوق ما يتصور العقل . الحزب موجود ، والضربة لم تقض عليه . كان البيان مطبوعا بالمطبعة . ولم يظهر حينذاك خلاف واضح حوله . كما احتفل الرفاق ايضا بعيد الحزب فى الثامن من يناير .

كان بعض الرفاق يكتبون الاشعار ويؤلفون اغان جديدة على نمط الاغانى القديمة . وفى ذلك الوقت كتب محمود المستكاوى نشيد الحزب .

ظلوا فى القلعة ثمانين يوما · وفى ٢١ مارس رحلوا الى الواحات . مقيدين بالحجلات · وكان ذلك تفريغا لمعتقل القلعة واعداده لحملة مارس ·

الاوضاع الحزبية داخل المعتقل لم تكن كما ينبغى فى ظل ضربة تستهدف الاجهاز على الحزب . السلوك الحلقى كان ما يزال قائما ، وهو سلوك انقسامى فى جوهره ، يساعد على التفتيت والتصفية . يقول حلمى ياسين ، « من الامور السلبية التى حدثت فى معتقل القلعة محاولة احد الزملاء (س · ز) خلق جو من الاثارة داخل الحزب من منطلق حلقى ، ضد زملاء مركزيين أو قياديين بالمناطق ، مما نتج عنه تشتيت الزملاء ، فى الوقت الذى يلزم فيه التوحيد · كما ضبطت فى ذلك الوقت رسالة خارجة من المعتقل عن غير الطريق التنظيمى . كان وراءها ا . س ، س · ز . وقد اعتبرت تلك الرسالة رسالة صادرة من خلف ظهر الحزب · وقد ترتب عليها سجن الجندى حاملها ثلاث سنوات . أما الزميلة التى كانت الرسالة موجهة اليها ، فقد تم تفتيش منزلها ، واعتقالها فى حملة مارس » ·

ويقول سعد رحمى ، « كان التفكير اليمينى سائدا ، ونظرة سحابة صيف سوف تنقشع مسيطرة · كنت ارى ان الاعتقال على هذا النحو ، ليس مجرد عملية وقتية ، خاصة وأن مهاجمة الشيوعيين والاتحاد السوفيتى كانت عالية النبرة · ولقد ظهر منذ أول لحظة عدم تماسك الحزب ووجود فريقين هما « ع . ف » و « الراية » اساسا · ولقد قال أحد قادة الراية السابقين ، انه لو عاد كل فريق الى أصله لكان ذلك افضل · كان يقصد من ذلك حرية الحركة والتصرف . وفى تقديرى أن الذى جعل الشكل الحزبى متماسكا ، هو وجود خصم مباشر له هو (حدتو) »(١) ·

معتقل القلعة ، معتقل التجميع والتوزيع . اخلى المعتقل من الدفعة الأولى · وكان ذلك ايذانا بقرب موعد الحملة التالية ، حملة مارس .

حملة مارس :

بدأت الحملة فجر ٢٨ مارس ١٩٥٩ . وأخذت الامواج تتوالى على القلعة . كانت الضربة فى تلك المرة عميقة . غاصت فى جسد الحزب حتى وحداته القاعدية ، من اسوان والنوبة حتى الاسكندرية · كانت تسعى الى سحق الحزب والاجهاز عليه تماما . لقد ثبت أن نزع القيادة أو جزء أساسى منها ، لا يكفى لشل الحزب او دفعه الى السكون · فقد ازدادت

---

(١) لقاء شخصى معه ·

حركته وتعاظم وجوده . وكان موقفه فى الشارع بعد ضربة يناير ، ردا حاسما على تلك الضربة . وعالج النظام هذا الوضع باسلوبه المفضل ، لسلوب معالجة الحجة بالحجلة والراى والفكر بقضبان القلعة .

كان الايراد يصل فى الليل عادة ، ما بين الثامنة مساء والثالثة أو الرابعة صباحا . الاعداد تتوالى من القاهرة والاقاليم . والرفيق سامى عبد المسيح يراقب من زنزانته باب الادارة ويعلن مقدم الدفعات المختلفة : المنصورة وصلت ، المنيا شرفت ، اسيوط هلت ، الاسكندرية صيفت .

وكان استقبال هؤلاء « الضيوف الثقلاء » الذين اتخذوا موقف التحدى ثقيلا ايضا . عندما وصلت دفعة المنيا اجلسوهم القرفصاء على باب المعتقل . احاط بهم كوردون من الجند المسلحين بالمدافع الرشاشة . كان الوقت مساء والرهبة توحى بها غبشة المساء والجو المحيط . الا أن أحدا منهم لم يبد الخوف من هذا الجو الارهابى . فتشوا حاجياتهم بغظاظة ثم ادخلوهم الزنازين .

ولم يقتصر التنوع على كون المعتقلين من محافظات مختلفة ، من الاسكندرية الى اسوان والنوبة ، بل لقد تبدى هذا التنوع ايضا فى المعتقلين انفسهم : فلاحون وعمال وطلبه ، كتاب وفنانون وصحفيون والساتذة جامعات ، مهندسون ومدرسون ومحامون وضباط سابقون . كل مصر كانت هناك .

يقول لطفى الخولى ، « الظاهرة الملفتة للنظر ، هى هذا التنوع الشديد للقوى التقدمية والديمقراطية فى مصر فى ذلك الوقت ، بحيث لو كان يراد اقامة او انشاء جبهة تقدمية ، لكانت القلعة هى اصلح مكان لاعلانها . كان من الاشياء الممتعه اكتشافك ان مصر حبلى ومعطاءة . فهذا الوارد ، رغم مأساوية اعتقاله ، كان يعنى اتصال الاستمرار . لم تكن هنالك حالات ضعف أو انهيار الا ان معتقلين من الشخصيات التى كانت بارزة فى مجال العمل السياسى يوما ما (ا . ر . ص ، ع . ر .) كانا فى حالة يؤسف لها . وقد افرج عنهما بعد اعتقالهما باربع وعشرين ساعة » .

كان الكثير من المعتقلين يسقطون فى الشباك لأول مرة . وبدأ البعض منهم يبحث مذنقيا عن الأسباب التى قادت الى ما آل اليه حاله . يقول

طفى الخولى ، « اخذت الحملة بعد اسبوع من بدايتهـا تخف بعض الشيء . كنا فى العنبر ، وكان معنا لويس عوض ومحمد الخفيف وسعيد خيال • فى الساعة الثانية عشر بعد منتصف الليل ، هز لويس عوض رأسه وقال ، « لقد توصلت الى استنتاج هام » • قلنا له ، « وما هو ؟ » . قال « البلد بالفعل لا توجد بها حريات » . وكان لويس عوض يتهم ميشيل عفلق بانه هو السبب الرئيسى فى القبض عليه • اذ ان ميشيل عفلق ، كان يدعو ــ بعد الوحدة ــ الى عدد من الاجتماعات . وكان احد هذه الاجتماعات فى منزلى ، كذا كان احدها فى منزل لويس عوض . وحضر كثيرون هذه الاجتماعات ، منهم خالد محى الدين وعبد العظيم انيس واحمد بهاء الدين وكلودفيس مقصود • وكان هنالك جدل ونقاش . كنا كلنا تقريبا نحمل افكارا متعارضة مع ميشيل عفلق ، رغم انه كان هنالك اتفاق بان الوحدة تمثل امكانية ، الا انه يجب ان تكون ذات طابع ديمقراطى ومضمون تقدمى لصالح الشعوب ، وأنه يلزم وجود ضمانات لذلك . وأن قضية التسليم لفرد ما مهما كان ــ وكان عبد الناصر فى ذلك الوقت ، بعد عام ١٩٥٦ ، بطلا وطنيا قوميا ــ ليس بضمان وحده . الا ان ميشيل عفلق كان يرى أن الوحدة فى حد ذاتها ــ مهما كانت ، ومهما كانت صعوبتها ــ تعد خطوة ضخمة الى الامام ، وعلينا ان نؤيدها . وكان لويس عوض يختلف مع غالبية الموجودين ، لأنه كان يعارض قضية الوحدة ، وقضية ان تصبح مصر جزءا من كيان ، معارضة جذرية ، وكان يعتبر أن هذا هو سبب القبض عليه » •

الا ان العناصر التى سبق لها وخاضت مثل هذه التجربة المريرة ، كانت هنالك ايضا •

يقول خيرى عزيز ، « فى تلك الايام ظهرت قيمة الزملاء القدامى ، الذين مروا بمثل هذه التجارب . كانوا بالنسبة لنا ، نحن الجدد ، شيئا باهرا . كانوا على مستوى عال من الشجاعة والقدرة على التنظيم • كما كان من الأمور الممتازة حقا ، أن القادة كانوا يقدمون القدوة . لقد وجدنا فى القلعة من يهتم بأمرنا من الزملاء ، مما منحنا الثقة . كان معنا فى العنبر محمود شندى الشاعر ، والذى كان يسخر من هذه الحملات والاعتقالات ، ولا يكف ليل نهار عن قول الاشعار الناقدة ، مما كان يملؤنا قوة وترابطا ، ويرفع معنوياتنا الى درجات عالية • كان معنا ايضا رئيس نقابة النقش والزخرفة • كان شخصية طريفة تخلق حولها جوا من المرح ، وكذلك مدرس من دكرنس ، كان يسخر بطريقة شعبية من كل صنوف القمع •

وقد لعب دورا كبيرا فى اجتذاب الجنود عندما ذهبنا الى معتقل الفيوم • وكان لطفى الخولى يأتى الى لويس عوض وتجرى مناقشات سياسية » •

وهنا تظهر ضرورة التنظيم فى الوقت الذى لا يعرف فيه غالبية الأعضاء بعضهم البعض بشكل حاسم ومحدد . يقول صلاح خطاب ، « كان بالعنبر الذى دخلت فيه خمسون معتقلا • واتفقنا نحن الذين نعرف بعضنا البعض على ضرورة تشكيل قيادة حزبية . كان هنالك حوالى اربعمائة نزيل بالمعتقل ، لا اعرف منهم اكثر من عشرين زميلا • كان هنالك اديب ديمترى ممن اعرفهم • شكلنا لجنة قيادية مؤقتة راعينا فيها الاوضاع الحزبية ، حتى تتكشف لنا صورة ما نحن فيه . كان معنا زميل قديم كبير فى السن ، له ماض رائع ، وقد حبذ هذه المسألة بشدة عندما عرضتها عليه ، وعندما ناقشته فى أن يكون هو مسئول اللجنة القيادية ، فوجئت به يعتذر فى صدق وامانة ، ويقول لى : هذا شرف لا استحقه ، فقد توقفت عن العمل السياسى منذ ثلاث سنوات » .

لم يكن الأعضاء المنظمين المعتقلين من الحزب الشيوعى وحده . كانت هنالك « حدتو » ايضا ، والطليعة الشيوعية (ط . ش) ووحدة الشيوعيين (و . ش) • كذلك كان هنالك المستقلون غير المرتبطين باى تنظيم حزبى • ولم يكن كل هؤلاء المرتبطين بتنظيمات حزبية على اتفاق سياسى ، بل يمكن القول ان « حدتو » ، كانت تقف بمفردها سياسيا فى الوقت الذى كانت فيه باقى القوى وأساسا الحزب الشيوعى المصرى ، تقف فى الجانب الآخر .

يقول خيرى عزيز ، « كان الاتجاه الحزبى قويا وكاسحا • أما الاتجاه الثانى « حدتو » فقد كان مؤيدا لكل مواقف الحكومة واتجاهاتها ، مبررا لكل اعمالها . كان المفروض على الاقل ان يكون هنالك موقف من القمع فى حد ذاته • الا ان الاتجاه اليمينى بافتقاده هذه النظرة ، افتقد موقف النضال حتى من أجل مجرد الكرامة الانسانية المهدرة . واخطر ما فى الأمر ، بل والمأساة ، هى عملية التنظير لما يجرى من احداث ، حتى انه عندما تمت أول ترحيلة الى الفيوم ، قالوا : هؤلاء وحدهم هم الذين سيعتقلون ، أما الباقون فسيفرج عنهم • الا ان موقف الحزب كان واضحا فى هذا الصدد ، وهو أن ذلك ليس مقدمة لافراج ما ، اذ ليس هنالك دليل على ذلك ، خاصة وأن التصريحات الرسمية كانت تتسم بالعنف الشديد ، وأن الترحيلة يمكن أن تكون مقدمة عملية توزيع للمعتقلين » .

يقول فاروق ثابت ، « كنت الرابع أو الخامس فيمن وصـــلوا الى المعتقل • جاء من بعدى يوسف حلمى فرحبت به بشـــدة .. ثم جـــاء حسن فؤاد ، فهللت به • سألنى فى غضب أن كنت فرحا باعتقالى ، قلت له ، « لقد امسك بنا وانتهى الأمر ، فلماذا الفرح أو الزعل » • كانت المعنويات مرتفعة • وبدأنا منذ أول يوم نعد مسرحية صغيرة ولجنة ثقافية ولجنة للحياة العامة • كانت المسألة فى رأيى ازمة سياسية وعلينـــا تحملهـــا » •

ان الشكل التنظيمى لكل فريق فى المعتقل ، هو أمر خاص بهذا الفريق او ذاك ، وواحد من أسراره ، أما الرأى السياسى فهو معلن ، وهـــو قـــد يجمع البعض وقد يفرق البعض الآخر • الا ان مواجهة ظروف الاعتقـــال ومواجهة طريقة معاملة الادارة للمعتقلين ، والاوضاع المعيشية لهم ، فتحتم ايجاد شكل واحد يضم الجميع ، هو ما يسمى بالحياة العامة • وهى تبدأ محدودة الا انها تتسع لتشمل كل الدخل المـــادى والعينى ليعـــاد توزيعه بالتساوى على الجميع ، بغض النظر عن القدر الذى ساهم به كل معتقل ، أو حتى عدم المساهمة على الاطلاق نتيجة ظروفه الصعبة أو العسيرة •

وكانت فترة القلعة محدودة ، وكثرة من المعتقلين لا يعرفون بعضهم البعض ، الا ان صورة ما من صور الحياة العامة قد مورست على الفور • كان الطعـــام يأتى للجميع عن طريق أحـــد المتعهـــدين • وفى ذات الوقت كانت تاتى بعض المـــأكولات للمعتقلين من أسرهم • بدء بتنظيم توزيع السجائر واعداد الشاى بطريقة سرية •

ويبدأ سحب المعتقلين الى التحقيق • وهنا يكتشف الزملاء الجـــدد على الاعتقال ان الحزب لم يعدهم لمثل هذا الموقف • الا ان الزملاء القدامى والمحامين يلعبون دورا هاما فى تبصيرهم بما يتوجب عليهم فعله •

يقول خير عزيز ، « الأمر الذى اكتشفناه فى القلعة والذى يشكل نقدا للحزب ، هو انه لم يكن هنالك اعداد للزملاء لمواجهة مثل تلك الظروف • اذ بدأنا فى داخل المعتقل نعرف ما الفرق بين الدفاع القانونى والدفـــاع السياسى • كما ان تصرفات بعض الزملاء ، غير الحذرة ، قد أدت الى كشف عناصر كان من الممكن الا تنكشف » •

وقد صاحب التحقيق تشديد على المعتقلين كنوع من الضغط عليهم ومحاولة ارهابهم .

يقول لطفى الخولى ، « بعد فترة من الاعتقال ، ووجهنا بعمليات بشعة فى القلعة . بدأ الحبس الانفرادى فى الزنازين الكهفية ذات الجدران العالية الرطبة القذرة ، حتى انه يخيل اليك انك داخل الى جب لا قرار له . ثم هنالك عمليات التفتيش وحجب المتعلقات ، ثم عمليات التجويع بعدم تقديم الوجبات فى مواعيد منتظمة أو الامتناع عن تقديم بعضها بأية حجة . حدث هذا المدة ما . ثم بدأوا بعد ذلك فى التحقيق مع الجميع .

فى تلك الاثناء كان يتردد ضباط المباحث العامة على المعتقل ويحاولون اخذ معلومات . كما كانوا يلجأون الى التهديد . الا ان موقف غالبية الزملاء كان الصمود ورفض التحدث معهم ، كذا رفض التعاون معهم بشكل مطلق .

ظللت فى زنزانة انفرادية عشرة ايام . ثم جاء معى الدكتور محمد الخفيف .

بدأت النيابة التحقيق فى مبنى المباحث العامة . جاء استدعائى مع الدكتور لويس عوض . وكان تقييدنا بالكلبشات غريبا . فأنا مقيد الى اليد اليمنى لاحد الجنود ، ولويس مقيد الى يده اليسرى ، وهو فى وسطنا مقيد اليدين . وخلفنا جنديان مسلحان للحراسة . ويبدو أن الجندى المقيد بيننا لم يكن قد نام منذ فترة طويلة ، فقد كان النوم يغلبه ونحن فى ردهة الانتظار فى المباحث العامة ، وكانت مشكلتنا ان نوقظه باستمرار حتى لا يعاقب أو يضار .

الذى حقق معى ولويس ، كان رئيس نيابة أمن الدولة او وكيل أول نيابة أمن الدولة ، وهو فى ذلك الوقت احمد موسى وزير العدل والمدعى الاشتراكى حاليا . وكان موضع دهشتنا انه كان رجلا أمينا ومهذبا يقدم لنا السجائر والقهوة ، ويقول ، « انا اعلم انكم لا ترونها فى السجن » . وقد اخذنا هذا السلوك منه فى البداية ، على أنه موقف ثعبانى ، الا انه تبين لنا اثناء التحقيق انه رجل غاية فى الاستقامة . كان مفاجأة غير متوقعة ، خاصة بالنسبة لآخرين مثل نصار . كان أحمد موسى يوجه السؤال اليك ، هل انت عضو فى الحزب الشيوعى ؟ ، ثم ينبهك الى انه من حقك الا ترد على السؤال ، كذا من حقك الرد على السؤال بالايجاب أو النفى . ثم يسألك ما رأيك فى القومية العربية ؟ . ورأيك فى الوحدة مع

سوريا ؟ وينبهك الى أنه من حقك ان تمتنع عن الاجابة ، ثم يستكتبك كلمتين ، وينبهك فى ذات الوقت الى انه من حقك القانونى ان تمتنع عن الاستكتاب • كان رجلا غريبا للغاية بالنسبة لما كنا فيه . وقد دخل ضابط المباحث العامة اثناء التحقيق فقال له (ليس هنا مكانك ، فتفضل الى الخارج) » .

كان البعض يستدعى من معتقل الفيوم الى معتقل القلعة للتحقيق معه . وكان الدكتور عبد الرازق حسن واحدا من هؤلاء • وهنالك فى القلعة التقى بمعتقل آخر ، لم يكن من اليسار بل كان من رجال النظام • ويبدو اعتقاله فى تلك الظروف امرا غريبا وطريفا ايضـــا ، يبين بعض جوانب نهج الاعتقال وكيف كان .

يقول الدكتور عبد الرازق حسن ، « كان هنالك ايضـــا معتقلون لهم وضع خاص • وكان اعتقالهم فى ظروفنا يبدو من الطرائف .

كان قائد المعتقل ، على ما يبدو ، يعرف بعض اقاربى • وقد خلق هذا نوعا من التفاهم بيننا • كنت استطيع مقابلته والحديث معه بحرية • وفى أحد الايام جاء معتقل جديد اسـمه اسماعيل صـادق • اظنه كان وقتها اميرالاى او قائمقام • وضعوه فى حجرة بمفرده • وكانت توجـــد بها ستائر ، ويقدم له طعام خاص . ونشات بينى وبين هذا المعتقـل علاقة ، اذ كنت اتحدث معه لا كرجل سياسة ولكن كرجل علم • وفى أحد الايام استدعانى قائد المعتقل وقال ، « انظر ماذا يفعل صديقك اسماعيل صادق • » قلت ، « خيرا » ، قال « انه مضرب عن الطعام » • سالته ، « لماذا انت مضرب عن الطعام يا أخ اسماعيل ؟ » قال ، « حتى اعرف لماذا انا معتقل » • قلت هذا للقائد فسأله ، « ان عرفت سبب اعتقالك ، تنهى اضرابك ؟ » . قال ، « نعم » . بعد يوم اتصل بالداخلية واخبره بالسبب • فوجئت بقائد المعتقل يستدعيني مرة أخرى ويقول ، « صديقك اسماعيل ، ما زال مضربا رغم انى اخبرته بالسبب » • ذهبت الى اسماعيل وسألته ، لماذا يصر على الاضراب وقد عرف السبب • قـال منفعلا ، « الاجابة التى قدموها غير معقولة ، انهم يقولون انى معتقـل بناء على طلبى . ان قائد المعتقل يقول انه لا يعرف ماذا يقصدون بذلك ، والمفروض اننى الذى اعرف المعنى الذى يقصدونه » . قلت له ، « ما حكاية بناء على طلبك هذه ؟ » قال ، « الحكاية يا سيدى اننى كنت الملحق العسكرى المصرى فى ليبيا • وأنا الذى انشأت مطارا سريا هناك لنقل

القوات من ليبيا الى الجزائر • وانا الذى فجرت اثناء العدوان احد مخازن الاسلحة الانجليزية • وعندما انتهت العملية وحدث تفاهم مع السنوسى اعادونى الى مصر . ووجدت نفسى احصل على راتبى وكل بدلاتى دون ان اقوم بأى عمل فى مصر . فقلت لهم ، ان بقائى بلا عمل هكذا أمر غير معقول ، فعينونى فى وظيفة مدنية فى قناة السويس . فقلت لهم ، ان تلك ليست وظيفتى ، كما اننى لست على استعداد للعمل فى مثل هذا المكان ، وان لم يعجبهم كلامى هذا فليحيلونى الى المعاش • فأصدروا قرارا باحالتى الى المعاش . الا انى تضررت من هذا القرار وكتبت الى عبد الحكيم عامر خطابا قلت فيه ، (ان لم يكن عملى الذى كنت اقوم به يعجبكم ، فاريحونى واعتقلونى) » .

قلت له « اذن فاعتقالك بالفعل كان بناء على طلبك ، أى نكتة عجيبة تلك » .

كان رجلا رجعيا للغاية ، لكنه كان وطنيا للغاية ايضا • كان له فهمه الخاص للوضع السياسى والاجتماعى .

جاءوا فى احد الايام وقالوا له ، افراج . فقال ، « لن اخرج » • حضر القائد لى وقال ، « انظر صاحبك ، يأتيه أمر بالافراج فيرفض الخروج » • سألته ، « لماذا يا أخ اسماعيل لا تود الخروج ؟ » قال ، « انا لا اخرج فى مثل هذا الوقت • نحن الآن فى الليل • ولن اترك هذا المعتقل الا فى وضح النهار ، على ان تحضر سيارة من منزلى لتأخذنى ساعة خروجى . انا اعرف جيداً ماذا سيحدث لى ، لو خرجت اثناء الليل » •

كانت تلك أول مرة ادرك فيها ما يسمى بالعالم الخلفى • لم اكن اتصور ان يأتى الافراج لمحبوس فى النهار أو الليل ولا يسرع بالخروج • فهمت من الاسرار ما لم اكن اعرفه حتى ذلك الوقت » •

وتتصل الحملة فى محاولة محمومة لاستئصال الحزب • وتمتلىء زنازين القلعة لتفرغ محتوياتها على طريق العزب ــ فيوم •

يونيو ــ يوليو ١٩٥٩ •

فتحت القلعة ابوابها لتضم عددا جديدا من الكادر القيادى والعديد من الجدد • الحبس انفرادى وليس هنالك من اذاعة أو جرائد أو كتب •

ويسود المعتقل تضيق فى الفتح والاغلاق . التغذية جيدة ، وصاحب المعتقل أو قائده فخور بسجنه ، يطلق عليه اسم الهيلتون ، ويمر بنفسه على الزنازين يوزع البطيخ .

صرير ابواب الزنازين يبدو كآلاف الشهقات والانات المختزنة . بعض الزنازين يخافها الحراس ويزعمون ان بها عفاريتا تحاول الثأر والانتقام . خلف جدران تلك الزنازين قتل يوم ما أحد المعتقلين وهم يعرفون . جدران الزنازين مليئة بالرسومات والحكايات والاشعار والرسائل والوصايا وأسماء واسماء عشرات ومئات الذين اقتيدوا الى هنا ، ولا أحد يعلم الى أى مصير ذهبوا . لكن التاريخ مكتوب هنا ، مسجل بيد أصحابه ، « وداعا زوجتى » ، « لكم الله ابنائى » ، « الشعب لابد منتصر » ، « عاش كفاح الطبقة العاملة » .

يقول نبيل زكى ، « كنت يوم ٢٠ يونيو على موعد مع الفريد نسيم . اتفقنا ان نلتقى فى شارع احمد سعيد . انا أبدأ من عند شارع العباسية وهو يبدأ عند لقائه بشارع رمسيس بعد ان التقينا احسست اننا مراقبون . قلت له ، اسرع بالهرب ، ربما افلت واحد منا . غير انى ما انتهيت من هذا الكلام حتى وجدت من يمسك بذراعى من الخلف وكذا امسك به . كانت هنالك سيارة على الناصية بابهـا مفتوح ، وموتورها يعمل والسائق جالس الى عجلة القيادة ، كان الوقت غروب وما زال المارة فى الشارع . قاومنا ، حاولنا انتزاع اذرعنا من ايديهم . فى نفس تلك اللحظة احسست بفوهة مسدس فى جنبى . لم اهتم . كنت ادرك انه من الصعب اطلاق النار والمارة فى الطريق . وللحال ظهر رجال اضافيون من المباحث وحملونا حملا الى السيارة . بعد دقائق كنا فى مكتب عشوب . ادخلونا اليه فورا . كان معى ورقة بها بعض المواعيد وللحال اخرجتها وبلعتها دون ان يرانى أحد . قال عشوب ، « فتشوه » . اخرجوا من جيبى مجموعة من المفاتيح . قال ، « ما هذه المفاتيح » . قلت ، « مفاتيح حجرتى بالمدرسة وكذا المكتبة ، فأنا مدرس » . قال ، « انتم ، ماذا تريدون بالضبط ؟ » قلت له ، « انت تعلم ، نحن وطنيون » . قال ، « ونحن ايضا » . قلت ، « تلك مسألة خلافية » . استفز واحتد قائلا ، « خذوه » . اخذونى الى القلعة . وفى اعتقادى ان سبب وقوعنا يرجع الى أن الفريد نسيم كان يلتقى بخطيبته ، فراقبوه من خلال مراقبتها ، وهكذا امسك بنا » .

ويقول نبيل صبحى : « قبض على فى ٢٩ يوليو . الا ان المباحث العامة كانت قد هاجمت منزلى فى حملة أول يناير . توجهت قوة منها على راسها ضابط من تلامذة حسن المصيلحى معروف بشراسته ، هو الضابط البهى . اقتحموا المنزل وعندما لم يجدونى بداخله قلبوه راسا على عقب ، واستولوا على جميع صورى التى وقعت فى ايديهم . لم يجدوا أى شئ مخالف للقانون فاستولوا على مكتبتى بالكامل .

المفاجأة وبشاعة الاساليب الوحشية والخوف على الابن المطارد ، كل ذلك أدى الى اصابة والدى بازمة قلبية . شقيقى طبيب موجود بالحجرة المجاورة لحجرة ابى ، الا ان الضابط المهاجم (المغوار) رفض ان ينتقل اخى الى حجرة أبى لانقاذه ما لم يدله أهل البيت الى مكانى . كان يقول لهم ، « سوف اتركه هكذا حتى يموت امامكم » .

شقيقى الاصغر كان حينذاك مصابا بحمى روماتيزمية ، ممنوع من الحركة . الا ان الضابط المهاجم (الشجاع) انقض عليه ، شده بعنف من على سريره ، واجبره على الوقوف ، للضغط على الاسرة والتنكيل بها .

غير ان احدا من اسرتى لم يكن يعرف بالفعل مكانى . وامام اتضاح هذه الحقيقة مع بعض الصلابة من والدتى والملاينة من شقيقى الطبيب ، وافقوا على ان ينتقل الاخ الى حجرة والدى لانقاذه . الا انهم ظلوا يحتلون المنزل ومداخل العمارة وما خلفها حتى ظهر الأول من يناير .

وعند رحيلهم ، لم يفتهم أن يصيبوا أهل المنزل بالذعر والهلع ، فاوعز الضابط الى احد المخبرين أن ينزل أولا ، ويصرخ على السلم ، « ها هو قد وصل » . واندفع الضابط والمخبرون الآخرين خارج الشقة وفى أثرهم اندفع أبى المريض وامى المسنة واخوتى حفاة يهرولون على السلالم حتى الشارع ، علهم يلقون نظرة اخيرة على الابن قبل هذا المصير المجهول . لكنهم رأوا الحملة تركب السيارات وتغادر دون ان يكون هو فى ايديهم . وكان فى هذا عزاء لهم عن كل ما كابدوه .

فى ٢٩ يوليو ١٩٥٩ قبض على . كان الأمر شبه مصادفة . كنت متوجها الى منزل احد الزملاء ، عندما اقتربت منه فى ساعة متأخرة من الليل . وكان امام المنزل حديقة رايت فيها عددا من الرجال والشبان غريبى الاشكال فى مثل هذا الوقت المتأخر على ارتياد حدائق عامة . شككت فى الأمر فتخطيت البيت . الا انه اثناء عبورى امامه ، كان رجال المباحث العامة المهاجمين يغادرونه فلمحنى أحد الضباط فنادى واحد منهم

« اسرع يا صادق ، هذا نبيل صبحى بديع » . عندما سمعت ذلك انطلقت جريا . الا ان الشارع لسوء الحظ كان ممتدا بلا شوارع جانبية لمسافة طويلة ، فأمسكوا بى . حاولت المقاومة فتمزقت ملابسى . امسكونى بطريقة المصارعة الحرة ، يدى خلف ظهرى مع خنق الرقبة . جاء الضابط واخذ فى لطمى ، وهو يصرخ ، « اتجرى يا جبان » . زعقت فيه « لست جبانا » . اوقف الضرب بعد زعيقى ، ودفعوا بى الى سيارة وهو ينبه على من بها ، ان يأخذوا حذرهم منى فأنا كالخط هارب منذ خمس سنوات . كتفونى داخل السيارة . كان الضابط الذى اعتدى على يدعى المنياوى . يبدو أنه اخبر عشوب ، الذى غادر المنزل محل الهجوم متأخرا ، بما جرى ، فجاء عشوب يلوح بمسدسه فى وجهى وهو يقول ، « حذار ان تفعلها ثانية » . ثم ركب الى جوار السائق . قال ، « اتعرف اين انور الآن ؟ » ، قلت ، « ومن أنور هذا ؟ » قال ، « فخرى لبيب » . قلت ، « اعرفه جيدا ، فهو ابن عمى » . قال ، « من الاسرة اذن . اتعرف اين هو الآن ؟ » قلت له ، « البركة فيك » . قال ، « انت هارب منذ خمس سنوات . وها نحن قد امسكناك » . قلت له ، « انت تعرف ان الشيوعية ليست مسألة أفراد ، فلا الامساك بى أو بفخرى او بغيرنا سوف يوقفها . » قال ، « سوف ترى » . سارت السيارة حتى وصلت نهاية شارع دمشق فى مصر الجديدة . توقفت امام عمارة امامها احد المخبرين . استدعوا البواب . نظر فى وجهى ثم قال ، « لا يا بيه ، ليس هو » . قال لى عشوب ، « حسنا . اركب » . قلت ، « اود أن اقضى حاجة واشرب ماء ، واشترى سجائر » . سمح لى بالتبول وهو يلوح بمسدسه ويقول « حذار » . كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل .

التحقيق معى كان قصيرا جدا . كان امام صلاح نصار . قال لى ، « انت متهم بانك عضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى ، تتسمى باسم بديع ، مسئول عن قطاع الصعيد ، ومحرر فى جريدة (اتحاد الشعب) السرية المحظورة » . قلت ، « من الذى قال ذلك ، ما الدليل ؟ » قال ، « حسنا ، ما رأيك فى تحريات المباحث العامة التى تقول كذا وكذا ؟ » قلت ، « المباحث العامة لم تكن صادقة فى أى يوم من الايام . عليها ان تثبت ما تدعى وتواجهنى بالادلة . وليس ادل على اجرامها من القبض على فى الشارع . كانت عملية اختطاف ، واعتدوا على ومزقوا ملابسى » . قال ، « دعنا من المباحث العامة . ما هى آراؤك ؟ هل تعمل بالسياسة ؟ . هل لك عقيدة سياسية ؟ » . قلت : « بالطبع » . قال ، « ماذا ؟ » قلت ، « انا ماركسى » . قال ، « ما رأيك فى الماركسية ؟ » . قلت ، « انها ارقى ما وصل اليه الفكر البشرى فيما

يتعلق بقوانين الحركة والتطور وتفسيرها من الناحية الطبيعية ، وقيادتها فى اتجاه هذه الحركة من الناحية الاجتماعية » . قال ، « حسنا . هذه المبادىء التى هى أرقى ما وصل اليه الفكر البشرى (قال ذلك وهو يحرك ذراعيه الى أعلى » ، ألم تستدعى منك ان تكلم الناس فيها وتقوم بشرحها لهم ؟ » قلت ، « مروج يعنى ؟ » . قال ، « نعم » . قلت ، « عليك ان تثبت ذلك . المفروض الا تسالنى هكذا ، لأنى لن اقول لك شيئا . عليك بمواجهتى بالادلة » . قال ، « حسنا ، هل روجت أم لم تروج ؟ » قلت ، « ممتنع عن الرد » . قال ، « عضو فى الحزب أم لا ؟» ، قلت ، « ممتنع عن الرد » . قال ، « هل لديك أقوال أخرى ؟ » قلت ، « بصفتك نيابة وهيئة قضائية ، فانا ابلغك ان محمد محمود عثمان المناضل المصرى ، قد اغتيل بمعرفة مباحث طنطا واخفيت جثته . وانا اطلب منك التحقيق فى هذه الواقعة ، وأن المناضلين الديمقراطيين الوطنيين المصريين والنقابيين وانصار السلام والشيوعيين تساء معاملتهم ، مخالفة للدستور ، فى معتقلات وسجون مصر . وانا احملك مسئولية التحقيق فى التعذيب واساءة المعاملة . قال ، « خذ ورقة واكتب ما تشاء » ، قلت ، « كلا ، فانا اجيب على سؤال فى التحقيق تقول فيه ان كانت لدى أقوال أخرى ، وبهذا يلزم أن تكتب اجابتى فى محضر التحقيق . لكن ان تحاول استكتابى بحجة اجابتى على سؤال أنت الذى وجهته الى ، فان هذا أمر مرفوض » . قال ، « حسنا ، هل ستكتب ام لا ؟ » قلت ، « لا » . قال ، « وانا لن اسجل لك ما قلت » . قلت ، « وأنا لن أوقع على المحضر . قال ، « حسنا ، مع السلامة » . ثم سأل أحد الضباط ، ان كانوا قد فتشوا منزلى . فاجابه بانهم قد فتشوا العنوان الموجود فى البطاقة الشخصية ولم يجدوا شيئا . سألنى ، « هل هذا هو منزلك ؟ » قلت له ، « نعم » . قال ، « وتقيم فيه منذ ينساير ١٩٥٩ ؟ » قلت ، « نعم » . فاصدر أمره باعادة التفتيش . وكان هذا المنزل ، منزل بعض اقاربى . وكان هذا التفتيش مفيدا . اذ ان الضابط الذى نفذ الأمر أخذنى الى المنزل وسار بى مسافة فى الشارع وأنا مقيد اليدين ، فرآنى الكثيرون ممن يعرفوننى وأصبح من الضرورى وصول الخبر الى اهلى . لم يسفر التفتيش عن شىء ، وعدت الى معتقل القلعة » .

« قبض على يوم ١٩٥٩/٧/١١ . (١) كنت هاربا على مدى عامين تقريبا . وكان ذلك يعطينى شعورا بالافلات من الامساك بى ، حيث انى كنت اجيد التنكر الى حد أنى عندما التقيت صدفة فى الطريق ببعض اقرب الاقرباء ولم يتعرفوا على ، فعبرتهم دون ان احييهم . وجاءتنا معلومات

---

(١) فخرى لبيب .

ان اجهزة الأمن قد بدأت تركز على حى مصر الجديدة ، وأن قوة اضافية من رجالها تقدر بثلثمائة مخبر قد ارسلت الى تلك المنطقة مزودة بالصور والبيانات الخاصة بنا . فاصدر الحزب تعليماته بعدم المرور فى الميادين والشوارع الرئيسية حيث كان يمكن بوضوح تبين المخبرين وقد وقف واحد منهم على كل محطة من محطات المترو أو الاتوبيس . كما صدر قرار حزبى آخر بضرورة ترك هذه المنطقة .

فى هذا اليوم كان على ان التقى بالزميلة وداد مترى لانهاء بعض الترتيبات التنظيمية اللازمة . حيث كان على ان اغادر القاهرة كلها . الا انى اخطأت اثناء سيرنا فاقتربت من ميدان روكسى ، وهنا على ناصية تقاطع الميدان بالشارع الرئيسى انقض البعض علينا . وبطريقة محمومة حاولوا دفعنا قسرا داخل سيارات كانت تقف عند تلك الناصية . قاومت فتكاثر الناس واشتبكوا مع رجال الأمن ، متصورين ان تلك عملية اختطاف . قال رجال المباحث انهم يقبضون على لأنى كنت اضايق الآنسة . وكانت الزميلة تصيح ان شيئا من ذلك لم يحدث . دفعونا داخل السيارات وانطلقت مجنونة الى المباحث العامة . كنت قد ادركت منذ أول لحظة انى قد وقعت . حاولت تنبيه الزميلة الى انكارها لمعرفتى . سألت الضابط ، « الى أين ؟ » . قال ، « انت تعـرف » . قلت ، « لا اعـرف . انتم تزعمون أنى كنت اضايق الآنسة ، فى حين انها تنكر ذلك . كما انى لا أعرفها البتة » . ادرك الضابط ما قصدته فلم يسترسل معى فى الكلام . لكن فى نفس الوقت ، كنت قد ابلغتها ما اردت .

فى احد ممرات المباحث العامة سألنى احدهم ، « ما اسـمك ؟ » قلت ، « الا تعرفون من انا ؟ اذن كيف تقبضون على ؟ » . خرج عشوب من حجرته وقال ، « تعالى هنا يا فخـرى » قلت ، « اذن لماذا هـذه الحركات ؟ » قال ، « اجراءات » . دخلت حجرته . قال . « هـل معك شىء ؟ » قلت ، « لا شىء » . اشار الى جيوبى فافرغتها . قال ، « اين تسكن ؟ » . قلت فى اصرار « ليس لى مكان سكنى » . نظر الى مليا ثم قال . « حسنا » . استدعى احد الضباط وقال ، « خذه » .

فى السيارة سألت الضابط ، « الى اين ؟ » قال ، « لا ادرى » . الا اننى عرفت اننا سائرون الى القلعة عندما تبينت الطريق الذى نسلكه . وهنالك فى القلعة التقيت بعدد من الزملاء كنا نعتقد اننا قد فقدنا الاتصال بهم ، فاذا هم قد سقطوا فى قبضة الحملة . استدعيت للتحقيق . بعد الديباجة المعروفة عن الاسم والسكن والوظيفة ، سألنى وكيل النيابة ، « هل لك افكار سياسية ؟ » قلت ، « بالتأكيد » . ارتاح فى جلسته ، سأل « ما هى ؟ » قلت وانا ابدى الدهشة ، « هذا أمر لا يخصك » .

اعتدل فى جلسته . عاوده التجهم . قال ، « كيف ؟ » . قلت « أولا لايحق لك بحكم الدستور ، أى دستور ، أن تسألنى عن رأيى ، فهذا أمر خاص بى وحدى ولا تستطيع قوة على الارض ان تحيننى لأن لى رأيا . ثانيا ، أن هذا المكان ، وسيادتك ايضا ، ليسا من وسائل التعرف على آراء المواطنين ، والا فاننا امام حدث جديد عن ديمقراطية الدولة واهتمامها باراء رعاياها ، فتأمر بالقبض عليهم للتعرف بنفسها على أرائهم واحدا واحدا . ان وسائل ابداء الرأى معروفة ، مقالة فى جريدة وهذا يقتضى حرية الصحافة . دراسة فى كتيب أو كتاب وهذا يقتضى حرية النشر . كلمة فى اجتماع عام أو ندوة عامة وهذا يقتضى حرية الاجتماع . مطالب من نقابة وهذا يقتضى حرية العمل النقابى . التصويت على برنامج انتخابى ، وهذا يقتضى حرية الانتخابات وعدم تزويرها . تلك هى وسائل ابداء الرأى بشكل عام ، وأنت لست واحدا منها » . قال بطريقة رسمية ، « لقد قبض عليك من قبل فى قضية ، وسجنت ثلاثة سنوات مع الاشغال الشاقة ، فماذا كانت التهمة ؟ » قلت ، « طالما تعرف القضية والحكم ، فلابد انك تعرف التهمة » . هز راسه وقال ، « الشيوعية ؟ » . قلت ، « حسنا ، وماذا بعد ؟ » . قال ، « اذن فانت شيوعى ؟ » . قلت ، « عبثا تحاول اللف والدوران للوصول الى اجابة عن سؤالك الأول » . بدا عليه الضيق . قال ، « لكن تلك هى وظيفتى » . قلت ، « وظيفتك ان تنبش ضمائر الناس لتزج بهم الى غياهب السجون !! » . احتد قائلا ، « تلك مهمتى » . قلت ، « وانا مهمتى الا امكنك من رقبتى » . رفع حاجبيه الى أعلى . عاد الى سمته الرسمى . قال ، « هل لديك أقوال أخرى ؟ » . كان ذلك ايذانا بانتهاء التحقيق . قلت ، « هل لسيادتك اتهام ضدى ؟ » . هز رأسه نفيا . قلت ، « اذن اصدر أمرك بالافراج عنى » . ضحك ضحكة كالقهقهة . قال ، « انا افرج عنك ! انت الآن على ذمة المباحث العامة » . قلت وانا اتصنع الدهشة ، « اذن لماذا كان كل هذا الجهد الذى بذلته ؟ » . نظر الى كاتب التحقيق . أمره ان ينهيه عند هذا الحد . طلب منى التوقيع . وقعت . تأوه وقال ، « قلت لك ، تلك وظيفتى » . قلت وانا أبدى الرثاء حقا لحاله ، « وظيفتك أن ترسلنى الى المعتقل بايدى المباحث العامة ، ولا ترسلنى الى الخارج ، ان كنت بريئا » . قال ، « ليس الأمر بيدى . وعموما صاحبتك السلامة » .

كانت غالبية الزملاء ممن يدخلون المعتقل أول مرة . وبدأت تلك الغالبية تثير نقاشا حادا حول ضرورة دخول معركة مع ادارة السجن حول ما فيه من أوضاع مقيدة .

كان الحزب يصدر نشرة عما يجرى فى السجون والمعتقلات ، وبالتالى كنت عارفا بشكل ما بالاوضاع فى كل سجن ومعتقل . وكنت اعرف ايضا ان سجن القلعة هو افضلها نسبيا . انه سجن انتقالى ، ما أن يجمع فيه من محصول الاعتقال قدر كاف ، حتى يرحل المعتقلون الى معتقل العزب بـ فيوم . قلت لهم كل ذلك · كما قلت ايضا أن من الافضل لهم ـ واغلبهم كان هاربا مطاردا ـ أن يستجموا هنا فترة وجودهم بالقلعة ، لأننا سندخل الجحيم بعد ذلك · كانت القلعة هى بوابة هذا الجحيم ، وعليهم ان يتريثوا عندها ، لا يرهقون انفسهم اكثر مما يجب حتى يدخروا طاقات هائلة مطلوبة ونحن نجتاز تلك التجربة · الا ان حماس الرفاق وقلة خبرتهم بمثل ما نحن فيه جرفتهم ، واصروا على أن اقابل القائد باسمهم ، وأن احتج على سوء المعاملة والمطالبة بتحسينها ·

توجهت الى قائد المعتقل ، واعلنته باحتجاجنا على الطريقة التى نعامل بها ، واننا نطالب بالجرائد والمجلات والاذاعة وفتح الزنازين علينا . واشتد الجدل بيننا ، فأمر بحبسى فى زنزانة انفرادية مدة ثمان واربعين ساعة تأديبا ، أى لا يقدم لى خلالها غير الخبز والماء والملح · كما لا يفتح باب الزنزانة لغير دورة المياه ·

عندما بلغ النبأ الزملاء اعلنوا الامتناع عن استلام الطعام ، مضيفين الى مطلبهم مطلب اخراجى من التأديب . وعندما علمت بنبأ امتناعهم اتخذت نفس الموقف ، واعلنت الادارة به . واشتد التوتر داخل السجن . كنا حوالى اربعين معتقلا . وكان بهم عدد لا علاقة له بالسياسة ، ولا أحد يعرفهم ، ولا هم يعرفون لماذا جىء بهم الى هذا المكان · ورغم ذلك شاركوا فى الامتناع واتخذوا نفس الموقف ·

حاول قائد المعتقل اثناء المعتقلين ، لكنه فشل · وتوقفت مهمته المحببة فى توزيع البطيخ على الزنازين · وفى اليوم الثانى فتحوا الزنازين ووعدوا بالجرائد بعد ترتيب الامانات باعتبارنا دفعة جديدة . كان هنالك جو عام من الاستجابة للمطالب . لكن لم تمض اربع وعشرين ساعة حتى رحلنا الى الفيوم ·

ان المباحث العامة عندما علمت بالامتناع ، سعت الى فضه على طريقتها الخاصة ، فعجلت بترحيل المعتقلين الى العزب · صدرت التعليمات من الادارة بأن يعد كل معتقل حاجياته ، وكان أكثرهم بلا حاجيات ، اختطف من الطريق أو منزله دون ان يمكن من أخذ أى رداء · الآن فتحت البوابة الى الجحيم ·

اتخذنا قرارا حاسما بان كل من يعتدى عليه ـ عند الاستقبال ـ فى عزب الفيوم ، عليه ان يرد الاهانة مباشرة لمن اعتدى عليه سواء كان ضابطا أم جنديا . وكل من لا يرد الاهانة سوف يتعرض للعقاب الحزبى . ابلغ القرار الى الجميع فاستقبلوه بحماس فائق . كنت أرى أن هذا القرار لابد سوف يؤدى الى الصدام مع ادارة المعتقل ، وكنت مقتنعا بضرورة هذا الصدام . فمعتقل الفيوم معتقل دائم ، ولا يجب القبول باوضاعه وجعلها صيغة طبيعية للتعامل بيننا وبين ادارة المعتقل أو من يديرونه من ورائها ، متخذين منها ساترا ومخلبا » .

سبتمبر ١٩٥٩

وتستمر الحملة . ويستمر الايراد الوارد على معتقل القلعة . وتتشدد الادارة فى اجراءاتها . فالغالبية ممن يقبض عليهم الآن تعدهم الدولة متهمين فى قضايا . انها وقد تجاوزت مرحلة التجميع السريع ، تعد لمن تبقى على ارض المعركة والاستمرار ، عمرا مديدا خلف قضبان السجون . وتتحول فترة البقاء فى القلعة ، من فترة تجميع قدر كاف من محصول المعتقلين ، الى فترة تجميع اطراف قضية مفتعلة ، وتحقيقات ملفقة . ويصبح النزلاء متهمين تحت التحقيق .

يقول اكرام محارب ، « اخذت بمفردى فى سيارة جيب برفقة ضابط من حجز قسم قصر النيل الى معتقل القلعة . كان الوقت ـ كما قدرت من حالة شوارع القاهرة ـ بعد العاشرة مساء . دخلنا من بوابة حجرية الى حجرة صغيرة حيث سلمنى الضابط الى آخر . ثم صحبنى جندى الى زنزانة ترتفع درجة واحدة عن مستوى الأرض . كانت الزنزانة خالية تماما الا من سرير مكون من حمالتين (حمارين) من الحديد عليهما عدد من الالواح الخشبية الطولية تعلوها مرتبة .

كان لزنازين معتقل القلعة نسب علبة الكبريت . انها ضيقة حوالى ٥ر٢ × ٥ر٢ مترا والسقف مرتفع للغاية بالنسبة لهذه المساحة . عند مركز مربع السقف فتحتان مستطيلتان متجاورتان تعلوهما تعريشة خشبية . كانت هذه الفتحات هى الفتحات الوحيدة فى الزنزانة ، فيما عدا النضارة وفتحة ضيقة فى أحد اركان الحجرة ، مخصصة لادخال طعام السجين ـ والذى يسمى بالتعيين ـ بدون الحاجة الى فتح باب الزنزانة الذى يفتح على طرقة عريضة جدا ومبلطة ببلاطات حجرية .

على احد الجانبين الطوليين لهذه الطرقة يقع صف الزنازين ، التى اقيم فى واحدة منها ، يقابله الجانب الطولى لعنبرين يقع احدهما فوق الآخر • ويغطس العنبر السفلى تحت الارض بحيث يصبح مستوى أرض الطرقة فى مستوى شبابيك هذا العنبر السفلى • وكانت هذه الزنازين المواجهة لصفنا خالية ايام وجودى فى القلعة • تلتف هذه الطرقة قليلا عند احد الجانبين لتؤدى الى الادارة ودورات المياه . ولا اذكر شيئا عن الضلع الرابع والاخير • ولا اذكر اننا قد تجاوزنا - اثناء تجولنا فى اوقات الفتح - المساحة الواقعة امام الزنازين •

فى الايام الأولى لوجودى بالقلعة ، كان الحبس انفراديا طوال اليوم ، والخروج صباحا انفراديا وبالتعاقب الى دورة المياه بصحبة احد الجنود . وكان كل منا يشغل زنزانة تفصله عن الزنازين المجاورة المشغولة ، زنزانة خالية على كل جانب ، حتى لا يمكن تبادل الرسائل بالتخبيط على الحوائط الفاصلة بين كل زنزانتين .

حركة الحراس فوق السقف وفرقعة اسلحتهم وصيحاتهم (واحد تمام) ، (اثنين تمام) ، هى ازعاج متصل طوال الليل • كما قيل أن ثعابين قد اسقطت على النزلاء من فتحات السقوف .

قرب انتصاف الليل ، كنت اسمع احيانا ومن بعد كبير صوت (ثومة) من اجهزة راديو المقاهي الساهرة وصرير عجلات الترام عند المنحنيات .

كنت اتسلى اثناء قفل الابواب بملاعبة نفسى الشطرنج على رقعة وهمية ، واحيانا مرسومة على ارضية الزانزنة • وأحيانا ، عندما خففوا قبضتهم علينا - بعد التحقيق معنا - كنت الاعب جارى السيجة ، على المثلث المشترك بين الركنين المتقابلين بين زنازيننا • ولم يكن يستطيع الواحد منا رؤية أكثر من زاوية بسيطة من وجه الآخر . وفى طوابير المساء كنا نتبادل الاستماع الى قصص القبض علينا ، ونستمتع باشعار مهران السيد الذى كان يقول فى احداها :

اين المهرب

يا عقرب

يا لصا أجرب •

امتدت فترة التضيق علينا حوالى ستة عشر يوما . لم نتلقى خلالها أى طرود ملابس • كنا لا نزال نرتدى نفس الملابس التى خرجنا

بها من بيوتنا . لم يحصل احد منا على حمام أو حلاقة ذقن . الطعام جيد والمعاملة رسمية . كنت اكنس أرض الزنزانة بقطعة كهنة لا اتذكر كيف حصلت عليها . وكان الطريق الوحيد لطلب شيء من الادارة هو النداء على الشاويش بالتخبيط على باب الزنزانة .

أخذ التحقيق معى فى النيابة صورة روتينية . صحبنى شرطى وضابط من القلعة الى مبنى المباحث العامة ، وحضر التحقيق الرائد الذى قام بالقبض على . استكتبونى فى النيابة وانزلت للتصوير فى حجرة بالدور الأرضى مجهزة تجهيزا خرافيا . ثم اعدت الى القلعة . كان معى سامى عجيب وصابر زايد ووليم زكى قلدس ، ومصطفى عبد العزيز وصبرى عبد العال ، ونبيه زكى قلدس ومهران السيد وسليمان سيداروس وآخرين . كان سامى عجيب قد اغتدى عليه بالضرب الشديد ، والطريف فى الامر ان الشرطى الذى صحبنى الى التحقيق كان يرتعد خوفا ويتصبب عرقا وهو يهمهم ، « دول بيضربوكم » . كان وجه نبيه زكى يحمل حروقا بسبب تعذيبه فى المباحث العامة وتعريضه للحرارة الشديدة للكشافات الكهربائية . ولم اكن اعرف أحدا من هؤلاء الزملاء أو التقيت به خارج المعتقل .

وفى أحد الليالى شعرنا بحركة غير عادية . اصوات فتح وقفل . لوريات تتحرك فى الخارج . سحبوا ملاءات الاسرة والوسائد من الزنازين . تمموا علينا خارج الابواب . قيدونا فى الحجلات ، ثم رحلونا الى عزب – الفيوم »(١) .

وربما كانت تلك الدفعة هى آخر دفعة تذهب الى معتقل العزب . كان هذا الجحيم قد تفجر وتمزق امام هجمات المعتقلين ونضالاتهم . وبدأت المرحلة الثانية ، عندما فتح أوردى ابو زعبل شدقيه وكشر عن انيابه .

---

(١) لقاء شخصى معه فى ١٩٨٠/١٠/٧ .

الفصل الرابع

السجن الحربى

عبد القادر ياسين

فوزى عطية

الحملة المسعورة ضد الشيوعية ، لابد وان تثبت وجودها ايضا فى صفوف الجيش . ان كل الذين يعادون الديمقراطية وابسط الحريات للشعب ، قد تجمعوا خلف هذه اللافتة . ان كل الذين اعتادوا سير الأمور طبقا لقاعدة الأمر والنهى والطاعة الصماء ، يرون فى هؤلاء الذين يحافظون على ذواتهم وكياناتهم المستقلة ، ولهم ارادة وفكر ، كائنات شاذة وغريبة ، تشكل خطرا حقيقيا على الذين اعتادوا السمع والتنفيذ . ان هؤلاء الذين يؤمنون انهم بالجيش وحده قد اطاحوا بالملك والنظام القديم ، قد عدوا يخافون الجيش ، حيث يمكن لآخرين بنفس طريقتهم ان يطيحوا بهم وبنظامهم . ان خوفهم على ضياع ما آلوا اليه ، وخشيتهم مما يمكن ان يصيروا اليه يحكم حركتهم ، جعلهم يرون فى كل اختلاف او معارضة نزاعا مباشرا على السلطة ، ومن هنا تكون حركتهم حركة باطشة وسريعة . انهم عندما يجرون تحقيقا ، لا يستهدفون من ورائه وصولا الى الحقيقة ، لكنهم يسعون الى أن تكون الفريسة التى سقطت فى أيديهم عظة وعبرة لفرائس أخرى لا يعرفون مكانها ، الا أنهم يستشعرون خطرها . انهم لا يودون معرفة رأى هذا أو ذاك من اسراهم ، انهم يودون معلومات واعترافات تغطى قصور تحرياتهم وضعف قدراتهم . انهم يودون ممن وقعوا فى أيديهم ان يستكملوا قصورهم ، بالزور والبهتان ، والاقرار بأمور لم يفعلوها ، والاعتراف على اسماء لم يعرفوها ، اثباتا ليقظة الأجهزة وقدرتها وفاعليتها فى حماية النظام . انهم يودون ان يداروا خوفهم يجعل الخوف منهم هو القاعدة العامة . وما ابشع الخائف المسلح بكل رذائل التعذيب ، عندما يواجه غير الخائف المتحدى الأعزل فى كل سلاح الا سلاح الايمان بما اعتقد .

ولهولاء السادة أركانهم التى اعدت جيدا ، خصيصا لمثل تلك المناسبات غير السعيدة .

يقول فوزى عطية « التحقت بالجيش فى أواخر أكتوبر ١٩٥٨ ارسلته فى أول الأمر الى مركز نتدرب فيه على أساسيات المشاة . كنا مؤهلات ، وكنا نعامل معاملة سيئة للغاية ; قمت بعمل مجلة حائط ليس بها ما يمكن ان يلام المرء عليه من الناحية القانونية . انها تحمل جوا ثقافيا عاما فى جو الظلمة والقتامة التى كنا نعيشها . كان لابد من رفع معنويات زملائى المجندين والمحافظة على وجودنا الانسانى فى تلك الكآبة السائدة .

انتقلنا بعد ذلك الى مركز تدريب الأخصائيين فى الهايكستيب . واستمر اصدارى للمجلة . هناك تعرفت ببعض الزملاء فى خلالها .

لا يمكن القول أننا كنا نشكل تياراً سياسيا ، لكن ما كنت أقوم به كان يشكل عاملا مساعدا للناس حتى يستطيعوا تحمل أوضاعهم ومواجهتها • ان يكون لديهم أمل مهما كانت صعوبة الظروف ، وضرورة ان يحافظ كل امرىء منا على كيانه ووجوده • كانت مجلة ديمقراطية ثقافية ، حيث كان معظم الذين يعملون معنا يحملون مؤهلات ، لكنهم بلا ثقافة . كان العمل السياسى عن بعد ، فى خلفية العمل الثقافى • كنا نعمل حوارا مع احد الضباط مثلا ، فنسأله ، لماذا تعاملوننا هكذا ونحن زملائكم ؟ أن الأمر يبدو وكانكم طبقة ، ونحن طبقة ، لماذا هذه المعاملة العدائيـة ؟ »(١) •

القبض والترحيل :

ويكمل فوزى عطية ، « عدت الى معسكر الهاكستيب من اجازة نسم النسيم . وصلت المعسكر فى العاشرة مساء • ابلغونى ان هنالك من يطلبنى ، وأنه يمكن لى ان انتظر حتى الصباح لتنفيذ هذا الاستدعاء •

رحلونى فى الصباح الى المخابرات الحربية . كان ذهابى الى هنالك عاديا ، فى حراسة اثنين من زملائى ، لم اكن اعرف سبب الاستدعاء . وكان حارسى متأثرين للغاية ، يتساءلان ، ماذا فى الأمر ؟ عندما وصلنا جلست على أحد المقاعد فى مكان الانتظار . جاء أحدهم ، طلب من حارسى الانصراف بعد ان سبهما لانهما سمحا لى بالجلوس • ثم توجه الى بالكلام ، « قم ، قف يا ولد يا ابن الكلب » • كان ذلك اول مؤشر للطريق الذى سأقتاد اليه . ثم بدأت الاوامر ، « إجرى ، اجرى ، يا ابن ••• سريعا مارش » . وانهالت على الصفعات والركلات • ادخلونى الى ضابط لا اذكر اسمه ، كان مجدور الوجه أحمره ، أصفر الشعر اكرته . وقفت امامه وقفة انتباه ، ثم بدأ معى تحقيقا مسجلا • « اسمك ؟ ، سنك ؟ ، هل تعرف ضابطا يدعى محمد حلمى ؟ » قلت ، « لا أعرفه » • قال ، « تدعى الغفلة يا ابن الكلب • انت تعرف ماذا سيحل بك ، سوف نرسلك الى السجن الحربى . حيث تهرسك الكلاب ، وينتهكك الحراس » . قلت ، « لا أعرفه » . قال مرة أخرى ، « محمد حلمى الجنجيهى » • عرفت الاسم . كان أخ صديق لى • كان ناصريا متعصبا ، ضابطا فى سلاح المدرعات ، ويهددنا على الدوام بانهم سوف يسحقوننا بالدبابات .

---

(١) لقاء شخصى معه فى ١٥ ، ١٩٨٠/٨/٢٢ •

قلت ، « آعرفه » · سالنى « لماذا انكرت ؟ » · قلت ، « انى اعرفه باسم حلمى الجنجيهى » . قال ، « هل هو شيوعى ؟ » · قلت « لا ، غير شيوعى » · قال ، « كيف عرفت ذلك ؟ » قلت ، « انا مثقف واستطيع ان افهم اتجاه من يتحدث معى · هذا الرجل لا يتحدث طوال عمره الا عن النسيدات وعظمة شواربه ، والدبابير التى يعلقها على كتفيه · لم يتكلم فى حياته عن شىء غير ذلك » . قال ، « انت تخفى عنى الحقيقة يا ابن الكلب » · قلت ، « ولماذا اخفى اى شىء . هل اقول انه شيوعى حتى اكون صادقا ؟ انه غير شيوعى ، غير شيوعى » · قال ، « وقع على المحضر » . فوقعت على محضر التحقيق .

ويمكن القول أن هذا الضابط ، رغم ما نالنى من سبابه ، ورغم بعض الركلات واللطمات التى (تكرموا) بها على اثناء التحقيق وبعده ، هو الوحيد الذى اجرى معى تحقيقا اصوليا ·

مكثت فى المخابرات الحربية بضع ساعات فقط · ثم تم ترحيلى الى السجن الحربى فى نفس اليوم ٥ مايو ١٩٥٩ » .

السجن الحربى :

هو مبنى ضخم اصم تبجو منه طاقات كالثقوب . يقف متوحدا فى منطقة صحراوية ، تشعر الداخل اليها ، انه قد عزل عن العالم أجمع . ثم تزداد العزلة ، عندما يفتح باب السجن ويغلق على من ولجه ، ثم تتعمق العزلة عندما يدخل « الزائر » ، رغم انفه ، الى مبنى معزول داخل جدران السجن ، ثم الى زنزانة انفرادية داخل هذا المبنى المعزول · ان محاولة اجتثاث الانسان عن كل ما له به علاقة ، من مكان او زمان ، تتجسد فى هذا الكيان البشع المخيف .

ان الامر لا يقتصر على الدخول المتتابع الى عزل متصل حتى يصبح الأسير مجرد رقم تلاشى كل كيانه عبر كل تلك العتبات المتلاحقة · ان الاسير يوضع منذ اللحظة الأولى ، امام عالم ، أعطى لنفسه سلطات سماوية . هنا فريق من زبانية ، اقامت لنفسها جحيما خاصا ، هى التى تحاسب وهى التى تعاقب · هنا أعد كل شىء بحيث يحس المصرى انه قد سقط تحت كلكل الدولة بكل ثقلها ، ولا مفر . هنا قد وقع تحت نعلها الحديدى ، فى قبضة اعتى اجهزتها ولا نجاة · هنا عليه ان يفقد الاختيار ، ويخضع للاجبار ، ولكل ذلك مراسيم .

يقول فوزى عطية ، « كنت بمفردى ، عندما وصلت السجن الحربى بعد الظهر . كان ذلك حوالى العصر تقريبا ، وهو وقت لا تتبدى فيه الابهة العسكرية هنا بكل مظاهرها . ما ان دخلت من البوابة حتى لقيت واحدا اشبه بالغول . كان راقدا شبه عار ، الى جوار نصب فى المدخل . عرفت فيما بعد أن اسمه الباشاويش ياسين ، المشهور بوحش السجن . كان الدخول جريا وانهال الضرب سريعا متلاحقا . مررت على باشاويش آخر اسمه امين . قال ، عندما رآنى ، « خمسون كرباج » . هذا ما يسمى (بحكم المدخل) ، أو (الاكرامية الأولى) . هنا هم لا يسيئون الى أحد ، انهم يكرمونه ، المشكلة فقط ، فى طريقة الاكرامية . كان يندفع خلفى ثلاثة جنود : عسكرى عادى محمد الجوهرى ، وكيل امباشى بكر ، والامباشى سيد . الصمت مطبق ، ولا شىء غير نباح الكلاب ، الذى يبدو كالصليل . كنت قد رأيتها وانا اتجه جريا نحو العنبر . كانت فى حالة من التوتر والهياج ، تدور حول نفسها . تعوى فتبعث فى الجو رعشة . دخلت المعتقل رقم اربعة . ثم واحدة من زنازينه . عندما استدرت ، كان امامى محمد الجوهرى ومعه كرباج من اسلاك مجدولة ، بها عقد ملفوفة من قماش ، وحوله كلاب ثلاثة . كان (لكى) اكبرها واضخمها واقواها لم أر فى حياتى كلبا مثله . وكانت هنالك (توسكا) متوسطة الحجم ، لكنها شرسة للغاية . وثالثهم (ركس) . كلها كلاب من نوع (الوولف) : وهى كلاب كما ادركته فيما بعد ، مدربة تدريبا جيدا . انها تعض فقط الشخص الواقع عليه الضرب . أى ان هنالك ارتباط شرطى بين الضرب والعض . كان العسكرى محمد الجوهرى يصرخ ، يطلب منى ان اخلع كل ملابسى ، « اقلع هدومك يا ابن الكلب . اقلع كل شىء » . وقفت فى ركن من الزنزانة (بالفانلة والكلسون) ، والكرباج ينهال على وجهى وجسدى ، والكلاب الثلاثة تنقض على تنهش فى . كنت اربى كلاب فيما قبل ، واعرف بعضا من خصائصها . ان الكلب يزداد شراسة عند مقاومته . فان لم يجد مقاومة فقد اهتمامه بضحيته . ان مقاومته جزء يدخل فى اعداده وتدريبه ، فيكون له رد فعل ، لكل فعل مقاوم . ولذا تركت احدى يدى (لتوسكا) والأخرى (للكى) ، لا اشدها ولا اجذبها ، اما (ركس) فقد أخذ يعضعضنى فى افخاذى ، وسيل الكرباج لا ينقطع عنى . ورغم ذلك بهدلتنى الكلاب . الا انى كنت احسن حالا من زملائى الذين رأيتهم فيما بعد . هؤلاء الذين حاولوا الدفاع عن انفسهم بشد ايديهم أو جذبها من أفواه الكلاب ، حيث كانت تنهشهم وتخرج باللحم بين انيابها .

لم يكن كل ذلك محسوبا من الكرابيج الخمسين ، التى امر بها الباشاويش . ان كل ذلك الذى جرى ليس الا (جرعة الكلاب) فقط ، اما (الاكرامية الأولى) ، فما زالت واجب ضيافة لابد ان يقدموه ، وعليك

ان تتناوله . ولنظام اكرامية الكرباج مراسيم خاصة ، عليك انت ان تشارك فيها ، والا كان ذلك جحودا بكرمهم ، فيضاعفوه . عليك ان ترقد على ظهرك ، وأن ترفع قدميك الى المستوى المناسب الذى يريح السيد المضيف ، وهو يقوم بواجب الضيافة . فان انت انزلت قدميك اثناء قيامه بما يجب ، عد ذلك اهانة ، فيبدأ العد من البداية حتى ينتهى الاستقبال » .

وتغلق الزنزانة على جسد تمزق وتحطم ، لانسان لا يدرى ما الحكاية ؟ . ولا فى أى جب سقط ؟ . ويطبق الصمت عليه من جديد ، فلا يسمع غير جراحة ، ولا يرى غير دمائه واشلائه . وتدرك تلك البقايا لجسد آدمى وارادة مناضل ، انها ليست وحدها فى هذا المكان . الحواس هنا ترهف حتى الشفافية . المعرفة بالجوار تاتى من همسة خافتة أو نقرة فوق جدار .

هذا المكان الاصم الصامت ، يختزن فى اعماقه كل صراخ العالم . خلف جدرانه دوى مكتوم لآلام تفوق طاقة البشر .

السجن ليس سجنا واحدا . انه جدار يضم عدة سجون . مبنى اسمه السجن الكبير ، يضم فى جنباته السجناء من الجنود ، لحساب أى قضايا غير القضايا السياسية . ان هؤلاء الجنود يعاملون معاملة بربرية ايضا . انهم يستقبلون بالضرب والتعذيب ، ولا يترك الواحد منهم حتى يتخذ لنفسه اسم امرأة ينادى به عليه طوال مدة سجنه . ويصل العبث بهؤلاء الى حد التعدى على رجولتهم بهدف اذلالهم ، حتى ان البعض منهم يقدم على الانتحار . ثم هنالك مبنى كبار العسكريين من الضباط السجناء ايضا . ويطلق على هذا المبنى اسم « الاسير » . وهو معتقل أرستقراطى الى حد ما ، يشبه الفيلا فى بنائه ، كان فيه ساعة تلك الاحداث ، لواء كان يوما ملىء العين والبصر ، ثم اتهم بتدبير انقلاب ، فعذب حتى كسر عاموده الفقرى ، ثم وضع فى « الاسير » ليقضى فى الاسر ايامه . ثم هنالك المعتقل رقم واحد ، الى جوار مبنى الادارة . والمعتقل رقم ثلاثة وهو معتقل التكدير الخفيف . ثم المعتقل رقم اربعة ، وهو يماثل فى البنيان المعتقل رقم ثلاثة الا انه أسوأ المعتقلات جميعا ، ففيه التعذيب الذى يستهدف التركيع . وللمعتقل باب حديدى ضخم ، يفتح على فناء غير مسقوف ، تتوسطه دورة مياه حولها فراغ ، يحيط به دائريا طابقان اثنان من صفوف الزنازين .

عندما يتجول حمزة البسيونى رب هذا المكان ، وقائد السجن ، بشواربه الضخمة ، وجثته الهائلة ومشيته المتالهة ، يصمت الصمت . وتحس الكلاب بمقدمه ، فتتخذ من دورة المياه نصبا تدور حوله . وعندما

تدوى فى المكان « انتباه » طويلة ممطوطة ، تبدأ الكلاب فى النباح بصورة غريبة . ثم يسمع القابعون فى الزنازين صوتا آخر ، يصعب تمييزه عن صوت الكلاب . ويهرع ، (لكى ، وتوسكا وركسى) اليه . وشىء فشىء ، يتكشف صوت القائد يدلل الكلاب . والكلاب تهر حوله . ثم يبدأ فى تعنيف الجندى المسئول عنهم وسبه . انه يأمر بالحسنى فى معاملتهم ورعايتهم والجودة عند اطعامهم . وتتجسد صورة النازى العفن مرة اخرى على أرض مصر ، فى سراديب الحربى . صورة الشخصية غير السوية المليئة بالمتناقضات ، والتى تتخذ من الحيوان بدل الانسان صديقا تطمئن اليه وتتبادل معه الود والالفة التى تفتقدها . ان رب هذا المكان ان تعطف والقى على النزلاء نظرة ، فليس من حقهم أن يبادلوه هذا الشرف العظيم . عليهم ان يقفوا مطأطأى الرؤوس ، لا ترتفع نظراتهم عن وطىء قدميه .

يقول عبد القادر ياسين ، « هذه الكلاب ميراث عن الاستعمار الانجليزى منذ كان فى مصر . وكان عميدها هو الكلب (ركس) ، ذو الثمانية عشر ربيعا . كما كان هنالك (مشمش) ايضا ، وهو دلوعة قائد المعتقل ، وله من ضمن حقوقه ، حق لهط كل ما يحلو له من حساء ولحم من الغذاء المخصص للمعتقلين من كانتين المطبخ مباشرة ، وما يتبقى يوزع علينا . كانت هذه الكلاب مرفهة الى درجة تدعو الى الحسد . ولقد حدث ان زميلنا محمود عويضة ، هجم على واحد منها ليخنقه ، بعد ما لحق به من عض ونهش ، فانهال عليه الشاويش قائلا ، « ان ظفر هذا الكلب ، يا ابن الكلب ، برقبتك » .

اما عن قائد السجن وسجنه ، فانني اذكر احد المعتقلين الذين جىء بهم الى السجن الحربى ، فاستقبل بالضرب الشديد فاستجار الله ، وعندما قال له حمزة البسيونى ، ان الله شخصيا لو دخل الحربى فلابد من استقباله بالضرب . ويؤكد هذا الفهم القانون الذى لا يرد فى السجن الحربى ، اذ لابد لكل من يدخله ان يضرب ويكدر حتى تأخذ هيبة الحربى موقعها فى نفسه . ونادرا ما كان التعذيب مرتبطا بالتحقيق . اننى اتذكر ايضا بعض مشايخ الاوقاف الذين كانوا يعملون مع الباقورى والذين اعتقلوا زمن تحديد اقامته فى منزله ،وقد ضربوا ضربا مبرحا لمجرد دخولهم السجن الحربى »(١) .

واذا كان حمزة البسيونى قائد المعتقل هو رب الارباب ، فان الحارس النوبطشى لكل عنبر هو ربه المحلى والسلطة المطلقة فيه . وفى عنبر ثلاثة

---

(١) لقاء شخصى معه فى يوليو ١٩٨٤ .

او معتقل رقم ثلاثة كان الثلاثة سيد وبكر والجوهرى يتناوبون الحراسة . يسير الواحد منهم وكرباجه فى يده وحوله جوقة من الكلاب . مفتاح العنبر فى جيبه وقد اغلقه من الداخل . الا ان هذه الالهة درجات ، تتعامل فيما بينها بقسوة ايضا . الجندى هنا يعظم وكيل الامباشى . ووكيل الامباشى يعظم الامباشى ، والامباشى يعظم الشاويش ، والتعظيم العسكرى حق للضباط على الجنود فقط . ان المجند محمد الجوهرى هو الوحيد الملزم بان يحى الجميع . انه هنالك فى ادنى السلم ، لا يوجد اسفله غير المعتقلين الذين يجد فيهم فرصة العمر التى تعوضه عن كل ما يلقاه من مهانة . انه ان اخطأ ضربه شاويشه بالكرباج ، بل ومن سلطته ايضا ان يطلق عليه الكلاب .

ان محمد الجوهرى فلاح من السنبلاوين ، أحمر الوجه ، حسن التقاطيع ، يراه زملاؤه فى السجن طريا . فيدفعه ذلك الى كل سلوك قاس ووحشى مع المعتقلين اثباتا لخشونته .

الزنازين مغلقة طوال اليوم . خالية من جرادل البول أو الماء . الفتح فى الصباح دقائق ، حيث يبدأ طابور الجرى والنظافة . يقوم النزلاء بتنظيف دورة المياه والمكان وغسل القروان . والقروانة من الكاوتش الاسود ، اقرب الى (قصرية) الاطفال . وعلى النزيل ان يستخدمها ايضا فى عمليات الرش .

يقول فوزى عطية ، « فى الصباح الباكر عند فتح الزنازين رأيت آخرين من المجموعة التى حولى . كان للجوهرى طريقته الخاصة فى الرش باستخدام القروانة . ضربنا ضربا بشعا حتى نجيد طريقته فى الامساك بها . لم يعد لأحد منا اسم . الجميع غدا اسمهم واحدا « ولد يا ابن الكلب » . كان هنالك معتقل عرفت فيما بعد انه عاطف بسيونى : لم يستطع هذا المعتقل ان يتقن الطريقة (الجوهرية) فى الامساك (بالقصرية) . وقد ناله من جزاء ذلك كثيرا من الضرب . كان احمر الوجه مما كان يستفز محمد الجوهرى ، فيلطمه على وجهه عشر ، عشرين قلما ، وهو يسبه ويلعنه على أساس انه يبدو (كضابط ابن كلب) . الكرباج واللطم والركل والسباب وتعرية الظهر والضرب عليه فى الوسط بكف اليد المفتوح بطريقة معينة مما يدفع بكل ما فى معدة المعتقل الى فمه ، كل ذلك يصيبك وانت تجرى وعيناك الى الارض » .

الطعام « يمك » الجيش . عدس عادى ، عدس بجبة ، فولية . فول فى الصباح ، وفول « بجمعة » فى الغداء .

يقول فوزى عطية ، « الفتح وقت الاكل ، سواء فى الغذاء أو العشاء ، دقائق ايضا • وقضاء حاجتك يتوقف على شطارتك خلال هذه الدقائق . لم تكن هنالك تعليمات خاصة بنا ، حيث لم يكن هنـــالك تحقيق حتى الآن . ولذا فقد كان أمرنا معلقا بحارسنا يفعل بنا ما يشاء .

نظام الاكل ، تفتح الزنزانة ، ثم يلقى الحارس بقروانة الاكـــل امامك • احيانا كانت توجد قطعة من اللحم ، هى فى الحقيقة اقرب الى الجلد منها الى اللحم . الكلاب حولّ الحارس تتشمم الاكل فان اعجبها اللحم وراق لها تناولته ، وعلينا ان نتركها تفعل ما تشاء راضين » •

فى تلك الزنازين المغلقة فى عنبر ثلاثة ، كان هنالك تسعة واربعين مجندا ، منهم محمد محمد طه ، عاطف بســـيونى ، فوزى عطيه ، حسنى مشرقى ، محمد التهامى ، على جابونجع ، شكرى عبد الوهاب ، طه محمد الحسينى ، محمد الحسينى ، محمد فوزى عبد الحى ، عبد الخالق خضير ، حلمى العطار ، صفوت العباسى .

لم يكن هذا العنبر يخفى فى جنباته المصريين وحدهم ، كان هنالك الفلسطينيون ايضا ، ابناء غزة • هؤلاء الذين كتب عليهم ان يعانوا من الغزو الاسرائيلى يوما ومن الاساليب الديكاتورية المصرية يوما آخر • كانوا هنالك منذ ابريل ، وقد عانوا مثلما عانى اشقاؤهم المصريين ومروا بنفس المراحل والملمات •

يقول فوزى عطية ، « كنــــا من ناحية ، وكانوا هم فى الناحيــة الأخرى • كنا نرى بعضنا البعض من نظارة باب الزنزانة • كان معهم معين بسيسو . وكان فيهم عجوز يدعى نمر هنية . كان رجلا شجاعا . ما أن يرانا حتى يقول شعارات حماسية ، « والله يا ابنائى سأروى هذا لابنائى » • « سأقول لهم انكم قد عذبتم » • « ان هذا الاجرام كله ، لن يغفره التاريخ » . كانت ظروفهم حينذاك افضل من ظروفنا • ولذا لم نكن نستطيع ان نبادلهم نفس اللهجـة ، التى كانت تبـدو غريبة على الاذن فى هذا المكان • فى الدور الأرضى ، كانت توجد طائفة أخرى من الفلسطنيين المتهمين بتجارة المخدرات . انهم ليسوا جميعا تجار مخدرات بالضرورة ، فقد كان الحاكم المصرى لغزة والجهاز الادارى المصرى هناك يفرضان على البعض اتاوات ، ومن لا يدفع ، يقاد الى السجن الحربى بهذه التهمة • الا انه كان منهم بالفعل تجار مخدرات يقضون الحبسة فى (بحبوحـة

من العيش) . وهم يدفعون للحراس رشـــاوى نقدية أو غذائيـــة حتى لا يضربوا مواطنيهم السياسيين ، أو حتى يخففوا قبضة التعذيب عنهم . كانوا يدفعون ايضا لحمزة البسيونى ، فكان عند مروره على العنبر ، يقف معهم ، يستمع الى رغباتهم ، ويستجيب لها » .

ان الاساليب الديكتاتورية فى مصر ، قد خصت ابناء غزة عموما باكرامية خاصة . فالمنطقة خاضعة للحكم العسكرى . وكل من يقبض عليه هناك وتعجز السلطات المحلية عن اجباره على الاعتراف ، أيا كانت تهمته ، يحول الى السجن الحربى هنا . فى أحد الايام وصلت اشـــارة الى السجن الحربى تقول ، « يصلكم قاتل رفض الاعتراف ، عليكم الحصول على اعترافه » .

يقول عبد القادر ياسين ، « كان ذلك يوم ١٠ اغسطس ١٩٥٩ ، وكان اسم الرجل مطاوع الداية . وهو قاتل مأجور عريق فى الاجرام . كان قد افرج عنه منذ وقت قريب ، الا انه قام بعد الافراج عنه ، باغتيال محام متشهور فى غزة ، لحساب عائلة كبيرة . ولم تنجح اساليب التعذيب المحلية المحدودة فى ارغامه على الاعتراف ، فصدر الى السجن الحربى . وقد تم تعذيبه هناك تحت بصر المعتقلين السياسيين ، من ابنـــاء غزة ، فى عـــز الظهـــيرة . قام بالتعـــذيب الباشـــاويش أمين ومجمـــوعة من الموقع تعززها قـــوة من الكلاب ، مدربـــة على النهش مكان لســـعة الكرباج ، ذى الشعب السبع ، والمصنوع فى انجلترا خصيصا لاستخدامه فى المستعمرات . ثم علق الرجل الى الفلكة اكثر من مرة ، ثم قام الباشاويش أمين بضربه بصورة متلاحقة فوق أم رأسه ، ثم بدأ فى نزع الشعر منها ، فاصابه الاغماء . فأمر أركان حرب السجن بالقائه فى بركة ماء فى فنـــاء السجن ، باعتبار أن هذا الاغماء تمثيل فى تمثيل . كان يطلب الى مطاوع بعد كل فلكة يعلق عليها أن يجرى فى ساحة السجن . كان الاعياء باديا عليه وغدا عاجزا عن الجرى بقدميه المتورمتين . وحانت منى التفافة الى وجهه . كان الرجل قد شاب على الاقل ربع قرن . تهدل شاربه الذى كان الصقر يقف عليه ، وتحدب حاجباه . الا انه ، رغم كل هذا التعذيب ، لم يعترف . قال رئيس الاركان للضابط الذى احضره من غزه « لا عليك ، دعه الآن ، لأنه لابد معترف الليلة » . وبالفعل اعترف دون ان يمسوا شعرة أخرى واحدة من جسده . فقط قاموا بتمثيل تعذيب أحد جيرانه فى الزنازين المجاورة . عندها صرخ وطلب الاعتراف .

لم يكن المعتقل من نصيب الشيوعيين فقط من ابناء قطاع غزة . بل كان هنالك اربعة آخرين ايضا مودعين داخل السجن ، بناء على طلب

مكافحة المخدرات ، لابتزاز آلاف الجنيهات منهم . واذكر ان الحـاج محمد أبو دقة ، وهو من كبار اثرياء القطاع ، رفض الاستجابة لمثل هذا الابتزاز اربع سنوات ، ولا ادرى ان كان الافراج عنه قد تحقق فيما بعد ، بعد استجابته أم بدونها .

لم يكن الاعتقال وقفا على المصريين والفلسطينيين ، من امثالنا ، والذى اوقعهم حظهم العاثر تحت الادارة المصرية فى قطاع غزة ، بل تعداه الى بعض العرب . واذكر ، فى هذا الصدد ، ايداع أحد اعضاء الحكومة الجزائرية فى المنفى ، فى عنبر رقم واحد ، بناء على طلب عباس فرحات رئيس الحكومة المذكورة . وكنا كثيرا ما نسخر من تلك التوليفة العجيبة .

كان المصريون اكثر من اربعين واحدا . اغلبهم لم يكن شيوعيا . بعضهم كان له اقرباء شيوعيين فى الحياة المدنية . احدهم كانت تهمته انه سافر بالقطار مع ابن عمته المتهم بالشيوعية . كان ساذجا وبسيطا ، لم يقرأ فى حياته شيئا حتى الجريدة اليومية . وكان مندهشا اننا نعيش فى فلسطين دون ان يكون لدينا نهر النيل . وظل يسألنى حتى افترقنا عن مصدر المياه التى نشربها . وكان هنالك ايضا ملاكم فارع الطول مفتول العضلات وواحد من ابطال التجديف . وقد عذب حتى كتب اعترافا قال فيه ان اسمه الحركى ذبابة ، ظنا منه ان الحركية تعنى السلاح الميكانيكى . والجدير بالملاحظة انه غش اعترافه من زميل له ، لعدم قناعة المحققين باعترافاته الملفقة . والاجدر بالملاحظة ان اباه عندما زاره فيما بعد وعرف باعترافه ، بصق فى وجهه ، وقال ، « حتى المومسات لا يعترفن تحت اقصى درجات التعذيب » . وكانت وظيفة والده هذا مخبرا فى وزارة الداخلية .

وكان هنالك رجلان من صولات الطيران فى الخمسين من عمرهما . وكانت التهمة الموجهة اليهما ، انهما يعرفان يوسف صديق — والذى لم يكن معتقلا . وقد مورست ضدهما ابشع اساليب التعذيب حتى فقد احدهما عقـله .

كانت التهمة التى قبل للحراس اننا اعتقلنا بسببها اننا جواسيس للعراق . وكان هنالك احد الحراس ويدعى الشاويش سيد ، وكان شرسا غاية الشراسة طوال مدة تعذيبنا والتى استمرت سبعة وعشرين يوما ، وقد حدث بعد ان انتهت هذه الفترة ، وادخل التلفزيون الينا فى مقابل هدية مماثلة لرئيس الاركان ، ان بدأنا نعلم الشاويش سيد القراءة حتى نمحو اميته ، الا ان الرجل انتفض بعد عشرة دروس وقال ، « كفى ، اذ

انى لو بدأت اقرأ فلابد انى سوف افهم ، وان فهمت سأتى هنا مكانكم » ومن يومها كف عن التعلم » .

وهنالك فى المعتقل رقم واحد سجنت المناضلة الفلسطينية صهباء البربرى ، زوجة المناضل الفلسطينى معين بسيسو ، لتستكمل الصورة بشاعتها . ولتمض ايامها بين جدران معزولة ، تستمع دوما الى معزوفة التعذيب الشيطانية ، وهى اشد هولا ونكالا من التعذيب ذاته .

ولا يقف الامر عند هذا الحد من الجرائم . بل كانت الغارات على المناضلين فى غزة تستخدم لتغطية جرائم رجال الأمن ، المعادية لمصر حقا ، المخربة لاقتصادها ، المنافية – فى ابسط صورها – لقرارات النظام الحاكم ذاتـه .

يقول عبد القادر ياسين (١) ، « وجهت الادارة المصرية ضربتها فى ١٩٥٩/٤/٢٣ ، لثمانية عشر من الشيوعيين والوطنيين الديمقراطيين من القطاع ، هم : صهباء البربرى ، معين بسيسو ، فخرى مكى ، سمير البرقونى ، عبد الرحمن عوض الله ، محمد الشامى ، احمد خليل الحاج ، عوض حجازى ، عبد الله زقوت ، محمد أبو حمدة ، خليل عويضة ، فريد أبو وردة ، محمد ابراهيم البرش ، جبرا الترزى ، تمر هنية ... وفى العاشر من اغسطس ١٩٥٩ شنت سلطات الأمن المصرية حملة اعتقالات جديدة فى القطاع ، شملت : عمر عوض الله ، محمد عيسى جابر ، محمود صالحه ، منصور الحداد ، عبد القادر ياسين ، ذيب الهربيطى ، محمود نصر ، عبد المجيد كحيل ، موسى سابا ، عمر السوطرى ، محمد أبو زريبة ، درويش الوحيدى ، عطية مقداد .

والعاشر من اغسطس ، تاريخ لم يكتسب اهميته من السياسة فحسب ، بل له موقعه الهام فى تاريخ التهريب بالقطاع . فهذا التاريخ كان آخر موعد حددته الحكومة المصرية لاستبدال العملة المصرية فئة الخمسين والمئة جنيه مصرى ، فى محاولة منها لضرب المهربين الذين نجحوا فى اخراج كميات كبيرة من هاتين الفئتين من مصر ، بهدف ضرب الجنيه المصرى خاصة والاقتصاد المصرى عموما .

وحدث أن اتفق سعيد حامد يحى ، نائب مدير المخابرات العسكرية بالقطاع ، وكمال المهدى حميده ، مدير الداخلية والأمن العام ، مع بعض

---

(١) كتاب « حزب شيوعى ظهره الى الحائط » ، لعبد القادر ياسين .

كبار تجار غزة على ايصال الكميات المتوفرة لديهم ، والتى استحضروا اغلبها من بنوك لبنان ، الى مصر •

وتفتقت عقول رجال المخابرات والداخلية عن حيلة بارعة ، لها بريق وطنى قومى يخطف الابصار . فسيارات المعتقلين الشيوعيين « الخطرين على الوطن والأمة » ، لا يجرى تفتيشها على الحدود ، وبها يمكن نقل كميات وافرة من الجنيهات المصرية ، تستبدل فى البنوك المصرية بمجرد وصول « نقلة » المعتقلين الذين « يعرقلون مسيرة التحرير الى فلسطين » ، الى القاهرة ...

فى البداية تم تجميع موجتى المعتقلين فى السجن الحربى بالعباسية ، فى ضواحى القاهرة ، وهو السجن الذى يحمل سمعة فاشية مرعبة • وكانت المرة الأولى التى يستقبل فيها هذا السجن فتاة ، حين دخلته المناضلة الشيوعية الفلسطينية صهباء البربرى . فى الرابع والعشرين من ابريل ١٩٥٩ ، بعد أن تصدت لموجات الفاشيست وعملاء أجهزة الأمن فى مدرسة الزهراء الثانوية للبنات بغزة ، فى بسالة عز نظيرها •••

فى يوليو ١٩٦٠ تم الافراج عن اربعة من المعتقلين الواحد والثلاثين .

وفى ٢٩ اغسطس من السنة ذاتها تم نقل بقية المعتقلين الى سجن المحاريق بالواحات الخارجة » •

تحقيقات المخابرات :

ان عنبر رقم ثلاثة بالسجن الحربى ، هو عنبر اعداد المعتقلين وترويضهم لمرحلة تالية . هم هناك لا يطلبون منهم شيئا ، فقط يسبغون عليهم فيضا من نفحاتهم وبركاتهم الجهنمية ، ثم يأتى الاستدعاء للمخابرات .

يقول فوزى عطية ، « استمرت الاوضاع هكذا حتى الثامن من مايو . فى التاسع منه طلبتنى المخابرات مرة أخرى للتحقيق ، كان هنالك عاطف بسيونى ايضا ، لقد عرفته ذلك اليوم . كانت هنالك مجموعة منا ، الا أن التحقيق كان فرديا . ويبدأ التحقيق بضرب المستدعى علقة طيبة • اربعة من الجنود المسلحين بفروع الشجر ذات العقد وسلوك الكهرباء المبرومة ، وايدى المقشات • انهم يركزون الضرب على فرد بعينه • الجميع يضربه فى ذات اللحظة • علقة تجهيز يمكن أن تستمر نصف

ساعة . ادخلت بعد ذلك على رائد يدعى حسن طاهر . كان هو المسئول عن اجراء التحقيق مع مجموعتنا العسكرية . كان ناعم المظهر للغاية . يرتدى بذة ملكية ، قصير القامة ، ابيض الوجه ، يتكلم فى رقة باردة . يشعرك انه فى وسعه ان يدخلك النعيم أو الجحيم . لا يتخذ فى اجراءاته اى مظهر رسمى . لا يسأل ، ما اسمك او سنك . كان واضحا انه لم يكن لديه اية معلومات . فقط ما يسمى بورقة الاستطلاع . ولقد لاحظتها بالصدفة ، وكان فيها اننى شوهدت ومعى مجلات عراقية . فهمت فيما بعد أن المقصود بها مجلة « المثقف » الادبية » . كما جاء فيها ايضا اننى شوهدت وانا اوزع المنشورات . لم يكن لديه معلومات ، وهو يريد ان يحصل على تلك المعلومات منك . فان لم يكن لديك معلومات ، فهو لابد محاول الوصول الى اعتراف بمعلومات ملفقة .

— انت شيوعى ؟
— كــلا .
— ماذا كنت تفعل فى الجيش ؟
— لا شيء .
— رأوك توزع المنشورات ، يا ابن الكلب .

— ولـماذا لم يمسك بى من رآنى اوزع المنشورات ؟

قال ، « خذوه » . واخذونى . زاد زمن الضرب الى ثلاثة ارباع الساعة . طوروا عملية الضرب . المكان الذى اخذونى اليه هذه المرة ، كان فى الأصل جمنيزيوم ، توجد به منضدة بنج بونج . كان على أن انام بنصفى الاعلى فوقها ووجهى الى اسفل ، على ان احتضنها كالعروسة . كتف اثنان منهم ذراعى بينما اخذ الآخـــران فى الضرب . كان الضرب احيانا يصيب هذين الممسكين بى ، فكروا فى شيء آخر . كان هنالك مقعد . ارقدونى على ظهرى ، وضعوا الكرسى بحيث يكون ظهره ناحيتى ، حشروا رجلى من فتحات ظهر المقعد ، ثم ربطوها بحبل من ليف . كانت اقل حركة اثناء الضرب تجعل الليف يحز فى الجلد . بعد جرعة الضرب ، فكوا رباطى حتى اجرى . لاحظت انهم اكثر دربة ودراية بوسائل التعذيب من هؤلاء الذين فى السجن الحربى . قال واحـد منهم : لـماذا لا تتكلم يا ابن الكلب ؟ نحن نود خدمتك ، وأنت تسبب الضرر لنفسك .

قلت : ماذا افعل ؟

قال : خذ واكتب .

اعطونى ورقة وقلما ، كتبت موضوع انشاء . « انا شيوعى . مهمتى فى الجيش ان اكون قدوة ، حسن التصرفات والعلاقات مع الجنود . لا يمكن ان ادبر انقلابا ، اذ لم يمض على التحاقى بالجيش غير ستة اشهر » . اخذونى وما كتبت . قال بعد ان قرأ الورقة .

– يا ابن الكلب . لم تأت بجديد . خذوه .

واخذونى . وبدأ الضرب من جديد . فى تلك المرة ابتكروا اسلوبا آخرا . استخدموا سقف الجمينزيوم . فى السقف اخشاب ممتدة . شدوا الى واحدة منها حبلا من سلك . ربطوا قدمى فى نهايته . جذبوا السلك الى أعلى فأصبحت رأسى الى أسفل . صعدوا فوق منضدة البنج بونج وأخذوا فى ضربى .

فى هذا اليوم ضربت ثمانية عشر ساعة من الاربع وعشرين ساعة . فترات الراحة كانت رغما عنهم ، اذ كان لديهم عمل مع آخرين يستدعون للتحقيق . المحقق عديم الخبرة بالقضايا الشيوعية ، أو تكييفها القانونى أو أى فهم بالايديولوجية . هو لا يريد معلومات خارج اطار الجيش . وفى اطار المعلومات هو يريد بالتخصيص اسماء ، اسماء ضباط وجنود ومخطط لانقلاب عسكرى شيوعى . اذكر انه كان هنالك شخص لا علاقة له البتة بأى شىء . سأله الشاويش الذى يجرى التعذيب .

– يا ابن الكلب . من معك فى الخلية ؟
– يعنى ايه خلية يا افندم ؟
– الناس الذين تجتمع معهم .
– يعنى ايه يا افندم ؟
– الذين معك يا ابن الكلب .

فعدد الجندى المعتقل عشرة اسماء من وحدته . ولم يمض وقت طويل حتى كانت تلك الاسماء ، اسرى يجرى عليها كل ما يجرى علينا .

التعذيب والكتابة ثمانية عشر ساعة . فى البداية نفيت كل شىء ، ثم كتبت اعترافا على نفسى ، انا شيوعى . لم اقم بعمل اجتماعات فى الجيش . الشيوعيون بعيدون عن مسائل الجيش . ليس لديهم اى مخطط لعمل انقلابات فى الجيش . لم يكن لدى أى تكليف ، لكنى كنت اصدر مجلة من باب الهواية . ثم ، انا عضو فى الحزب الشيوعى ، حاولت تجنيد بعض الناس ، الا ان الوقت كان ضيقا فلم اجند احدا . احسست انى

ضعت مجاهدت ان احصر الضياع فى نفسى . ان ادور فى نفس الاطار بمجموعة من الصياغات المختلفة • ان اتناول المسائل باعتبار انهسا افتراضات وليست حقائق تم وقوعها • بمعنى اننى لو كنت جندت احدا ، لكنت اعددت كذا وكذا من الأمور ، الا اننى لم اجند احدا • وفى كل مرة ، كان الضابط المحقق يرفض ما اكتب ويستمر الضرب . لم يحصل منى على اسم واحد ، وكان ذلك لب الموضوع • لقد ذكر امامى اسم الضابط حلمى الجنجيهى كى اعترف عليه ، الا اننى انكرت معرفته ، برغم أن هذا الضابط كان يهدد – قبل الاعتقال – بانه سيسحق الشيوعيين بالدبابات • التعذيب مستمر . ومحاولات جنود المخابرات لا تتوقف : « لماذا لا تقل اى شىء وتنجو بجلدك ؟ » ربما كان البعض يود الايقاع بى ، وربما كان البعض الآخر مشفقا بحق . وانا امسك بوعيى ، ادور فى حلقـــة تلف حولى ولا تبتعد عنى . اخذونى فيما بين فترات التعذيب الى تومرجى المخابرات • كنت عاجزا عن الجلوس على مؤخرتى . كانت هنالك مرآة ، نظرت فيها ، فهالنى منظرى ، كان ظهرى كتلة سوداء دامية ، فزع الرجل من مرآى ، لكنه اعتذر بعجزه عن فعل اى شىء . كانت قدماى قد تورمتا من أثر رباط الليف ، وقد غرقت فى الدم • كان الحز فيها قد بلغ العظام (١) . فكرت فى الأنتحار • فى ان اضع اصبعى فى الكهرباء • فى ان افعل اى شىء ينسف هذا الذى انا فيه . زهق منى المحقق . لم تكن المسألة بالنسبة اليه ان اعترف على نفسى ، ايا كان قدر هذا الاعتراف . القضية بالنسبة اليه هى اسماء ، واسماء فقط . وعندما لم يظفر بشىء بعد كلّ هذا الجهد ، وبدا على انى اوشك على الفناء ، أمر باعادتى الى السجن الحربى » •

السجن الحربى – عنبر رقم اربعة

عنبر التحقيق والتعذيب بهدف التركيع

عاد المعتقلون من المخابرات الى السجن الحربى مرة أخرى . الجرى بالخطوة السريعة والضرب ، الا ان محمد الجوهرى لم يمنحهم هذه المرة « اكرامية المدخل » . فقد سبق لهم الدخول ، ولم يعودوا اغرابا على دار الشـــقاء تلك . فزع الجوهرى فزعا شـــديدا عندما رأى ما حل بفوزى عطيه . قال له :

– من ذا الذى فعل بك ذلك ، يا ولد يا ابن الكلب •

---

(١) كشف عن ساقيه قرب القدم • كان الحز باديا فيها بعد أكثر من عشرين عاما • (فخرى لبيب) •

قال فوزى :

ـ المخابرات ·

قال الجوهرى مذهولا :

ـ هل هنالك من هم اكثر منا اجراما · يا ولد يا ابن الكلب !!

يقول فوزى عطيه ، « امسكت المخابرات اكثر من مائتى شخص ، الا ان الامر انتهى الى تسع واربعين · كان الدود قد بدأ يتكاثر فى جروح قدمى المتقيحة · استخدم زميلى محمد طه كل ملكاته ولباقته وخبرته السابقة فى السجون للتأثير على الامباشى سيد كى يحضر لنا قطعة قطن عليها نقطتين من الميكروكروم · واعتبرنا ذلك مكسبا سياسيا كبيرا · اصبحنا كل اثنين فى زنزانة · استمر الوضع هكذا حتى ٢٥ مايو » ·

نقل التحقيق الى السجن الحربى استكمالا لاجراءاته · نقل المعتقلون الى عنبر اربعة · عنبر التعذيب المكثف والتحقيق مع التشديد · عاد الحبس الانفرادى ، والنوم على الأرض ، والطعام الردىء ، محدود الكميات للغاية · وانعقدت لجنة التحقيق ليلا امام مبنى الادارة · كان يرأس اللجنة عشوب ، ضابط المباحث العامة ـ مكافحة الشيوعية · وبدأت مجزرة جديدة من الضرب بكل صنوفه والكلاب الناهشة ، وتغطيس وجوه المعتقلين فى مياه البركة القائمة فى فناء السجن والتهديد باغراقهم ·

يقول فوزى عطيه ، « سلمت المخابرات الامر الى المباحث العامة · تم التركيز على هؤلاء الذين لم تركز عليهم المخابرات · فى هذا المكان عذب الزملاء تعذيبا وحشيا بشعا · كان هنالك صول طيران يبلغ من السن نيفا وخمسين عاما ، ضربه جندى عادى ضربا شديدا على رأسه · كاد يجن من الضرب العنيف والمهانة الاعنف ·

عندما استدعيت كانت حالتى الصحية سيئة للغاية · سألونى عن موضوع ما لم تذكره المخابرات ، اذ عندما تم استدعائى وانا فى الجيش ، واحسست ان هنالك اعتقال ، طلبت من شخص كان معى يدعى حسن محمد امين ـ وكان قبل تجنيده يعمل مدرسا ابتدائيا فى المنيا ـ ان يتصل تلفونيا بصديق لى اسمه نبيل رياض ، كى يخبره بضرورة الاتصال باخى كى يقوم بتنظيف مسكنى · كان هذا الشخص قد فهم من حديثى أننى ماركسى ، فعقد معى صداقة ، وكان يزورنى فى منزلى ، فرأى الضابط الجنجيهى وانا اصافحه على محطة الاتوبيس · ويبدو ان هذا

الشخص كان جاسوسا . وانا اعتقد ان هنالك احتمالين ، الأول ان هذه المعلومة وصلت الى المخابرات متأخرة ، والثانى ان المخابرات لم تهتم بها باعتبار انها مسألة خارج الجيش ، وعلى هذا قامت بتسليمها الى المباحث العامة لاستيفائها . سألتنى المخابرات عن على الجنجيهى ، وسألنى عبد الرحمن عشوب عن هذا الذى طلبت الاتصال به . وماذا كان فى المنزل لينظفه اخى ؟ . قلت الأول صديق يعرف أخى ليخبره بالقبض على ، اما بالنسبة لتنظيف المسكن ، فلقد قلت انى شيوعى وبالتالى لابد ان تكون فى منزلى أوراق » .

انتقلت معهم الى عنبر اربعة نفس مجموعة الحراسة الخاصة بعنبر ثلاثة . سيد وبكر والجوهرى . وفى قلب هذا الاعصار ، بدأ الجندى العادى محمد الجوهرى يكشف عن جوهره . لم يكن قد سمع عن الشيوعية من قبل . كانت المسألة التى تحيره ، هى هذه المجموعة الصغيرة من العسكريين ، وكل ذلك الحساب والعقاب الذى اوقعته الدولة بهم . كان يتساءل فى دهشة : « انتم يا اولاد الكلاب تخيفون الدولة ! الدولة كلها تخافكم ! » . كان اقصى ما وصل اليه من فهم ، ان هؤلاء المعتقلين كانوا يحاولون اخذ شىء ما من الدولة . ولذا فان الدولة قد صبت عليهم كل هذا لاضطهاد . الا انه كان يدرك بوضوح انه اضطهاد الخائف . كل الدولة تخاف « اولاد الكلاب هؤلاء » . وبالتصرف التلقائى للمصرى العادى فى مواجهة الدولة ، بدأ الجوهرى يأخذ جانبهم دون ان يدرى . كان يهمس لهم ، « انت يا واد انت وهوه ؟ اوعى حد منكم يقر بحاجة ، اوعى حد منكم يلبس نفس قضية . كل واحد يستحمل قلمين ؟ كرباجين ، ينتحر ، لكن ما يقرش بشىء وما يلبسشى نفسه قضية » .

وعلى جدران الزنازين سجل كل من سبقهم ما عاناه . حفر الاخوان المسلمون صورا ورسوما باظافرهم . صورة الكرباج وهو ينهال على جسد بشرى . صورة امرأة محجبة ، ربما كانت زوجة أو اخته أو خطيبة . صورة عدد من الاطفال وقد ارتسم الضياع على ملامحهم . آيات قرآنية عن الصبر . كل ما حدث ، وكل الاحلام الانسانية البسيطة مسجلة حفريات غائرة فى حوائط معتقل التعذيب المكثف .

انتهى تحقيق المباحث العامة ، واعيد الزملاء الى عنبر ثلاثة مرة اخرى . كانت الظروف افضل ، مع استمرار الاسلوب التقليدى اليومى ، طابور الصباح والضرب والكلاب على استعداد للتدخل ان خيل للشاويش ان هنالك مخالفة ما .

استشهاد مناضل

مصطفى شوقى البهنساوى

استدعى فوزى عطية للمخابرات مرة أخرى . وجد هنالك معتقل آخر من نفس فصيلته ، كان يرتدى بيريه المشاة ، من نفس السلاح . يقول فوزى عطيه ، « لم اكن اعرفه . سالته عن اسمه . ولم اتذكر انى قد سمعت بهذا الاسم من قبل . سألنى عن اسمى ، فلما عرفه قال ، « اذن هو انت ؟ ، لقد امسكوا بى من أجلك » . قلت ، « كيف ؟ » . قال ، « سألونى عنك . هل اخبرتهم انت بشىء عنى ؟ » . قلت ، « وهل انا اعرفك حتى احدثهم عنك ؟ انها بعض الاعيبهم للايقاع بك » . اخذونا الى الجمنيزيوم ، وهنالك لقيت مصطفى شوقى البهنساوى . تذكرت انى قد رأيته من قبل . كان قد أتى مدة يومين فى السجن الحربى . كان قصير القامة ، اسمر الوجه ، يرتدى بيريه اسود . يبدو انه كان فى المدفعية . كان الآن بين الحياة والموت » .

قال جندى المشاة المعتقل لفوزى عطية ، « يبدو انهم قد اخذوه بدلا منى . لقد جاءوا الى هنا وامسكوا به . وأخذوا فى ضربه ضربا شديدا باعتبار انه ينكر معرفته بك . كنت انا المقصود بهذا الضرب . قال لهم شوقى انه لا يعرفك . فاشتد الضرب عليه حتى اصابه الاغماء . احضروا جردل ماء وصبوه عليه حتى يفيق كان الجو حارا وخانقا ، واستمر الضرب بعد افاقتـه » .

يقول فوزى عطيه ، « يبدو ان جهاز التعذيب كان مكلفـا بضرورة تحقيق اعتراف على . وكان زميـلى فى المشـاة ، والذى لا يعـرفنى ولا اعرفه ، هو المقصود بهذا التعذيب وصـولا الى الاعتراف المطلوب . الاانهم بدلا من تعذيب هذا الشخص ، وقعوا بكل تعذيبهم على شـوقى البهنساوى . وقد استدعيت بعد الظهر للتحقيق . سـألنى الضابط عن زميلى فى المشـاة ، فقلت ، « لا اعـرفه » . قال ، « لكنـه يعرفك » . قلت ، « لقـد قلت كـل شىء عن نفسى . وليس هنـالك اكثر على الانسـان من نفسـه . هـذا الرجـل لا أعرفه . وان شئتم واجهونى به . استدعوه هو ايضا من بعـدى ، فانكر معرفته بى . الا انهم لم يواجهونا ببعضنا البعض » .

كان البطل شوقى البهنساوى بعد افاقته مثنى وثلاث ، ليعاودوا تعذيبه ، قد دخل فى اغماءة طويلة ، وبدات ترتفع حشرجات الموت .

يقول فوزى عطية ، « عندما رأيته فى هذه المرة ، كان بين الحياة والموت • كان فى اغماءة النهاية وساد الارتباك الشديد بين الضباط والجنود • كان مهزوزين للغاية • وكنا نحن متعبين للغاية ايضا • نمنا فى الجمنيزيوم حيث كان يجرى تعذيبنا • كان هنالك صوت شخير ، حشرجات الموت تتوالى . فجأة انقطع الشخير فاستيقظت • كانت انفاس شوقى الأخيرة قد تلاشت • عندما ينام المرء وفى اذنيه صوت ، فانه يتنبه عند انقطاع هذا الصوت . كانوا هنالك حوله . حاولوا انقاذه دون جدوى • كان شوقى قد مات . جاءوا الينا • احسوا اننا يقظان ، واننا قد رأينا ما جرى • قالوا ، « سوف ننقله الى المستشفى حتى ينال رعاية افضل » . عادوا بعد قليل • فقد احدهم حذره فقال ، « حذار ان يقول احدكما انه قد مات » • افلتت منه دون ان يدرى • اكمل ما قال ، « سوف نفرج عنكما • فقط لا أحد منكما ينطق بشىء مما رأى أو سمع » . كان حسن طاهر – المسئول عما جرى فى هذا اليوم وما سبقه – فى أسوأ حال . لم يكن يدرى هو ومن معه ماذا يفعلون • قالوا لنا بعد ذلك ، « لقد ارسلناه للعلاج • سمعنا اشاعة صادرة عنكما تقول انه مات . انه لم يمت • وان نطق أحد منكما بغير ذلك فسنقضى عليه . وعموما لم يحدث أى شىء ، ولسوف نفرج عنكما » » .

الخوف الجبان طفح امام جثمان الشهيد البطل . الكلمة الوحيدة الصادقة فيما قالوه ، انه لم يمت • « كان هذا المناضل ، مثله مثل آلاف ابناء الصعيد قد هاجر من قريته فى مديرية جرجا هربا من الفقر • انتهى به المطاف الى واحد من مصانع النسيج فى القاهرة ، حيث تلقى أول دروسه فى الصراع الطبقى • رأى الآلة تعتصر دمه ودماء الآلاف ذهبا تصبه فى جيوب الرأسماليين . ورأى الدولة تقف الى جانبهم ضد العمال ... وشاهد الدبابات تحاصر المصانع حينما يضرب العمال من اجل مطالبهم • ومن خلال كل ذلك ادرك اهمية التنظيم السياسى للبروليتاريا ، فانضم الى احدى المنظمات الشيوعية ، التى تكون من مجموعها الحزب الشيوعى المصرى فيما بعد . وظل يناضل بين العمال لربط حركتهم بالحركة الاشتراكية . الى أن طلب لاداء الخدمة العسكرية ، وذات ليلة ، وبعد أن عاد الى وحدته بالاسكندرية من زيارة زوجته الحامل ، القى القبض عليه ، وجىء به الى ادارة المخابرات فى القاهرة فى ٢ يوليو ١٩٥٩ »(١) .

واستمر التعذيب حتى اليوم التالى . لم ينالوا من البطل كلمة • واكد صمته الابدى كل مخاوفهم الدنيئة • لابد أن هنالك ما هو اثمن من

---

(١) كتاب الاقدام العارية لطاهر عبد الحكيم .

الحياة ، ذلك الذى احتفظ به الشهيد فى اعماقه ، وحمله معه الى الابدية ، سرا لا تطاله ايديهم ابدا .

الهزيمـــة :

عندما جاء ٢٣ يوليو ، صرح للمعتقلين بالزيارات . كان وضع هذه المجموعة من العسكريين غريبا ، هم من الناحية الرسمية ما زالوا بالجيش، الا انه ليس فى الجيش ما يسمى اعتقالا . وهؤلاء المقبوض عليهم لم يرتكبوا المخالفات المنصوص عليها قانونا . فتلك المخالفات لها اجراءات وروتين خاص . وتلك الاجراءات وذلك الروتين لم يطبقا عليهم . ومن هنا اسموهم بالمتحفظ عليهم ، وسمحوا لهم بالزيارات .

طلبوا منهم ان يخاطبوا أهلهم حتى يأتون لزيارتهم . وبدأت الزيارات ، وبينهم وبين الاهل اسلاك . هم فى ناحية ، والاهل فى الناحية الأخرى ، وبينهما منطقة عازلة يتجول فيها جندى . ثم تطورت الزيارة ليجلسوا معا فى مكان واحـــد . ومع الزيارة ياتى الطعـــام من الخارج والسجائر والنقود ايضا . وحيث انه لم تعد هنالك اوامر مباشرة خاصة بطريقة التعامل معهم ، فان كثيرا من القيود التى حولهم يمكن ان تتهاوى .

يقول فوزى عطية ، « كانت جروحى خطرة ، طلبت من أهلى احضار بنسلين . وبدأت اعطى تومرجى السجن نقودا كى يعالجنى . فبدأ عمل غيارات للجروح . وركب لى فتائل لا يقل طول الواحد منها عن ربـــع متر . كان يدخلها فى كل جرح ويتركها اربع وعشرين ساعة ، ثم يعود الى رفعها وتركيب غيرها . وهكذا » .

فشلت خطة تلفيق قضية عسكرية ، قضية مؤامرة شيوعية داخـل الجيش تستهدف القيام بانقلاب عسكرى شيوعى . وبدأت محاولات لملمة الموضوع وتحويله الى قضية جنائية ، أوكل أمرها الى المباحث العامة . ثم احيلت الى نيابة أمن الدولة . كان المحقق هو صلاح نصار . يقول فوزى عطية ، « كان من الواضح ان صلاح نصار غير مقتنع بمـــا امامه من تحقيقات ، كما كان من الواضح ايضا ان المباحث العامة غيـــر راضية عن تدخل اجهزة اخرى فى اختصاصها . كان صلاح نصار يسأل كل منا :

ـ هل قلت هذا الكلام ؟
فان كان الكلام خطيرا ، كان الواحد منا يقول :
ـ نعم قلته تحت التعذيب .

فيعود يسأله :

- هل عذبوك ؟

فيجيب :

- نعم . عذبت عذابا شديدا .

فيطلب منه رؤية ما وقع عليه من تعذيب . ويسأله عمن قام بهذا التعذيب . الا انه لم يكن يسجل اسماء الضباط . كان يسجل فقط اسماء الجنود الذين نفذوا أوامر التعذيب .

وفى السجن الحربى بدأت محاولة خبيثة . استدعونا فى احد الايام . قالوا لنا : « ليس لدينا ضدكم تهمة ما . اننا سوف نفرج عنكم . الا اننا قبل خروجكم ، سوف نجرى كشفا طبيا عليكم ، المصاب منكم سيرسل الى المستشفى لعلاجه ، اما غير المصاب فسيخرج الى منزله فورا . كان هذا الكلام يعنى انه من الافضل لنا الا نذكر شيئا عما اصابنا ، أى ما وقع علينا من تعذيب ، ومن يفعل ذلك سوف يفرج عنه على الفور . كانت اللعبة ساذجة . وكنا نحن منتبهين اليها تماما . فبدأنا مناقشة المعتقلين جميعا . وقد لعب الزميل محمد طه دورا هاما فى هذا الموضوع بما له من خبرة سابقة . لم يكن بين التسعة والاربعين معتقلا غير عشرين لهم علاقة فعلية بالسياسة ، اما الآخرون فلم يكونوا كذلك . وكان لديهم استعداد للقبول بهذا العرض » .

وجاء الطبيب الشرعى بناء على طلب نيابة أمن الدولة . وقابلته ادارة السجن الحربى مقابلة مشحونة للغاية بالتوتر والتحفز . اوقفوا المعتقلين امام مبنى الادارة فى طابور . كان الطبيب واقفا والكلاب تدور حوله وحول المعتقلين فى استعراض مخيف رهيب . لم يقدموا له مقعدا حتى يجلس عليه اثناء الكشف على المعتقلين ، فأخذ هو ينتقل من واحد لآخر فى الطابور . يسأل كل منهم ان كان قد تعرض للتعذيب . وكل من رد بالايجاب أجرى الكشف عليه ، واثبت كل ما فى جسده من آثار وجراح .

يقول فوزى ، « فشلت محاولة القضية العسكرية ، وكذا القضية الجنائية . ولم تعد هنالك ضرورة للابقاء علينا فى السجن الحربى . رحلنا الى معتقل المحاريق بالواحات . لم نمر على المباحث العامة . يبدو اننا قد سلمنا اليها على الورق . كنت فى أول دفعة رحلت الى الواحات . كان عددنا احدى عشر معتقلا . ثم جاءت الدفعة الثانية بعدنا ، وعددها تسعة زملاء . كان ذلك فى النصف الثانى من شهر نوفمبر عام ١٩٥٩ .

فى نفس يوم ترحيلنا فصلنا من الجيش . جاء فى خطاب الرفـد من الخدمة العسكرية ، انـه قد تم بناء على قرار نائب القائد الاعلى للقوات المسلحة (المشير عبد الحكيم عامر) ووزير الحربية ، خطاب رقم بتاريخ تقرر رفده من الخدمة العسكرية ... مدة الاحتياط - لاتوجد . النماذج سليمة ، حيث لا توجد اى تهمة بمخالفات عسكرية . درجـة الاخلاق : قدوة حسنة . وصرف مكافاة نصف جنيه عن كل شهر فى خدمة الجيش . كان الرفد بناء على خطاب نائب القائد الاعلى لعدم رغبته فى ابقائهم (المعتقلين) بالقوات المسلحة » .

انتهت المؤامرة البشعة الى هزيمة حقيقية . عجزت المخابرات عن تلفيق قضية عسكرية . وانتهى قرار الفصل الى انهم رفدوا من الجيش لانهم كانوا قدوة حسنة ، تحمل على كل جزء من جسدها اوسمة الجزاء لمن اراد ان يكون قدوة حسنة . وتؤكد الكلام الذى بدأ به فوزى عطيـة اجابته عند التحقيق معه ، « انا عضو بالحزب الشيوعى المصرى ، ومهمتى فى الجيش ان اكون قدوة حسنة » .

ان هؤلاء الرجال العشرين ، القدوة الحسنة حقا ، قد خرجوا من محنة السجن الحربى وامتحانه اشد مضاء وصلابة . انهم بدمائهم التى تركوها على كرابيج السـفاحين وهراواتهم ، وباجسـادهم التى نهشتهـا الكلاب العاوية او الزاعقة ، قد هزموا كل تلك الآلة الجهنمية . ان شوقى البهنساوى البطل الشهيد ، كان راية حمراء طاهرة فى قلب هذا الجحيم . لقد امسك براية حزبه فى مواجهة جنون جلادية ، فاحال ما تخيلوه نصرا مبينا الى هزيمة مطلقة .

ان اختيار المناضلين طريق الصمود والتضحية حتى الموت ، هـو الذى افشل المخطط المدبر ، واضـاف الى تاريخ الشعب المصرى صفحة مضيئة فى مواجهة تلك الايام الحالكة .

الفصل الخامس

معتقـــل العزب ـــ فيـــوم

ابراهيم مرسى
عبد الرازق حسن
عـدلى جـرجس
فخـرى لبيب
فـوزى حبشى
لطفى الخـولى
لمعى يوسـف
محمود عبد الخالق
مصطفى هجـرسى
منجـد توفيق
نبيـل زكى
نبيـل صبحى

الظلام ساتر يحتمى خلفه هؤلاء الذين يخشون افتضاح امرهم . هؤلاء الذين يتخذون من الحلكة رداء يستر عوراتهم . هم انشط الخلق . عندما يكون الناس عامة فى عمق ساعات النوم . اللصوص المحترفون يعرفون جيـدا ان الســاعات الأولى من الصباح هى انسب ســـاعات العمل . انهم ينقضون على فرائسهم وهم فى اضعف لحظاتهم . انهم يستمدون من ضعف الآخرين قوة .

المعتقلون نيام فى معتقـــل القلعـــة . فاليوم كالامس ، والليلة كسابقتها . الا ان هذه الفرائس المحتجزة خلف جدران القلعة السميكة ، وابواب زنازينها المزدوجة ليسوا ككل الفرائس . انهم يعرفون كيف يمتصون المفاجأة ويواجهون تأثيرها . كيف يزيحون اغلفة الشـــجاعة الزائفة والابهة المفتعلة ، ليظهر لصوص الفجر على حقيقتهم . . مجرد جبناء يتلفعون باردية من الوهم الباطل .

والقصة واحدة . ينزاح الصمت الثقيل المخيم على معتقل القلعة ، تفتح الزنازين بعد منتصف الليل فى غير موعدها . يبـــدأ المعتقلون فى الاستيقاظ على غير المعتاد . ما زال الليل البهيم يصبغ السماء . ويبدأ التساؤل ما بين اليقظة والمنام ، ثم تنداح تلك اللحظات الناعســة ، وتحل محلها اليقظة الكاملة ، وتنشط ارادة التحدى والمجابهة . هنالك جديد ، والجديد فى الظلام يعنى أمرا جللا جرى تدبيره بليل ، ولا ينفذ الا فى غلالة من سواد . انها الترحيلة ، ولكن الى اين ؟ . كان هذا السؤال مجهلا بالنسـبة للدفعـــات الأولى ، الا انه أصبح معروفا لمن جاء من بعدهم . وغدت القلعة هى البوابة التى تفتح على عالم آخر ، هو عالم الوصمة والعار ، الذى يكلل جبين كل الذين صنعوه . تتمزق الغلالة الرقيقة من الدبلوماسية المصطنعة فى القلعة ، ليتقهقر الزمن الى أشـد العصور همجية وبربرية .

يبدأ صليل الحجلات ، يفرض نذره على المكان . . والحجلة سلسلة طويلة ، تخرج منهـــا على إبعاد محـدودة متســـاوية قيود الايادى (كلبشات) . انها اقرب الى تلك السلاسل التى قيد بها الافارقة وهم يشحنون عبيدا الى أمريكا ، انتهت مراسيم الخروج . تم اســـتلام الامانات . بدأت تلاوة الاسماء . ربطت المعاصم الى الحجلات . شحن المعتقلون كل اربعين فى سيارة . الجلوس فيهـيا دائرى والحراسـبـة مشددة ، تكاد تكون جنديا لكل معتقل . اصطف الطابور واستعد ،

سيارتان مسلحتان من سيارات الشرطة فى المقدمة ، وثلاث مثلها فى المؤخرة • هذا غير سيارات النجدة والاسعاف والمطافىء • موكب مهول يسير الى المجهول • والضابط المسئول يزعق بالاوامر والتعليمات ، واحذية الجنود الثقيلة تجرى هنا وهناك ، ربما تنفيذا للاوامر والتعليمات ، وربما كجزء ضرورى لاستكمال الصورة والانطباع اللازمين لوقفة عنترية ، يعلن فيها هذا الضابط ، انه لن يسمح بأى هتاف ، وأن اى خروج على اوامره سيوف يردع على الفور . وعلى جنود الحراسة ان يلزموا المعتقلين الصمت ، أيا كان الثمن . ثم يسود الترقب وتبدأ المسيرة .

الا ان هذا الصمت سرعان ما يتمزق . يبدأ صوت فى الانشاد ثم يعلو ويسرى ، وتدوى السيارات :

بلادى بلادى بلادى   لك حبى وفؤادى

مصر يا أم البلاد   أنت غايتى والمراد

ويشتد الحماس ويتلاشى كل النعاس ويعلن الموكب عن هويته •

الحزب الشيوعى المصرى

نبنيه بعزيمتنبا

وندك الأساس خرسانة

من وحدة ارادتنا

الدوى الثائر يمزق الصمت الداكن . وتهرع سيارات الاختطاف بحملها الثمين ، تسرع خطاها نحو الصحراء .

اليوم هو السادس من ابريل عام الف تسعمائة تسع وخمسين يوم افتتاح عزب ـ الفيوم • ومنذ ذلك التاريخ بدات تترى الدفعات عليه وتتوالى

الفيوم نقرة فى الصحراء • بها بحيرة قارون التى ينخفض سطحها عن سطح البحر حوالى خمسة واربعين مترا ، اى تنخفض عن القاهرة باكثر من سبعين مترا • الموكب ترك القاهرة باضوائها الكابية ، تغلفها غلالة رقيقة من الضباب • رأت الاهرامات انبل ابناء مصر يقادون الى

حيث اقتيد يوسف لأنه كان امينا عفيفا • احتوت الرمال والصحارى المنبسطة والظلام الساجى موكب الشجان الذين اختاروا طريق حب الوطن حتى الموت • السيارات تنحنح تقطع الطريق الاسفلتى الملتوى المنحدر عامة الى اسفل • قد تصعد مكانا هنا أو هناك ، لكنه صعود فى اطار الهبوط .

مع ومضات الفجر الأولى ، وفى ضوء سيارات القافلة ، يبدو فى الافق خط أخضر فى هذا الموات الأصفر هو واحة الفيوم . بلد التين والاعناب والزيتون والتمر وكل فاكهة شهية . بلد النواعير وبحر يوسف وبحيرة قارون والارض السخية •

مدينة الفيوم العاصمة ، كالصرة من الفيوم المحافظة ، وهنالك على بعد ثلاثة عشر كيلو مترا الى الجنوب منها توجد العزب ، حيث دير الأنبا ابرام وخلفه مقابر المسيحيين ، وعلى مسافة خمسمائة مترا أو أكثر توجد مقابر المسلمين ، وفيما بين الاثنين ، فى قلب هذا العالم الصامت صمت الابدية ابنية غريبة تحيطها الاسلاك الشائكة ، هى معتقل العزب ، والهدف الذى تسعى اليه تلك القافلة •

الاستقبال

اشعاعات الشمس المبكرة تطل على المكان كما اعتادت يوما بعد يوم . الا ان هذا الفجر كان غير فجر الامس • نسمات الصباح الطرية ولسعات البرد المحتملة ، تدميها وجوه كالحة تقف اليوم امام بوابة المعتقل فى انتظار القافلة • وصفوف من جنود تراصت على جانبى المدخل • القافلة تصل الى منتهى رحلتها • وحرمة المكان يدنسها هذا الاستقبال المعد . القائد وجوقته وزبانيته ، « حراس القيم والاخلاق » ، يلوثون طهر الصباح بفاحش القول وبذىء اللفظ • ان الذى يسمعهم ولا يراهم يخيل اليه انه قد سقط ـ فى افضل الاحوال ـ فى قلب ماخور من احط المواخير واقلها سعرا وقيمة . ان قائد المعتقل الذى ائتمنه النظام على مصيره ، والذى يتمتع بقدر من الجهالة يندى له الجبين ، يقف منفوخا كبالون يعلن فى أبهة كاذبة ، ان عبد الناصر قد اختاره شخصيا لادارة هذا المعتقل والتعامل مع المعتقلين الكفرة الملاحدة • قدم نفسه باعتباره رجلا شديدا لا يعرف اللين ، وطنى والقادمون خونة ، سعيد الحظ منهم من يخرج حيا من هذا المكان بعد عمر طويل ، ان بقى منهم من له عمر طويل • السيئة تعم والحسنة تخص • وكل مخالف للنظام سوف يعود اثمه على الجميع •

بعــد ذلك الافتتــاح والاســتهلال « الرائع » ، « بدأت حفلة الاستقبال ، لكمة هنا وصفعة هناك ، كل حسب موقعه وطريقة مشيته . لم يكن الضرب منظما ، كان نوعا من الارهاب . كانوا يسألون كل واحد من المعتقلين ساعة دخوله المعتقل عن وظيفته . سألوا الرسام زهدى :

ـ ما وظيفتك ؟

قال :

ـ رســام .

نظر اليه القائد فى دهشة . قال :

ـ تقصد شــاعر ؟

قال زهــدى :

ـ كلا ، رسام .

احتد القائد ، قال :

ـ اقول تقصد شاعر .

اصر زهدى :

ـ كلا يا افندم ، الرسام شىء والشاعر شىء آخر .

غضب القائد وصاح :

ـ تجادلنى يا ابن الكلب .

وانهالوا عليه ضربا .

كان يقف وراءه الرســالم حسن فؤاد ، ورأى ما جرى . عندما سألوه ما وظيفتك ؟ قال : شاعر يا افندم .

وشاويش المعتقل لا يقل « علما ومعرفة » عن قائده . عنـدما دخـل الدكتور لويس عوض المعتقل سأله :

ـ ما وظيفتك ؟

قال له :

ـ دكتــور .

قال الشاويش :

ـ دكتور فى ماذا ؟

ـ دكتور فى الادب •

قال الشاويش :

ـ ما معنى الادب ؟

قـال :

ـ فى القصص •

قال الشاويش :

ـ تعنى دكتور فى الحواديت يا ابن الكلب .

وأوسعوه ضربـا .

وتترامى سمعة عزب ـ الفيوم الى خارجه . انه معتقل التعذيب • ويحتل مقدمة اخبار النشرة التى كان يصدرها الحزب لفضح ما يجرى فى المعتقلات .

« كنا قد قررنا ونحن فى معتقل القلعة ، ساعة ان عرفنـا اننـا فى طريقنا الى معتقل العزب ، الا يعمد الرفاق الى الاستفزاز أو يستجيبوا للاستفزازات اللفظية المعتادة • علينا ان نحتج ، الا انه فى حالة الاعتداء بالضرب فلابد وأن يرد على الضرب بمثله » .

وصلنا المعتقل . ادركنا ذلك ساعة ان توقفت السيارات وسمعنا اصواتا حولنا . ثم تبينا ان تلك الاصوات ، هى اصوات بشر يرحبون بمقدمنا على طريقتهم الخاصة ، « وصل الكلاب ابناء الكلاب • جـاء ابناء الزنا والحرام • شرف الكفرة الملاحـدة ؛ والتشريفة جاهزة فى استقبالهم » . كانت كاصوات ضوارى تزمجر وتدمـدم تحوم حـول فرائسها • ثم ارتفعت أوامر حادة باترة : انزل ، انزل •

الادارة ازدادات خبرة بمراسيم الاستقبال . غـدت اكثر دربـة ودراية بمهامها • الاوامر المختلفة فيها خشونة وبوادر عنف واضحة . عساكر الدرجة الثانية يحيطون بالسـيارات . فك حراس الترحيلة معاصمنا من الحجلات • شعاعات ضوء خافتة باهتة تلقى على المكان رهبة . اطياف الظلام ممتدة كالاشباح الراقدة فى تحفز • كشـافات قوية تنفث ضوءها على الجدران والبشر . صـفان من جنود الدرجـة الثانية على جانبى البوابة وعصى الشوم فى ايديهم ، يبدون كشحنة عداء توشك ان تنفجر • صرخات الضباط والصولات والسجانة وزعيقهم ،

موسيقى بشعة همجية تدوى فى هذا الصمت القاتل ، ونحن نسير ندخل عبر بوابة المعتقل فى صفوف • ونداء وحشى يصدر عن حيوان يرتدى الزى الكاكى : « اقعد على قرافيصك • بوزك فى الأرض » . لا همسة ولا نأمة • فتشت حاجيات من معه حاجيات . كنا حوالى اربعين معتقلا • تمت اجراءات حفظ الأمانات . وزعنا كل اربعة منا أو ستة على عنبر من العنابر . وقفنا امام باب أحد العنابر . الضجة الحادثة توقظ اعمق الناس نوما . الا ان السكون داخل العنبر كان اشد هولا من سكوت الموتى .

اصطف الجنود خلفنا . صرخ احدهم ، « انظر امامك » • دوت فرقعة . لطمة على قفا أول من كان فى الصف • نظرت بيسارى ماذا بالتالى ، قبلى مباشرة ، يضع يده على وجهه • كان يستعد لتلقى اللطمة • هوت كف الجندى على قفاه ، فكاد ان ينكفىء على وجهه . لا احد منهما احتج ولا رد اللطمة . كانا من المعتقلين غير المنتمين • وغدا الجندى خلفى تماما . استدرت اواجهه ، كانت يده مشرعة الى اعلاها حتى تكون الصفعة فى كامل قوتها • صرخت بكل النيران المشتعلة فى اعماقى : « حذار يا جبان » • لكنته الآن وأياه وجها لوجه • بدأ الذعر فى قسماته وهو يواجه ما لم يكن يتوقع ، جمدت يده فى الهواء • جاء الضابط على صرختى ، صاح ، « ما الأمر ؟ » • قلت : « دع جنديك يلزم حدوده . لم نفعل شيئا حتى يعتدى علينا » • تمالك نفسه . قال بطريقة لا مبالية ، « انتهى الأمر ، لا شىء هناك » . ثم وهو يضع المفتاح فى العنبر ، « اتجه للعنبر » • قلت ، « إفتح الباب وسأدخل كما أنا • وجهى لجنديك » . قال الجندى يتوعدنى : « سوف يصبح الصباح ، ونرى ان كنت زعيما » . دخلت العنبر بظهرى . لقد حاول الضابط ان يلملم الأمر سريعا . يبدو انه لم يكن على استعداد لمواجهة رد الفعل الذى حدث • خشى مجابهة اربعين معتقلا خارج العنابر فى تلك الساعة المبكرة من الصباح »(١) •

المعتقل والادارة :

المعتقل أشبه بالمعتقلات النازية • سور من عروق الخشب الطويلة ، التى تملأ الاسلاك الشائكة فيما بينها ، ثم يليه سور آخر من الاسلاك الشائكة ايضا ، والمنطقة بينهما مقطعة حرام ، تجوبها حراسة مسلحة ، تزعق ما بين الحين والحين : واحد تمام ، اثنين تمام ،

---

(١) فخرى لبيب •

ويستمر النداء حتى آخر الحراس ، ليبدأ اولهم من جـديد . على تلك العروق مصابيح كهربية تلقى باضواء شبحية تزيد من رهبة المكان . وفى الاركان وما بينها ابراج حراسة من عروق الخشب ايضـا مزودة بالكشافات الدائرية المبهرة ، التى تجوس - طوال الليـل - الأرض المحيطة بالمعتقل وحول الاسوار والعنابر وفيما بينها . والى جوار كل كشاف مدفع رشاش جاهز ومعد للانطلاق . بوابة المعتقل من الاسلاك الشائكة ايضا . الداخل منها يجد الى يمينه مبـانى الادارة ، وحجرة السلاح ليك ، وزنازين التأديب . أمام تلك المبانى والبوابة شيء اشبه بالفناء ، وعلى مسافة منه خارج المعتقل محطة حراسة امامية تتحكم فى الطريق المؤدى اليه . وتبدأ على مسافة من البوابة الى الداخل صفوف العنابر ، عنبر اربعة ، عنبر ثلاثة ، عنبر اثنين وعنبر واحد ، ثم عنبر ثمانية (وهو مقسم الى نصفين هما عنبر ثمانية وعنبر تسعة) . فعنبر سبعة وعنبر ستة وأخيرا عنبر خمسة . العنابر الاربعة الأولى والعنابر الأربعة الثانية تشكل كلا منها فى مجموعها بلوكا مستقلا عن الآخر . وتفصل الاسلاك الشائكة بين البلوكين بمنطقة حرام تجوبها الدوريات المسلحة ، وكأن المُعتقـل معتقلين منفصلين محاطين بسـور خارجى مشترك ، وامام كل من عنبر واحد وعنبر خمسة ، وهما العنبران اللذان يشكل كل منهما أول كل بلوك ، توجد دورة المياه المكونة من ثمـان فتحات . يبلغ طول العنبر حوالى ستين مترا ، جدرانه مبنية من الطوب الذى تغطيه الاملاح من الرطوبة والنشع ، توجد بجدرانه على مسافات متساوية قدرها حوالى خمسة امتار نوافذ مسورة بشبكات من اسياخ الحديد مفتوحة ليل نهار ، شتاء صيف ، حتى يمكن مراقبة المعتقلين منها طوال الوقت . سقف العنبر جمالون ودورات المياه بلا أبواب .

كان هذا البناء فى الأصل معتقلا للاسرى الايطاليين ابان الحـرب العالمية الثانية . ثم تحول الى معتقل لتجار الحشيش . وهو يفتح اليوم اشداقه الشائكة لاستقبال الشيوعيين والديمقراطيين والنقابيين وانصار السلام ، وبعض من لا علاقة لهم بأى عمل سياسى أيا كان نوعه أو مستواه .

السرر مرصوصة ، داخل العنبر ، متلاصقة فى صفين متقابلين على امتداد الحوائط الطولية للعنبر . انها مصنوعة من « الحمير » الحديد ، التى تعلو كل منها ثلاث عوارض خشبية طولية ، تكسوها مرتبة من قش الارز الذى التصق ببعضه البعض وتماسكت اجزاء منه حتى صـارت كالحجارة . والى جوار باب العنبر الذى يتوسط حائطه المعاكس لاتجاه الادارة ، توجد جرادل مياه الشرب والتبول . وقد حشر فى كل عنبر ما يزيد عن ستين معتقلا ، يغلق الباب عليهم قرابة ثلاث وعشرين ساعة

فتنفـــد ميـــاه الشرب ، وتطفـــح جـرادل البـول ، وتصبح رائحـة العنبر بشعة لا تحتمل ولا تطاق .

وادارة هذا المعتقل السياسي هى نفسها ادارة المعتقل يوم ان كان معتقلا لتجار الحشيش . وهى قد اعتادت خلال تلك الفترة على أمـور يستحيل لها تحقيقا خلال الفترة الثانية .

يقول لطفى الخولى ، « كان المعتقل مصدر رزق محترم لادارته . كانت تذبح فيه كل يوم ، كما سمعنا ، ثلاثة أو أربعة خراف . كـل انواع التسلية فيه متوفرة : الخمر والحشيش والثلاجات والنقود . كان الضابط يحقق دخلا يوميا يتراوح من عشرين الى ثلاثين جنيها ، بينمـا يصل دخل الجندى العادى الى ثلاثة جنيهات فى اليوم الواحد ايضا . واستمر نفس الطاقم عند مجيئنا ، فكنـا بالنسـبة لهم كارثة قطعت ارزاقهم السخية تلك ، بالاضـافة الى المســئولية التى القيت على كواهلهم . كان الجنود قد تعودوا على الاخذ باستمرار ، حتى أن الواحد منهم كان يطلب منا أى قدر من المـال ولو خمسة قروش » .

ويقول طاهر عبد الحكيم (١) ، « كان تجار المخدرات يلقون من الادارة كل التسهيلات اللازمة للاشراف على تجارتهم من داخل المعتقل . فكان القائد والضباط يأتون لهم بمعاونيهم الى داخل المعسكر ليناقشـوا معهم أمور تجارتهم . كان الواحد من هؤلاء التجار يخرج مع القـائد أو الضابط فى سيارة المعتقل ، بعد تمام المساء ، ويذهب الى بيته ان كان من سكان المنطقة ، أو الى أحد بيوت الدعارة فى الفيوم حيث يقضى وقتا طيبا ثم يعودون عند الفجر ، وفى مقابل ذلك كانت هنالك هدايا تقدر بمئات الجنيهات للقائد وضباطه . وكانت لهم رواتب شـهرية من تجار المخدرات ، كما كان هؤلاء يتخلون للقائد وضباطه عن المبلغ الذى رصدته وزارة الداخلية لاطعامهم معتمدين فى غذائهم اليومى على أموالهم الخاصة ، ولا شك ان اخلاء المعسكر من هؤلاء الذين يضعون البيض الذهب كل يوم للادارة وضياع تلك الثروة ، كان دافعا لحقد اسود على اولئك السياسيين القادمين من القلعة ، والذين يضمون بين صفوفهم مئات العمال والمثقفين وصغار الموظفين والفلاحين الذين لا يملكون شروى نقير ، ولا يبشرون بأى فائدة مادية يمكن ان تعود على ادارة المعتقل » .

ان ادارة المعتقل والتى اتخذت من معتقل تجـار المخدرات بضـاعة

---

(١) كتاب الاقدام العارية لطاهر عبد الحكيم .

تناجر هى فيها ، هؤلاء الذين كانوا يلعبون دور الوسـطاء والقوادين لهؤلاء التجار ، والذين يديرون المعتقل لحسابهم الخاص كسوق سوداء يهربون اليها الممنوعات ويبيعونها بالسعر الذى يحددون ، هم انفسهم الذين ارتدوا مسوح حماة الوطنية والدين . وأخذوا يعبأون الحراس ضد المعتقلين السياسيين ، على أساس انهم خونة وكفرة وملاحدة .. لقد كانت لهم ايضا معركتهم الخاصة مع هؤلاء المعتقلين الجدد ، هؤلاء الذين يتحدثون عن حقوقهم ، فى الوقت الذى ضيعوا فيه « حقوق » الادارة المـادية .

فان اضيفت الى احقادهم الخاصة ، تعليمات المباحث العامة بسوء المعاملة ، فقد توفرت لهم مظلة واقية . نسيجها سلطة الدولة ، للعبث باقدار هؤلاء الرجال الذين سقطوا فى شباك اسلاكهم الشائكة . وتتفنن الادارة فى الاساليب التى تعود عليهـا بالكسب المـادى ، وتلك ترفع اسهمها ايضا فى عيون سادة لاظوغلى . انهم يبتزون المعتقلين . كل من يلبس ساعة او خاتما أو دبلة زواج ذهبية ، عليه ان يقدمها « راضيا » هدية لهم والا فهنالك الفلكة . كل معتقل عليه ان يوقع باستلام طـرده سليما معافى ، حتى وان لم يحصل على غير بعض ممـا فيه ، والا فله الفلكة . على جميع المعتقلين أن يلزموا الصمت بينما قائد المعتقل وجوقته يتقاسمون مع المتعهد تلك الملاليم المقررة لغذائهم ، فلا يأكلون غير مـاء ساخن تسبح فيه اجسام غريبة ، والا فللمندوبين الفلكة .

ادارة المعتقل عصبة لا تعرف فى السياسة أكثر مما « يتيسر » فى الصحافة من شتائم وسخائم وما تتلقى من المباحث العامة من تعليمات ، تستغلها — وبمعرفة المباحث العامة ايضا — لتحول المعتقل الى شركـة خاصة ، لها قانونها الخاص ، وهى مجلس ادارتها . رأسمالها سـلطة غاشمة باطشة ، وقيم معدومة ، ومهارة فى اللطش يحسدهم عليهـا أعتى اللصوص ، والعائد لبن وشهد ، والجهـد أوامر وتعليمـات ، والاسلوب ابتزاز وضرب وجلد وتنكيل وتعذيب .

قائد المعتقل رائد يدعى أحمد منير غالى ، مرقى من تحت السلاح ، يتجاوز الخمسين من العمـر ، يحاول جاهدا ان يعوض ماضيه بابهـة المظهـر والمبالغـة فى الخيـلاء والتعـالى ، لا يـدرى ما الفرق بـين الشاعر والرسام . يستولى على اقلام المعتقلين من الامانات . يحاول الحصول منهم على اى شىء ، حتى الوصفات التى تمنحه طاقة جنسية ، والتى يجربها فلا تفيد ، ويسخر منه الاهل فيعود ساخطا يطلب بديلا . يتوهم ان المعتقلين رغم الحراسة المشددة عليهم ، وعزلهم التـام عن

بعضهم البعض ، يجرون اتصالات فيما بينهم ، فيحرث الأرض فيما بين العنابر بحثا عن اسلاك موصلة دفينة ٠

اليوزباشى عبد المنعم التونسى ، وكيل المعتقل ٠ جزء من الادارة وموقفها العام ، الا انه لا يتميز بموقف خاص أو طريقة تعامل خاصة . كان يرى أن هؤلاء المعتقلين قد اتعبوا الحكومة ذاتها ، فما قدرة ادارة المعتقل فى مواجهتهم !

الضابط حمدى نصار . بدين ، شديد الصلف والغرور ٠ لا ينحرك فى المعتقل الا وهو يحمل كرباجا ٠ يعشق التعذيب . هو السفاح الأول فى المعتقل ٠ يقدم نفسه الى السلطات باعتباره الاجدر بالمركز الأول فى هذا المعتقل السياسى ، فالقائد من تحت السلاح ، والوكيل غير مؤهل لهذا الدور ٠

ملازم حلمى العيسوى . طويل . اقرب الى البلاى بوى . لا يسير الا ومسدسه معلق فى خصره يتدلى على ردفه ٠ ابن عمدة احد مراكز المحافظة ٠ فى حالة تمثيل واستعراض دائميين . عندما يشرف على تعذيب أحد المعتقلين ، يصر على أن يقول المعتقل « انا امرأة » ، والا فان التعذيب يستمر حتى يفقد الوعى ، يتصرف وكأنه ما زال فى دوار أبيه ؛ أو كأنما يحس رجولته عند اذلال رجولة الآخرين ٠

ملازم فتحى . ربما كان هذا الاسم اسمه ، وربما لم يكن كذلك ، هو ضابط المباحث العامة داخل المعتقل ، وعينها على كل ما يجرى فيه ، والطريقة التى تنفذ بها اوامرها . استفزازى من الطراز الأول ٠ مهمته الاحتكاك بالمعتقلين ، وافتعال المبررات للاعتداء عليهم ٠

الصول سليم ، « كان يبدو رجلا طيبا للغاية ، كظاهرة شاذة واستثناء من قاعدة عامة ٠ كان يدارى على اخطاء الناس ٠ ويغمض عينيه عن أى شىء مخالف . كان يظهر عليه الألم لما يقاسيه المعتقلون ٠ حدث تأخير فى دورة المياه ، وكان هذا التأخير اثما كبيرا . جاء يستعجل من فى الدورة ، قال للادارة انه هو الذى سمح بهذا التأخير تغطية للمعتقلين . قالوا له : كم انت انسان وطيب ايها العم سليم . قال : اسمعوا واعوا ٠ حذار ان تقولوا مرة أخرى ما قلتم . أنا لست بالرجل الطيب . أنا وحش وقاسى ٠ وانقلب بالفعل الى وحش كاسر يزعق ويصرخ »(١) ٠

---

(١) لطفى الخولى .

ليس أمرا عاديا ان يتصرف السجان كانسان فى هذا المكان . فهو اما ان ينقلب خشية على مستقبله وحاضره ، واما ان يبعد حتى لا يكون ثغرة فى جدار خطة التصفية . « جاء ضابط جديد . كان ذلك فى بداية المعتقل . قال له المعتقلون ان الخبز قذر وبه صراصير . استدعى المتعهد وهدده . هذا خبز لا يأكله اناس مثقفون ، هذا خبز تأكله البهائم . لابد فى صباح الغد ان يكون الخبز جيدا ونظيفا . فى صباح الغد جاء الخبز كما كان . اما الضابط فقد نقل على الفور »(١) .

الامباشى غطاس – ضابط الصف المسئول الفعلى عن مجريات الأمور بالمعتقل . قاتل بالسليقة ومبتز محترف ، طابور مسمياته لا ينتهى . هو رجل الادارة الأول بين السجانة وكلبها العقور . تكاد تكون فلكة المعتقل ملكية خاصة له يستخدمها فى تحقيق اغراض الابتزاز والسطو على ما بقى فى حوزة المعتقلين ، بل هو يتجاوز ذلك الى انتقاء العناصر المستقلة ميسورة الحال بعض الشىء ، ليضغط عليها ، حتى تشترى امنها من فلكته بخطابات الى أهلها فى الخارج ، يقوم هو بتوصيلها ليحصل على اتاوات نقدية .

الشاويش وديع . شاويش مجند من الدرجة الثانية ، يمكن التعرف على هذا الكائن بالتعرف على دوره فى المعتقل كمروض لهذا النوع من الجنود ومدربهم على كل الاساليب الوحشية . تتحدد مهمته فى تحويل هؤلاء الفلاحين البسطاء التعساء ، الذين عانى اجدادهم-ويعانى أباؤهم عسف الدولة واضطهادها الى ادوات باطشة لهذه الدولة ، الى أن يكونوا سوط عذاب ضد هؤلاء الذين يدافعون عنهم . ان مثل هذه المهمة القذرة تحتاج الى شخصيات ذات تركيبة نفسية خاصة . شخصيات مريضة حقا ، شخصيات على استعداد لتحويل ابنائهم واخوتهم بل وامهاتهم الى درجات يصعدون عليها ، حتى لو كان هذا الصعود مجرد شريط يضاف إلى الاشرطة التى يحملها على ذراعه ، فتزيد مقامه التافه رفعة .

ان جنود الدرجة الثانية والذين يشكلون فرق الحراسة التى تجوب المناطق الحرام التى تحيط بالمعتقل أو تخترقه ، ويحتلون الابراج يحملون الرشاشات ويديرون الكشافات ، والذين تتكون منهم فرق الاستقبال البذيئة وفرق الضرب والتعذيب وحراس ما بين العنابر ، والذى يعمل البعض منهم كبصاصين يراقبون ما يجرى داخل العنابر ، ومجموعات الاستماع ، والتصنت ، هؤلاء الجنود يعيشون تحت سوط لا يكف عن

---

(١) لقاء شخصى مع محمود عبد الخالق .

الدوى فى آذانهم ، يلهب خوفهم وذعرهم ، من أن يتحولوا هم انفسهم الى ضحايا للتعذيب الذى يمارسونه ، بايدى زملائهم • ان الجندى الذى لا يقوم بدوره كما يجب فى البذاءة والشتائم والسخائم ، ولا يبدى حماسا فائقا اثناء الضرب والتعذيب ، ولا يبلغ عما يسمع أو يرى ، معرض هو نفسه لأن يعلق على الفور فى الفلكة ، وينهال عليه زملاؤه ضربا وتعذيبا تحت اشراف الادارة وممثلها « الهمام » الشاويش وديع • لقد حول هؤلاء الجنود الى قطيع مذعور يحفع الخوف عن نفسه ويدافع عن ذاته بان يتصرف دون حس أو ادراك ، والا يكون أكثر من صدى مدوى لصوت السيد مهما كان هزيلا ، وأن يكون أداة الفعل والتنفيذ الصماء لارادة زمرة الادارة المنفذة لخطة التصفية . انهم يحولون الحراس الى مجرد حيوانات ضارية تدافع عن نفسها بايقاع الاذى والتنكيل بالمعتقلين • مباراة فى الوحشية ، تستخرج كل ما فى النفس البشرية من دناءات وبشاعات تنميها وتطورها ، فهى مؤهلات الحارس الناجح . واكثر من ذلك وأهم ، انها طوق نجاتهم هم من هذا الجحيم •

وحتى يمكن تحقيق ذلك ، غسلت امخاخهم ، أو بصورة ادق نفيت مداركهم واستبدلت قدراتهم على التفكير المستقل ، مهما كانت محدودة ، بارادات النظام وترهات دعاته ومنظريه • « انهم يقومون بمهمة مقدسة ، هى تخليص الوطن من ابناء الشياطين الكفرة الملاحدة » . لقد اتخذوا من بساطة ابناء الفلاحين ، وعمق الايمان فى الوجدان المصرى ، اداة لغير ما أستهدف الدين والايمان • اتخذوا من ذلك مدخلا لشحن وحشد وتعبئة كل مشاعر العداء الطبقى لحسابهم ، على أساس من الاكاذيب والاباطيل • والنتيجة ان هؤلاء الجنود كانوا يعيشون ايضا فى حالة من الذعر والخوف من المعتقلين انفسهم • انهم يواجهون ابناء الشياطين ، وللشيطان فى الريف مهابة ، فهو القادر على خوارق يعجز بنى البشر عن مواجهتها والتصدى لها •

ومن هنا ذاعت وانتشرت عن المعتقلين ، أعمال تفوق الخيال . انهم يكتبون على الهواء ويتبادلون الحديث بالنظرات ويتخاطبون باشارات غير مرئية • وهم رغم الحراس والجدران وفرض الصمت بالقمع ، يتفقون ويتخذون موقفا واحدا فى يوم واحد فى لحظة واحدة : ويقولون نفس الكلام ويطالبون بنفس المطالب ويقدمون نفس الاحتجاجات . ان احدا لا يستطيع اختراق كل تحصينات الادارة غير الجن ذاته ، أو على الاقل من يقف الشيطان الى جواره . وتتضخم الاكاذيب والاباطيل ليصدقها مصدروها من كثرة ترديدها ، وعجزهم عن

تنفيذ مخططهم ، وعدم القدرة أو افتقاد الشجاعة للاعتراف بالعجز امام هؤلاء المقيدين فى العنابر •

ويصل الامر بالجنود الى اندفاع احدهم من دورة المياه فى ليسنة حالكة ، اثر حركة فأر أو صرصار ، عار يتخبط سرواله فى أقدامه ، يجأر بالصراخ فى قلب المعتقل : « اغيثونى ، عفريت شيوعى يطاردنى » . وآخر من فريق البصاصين والمتصنتين يستمع الى زميلين من المعتقلين يلعبان الشطرنج ، وواحد من الزملاء الذين يتفرجون على المباراة داخل العنبر يقترح أن يأكل أحد اللاعبين عسكرى اللاعب الآخر ، فيقول الآخر أنه يخطط لاكل العساكر كلها • فيندفع الجندى يصرخ الى الادارة يستغيث بها : « ان الشيوعيين يخططون لاكل العساكر جميعا » .

ثم تأتى فرقة « الكاترابانت » أو عساكر الهجانة • أو الجنود السود • ويجرى اعداد هؤلاء بطريقة خاصة تجعلهم اداة تنفيذ باطشة فى يد الدولة • وكم استخدمتهم الحكومة المصرية لاشاعة الرعب والفزع فى القرى المصرية التى تثور بها اية نزاعات قبلية أو هبات ثأرية معادية للاقطاعيين . انهم فرسان الهجين وابرع من يجيد استخدام الكرباج فى مصر كلها . انهم لا يعرفون غير تنفيذ التعليمات بدقة متناهية وطاعة عمياء • الا ان هذا العمى سرعان ما ينقشع ان رأى هؤلاء الحراس السود ، معتقلين سودا ايضا • ان الامر يبدو لهم غريبا ، ويكون هو الخيط الذى يشدهم الى محاولة معرفة حقيقة ما يجرى ، فتنداح الصرامة المرسومة بها تقاطيعهم ، وتتكشف اعماقهم التى تعانى وتتعاطف مثلما يعانى ملايين المضطهدين ، ويتعاطفون بالقلب ان عجزت اليد أو اللسان • وأكثر ما يثير ضيق هؤلاء الجنود ، أن يروا آخرين من الجنود المصريين يستخدمون الكرباج بجهالة فلا يحسنون احترام استخدامه . ان الكرامة الحرفية هنا ، تثور للاساءة البالغة التى تمس تلك الاداة عندما تقع فى ايدى غير العارفين بامكانياتها وقدراتها وكيفية التعامل معها •

ثم يأتى الطبيب . والمفروض فيه ان يكون امينا لمهنته . مجرد طبيب محايد يعالج المرضى دون ان يتعاطف معهم أو مع الادارة سياسيا ، الا ان طبيب المعتقل كان جزءا لا يتجزأ من الادارة . هو يتفرج على المرضى وهم يجلدون • وهو يدارى كل سوءات الادارة : الطعام الردئ القليل ، وتدهور صحة المعتقلين ، والعنابر المغلقة العفنة . وان اجبر امام اوضاع لا مفر فيها من علاج بعض الزملاء فهو يتبع اكثر الصور وحشية • « عرض عليه زميلان معتقلان بألم شديد فى الاسنان ، وافق على الخلع على ان يكون دون مخدر • قبل الزميلان المعتقلان ، فانتزع اسنانهما دون ان

يتأوه واحد منهما »(١) . وهو ان ووجه بشىء فشعاره ليس فى الامكان افضل مما هو كائن . « طالب المعتقلون بالخروج أكثر من ساعة حتى يمكنهم وضع الفرش فى الشمس بسبب الحشرات التى كانت تمرح فى العنبر . رفض الطبيب مقررا انه لا توجد حشرات . طالب المعتقلون بلجنة تحكم على أقوال الطبيب . وافقت الادارة بعد ان تمسك المعتقلون بهذا المطلب . كان الطبيب عضوا فى هذه اللجنة . كان ما يزال مصرا على رأيه ، يزعم ان ما يقال عن الحشرات أمر لا أساس له من الصحة . مد أحد المعتقلين يده الى ياقة قميصه وامسك بقملة عرضها على السادة أعضاء اللجنة ، فلزم الطبيب الصمت ، وصرح لهم باخراج الفراش »(٢) . طبيب فقد ضميره وشرف مهنته وامانة المسئولية ، وغدا واحدا من الجلادين .

« السيد » المتعهد كان فى الاصل مخبرا . يدعى حسين ، قصير ، بدين ، ربعة القوام ، فاتح اللون احمر الوجه ، يرتدى معطفا أصفر اللون . يعامل المعتقلين كأسرى حرب تخصه . كان ان تصادف « تشريفه » المعتقل ساعة ضرب أحد المعتقلين ، يشارك بحماس فى هذا العمل « الوطنى » . هو ضمن العصابة ، وان كان واحدا من أهم ركائزها . يقتسم مع الادارة ملاليم الوجبات المقررة للمعتقلين ، ثم لا يقدم لهم شيئا يمكن ان يسمى طعاما . وويل لمن تظلم أو اشتكى ، فله سوء العقبى . فالادارة فى مقابل ما تحصل عليه من حصة ، تؤدى دور الجلاد ، تأدب كل من تسول له نفسه فتح فمه « حماية للمصالح المشتركة » .

وخلف كل هؤلاء يقبع ، سيدهم المطاع ، عبد العزيز شاكر ضابط المباحث العامة وحلقة الوصل بين لاظوغلى القاهرة وعزب الفيوم . هو الآمر الناهى فى ذلك المكان . السلطة التى لا تعلوها سلطة فى ذاك الزمان . هو يعرف كل سلوكيات الادارة ، ويتخذ منها اداة فعالة لتطويع الادارة ذاتها لمشيئته . هو يدخل فى روعها انها مكلفة من عبد الناصر شخصيا للقيام بهذه المهمة « الجليلة » . وحسن الاداء ودقة التنفيذ تفتح ابواب الترقية والصعود بلا حدود . هو استاذ من اساتذة دعم كل النقائص ، وصولا لاغراض الخطة المنوط به تنفيذها من خلال تلك الادارة ، الساتر الذى يختفى وراءه ، والتى يشكل افرادها طاقم الدمى التى يحركها ، والتى عليه ان يتعرف على اعماقها ، حتى لا تخرج باى حال من الاحوال ، بالوعد والوعيد ، بالاغراء والتهديد ، عن الدور

---

(١) لقاء شخصى مع مصطفى هجرسى .

(٢) ابراهيم مرسى .

المرسوم لها • ان الهامش الوحيد المتروك لها حرية الحركة فى اطاره ، هو هامش « اللطش » والابتزاز ، بما يزيد من الضغط النفسى والبدنى على المعتقلين ، وبذا يكون الهامش متسقا تماما مع الخطة العامة ومكملا لها •

انّ صورة المعتقل والادارة لا تكتمل الا بعرض ادوات التعذيب والاساليب المختلفة للتنكيل بالمعتقلين ؛ فهنالك الفلكة والعروسة والساقية والتعرية • ويمارس الضرب بالفلكة باجلاس المعتقل القرفصاء ثم لف يداه حول ركبتيه وتقييد المعصمين بقيد حديدى أمريكى يضيق بصورة آلية مع أى حركة مهما كانت محدودة فيمزق الجلد واللحم ، ثم توضع عصا عند ثنية الساق مع الفخذ أسفل الركبتين فتشل حركة المعتقل تماما • ثم يقلب فتصبح قدماه الى أعلى ورأسه الى أسفل • ثم يبدأ الضرب فوق بطن الاقدام بالكرابيج أو الشوم التى تدق العظام ويدوى صداها فى رأس المضروب • أما عدد الضربات فبلا حساب • وعندما تنتهى الطريحة الواجبة ، على المعتقل ، المعتدى عليه ، وقد أصبحت قدماه فى حجم خف الجمل ان يجرى بالخطوة السريعة حتى لا تتجمد الدماء التى سالت تحت الجلد وصبغت قدماه باللون القرمزى الغامق ، وهو حين يفعل ذلك ، تطارده العصى والشوم بضربات متلاحقة فى أى مكان من جسده •

والعروسة تكوين خشبى ينتصب قائما له ما يضارع الاذرع والسيقان، وفى اعلاه فتحة تدخل منها الرأس • وهى يشد اليها المعتقل كالمصلوب مفتوح الذراعين والساقين وقد تعرى نصفه الأعلى ثم يقيد اليها بالحبال ، ويصبح العريس الذى يحتضن العروس ، ويبدأ الجلد على الظهر العارى بالكرباج ذى العقد ، فيتمزق الجلد ويدمى الجسد • وعند نزول العريس من فوق عروسه يكون المحتفلون به قد أعدوا جردل ماء مشبع بالملح ليلقى على ظهره فيكتوى بنار كالجحيم •

والساقية ، وفيها يقف جنود الدرجة الثانية فى شكل دائرة ، ومع كل منهم ما تيسر ، قنايش ، شومة ، جريدة نخل ، قحف نخل ، خيزرانة ، سلك مجدول أو خرطوم من الكاوتشوك ، كل وشطارته • وترسم فى داخل هذه الدائرة ، على مسافة خطوة أو خطوة ونصف منها دائرة أخرى مرسومة على الأرض • وعلى المعتقل ان يلف ويدور جريا فى تلك الحلقة الداخلية ووراءه من يستحثه ويحكم حركته فلا يخرج عن الدائرة أو يبتعد عن مرمى ضربات السادة الجنود الواقفين فى الدائرة الخارجية ، لأنه بذلك يكون قد خرج على « الطريق السوى » وحرم هؤلاء السادة من أداء واجبهم المقدس ، مما يستوجب مضاعفة جرعة الجرى والضرب تكفيرا عن تلك الخطيئة ولخروج

المعتقل بذلك على قواعد اللعبة كما يجب ان تكون • ويظل الأمر كذلك حتى تنقطع انفاس المعتقل ويتمزق جسده ويسقط من الضرب والاعياء •

الا ان الطريقة الاكثر شيوعا واستخداما هى طريقة التعرية ، وفيها يخلع المعتقل ملابسه فيصبح كمــا ولدته أمه ، ثم يضرب بالكرابيج حتى تتمزق الكرابيج ، وحينئذ يكون جسده كتلة دامية تلاشت معالمهـا وحلت محلها خطوط طولية وعرضية ومتقاطعة محفورة فى اللحم بعد أن هتكت الجلد ومزقته اربا اربا •

وهنالك غير تلك الادوات الخشبية او الجلدية ، الادوات البشرية . اذ من تمزق كرباجه من كثرة ما ضرب ، أو تكسرت عصاه من كثرة ما دقت العظام والجماجم ، يستخدم قدميه وقبضيته ركلا ولكمــا ولطما • ومن تعبت يداه أو كلت قدماه ، فهنالك لسانه الذى يفيض ببذىء السب ومقزع الشتم •

المعتقــلون :

الغالبية العظمى من المعتقلين شيوعيين . البعض منهم سبق أن سجن واعتقل زمان الملكية وايام عبد الناصر . كانت لهؤلاء تجاربهم مع الادارات المختلفة ، ولهم مواقفهم امام النيابة والمحاكم . تمرسوا فى النضال وخاضوا معارك شتى فى الشوارع والمصانع والحقول والجامعات أو خلف القضبان . الا ان الكثرة كانت شبابا حديث عهـد بالحركة الشيوعية • انضم الى الاحزاب الشيوعية المصرية قبل ان تتوحد أو بعد أن توحدت فى الحـزب الشيوعى المصرى الواحد ، خلال معارك الانتخابات عام ١٩٥٧ أو فيما بعـد عام ١٩٥٨ خلال المعارك الديمقراطية والاجتماعية • وهم فى هذا يواجهون التجربة المرة لأول مرة • يواجهون قمة عنف الدولة دفعة واحـدة •

وهؤلاء المعتقلون الشيوعيون ليسوا فريقا واحدا . انما هم اربع فرق : الحزب الشيوعى المصرى وتمثل قواته نصف المعتقلين . وهو حزب له مواقفه الخلافية مع النظام ، وهى تدور أساسا حول الديمقراطية وبعض القضايا الاقتصادية والاجتماعية والقومية ، الا ان خطه العام كان مؤيدا للنظام • يرى ضرورة الجبهة معه ، جبهة تقوم على الوحدة والصراع . الوحدة فى النقاط الغالبة وهى نقاط اتفاق ، وخاصة القضية الوطنية وبعض القضايا الاقتصادية ، والصراع الديمقراطى حول نقاط الخلاف ، بمنهج لا يغلب الخلاف على الاتفاق • وداخل هذا الحزب هنالك اقليــات من اعضائه على يمين هذا الخط أو على يساره ، والفريق الثانى هو الحـزب الشيوعى المصرى (حدتو) وهو انقسام خرج على الحزب الواحد فى منتصف عام ١٩٥٨ • ويقف هذا الحزب (حدتو) الى يمين الحزب الشيــوعى

المصرى . اذ انه يتخذ خط الوحدة المطلق مع النظام . يؤيد بشكل عام كل خطاه . ويرى فى أى موقف معارض شكلا من اشكال استفزاز الطيف الوطنى . ثم تأتى بعد ذلك منظمتان صغيرتان لم تدخلا معركة الوحدة الشاملة لكل الشيوعيين المصريين ، وبذا كانتا قبل تكوين الحزب الواحد عام ١٩٥٨ وظلتا كذلك بعد تكوينه ككيانات مستقلة . هاتان المنظمتان هما الطليعة الشيوعية (ط · ش) ووحدة الشيوعيين (و · ش) وهما تقفان ــ من الناحية السياسية ــ الى يسار الحزب الشيوعى المصرى ، وتأخذان موقفا أكثر تشددا فى قضية الجبهة · وعدد كل منهما فى المعتقل محدود الى حد كبير ·

أما المستقلون أو غير المرتبطين بأى تنظيم شيوعى ، فيمكن ايضا تقسيمهم الى عدة مجموعات وافراد ، الا ان تقسيمين أساسيين يمكن أن يندرج كل المستقلين تحتهما : المستقلون المنتمون فكريا وسياسيا ، والمستقلون الذين لا انتماء فكرى أو سياسى لهم .

المستقلون المنتمون سياسيا ، هم رموز لقوى وطنية ديمقراطية تقدمية ، من الصحفيين والكتاب وأصحاب دور النشر ، الذين اثروا الفكر المصرى ورفعوا رايات الوطنية والحريات السياسية ، هؤلاء الابناء البررة لاسلاف لهم وقفوا فى مواجهة الظلم والطغيان ، وحافظوا على شرف الكلمة ونقاء القلم . وأنصار السلام الذين وقفوا يزودون عن مصر والبشرية ويلات الحروب النووية والاحلاف العسكرية والعدوانات الاستعمارية · والنقابيين الشرفاء الذين ناضلوا من أجل استقلالية الحركة النقابية ووحدة الطبقة العاملة والدفاع عن حقوقها ، واساتذة الجامعة الامناء على مصير الجيل · هؤلاء الذين رفضوا تزييف الحقائق وخلط الاوراق والمساس بارادات الشعب وابناء الشعب الذين وضعوا امانة فى اعناقهم ، هؤلاء جميعا الذين رفضوا ان يكونوا دعاة أو ادوات لغير ما يعتقدون ويؤمنون · وبعض الليبراليين الذين كانوا يؤمنون بحق الغير فى التعبير والتفكير وان اختلفوا معهم الى حد العداء .

والمستقلون الذين ليس لهم أى انتماء سياسى ، هم من المواطنين العاديين أو ربما دون العاديين سقطوا فى هذا العالم الغريب ، فكانوا أقرب الى المذهولين ، الذين لا يدرون سببا حقيقيا يبرر وجودهم فى هذا المنحدر الذى لا يعرفون له قاعا . انماط شديدة التباين توضع فى الجحيم دون حساب · كأن يوم الحشر قد حل · وسادة الأرض قد استباحوا لأنفسهم أن يخرقوا قواعد العدالة السماوية ، الحساب والعقاب . . كانت هنالك مجموعة من أبو قرقاص ، لهم مطالب عادية تتعلق بمدرسة بها جمعية

دينية مسيحية . اتهمهم البعض بانهم شيوعيون يتخفون وراء ستار هذه الجمعية الدينية ، فاتوا بهم الى المعتقل »(١) . « مجموعة أبو قرقاص كانت جمعية من جمعيات مدارس الاحد ، دخلوا فى بعض الصراعات المحلية ، ففعل بهم مثلما كان يفعل فى مثل هذه الحالات . بلاغ كيدى يتهمهم بالشيوعية . كانوا سذجا لا يعرفون شيئا ، حتى ان واحدا منهم اجاب على وكيل النيابة عندما قال له ان المباحث العامة تتهمه بانه عضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى ، بان « هذا شرف كبير يا سيدى . وكل ما تقوله انا مقر به » . واعتبرته المباحث العامة ان هذا اعتراف بالتهمة وصحة التحريات التى تقول انهم يشكلون خلية شيوعية ويقومون بتوزيع المنشورات . وقد ظل هؤلاء فى معتقل الفيوم فترة بعد ان نقل منه كل المعتقلين الى ابو زعبل . ثم اخذوا الى معتقل القلعة لتمريرهم بعمليات غسيل المخ التى كان يشرف عليها دكتور محجوب وطعيمه الجرف »(٢) . « كان هنالك ايضا معتقل من دمياط . كان من الاخوان المسلمين واتهمه جاره بالشيوعية فأخذ فى الحملة . أما المعتقل الغريب حقا ، فهو ذلك الذى كان له أخ شيوعى هارب . وكان هذا المعتقل يعمل كاتبا فى وزارة الحربية . وقد رأى فى أحد الأيام أخاه الهارب وقد امسك به بعض الناس وهو يقاومهم ، فترك الدراجة التى كان يركبها وهرع على الفور كى ينقذ شقيقه . لم يكن بالطبع لديه أية فكرة عن السياسة أو ما يجرى فى هذا العالم ، وانهال على المخبرين الممسكين بشقيقه ، فتكاثروا عليه وحملوه واخاه الى المعتقل . كانت مشكلته ، عند القبض عليه ، انه كان فى حوزته قطعة من الحشيش . كيف يخفيها ؟ وكيف يتعاطاها ؟ حتى أخذوه الى النيابة للتحقيق معه . انتهزها فرصة واقتسمها مع حارسه . دخل على وكيل النيابة وقد دخن السيجارة المحشوة . سأله وكيل النيابة :

ـ أنت عضو فى الحزب الشيوعى ؟

قال :

ـ لست عضوا فى أى شىء . ثم ما هو هذا الحزب الشيوعى ؟

قال وكيل النيابة :

ـ الحزب الشيوعى هو الحزب الشيوعى . وافضل لك الا تدعى الغفلة .

قال :

---

(١) لطفى الخولى .
(٢) نبيل زكى .

- لك ما تراه . انا عضو فى الحزب الشيوعى .

قال وكيل النيابة :

- اذن انت لا تنكر ذلك ؟

قال :

- انكر أو لا انكر . ماذا يعنى ذلك !

قال وكيل النيابة :

- ما رأيك فى القومية العربية ؟

قال :

- انها صنعة لطافة من عبد الناصر ، حتى يأخذ البلاد العربية ويضعها فى جيبه .

سأله وكيل النيابة :

- هل توافق عليها أم لا ؟

- وافقت عليها ام لم اوافق ، ماذا سيحدث لها أو يحل بها ! ان المسألة التى تهمنى الآن هو أن دراجتى قد استولى عليها هؤلاء النصابين الذين قبضوا على ، ثم هنالك أخى ، اين هو الآن ؟

واستمر وكيل النيابة يسأله الاسئلة التقليدية . وكان هذا الشخص ضمن آخر من خرجوا من المعتقل ، خرج اخوه الشيوعى حقا قبله . اعتبر خطيرا يجيد الاخفاء والمداراة »(١) .

ويقول الدكتور عبد الرازق حسن ، « هنالك فى المعتقل وجدت الدكتور لويس عوض ومحمود السعدنى وآخرين . كانت المفاجأة انى وجدت اناسا ليسوا بماركسيين . كل ما فى الأمر انهم يفكرون بطريقة حرة . كان الدكتور لويس عوض مثلا ممن اخرجوا من الجامعة معنا عام ١٩٥٤ ، وهو لم يخرج من الجامعة لفكره ، ولكن لأن واحدا من زملائه هو الدكتور رشاد رشدى دس له حتى يحل محله فى الكلية . والحقيقة ان هنالك فارقا شاسعا بين الاثنين خصوصا وانا اعرف رشاد رشدى جيدا عندما كنا معا فى انجلترا . واعرف كيف كان يتصرف . الدكتور لويس عوض يمكن ان تختلف معه ، لكنه يفرض احترامه عليك . كان فى الوضع الذى نحن فيه

---

(١) لطفى الخولى .

كالمذهول . لم يكن متصورا لما يجرى حوله . كان يقول ، لابد من خروجنا . وعندما سألته ، ولماذا لابد من خروجنا ؟ قال « لأن الهيبس كوريس يقول ، ما دام لا يوجد دليل فلابد من خروج المقبوض عليه » . والهيبس كوربس تعنى « ابرز الجثة » ، أى قدم الدليل المادى على الادانة ، فان لم تكن هنالك جثة ، فليس هنالك دليل ادانة ، فيلزم الافراج . قلت له : « يبدو انك يا دكتور لا تعيش معنا » . وقد ازداد اتصالى به خلال تلك الفترة . كان بعض الاخوة يعاملونه على انه رجل متزمت ، لأنه كان متباعدا . وانا كنت متفهما لسيكولوجيته . ووجهة نظرى انه لا يجب افتراض ان يكون الجميع مثلى فى التفكير . قد يكون تفكير البعض ضد افكارى ، ومع ذلك فلهم تفكيرهم الحر ولهم حق التعبير عنه .

وكان معنا محمود السعدنى ايضا . وكان ظريفا للغاية ، يسلينا على الدوام . وعندما رآه أحد المعتقلين الذين كانوا على علاقة طيبة به فى الخارج قال له « نهار اسود يا سعدنى ان تأتى فى قضية سياسية . كان ممكنا ان يقبض عليك فى قضية آداب أو مخدرات . لكن من غير المعقول ان تكون القضية سياسية » . وكانت نكتة ضحكنا منها كثيرا .

عندما ذهبت الى سجن القلعة للتحقيق معى ، وجدت مجموعة من اخواننا المسيحيين قادمين من أبو قرقاص . قالوا لى : قل لنا يا افندم ، ما الحكاية ؟ قلت : ايه حكاية ؟ قالوا : لماذا اتو بنا الى هنا ؟ قلت لهم : هنا معتقل . ولماذا نعتقل ؟ قلت لهم : من انتم ؟ قالوا : كنا مجموعة مسيحية من مدارس الاحد . نقيم كل يوم أحد جلسات دينية ولا نتحدث فى غير الدين . قلت : حسنا . اذا ما الحكاية ؟ قالوا : حدثت بيننا وبين مأمور المركز خناقة . فامسك بنا وحققوا معنا ، ولما لم يجدوا شيئا ضدنا احضرونا الى هذا المكان .

وقد نقلوا هذه المجموعة فيما بعد الى معتقل الفيوم حيث جاءوا الى العنبر الذى كنت فيه . كانوا يجلسون معا بمفردهم يقرأون الانجيل . الامر الغريب انهم ظلوا حتى آخر مدة . وقد قابلت البعض منهم فيما بعد ، بعد خروجنا من المعتقل ، فوجدت انه قد غدت لديهم افكار سياسية لم تكن لديهم من قبل . ومعنى هذا ان المعتقل قد قاد الى عكس ما قصده أصحابه . لقد حول هؤلاء الذين بلا فكر الى اصحاب فكر » .

المرحلة الأولى من خطة التصفية

التفرد ـ الانهيار ـ التسليم

ان معتقل العزب ـ فيوم هو التجسيد الحقيقى للمرحلة الأولى من خطة التصفية • ان هدف هذه المرحلة هو العمل على تحويل المعتقلين الى افراد ، كل فى ذاته ولذاته فقط . يجب ان يوضع المعتقل فى حالة يدرك معها ، ان أمره ـ وقد وقع ـ قد انتهى • ليس له أى سند من زملائه أو أهله أو شعبه . لقد غدا فردا منفردا معزولا عن كل شىء . ليس امامه ، تحت ضغوط القهر والتعذيب والعزلة ، الا ان يرقص على انغام لاظوغلى والعزب ، المخرج الوحيد الذى يترك مفتوحا امامه • ان حياته لم تعد تساوى شيئا ما لم يقطع كل الخيوط التى تربطه بأية قوة غير الخيوط التى يمسك بها الزبانية ، ليتحول الى دمية تتحرك طوع البنان • يجب ان تذوب ارادته ، وأن تتلاشى ذاته ، وأن يتحول الى شىء ما ، ليس بالكـائن او الكيان •

ان التفرد يستهدف تفكيك اى رابطة وخاصة الرابطة الحزبية ، وبذا يدمر هذا الكيان التنظيمى • ويقود ذلك الى تصفيته الفعلية . فان تحقق تحطيم الرابطة التنظيمية الجماعية ، غدا الكل مجرد افراد . هنا يأتى اجترار الذات والاحباط ، مما يقود الى تحطيم هذه الذات نفسها ، بالانهيار والتسليم ، مما يسهل تصفيتها والاجهاز عليها تماما •

ان معتقل العزب يمثل تجربة طموحة من رجال المباحث العـامة ، تحقيقا لخطة الدولة فى التصفية الجماعية والفردية • انها تقوم على الارهاق النفسى والبدنى ، وصولا الى تطويع المعتقلين ، وتحويلهم من مناضلين دفاعا عن حقوق الشعب ، الى مجرد مخبرين معدومى الضمائر فى خدمة أمن الدولة .

ولتحقيق ذلك ، رسم ذلك السيناريو المتقن ، بدءا بالترحيلة من القلعة الى عزب ـ الفيوم ، فى جو من الرهبة والغموض . الايقاظ فى منتصف الليل . القيد فى الحجلات . الحشر فى الشاحنات • موكب العربات • سيارات الحراسة والنجدة والاسعاف والمطافىء . زعيق الضباط ودقات اقدام الجنود • الدخول الى الصحراء فى دجى الظلام . الغموض والابهـام والسواد الاصفر الممتد بلا نهاية • المعتقل فى الفجر • الاسلاك الشائكة وابراج الكشافات • المفاجأة بالبذاءات والاهانات واللطمات والصفعات واللكمات . الدخول الى عنابر كالحظائر •

كل ذلك كان يستهدف الجرعة الأولى من ذلك المخطط البربرى • زرع الخوف والقبول بالمهانة . ان هذه الجرعة هى التمهيد الذى لابد منه للخطوة التالية ، عندما يستقر المعتقلون بين جدران المعتقل .

وتبدأ سياسة المحظورات ، « لا تقل نحن • قل انا » • يجب ان تنتهى صيغة الجمع وتسود صيغة المفرد • ويعتدى بالضرب المبرح على مندوبى العنابر • ليس هنالك من يمثل احدا او ينوب عن احد • ان الاعتداء على المندوبين باعتبارهم قيادات للمعتقلين ، يستهدف ايضا اشاعة الذعر والفزع ، فان كانت الرؤوس تضرب فما بال الحال مع القواعد . « لا تخاطب معتقلا مثلك فتناديه يا استاذ أو يا دكتور . أما كلمة زميل او رفيق فهى محرمة مجرمة • ولا تتحدث مع أحد من الادارة عن أحد من المعتقلين مسبغا عليه ايا من تلك الصفات . عليك ان تقول يا معتقل وفقط » • ان التأكيد على هذه الصفة يهدف الى قطع كل ما له علاقة بالماضى . لقد نزعت ادارة المعتقل تطبيقا لهذه الخطة ، كل مؤهلات المعتقلين . نفت عنهم صفتهم التى كانوا عليها فى الخارج • واسبغت عليهم صفة وحيدة ، بغرض غرس شعور بديمومة هذا الوضع الجديد ، وضع الاعتقال • ويتم عن عمد اهانة اساتذة الجامعات واصحاب المؤهلات الرفيعة اجتماعيا والصحفيين والادباء والفنانين ، بهدف التصغير من شأنهم ، ومن يحتج منهم يعتدى عليه بالضرب المبرح ، وذلك بغرض ازالة اى تأثير معنوى لهم ، على من ينظر اليهم كنماذج تستحق التقدير والاحترام .

لا اسم للمعتقل . انه هنا يتحول الى رقم • فوق « نمرة »(١) كل معتقل رقم • ان اسم اى شخص هو من أشد الاشياء اللصيقة به . انه من أشد خصوصياته . انه كالعلم بالنسبة للدولة . ان انزال علم الدولة دليل قاطع على هزيمتها • واسقاط اسم الانسان ، اعلان عن سقوطه • ومحاولة لتأكيد فقدانه ذاته وارادته . لقد غدا اسيرا . مجرد رقم فى قطيع ، وليس شيئا متميزا •

الصمت داخل العنابر . « لا أحد يكلم احدا . لا تتحدث وجارك • لا تنتقل من فوق « نمرتك » أو تغادرها » • ولمتابعة ذلك ، تركت نوافذ العنبر على الدوام مفتوحة . وفرق البصاصين من الجنود تتجسس جهرا أو سرا من ثقوب الابواب ، ترصد ما يجرى داخل العنابر • وتكتب ارقاما ، ذلك غادر موضعه ، ذلك تحدث مع جاره . وفى الصباح ، يبدأ اليوم بسحب تلك الارقام الى الفلكة والتأديب .

---

(١) الفراش الذى ينام عليه المعتقل .

ان الانسان يتميز عن غيره من الكائنات الحية بانه يتكلم ، ويتميز عن غيره من الحيوانات الناطقة بأنه يختزن الخبرة وينقلها تطويرا لها . ان تكميم الافواه بالشوم والكرابيج انما يستهدف قتل مكون اساسى من مكونات الانسان ، فما بال تأثير ذلك على الانسان المناضل . ان تلك المحاولة تسعى الى تمزيق أى روابط تربط المعتقلين ببعضهم البعض . انها لا تستهدف العلاقات المنظمة الحزبية فقط ، بل والعلاقات الانسانية ايضا . الانسان يقتل صمنه بان يحادث نفسه . يجتر ما يحيط به . انهم يحددون الاطار الذى يتحرك المعتقل فى داخله ، ثم البيئة التى يكون لها الفعل والتأثير على أفكاره . وبذا فانهم يقودونه فى طريق الانفـراد بالذات ، لا يفكر فى غير ما آل اليه حاله . بل وهم ايضا يزرعون فى نفسه بذور التخلى عن كل ما من شأنه توطيد او تأكيد دوره ككائن اجتماعى .

ان تفرد المعتقل عن الآخرين يسهل الانفراد به . لا انتماء للخـارج أو للداخل ، للشعب أو للحزب ، منبت الصلة بماضيه وحاضره ، ولا مستقبل خارج بوابة المعتقل الا من خلال ادارة المعتقل .

ان الضرب والسحب الى الفلكة والتأديب لا يقوم على قواعد حقيقية أو معروفة . بل ان كان هنالك ثمة قاعدة فهى قاعدة العشوائية . ان البصاصين لابد وأن يقدموا كل صباح عددا من الارقام ، فعلت شيئا أو لم تفعل ، خالفت تلك القواعد المزعومة عن الكلام مع الجار أو الانتقال من الموضع ، أو لم تخالف . العشوائية هنا مقصودة ، فهى تجعل من صباح كل يوم ، موعدا مع العذاب . انها تغلف الفرد المنفرد بذاته وتحيط به ليجتر خوفه طوال الليل خشية اشراق الشمس ليسحب الى حيث الضرب والمهانة . بل ان شيئا آخر أكثر خطورة وتدميرا ، يسرى فى الانســـان دون أن يدرى ، ان يسحب جاره فيحس للراحة ان الدور لم يصبه . نجا بجلده على حساب جلد غيره .

ان التعذيب البدنى هنا انما يشكل ركنا أساسيا من أركان الارهاق النفسى والتعذيب المعنوى . انه يسعى كى يصـــل بالمعتقلين الى مجرد كائنات مذعورة ، تحطمت معنوياتها ، وتلاشت قيمها ومكوناتها النضالية ، ولم يعد امامها الا ان تبحث عن مخرج فردى ، يصون لها ما بقى من ذاتها المنهارة ، ان كانت ما تزال هناك بقية ..

ثم يأتى الطابور . والمفروض فى الطابور ، انه خروج من خلف جدران العنبر الى فناء المعتقل ، ليتنفس المعتقل بعضا من هواء غير ملوث ، ولتعطى النفس بعض الراحة بخروجها من الحيز الضيق الى حيز اوسع ، ،ليتعرض

الجسد للشمس تعويضا له عما فى العنابر من رطوبة • والمفروض أنه خلال الطابور ايضا ، يقضى المعتقل حاجته • يغتسل ويستحم ان شاء • يغسل ملابسه ان كانت قد اتسخت . بل والمفروض ايضا ان يخرج فراشه الى الشمس مرة كل اسبوع على الاقل ، حتى لا تتكاثر فيه الحشرات بأنواعها . كما يتم كنس العنبر ومسحه وتهويته ، حتى يكون « سجنا لائقا بالآدميين » • الا ان خطة التصفية وضعت فى اعتبارها موضوع الطابور ايضا ، فالمعتقلون الذين يتركون العنبر نصف ساعة فى الصباح ومثلها بعد الظهر ، يخرجون الى الفناء يركضون ، يتسابقون ، فهنالك فى دورة المياه ، ثمان فتحات لا غير . وهم يزيدون عن الستين معتقلا • كل يود أن يهرع يزيل ضرورات الجسد . وهم اثناء ذلك لا « يستمتعون » بشمس أو هواء . وانما « تشنف » آذانهم طرقعات الكرابيج وبذاءات الجنود وسبابهم • وهم عليهم اثناء هذا الطابور الا يأتون اية حركة ، فاستعمال المنشفة لتجفيف الوجه اشارة ، ووضع اليد فوق الرأس لتسوية الشعر علامة ، والنظر ناحية البلوك الآخر من المعتقل حيث يوجد عنبر آخر عليه دور الطابور فى ذات الوقت ، تبادل للحديث واستخدام لشفرة لم تكتشف بعد • وكل ذلك يمكن ان يقود الى الفلكة أو الساقية او العروسة أو التعرية • وبذا يتحول الطابور من فسحة للنفس والبدن الى كابوس ثقيل تتعرض فيه النفس والبدن لجرعة مكثفة من الضغط والارهاق ، وفرصة للادارة كى تشيع الخوف والذعر الجماعى فجدران المعتقل ربما تستر المعتقل من المواجهة المباشرة ، اما الطابور فهو مواجهة مباشرة مع الضرب والمهانة ، وجند يحكمهم الخوف والذعر ايضا ، وشحنة من العداء تبحث عن متنفس تفرغ فيه نفسها .

وتدخل فى حسابات الخطة ايضا مجموعات المعتقلين والافراد غير المنتمين • هؤلاء الذين تحكمهم حالة من الذهول للوضع الذى غدوا فيه والعذاب الذى يتعرضون اليه دون ان يكونوا قد فعلوا شيئا ، أى شيء ، يستحقون عليه ما آل اليه أمرهم • ان المعتقل المسيس او المنتمى فكرا على الاقل يعرف لماذا اقتيد الى هذا المكان • وهو بما يملكه من عقيدة مشبع بروح القتال والمقاومة دفاعا عن معتقده وحقه فى التفكير ، أما ذلك الذى لم يشغل باله بكل ما كان يجرى حوله من احداث سياسية ، ثم فجأة يجد نفسه فى قبضة عاصرة ، فى قلب الاعصار ، فان أقل ما يصيبه هو الدوار . ان هؤلاء الرجال ، سواء جيء بهم عن طريق الخطأ أو العمد ، قد غدوا جزءا من خطة التصفية . ان المباحث العامة تجد فى ضعف البعض منهم امكانية سهلة تساعدها على تحويلهم الى أدوات لها يتجسسون على المعتقلين ثمنا بوعد بالافراج • كما انها تتخذ من ضياعهم وفزعهم

ورعبهم مادة اساسية لاضعاف الآخرين • ان المعتقل الذى يصرخ ويستغيث ويستجدى عند الاعتداء عليه بالضرب ، لا يعانى وحده العذاب ، وانما هو بحالته تلك ، اداة تعذيب للآخرين ، وبذر الخوف والخوار فى نفوسهم • كما ان هذا المعتقل الذى لا يربطه بالآخرين رباطا فكريا او تنظيميا : يمثل بالنسبة للمباحث العامة ، اداة جيدة التوصيل لحسابها فى قلب المعتقلين ، تشيع الفرقة ، وتكسر الوحدة ، وتثير الشائعات والبلبلة .

ان الارهاق النفسى والمعنوى لا يقف عند حد البنود السابقة ، اى عزل المعتقل عن زملائه المعتقلين المحيطين به ، انه يمتد لعزله ايضا عن العالم خارج الاسوار . مسموح للمعتقل ان يكتب لاسرته سطورا معدودة تحت سطوة رقابة صارمة ، وذلك حتى تطمئن اسرته عليه ، وبذا تتقى جهات الأمن شر ضجيجها ، الا انه هو كمعتقل غير مسموح له تلقى خطابات من أسرته • عليه ان يضرب اخماسا فى اسداس ، يعيش فى دوامة ما حل بأسرته : كيف تعيش الآن ، ومن ذا الذى يعولها ؟ من منهم ما زال حيا ومن منهم غادر الدنيا الى الآخرة ؟ ما مصيرهم وهو بين الجدران حبيسا لا يملك من أمره أو أمرهم شيئا ؟ ان هذا المنهج يسعى لدفع المعتقل الى ازمة ضمير ، فهو المسئول عما يمكن ان يصيب اسرته من ضرر • انه ينظر فى عيون الآخرين ، فيرى نفس الهواجس تفعل فعلها • ان كل الاوهام التى تعصف بخياله عن زوجته وابنائه تشكل ضاغطا نفسيا يرزح تحت عبئه • ان ذلك – فى عرف المباحث العامة – لابد وان يقوده الى التآكل من الداخل ، الى الضعف والوهن ، الى أن يكون مجرد هيكل اجوف بلا اعماق .

ثم تكتمل حلقة العزل عن الخارج . فلا جرائد ولا مجلات ولا كتب ولا اذاعة ، ولا شىء على الاطلاق فالمفروض ان تقف حياة المعتقل وتتجمد ساعة ان سقط فى يد الزبانية •

ويقوم الشق الثانى من الخطة على الانهاك البدنى • التجويع وصولا بالجسد الى حالة من الضعف والهزال تؤثر فى معنويات صاحبه ، كذا تجعله مرتعا طيبا للامرض • ثم عدم العلاج وترك المرض وآلامه يفعل فعله بالجسد كأداة فعالة ومعاونة لأجهزة الأمن .

يقول ابراهيم مرسى ، « بعد ان وصلنا المعتقل فى أول دفعة ، احضروا لنا بعد قليل كبشة عدس وخمس ارغفة وقطعة من الحلاوة الطحينية . افطرنا وحلينا بالحلاوة . فى الظهر احضروا لنا اداما خفيفا به قطعتين من الكوسة • قلنا هذا هو الغداء وأكلنا . فى المساء لم يحضروا

لنا شيئا . أثرنا جلبة نطلب العشاء . قيل لنا ، الم يحضروا لكم الحلاوة ؟ قلنا : نعم . احضروها . تلك القطعة الصغيرة ، اكلناها بعد الافطار فى الصباح . قالوا : ذلك كان العشاء » .

ويقول لطفى الخولى ، « ظللنا عشرة ايام نأكل الخبز الجاف وسوس به بعض الفول ، اقترح لطف الله سليمان ان نترك الخبز فى الهواء حتى يجف . ثم نضع فى قلب الرغيف الجاف ، خبزا أطرى منه . ونأكله بانطباع انه محشو بشيء ما . اطلقنا على هذا الرغيف اسم (سندوتش لطف الله) » .

ويقول نبيل صبحى ، « الافطار فول كثيب ملىء بالسوس ، اعد بطينه وشوائبه . الكمية قليلة للغاية . الخبز يكاد يكون فاسدا ، وهو لابد من مرتجع الافران . فى الظهر او الغداء ، ماء ساخن به قطعة من البطاطس غير الناضجة ، وقطعة من الشغت - ان كان لنا وجبة لحم - يلوكها المرء فى محاولة جادة لبلعها ، الا انه غالبا ما يبصقها ، حجمها محدود للغاية . العشاء قطعة من الحلاوة او قطعة من الجبن ، وهى والعياذ بالله ، قطعة ملح عفنة كريهة الرائحة . افضل الطعام كان العدس . وهو يقدم يومين فى الاسبوع . ربما كانا الاثنين او الجمعة » .

كان المبلغ المقرر لكل معتقل من قبل المباحث العامة ، هو ستة وخمسين مليما ، تقتسمها الادارة مع المتعهد ، ثم على المتعهد ان يقتسم ما تبقى مع المعتقلين ، وبذا لا يبقى من رصيد لاكل المعتقلين غير ما يكفى الماء الساخن والخبز الرجوع . ان المباحث العامة وهى ترصد هذا المبلغ تعلم علم اليقين انه لا يغطى أقل الضرورات اللازمة لاستمرار الحياة . انها ترصد هذا المبلغ التافه كجزء من مخططها فى سياسة التجويع والقتل البطىء . كما ان دخول الادارة طرفا مستفيدا من هذا الرصيد الهزيل ، قد حقق سياسة التجويع على اتم وجه . وكان كفيلا بتحقيق الموت السريع اى التصفية الجسدية . فقد أصيب المعتقلون بكل بوادر هذا الموات ، بالشحوب والهزال ، بالدوار والاغماء ، وغدوا فريسة سهلة لكل نوع من الأمراض .

ثم يأتى تطعيم المعتقلين بالامراض بدلا من وقايتهم منها . ان غلق العنبر عليهم ثلاث وعشرين ساعة فى اليوم ، وهذا التكدس فى ذلك الحيز الذى يضيق بهم ، وطفح جرادل البول وابخرة النوشادر التى تملأ المكان برائحة دورات المياه القذرة ، ورطوبة الجدران ، ورائحة عطن الابنية .

والناموس الذى يصول ويجول فى العنابر ، وعدم اخراج الافراش لتهويتها فى الشمس فتصبح مرتعا للبق والبراغيث . وعدم الاستحمام وتتابع القذارة على الجسد مما يجعله مرتعا للقمل ، يحيل العنبر الى مفرخة هائلة لكل أنواع الأمراض . ويأتى الجنود للتفتيش اليومى ، ليقفوا على السرر باحذيتهم المليئة بالقاذورات وليتركوا كل ما حملت فوق الملاءات والوسائد والمراتب ويلوثون كل شىء .

يقول طاهر عبد الحكيم (١) ، « كل ذلك أدى الى ظهور كثير من الأمراض كالدوزنناريا ، والتهاب القولون ، والسل ، والجيوب الانفية ، واحتقان اللوزتين وانتشار البثور على الجسم والانيميا الحادة . والبواسير ، والتهابات اللثة والحلق » . يضاف الى ذلك الأمراض الروماتيزمية والانفلونزا التى لا تنقطع .

الطبيب لا يعالج أحدا . فهو جزء من الادارة والخطة . المرضى الذين يذهبون اليه ، يتم الاعتداء عليهم بالضرب . ومن تكون حالته خطيرة تهدد بانفضاح أمرهم ، ينقل الى مستشفى الفيوم فى عنبر السجناء ، حيث يربط فى سريره بالقيد الحديدى طوال فترة « علاجه » . أى يصبح المستشفى اضافة جديدة لابتكارات التعذيب والتنكيل .

ان خطة التصفية فى شقها الخاص بالانهاك البدنى ، قد وضعت فى اعتبارها ان توهن الجسد الى ضعف وتلاشى قدرته على المقاومة . وأن تهىء البيئة حوله كى نكون مصدرا جيدا لكل انواع الأمراض ، ويصبح الجسد الذى نزعت منه كل مناعة مرتعا لأى مرض وكل مرض . وبهذا تستثمر المباحث العامة كل ذلك لحسابها ، فالانسان المريض أو الذى يهدده المرض ، أو الذى يرى فى زملائه نماذج تنذره بنفس المصير ، هو انسان – فى تقدير جهات الأمن – أسلس قيادا واضعف عزيمة .

ومن هنا يلتقى الارهاق النفسى والانهاك البدنى ليحققا لسادة لاظوغلى وللقيادة السياسية ، خطة التصفية – التفرد ثم الانهيار فالتسليم .

ان خطة التعذيب فى معتقل العزب بالفيوم ، قد قامت من الاساس على الارهاق النفسى والانهاك البدنى الجماعى ، والضرب الفردى ، على

---

(١) الاقدام العارية .

ان يكون هذا الضرب محققا لشقى الخطة ـ الارهاق النفسى والانهـاك البدنى معا . فان اضيفت الى خطة الجهات الأمنية والسياسية العليا ، المصالح المباشرة لادارة المعتقل فى « اللطش » والابتزاز مستفيدة بتعليمات المباحث العامة لحسابها الخاص ، تكشف المبدء البـاهظ الذين كان المعتقلون السياسيون يرزحون تحت ثقله ٠

الخطـة المضـادة

التوحيد والتجميع ـ الصمود والتحدى ـ المقاومة والمواجهة

تلك كانت خطة المباحث العامة ٠ وهى خطة على الورق « باهرة » البربرية ، تجمعت وراءها خبرة تلك الاجهزة خلال سنين طويلة ، منذ كانت حصنا يدافع عن الوجود الاستعمارى والملكية والاقطاع . منذ كانت مهمتها الأولى مطاردة الوطنيين ومحاولة سحق كل مقاومة فى وجه هؤلاء السادة . هذه الأجهزة ما زالت كما هى ، رغم تغير السـادة والقيادة ٠ ما زالت مهمتها حراسة النظام والبطش بكل مخالفيه ، أيا كان مدى هذا الخلاف ، « والابداع » فى وسائل المطاردة والاجهاز على الخصوم . هذا بالاضافة الى أن عـداءها للشيوعيين والديمقراطيين والنقابيين الشرفاء وانصـار السلام أصيل ٠ كان فى الماضى وما يزال فى الحاضر ٠

ولقد طعمت تلك الاجهزة خبرتها بخبرات اشقاء لها يؤدون نفس المهمة « المقدسة » ، فى اماكن أخرى ٠ خبراء فى الاعتقال والتعذيب . امـا بالوفود والبعثات الى هناك ، لدراسة احدث ما توصل اليه العقل البشرى المختل فى كيفية النيل من البشر ، واما باستجلاب الخبراء وتبادل الدروس المستفادة ٠

الا ان هذه الخطة كان ينقصها شىء واحد ٠ كان هذا الشىء موجودا منذ الازل ، وسيظل قائما حتى الابد ٠ هذا الشىء هو الانسان ، الذى تنفذ فيه تلك الخطة والذى تمارس عليه هذه الصنوف من العذابات والخبرات المعادية لكل ما هو انسانى ٠

لم تضع هذه الخطة فى حسبانها نوع البشر الذين اعدت لهم هـذه الخطة . انهم لم يكونوا مجرد ارقام كما ارادت لهم اجهزة الأمن ٠ لقـد كانوا هم ايضا أصحاب خبرات فى مواجهة أجهزة القمع سواء كانت خارج السجون أم داخلها ٠ أصحاب خبرات مصرية موروثة عن الاباة المصريين

للذين سبقوهم على طريق النضال ، واصحاب خبرات مكتسبة ، مارسوها هم بانفسهم وأصبحت لهم تراثا يضاف الى تراث الوطنية المصرية . كما انهم على اطلاع ومعرفة بكل الخبرات التى خاضها المناضلون فى كل مكان من العالم ، دفاعا عن حقوق شعوبهم فى مواجهة الطغيان وأجهزة القمع .

كما أن غالبية هؤلاء كانوا فى اتون المعركة فى الشارع ، يدافعون عن شعبهم ومبادئهم ، فى الوقت الذى كانت فيه الحملة المعادية لهم على اشدها . لم يفروا من المعركة ولم يهربوا من الميدان . كان منهم الصحفى الذى ظل يدافع بقلمه مجاهدا فى سبيل الحقيقة ، والعامل النقابى الذى كان يقود الآلاف ويتمتع بثقتهم والتفافهم حوله ، والفلاح الذى رفع الفأس فى وجه الطغاة منذ الاقطاع ، والطالب الذى صال وجال فى الجامعة ، والمثقف الذى كان ينشر الكتب أو يكتبها ، ليضع الامانة بين ايدى أصحابها . والفنان رساما وشاعرا وقصاصا وروائيا ، والذى كانت كلماته المرسومة أو المنقوشة أو المكتوبة طلقات من خندق الشعب فى وجه من يعادوه ، وعضو مجلس الامة الذى حمله الشعب الى المجلس التشريعى رغم كل الحواجز والقيود . والعضو الحزبى الذى حمل حياته على كفه وانطلق يناضل لا ترهبه قوة على الأرض ، تحاول عرقلة المسيرة التى يؤمن بانها الخير لكل الناس البسطاء والبشرية جمعاء ، واستاذ الجامعة الذى رفض ان يكون أداة دجل وتضليل .

المعركة الآن بين رجال لاظوغلى الذين تضيق نظراتهم فلا يرون غير اساليب السادة من الاسلاف الاقطاعيين والمستعمرين ، الفلكة والكرباج ، وسيلة « للاقناع » والترويض ، وبين مجموعة من خيرة ابناء مصر الذين آمنوا بها واحبوها اعمق الحب ، وهم على استعداد للتضحية بانفسهم حتى الاستشهاد من أجلها .

واذا كانت للمباحث العامة خطة قائمة على التفرد والانهيار والتسليم ، فقد وضعت القيادة الحزبية داخل معتقل الفيوم خطة مضادة ، خطة تقوم على التوحيد والتجميع — الصمود التحدى — المقاومة والمواجهة . وكان على هذه الخطة أن تكون ذاته شعب متعددة وأن تكون فى طابعها السائد تدريجية متتالية من مرحلة الى مرحلة ، وان كان هذا لا ينفى على الاطلاق أن تكون صور من المرحلة الثانية قائمة خلال المرحلة الأولى وان كانت لا تطغى على المرحلة ذاتها .

التوحيد والتجميع :

بدأ الحزب أولا بنفسه · بالتعرف على اعضائه وتوحيد هؤلاء الأعضاء بتنظيمهم على اساس الوجود المكانى فى كل عنبر ، على ان تشكل قيادة محلية لكل عنبر لها مسئولها السياسى ، ويشكل هؤلاء المسئولون قيادة المعتقل الحزبية وذلك بالاضافة الى مسئول المعتقل . ولقد تم انجاز هذا العمل الهام للغاية عن طريق جهاز اتصال بدأ بصورة محدودة ، ثم تتطور مع تطور الاوضاع فى المعتقل ليصبح ركيزة اساسية وهامة من ركائز المقاومة فى المعتقل كله · والحقيقة ان هذا الجهاز والذى تكون من رفاق غاية فى البسالة والشجاعة والاخلاص ، قد ابتدع من الاساليب الجسورة والذكية ، ما مكن المعتقلون من تحطيم العزلة التى كانت تسعى الخطة المباحثية لفرضها عليهم . ولابد فى هذا الصدد من أن يذكر الزميلان المبدعان ابراهيم الدسوقى (الشهير بابو حديد) وتوفيق فانوس · كما تشكل ايضا جهاز آخر هام هو جهاز « الناضورجية » ، وهم هؤلاء الزملاء الذين يقومون بمراقبة تحركات الادارة نحو العنابر ، ومتابعة حركة البصاصين الذين يتجسسون على العنابر ، واطلاق نداء التحذير الذى ابتكره عبد الملك خليل ، « بلوهم » ، حتى لا تعطى للادارة ، قدر الامكان ، مبررات الاعتداء على المعتقلين .

ولم يقف الحد عند توحيد العضوية تنظيميا ، بل كان من الضرورى اجراء مناقشات سياسية لتوفير أكبر قدر من الوحدة الفكرية فى الحزب . وذلك بطرح أفكار الحزب فى الخارج ومواقفه ، من خلال ما يرد من أفواج المعتقلين الذين كانوا يصلون من القلعة ما بين الحين والحين فى دفعات . كان هؤلاء الرفاق الجدد والذين سقطوا فى قبضة الحملة ، يحملون معهم آخر بيانات الحزب وأفكاره السياسية . كانوا فور وصولهم الى العنابر فى العزب ــ فيوم يجلسون الى القيادات العنبرية ، يعرضون من الذاكرة كل ما يمكن ان يتذكروه ، وبما ان هؤلاء الزملاء من مختلف انحاء القطر ، فانه يمكن بذلك معرفة ما يدور فى الخارج على مدى واسع ، عند تجميع كل تلك المعلومات لدى قيادة المعتقل ، لتعيد عرضها ــ مستبعدة أى شىء يمكن أن يضير بامان الحزب فى الخارج ــ على كل الرفاق فى التنظيم الحزبى فى المعتقل · وبذا كان هذا الطريق ايضا أحد الوسائل الهامة لدعم ارتباط الرفاق بحزبهم وشعبهم فى الخارج ، مما يؤكد انتماءهم · وانهم جزء من كل ما يزال يقاتل فى الشارع . كما قامت القيادات الحزبية ايضا باعداد برنامج للتثقيف النظرى ، فكثير من الرفاق الشبان ، كان حديث عهد بالعمل الحزبى وايديولوجيته ، ومن هنا كان من الضرورى قيام

الرفاق القدامى والقادرين على اعداد محاضرات نظرية ، من انجاز هذه المهمة · وبذا فان الجيل الاقدم يقدم للجيل الاحدث ما لديه من فكر نظرى وتطبيقاته على الواقع المصرى · كل ذلك كان يغنى من العلاقة التنظيمية والسياسية وبالضرورة البناء الحزبى .

ان تنظيم قوات الحزب الشيوعى المصرى ووحدته داخل المعتقل . وهى التى تمثل قرابة نصف عدد المعتقلين ، كانت لابد وأن تكون البداية ·

كما سعى الحزب فى الداخل الى تدبير اتصال بالخارج . ونجحت قيادة المعتقل فى توفير هذا الاتصال الذى يمكنه على الأقل ان يحمل اخبار الداخل الى الخارج . مما جعل اخبار معتقل الفيوم وما يجرى فيه من تعذيب تحتل الصفحات الأولى فى النشرة التى كان يصدرها الحزب بهذا الخصوص لفضح وتعرية كل الدعاوى الكاذبة عن أنه لا توجد معتقلات فى مصر ولا يمارس أى تعذيب .

وكانت الورقة والقلم هى احدى الضرورات الحاسمة لخلق هـــذا الترابط ، بسبب التضييق الشديد على الكلام وتبادل الاحاديث . ونجح جهاز الاتصال فى توفير ما امكن من الاوراق البفرة والاقلام ، واعدت المخابىء فى العنابر . وتحولت الاوراق الى تقارير وتوجيهات ومحاضرات ورســائل تحمل وجهات النظر المختلفة بهدف الوصول الى أراء ومواقف موحدة . كان التنظيم الحزبى يقول ، ان الحزب هناك فى الشارع ، وهنا بين الجـدران ايضـــا ·

ولقد تم كل ذلك فى أكبر اطار ممكن من السرية · اذ لابد أن يتوقع المعتقلون وجود عناصر مدسوسة فيما بينهم ، كذلك فان بعض العناصر وخاصة المستقلة غير المنتمية ، والتى لا ناقة لها ولا جمل فى كل ما يجرى ، يمكن أن تنهار أو تساوم على حريتها فى مقابل التجسس على الآخرين ·

يقول نبيل صبحى ، « ان الذى ساعد على نجاح المعارك التى خاضها المعتقلون وخاصة الامتناعين الأخيرين ، ميزة انفرد بها معتقل الفيوم تفردا تاما عن غيره من المعتقلات التى تلت ذلك · سرية التنظيم كانت نقطة محورية فى الفيوم . ان تصدى القوى الديمقراطية عن اقتناع ، ودور التنظيم فى توحيد الناس كلها ، لم يكن من الممكن تحقيقه بدون السرية الكاملة ، بحيث ان ادارة المعتقل لم تستطع معرفة اين قيادة المعتقل . ورغم ان فخرى لبيب كان معروفا على مستوى الحركة الشيوعية بانه قيادى منذ زمن ، الا ان

ساعة دخوله المعتقل ودوره بعد ذلك لم تكتشفه ادارة المعتقل . كانوا اذا فتحوا عنبر ثمانية فى الجزء الثانى من المعتقل ، وجدوا اناسا يقولون نفس الكلام الذى سمعوه من عنبر واحد أو عنبر اربعة . كيف تم ذلك ؟ كيف نظم ؟ من حركة ؟ كل هذا غير معروف . هذه السرية ساعدت على حماية وحدة المعتقلين ، ونجاحهم فيما حققوه من مكاسب » .

ثم عمل الحزب على ايجاد شـــكل من اشـــكال التوحد مع القوى الشيوعية الأخرى ، والمستقلين المنتمين فكريا للتقدم والديمقراطية . وتحقق ذلك الشكل من خلال لجان التنسيق ، التى تعمل على توفير الحد الادنى ، على الاقل ، من المواقف الموحدة نضاليا ، وثقافيا وحياتيا : نضاليا حول مواجهة الادارة والظروف الصعبة التى يواجهها المعتقلون ، ثقافيا بتقديم محاضرات أو ندوات ثقافية عامة ، حياتيا من أجل ظروف معيشية متماثلة . ويتم تنفيذ تلك الاخيرة من خلال الحياة العامة .

وتأتى الحياة العامة لتضم كل المعتقلين بغض النظر عن انتمائهم من عدمه ، لتشرف على تغذية المعتقلين وتوفير مندوبين لاستلام الوجبات ، وتوفير الادوية ما امكن . وهى تنفذ ذلك على أساس التوزيع المتســاوى للمواد الغذائية التى يقدمها المعتقل أو التى ترد فى بعض الطرود . وهى وان لم تكن شكلا سياسيا من التنظيم ، الا انها تلعب دورا سياســـيا هاما ، حيث ان كل المعتقلين فى العنبر الواحد يعيشـــون ظروفا حياتيــة متماثلة ، الذى تحضر له طرود والذى لا تحضر له طرود ، الكل سواسية من خلال توزيع جماعى عادل للامكانيات الفردية ، ولما كانت ظروف الاتصال بين العنابر رسميا تكاد تكون مستحيلة ، فان الحياة العامة لم تكن على نطاق المعتقل كله ، ولكنها كانت على نطاق كل عنبر على حده . وحيث ان بعض العنابر كان بها بعض الزملاء القادرين والبعض الآخر كانت غالبيته من العمال أو الطلاب فان ظروف المعيشة قد تباينت من عنبر الى آخــر . وكانت تلك احدى النقاط الهامة التى يجب ازالتها ومساواة الظروف الحياتية على نطاق المعتقل كله بتحطيم قبضة العزل داخل المعتقل نفسه بين العنابر المختلفة .

كما كانت الحياة العامة تشرف فى كل عنبر على نظافته ، وتنظيم عمليات استخدام المياه المحدودة الموجودة فيه .

يقول لطفى الخولى ، « عنبر واحد كان نصفه عمالا ونصفه الآخر مثقفين ولذا كان عنبرا متوازنا . كانت توجد عنابر فيها اثنين فقط من المثقفين أو ثلاثة ، والباقى من العمال . وقد اثارت هذه المسألة قضيــة ضرورة شمول الحياة العامة لكل العنابر معا ، والا تكون فى كل عنبر على

حدة ٠ لكن المشكلة كانت ، كيف سيسمح بنقل الامكانيات من عنبر الى عنبر ٠ كانت هنالك عنابر مظلومة تماما نتيجة للاسكان السجنى .

كنا فى عنبر (١) حوالى اربعة وستين معتقلا ٠ كان معنا لطف الله سليمان ويوسف حلمى ومحمد الخفيف ومصطفى كمال ونشأت اسكندر وسعيد خيال والدكتور عبد الرازق حسن . وكان لمعى يوسف هو مسئول الحياة العامة وكان منظما من الطراز الأول ٠ لم يعد لدى الزملاء العمال معنا فى العنبر اى ملابس ٠ فطلب سعيد خيال من زوجته ان تغلف الطرود التى ترسلها فى كثير من الدمور ٠ وتطوع احد الزملاء العمال الترزية باعداد هذا القماش ٠ وتفننت زوجة سعيد فى ارسال القماش والابر والخيط . واطلقنا على هذه الملابس « يونيفورم سعيد خيال » ٠ وحدث ان عرف سعيد ان بعض الزملاء العمال لم يذوقوا الشيكولاته فى حياتهم ، فقرر ان يحضرها بأى ثمن ٠ وارسلت له زوجته ما طلب ٠ وكان الدكتور عبد الرازق حسن يقوم بمهمة وزير التموين والتخزين فقرر هو ولمعى يوسف ، ان الكمية غير كافية ويلزم تخزينها لحين حضور كمية أخرى ٠ الا انه كان من المستحيل وجود الشيكولاتة فى العنبر وانتظارنا لقدوم المزيد ٠ قمنا بعملية ضغط شديدة فوزعت الشيكولاتة بعدالة تامة ، ونال كل منا « فتفوتة شيكولاتة »٠ كذلك قام عبد الرزق حسن بتعين مسئول للمياه داخل العنبر للتحكم فى زير المياه وعدم اضاعة اية قطرة ماء » .

ان هذه الاشكال من التنظيم الحزبى والتنسيقى والحياتى ، كانت الركائز الاساسية لاية مواجهة مع الادارة ٠ ان التوحيد والتجميع مع الالتزام فى مواجهة محاولات فرض العزلة والتفرد على المعتقلين كانت هى الضمانة والاداة التى لابد منها لهزيمة المخطط المدبر لهم . انه بدون تحقيق هذه الخطى ما كان من الميسور خلق الشعور بالارادة الحزبية والارادة الجماعية ، كذا تحقيق القوة الذاتية والفردية ايضا . ان شعور الفرد انه جزء من كل ، يمنحه طاقة بلا حدود وشجاعة مذهلة تبدو أمام العدو أمرا محسيرا . ان الفرد فى هذه الحالة لا يمثل نفسه ، انه يمثل المجموع كما انه ـ وهذا هو الاهم ـ لا يحس بالاضطهاد الموجه اليه باعتبار انه اضطهاد شخصى ، وانما هو يواجه اضطهادا عاما ، اذن فهو فى موقفه لا يمثل ذاته فقط ؛ لكنه يمثل المجموع ، وهو لا يدافع عن ذاته فقط ، لكنه يدافع عن قضية ٠ كما انه فى كل موقف يقفه ، لا يمثل من فى المعتقل فحسب ، انه يمثل شعبه ايضا ، ويدافع عن قضية هذا الشعب . ان الشعور بالانتماء والالتزام ، وكون الفرد جزءا من جموع لمناضلين دفاعا عن قضية ، يمنح الانسان ارادة بلا حدود ، تملأ المناضل شعورا بالاستهانة بكل معاناة ، يمكن أن تصل الى حد الاستشهاد ، الذى يغدو أمرا واردا ،

لكنه لا يخيف • بل يصبح شرفا يكلل هامة الشهيد . ان حد رباط الدم والاستشهاد ، هو فيصل الاختيار بين من عزم على المقاومة والاستمرار ؛ فيزداد اصرارا ، وبين من انهزم ونكص يبحث عن مخرج فردى • انه الاتون الذى يصهر ، فلا تبقى سوى الخامات الجيدة الصلبة ذات المعدن الاصيل ، وتتحول الشوائب والعناصر الهزيلة والغريبة الى هباء منثور .

ولقد استهدفت عملية التوحيد والتجميع ايضا ، تحويل المعتقلين المستقلين غير المنتمين ، من احتياطى لخطة التصفية الى احتياطى للخطة المضادة فى مواجهة الادارة والتصفية ، وذلك بالنقاش والاقناع وابراز نقطة التقاء واحدة وأساسية ، هى المعاناة المشتركة التى يقع المعتقلون جميعا فى قبضتها .

هذه الخطوة لتحقيق التوحيد والتجميع فى الاشكال الحزبية والتنسيقية والعامة ضرورية الى أقصى حد ، اذ بدونها لا يمكن ان يتم اقدام حقيقى على مواجهة المخطط المرسوم والمدروس للتصفية . ان الانضباط الحديدى والالتزام الصارم امران ضروريان لمواجهة مثل هذا الواقع • فالتصرفات الفردية وغير المدروسة ، والتى هى اقرب للانفعال منها الى الفعل ، يمكن ان تؤدى الى اخطار فادحة • كما أنها تمنح العناصر المدسوسة – والتى لابد من توقع وجودها – فرصة الاستفزاز المدبر مع الادارة أو الأجهزة الأمنية ، لجر المعتقلين الى مواقف لم يتم الاستعداد لها ، بهدف اجهاض عمل تحت الاعداد والدراسة ، أو خطة واجبة التنفيذ على مراحل • أن أى موقف فردى أو جماعى ، يجب أن يكون مرتبطا بخطة نضالية وتعليمات واضحة من القيادة ، وتكليفات محددة ، مع متابعة دقيقة لمواقف الادارة ، ونوعية قوى المعركة وقدراتها ، واحتمالات رد الفعل لكل فعل •

الصمود والتحدى :

بدأ الحزب من خلال التنسيق مع المعتقلين المنظمين فى تنظيمات أخرى والمستقلين المنتمين فكريا ، والنقاش الدؤوب مع العناصر المستقلة غير المنتمية ، فى وضع خطة تحطم مخطط الاجهزة الأمنية فى جزئياته ، وبمواقف جزئية ايضا • هنالك الاجتماعات داخل العنابر تتحدى محاولة فرض التفسخ والتحلل والتفرد • وتبادل السلام او التحية أو الكلام ما بين عنبر وآخر تتحدى محاولات العزل • ورواية القصص والروايات والفكاهات وعقد ما يشبه الندوات ، والسمر والغناء تتحدى محاولات فرض الصمت . وكتابة الاخبار والتحليلات السياسية وتوزيعها على العنابر من قبل اللجنة القيادية ، وتبادل وجهات النظر والتكليفات الحزبية تأكيدا لوجود الحزب والانتماء والالتزام ، واختيار مندوبين يمثلون كل عنبر تأكيدا لجماعية

الموقف ووحدته ، والاحتجاج على سوء المعاملة ورداءة التغذية وانعدام العلاج . وفى ايجاز الاعلان على نجوما وفى صور مختلفة ومتعددة رفض ما يجرى ، حتى وان كان الثمن سحب عدد من الزملاء صباح كل يوم الى الفلكة وضربهم ضربا مبرحا ثم وضعهم فى التأديب بعد ذلك ·

ان كل ذلك كان التمهيد الضرورى لكسر رهبة الاعتقال وهيبة سلطته ، وشحذ نضالية المعتقلين وتصليب ارادتهم وتدريبهم على المقاومة . كما انه كان تمهيدا لازما لتصعيد الموقف الى التأزم المطلوب لمواجهة الخطة فى مجموعها ·

يقول لمعى يوسف ، « عندما وصلنا معتقل الفيوم وضعونا كل مجموعة فى عنبر . كان معى لطفى الخولى ومحمد الخفيف ولويس عوض . كانت لدى الادارة تعليمات من المباحث العامة بالا يتصل أحد بأحد ، وان نمنع من اقامة حياة عامة ، فتلك اخطر الكبائر · ثم بدأوا يحضرون الهجانة ويقومون بحركات ارهاب بشعة بغية اخافتنا · كانوا يحضرون آلاكل امام الباب ثم يغلقوه · كان المتعهد هو الذى يحضر طعامنا ، وهو طعام يمكن ان تطلق عليه اية تسمية ·

جاء المأمور يمر فصحت فيه من النافذة . قال صارخا : اقفل ، اضرب · قلت له : تعالى ، تعالى هنا · بهت الرجل . لم يكن قد اعتاد ان يحادثه احد بمثل هذه الطريقة · جاء الى جوار النافذة . قلت له : من انت ؟ ماذا ترى فى نفسك ؟ هل تظن انك مازلت تتعامل مع الحشاشين ؟ الا تعرف كيف تتعامل مع السياسيين ؟ ان لم تكن تعرف ، اسألنا ونحن نخبرك كيف تتعامل معنا . ان الاسلوب الذى تستعمله لن يجدى معنا .

كان وقتها يشد أى معتقل بأى حجة من العنبر لتأديبه . احتد عليه لطفى الخولى ومحمد الخفيف ايضا وبهذا غدونا ثلاثة . تصور كل العنبر اننا لابد مسحوبين لنضرب العلقة المعتادة . الا ان الرجل قال : حسنا فلنتكلم · قلت له : الكلام هنا لا ينفع . نقابلك فى مكتبك ونتكلم · بعد قليل فتح العنبر وقد اصطف العسكر على بابه · استدعانا نحن الثلاثة . المعتقلون جميعا وقفوا فى نوافذ العنابر وهم يتصورون اننا ذاهبون الى غير رجعة · وابتدا الجميع يناقش ما العمل ؟ .

عندما دخلنا مكتبه ، بدأ يسألنا ، من أنتم ؟ ومن انت ؟ قال له لطفى الخولى : انا لطفى الخولى صحفى · وعندما جاء دور الخفيف قال :

انا محمد الخفيف ضابط فى الجيش وصيدلى • قال المأمور فى دهشة • انت ابن الشيخ الخفيف ؟ قال : نعم ، ابن الشيخ الخفيف وشيوعى ايضا . حاول المأمور أن يقلب الامر هزرا ، ثم قال : ماذا تريدون • ان لدى تعليمات بان حياتكم العامة تلك هى اخطر من الخطر . قلت له : ومن الذى قال لك ذلك ؟ قال المباحث العامة ، وتعليماتها الا تتصلوا ببعضكم البعض ، وان يوضع لكم الطعام على باب العنبر . وأن تكون فسحة الطابور محدودة . قلت : ان رجال المباحث العامة يدفعون بك الى مأزق ، فلا تضع نفسك حيث يشاؤون . اننا لسنا لصوصا ولا قتلة ، ولا تجار حشيش • ما نحن فيه سياسة ، مرة لنا ومرة علينا • وهؤلاء الذين تراهم امامك يمكن ان تكون لهم مراكز حينا ، وان يكونوا بلا مراكز حينا آخر . فانتبه بعد مناقشة مع لطفى والخفيف حول ما نريد • قلت له : العنابر الآن فى حالة هياج نتيجة اسلوبكم فى شد الناس والاعتداء عليهم . انهم يتصورون الآن أشياء كثيرة تحدث لنا • دعنا نمر على العنابر ، نرى طلباتهم ، ونبلغها اليك . هكذا تدار الامور • فكر مليا ثم قال : امرى الى الله . خرجنا من عنده نحن الثلاثة • مررنا على العنابر واتفقنا مع الزملاء على أن يخرج كل عنبر اثنين من سكانه كمندوبين عن العنبر لاحضار الطعام ، وبذا يوزع الطعام بمعرفتنا نحن لا عن طريق العساكر . ويمكن للمعتقلين حينئذ ان يتابعوا حالة الطعام وما يريدونه . عدنا اليه ، وأخبرناه بما اتفقنا عليه . فوافق على ذلك »(١) .

ويقول ابراهيم مرسى ، « عندما وصلنا المعتقل كنت فى عنبر اربعة . تشكلت قيادة لكل عنبر • كان مسئول العنبر هو اديب ديمترى . كذلك كان هنالك اشكال تنظيمية فى كل العنابر . وكنت أنا مسئولا عن الحياة العامة اقوم بتوزيع الاكل والسجائر • كنا نعطى كل معتقل سيجارة أو سيجارتين فى اليوم ، طبقا لحالة الوارد منها • وكنت انادى ساعة توزيع الاكل « صلى على النبى » ، فيحضر كل زميل ومعه طبقه ، فأبدأ فى توزيع الطعام .

فى اوائل المعتقل ، كانوا يصرفون لنا خمسة ارغفة ، والخضار ضئيل للغاية • طالبنا الادارة باستبدال جزء من العيش بخضار . احالتنا الادارة الى المتعهد . فعل ذلك على مضض محتجا بان المبلغ المرصود لغذاء المعتقلين محدود للغاية •

بدأنا نغنى ونقيم بعض الحفلات • أخذ الضباط يهاجمون العنابر لمنعنا من ذلك • فى عنبرنا كان سلامة عبد الواحد يغنى « ع الزراعية يا رب اقابل حبيبى » ، اقتحم الضابط العنبر شاهرا مسدسه . واجهه

---

(١) لقاء شخصى معه فى ١٩٨٠/٣/٢٠

سلامة » « لماذا تهددنى بالمسدس » ، قال الضابط « لانك كنت تغنى « ع الشيوعية يا رب اقابل حبيبى ، ولو سمعتك مرة أخرى فسوف اسحبك الى المكاتب » • الضابط عندما واجهناه حاول تحوير الاغنية حتى يبرر اقتحامه العنبر بالمسدس •

اخذنا قرارا بأن يرد الاعتداء او السب بعشرة امثاله ، وأن يقع ذلك على الضابط مهما كانت النتائج . فى أحد الايام وصل زميلان بمفردهما الى المعتقل . وتم الاعتداء عليهما فى الاستقبال • قلت لهما من النافذة : وهى فى مواجهة الادارة ، لا تستسلموا لاستفزاز الجند وردوا الاهانة بالاهانة . سمعنى واحد من عساكر الدرجة الثانية • قال « اسكت يا معتقل يا ابن ... والا وضعت راسك تحت قدمى » • قلت له ، « انت والذى أمرك ابن ستين ... » . قال له عسكرى من الدرجة الأولى ، « مالك بهم ، دعهم وشأنهم » . قال له ، « هذه أوامر وانت تعرفها » • كان ذلك فى الصباح . فى الساعة الثانية والنصف ظهرا فتح العنبر ، ودخل عسكرى الدرجة الثانية ومعه الضابط حلمى العيسوى • اشار العسكرى الى معتقل يدعى ابو زيد من طنطا . كان صاحب مطبعة وهو مريض • قال العسكرى ، « هو الذى شتمنى » • تقدمت وقلت ، « هذا الرجل لم يتحرك من مكانه أو يشتم أحدا • انا الذى شتمت » . قال الضابط ، « الزم مكانك » • قلت ، « انا الذى شتمت ، لماذا تأخذ غيرى ؟ » تدخل حسن المناويشى ، قال « هذا الرجل مريض والذى شتم هو ابراهيم مرسى » . تذكر الجندى فأشار نحوى وقال ، « هو الذى شتم » . فأخذونى وحسن المناويشى ايضا •

وضعونى فى زنزانة التأديب . وجدت هنالك لطف الله سليمان • اخذوا حسن المناويشى وضرب بالكرابيج ثم اعادوه الى زنزانة انفرادى • جاء محمد غطاس لاخذى ، وكان لى سابق تعامل معه • كان يهرب لنا بعض ما نريد فى مقابل نقدى شهرى . قال « هو انت ، وماذا بعد ؟ » ؛ قلت ، « لا قبل ولا بعد ، افعلوا ما تشاءون » . جمع حلمى العيسوى فرقة التعذيب • اربعة صفوف فى عشرة . اخرج منهم خمسة باعتبار انهم مرضى وتبقى خمسة وثلاثين ، وبدأ الضرب . قال العيسوى ، « لازم تقول انا امرأة » • قلت ، « ان كنت تود ان اقول انا امرأة ، فانا اقول لك ، الذى يتعب منا أولا يكون هو المرأة » • عنف الضرب واشتد . سقطت على وجهى فى شبه اغماءة • تقدم منى ولد يدعى الباشجاويش وديع . احضر قالب من الطوب ، واخذ يدق به سلسلة ظهرى • والعيسوى يصرخ ، « مش عاوز تقول انا مرة يا ابن ... » • واستمر الضرب حوالى ثلث ساعة وانا لا ارد • سال الدم من عينى واذنى وفمى وانفى • ثم

القونى فى زنزانة انفرادية بعد دهانها بالبراز وملئها بالماء . لم يترك جزء واحد سليم فى بدنى . كان الجنود فى مباراة ، يبدى كل مهارته امام الضابط ، ويثبت انه يؤدى عمله على الوجه الاكمل • ربطت البطانية فى الشباك وجعلتها كالمرجيحة واسندت رأسى اليها . كان العسكرى يدق الباب كل ربع ساعة ويقول ، « عد » ، حتى يمنعنى من النوم أو الراحة • ثار الزملاء فى العنبر ، وأخذوا يصرخون ، اتركوه يا مجرمين ، يا خونة ، يا عملاء الاستعمار ، فأخذوا احمد البكار من العنبر وحطوه فى الفلكة وعلقوه بين كرسين ، وأصبحت رأسه الى أسفل ورجلاه الى أعلى . وكان ضابط المباحث العامة عبد العزيز شاكر يضع راسه بين ركبتيه ، وعند كل شومة تنزل على رجلى أحمد البكار ، يقوم عبد العزيز شاكر بلطمه بكفيه على وجهه • ضربوه حوالى مائة شومة ومائتى لطمة • كان كلانا قد تورم وجهه وأصبح ازرق اللون .

كان الدكتور فايق فريد وجلال حمودة قد ضربا قبلنا ، كل واحد حوالى ثلاثين كرباجا على رجليه ، بسبب المواقف التى كنا نتخذها فى مواجهة الادارة •

أول يوم ضربت فيه جاءنى احد الجنود الدرجة الثانية • قدم لى ثلاثة سجائر • وقال « لا تزعل منى يا بيه ، دا غصب عنى كنت باضرب فيك • دى أوامر الضابط حلمى العيسوى » . ثم همس ، « والنبى وانت خارج من الزنزانة تبقى تدينى الزكتة » . ولما سألته ، ما هى هذه (الزكتة) ؟ اشار الى جاكتتة البيجاما • كان أمرا مضحكا مبكيا ، فهو كالذى يرى احشائك خارج بطنك ، فيطلب منك قطعة منها للقطة بثلاثة سجائر .

ضربت يوم ٢٤ ابريل • كانت معى فى جيبى صورة اولادى . وبينما كنت القى نظرة عليها انقطع النور . سمعت خلفى صوت حلمى العوسوى يقول « هل هذه صورة اولادك ؟ » كان يقف وراء شباك الزنزانة يطل على . قلت ، « هذا أمر لا يخصك » • استدعى الشاويش ، أمره أن يتوجه الى المسئول عن الكشاف ويطلب منه توجيه النور الى الزنزانة ، حتى أستطيع ان ارى اولادى • وضعت الصورة فى جيبى وقلت اننى لا ارغب فى رؤية الصورة ولا فى ضوء الكشاف •

نقلت قبل نهاية الاسبوع الى زنزانة مشتركة مع لطف الله سليمان وحسن مناويشى • كان لطف الله سليمان يطلب الا نحادثه فى بعض الاحيان . كان ، يقول « دعونى الآن ، فانا اجالس ابنتى بعض الوقت » .

كان فى سرحة عائلية خارج الجدران . استخدمنا معاقة فى ثقب الجدار الفاصل بين زنازين التأديب حتى تستطيع الحديث مع جيراننا من الزملاء • عندما عدت الى العنبر اقام الزملاء لى حفل استقبال ، ولكن ليس على طريقة الادارة .

فى احد المرات كان الزملاء يغنون فى العنبر . جاء الضابط حمدى ودخل العنبر • قال ، « من الذى كان يغنى ؟ » ثم اشار الى أحد الزملاء وقال له ، « انته ، تعالى » . تقدمت انا وقلت ، « انا الذى كنت اغنى » • لم اكن اغنى ، لكنى رغبت فى التحدى • قال ، « يا عم ابراهيم انت حاطط نفسك فى كل حاجة ؟ » ، قلت فى اصرار ، « انا الذى كنت اغنى » . قال ، « طيب يا عم ، سلامو عليكم » • ثم غادر العنبر » •

ان الموقف النضالى يفرض نفسه حتى على العدو . انه لا يبحث عن فريسة صعبة المنال ، يمكن ان تكون مثلا يشد من العزائم ، انه يبحث عن صيد سهل ، يكون عبرة وعظة للآخرين •

ويستمر ابراهيم مرسى ، « ظللت فى العنبر بعد خروجى من التأديب حوالى شهرا • ثم رحلت مع الدفعة الأولى الى الواحات باعتبار انى من المشاغبين (٢١ يونيو ١٩٥٩) •

لقد خضنا خلال هذه الفترة عدة معارك من اجل تحسين الطعام وزيادة وقت الفسحة واخراج الفرش الى الشمس • كما ان امتنعنا عن استلام الطعام • تأتى الادارة فى نفس اليوم وتحاول حل المشكلة • كانت تستجيب يومين أو ثلاثة ، ثم تعود الى ما كانت عليه ، وهكذا استمرت اعمال المناوشة والاحتكاك متصلة لا تنقطع » •

لم يقف الصمود والتحدى عند بعض المواجهات هنا أو هنالك . كان الصمود والتحدى يحتاج الى جرعات ضرورية من التوعية والتعبئة . كان الزملاء المثقفون يمثلون كنزا ثقافيا دسما . لقد حرمتهم الادارة وخطة التصفية من الكتب . الا انها لم تدرك ان البعض منهم انما هو مكتبة متنقلة ، يمكن ان يكون مكتبة عامة متنوعة الثقافة والدراسات ، أو مكتبة متخصصة فى الشعر أو القصة أو الرواية أو المسرحية أو الاقتصاد أو الاجتماع أو الفلسفة أو العلوم أو السياسة • وهذه المكتبة لا يمكن النيل منها أو مصادرتها الا بقطع اللسان أو الرقبة . كما أن هنالك الرفاق العمال النقابيين ، كذلك بعض قادة النقابات المهنية والاتحادات الطلابية ،

وهم جميعا يحملون تجارب نضالية زاخرة وافرة ، لم يعيشوها فقط ، بل كانوا هم ايضا من قادتها ، وممن اعـــدوا لها ولعبوا دورا هاما فى نجاحها • كان مجموع المعتقلين يشكل ثروة فكرية ونضـــالية عارمة . وبدأت عملية التثقيف وتبادل الخبرات والحكى والروى تلعب دورها من خلال ندوات أو محاضرات ، فى تحقيق التوعية والتعبئة اللازمين .

كما كان لبعض الرفاق ملكات خاصة فى الغناء أو الفكاهات والنوادر ، فبادروا الى تقديم مواهبهم فى لحظات ترفيهية ممتعة •

كل واحد من المعتقلين كان يمتلك شيئا • وهذا الشىء يضاف الى الآخرين فيصبح اشياء ، تزيد من تآلف المعتقلين وتعرفهم على بعضهم البعض وازدياد تماسكهم وتعميق الاواصر التى تربط فيما بينهم • وكان كل ذلك ، يخلق نوعا غريبا من الوحدة والتلاحم فى كل عنبر •

يقول لطفى الخولى ، « عندما كدرونى بنقلى من عنبر واحد الى عنبر تسعة ، بقيت ثلاثة ايام حتى اتكيف مع هذا العنبر الصغير • كنت كمن ترك قصرا منيفا الى كوخ صغير ، أو كمن وقعت به طائرة . قانون النسبية داخل السجن رهيب . كان العنبر اصغر واضيق فاحسست فيه بالانقباض . كذلك كان هنالك فراق الاصدقاء . كان معنا محمد الخفيف فى عنبر واحد وكان يعطى العنبر روحا وحيـــاة • اصبحت ايامه الآن ذكريات . كان هنالك عنكبوت فى عنبر واحد ، فكنت احس بالحنين الى رؤيته ، واتساءل ان كنت سأراه مرة أخرى . الارتباط بالمكان غريب • واسلوب الحياة الذى اعتدته يخلف مجتمعا له ميكانيزمه الخاص وعلاقاته الانسانية الخاصة . عندما عدت الى عنبر واحد زال احساسى بالغربة والعزلة » .

ان ترابط المعتقلين فى كل عنبر ، كان جـــزءا لا يتجـزأ من ترابط المعتقلين على نطاق المعتقل كله • لقد كان عنبر واحد يضم اكبر عدد من المعتقلين المستقلين غير المنضمين الى اى من التنظيمات الشيوعية ، الا انهم كانوا ذوى انتماء فكرى وسياسى • ووحـدة هـذا العنبر تؤكـد نجـاح سياسة التوحيد والتجميع وموقف الالتزام الذاتى بموقف الجماعة •

ويقول منجد توفيق ، « كان عنبر واحد هو العنبر الذى تخرج منـــه أول دفعة مندوبين عند كل امتناع أو مشكلة مع الادارة ولهذا فان سكان هذا العنبر كانوا هم أول من يتعرض للاعتداء »(١) •

---

(١) لقاء شخصى معه .

ويقول الدكتور عبد الرازق حسن ، « عندما كان اخواننا فى المعتقل يضربون عن الطعام ، كان القائد يأتى الينا ويطلب منا ان ندعوهم للكف عن الاضراب . انه يتصور اننا ما دمنا دكاترة فلابد وأن نكون الكبار وعلى الصغار ان يسمعوا كلامنا • قلنا له ، نحن لسنا القيادة ، لم يكن قصدنا بالطبع نفى علاقتنا بما يجرى ، لكنه كان مندهشا من ذلك » •

وهكذا أصبح لعنبر واحد ضيوف دائميين فى زنازين التأديب ، كذلك كانت توقع على البعض منهم عقوبة النقل أو النفى الى عنبر آخر ، حتى تعيد هذه العقوبة اليهم ـ ولو بشكل وجدانى ـ بعض صور العزلة والاغتراب • الا ان نقلهم الى عنابر اخرى ، والذى قصدت منه الادارة عزلهم عن بعضهم البعض ، قد عاد على تلك العنابر التى نقلوا اليها بفوائد جمة . اذ كانوا يسهمون خلال تلك الفترات فى عمليات التوعية والتثقيف ، وبذا اصبحوا اضافة ايجابية لم تحسب الادارة حسابها .

الزملاء فى كل العنابر يعدون أنفسهم وكل المعتقلين للمواجهة . الخلاف السياسى بين الفصائل المختلفة أو بين تلك الفصائل وغير المنتمين تنظيميا لا يقف حائلا أمام وحدة الموقف النضالى •

يقول نبيل زكى ، « بعد ان مكثت ثلاثة ايام فى القلعة ، رحلت الى الفيوم يوم ٢٤ يونيو . كان معى الزملاء الذين سبقونى الى المعتقل منذ اسبوع أو اسبوعين ، وكان منهم نشأت اسكندر ، عبد الله كامل وفيليب جلاب • كنا حوالى خمسين معتقلا ، نغنى فى العربات طوال الطريق . وكنا مستعدين للاستقبال ، فقد بلغتنا اخبار تقول بأن هناك اهانات واعتداءات فى معتقل الفيوم . الا اننا استقبلنا استقبالا عاديا . وقد عرفنا السر فيما بعد • اذ كان المعتقل قبلنا قد خاض معركة امتناع عن الطعام • وكان أول وجه قابلته فى اليوم الثانى هو رشدى خليل • وضعت ، انا ، فى عنبر اربعة .

كنا نعانى من مشاكل العلاج وكان معنا عدد من الزملاء المرضى • كما كنا نعانى من ازمة مالية دائمة • وقاد الدكتور الخفيف ، باعتباره صيدليا ، حملة لاقناع الزملاء بالاستغناء عن معجون الاسنان والاكتفاء بالصابون باعتباره انه لا فرق بينهما •

ولقد بذلنا جهدا توحيديا متصلا ، وسعينا الى ان يكون جميع من فى العنبر فى حياة عامة واحدة . كنا نطرح (الحزب) فكرة التنسيق بين الاطراف المختلفة الموجودة ، الا ان عادل حسين (حدتو) طرح

فكرة الانتخابات الحرة بالاقتراع العـــام ، على أســـاس أن مجموعة أبو قرقاص يمكن ان تصوت معه . وافقنا ونجح مرشحو الحزب بما يشبه الاجاع • كانت الحياة العامة واحدة وكاملة • أما بالنسبة للمواقف ، فقد كان هنالك تنسيق فى عمليات المواجهة والتصدى والامتناع عن الطعام عند الضرورة •

كنا نعد ندوة اسبوعية فى العنبر • وكان المتحدثون فيها عادة يمثلون اتجاهات ثلاث : انا (الحزب) وعادل حسين (حدتو) ولويس عـوض (مستقل) • واذكر ان الدكتور لويس عوض كان فى واحدة من هـذه الندوات ينفى فكرة القومية العربية • وتكلم عنها عادل حسـين بشـكل ناصرى بحت . وركزت من جانبى على المحتوى التقدمى الديمقراطى اللازم للقومية العربية ، وبالتالى تناولت الاخطاء التى صاحبت الوحدة المصرية السورية . وقد طرح لويس عوض فى مرة أخرى موضوعا عن الاشتراكية الديمقراطية ورفض الستالينية • وقد اثارت هذه المسألة نقاشا طويلا • وفى هذه القضية كنت وعادل حسين فى جانب ، ولويس عوض فى جانب آخـــر •

كانت هنالك مسئولية ثقافية فى العنبر . وقد لعب الدكتور محمد الخفيف دورا بارزا فى هذا المجال • وقدم ما يمكن تسميته بذكريات فى الحركة الوطنية ، حول تاريخ حزب الوفد والصراعات بين التيارات المختلفة داخله • كان يرويها بصورة مشوقة للغاية ، تثير المتعة الفكرية • وكان له بعض القفشات الذكية التى تثير الضحك .

كنا اثناء الندوات نوقف أحد الزملاء على نافذة من نوافذ العنبر ، حتى يعطى انذاراً ان اقترب احدهم من العنبر وكان التحـذير الشـــهير (باوهم) قد أصبح متداولا فى المعتقل كله • كان هنالك نشاط فنى ايضا وكان المسئول عنه حسن عثمان والذى كان يغنى لنا اغانى أم كلثوم •

كنا نكتب ايضا التحليلات السياسية ونتداولها فيما بيننا ، ومع العنابر الأخرى . وكان هذا النشاط عاما فى كل عنابر المعتقل » •

ويقول فتحى عبد الفتـاح ، « من ناحيتنا نجحنا فى تكسـير جـو الارهاب الكئيب المحيط بنا . وامكن تنظيم شبكة اتصال عبر النوافذ بين العنابر كلها • وما يجرى فى عنبر واحد أصبح يعرفه سكان عنبر

ثمانية فى نفس الليلة . وبدأنا نتحرك ونفكر بعقل الجماعة . ففرضنا حرية الحركة داخل العنابر كأمر واقع . بل وبدأنا ننظم الجلسات والندوات الثقافية والترفيهية . هذا يحكى بعضا من القصص العالمية لهمنجواى وشولوخوف وايليا اهرنبرج وجيمس جويس وجوركى وطه حسين ونجيب محفوظ وذلك يعرض مسرحيات لتوفيق الحكيم وشكسبير وأسبورن وتشيكوف وأونيل وتنسى وليامز وبريخت ونعمان عاشور والريحانى ، وآخر يعرض بعضا من الافلام . ومجموعة تقوم بعرض كتب وافكار سارتر وهيجل وماركس وفولتير وروسو ومحمد عبده والافغانى ، وآخرون يغنون الحان سيد درويش وبول روبسون وعبد الوهاب وعبده الحامولى وفرانك سيناترا .

ورغم كل الخطر والاوامر تمكنا من استحضار بعض الصحف والمجلات . على أن كل هذا كان يحدث خلال معارك متصلة . فالادارة لم تسكت عنا يوما واحدا ، ولم تسلم لنا بأى حق . كانت تتعامل يوما أو يومين ثم تنزل بكل ثقلها فى اليوم الثالث لتجمع مندوبى العنابر مثلا لتقوم بجلدهم أمام مبنى الادارة ولتحاول ان تشيع جوا من الارهاب ... هى توجه لنا لكمة فى هذا اليوم ، ونحن بعقولنا وبحبنا للحياة وأصرارنا للدفاع عن القيم الجميلة ، حتى داخل الاسوار ، نوجه لها لكمة فى اليوم التالى »(١) .

وهكذا غدا كل عنبر كتيبة ، وحدة قتالية ، فى جيش المعتقل كله .

المقاومة والمواجهة :

كل ذلك كان أمرا عظيما . الا ان الجو السائد والمسيطر ، كان جو الارهاب البشع المفروض على المعتقل . كانت الادارة هى الممسكة بزمام الهجوم والمبادأة . هى التى تثير الاحتكاك وتوقع العقاب . كانت هنالك أعمال وافعال بطولية ومجيدة ، الا ان الوضع العام كان وضع ردود الفعل لما تسعى خطة الأمن وعصبة الادارة الى تنفيذه . وكان لابد من تحويل المناوشات من جزئيات فى الخطة الى هجوم شامل . أى تحويل المعتقل من موقع الصمود والتحدى الى موقع الهجوم والامساك بالمبادرة .

« وصلت دفعة يوليو الى معتقل العزب ، وكنت واحدا منها (٢) . كنت وأنا فى الخارج اعرف كثيرا من الاوضاع التى يعيشها معتقل العزب

---

(١) كتاب شيوعيون وناصريون لفتحى عبد الفتاح .
(٢) فخرى لبيب .

بالفيوم ، وذلك بحكم وضعى الحزبى حينذاك ،، ومن خلال الجريدة التى كان يصدرها الحزب لفضح ما يجرى فى المعتقلات • لذا قررنا ونحن نتجه الى معتقل العزب ، ان نرد على الاعتداء بالاعتداء • وأن العضو الحزبى الذى لا يتخذ مثل هذا الموقف سوف يتعرض للمسائلة التنظيمية ، والتى يمكن ان تصل الى حد المساس بعضويته فى الحزب • كان فى تلك الدفعة عدد من كوادر الحزب الاساسيين ، الذين قام على عاتقهم بناء الحزب بعد ضربات يناير ومارس وغيرها • وكان اعتقالهم يثير فى نفوسهم غيظا من أنفسهم ، أن سقطوا فى يد العدو فأضافوا الى اعباء الخارج اعباء جديدة ومعقدة • لم يكن الاعتقال يرهبهم بقدر ما كان الوضع يثير حنقهم ان حرموا من النضال الحقيقى فى قلب الشارع . كانوا يعرفون الكثير مما يحدث فى الفيوم ، وبذا لم يكونوا عرضة للمفاجأة الأولى التى يمكن أن تشل التفكير والتصرف لحظات يستفيد منها الخصم فى محاولة غرس الخوف والرهبة • ومع ذلك يقول نبيل صبحى وهو أحد الاعضاء المركزيين الاحتياطيين وكوادر الحزب الهامة ،، « دخلنا فوجدنا الزملاء يتحدثون معنا بحذر شديد ،، وينصحوننا بان ننام فورا ، وأن نتحدث فى الصباح . كانوا جلوسا على السرر فى منظر يعكس الارهاب الفظيع الذى يعانونه . كان المنظر كئيبا حتى اننى كنت كالمدهوش ، اتفرج على ما حولى وكأنى كومبارس فى فيلم عن معسكر نازى لا علاقة له بالواقع . كان المعتقل بسماته ومضمونه كمعسكرات النازية . ولاحظ فخرى لبيب على ذلك فسألنى : « مالك ،، انت سايح كده ليه ؟ ماكنت كويس فى القلعة • مش احنا متفقين نحتج وناخد موقف » . فبدأت افيق على كلامه » .

فى الصباح قال الرفاق أعضاء اللجنة القيادية لعنبر اربعة ، أن كل ما سمعناه عن التعذيب والتنكيل حقيقى ، بل أقل بكثير مما حدث فعلا • كان مسئول المعتقل عبد الله محمود كامل من سكان هذا العنبر أيضا • عرض ما تم انجازه فى هذا المكان من اعداد الزملاء تنظيميا وسياسيا وحياتيا والوضع العام فى المعتقل • كانت الصورة التى تنقل الينا فى الخارج تعكس اوضاع القهر والتعذيب الواقع عليهم ،، أما صور المقاومة والاعداد للمواجهة ، فقد كان من الصعب تناولها حفاظا على سرية العمل وحماية له • ان ما تم انجازه كان اعجازا حقيقيا فى ظل الظروف التى كانوا يعيشون فى ظلها .

تشكلت لجنة قيادية مركزية للمعتقلين الحزبيين فى المعتقل كله من المركزيين الأصليين والاحتياطيين • وكانت مكونة من فخرى لبيب (مسئول مركزى أصلى) وعبد الله كامل ونبيل صبحى (مركزيان

احتاطيان) . وكانت لكل عنبر لجنته القيادية العنبرية ، ولكل لجنة من هذه اللجان مسئولا من الداخل .

فى نفس هذه الدفعة كان المناضل عدلى جرجس . ادخلوه عنبر ثلاثة . حاول الزملاء فى المساء اقامة حفل تحية له ، غنى فى هذا الحفل حسن عثمان شقيق المناضل الشهيد محمد محمود عثمان . جاء الشاويش ونهرهم فى سوء ادب . ثم تلاه الضابط . أطفأ الرفاق النور فسبهم الضابط سبا بذيئا . تحداهم ان كان فيهم من يملك شجاعة ادبية ليعلن عن اسمه ، تصدى له عدلى جرجس . فهدده الضابط بصباح اليوم التالى .

فى صباح اليوم التالى أخرج الضابط العنبر كله . تحداهم مرة أخرى أن يبرز اليه من ادعى الشجاعة بالامس . للحال تقدم عشرة رفاق ، اعلن كل منهم ان اسمه « عدلى جرجس » . رفضهم الضابط جميعا . طلب ان يخرج اليه من أعلن عن نفسه . تقدم اليه عدلى جرجس ، معلنا له اصراره على التحدى ، وأن هناك قرارا حزبيا برد الضرب بالضرب سواء كان منه أو من أحد جنوده ، وأنه عازم على تنفيذ هذا القرار . أخذه الضابط الى مأمور السجن الذى أمر بوضعه فى زنانزانة الخنازير . ومساحة تلك الزنزانة متر × مترين . بها جردل مياه للشرب وآخر للبول . الزنزانة مكتومة لا يدخلها ضياء أو هواء .

فى أحد الايام جاء مدير أمن المحافظة لزيارة المعتقل باعتباره مؤسسة عقابية تقع ضمن اختصاصاته وسلطاته . جاء الرجل الى المعتقل وهو لا يدرى انه معتقل للسياسيين ، خاضع للمباحث العامة ، وليس معتقلا لتجار الحشيش . ارتفعت الصفافير والزمامير فادرك سجين زنزانة الخنازير أن زائرا كبيرا قد حل بالمعتقل . أخذ يدق على الباب فتساءل الزائر ، « من هناك ؟ » . قيل له ، « مشاغب فى الحبس الانفرادى » . صاح عدلى جرجس من الداخل يسب الادارة وقائد المعتقل . أمر الزائر بفتح الزنزانة ففتحت . اندفع منها عدلى جرجس وكذا رائحة الزنزانة العفنة النتنة . تراجع مدير الأمن والضباط . صاح الرجل ، « ما هذا ؟ كيف تضعون آدميا فى مثل هذا المكان ؟ » قال عدلى ، « يزعم قائد المعتقل اننا مشاغبون . اننا معتقلون سياسيون ، ولسنا تجار حشيش . وهو يعتدى علينا بالضرب مخالفا كل قانون . لا أكل ولا طوابير ولا علاج . انا هنا فى هذه المقبرة منذ خمسة عشر يوما » . قال الزائر ، « تغلق هذه الزنزانة غلقا نهائيا » . وأرسل عدلى جرجس الى عنبر واحد (١) .

---

(١) من شهادة عدلى جرجس .

وزعت دفعة يوليو على المعتقل كله وبذا حملت الى كل العنابر ، آخر اخبار الحزب ودوره النضالى . الحزب ما زال المقاتل الحقيقى المدافع عن الديمقراطية : ما زال هو الذى يتحمل عبء سعار الحملة المحمومة فى ثبات . يتلقى الضربات ، فيزداد قوة وصلابة ووضوح رؤية . ما زال رفاقهم أبناء الحزب الواحد يناضلون ، يختفون ويبتكرون اساليب جديدة للعمل . ما زال الحزب رغم قسوة الظروف ، التى لم يمر حزب سياسى بمثلها من يرفع راية الحقيقة . وارتفعت معنويات الرفاق . كانت هذه الدفعة بمثابة دفعة قوية جذبت خيوط الداخل بالخارج ، ليعمق الانتماء ، ولتصبح عضوية الحزب فخارا لحاملها .

وناقشت القيادة المركزية للمعتقل ضرورة الانتقال الى مرحلة المواجهة . ضرورة تحويل كل تلك المواقف الجزئية الى موقف كلى . لابد من بداية هجوم شامل على خطة التصفية .

ان المواجهة يجب أن تكون فى صورة موقف عام قدر الامكان . موقف يكون بمثابة اعلان صريح على فشل خطة العزل والتفرد بكل مقوماتها .

ان كل العمل التوحيدى والتجميعى ، وكل المواقف البطولية التى أخذها المعتقلون وهم يتصدون فى تحد لخطة التصفية تفرض الآن ان يشد الجميع الى موقف واحد ، يحيلهم الى كتلة واحدة . يجب الانتقال الآن الى مرحلة الهجوم ، الى المقاومة الجماعية المعلنة والمواجهة . ان هذا الهجوم يمكن الا يكون الهجوم الأخير ، انه معركة فى المرحلة الأخيرة . معركة تكون مجس اختبار لقدرة القيادة على تعبئة قواتها والقوى الأخرى داخل المعتقل ، وهى فى ذات الوقت مجس اختبار لرد فعل الادارة امام هذا الموقف الشامل ، على الا تتوقف المرحلة الا بانتهاء الاوضاع القائمة ، أو تحطيم قوائمها الأساسية .

كانت الادارة اثر وصول دفعة يوليو قد شددت من مراقبتها للعنابر ، واعمال سحب المعتقلين الى الفلكة والتأديب . ان أعمال الضغط تلك كانت تستهدف رسالة الى المعتقلين القدامى بعزب — الفيوم بان الادارة ما زالت على خطها ، وان دعم المعتقلين بالايراد الجديد سوف تقابله الادارة بالمزيد من التعذيب والتنكيل ، وهى فى ذات الوقت رسالة الى الجدد للتعريف بهذا المعتقل ، وأن الحال هنا غير الحال فى معتقل القلعة .

اعدت الخطة كتابة لارسالها الى اللجان القيادية العنبرية ، لاجراء حوار حول حدود الموقف والمطالب .

(١) المعركة احتجاج جماعى وبالتالى لابد من توفير أكبر قدر من وحدة المعتقلين .

(٢) التصرف مرن دون لين او هوادة .

(٣) تفادى المواقف الفردية غير المدروســـة وأعمال الاســـتفزاز الطفولية .

(٤) الامتناع عن الطعام اربع وعشرين ساعة ، بغرض تحقيق أكبر قدر ممكن من المطالب .

المطـــالب :

الافراج والى حين الافراج :

(١) وقف سياسة الضرب والتعذيب .

(٢) طابور شمس صباحا ومثله بعد الظهر ، كلّ منهما ساعة ، على أن يكون الطابور بعد الفتح الخاص بدورة المياه .

(٣) تحسين التغذية .

(٤) العلاج الطبى .

(٥) استلام الطرود كما هى دون تدخل من الادارة فى محتوياتهـا (أى وقف اعمال السرقة) .

(٦) السماح بالجرائد والمجلات والاذاعة .

(٧) السماح بالورق والاقلام والكتب .

(٨) السماح بزيارة العائلات للمعتقلين .

لقى الاقتراح موافقة شبه اجماعية من الرفاق الحزبيين . رأى البعض انه أقل مما يجب ، لكنهم قبلوا به كبداية جماعية تتناسب وتنوع قوى المعتقل ، فى حين رأى البعض الآخر الاكتفاء بالاحتجاج عن طـريق المندوبين ، الا انهم اقتنعوا بان هذا لاسلوب أصبح الآن دون المستوى المطلوب ، وأن المندوبين قد تعرضوا فيما سبق الى اعتداءات وحشـية ، وبالتالى لابد من وجود دعم عام شامل لهم أثناء احتجاجهم ، يعبر بصدق عن وزن القوى التى يمثلونها ، فلا تتعامل الادارة مع هذا الاحتجاج على أنه موقف فردى ، وتعالجه على هذا الأساس طبقا لطريقتها الخاصة .

طرح الاقتراح بعد ذلك على الجماعات الشيوعية الأخرى وعلى

المستقلين ، وتمت الموافقة عليه ، وبذا تحول الاقتراح الى قرار جماعى · ترك موعد تنفيذه لانسب الظروف واكثرها ملائمة .

وقامت لجان الحياة العامة فى كل عنبر بالاعداد لهذا الامتناع . عليها أن تقوم بتخزين الطعام الذى يكفى ساكنى العنبر يوم الامتناع (١) · ولما كان طعام المعتقل قليلا ورديئا ، وما يصلنا من العائلات ينهب أكثره ، فقد كان من الضرورى بذل جهد كبير لتوفير الوجبات الثلاث التى تغطى يوما بأكمله .

وتحدد يوم الامتناع .

فى تلك الاثناء جاءت زيارة الى المعتقل ، يقول لطفى الخولى ، « كان عيد ميلادى . اتصل حسنين هيكل بزوجتى فسألته ان كان ممكنا ارسال أى شىء بهذه المناسبة . أخذ اذن من عبد الناصر بالزيارة · كان معهما الدكتور مجدى وهبه وهو صديق قديم كما انه صديق هيكل ايضا ، فحضر فى الزيارة · كنت قبل ذلك قد اصطدمت صداما عنيفا مع الادارة فوضعت فى زنزانة انفرادية مدة اسبوع على الخبز الحاف ، ثم نقلونى الى عنبر تسعة عقابا لى · فوجئت فى هذا اليوم بانى مطلوب فى الادارة ، وحركة غير عادية تجرى ، واهتمام شديد وتصرفات على غير المألوف · تغيير كامل فى التعامل · ذهبت الى مكتب قائد المعتقل · فاذا بى اجد زوجتى واختى وصديقى الدكتور مجدى وهبه وضابط مباحث أمن الدولة فى الفيوم · منظرى هال زوجتى ، فسألتنى ، « ما الحكاية ؟ » · قلت ، لها « اشياء فظيعة ، اشياء من القرون الوسطى » · لاحظت ان ضابط المباحث العامة وقائد المعتقل كما لو كانا قد تحولا الى قطط وديعة بعد أن كانا نمرين مفترسين . كان الجميع يحمل الحاجيات ويعاون زوجتى فى التخفيف عما تحمل . كان الجميع يقول ، « أى طلبات ، نحن مستعدون لأى خدمة . انت فقط كان المعتقلون يدفعون بك فى مواجهتنا » . بعد ان غادرتنا زوجتى ، قال لى قائد المعتقل ، « ما فات مات ، ولنبدأ صفحة جديدة . ما تريده سنفعله » · قلت ، « أريد العودة الى العنبر الذى كنت فيه ، وكل زميل يعود الى العنبر الذى يريده . كما أن هنالك عنابر بها عمال لا تأتى لهم طرود تموينية مثل باقى العنابر ، وبالتالى يكون من حق العنابر ان تعطى فوائضها لبعضها البعض » . قال ، « تحت رقابتنا » ، قلت ، « مستعدون بالطبع » · كنا ننظم امتناعا عن الطعام فى ذلك الوقت وكانت زوجتى قد

---

(١) الامتناع عن الطعام غير الاضراب عنه . الامتناع هو رفض استلام طعام المعتقل الرسمى مع تناول المخزون المتاح من طعام المعتقلين . اما الاضراب فهو رفض الاكل الرسمى والامتناع تماما عن تناول أى طعام ·

احضرت لى تورتة . فقلت له ، أقوم بتوزيع التورتة على العنابر • كانت فكرتى ان ابلغ العنابر مسائل تخص الامتناع • وطلب منى الزمـلاء ان اكون فى اللجنة العامة المشرفة على الامتناع ، للاسـتفادة من وضعى هـذا » •

فى صباح اليوم التالى ، عندما بدأ الشاويشيه فتح العنابر لاستلام الافطار ، ابلغت العنابر كلها ان المعتقلين جميعـا ممتنعين عن اسـتلام الطعام واننا نطالب مقابلة الادارة • كان هنالك مندوبان عن كل عنبر . وقد نوقشت معهم المطالب وخطة العمل . كان المندوبون من العنـاصر الموثوق بها والتى يعتمد على قدرتها وخبرتها فى مواجهة الادارة ، سواء كان ذلك عند عرض المطالب او التحرك السريع طبقا لما يواجهونه من اوضاع • ثم انهم كانوا من أصلب العناصر لاحتمال تعرضهم لاعمال التأديب والتعـذيب • كانوا يمثلون على وجـه التقريب كل الجماعات المتواجدة فى المعتقل ، المنتمية الى تنظيمات أو غير المرتبطة بناية تنظيمات .

يقول عدلى جرجس ، « ذهبت أنا ومحمد على فخرى مندوبين عن العنبر . كان ذلك يوم جمعة • قلت لمحمد على ونحن فى طريقنا الى الادارة ، ما رأيك لو لطمته على وجهه ، مجرد لطمة واحدة . ان ضابط السجن الذى يهان ، لابد من نقله • حقيقة سوف آخذ (طريحة) محترمة • الا ان الامر يستحق المحاولة • الا اننا وجدنا قائدا غير الذى نعرفه • كان اليوم يوم راحته ، وهذا الرجل يقوم بعمله بدلا عنه خلال اجازته الاسبوعية . سألنا ، « ماذا تريدون ؟ » قلت ، « لنـا مطالب ، نريـد فسـحة ، والاكـل ردىء .... » اسرع يقول ، « لماذا تأتون فى يومى وتفعلون ما تفعلون الآن ؟ » • فى تلك الاثناء تقدم غطاس • ومعه جندى آخـر ، يرفع يده كالمعتاد ويحاول الضرب . امسكت انا بيده وامسك محمد على بيد الآخر • قلت للقائد المناوب ، « اسمعنى جيدا ، لو أن هـذا ضرب أحدا منا ، فانى سوف اضربك انت • هو ينفذ أوامر ، أوامرك انت . نحن هنا مقتولين مقتولين ، وقد قتل بعضنا بالفعل ، لقد جئنا اليك بطلب وقف الضرب ، فان كان هذا الرجل سادرا فى اسلوبه ، فاعلم اننا قد قررنا أنه فى حالة اعتداء أى جندى على أى منا ، فاننا سنضرب الضـابط الآمر بالاعتداء » • صرخ الرجل ، « يا عسكرى • لا تضرب . أنا هنا فقط من أجل يوم راحة القومندان ، وليس فى وسعى أن أفعل لكم شيئا ، حاولوا ان يمر هذا اليوم بالطول أو العرض ، أنا غير موافق على الضرب ، وهذه السياسة سياستهم ، انهـا ليست سياستى انا • انتظروا قدومهم هم وتصرفوا معهم كيف شئتم » • اعتبرنا ما فعلنا اخطارا للادارة بالامتنـاع وعدنا الى العنبر » .

استدعيت الادارة الاصلية على عجـل . كانت صـدمتها هائلة ، فالمفاجأة عنصر هام فى مثل تلك المواقف ، كما كان للموقف الجماعى وقع الصاعقة . انه يكشف فشلّ كل ما اتخذ من اجراءات . انه يمزق كـل تلك الهالة الارهابية التى احاطت الادارة بها نفسها ، ويثبت ان هـذا الانسان المقيد خلف الجدران أقوى بكثير ، وأذكى بما لا يقاس ، وارسخ من ذلك السجان الحر الطليق ، صاحب السطوة والصولجان . كـانت القضية التى شغلت الادارة واثارت ثائرتها الى حد الجنون ، هى كيف استطاع هؤلاء رغم كل هذا الضبط والربط ، ورغم الفلكة والبصاصة ، ان يتصلوا ببعضهم البعض ، بل وأن يتفقوا على عمل واحد ، بل وكبيرة الكبائر ان يجمع الجميع على هذا الموقف . لقد مر الشاويشية ، على العنابر يسألون أن كان ثمة أحد ، يرغب فى استلام الطعـام ، وكان الرفض جماعيا .

وهنا بدأت ادارة المعتقل الأصلية فى استقبال المندوبين . وعاد المندوبون الى العنابر ، وانتشرت الاخبار فى سرعة . لقد لجأ القائد الى المسـاومة ، الى وعود لا قيمة لها ولا تنتهى الى شىء محدد . وعندما أصروا على المطالب وضرورة تحقيقها ، اعتدى على البعض منهم . كان قائد المعتقل يستهدف من وراء ذلك رسالة الى المعتقلين . الا ان الرسالة أتت بعكس ما استهدفته . كان رد الفعل فى المعتقل عنيفا . اثار الاصرار أكثر مما اثار الخوف . وكتل المعتقلين بدلا من تفريقهم . لم تحقق الرسالة ما سعت اليه من اخافة البعض وتراجعه ، فيكون انسحابه محطما للقاعدة الأساسية التى قام عليها الامتناع ، ألا وهى وحدة المعتقلين .

وجاءت وجبة الغداء ، ومر السجانة على العنابر يطلبون استلامها . رفض المعتقلون الوجبة مؤكدين اصرارهم على موقفهم ، واضافوا ان الاعتداء على المندوبين لن يمر دون حسـاب . واضفنا اننا نطلب النيابة العامة فورا .

ساد المعتقل صمت الترقب . همس الناضورجى ، هنالك حركة ناحية الادارة . اخطرت جميع العنابر فى سرعة . صدرت التعليمـات بمواجهة اى محاولة لاقتحام العنابر بالرد المبـاشر . يجب الا يمر اى اعتداء دون رده وعلى الفور ، اما ان كانت مجرد جولة لقائد المعتقـل فليكن الكلام حاسما ولنطالب بحضور النيابة .

مرت الجوقة من أمام عنبر أربعة ، وصلت الى عنبر واحد . فتح باب العنبر . اصوات كالهمس تأتى من بعيد ، أكبر عدد من الزملاء يقفون

بنوافــذ العنبر . نقــل عنبر اثنين الى عنبر ثلاثــة الى عنبر اربعــة ما دار فى عنبر واحد . الزملاء لا يأبهون بزجر الجنــد الذين يطالبونهم بالابتعاد عن النوافذ والكف عن الحديث مع العنابر الأخرى .

ارتفعت « انتباه » ممددة ممطوطة تحمل فى طياتها كل الهنجية المظهرية وزيفها . غادر الزملاء النوافذ وبدأ الاستعداد لمقابلة قائد المعتقل وجوقته . كان على كل الزملاء بناء على تعليمات قيادة العنبر الحزبية وبالاتفــاق مع كل القوى الأخرى ، أن يلزموا أماكنهم . يجب أن يلقــاه منــدوبا العنبر فقط . لا مجال للثرثرة أو فتح ثغرة للادارة تنفذ منهــا فتصبغ الموقف بالميوعة . كان القائد قد عرض فى عنبر واحــد بعض « التنــازلات » من الادارة ، كالفتح وتحسين التغذية . وكنا قد ناقشنا الامر سريعا ، وقررنا مزيدا من الضغط للحصول على أكبر قدر من المطالب وعدم حل الامتناع الا بعد التفاوض مع باقى العنابر .

صرير المفتاح فى الباب كالانين . المندوبان يقفان قبالته . قائد المعتقل ومن معه يسدون المدخل . يخطو خطوة الى الامام حتى يرى كل من فى العنبر . يرسم ابتسامة كالحة على شفتيه ، يلقى بالتحية فيرد عليه المندوبان فقط وبطريقة روتينية . يسأل ، محاولا اتخاذ مظهر ودى . « من المضرب هنا ؟ » يرد الجميع ، « كلنا » . بدا وكأنما قد أخذ . كان يتوقع رد المندوبين فقط . قال وهو يحاول ان يجد مدخلا للحديث ، أنــه ينصحنا كأخ وكأب الا نفعل ما نفعله . ان هذا الاسلوب لا يفيد . قال له احد المندوبين ، « نحن لا نمتنع حبــا فى الامتناع . لكن ذلك أمر فرضته علينا ادارة المعتقل . لقد دفعت بالامور الى حالة غير محتملة . ان هــذا الامتناع هو اعلان عن رفض جماعى لتلك الاوضاع ، وهو فى ذات الوقت اعلان عن حالة الغليــان التى يعيشـــها المعتقلون وتهــدد بأكثر مما يرى بكثير » .

قال ، وهو يحس ان كيانه الوظيفى وكل هيبته تتهشم امــام كــل طاقمه من الضباط والجنود ، « انكم تطالبون بأشياء ليس فى وســعى تحقيقها . انها مسائل تتصل بالجهات العليا » . احتد الزميل المنــدوب وكان ممن اعتدى عليهم صباح اليوم ، « وهل ضرب المندوبين والاعتــداء عليهم مسائل تتصل بالسياســة العليا ؟ » . قال القائد وقد لبس مســوح الغفران ، « عفا الله عما سلف ، نحن ابناء اللحظــة . ومن ناحيتى ، وطبقا لمــا هو فى سعى ، سأزيد لكم الطابور ، وسأعمل على تحســين الطعام وتوفير العلاج » ثم انى لا امانع أبدا فى أن يحضر كل من له طرد

ساعة فتحه وفحص محتوياته ؛ كما اعدكم بشرفى ، أن اسعى لدى السلطات لعرض باقى المطالب عليها » . قال له المندوب « نحن نطالب بحقوق المسجون العادى ، نطالب بالحقوق التى كان ينالها الحشاشون فى هذا المعتقل من قبلنا » . اعتبر المأمور ما قيل مزحة . قهقه ضاحكا محاولا كسر هذا التحدى الذى يلقاه أمام جوقته . قال ملاطفا ، « انتم مثقفون وتعرفون جيدا أن المسئولين عن الحشاشين غير المسئولين عنكم . ومن هنا اختلفت التعليمات . لكن ثقوا فى شرف كلمتى . من باكر سأنفذ لكم ما وعدتكم به ، ومن اليوم ساتصل بالقاهرة لانبأهم بمطالبكم . فقط استلموا الطعام . لأن الدولة كما تعلمون لا تقبل الضغط عليها . وسوف ترون منذ اللحظة اننا ابناء وضع جديد » . قال له أحد المندوبين ، « اننا نود مناقشة ما عرضته سيادتكم علينا . وبالتالى نطالب بلقاء مندوبى العنابر . كما اننا فى حالة الوصول الى اتفاق ، نطالب بالنيابة العامة كى تحرر محضرا بذلك » .

تمزقت القشرة الناعمة التى كان القائد يكتسى بها . فانفجر غضبه ، قال ، « ان ما تطلبونه ضد الضبط والربط . لن اسمح بأى اتصالات بين العنابر . ثم ما دخل النيابة فيما يجرى بيننا » . خيم الصمت من جديد ، وبدأ التحفز على الجميع . وادرك القائد انه قد تجاوز الصورة التى رسمها لنفسه ، فاستعاد قشرته المهشمة . قال وكأنه يتدبر امرا خطيرا ، « على كل حال انا ما زلت عند كلامى ووعودى . اما المطالب الجديدة فسأفكر فيها » .

اغلق باب العنبر ، واستمرت جولة القائد الى باقى العنابر . جرت فى تلك الاثناء مناقشة أخرى . كان الهدف منها تقييم الوضع وتحديد موقف منه . كان هنالك اتجاه بالاستمرار والاستفادة من تلك الوحدة العارمة لتحويلها الى اضراب عام عن الطعام وخوض معركة ضخمة . رفضت الفكرة على أساس أن الاتفاق الجماعى قائم على الامتناع عن الطعام مدة يوم واحد فقط . ثم ان قوى الاضراب عن الطعام مختلفة عن هذه القوى فى مجموعها ، كما ان التحضير للاضراب يحتاج الى اجراءات، وتحضيرات تتجاوز الامتناع بمراحل عديدة . حصرت المناقشة فى حدود المعركة الدائرة فقط وهل حققت الغرض منها . شكك كثيرون فى وعود القائد وعهوده ، انه يسعى كى ينجو بجلده من مواجهة رؤسائه ، وكى يثبت لهم قدرته على ادارة المعتقل . كما يود الا يدخل النيابة فى الامر لاحتمال فضح كل ما يجرى من سرقات وابتزاز . الا أن الغالبية رأت ان الامتناع قد حقق هدفه السياسى ، وهو ابراز الوحدة المنظمة والجماعية

لكل المعتقلين والموقف الواحد لهم ٠ وهذه خطوة هامة يجب الامساك بها بقوة ٠ كما ان زيادة الطوابير والخروج للعلاج واستلام الطرود سوف تساعد أكثر فأكثر على تحطيم سياسة العزل ٠ ومن هنا يمكن القول أن الحد الادنى من المطالب قد تحقق اذا راعينا حدود المعركة وصلاحيات الادارة ٠

وصل زميلان من عنبر خمسة ٠ أنه آخر العنابر فى البلوك الآخر ٠ قالا ان القائد قد وافق بشكل ما على خروجهما للمرور على باقى العنابر ومناقشة المعتقلين فيما عرضه من وعود ٠ اوضحا ان باقى العنابر التى مرا عليها توافق على وقف الامتناع والاكتفاء بما تحقق كبداية ، وأن هنالك وجهات نظر أخرى قريبة من وجهات النظر التى طرحت فى عنبرنا ٠ قالا أن القائد يتهرب من مسألة النيابة وعمل محضر بما اتفق عليه ، وأنه يود انهاء المشكلة داخليا ٠ وافقنا على حل الامتناع على أساس بذل محاولة جادة لكتابة محضر داخلى ٠ طلبنا من الزميلين ضرورة المرور علينا بعد انتهاء مرورهم على العنابر الأخرى قبل توجههم للادارة ٠

ان القائد ومن معه قد واجهوا نفس الاجابات والمواقف فى كل العنابر ٠ ان الثغرة التى سعى للنفاذ منها لم يعثر عليها ٠ انه يحاول الآن البحث عن مخرج ، ربما ، لا لكى يبدأ ، كما قال ، صفحة جديدة من العلاقات الطيبة ، ولكن الارجح وطبقا للظروف السياسية العامة ، ليستعد لجولة أخرى ، يحاول فيها من جانبه سد الثغرات فى ضبطه وربطه لاحكام القبضة على المعتقل ٠ لكن ايا كان الوضع ، فليست القضية هى ما يفكر فيه هو ، ولكن – وذلك هو الاساس – ما نستطيع نحن ان نفعله بوحدتنا وتصليب ارادتنا جميعا ، اننا وقد كشر كل منا عن أنيابه ، لابد مقبلين على معارك أخرى ٠

عاد الزميلان ٠ ابلغانا ان الكل موافق على ما اتفقنا عليه ٠ قلنا لهما ان عليهما التعامل مع الادارة باعتبار انهما يمثلان قرابة خمسمائة معتقل ٠ لابد من تأكيد الموقف الجماعى ، وعليهما التصرف بحزم ومرونة طبقا لما يريانه ولما استمعا اليه من وجهات نظر ومواقف ٠

بعد ربع ساعة من وصول الزميلين الى الادارة ، فتح باب عنبرنا ووقف فى مدخله ضابط وشاويش العنبر ٠ كان الضابط يرسم على وجهه ابتسامة عريضة ٠ قال بعد ان ابدى سروره لانتهاء الامتناع : « الاكل معد للاستلام » ٠ قلنا له اننا فى انتظار عودة زميلينا من الادارة ٠ اختفت البسمة من وجهه ٠ قال ، « أننا لا اكذب عليكم » ٠ قلنا ، ونحن

لا نكذبك ، لكننا ملتزمون بما يتم الاتفاق عليه مع المندوبين . لابد من مرورهما على كل العنابر لاخطار الزملاء بما تم الاتفاق عليه .

فى تلك الاثناء ظهر الزميلان عند النافذة الخلفية للعنبر . قالا انه قد تم الاتفاق على فك الامتناع فى مقابل ما تعهد به القائد . وانه قد رفض بشدة كتابة محضر بما جرى . احتج بعض الزملاء ، واعلنوا ضرورة الاستمرار . قال الزميلان ، انهما مجرد مندوبين ، وانهما على استعداد تام للعودة وابلاغ أى موقف يقرره الزملاء . الا انهما يريان ان المحضر ، وان كان هاما ، الا انه فى نهاية الامر مجرد ورقة ، تلغى أو تتطور طبقا لتوازن القوى داخل المعتقل . وان لأمر كله بيدنا نحن ، هل نعتبر اليوم بداية أم نهاية ؟ ووفق على تصرف الزميلين وطلب منهما الاتصال بباقى العنابر . ما زال الضابط بباب العنبر يناقش الزملاء . تمت الموافقة على حل الامتناع طبقا للتصرف الاخير والفهم الذى تم على أساسه . زاطت العنابر وهى تتسلم الطعام ، وتتبادل التحية عبر النوافذ .

مرت بضعة ايام تحسنت فيها الاوضاع بعض الشىء . ثم تلى ذلك فترة شد وجذب . ثم عادت ريمة الى عادتها القديمة . بدأت الادارة هجمة على المعتقلين . التفتيش والاستفزاز والطعام الردىء واغلاق الأبواب ومحاولة العزل بعنف والسحب الى الفلكة والتأديب . ان ادارة المعتقل تحاول دوما أن تكون محصلة الأوضاع فى المعتقل صفرا . انها تتراجع بضع خطوات لتحاول مرة أخرى استعادة تراجعها ، ثم الدفع بالأمور الى أسوأ مما كانت عليه . وبذا تأخذ ما حققه المعتقلون وجزءا مما كانوا عليه من قبل ، لتصبح الأوضاع تحت الصفر وبهذا تتذبذب الأوضاع حول هذا الصفر صعودا او هبوطا .

وان كانت الادارة قد عادت كما كانت ، الا ان المعتقلين لم يعودوا كما كانوا . لقد حطم الامتناع الجماعى الذى نفذ بدقة ونجاح كل اسس الرهبة التى قام عليها المعتقل . لقد كشف عن مدى قوة المعتقلين من خلال وحدتهم . ومدى ضعف الادارة واهتزاز موقفها . لقد تكسر حاجز الخوف وتحطم بصورة عامة . وأصبح المعتقلون يتصرفون طبقا لارادتهم هم لا طبقا لارادة الادارة . كان التحدى قائما قبل الامتناع وكان رفض المخطط قائما قبل الامتناع . وكانت محاولات كسر حاجز الخوف بصورة أو أخرى قائمة قبل الامتناع . اما بعد الامتناع فقد أصبح هذا الموقف فى مجموعة موقف الجميع وغدت المقاومة والمواجهة هى الراية التى يرفعها كل المعتقلين . اصبح القضاء على حاولات التطويع والتسليس والاستئناس ، مهما كان

الثمن ومهما كانت التضحية ، أمرا يتبناه كل معتقل ، ليس فقط كصاحب رأى أو معتقد ، ولكن ايضا كادمى يدافع عن كيانه ووجوده .

لقد كان الامتناع بالنسبة للادارة تجربة مرة . وبالتالى كان لابد - بعد الاتصال بجهات الأمن فى القاهرة - من أن تغير حساباتها . وان تعد لموقف جديد . لم يف القائد بما وعد . بل أن القدر المحدود من المكاسب - والمفترض ازدياده واتساعه - تضاءل الى حد التلاشى . ازدادت الادارة شراسة ، فى محاولة منها لتغطية عريها وهيلمانها المفقود . وأصابها السعار المحموم امام خط التحدى العام . فتفاقمت التعذيب والتنكيل وأصبح شغلها الشاغل محاولة الوصول الى قيادة المعتقل والقوى التى تقوم بتوجيه المعتقلين وامتلأ التأديب بالزملاء .

المعركة الفاصلة :

واصبح من الضرورى ان تعد القيادة لمعركة جديدة . ان تلك الهجمة التى تشنها الادارة لابد وأن تواجه بهجوم مضاد يكون اتصالا لهجمة الامتناع . لابد من جولة نقاش أخرى داخل الحزب ، حتى يمكن الوصول الى قرار ناضج وموحد . ثم اجراء نقاش مع المجموعات الأخرى والمستقلين . كان الموقف يتحدد فى أن الادارة ، ومن ورائها الأمن فى لاظوغلى ، تحاول جاهدة استعادة مواقعها النفسية والأنقضاض على المواقع التنظيمية . وأن مهمتنا الرئيسية تتحدد فى عدم تمكينها من ذلك بل والانقضاض عليها . ومن ثم فقد حددنا : «أولا » نفس المطالب السابقة كبرنامج للمعتقل . « ثانيا » طرف ثالث بيننا وبين الادارة . ان هذا الشعار يعنى رفضنا التفاوض مع الادارة بأى صورة من الصور باعتبارها المتهم المباشر عن كل ما يجرى علينا . انها خصم له مصلحة خاصة ، تتجاوز دور الموظف العمومى ، فى مواجهة المعتقلين . ونحن لا نشكو خصمنا الى نفسه ونجعل منه حكما بيننا وبين سلوكه وتصرفاته معنا .

حددنا الطرف الثالث بمباحث أمن الدولة او النيابة العامة . كنا نسعى الى مواجهة المباحث العامة وجها لوجه ، بدلا من اتخاذها ادارة السجن ساترا تحتمى خلفه . نحن على ثقة من أن المباحث العامة هى والادارة طرف واحد . الا أن حدا ما لابد من وجوده بين مخطط لاظوغلى والادارة المحلية . كما اننا نود أن نحمل المباحث العامة مباشرة ، وبشكل رسمى ، مسئولية كل الجرائم التى ترتكب فى المعتقل . ان قائد المعتقل وجوقته معه ، عندما يرون موقف المعتقلين ، بما أعد له من تصليب ودعم ، فى مواجهة سادتهم ، سيدركون حقيقة وضعهم والمأزق الذى هم فيه .

دار نقاش جاد داخل الحزب . رأى بعض الرفاق الا جدوى من

الامتناع يوما آخر . لابد من الاضراب العام . الا ان غالبية الرفاق وافقوا على فكرة الامتناع يوما واحدا ، حيث اننا لسنا وحدنا فى المعتقل ، ومن المستحسن المحافظة على الصورة الجماعية للموقف . كما أن الطاقات الموجودة فى المعتقل ليست كلها على نفس القدر من قوة الاحتمال السياسى والبدنى . هذا بالاضافة الى صعوبة توصيل الأمر الى العائلات حتى تتخذ موقف المساندة ، وهو أمر جوهرى فى الاضراب العام . وأن علينا الاستفادة من الاجماع الذى حدث فى الامتناع الأول لتأكيد وحدة المعتقل المنظمة والقادرة على الفعل .

- بعد انتهاء النقاش داخل الحزب ، وبعد أن أصبح الاقتراح قرارا ملزما - بدأت الاتصالات بالجماعات الأخرى داخل المعتقل . وقد وافقت جماعتا « ط . ش » و « و . ش » على دخول الامتناع . أما جماعة « حدتو » فقد رفضت بحجة عدم جدوى تلك الاساليب . وانه لا داعى للقيام بأعمال غير مجدية ، وتستفز الدولة فى ذات الوقت ، وهى - بالنسبة لهم - حليف سياسى . أما المستقلون فقد تراوحت مواقفهم بين الموافقة الحماسية والتردد والرفض . ومن هنا اضحى من الضرورى اجراء حوار واسع ، يشكل الموافقون على الامتناع أحد أطرافه ، ويشكل الرافضون والمترددون طرفه الآخر . وقد اثمر النقاش ما استهدفه . اذ وافق جميع المستقلين على الاشتراك فى الامتناع ، وشكل هذا الوضع ضغطا عنيفا على قيادة حدتو فى المعتقل بالاضافة الى الموقف الايجابى لكوادر الجماعة نفسها ، فاعلنت قيادتهم موافقتها على دخول الامتناع لا عن اقتناع ، ولكن كموقف تضامنى . ومن هنا اشترطت الا تتحمل فيه مسئولية ما . بمعنى ألا يخرج من جماعتها أى مندوبين عن العنابر .

بعد انتهاء النقاش داخل الحزب ، وبعد أن أصبح الاقتراح قرارا ملزما ، جوهرية . الا انه كان من المحتم علينا دخول المعركة ، حتى فى حالة رفض بعض الاطراف المشاركة فيها . أن واجب حماية المعتقلين بمواجهة وتحطيم المخطط الذى ينفذ حيالهم كان واجبا نضاليا لا يمكن التخلى عنه أو تعليقه على قبول أو رفض البعض . حقا أن المظهر لن يكون بنفس قوة المرة السابقة ، الا ان الاستمرار على هذا الوضع ، كان يعنى نهاية كل المعتقلين . وكان على الحزب ، والذى يشكل بمفرده نصف المعتقلين على الأقل ، أن يتصدى لتلك المهمة وأن يتحمل مخاطرها ، وما يمكن أن يصيب اعضاؤه بدنيا من جرائها . ومن هنا كان قبول اشتراك بعض القوى على أسس مختلفة ، ولكن حول نفس المطالب ، أمرا واردا ، ولا يخل بمعركة مداها يوم واحد .

وترك يوم الامتناع دون تحديد ، على أساس اختيـــار الوقت المناسب .

ورفعت الادارة من درجة هجومها ، كانت تبدو وكأنها فى ســباق مع الزمن . زادت أعمال التفتيش والمراقبة . وعثر على بعض الاوراق مع المعتقل ح . ح . فسحب الى التأديب ، وتعرض لعمليات من التعذيب بربرية بشعة ، كى يعترف على مصـــدر الاوراق . ثم تطور التعذيب والتحقيق بغية الوصول الى معرفة مسئول العنبر واللجنــة القيــادية الحزبية للمعتقل كله . فانهار واعترف على الرفيق المهندس فوزى حبشى باعتباره مسئولا عن العنبر .

كان فوزى حبشى يقوم بدور مندوب المعتقلين عن عنبره عند استلام الطعام . وكان مدققا فى مسئوليته . ان احس تلاعبا من الادارة أو المتعهد اتخذ منه موقفا مما دفعه الى الصدام بالادارة . تم وقع احتكاك آخـر بينه وبينها بسبب رفض الادارة السماح لزميلين متعبين بالتوجه الى دورة المياه لقضاء الحاجة . فقام بالدق على باب العنبر . وقد تزامن هذا الحدث مع اعتراف ح . ح عليه . فتم سحبه بناء على أوامر قائد المعتقل ووضعه فى الحبس الانفرادى .

فى ظهر اليوم التالى جاءت من القاهرة عربة سوداء صغيرة ، رآها الرفيقان فوزى حبشى ومحمد الخفيف من زنازين التأديب . واعلنت حالة الطوارىء فى الادارة . كان النهار الى غروب عندما استدعى فوزى حبشى من زنزانته ليجد فرقة من الجند فى أنتظاره . وللحال ادرك أن ســحبه التأديب لم يكن فى حقيقة الأمر بسبب الاحتكاك الذى وقع حول دورة المياه ، وانما اتخذ من هذه الواقعة ذريعة لجره بعيدا عن العنبر لغــرض آخر . كان العسكر فى تشكيل نصف دائرى يتوسطه عبد العزيز شــاكر ضابط المباحث العامة بالفيوم . وكان هــو الذى حضر فى تلك العربــة السوداء ، كما كان هنالك احمد منير غالى قائد المعتقل والتونسى وكيله والملازم فتحى . طلبوا منه أن يخلع ملابسه . جردوه منها تماما ثم ادخلوه وسط حلبة العسكر المسلحين بالكرابيج السودانية ، وانهال الضرب عليه عشوائيا فى كل اتجاه ، على جميع أجزاء جسده . ووضع فوزى يــده فوق وجهه يحمى عينيه ، فغرقت اصابعه فى الدم المنثال من فمه وشفتيه . قال عبد العزيز شاكر ، « عرفنا انك المسئول الحزبى للعنبر ، عرفنا انك تحرض المعتقلين على التمرد ، نحن مصرون على أن تروى لنا كل شىء ،

كل التفاصيل » . رد عليه فوزى حبشى ، « لن تأخذوا منى شيئا . لن تحصلوا منى على أية معلومات حتى الموت » . الضرب يزداد كثافة وسرعة . الجنون يشتعل . ودماء المناضل تصبغ المكان بحمرة الاباء والانتماء . احضروا المعتقل المعترف ح . ح . قال ، « اعترف يا أخى ، لقد عذبونى واعترفت . انصحك أن تختصر الطريق وتعترف » . وبكل ما بقى فيه من ارادة ، واجه فوزى هذا المنهار متحديا ، ثم اشساح عنه ازدراء . أصابه كرباج فى عينه . أحس ان ما بقى فيه من نور قد انطلق منها . وأن نارا مظلمة كاوية قد حلت محل الضياء . صرخ فيهم ، « اضعتم عينى يا اولاد الكلاب » ، انطلق نحو نصف الدائرة الجالس فيها السفاحون يتفرجون . لم يكن يدرى ماذا سيفعل بالتحديد . ربما جال بخاطره حينذاك أن يخنق قائد المعتقل او ضابط المباحث العامة . الا أنه لم يدرك أحدا منهما . ضربه أحد الجنود بعمود خيمة على ساقه فانكسرت عظمة الساق . وأصابته فى نفس الوقت ضربة أخرى فوق العين الأخرى . فساد الغروب سواد حالك ، وغامت به الدنيا فسقط على الأرض . أحس الاغماء يسرى فى أوصاله خدرا يسحب ما بقى فيه من حياة . لكنه حاول جاهدا ألا يفقد الادراك . سمع عبد العزيز شاكر يقول ، « جروه الى الزنزانة » . صاح ، « لا ، لا أحد يجرنى » . خشى السحل وتلوث الجراح . عندما أدركوا أنه ما زال على قدر من اليقظة ، صرخوا فى الجنود ، « أكملوا الضرب . ما زالت به أنفاس » ، وقعت ساعته على الأرض فامسك بها . خلع دبلة زواجه . قدر أنه لا مفر مقتول . اعطاهما للضابط التونسى . قال له ، « خذ هذه الاشياء . سلمها لاولادى بعد موتى » . تأثر الرجل فأخذ الساعة والدبلة وغادر الحلبة . تقدم منه الملازم فتحى . سأله والضرب مازال متصلا ، « الست أنت المهندس الذى اخرجه زملاؤه براءة فى قضية سابقة ؟ » . هذا الملازم صغير السن ، لم يعاصر أبدا هذه القضية ، ففى أواخر عام ١٩٥٤ قبض على فوزى حبشى فى حادثة العثور على مطبعة لتنظيم « النجم الأحمر » . ووضع فى السجن مدة عام الا ان زملاءه فى هندسة السكة الحديدية شهدوا بوجوده معهم فى مقر عمله بالاسكندرية وقت حدوث هذه الواقعة ، مما فضح تلفيق المباحث العامة وسخرية مستشارى المحكمة من رئيس مكافحة الشيوعية ، حسن المصيلحى ، واتهموه بالتجنى الى حد التلفيق الفاشل . كما أصر فوزى حبشى عند القبض عليه عام ١٩٥٩ على تسجيل استشهاد المناضل محمد محمود عثمان ، مما جعل المباحث العامة ، وهى المسئولة مباشرة عن مقتل الشهيد ، تكن له ضغينة خاصة . وهم اليوم يثأرون منه فى خسة ونذالة ، وقد غدا عاريا من كل شىء الا ارادته .

مقابض الكرابيج انخلعت من عنف الاستخدام وسوئه . توجه أحد الجنود الى خيام معسكر الهجانة يطلب استبدال الكرباج التالف بآخر صالح . ثار الجميع فى وجهه ، سبوه ولعنوه ، « اخرج يا ابن الكلب . مات الرجل فى أيديكم ، وانتم ما زلتم تضربونه » .

عندما رفض فوزى أن يسجل ارضا ، أمر الملازم فتحى أحد الجنود بالذهاب الى السيارة واحضار ما فيها . عاد الرجل يحمل كيسا من الملح . كانوا مسبقا قد أعدوا كل شىء . اذابوا الملح فى جردل ماء ، غمسوا فيه ملابسه ، ثم وضعوها على جسده الممزق . يقول فوزى ، « كنت أقف هنالك عريانا انتفض ، واذا بهذا الماء المالح يشعل النار فى جسدى . أحسست كأن هنالك مجالا يحيط باشلائى ، يثير الهواء بعيدا عنى . كان المقصود أن يصيبنى الألم بصدمة عصبية لا يحتملها القلب فيتوقف ، وحينئذ يكون التشخيص ، (الوفاة بالسكتة القلبية) . كان حوالى نصف مسطح جسدى يسيل بالدماء ، وكانت آلام الصدمة البشعة الرهيبة كافية لتحقيق غرضهم . الا ان صحتى وبنيتى اعانتانى على احتمال الصدمة . وما قصدوا به شرا ، افادنى فى تجفيف الجروح » .

تحرك بصعوبة متكأ على أحد الجنود حتى الزنزانة . كانت خالية من كل شىء ، حتى البرش لم يكن له وجود . سقط على الأرض الاسفلتية فاقد الوعى . حاول المقاومة فى البداية ، الا انه استسلم أمام عنف الآلام . لا يدرى كم من الوقت وهو على هذا الحال ، دقائق أم ساعات . سمع صوت محمد الخفيف يسأله فى الزنزانة المجاورة ، « كيف الحال ؟ » . قال له فوزى ، « ما زلت حيا » . أخذ يروى له فى سرعة كل ما حدث . ربما لن تشرق عليه شمس اليوم التالى . ثم استسلم للاغماء من جديد . كان ، ان افاق ، يحاول رفع رأسه فتسقط لعجزه عن حملها . وأحس فى لحظات اليقظة انه يدق بعنف بوابة الموت ، وجاء الصباح وهو ما زال عاريا لا يدرى متى يصيبه الاغماء أو الافاقة (١) .

فى الزنزانة المجاورة ، زنزانة الخنازير ، كان هنالك اثنا عشر معتقلا . كان منهم منجد توفيق ومحمد المستجير وعبد الملك خليل ومحمد الخفيف وفؤاد المساوى و ح . ح . لقد حاولوا تصليب ح . ح . حتى يصمد أمام التعذيب دون جدوى ، ثم جاء فوزى حبشى . ويقول منجد توفيق ، « رفض جنود الكاترابانت المشاركة فى الاعتداء على فوزى

---

(١) من شهادة فوزى حبشى فى ٧/٢٢ ، ١٩٨٠/٨/٥

حبشى . مزق الجنود الآخرون على جسده أكثر من ستة كرابيج غير الشوم والعصى • الكلمة الوحيدة التى سمعناها تصدر عنه « عيني راحت » • سمعنا صوت فتح الزنزانة المجاورة ، ثم جثة فوزى وقد ألقوا بها فيها . كان هنالك فتحة بين الزنزانتين قطرها حوالى بوصة • لم يكن يصدر عن فوزى غير أصوات الحشرجة • نادينا عليه فلم يجب • عندما رد علينا ، تساءل ، « من انت ؟ » . قلت ، « أنا منجد » • قال ، « وصيتك ابنى ممدوح » • ثم صمت • يبدو أنه فقد الوعى » • فى الصباح أخذوا منجد والمستجير الى زنزانة فوزى . كان جثة هامدة . كتلة من الدم يغطيها الذباب بكميات خرافية ، حتى أن الجسد لم يعد يبين تحتها • أول كلمة قالها عندما احس بهما ، « الذباب يأكلنى » . هالهما ذلك الذى أمامهما • لم يكن هنالك جزء من الجسد لم تصبه الكرابيج المتقاطعة حتى الوجه والعينين •

احضر التومرجى جردل ماء به بعض الميكروكروم • تبادلا العمل ، احدهما يدفع الذباب يطرده ، والآخر يحاول جاهدا غسل الجسد الساجى بلا حراك ، الا نبضات الألم • جاء الطبيبان المعتقلان ممدوح الجندى ومختار السيد . البسوه « كلسونا » وغطوا الجراح بالاقطان • كان الامتناع الثانى عن الطعام قد بدأ ، فوضعوه الى جوار التأديب ، حتى يراه المندوبون وهم ذاهبون الى الادارة •

« فى تلك الاثناء ، لم نكن نعرف ما حدث بالتفصيل (١) • الا ان اخبار التعذيب وامتلاء زنزانة الخنازير بالمعتقلين ، كانت مؤشرات باشتداد الحملة وضراوتها . كان قد مضى شهر تقريبا على الامتناع السابق . كان لابد من الدخول الفورى للمعركة . صدر القرار بتنفيذ الامتناع الثانى • كما صدر قرار بعدم ذهاب اى مندوبين عن العنابر الى الادارة ، وعليها ان شاءت التفاوض أن يكون ذلك مع المندوبين فى العنابر نفسها ، حيث اننا نرفض اصلا مبدأ التفاوض معها • وان مطلبنا المحدد هو طرف ثالث بيننا وبينها • وكان اليوم هو ١٩٥٩/٩/١١ .

فى الصباح عندما فتح شاويشية العنابر أبوابها لتسليم الافطار • اخطرهم المندوبون برفض استلامه • اغلقت الابواب مرة أخرى • ساد الترقب المعتقل وخيم عليه صمت ثقيل . اعلن الزميل الناضورجى بعد فترة من الوقت ، ان أحد الضباط قادم نحونا • فتح باب العنبر ووقف فى مدخله • كل ما فعل ، أنه تيقن من الامتناع وعدم استلام الطعام • نصحنا بطريقة

---

(١) فخرى لبيب •

روتينية أن نعدل عن عمل لا جدوى منه . قوبل بالاصرار على الامتناع فأغلق العنبر ، وبدأ جولة مماثلة حيث تلقى نفس الاجابة . بعد قليل فتح الشاويش العنبر . قال ، ان القائد يطلب مندوبين للتفاهم معهم . قيل له ، لن يذهب مندوبون الى الإدارة ، وان شاء أحد منها التفاهم معنا فليحضر الى العنبر . وتلقى باقى الشاويشيه اجابات مماثلة من باقى العنابر . إعلن الزميل الناضورجي ان قائد المعتقل قادم ومعه بعض الضباط والجنود . « انتباه » مدوية بينما يفتح باب العنبر . ووقف القائد فى المدخل . سده هو ومن معه . بعد صباح الخير دخل فى الموضوع . لقد لعب دوره فى المرة السابقة بمهارة ونجح ، بدت اللعبة بالنسبة له أمرا ميسورا . مجرد وعود وعهود . اعلناه بقراراتنا ، « لا تفاوض مع ادارة المعتقل ، نريد طرفا ثالثا بيننا وبينها » حاول الدخول فى تفصيلات ، فلم يتلق غير رد واحد ، « طرف ثالث بيننا وبينك . النيابة العامة أو المباحث العامة » . عندما فقد الامل فى اتصال التفاوض ، غادرنا الى العنبر التالى لنا . الا انه سرعان ما عاد الى مكتبه وحوله جوقته . قال الزميل الناضورجي ، ان القائد يسير فى خطى سريعة ، وهو فى أشد حالات الغضب والهياج والجنون . انه يسير كمن يهرب من شيء ، أو يسرع للحاق بشيء .

لقد اعلنت الحرب وعلينا ان نتوقع اى اجراء . فتح الشاويش غطاس العنبر . قال ان السيد القائد لا يطلب مندوبين كالمعتاد . أنه يطلب أحدا للوصول معه الى حل . انه على استعداد للتفاهم . خرجت وزميل آخر . كنت اعتقد ان الامر قاصر على عنبرنا فقط ، وجدت زميلين من كل عنبر فى الطريق الى الادارة . تبادلنا التحيات والسلامات فى شوق . حاول الشاويش منعنا من الكلام فزجره أحد الزملاء . كان للبعض منهم أعرفه والبعض الآخر أراه لأول مرة . كانوا من المستقلين ومختلف الجماعات المنظمة بما فيهم زملاء « حدتو » ، رغم دخولهم الامتناع بشرط عدم ارسال مندوبين عنهم . حفز هذا التشكيل الزملاء ورفع من معنوياتهم . فى طريقنا الى الادارة ، مررنا بزنزانة التأديب . رأيت شيئا ملقى الى جانب الحائط وعليه غطاء دام . قال أحد الزملاء ، انه فوزى حبشى لقد مزقوه بالامس . احسست بنار العالم تشتعل فى أعماقى . ادخلونا حجرة ضيقة فاكتظت بنا . كانت حجرة السلاح ليك . لم يكن بها اى سلاح . فجأة اندفع القائد الى وسط الحجرة وحوله جوقته . نظر الينا كالفائز فى حرب يتأمل باكورة أسراه . ساد الصمت الاخرس . أخيرا نطق القائد . قال تهديدا ووعيدا . خلع رداء التمثيل الذى كان يرتديه من حين الى حين . بدا عاريا على حقيقته كوحش مخبول . قال : « من انتم ،

ومن تكونون • اننى هنا الآمر الناهى . سأقتلكم جميعا وادفنكم . النصارى فى مقابر النصارى والمسلمون فى مقابر المسلمين » • كانت المقابر بالفعل تحيط بالمعتقل • رفعت يدى اطلب الكلام • صرخ القائد ، « ماذا تريد ؟ » • قلت ، « احتج على هذا الكلام الذى تقوله ، وأقول لك ، انك لن تستطيع قتل أحد منا • لا من النصارى ولا من المسلمين » • بدا فى أول الامر كمن فوجىء ، أو كمن أصابه الذهول • ثم افاق فصرخ كالوحش الجريح ، « أنت ، انت ماذا قلت ؟ » . فأعدت فى هدوء كل ما قلته ، الا ان جنديا دخل الحجرة وقال أن سيادته مطلوب على الهاتف • اندفع كالصاروخ من الحجرة ومعه جوقته . تبادلنا النظرات . كان الاصرار يلمع فى عيون الرفاق • شد بعضهم على يدى • كانت تغمرنا مشاعر هؤلاء الذين يواجهون الموت بارادتهم ويصرون على الا يتراجعوا ، وهم يحركون بوعى تام الا بديل أمام هذا الجحيم .

فجأة تشدتنا أصوات من الخارج • أصوات اصطفاف جنود ، ثم اصوات العد ، واحد •• اثنين •• ستة وعشرين سريعة مبتورة . ثم اقدام تهرع وزعيق وضجيج . ثم أصوات اصطفاف اخرى ، وأصوات عد أخرى ، واحد ، اثنين ...، ستة وعشرين سريعة مبتورة . ثم « كتفا سلاح » ، صارمة مدوية ، وصوت القبضات تدك السلاح • ثم « استرح » . وهمس أحد الرفاق ، انهم يعدون للهجوم على العنابر • وقال آخر ، انها المذبحة • وعلق ثالث ، الموت أهون مما نحن فيه • فأضاف رابع ، وانسرف ايضا • . قلت ، فلنكن هادئين • ربما كانت تلك هى النهاية . نهايتنا أو نهاية ما نحن فيه . لقد بدأ الاعصار ، ومن أمسك زمام نفسه ، امسك زمام الموقف كله . فليكن موقفنا موقفا يذكر لمناضلين لا يبخلون بتضحية مهما عظمت . التضحية حتى الموت • يجب أن نكون على مستوى الموقف الذى يواجهنا . شجعان بواسل •

نحن فى جحر الفئران هذا تكاد أنفاسنا أن تنقطع • التوتر والاعصاب المشدودة والرغبة الجامحة فى أن نقتحم هذا المكان ونعود الى العنابر ، لنكون معا امام المصير الذى يدبر لنا • فجأة دوت فى الحجرة « انتباه » صارمة زاعقة ، لكنها آتية من الخارج . كل شىء يدوى اليوم كالطبل . لا يبين الصوت من صداه • بدأنا نسمع صوتا ، قيل فيما بعد أنه صوت حكمدار المحافظة • كان يصلنا متقطعا كالفحيح حينا وكالنباح حينا آخر ، « الكفرة الملاحدة ، الزنادقة ، أعداء الله • انهم حشرات سامة ، يجب القضاء عليها لتطهير المجتمع » • ثم بدأ فى تلاوة بعض الآيات القرآنية

فى الحض على قتال المشركين وأعداء الاسلام • ثم ساد الصمت • قلت للزملاء ، يبدو أن اوان الهجوم قد آن • فلنكن جديرين بشعبنا ومبادئنا ، ولنقاوم حتى الرمق الاخير • لا زعيق ولا صراخ ، وانما هتاف بحياة مصر والشعب • ولنرد عليهم قدر ما نستطيع ، الصاع بصاعين •

ما زال الصمت يسود المعتقل لم نسمع صوت انصراف الجند أو الامر بتوجههم الى العنابر • ولا صوت من ناحية العنابر • متى يبدأ الهجوم ؟ متى تبدأ المجزرة ؟ متى ينتهى الهدوء الذى يسبق العاصفة ؟ فتح باب السلاح ليك • سد غطاس المدخل • قال فى صوت أجوف ، « القائد يطلبكم فى مكتبه » • همس رفيق ، يبدو أنهم سيبدأون بنا • اجابه آخر ، فليكن ما يكون • نحن لها • تقدمنا غطاس الى حجرة القائد • نظرات الجنود العدائية تحيط بنا من كل جانب • انهم يتكأكأون حول الممر وقد وضعوا السلاح الابيض فى البنادق • دخلنا حجرة القائد • وقف الجنود خلفنا • نوافذ الحجرة مسدودة بحملة الكرابيج والشوم والعصى والقوايش • اننا الآن فى قلب الدوامة • فى عين الاعصار • نحن أمام النهاية ، وجلادنا هو قاضينا • لكن كيف يمكن للفكر ان يقتل ، وكيف يمكن للمعتقد أن يباد ؟

ما أعجب الانسان • اننى اشعر الآن ، وأنا أواجه النهاية ، اننى أقوى من كل هؤلاء • اننى احس انى لست جزءا معزولا ، لكننى جزء من كيان يملأ الزنازين والشوارع والحقول والمصانع • انى جزء من كل خالد لا يفنى • وهؤلاء السفاحين ، هذه الكلاب المسعورة المتلمظة للانتضاض ، المشحونة بالبغضاء والاكاذيب والحقد ، انما هى طبل اجوف ، فراغ • هى القرحة فى جسد مصر الدامى فى تلك الايام • اننى وزملائى أقوى منهم بكثير • اننى استهين بهم • بل احتقر هذا القائد الذى يجلس منجعصا الى مكتبه وحوله جوقته من ضباط المعتقل ، وكأننا نواجه مجلسا عسكريا سوف يصدر علينا حكم الاعدام • لماذا كل هذا الضجيج الذى أحدثوه منذ لحظات ؟ لماذا هذه البذاءات الحقيرة الكاذبة ؟ لماذا هذا الهيامان الفارغ الزائف ؟ انهم عصابة تواجه جماعة من اشرف واشجع ابناء مصر •

كان القائد صارما يتأملنا فى صمت ، واحدا بعد الآخر • وضباطه يجيلون فينا ابصارهم • لابد انهم يفكرون الآن : كيف لهؤلاء أن يقاوموا السلطة ؟ كيف يتخيل هؤلاء انهم قادرون على أن يقولوا لا ، لشىء لا يرضون عنه ؟ من هم ؟ من هم ؟ عملاء ؟ مأجورون ؟ خونة ؟ تلك هى الصفات التى اضفتها السلطة عليهم • خرج القائد عن صمته • قال فى

استهانة ، « ماذا تريدون بالضبط ؟ » • رد أكثر من صوت ، « نريد النيابة العامة » • هز القائد رأسه ، « ولماذا النيابة العامة ؟ الا تكفيكم ادارة المعتقل ؟ » اجاب أكثر من صوت ، « الادارة خصم . اننا نريد النيابة العامة ، فهى الجهة المختصة بشكوانا » • تلفت القائد الى جوقته وقد رسم على فمه ابتسامة المشمئز . قال ، « أخبرونى بمطالبكم وشكاواكم . وما استطيع فعله سوف افعله » • قلت وقد استفزتنى سحنته وطريقته ، « نريد النيابة العامه • مطالبنا لن تحققها انت . وشكوانا بالتحديد ضد الادارة » • نظر الى فى دهشة ممزوجة بالازدراء • قال ، « ولماذا لا احققها أنا ؟ » . قلت ، « لقد وعدتنا فى مرة سابقة ، ولم تلتزم بوعد واحد . لقد تعهدت بدراسة باقى مطالبنا ، الا انك لم تبذل أى جهد فى هذا الاتجاه • لكن العكس صحيح • لقد اشتد التعذيب وتفاقم التنكيل . وهنالك الى جوار التأديب من احالته عهودك ووعودك الى مزق دامية • انت قتلت فوزى حبشى وأنت المسئول عن ذلك . اننا نريد النيابه العامة . لدينا بلاغات لها عن أعمال سرقة وقتل وابتزاز وتعذيب » . ساد صمت ثقيل . اعتدل الرجل فى جلسته • تساءل فى صوت كالنفير ، « ما اسمك ؟ » • قلت ، « فخرى لبيب » . قال ، وما « وظيفتك ؟ » قلت ، « مترجم » • ابتسم ابتسامة كالحة • قال ، « من الروسية طبعا ؟ » قلت ، « آسف لأنى لا أعرفها • ويا ليتنى أعرفها واعرف الالمانية والهندية ايضا ، بل وكل لغات العالم • ان ذلك يفتح للانسان آفاق هائلة . اما ان كنت تقصد العمالة ، فانا من اشرف الوطنيين فى هذا البلد . لقد سجنت من أجل مصر قبل الآن ثلاث سنوات شاقة ، وخرجت ، وهاأنذا اعود مرة أخرى ، لكننى سأخرج ثانية ، فلكل طغيان نهاية » . بدأ الضباط يتململون فى جلستهم • قال القائد ، « نحن لا نتصرف على هوانا • نحن نتلقى الاوامر ، وانتم تعلمون ذلك » • قلت ، « وهل هنالك أوامر بالقتل ؟ » . قال ، « ان كل ما نفعله ليس الا تنفيذا للاوامر » قلت ، « اتحدى ان يكون هنالك أمر واحد مكتوب • ان السادة فى المباحث العامة يعطونك الاوامر هاتفيا • وانت تنفذ ، وتضيف الى التنفيذ ما تشاء وما تريد » . قال : « ومن ادراك أن الاوامر هاتفية ؟ » كان لونه قد بهت . بدأ مهزوزا وقد فقد الكثير من عجرفته . قلت وانا اشير الى الحائط حيث كانت لائحة المعتقل معلقة ، لائحة لو نفذت ، لغدا معتقل الفيوم فندقا للنقاهة • قلت له ، « تلك اللائحة هى الشىء الوحيد المكتوب ، المخطوط على ورق . لأنه عندما يحين حين الحساب ، وهو لابد آت ، سيهرب كل السادة فى القاهرة من المسئولية . سيقولون تلك هى أوامرنا مكتوبة ، لائحة محددة ، أما ما خلا ذلك فهو من عنديات قائد المعتقل ولحسابه » . صاح فى فزع ، « لكننا نتلقى

بالفعل أوامرهم » • عدت أقول ، « اتحدى ان تكون المباحث العـامة قد ارسلت لك ورقة واحدة مكتوبة بما تفعله بنا » . قال احد الضباط وكأنما يحادث نفسه ، « لكننا لسنا مسئولين • انها الاوامر » قلت ، « ومن يثبت ذلك • شاهدك الوحيد هو المباحث العامة . وهى ان برأتك ادانت نفسها ، وان ادانتك برأت نفسها •• هل تسمع بما يجرى فى العراق من محاكمات ؟ هل تسمع ما يجرى اليوم لضباط السجون والمعتقلات الذين قاموا بأعمال التعذيب ايام نورى السعيد ؟ ان الدائرة لابد وأن تـدور ، ليغدو السجان سجينا ، طالما كان ظالما ومستبدا ومعذبا » • قال أحـد الضباط ، « من انتم ؟ » نظر القائد اليه فى حيرة . بـدا وكأن هـــذا السؤال كان يشغله ايضا • انه لأول مرة يواجه جمعا من هؤلاء الذين يحكمهم ولا يراهم كبشر • انهم لا يمثلون بالنسبة اليه غير اشـــياء مخزونة فى عنابر ، ولهذا التخزين مواصفات • وهو لا يراها ـ فى اغلب الاحوال ـ الا معلقة من أرجلها تحت سياط الفلكة . نظرت اليه وأنا اهز راسى مستفسرا • اسرع يقول موضحا ، « اقصد لماذا انتم هنا ؟ لماذا اعتقلتم ؟ » بدا اغلب الضباط وكأنهم فى انتظـــار الاجابة على سـؤال زميلهم . قلت ، « الامر بسيط للغاية ، نحن نطالب بالديمقراطية » . قال القائد ، « ماذا تعنى بالديمقراطية ؟ » . قلت « لنبـدأ من ابسط القواعد • انت تدفع ضرائب للدولة • أليس كذلك ؟ » قال القائد فى حماس ، « نعم ، هذا ما يحدث كل شهر » • قلت ، « وهنالك ملايين غيرك يدفعون الضرائب مثلك • هذه الضرائب تشكل الجزء الاساسى من دخل الدولة • . من الذى له حق التصرف فى تلك الضرائب ؟ من الذى له الحق فى اقرار الميزانية ؟ » • كان الجميع يسمعون فى انصات عميق • الجند حولنا تخلوا عن وقفتهم العسكرية ، وغرقوا فى ذلك الجدل الدائر امامهم • انه امر لم يعتادوه من قبل على الاطلاق . انهم الآن امام مباراة بعيدة تماما عن خيالهم . القائد والضباط فى وضع التلاميذ والمعتقلون فى وضع المدرس الذى يشرح ويفسر • هؤلاء المعتقلين هم انفسهم الذين كانوا حتى لحظات ممنوعين من الهمس والاشارة ، مهددين بالقتل . كيف انقلبت الآية ؟ ما الذى يجرى فى هذا المكان المجنون ؟ هز القائد رأســه كمن لا يعـرف الاجابة على سؤالى ، فاستأنفت حديثى ، « انه مجلس الأمـة ، فعلى هذا المجلس أن يقر أبواب الميزانية : ايها للتعليم ؟ ايها للصحة ؟ كـم للجيش ؟ كم للصناعة ؟ وهكذا . مجلس الأمة ليس هنا مجرد مبنى بـه اناس ، أى اناس • انه وهذا هو المفروض ـ مجلس يمثل الأمة بحق ، يمثل الشعب . اى ان الشعب من خلال ممثليه الحقيقيين فى هذا المجلس يقر طريقة صرف الضرائب التى دفعها هو » • قال القائد وهو يهز رأسه وينظر الى الضباط حوله ، « هذا حق وهو أمر طبيعى ، فما المشكلة ؟ » •

قلت ، « ان هذا المجلس شبه معين . لابد ان يكون هنالك انتخاب حر حقيقى . لابد من ازاحة العقبات أمام التمثيل الحقيقى للشعب . وهذا يستدعى أن يكون للمرشحين برامج ، أى حرية التعبير ، وان يشكل المتقاربون فى البرامج احزابا واضحة المعالم ، أى حرية التنظيم ، وأن يكون لتلك الاحزاب صحافة ، وهذا يعنى حرية الصحافة . وأن يكون لها حق ابداء الراى اتفاقا أو اختلافا مع السلطة دون أن يهددها السجن أو المعتقل . تلك هى الديمقراطية » .

هز الضابط الذى طرح السؤال راسه ، وسحب نفسه ، كمن يعود من عالم بعيد . ساد الجميع وجوم شامل . لم يوجه أى احد الى سؤال آخر . قال القائد وكانه يود أن يسخر كل ما جرى لحسابه ، كأن كل هذا النقاش انما هو لعبة ماكرة اديرت لصالحه ، « كل هذا حسن . لقد تفاهمنا الآن وتعارفنا ولم تعد هنالك ضرورة لهذا الاضراب . وانا اكرر وعدى لكم بتحقيق مطالبكم » . قلت فى اصرار ، « ان مطالبنا محددة ، نحن نريد طرفا ثالثا بيننا وبينكم . الدم ليس ماء حتى يمحوه ما تسميه بالتفاهم . اننا نريد النيابة العامة . وقد اوضحنا اسباب ذلك ، كما نريد المباحث العامة لنواجهها امامكم ، ولنحدد مسئولية ما يجرى فى هذا المكان » . قال القائد فى صوت مهزوم ، « اذن ستستمرون فى اضرابكم ؟ » . قلت ، « انه ليس اضرابا عن الطعام ، لكنه امتناع عن استلام طعام المعتقل . ونحن ما زلنا عند موقفنا ، مستمرين فى هذا الامتناع حتى يأتى الطرف الثالث » . قال القائد ، وكانه قد احيط به ولا مفر امامه ، « حسنا سأرى هذا الطرف الثالث » .

بدأنا نخرج من الغرفة . الضباط ينظرون الينا وفى نظرات البعض منهم اعجاب يحاول اخفاءه . الجنود يفسحون لنا الطريق وعيونهم تشع منها الدهشة والانبهار . لا ندرى كيف عرفت العنابر بما حدث . لابد أن بعض الجنود كانوا يهرعون الى الزملاء بالانباء أولا بأول . اذ ما أن ظهرنا فى الطريق المؤدى الى العنابر حتى دوت جميعها بالهتاف . الاصوات المنبعثة من العنابر الثمانية مزقت الصمت الثقيل . اطاحت بسياسة العزل والارهاب ، احالتها هباء منثورا . الهتاف بحياة الحزب زئير مجلجل . كل ما كان محبوساً فى الصدور تفجر . الأصوات مجتمعة تنشد كالهدير .

فى ثورة على الطغاة   والكادحون حولنا

نبنى دعائم الحياة   من عمرنا وكدنا

ما ان وصلنا العنبر ، أنا وزميلى ، حتى ضج بالتصفيق ، وكذا باقى العنابر عندما وصل اليها الزملاء الذين خرجوا لملاقاة الادارة . ثم

ساد صمت يوحى بان الزملاء فى كل العنابر يستمعون الى ما دار بيننا وبين الادارة ، ثم عادت الاناشيد وتحية الزملاء لبعضهم البعض عبر نوافذ العنابر . لقد أمسكنا بالثور من قرينه . مزقنا القيود ، أوقفنا الدوامة وهزمنا الاعصار . الوحش يجلس الآن فى مكتبه بلا مخالب أو انياب . الحرب النفسية ارتدت اليه ، تحيط به .

عقدنا اجتماعات سريعة مع الزملاء الحزبيين من مختلف الاتجاهات والمستقلين لمناقشة الاحتمالات المتوقعة بعد ما حدث . لابد أن قائد المعتقل يتصل بالقاهرة الآن . لن يكون رد فعل المباحث مثل رد فعله . انهم الاعداء الحقيقيون . انهم المخططون والمدبرون لكل ما يدور فى المعتقل . هل يستسلمون لهذا الفشل الذريع ؟ أم لابد من رد على ما حدث فى معتقل العزب ؟ اتفقنا على ضرورة الاستمرار فى المواجهة الحاسمة . لا تردد ولا تراجع . لابد من تصعيد الموقف للاجهاز على سياسة العزل والتعذيب النفسى والبدنى . الا انه يلزم عدم تحدى الجنود ، حتى اولئك الذين شاركوا فى التعذيب تنفيذا لاوامر الادارة . لابد من استغلال الفرصة واجراء اوسع حوار معهم . من نحن ؟ ولماذا نحن هنا ؟ لا مواقف فردية دون دراسة وتوجيه من الرفاق المسئولين . يجب عدم اللجوء الى الاستفزاز على الاطلاق . وأولا ، وقبل كل شىء ، يجب تعميق وحدة المعتقلين ، وتاكيد صحة موقفنا وضرورة استمراره .

ابلغت تلك التعليمات الى العنابر المختلفة لمناقشتها . تداول جميع المعتقلين حول ضرورة الالتزام بهذه التعليمات . لم تستغرق المناقشات وقتا . الا ان فكرة الاضراب عادت تطل من جديد . ورفضت ايضا مرة اخرى . لابد من التمسك بما اتفق عليه بين الاطراف المختلفة ساعة دخول المعركة . اضيف اقتراح بمد الامتناع يوما آخر اذا دعت ضرورة المعركة الى ذلك . ووفق على الاقتراح دون تردد . اصبح من الضرورى الحفاظ على ما لدينا من طعام حتى يكفينا مدة يومين . اوكلت تلك المهمة الى لجان الحياة العامة فى كل عبر . بدا وكأن الادارة قد هجرت المعتقل . لا أحد منها يظهر حول العنابر أو يتلصص من النوافذ . حل المساء ولم يجد جديد . لابد ان شيئا ما يدبر لنا . لا يمكن ان يمر ما حدث على هذا النحو . ان العقول التى لا تتوقف عن ابتكار فنون التنكيل والعداء ، لا يمكن ان تستسلم هكذا . ان الوضع السياسى عموما ما زال فى عنفوان عدائه لنا . وتلك لن تكون النهاية بأى حال . ربما تكون نهاية شىء ما وبداية شىء آخر ، الا ان الاوضاع السابقة لن تعود .

نقرات خفيفة على النافذة ويسرع الزميل الناضورجى ليرى ما هنالك . أحد الجنود يهمس فى سرعة . هنالك تعزيزات فى الحراسة

حول المعتقل . لقد جاءت الآن لتوها . انها مدججة بالسلاح • تم توزيعها حول الاسوار • ان القائد لم يغادر مكتبه منذ الصباح • الهاتف لم يكف عن النداء منه واليه . اتصالات تجرى بالقاهرة والمحافظة والمباحث العامة والأمن المحلى • هنالك أمور تدبر • اختفى الجندى فى الظلام • علمت العنابر بكل ما علمنا ، فشددت من استعداداتها . انتهت مراحل المناوشات وجس النبض ، وجاء الهجوم المضاد . علينا أن نستمر فيه • نحن لسنا وحدنا فى المعتقل • لابد كسبنا تعاطف بعض الضباط والجنود . لابد أن ما حدث اليوم فى المعتقل سوف يتناثر بصورة أو اخرى ليصل الى الناس فى الفيوم والقاهرة . لقد كسرنا العزلة وعلينا الاجهاز عليها • تحولت فكرة الامتناع لليوم التالى الى قرار • الحماس يجتاح المعتقل • لاناشيد تعلو مرة أخرى فتبدد ذلك السكون الوحشى الذى يحيط بالمكان • لم يعد العزب مقبرة ثالثة وسط مقابر المسلمين والمسيحيين • ابناء معتقل العزب يستنهضون بحماسهم أموات المقابر .

بلادى بلادى بلادى　　لك حبى وفؤادى

مصر يا ام البلاد　　أنت غايتى والمراد

لا رد فعل من قبل الادارة • الجنود الحراس داخل المعتقل وخارجه يتصون ما يسمعون فى شغف • لسنا تجار حشيش أو مخدرات • لسنا خونة أو عملاء . نحن ابناء مصر الحقيقيين • يجب أن يعبأ الجنود بالحقيقة : ان الهجوم المضاد لا يجب أن يقف عند حد مواجهة أساليب التعذيب ، بل وايضا بالضرورة ، أساليب التضليل والخداع والاكاذيب . علينا أن نوضح لهم ، اننا ابناء العمال والفلاحين • نحن هنا من أجل ابنائهم واخوتهم واهلهم • يجب ان يفهم هؤلاء الحراس ، والذين قد تستخدمهم الادارة غدا ضدنا ، اننا لسنا ضدهم هم ، واننا انما نموت دفاعا عنهم ، انهم جزء من شعب مصر •

بدأ اليوم الثانى . شاويش يطلب استلام الطعام . رفضت جميع العنابر • بدا أن الاجراء شكلى وكأنما يتم لغرض ما . مر الوقت ولم تفتح العنابر كالمعتاد للذهاب الى دورة المياه . هنالك شىء ما يجرى بعيدا عند الادارة • نادى بعض مندوبى العنابر على الشاويشية لفتح الابواب للتوجه الى دورة المياه • قال الشاويشية ، تبريرا لعدم فتح الابواب ، أن عددا من السيارات الخاصة قد وصلت من القاهرة وبها رجال المباحث العامة منذ الصباح ، هنالك اجتماع بين القائد وضباط الأمن ورجال المباحث العامة •

ماذا يدبر لنا ؟ شاويشية العنابر يقفون امام أبوابها . الحراس والحرس الاضافي حول المعتقل ، شاكي السلاح . العساكر بالخوذات والعصي في فناء المعتقل وعند دورات المياه . الصمت يخيم في الخارج والتوتر والتحفز يسودان العنابر . الكل على استعداد لمواجهة أي احتمال حتى الموت . قال الزميل الناضورجي : « هنالك حركة عند الادارة . موكب ضخم من الضباط ولابسي الاردية الملكية من رجال المباحث العامة . الموكب يتحرك في اتجاه العنابر » . لا صرخات داوية « بالانتباه » . الموكب يتسلل في صمت وجدية مبالغ فيهما . مر الموكب امام عنبر اربعة ثم اجتازه . عبر عنبر ثلاثة ثم عنبر اثنين الى عنبر واحد .

يقول نبيل صبحي : « في عنبر واحد تصدى لهم لطفي الخولي بموقف شجاع ، كان واثقا من نفسه ومقدرته . ناقشهم بمنطق هادئ وحازم ، وانهى الامر بنوع من المفاوضة » .

يقول لطفي الخولي : « في اليوم الثاني للامتناع ، عرضوا الأكل على العنابر ، الا ان العنابر كلها رفضت . جاءوا الى عنبر واحد . اخرجونا وطلبوا منا استلام الطعام فرفضنا مرة أخرى . قالوا : « من يتكلم باسم العنبر ؟ » فخرج المندوبون وكنت معهم . أوقفونا امام ضرب النار . كان الجنود واقفين بالرشاشات ، حوالى خمسة عشر جنديا . الضباط يتهامسون معا . وهنالك جواريف معدة على أساس اتهامنا بمحاولة الهرب . (مبزانسين) كامل يعطيك انطباعا بانك مقتول مقتول . جاءني الحكمدار ، قال : « لا داعي لتعريض نفسك لما سيحدث . اترك هذه المسئولية واخرج » . قلت : « لماذا ؟ » . قال : « انت تعرف . ويمكن أن تخرج قريبا . كان لديك زيارة لم يسمح بمثلها لأحد من قبل » . « انا لي موقف ، وانا هنا جزء لا يتجزأ من زملائي ، ولا يمكن أن اترك مسئوليتي » قال : « هذا معناه انك تضحي بحياتك » . قلت : « عندما وضعنا في المعتقل ، كنا نعرف اننا نضحي بحياتنا . ثم اني قد أخذت نفس الضرب الذي أخذه كل زملائي قبل حضور الزيارة . ثم ماذا تعني هذه الزيارة ! » . قال : « لا ، انها تعني الكثير ، انها من أعلى المستويات ، ومعنى هذا أن موضوعك تحت النظر » . قلت : « موضوعي ينظر أو لا ينظر ، فانا مصيري الآن مع زملائي » . قال : « اخرج » . قلت : « لا يمكن » . قال : « لقد حذرتك » . وحاول أحمد منير غالي أن يثنيني ايضا فرفضت ، فقال : « خدوهم الى صف ضرب النار » . تركونا في الشمس . وعادوا يتهامسون بصوت لابد أن نسمعه . كانوا يتبادلون الرأي حول ضربنا بالنار فورا أو تأجيل هذه المسألة بعد المرور على باقي العنابر . ثم أمروا الجنود ان يكونوا في وضع الاستعداد و (تكتكت) البنادق . وبدافع الصراع من أجل الحياة وجدنا انفسنا نندفع نحو العساكر .

كنا حوالي خمسة او ستة زملاء . خاف الجنود فتراجعوا الى الخلف كثيرا . انني اتذكر جيدا انهم رفعوني من فوق احد الجنود وقد امسكت ببندقيته وهو يصرخ تحتي ، « وانا مالي يا بيه ، دا احنا لا هنضرب ولا حاجة » . بعد هذا الهجوم خفت قبضة الادارة . لتصورهم أن الشيوعيين يمكن أن يفعلوا اى شيء . فعملوا (ميزانسين) آخر . جاء جندى وقال أن القائد مطلوب على الهاتف . ثم عادوا وأخبرونا أن هذه المكالمة قد انقذتنا ، ثم ادخلونا العنبر . فى تلك الاثناء كانت العنابر كلها قد هاجت هياجا شديدا ، ونحن ، كرد فعل لما حدث معنا ، اخذنا نسبهم ونشتمهم . فبدأوا شكلا من اشكال التهدئة وادخلونا العنبر » .

يقول طاهر عبد الحكيم (١) ، « جاء اليوم التالى ، ووفدت على المعتقل عدة سيارات محملة بالجنود لابسى الخوذات الحديدية ، البعض مسلح بالبنادق والبعض مسلح بالقنابل اليدوية ، والبعض الآخر بالقنابل المسيلة للدموع ، وآخرون يحملون عصيا غليظة .

نزل هؤلاء الجنود واخذوا طريقهم الى منطقة العنابر وأمام عنبرنا قاموا بمظاهرات ارهابية وخرج سكان عنبر واحد الى الفناء بين صفوف الجنود الذين وقفوا ببنادقهم وعصيهم وقنابلهم فى وضع استعداد ، وتقدم حكمدار مديرية الفيوم قائلا ، من يريد ان يتسلم طعامه فليتقدم خطوة . ولم يتقدم احد . فعاد يقول ، المتنعون عن الطعام يأخذون خطوة الى الخلف . وخطا الجميع الى الخلف . لم تفلح مناورته الارهابية فى تفتيت وحدة المعتقلين .. وتصدى له واحد من المعتقلين فاضحا سياسة السرقات .. سرقات القائد ، سرقات غطاس . وقال ان الارهاب كله مقصود به التغطية على تلك السرقات والاستمرار فيها .

وبهت حكمدار الفيوم . ووقف بعض رجال المباحث صامتين . لم يستطع أحد منهم أن يواجه التهم التى وجهت الى قيادة المعتقل . وادخل سكان العنبر واخرج سكان عنبر اثنين . وغالبيته من العمال .... وتقدم الى المناضل محمود عطا الله رئيس نقابة عمال النسيج بكفر الدوار الذى كان فى مقدمة سكان العنبر ، وقال له فى لهجة آمرة ، اطلع استلم الأكل .

ورد عليه المناضل النقابى ، احنا ممتنعين عن الطعام ولينا شكاوى . فرفع الحكمدار يده وانهال بصفعة قوية على وجه المناضل محمود عطا الله

---

(١) الاقدام العارية .

فصرخ هذا فى وجهه صرخة إذهلت الحكمدار : « احنا ممتنعين لاننـــا بنحتج على الاعمال الاجرامية دى » .

واحس الرجل أنه امام طينة أخرى من البشر ، وانسحب الى مكتب القائد وسحب جنوده . وطلب مندوبين عن المعتقلين وشرحت له كـل الأمور : السرقات فى الطعام ، والاتاوة التى يفرضها محمد غطاس على المعتقلين ومطالبتنا بالصحف والاذاعة . وفتشت على الفور الخيمة التى يقيم فيها محمد غطاس ، فعثر على بعض المقتنيات الخاصة بالمعتقلين ، فأمر بالقاء القبض عليه ، وصدر أمر بوقف عقوبة الجلد نهائيا وبعدم صرف أى طعام من المطبخ الا بعد وزنه . ووعد بالنظر فى باقى المطالب » .

يقول فتحى عبد الفتاح (١) ، « ... وكان القرار ... فى اليوم التالى رفضنا استلام الاكل ... وحين جاء القائد ليرهب ويرغب قابلنـاه بهجوم شديد ، وقال له زميل عامل : أنت لست أهلا للحديث معنا . اننا سياسيون ولسنا تجار مخدرات ، لذلك نحن نريد مسئولين من القاهرة للتحدث اليهم ... كان من الواضح أنه قد اسقط فى يد القائد الذى حاول ولمدة يوم كامل أن يحل المشكلة حتى لا يظهر على الأقل امام المسئولين أنه عاجز عن قيادة المعتقل . وازاء اصرار الخمسمائة معتقل استنجد القائد فى اليوم التالى بوكيل المحافظة الذى جاء الى المعتقل بفرقة كاملة أحاطت بالعنابر من كل ناحية ... ولمدة ساعة ظلت تمارس علينـا عمليات ارهاب نفسى محكم ، ضجة وأصوات عالية وأوامر مشددة هنا وعساكر تهرول هناك واصوات البنادق وتكة الدبشك وبعض الطلقات المدوية فى الهـواء .

ووكيل المحافظة وقائد المعتقل يتعمدان اصدار أوامر تكون مسموعة لدينا . اضربوهم بلا رحمة . اللى يرفع راسه اضربه فى المليان ... دول خونة .

وبدأ المـاتش .

أخرجنا عنبر واحد الى الحوش وامام كل معتقل وقف جندى شاهرا بندقيته ووضعته أوانى الأكل بين المعتقلين والجنود . وصاح وكيـــل المحافظة الذى جاء ليجرب حظه معنا ، عندى أوامر بضرب النار فى المليان .

---

(١) شيوعيون وناصريون .

وبحركة مسرحية قال ، عسكر استعد . وأخذ العساكر فعلا وضعهم ووضعوا اليد على الزناد • وبحركة مسرحية أخرى قال ، معتقلين ، كل واحد يتقدم خطوة ويأخذ أكله ولم يتقدم أحد • واعاد وكيل المحافظة أمره السابق بصراخ حاد . ولكن أحدا لم يتقدم . وادخلوهم العنبر . وجاء الدور على عنبرنا (عنبر اثنين) ....

وتكرر نفس الموقف . وفى ضيق شديد صاح قائد المعتقل ، اضرب عسكرى • ولكن العساكر لم يضربوا وتطلعوا الى وكيل المحافظة • لقد كانوا كلهم من قوة المحافظة وليس من قوة المعتقل ....

وبدأ محمود عطا الله رئيس نقابة عمال كفر الدوار يحكى فى ثبات عن التعسف الذى نلاقيه داخل المعتقل من القائد وضباطه والجلد المستمر الذى وصل الى حد جلد المرضى ، وسوء التغذية الذى نتعرض له ، ومنعنا من طوابير الشمس ومن الورقة والقلم والكتاب والصحيفة والراديو •

وتقدم الدكتور فايق فريد وتقدمت معه لنساعد محمود على شرح مشاكلنا . كان وكيل المحافظة من ذلك النوع من الموظفين الذين يخلصون لمهمتهم ولا تشغلهم السياسة من قريب أو بعيد ، وبالتالى لم تكن لديه مصلحة فى تعقيد الأمور .. كان موظفا يريد أن يقوم بمهمته بنجاح . وكانت المهمة الملقاة على عاتقه مثلما اوضح هو أن نوقف التمرد ونأخذ الغذاء . واستطعنا أن نشرح قضيتنا جيدا فنحن نعرف أن وكيل المحافظة ليس مسئولا عن اعتقالنا لكى نطالبه بالافراج عنا ، وركزنا مطالبنا على أن نعامل معاملة انسانية وأن توقف جميع اساليب التعذيب من ضرب وجلد واهانة . وأن تتاح الفرصة لأن نكتب لذوينا ونتسلم خطاباتهم وأن تفتح العنابر فترة أطول ويسمح لنا بقراءة الصحف والاستماع الى الراديو واستخدام المكتبة .

كما اضاف الدكتور فايق فريد موضوع التغذية وطالب بزيادة مخصصاتنا من الغذاء حيث أن غذاء المعتقل كان يكلف ٥٦ مليما وهو مبلغ ضئيل لا يمكن أن يفى باحتياجات طفل ، كما شكك فى امانة ادارة المعتقل والمتعهد . فقطعة من الجبن القريش ومقادير ضئيلة من الفول وثلاثة ارغفة لا يمكن أن تقيم أود انسان الا اذا كان المطلوب قتلنا بالجوع البطىء .

كان وكيل المحافظة يسمع الى شكوانا ووجهه يموج بمشاعر كثيرة متضاربة ، فالمطالب التى نضعها أمامه يتمتع بها أى مسجون عادى فى السجون سواء كان لصا أو قاتلا أو تاجر مخدرات • وكان بين الحين

والحين ينظر الى قائد المعتقل ومعاونيه يريد من أحدهم أن يكذب الوقائع التى نقدمها . بينما كان قائد المعتقل والضابط حمدى ينفثان الغيظ والشرر من عيونهما فى صمت ، أما غطاس فقد وقف وهو يتوعدنا بحركات من يديه ووجهه وحينما اثرنا قضية الغذاء وتواطؤ المتعهد مع الادارة تسلل غطاس متجها نحو مبنى الادارة .

وكسبنا المباراة أو على الاقل هكذا بدت الامور من السطح فنقل الضابط حمدى والجاويش غطاس من المعتقل وأوقف الضرب والجلد ، وجاء متعهد آخر ... » .

يقول لطفى الخولى ، « بدأ التراجع من جانب الادارة . طلبوا اثنين من عنبرنا وكذلك من عنبر اثنين . وذهبنا نحن الاربعة وتناقشنا معهم وكانت المباحث موجودة واثير موضوع الاضراب والامتناع فاوضحنا ان هذا الذى نقوم به امتناع وأخذنا المكاسب ومنها الجرائد . اتفقنا على كل شيء ، وعدنا لابلاغ الزملاء وحل الامتناع . حدث بعد ذلك أن نقلت من عنبر واحد الى عنبر تسعة حتى يظهروا وكأنهم قد عزلونى عن زملائى فى عنبر واحد نتيجة لموقفى . كان يطلق على عنبر تسعة فى ذلك الوقت عنبر المنفى » .

انتهى الامتناع بانتصار ساحق للزملاء . انتقلت المبادرة والمبادأة الى أيدينا . وفى نفس الوقت انتقل الوهن والتحلل والانهيار النفسى الى ادارة المعتقل ذاتها . ان وحدة المعتقلين جميعا ، ودور الحزب فى تحقيق هــذه الوحدة وفى التصدى لخطة التصفية كان صحيحا ، وقد حققت خطتنا المضادة تحطيم الاساسيات التى قام عليها المعتقل ، وبذ انتفى دوره ومهمته ، بل انتفت اهميته ايضا . خف التوتر المحيط بالمعتقل وزال انفعال الاعتقال ، الا أن خبرا بدأ يسرى داخل لمعتقل ، هنالك ترحيلة الى الواحات .

« فى المساء نودى على اربعين معتقلا (١) . اخلى احد العنابر ليقضوا الليل فيه . بدأ التساؤل ، هل هى الدفعة الأولى التى ستتلوها دفعات حتى ينتهى المعتقل الى التصفية ؟ أم انها دفعة منتقاة على اعتبار ان افرادها هم من ترى فيهم المباحث العامة وادارة المعتقل ، قيادة للمعتقلين ومصدرا للشغب والاثارة ؟

---

(١) فخرى لبيب .

المعتقل يدوى طوال الليل بالاغانى والاناشيد والتحيات والسلامات و (انتم السابقون ونحن اللاحقون) . واعدت لنا الحياة العامة المطلبات التى تكفينا طوال الطريق ، كذلك البن والشاى والسجائر والخبز وكل ما يلزم الرحلة الترحيلة .

تم الاتفاق مع مختلف الجماعات على التنسيق خلال الطريق . الشعارات والهتافات وكيفية التصرف فى الظروف المختلفة . لم يبق الا ان نغادر معتقل العزب الى منفى المحاريق ، منذ شعاعات الفجر الأولى استيقظ المعتقـــل كله . الجميع يتبادلون التحية ويرسلون معنا اطيب الامنيات الى رفاق الواحات . ادارة المعتقل تعمل فى همة ونشاط لتسليمنا أماناتنا . وفرقة الحراسة المسافرة معنا ومعهـــا الحجلات فى انتظـــار التعليمـــات .

كان معنا ضمن الترحيلة المعتقل ح . ح . قائد المعتقل يحـاول ابداء السرور وان كان فى أعماقه يئن من هذا المآل الذى صار اليه ، صولجانه وهيبته . قلت له ، « لن نأخذ المعتقل ح . ح . انه لم يعد منا . سنأخذ فوزى حبشى بدلا عنه » . فزع الرجل زايلته بسمته اللزجة المطبوعة على شفتيه . قال ، « هـــذا أمر لا أملك له تبـــديلا . انها أوامر القاهرة » . قلت ، « اتصل بالقاهرة . قل لهم اننا لن نغادر هذا المعتقل وأن الترحيلة لن تتحرك ما لم نأخذ فوزى حبشى معنـــا » . اسرع الرجـــل الى حجـــرته .

نحن نتحرك فى المعتقل فى حرية . نتجول لأول مرة دون سباب أو شتائم أو ارهاب بالفلكة . الجنود يبدون الكثير من المشاعر الانسانية . البعض يتمنى لنا السلامة ، والبعض يعتذر عما قام به ضدنا ، « انهـــا الاوامر ، نحن ــ كما انتم ــ كانت تطولنا الفلكة » .

عاد قائد المعتقل متهلل الوجه . قال ، « وافقت القاهرة » . زأر الرفاق بالهتاف . طار الخبر الى كل العنابر . ارتفعت الاناشيد وزادت حرارتها ، حتى بدا المكان وكأنه صرخة واحدة مدوية . الزملاء يعدون فوزى حبشى للترحيلة . غسلوا جسده الدامى برفق وحنان . كانت الدموع تلمع فى عيون البعض منهم وفوزى يشجعهم ، كأن هذا الجســـد الممزق المهشم المكدود ليس جسده . لقد قدم فوزى حبشى فى بطـــولة واباء وبارادة الثوار جسده ودمه فداء للمعتقل كله . أخيرا اصبح جاهزا . اخفى القطن جسده العارى ، وفوق القطن « روب دى شامبر » . وأصبحنا

مستعدين للرحيل • ربطنا الى الحجلات ما عداه • اتجهنا الى البوابة حيث سيارات الترحيلة . دوى الهتاف بحياة مصر ، وكفاح الشعب المصرى والطبقة العاملة وكفاح الشيوعيين والحزب الشيوعى . ثم بدأ النشيد :

شنتونا فى المنافى واملأوا منا السجون

سوف تاتيكم ليالى برفقتها حتف المنون

المعتقل كله ينشد معنا • بعض ضباط المعتقل وحراسه ينظرون الينا فى تعاطف • امتلأت عربات الترحيلة وبدأت مسيرتها • صوت الرفاق فى المعتقل يخفت كلما ابتعدنا عنه ، لكنه يملؤنا بشحنة من الارادة عارمة • وشعور يغمرنا باننا أقوى من القيد وصاحب القيد . اننا بارادتنا ووحدتنا واختيارنا طريق التضحية مهما عظمت قد هزمنا ما دبر لنا ، وكتبنا شهادة وفاة هذا المعتقل . ان الثمن الذى دفع مهما كان ، لن يكون غاليا فى سبيل الا يكون العزب بعد اليوم عذابا » .

كانت تلك هى الترحيلة الثانية من العزب الى المحاريق • وكانت المباحث العامة وادارة المعتقل تتخيل انه بعد كل ترحيلة من تلك التراحيل ، فان الامر بالنسبة اليها يكون أيسر وصولا الى تنفيذ مخططها • الخطأ الذى وقعت فيه تلك الاجهزة منذ البداية ما زال قائما • قد يكون لبعض الافراد دور متميز ، الا ان هذا الدور لا يمكن أن يتحقق الا من خلال اداة . وهذه الاداة كانت وما زالت فى المعتقل • انها الحزب وخطته المضادة فى مواجهة التصفية . انها وحدة كل المعتقلين للدفاع عن كياناتهم السياسية والآدمية • والاداة التى افرزت الدفعة الأولى ثم الدفعة الثانية ، هى نفسها ما زالت قائمة تفرز دفعات ودفعات •

يقول نبيل صبحى ، « بعد الترحيلة أصبحت مسئول المعتقل .، وتشكلت اللجنة القيادية الحزبية لكل المعتقل من الزملاء عدلى جرجس . منصور زكى ونبيل زكى • وأصبح الزميل لطفى الخولى ـ وهو مستقل ـ مسئولا عن التعامل مع الادارة • كان مفوضا تفويضا كاملا فى هذه المسألة . وساعد هذا على توحيد المعتقلين .

طلب بعض الزملاء فتح الصراع الايديولوجى داخل الحزب ، الا ان هذا الطلب رفض • وركزنا فى تلك الفترة على المناقشات السياسية والندوات الثقافية ووسائل التسلية • كانت علاقاتنا مع بعض الضباط جيدة • كان بعضهم يحضر لنا فى نوبطشية الليل الترانزيستور الخاص به لنستمع اليه حيث كان راديو المعتقل يقفل فى الساعة التاسعة • بعد

الترحيلة جاءنا ضابط ملازم ثان . شاب حديث التخرج وفوجئنا به يسأل عن الدكتور لويس عوض حتى وصل اليه ، فقال له ، « أنا من المعجبين بسيادتك وقارىء لما تنشره من أدب ومسرحيات ، وأحب الادب اليونانى والمصرى القديم » ، لكنه نقل بعد عشرة أيام فقط .

كنا نعمل على اطالة وقت فتح العنابر ، وأن يكون التسكين فيها بمعرفتنا نحن . واعتقد ان الزميل عدلى جرجس كان هو صاحب هذا الاقتراح .

رحلنا الى الاوردى ونحن نفكر فى عمل امتناع ثالث » .

يقول لطفى الخولى ، « كان وجودى فى المنفى فى عنبر تسعة ، يشكل واحدة من اهم فترات المعتقل . فقد استطاع زميل عامل فى هذا العنبر ، وكان فى وسعه أن يفعل أى شىء ، أن يحضر ورق بفرة وقلم كوبيا فى طول عقلة الصباع . وهناك كتبت مسرحية (القضية) . كانت قصة قصيرة وحولتها الى مسرحية . انا رويتها للزملاء كقصة فى عنبر تسعة وكذلك فى عنبر واحد بعد أن عدت اليه . وقد افادتنى جدا ملاحظات زملائنا العمال . ثم كانت المشكلة بعد ذلك كيف نحفظ (القضية) . حيث انى كتبت اشياء قبل ذلك بالقلم الرصاص ، لكنها محيت . عمل الزملاء صندوق من لبابة العيش حفظت فيه أوراق المسرحية واستطعت أن أخرج به من المعتقل ، وكان أول شىء سلمته الى زوجتى عندما ذهبت الى القصر العينى . فيما بعد وجدت ان جزء من المكتوب لم يكن واضحا ، لم استطع قراءته ، مشاهد قليلة فاعدت كتابتها . انا كتبت معظم اعمالى أو كلها فى السجن . هنالك ايضا بدأت مجموعة قصص اكملتها فى معتقل القصر العينى وصدرت فيما بعد باسم (ياقوت مطحون) . فى السجن يمكن ان ترى الاشياء بمنظار آخر . لبس السجن حافزا للاعمال السياسية فقط أو التحليلات فقط ، تجربة السجن مفيدة للعمل الأدبى والفنى أكثر من العمل السياسى . العمل السياسى يحد من افقك ، لكن الادب فيه التأمل والرؤية . وتصبح شخصياتك شخصيات اقتحامية ، تستطيع أن تضع فيها كل ما تريد حدوثه . كان ابراهيم عامر يكتب ايضا (الفلاح أو المسألة الزراعية) .

حدث فى عنبر تسعة اثناء الطابور أن كان الضابط حلمى العيسوى مارا ، وأحد الزملاء العمال جالسا ، فتوجه اليه وطلب منه ان يقف عند مروره . ووقف الزميل العامل الا أن حلمى العيسوى اعتدى عليه . ناقشنا الامر مع عدد من الزملاء واتفقنا على أن نجلس دائما عند مرور حلمى العيسوى ،

وان كان جدعا كما يدعى فعليه ان يفعل بنا ما فعله بالزميل العامل . الا انه عند مروره ورؤيتنا نحن ، حاول الاعتداء مرة أخرى على نفس الزميل العامل ، وللحال قمنا وضربناه ضربا شديدا . فأرسلونا إلى التأديب عشرة أيام ، دون ابراش ، والغذاء عيش حاف وماء فقط . وحاولوا القيام بأعمال ارهابية فظيعة ، مثل اطلاق الرصاص تحت اقدامنا والقاء الماء وادخال ثعبان من تحت فتحة باب الزنزانة .

فى اليوم الثامن فوجئت بتحسن فى المعاملة . فقد حضر الصول سليم ومعه طعام لى ، كما قام الدكتور بالكشف على ، وسمعت الجنود فى الليل يتحدثون مع بعضهم البعض متسائلين عن ذلك التغيير الذى يحدث ، فقد كانت لديهم أوامر بالماء والثعابين ، فما الحكاية ؟ . فى اليوم التاسع جاء أحمد منير غالى وقال لى ، « لقد قررت أن اعفيك من اليوم العاشر وتفضل الى عنبرك » . قلت له ، « لا لن اخرج حتى انهى العشرة ايام . انا اود ان اقول للناس ـ عندما نخرج ـ عن هذه الايام العشرة ، ولسوف ترى . فأنت تعرف الآن جيدا أن هؤلاء الرجال هم القوة الاساسية فى مصر ، ولسوف ترى عندما تخرج » . فوجئت به يقول ، « يا بيه دا انا العبد المأمور هنا ، وسعادتك خلاص رايح المستشفى ، وارجو أن تنسى ما حدث » .

كانت زوجتى قد اثارت فى الخارج مسألة اصابة رجلى بكسر . لم أكن استطيع ان اثنيها . كانت تقف عند ٤٠ درجة ، وكانت تؤلمنى جدا فى فترات تغير الفصول . وقدمت شهادة من الدكتور الشرقاوى بهذا الخصوص . فاذا بخطاب يأتى الى المعتقل يطلب ان يجرى الطبيب الكشف على ، ثم جاء خطاب آخر خاص بكبدى . فقال لى طبيب السجن انك سوف تنقل الى المستشفى .

عندما أخبرنى أحمد منير غالى بأنى سأذهب الى المستشفى ، سألت، ان كانت المستشفى هى مستشفى الفيوم فتلك مرفوضة . فأخبرنى ان الاجراءات سوف تتخذ لنقلى الى القصر العينى . حينئذ فكرت ان اجرى اختبارا لاتيقن من صدق ما اسمع ، فطلبت أن اعود الى عنبرى الأصلى فاجابنى الى طلبى على الفور ، وطلبت ايضا أن ينقل الدكتور لويس عوض الى هذا العنبر فاستجاب ايضا وعدنا الى عنبر واحد .

بعد العودة الاخيرة الى عنبر واحد بدأ ما يمكن تسميته بالعصر الذهبى للعنبر . بقيت به قبل سفرى الى القصر العينى حوالى عشرين أو خمسة وعشرين يوما . فى تلك الفترة قام الفنان زهدى برسم عدد من

البورتريهات ، كذلك قام الفنان حسن فؤاد برسم كتلة الجالس ورأسه بين ذراعيه . كما بدانا سلسلة من المحاضرات ، محاضرات فى الأدب الانجليزى للدكتور لويس عوض ، ومحاضرات فى الاقتصـــــاد السياسى للدكتور عبد الرازق حسن . محاضرات فى القانون للمستشار سعيد خيال · ومحاضرات فى المـادية الجدلية وتاريخ الحركة الاشتراكية قدمتها انسا ، ومحاضرات فى النظرية الشيوعية قدمها الدكتور محمد الخفيف »

انقلب الوضع فى المعتقل · اصبحت الارادة العليا للمعتقلين ، والادارة تحاول جاهدة أن تستعيد ارادتها .

يقول عدلى جرجس ، « بعد أن غادرتنا الدفعة الثانية الى الواحات ، كنا نأخذ فسحة نصف ساعة زيدت الى اربعين دقيقة ، ثم خروج عنبر بمفرده ، ثم عنبرين معا لمدة ساعة · بدأ المعتقلون يعدون كرة (شراب) ويلعبون بها · وأصبحت تلك المسألة محل صدام مع الادارة . كانت الادارة لا تتخيل المعتقل الا حزينا صامتا واجما متكدرا لا يضحك ولا يتكلم ، وان المفروض فيه أن يكون فى حالة من القرف والانهيار ، الا ان المعتقلين كانوا يلعبون ويضحكون ويمرحون ، ومن هنا بدأت تحاول الاحتكاك بهم بمنع لعب الكورة فتستولى عليها ، فيقوم الزملاء بعمل واحدة أخرى حتى بدا الامر وكان المسألة قد اصبحت (حاورينى يا طيطة) . كان الزملاء قد قرروا فى هذا الموضوع أن لعب الكرة انما هو أحد رموز ممارســـتهم لحريتهم الحبيسة وفرض ارادتهم رغم الاسلاك والعسكر · ورأت الادارة ان قبضتها قد زالت وانها فقدت سيطرتها على المعتقل . ومن هنا ، كما اعتقد ، أصبح من الضرورى بالنسبة لهم وجود بداية جديدة فى مكان جديد ، اذ لم يعد معتقل الفيوم يفى بالمطلوب ، وكان أبو زعبل » ·

الفصل السادس

المحاكمـــــة

حلمي ياسـين

سـعد رحمي

فـؤاد مرسي

ان المحاكمة الكبرى التى قدمت فيها الدولة اربعة وستين شيوعيا الى المحكمة العسكرية العليا كانت واحدة من أبرز معالم تلك المرحلة • كانت غالبية قيادة الحزب فى قفص الاتهام • والتهمة الموجهة اليهم هى اقامة تنظيم غير شرعى • وكان على قادة الحزب خلف القضبان ، أن يؤكدوا حق التنظيم باعتباره واحدا من الحقوق الجوهرية التى تجسد حرية الفكر والتعبير والانتماء الارادى • وأن يعلنوا عضويتهم فى الحزب الشيوعى المصرى ردا على موقف النظام • ومن خلف قبضان ذلك القفص ، ارتفع الصوت الحقيقى المعبر عن ارادة الشعب المصرى ، صوت الحزب الشيوعى المصرى •

التحقيق :

بدأت المحاكمة بالتحقيق (١) •

كان القبض اثناء الحملة وكذا التفتيش عاديا روتينيا • اخذ الرفاق بعد القبض عليهم الى مبنى المباحث العامة بالقاهرة ، حيث وضعوا كلا بمفرده ، بينه وبين الآخر مسافة أو حجرة منفصلة • ظلوا كذلك حتى مساء اليوم التالى • ثم اقتيدوا الى سجن القلعة فى منتصف الليل • دام الوضع هكذا يومين • ثم بدأ استدعاؤهم للتحقيق •

كان التحقيق يجرى بواسطة النيابة العامة ، داخل مبنى المباحث العامة • كان يستدعى عدد منهم فى الصباح وآخر فى المساء • تراوح العدد ما بين خمسة عشر وعشرين رفيقا فى اليوم • التحقيق يدور حول المضبوطات والمواقع التنظيمية ، وان كان سياسيا فى الأساس • والأسئلة كلها تدور حول : هل انت شيوعى ؟ هل تؤمن بالشيوعية ؟ هل انت عضو فى الحزب الشيوعى ؟

لم يكن الرفاق قد ناقشوا الموقف الواجب امام النيابة • ومن هنا فان كلا منهم أخذ موقفه على مسئوليته الخاصة • هنالك من دافع عن مواقف الحزب وأعماله بصورة عامة ، ومن طالب بالديمقراطية ، ومن دافع عن الماركسية ومن لم يدافع عنها • لم يستغرق التحقيق فى جولته الأولى طويلا ، اذ يقول حلمى ياسين مثلا : « لم يشغل التحقيق معى أكثر من ربع أو ثلث الساعة ، كنت أنا المتكلم خلالها • قلت أن ما يجرى فى مصر لا علاقة له بالاشتراكية ، فللاشتراكية قواعد لا نجد أيا منها

---

(١) العرض فى مجمله ، خلال هذا الفصل ، من شهادة حلمى ياسين ، فى لقاءات خاصة معه •

مطبقـــا ، كما أن الاشـــتراكية لا تقـوم على اضطهـــاد الاشـــتراكيين والديمقراطيين . لقد دافعت عن المـاركسية ، أما العضوية فقد قلت أنـه يتعين على النيابة اثبات ذلك » .

سـار التحقيق على هذا النحو ، الى أن ظهرت فيـــه مفاجأة غـــير متوقعة ، وكانت تلك المفاجأة هي اعتراف حسنى بخيت بأن الدكتور فؤاد مرسى كان مسـئوله الحزبى وانه كان يناقشـــه فى قضـــايا الحـزب والوحدة . ولم يقف اعترافه عند الدكتور فؤاد مرسى وحده بل امتد ليشمل الزميلين سعد رحمى وعادل الضبع . واســـتدعى الرفاق الثلاثة لعـرض قانونى . كان حسنى بخيت فى حالة ذهول وانهيار تامين . كان قد تعرض لتعذيب بشع من جانب المباحث العامة ، استخدموا فيه اسوأ الأسـاليب وادناها ، ومنها الضغط عليه بزوجته . وفى العرض تعرف حسنى بخيت على عادل الضبع وسعد رحمى ، الذى قال له فى مواجهته : « أن أمثاله لن يفلتوا من العقاب » فنكس رأسه الى الأرض . الا انه عندما مر بالدكتور فؤاد مرسى ، عبره دون التعرف عليه . وهنـا يقول الدكتور فـؤاد مرسى « أحسسـت أن النفس البشرية شيء معقد اكثر مما نتصور . ان الانسان عندما يخضع للتعذيب ، ويرغم على الكشف على جوانب لم يكن يرغب فى الكشف عنها اراديا ، لا يسير فى هذا الطريق بصورة مطلقة . انه يقف عند حدود ، حتى التعذيب لا يستطيع أن يدفعه الى تخطيها . لقد أراد برفضه التعرف على أن يتحدى التعذيب الذى وقع عليه » .

وبدأت دورة أخرى من التحقيقات . كانت غريبة وشكلية ايضا . لقد سئل الرفاق عن : ماهية الاشتراكية العلمية وهـل يؤمنون بهـا ؟ وما الفرق بينها وبين النظام ؟

بعد انتهاء التحقيق رحل الجميع الى سجن الواحات الخارجة . كان ذلك ، فى ذات الوقت ، اخلاء للقلعة ، تمهيدا لحملة مارس ١٩٥٩ .

ظلوا فى الواحات قرابة خمسة عشر يوما . ثم فوجئوا باســتدعاء اربعة وستين منهم للترحيل الى القـــاهرة . واصبح هؤلاء ، منذ ذلك التاريخ ، على ذمة قضية الشيوعية الكبرى . وكان منهم : فؤاد مرسى ، اسماعيل صبرى ، سعد زهران ، حلمى ياسين ، فؤاد شحتو ، لويس اسحق ، حسن صدقى ، سعد رحمى ، عبد المنعم شتلة ومحمود أمـين العالم من اللجنة المركزية . عبد العظيم انيس ، محمود المستكاوى ، نبيل الهلالى ، عادل سيف النصر ، الهام سيف النصر ، حسين طلعت ، عـوض الباز ، يوسف درويش ، طه سعد ، ريمون دويك ، عادل فهمى ، أحمـد

رضا ، سمير توفيق ، ضابر البياع ، محمود العسكرى ، كمال فراج وحسنى بخيت من القاهرة . شحاته عبد الحليم ، محمد عبد الحليم ، عبد صالح ، فؤاد العتال ، متولى السلماوى ، على كبد وسعد السباعى من الاسكندرية • فكرى رفاعى وعريان نصيف من محافظة الغربية : شبل اسماعيل ، عبده وربى ، سعد التركى وصلاح التركى من بنى سويف • انور ابراهيم من المنيا . خليل الآسى من أسوان •

كان الترحيل الى سجن مصر حيث كان الاستقبال عاديا ، ثم وضع كل ثلاثة منهم فى زنزانة •

الاعـداد للقضية :

منذ اوائل ابريل ، حتى اوائل نوفمبر ، أى على مدى سبعة شهور ، بدأت مرحلة أخرى جديدة ، مرحلة اتسمت بالصراع السياسى داخل الحزب ، حول تشخيص القضية وتشخيص المحاكمة والموقف من الاعتراف بعضوية الحزب امام المحكمة . كانت مرحلة غاية فى الصعوبة . يقول حلمى ياسين عنها « انها مرحلة تساوى من الناحية الواقعية وليس الزمنية ، نصف الحبسة كلها » •

كانت غالبية المقدمين فى القضية ، متهمين بعضوية اللجنة المركزية أو لجان المناطق أو انهم عناصر جماهيرية سبق وكانوا اعضاء فى اللجنة المركزية وقت اتمام الوحدة ، ثم خرجوا منها بعد تضييقها •

ان تناول هذه المحاكمة ؛ لا يجب بأى حال من الأحوال ، أن ينفصل عن الظرف التاريخى الذى جرت خلاله • كان الحزب فى الشارع يرى أن المعركة هى معركة تأكيد حقه فى الوجود المستقل ، حقه فى ممارسة سياساته ومسئولياته ، قبل الشعب المصرى • حقه فى الموقف المستقل بما فى ذلك نقد سياسات الحكومة الخاطئة ، والتى تمثلت حينذاك فى القول بانتهاء المعركة مع الاستعمار ، وانجاز الوحدة بطريقة غير ديمقراطية حيث تم نقل تجربة الاتحاد القومى بصورتها التى كانت عليها الى سوريا دون مراعاة لظروفها الخاصة او تجربتها الديمقراطية .

لم تكن المحاكمة أمرا يثير مخاوف الرفاق ، كانت على عكس ذلك مناسبة علنية للدفاع عن معتقداتهم وعن سياسات حزبهم • كانت فرصة لكشف الاخطاء التى وقعت الحكومة فيها والاخطار الناجمة عما تنهجه من سياسات . كانت المحاكمة فى ايجاز أمرا يثير حماس غالبية الرفاق

ويستنفر قدراتهم القتالية . ولذا فانه ما أن وصل قرار الاتهام حتى بدات ، فيما بينهم ، مناقشة الاجراءات السياسية والتنظيمية الواجبة • طرحت توجيهات الحزب وقراراته خارج السجن ، وكذا المفهوم السياسى لهذه التوصيات • كما طرح وضع الرفاق فى القضية للنقاش ايضا • ولقد اظهرت المناقشات منذ أول لحظة اجواء غير طبيعية وغير صحية ، ربما كان مرجع ذلك الى ان بعض الرفاق لم يكن يملك التقدير الصحيح لأمدى الذى يمكن ان تصل اليه مثل هذه المحاكمة •

لقد عرف الرفاق بقرار الاتهام لحظة وصولهم الى سجن مصر • كما عرفوا بعد يوم أو يومين بتشكيل مجلس عسكرى للمحاكمة . كانت الزيارات مسموحا بها ، ومع الزيارات توالت الاخبار وكذا الاشاعات . ولعبت هذه الاخبار وتلك الشائعات المقصودة دورا هاما فى تشكيل افكار بعض الرفاق • يقول حلمى ياسين ، « تشكل من هذه الاخبار والشائعات تحليل سياسى يقول بان المحكمة العسكرية التى ستقوم بمحاكمتنا ، انما هى محكمة تمثل الجيش ، وأن الجيش من خلال هذه المحكمة سوف يكون حكما بين البورجوازية والشيوعيين • كان الامر طبقا لوجه النظر تلك يتحدد فى أن البورجوازية توجه اتهاما للشيوعيين ، وأن الجيش ، الذى لا علاقة له بما يجرى ، سوف يقوم من خلال المحاكمة العسكرية باستكشاف الحقيقة والفصل فى هذا الاتهام بعدالة ونزاهة ، وأن المشير عبد الحكيم عامر قد قال لرئيس المحكمة العسكرية العليا ولهيئة المحكمة عندما اجتمع بهم « Be Just and Fair » ، أى (كونوا منصفين عادلين) » •

كانت هذه الاخبار والشائعات تروج بعد زيارات معينة ، لزملاء معينين معروفين بعلاقاتهم البورجوازية • وكانت فى حقيقتها تستهدف الاستهانة بالمحاكمة ونزع عدالتها ، ومحاولة ترويج مفهوم سياسى معين مؤداه ان هنالك معركة داخل صفوف السلطة حول الموقف من الشيوعيين ، وأن الشيوعيين بذلك هم جزء من هذه المعركة ، موحية بانحياز البعض معهم أو عليهم . وأن مهمة المحاكمة العادلة النزيهة هى حسم هذا الخلاف لحساب الحقيقة وحدها وعلى ضوئها المجرد وحده •

كان الرفاق يرون ان وضعهم القانونى ، فى مجمله ، وضع لا غبار عليه ، رغم تقديم المباحث العامة لهم باسمائهم الحركية واوضاعهم التنظيمية ، فقط اخطت لبسا بين لويس اسحق والدكتور عبد العظيم انيس عندما قدمت لويس باسم « سعد » • لم يكن لدى غالبية اعضاء اللجنة المركزية اية مضبوطات ، باستثناء سعد زهران الذى ضبطت لديه أوراقا

خطية لزملاء آخرين . كان الخطر كله ، يكمن من الناحية القانونية ، من اعتراف حسنى بخيت ، مما شكل نقطة الضعف الوحيدة فى هذه القضية ، من هذه الزاوية ٠

وناقش الرفاق مسألة الدفاعات السياسية والاعتراف ، امام المحكمة ، بعضويتهم فى الحزب الشيوعى المصرى .

يقول حلمى ياسين ، « ناقشنا قضية الدفاعات السياسية والأعتراف بالعضوية ٠ كانت هنالك غالبية ترى ضرورة الالتزم بقرار القيادة الشرعية للحزب خارج السجن ٠ كنا نرى اننا لسنا القيادة رغم كوننا اعضاء باللجنة المركزية ، لسنا قيادة مركزية بالمفهوم التقليدى ، اننا لجنة تابعة للخارج ، يمكن أن تكون قيادة لهذا المجال داخل السجن ، وعليهـا الالتزام بقرار هؤلاء الذين يواجهون المعركة فى الخارج ، وبالتالى لابد من اعترافنا جميعا ، كأعضاء فى اللجنة المركزية ، بالعضوية امام المحكمة ٠ ورفض فريق آخر ذلك . كانوا اقلية ، وكان هذا الفريق يرى ان هذه الفكرة فكرة انتحارية ، وهى عملية اغراق وتوريط للرفاق ٠ وان الواجب يستلزم ترك كل رفيق لمسئوليته الخاصة فى تنفيذ القرار ٠ ولقد استخدم بعض الزملاء وضعى القانونى للضغط الشديد على ، باعتبار اننى لا بجب ان اعترف بالعضوية فى وقت اخطو فيه الى خارج الجدران ، وانني بالضرورة خارج من هذه القضية ، وان المسألة على هذا النحو لا تخرج عن كونهـا مسألة انتحارية ، فالكادر فى الخارج افضل منه بالداخل ٠ كان الخلاف بالاضافة الى مسألة الالتزام التنظيمى بالقيادة الحزبية فى الخارج ، خلافا سياسيا حول مفهوم القضية ودورنا فيها » .

ويقول الدكتور فؤاد مرسى ، « اعلنوننا فى سجن مصر بقرار الاتهام وبدأنا نعد الدفاع السياسى ، واخذنا قرارا بأن عددا منا يدافع دفاعا سياسيا والبعض الآخر يعترف بالعضوية .

فى سجن مصر بدأت تتبلور بعض المواقف الخلافية داخل صفوف الحزب . الموقف السياسى كان موقفا عاديا وعاما ، وهو نفس الموقف الذى دخلنا به السجن ٠ لكن كان هنالك احساس بانه توجد رغبة لتغيير الخط السياسى الى خط متشدد ، يصل الى القول بان الموجود فى السـلطة هو البورجوازية الاحتكارية .

عندما وصل خط ٩ يناير ، انا شخصيا اعتبرت ان ما حدث انقلاب على سياسة الحزب وعلى قيادة الحزب ٠ وأن هذا انقلاب لا تملكه القيادة ،

لأن القيادة الشرعية للحزب اجتمعت وهى فى الخارج ، وحددت الأساس الذى ستعمل عليه خلال المرحلة المقبلة . وبالتالى كان لابد من احترام هذا • وفى الحقيقة كانت هنالك خلافات كامنة ، وكنا نعمل على الا تكون سائدة فيما بيننا ، ومررنا بمرحلة القلعة والواحات ونحن لا نتكلم كثيرا فى هذا الموضوع ، حتى أن بعض الزملاء الذين كانوا من اصل ع . ف كانوا حريصين مثلنا على عدم اشارة ان الخط قد اصبح خط الاحتكار وشبه الاحتكار . وأنا فى الحقيقة اذكر حلمى ياسين وكان موقفه واضحا وقويا فى استبعادة مثل هذا الكلام . كنت انا وقتها مسئول الزملاء والقضية •

ثم وصلنا سجن مصر • هنا فى الحقيقة كان هنالك فهمان للموقف السياسى . فهم يقول بالوحدة والصراع ، وفهم يقول بالصراع فقط . الفهم الأول ـ فهم الوحدة والصراع ـ كان يقول بانه لا داعى لأن نكتشف كل الزملاء القياديين بان يعترفوا جميعا بالعضوية • البعض يعترف ، لكن الكل يعد دفاعا سياسيا . الاعتراف بالعضوية تحد كامل • الفهم الآخر ـ والذى يقول بالصراع ـ كان فاقدا الامل فى امكان علاقة بيننا وبين هذا النظام ، ويرى اعتراف كل القياديين بالعضوية . وعندما اختلفنا ، تركنا المسألة اختيارية ، وأصبح قرارنا من يود الاعتراف يعترف ، ومن لا يود الاعتراف لا يعترف •

وانا ما زلت ارى ان مسألة اعتراف الكل مبدأ غير سليم ، ولابد أن يكون الاعتراف انتقائيا ، انتقاء عناصر تخدم القضية باعترافها . هل كان من اللازم اعترافى انا بالعضوية ؟ الاجابة ، نعم • هذا ما استطيع ان اقوله بعد مضى الزمن • ان واحدا مثلى كان يلزم اعترافه بعضوية الحزب ، وأن عدم الاعتراف لم يكن موقفا سلبيا تماما ، خاصة وانى قدمت دفاعا سياسيا قويا ، طرحت فيه الخط السياسى وباسلوب ادبى . كان دفاعا سياسيا به شعور بالمسئولية عن الحزب وقضايا البلد ، ومع ذلك لم اعترف بالعضوية • انا تقييمى انه كان يلزم اعترافى ، أما غيرى فلم يكن هنالك داع لاعترافه . كانت فكرتى اننى لا اود الدخول فى صراع وفقط مع النظام . كان من الخطأ عدم اعترافى ، لاننى اعترفت ضمنيا • ماذا كان ينقص حتى اعترف بالعضوية ؟ لقد كان دفاعى اعترافا كاملا ، ليس فقط بعضوية الحزب ، ولكن بقيادته ايضا • لماذا لم اعترف بالعضوية ؟ يمكن القول انه كان نوعا من العناد ، العناد الداخلى ، لا العناد الخارجى » •

ويقول سعد رحمى ، « قبل وصول قرار الاعتراف بالعضوية ، كنت من الناحية الفكرية مقتنعا بانى سآخذ هذا الموقف ، وكنت مقتنعا ايضا ، بان ماعدا هذا دفن للرؤوس فى الرمال ، لأن الدولة سوف تعاملنا هكذا .

ان الاعتراف بالعضوية موقف فى منتهى الثورية ، وقمة البطولة والتضحية والصمود ، حيث انه فى ذروة سعار عبد الناصر ضد الشيوعية ، وجدت كوادر تقف فى قفص المحكمة وتعترف بعضوية الحزب الشيوعى .

لكننا ان نظرنا الى الموضوع من هذه الزاوية فقط فذلك تسطيح للمسائل ، وعدم اعطاء التاريخ بعدا لصناع الاحداث وما يستهدفونه . ويتحدد رأيى فى هذه النقطة على ضوء الملابسات التالية : اثناء وجودنا فى الواحات بعد ترحيلنا اليها من القلعة ، لم يكن موقف زملاء ع . ف موقفا توحيديا بالنسبة لزملاء « الراية » ، فما بالنا بالموقف من « حدتو » . لقد اجبروا اجبارا على دخول حزب يناير ١٩٥٨ بضغوط امية . والامر المفروغ منه ان ع . ف ، عندما دخلت الحزب ، ظلت محتفظة بمركز قيادى ، كان بعضه خارج اللجنة المركزية ، وكان البعض منه فى اللجنة المركزية الموسعة . هذه المجموعة كانت سعيدة جدا بانهم قد حققوا حزبا بدون « حدتو » بعد منتصف عام ١٩٥٨ ، والآن يوجد أبو سيف يوسف فى الخارج يحمل راية الحزب ويتحدث باسمه ، سكرتير الحزب فى الخارج منتم لهم ، وكل قيادة الفريق المناوىء بالداخل ، وتلك فرصة لتكوين حزب ع . ف باسم الحزب الشيوعى المصرى . ومن هنا جاء ترحيبهم بقرار الاعتراف بالعضوية . ان تاريخ « حزب العمال والفلاحين » (ع . ف) منذ عام ١٩٤٩ يعكس عقلية مغرقة فى الامان والتسمى بمسميات مختلفة غير الشيوعية ، ونظرية المحروقين وابعادهم عن جسم التنظيم . كل ذلك يجعلنى اقطع بان موقف الاعتراف بالعضوية رغم روعته ، الا ان القيادة الحقيقية لـ ع . ف كانت تأخذه على أساس التخلص من كل قيادة الفريق المناوىء لها . والدليل على عدم الجدية فى تنفيذ مجمل القرار كما جاء فى الخارج ، عدم تنفيذ شقه الثانى والوارد فى صلب نصه والخاص بالتخفيض التلقائى لكل من لا ينفذ قرار الاعتراف بالعضوية » .

ويكمل حلمى ياسين ، « الاعتراف بالعضوية كان موقفا سياسيا ، التزم به الرفاق الذين اصدروه وهم فى الخارج ، عندما اعتقلوا فيما بعد . فقد اعترفوا هم انفسهم بالعضوية ودافعوا عنها ، وكان فى مقدمتهم أبو سيف يوسف ومحمد بدر .

واستمرت المناقشات بين اعضاء اللجنة المركزية بالداخل مدة طويلة . استغرقت جلسات وجلسات ، وانتهت الى ان اربعة من الرفاق هم : فؤاد مرسى ، اسماعيل صبرى ، سعد زهران ومحمود امين العالم يرفضون

الالتزام بالقرار والاعتراف بالعضوية امام المحكمة ، على أساس ان الامر الهام ، ليس هو الاعتراف بالعضوية امام المحكمة ، لكنه مضمون الدفاع السياسى . وان على كل رفيق ان يتخذ موقفه من القرار على مسئوليته الخاصة . وحيث ان الرفاق بالداخل لا يعترفون بوضعهم المركزى التقليدى ، فان لكل رفيق ان يأخذ الموقف الذى يراه ، والمقصر فى مسئوليته يصبح مسئولا فيما بعد امام اللجنة المركزية . وكان الدكتور عبد العظيم انيس من ابرز مؤيدى هذا الرأى من غير اعضاء اللجنة المركزية ؛ اما الرفاق الذين وافقوا على الالتزام بالقرار فهم : حلمى ياسين ، سعد رحمى ، لويس اسحق ، فؤاد شحتو ، عبد المنعم شتلة وحسن صدقى . وكان ريمون دويك وحسين طلعت من ابرز مؤيديه من خارج اللجنة المركزية . اما فيما يختص بالرفاق الجماهيريين ، فقد قررنا - طبقا لقرار اللجنة المركزية بالخارج - ترك الموضوع اختياريا ، على انه فى حالة موافقة الرفيق على الاعتراف بالعضوية ، يكون ملتزما بهذا الموقف . وتقدم من هؤلاء الرفاق اختياريا : يوسف درويش ، عوض البياز ، عادل فهمى وأحمد رضا » .

وقد انتهت المناقشات بين الرفاق الى :

(١) تشكيل لجنة لاختيار المحامين من الخارج .

(٢) توزيع نقاط الدفاع ، بمعنى ان يتكلم أحد الرفاق فى القضية الوطنية وآخر فى القضية الديمقراطية وثالث فى القضية الاجتماعية ، وهكذا بالنسبة للسياسة الخارجية والمسائل الاقتصادية . كما تم تحديد الاشخاص الذين عليهم ان يتكلموا فى هذه الموضوعات . وكان على حلمى ياسين ، مثلا ، ان يتناول قضية الديمقراطية ، وسعد زهران القضية الثقافية ، وفؤاد مرسى واسماعيل صبرى المسائل الاقتصادية وقضية الوحدة ، وفؤاد شحتو قضايا العمال .

وبدأ الرفاق على الفور اعداد الدفاعات السياسية وكتابتها ومراجعة كل دفاع يتم الانتهاء منه . وقد استغرق ذلك وقتا طويلا للغاية ، وكان موعد تقديم الدفاعات يأتى فى مرحلة متأخرة من القضية .

ومن الحقائق الهامة التى يجب تسجيلها فى هذا المجال ، موقف زملاء « حدتو » والذين كانوا ضمن المتهمين فى هذه القضية ، وكان عددهم ستة من الزملاء . فقد التزم هؤلاء الزملاء وتضامنوا مع باقى زملاء القضية . لم تظهر من جانبهم اية اتجاهات لاخذ موقف سياسى متميز

رغم حرص تنظيمهم على اعلان هذا التمايز عن الحزب منذ الأول من يناير • يقول حلمى ياسين ، « لو حدث هذا التمايز لاحدث ثغرة فى القضية • كان موقف عريان نصيف موقفا كبيرا يذكر له • لقد نجحنا تماما فى الاتفاق على موقف موحد فى القضية » • كما يقول الدكتور فؤاد مرسى ، « كان موقف عريان نصيف موقفا رائعا رغم انه لم يكن معنا تنظيميا » .

المحكمـــة :

تشكلت المحكمة من مجلس عسكرى برئاسة الفريق هلال عبد الله هلال قائد المدفعية ومعه اثنين من الضباط ، احدهما العميد فهمى طويلة . وكان المدعى العام هو العقيد سامى عبد الحق •

انعقدت المحكمة فى الاسكندرية ، فى منطقة منعزلة منها ، وكـان اختيار الاسكندرية بسبب قلة زحامها الذى لا يقارن بزحام القاهرة •

كان موقف الرفاق من هيئة المحكمة ، ازاء السؤال التقليدى الذى تبدأ به المجالس العسكرية « هل لديك اعتراض على المحكمة ؟ » محددا للغاية • انهم لا يعترضون على السادة الضباط لاشخاصهم ، الا انهم يعترضون على المحاكمة العسكرية ذاتها ، حيث انهم قضية سياسية مدنية ، يجب ان تحال الى القضاء العادى .

ولقد التزم الرفاق جميعا بهذا الاتفاق ماعدا الرفيق سعد زهران الذى قال ، « اننا لا نعترض على شخص حضراتكم . لكن الحكم فى هذه القضية قد صدر قبل النظر فيها • فالآمر بتشكيل المحكمة هو الذى سيصدق على احكامها . انتم ضباط بالقوات المسلحة ، وقد حلفتم يمين الولاء للقائد الاعلى للقوات المسلحة الذى هو عبد الناصر ، وهو الآمر بالقبض علينا ، فكيف يمكن ان توفق بين قسمك وبين ان تكون قاضيا » •

ويعلق حلمى ياسين على هذه الاضافة المنفردة بانها قد « اثارت دهشة المحامين ، اذ لم يكن متفق عليها • وهى اجابة ـ رغم ظاهرها ـ تختلف تماما مع ما كان يقوله ويردده سعد زهران تبريرا لعدم الاعتراف بالعضوية » •

بدأت المحكمة اجراءاتها : الاستماع الى الشـــهود ثم المتهمين ثم المحامين ثم المدعى أو وكيل النيابة .

ولقد لاحظ الرفاق ملحوظتين هامتين اثناء سير المحاكمة :

الأولى ، ان المحاكمات العسكرية تبدو فى اجراءاتها وشكلياتها اكثر عدالة من غيرها ، فى الوقت الذى يكون فيه الحكم ، فى حالة القضايا السياسية ، معدا بالفعل ·

كان الضابط الشاهد يتقدم الى المنصة معظما هيئة المحكمة ، ومنتفضا منها ، فى ذات الوقت ، ان كان من ضباط الاقاليم · ورئيس المحكمة يسأل محققا :

— انت الذى قمت بتفتيش فلان الفلانى ؟

— نعم انا الذى قبضت عليه وفتشته ·

— عندما دققت جرس الباب ، من الذى فتح لك ؟

— هو (أو زوجته مثلا) ·

— ماذا فعلت بعد دخولك المنزل ؟

— سألته عن غرفته ثم اتجهت اليها · هنالك وجدت منضدة عليها اوراقا ... يقاطعه

— من الذى كان معك من أهل البيت ساعة عثورك على الاوراق ؟

— هو نفسه كان يقف الى جوارى ·

— حسنا ، ساعة ان وجدت هذا المظروف ، هل واجهته به وسألته ان كانت الأوراق التى بداخله تخصه أم لا ؟

هكذا يسأل ويسأل ، يدقق ويدقق · من اين جاء الشاهد بمعلوماته ؟ كيف كان يعمل ؟ اسئلة كثيرة تعطى المتهم انطباعا بان هنالك جدية صارمة بحثا عن الحقيقة وحدها ·

الثانية ، أن هيئة المحكمة يمكن ان تتقبل أى اتهام موجه الى إى شاهد ، لكنها لا تتقبل بذلك ابدا ان كان الاتهام موجها الى جهاز برمته · انها ، مثلا ، تتقبل من أحد المتهمين اثناء دفاعه السياسى ، ان يتهم حسن المصيلحى « المسئول عن مكافحة الشيوعية » بانه عميل ومأجور للاستعمار ، لكنها ترفض تماما ، اذا كان الاتهام موجه الى جهاز المباحث العامة باعتباره جهازا متعاونا مع الاستعمار · هنا يثور رئيس المحكمة مكشرا عن انيابه ، صارخا « لا حديث عن الاجهزة .. فالاجهزة لا تخطىء · الخطأ فردى . انتقد الفرد كما تشاء ، لكن لا تنتقد جهازا · هنالك افراد ، يمكن ان يخطئوا ، وهم يحاسبون على هذا الخطأ ، ويحالون لجهة الاختصاص

ان ثبتت ادانتهم . نعم ، الفرد يمكن ان يخطىء ، لكن الجهاز لا يخطىء ابـدا » .

الشـــهود :

شهود الاثبات :

كان شهود الاثبات هم مجموعة الضباط الذين شاركوا فى الحملة . بدأت المحكمة بضباط القاهرة : حسن مصيلحى وعبد الرحمن عشوب . ثم جاء بعدهم من هم دونهم رتبة واهمية . ثم ضباط الاسكندرية : سيد فهمى وممدوح سالم .. وهكذا . كانت شهادة ممدوح سالم شهادة رزينة ، بعيدة عن الاسفاف ، تبدو كتقرير مقدم الى رؤساء . اما حسن المصيلحى ، فقد كان يستعرض معلوماته عن الشيوعية والشيوعيين .

بدا حسن المصيلحى شهادته موليا ظهره لقفص الاتهـام ووجهـه لهيئة المحكمة . قال : فؤاد مرسى ـ خالد ، حلمى ياسين ـ اسماعيل ... وهكذا . الاسم الحقيقى ، الاسم الحركى والمسئولية الحزبية . كـان مسرحيا فى عرضه ، يبدو وكأنه يتلو ما يقول من كتاب مسطور . وكـان لابد وان تسأله المحكمة ، من أين اتيت بهذه المعلومات ؟ وكيف عرفت هذه التفصيلات ؟ وكان رده خطيرا : « نحن لم نبذل جهدا للوصول الى هذه المعلومات . اذ بعد حدوث الانقسام فى الحزب ، كانت كل اسراره متداولة فى المقاهى . وما كان علينا الا ان نجلس ونستمع . الانقسام مكننا من معرفة كل ما لم نكن نعرف » .

ولم يقف حسن المصيلحى فى شهادته عند حد العرض التنظيمى ، بل تجاوزه الى تناول الفلسفة السياسية للقبض على الشيوعيين : « ان القول بأن الشيوعيين كانوا يؤيدون ويساندون الحكومة فى مواقفها الحرجة ، وبالتالى يعتبر القبض عليهم اعتداء على الحكومة ، أمر مردود عليـه . اذ لم يحدث فى اى وقت من الاوقات ، منذ قامت ثورة ١٩٥٢ وحتى اليوم ان خلت السجون من الشيوعيين . طوال الوقت كان هنالك شيوعيون فى السجون . الا ان المصلحة العليا للدولة كانت تقتضى فى وقت من الاوقات تحسن علاقاتها ببعض الدول ، هنا كان لابد وأن يبدو شكل العمل الداخلى متسقا مع هذه المصلحة ، أى يبدو وكانه لا وجود لأى من الشيوعيين فى السجن ، أو مقبوضا عليه تحت ذمة التحقيق . وفى اوقات أخرى لا يكون هذا التحسن هاما أو مطلوبا ، وهنا تكون الحملة واسعة . ولسوف نقدم للمحكمة كشفا منذ عام ١٩٥٢ حتى الآن ، يؤيد ما قلنا ، ومنه ستكتشفون

ان السجون لم تخلو يوما واحدا من الشيوعيين . ان المباحث العامة تقوم بشكل مستمر باعمال المراقبة وجمع المعلومات . فان قالت الحكومة دعوهم ، نركناهم · وان قالت امسكوا بهم ، قبضنا عليهم . تلك مسألة تقرها السياسة العليا للدولة » ·

ولقد قدم هذا الكشف بالفعل مثبتا صحة ما قال · قدم الاسماء والتواريخ والسجون التى ادخلوا اليها .

كان بعض الرفاق يعتقد انه منذ عام ١٩٥٧ ، لم يتم القبض على أحد . الا ان عبد الرحمن عشوب · فند هذا الوهم : « ان هذا غير صحيح · لقد كان يقبض على الشيوعيين ، ولكن باعداد قليلة ولمدد محدودة ، طبقا للظروف التى تفرض ذلك ، والعلاقات الدولية التى يجب مراعاتها » ·

ولقد ظهر اثناء شهادة الشهود ، مدى الجبن والفزع الذى يصيب الضباط الذين قاموا بتعذيب أو قتل واحد من الرفاق المعتقلين · اذ عندما حل دور رئيس مباحث طنطا للشهادة ، وكان طويل القامة يرتدى بذة من الشارك سكين السمنية اللون ، ظهره لقفص الاتهام ووجهه لهيئة المحكمة ، طلب عبد المنعم شتلة توجيه سؤال اليه ، عن معلوماته الخاصة بالشهيد محمد محمود عثمان ، الذى قام هو بالقبض عليه وتعذيبه داخل قسم الشرطة حتى الموت قتلا . للحال ارتجف السفاح بشكل واضح حتى ان ظهر سترته كان يهتز اهتزازا عنيفا . وأخذ يصرخ فى فزع : « انا لا اعرف شيئا عن هذا الموضوع » . واسرع رئيس المحكمة يسانده ، موجها كلامه الى الرفيق عبد المنعم شتلة : « انه يقول : انه لا يعرف شيئا » . الا ان عبد المنعم شتلة أصر على اتهامه ، وعلى ضرورة تسجيل ذلك فى محضر الجلسة .

وتبين المحاكمة ان عدم مقاطعة الشهود ، الا فى حالات نادرة وضرورية للغاية أمر هام . للشاهد عندما يتكلم بصورة متصلة ، يكتشف من خلال عرضه عن الثغرات التى يمكن النفاذ منها · ان ذلك يمكن المحامين من توجيه اسئلة محددة ، يمكن ان تترتب عليها استخلاصات محددة ، تساعد المتهم من الناحية القانونية · ان الفضح القانونى هام ، من زاوية اثبات تعنت المحكمة فى أحكامها ، أو أن هذه الاحكام كانت بالفعل معدة سلفا ، رغم كل مظاهر الدقة والعدالة ·

ناقش المحامون عبد الرحمن عشوب كشاهد اثبات مناقشة فنية فقهية استمرت يومين أو ثلاثة :

ـ انت سرت وراء المتهم ، صعد الى احد المنازل · هل صعدت وراءه حتى الشقة التى يقطنها ؟

ـ كــلا ·

ـ اذن كيف عرفت انه قد دخل شقة بذاتها ؟ لقد دخل العمارة رقم ٦٢ شارع بورسعيد ·

ما الذى يدريك انه قد دخل شقة سعد زهران ؟ كم شقة فى هـذه العمـارة ؟ ·

ـ ستون ·

ـ هل صعد رجلك الذى كان يراقبه خلفه ؟

ـ بالطبع كلا ، والا فانه يدرك اننا نراقبه ·

وتنكشف الثغرة التى يمكن الهجوم عبرها ·

وسئل عبد الرحمن عشوب ايضا :

ـ هل حقيقة ان واحدا من المخبرين كتب تقريرا يقول فيه : ان « فلانا » شوهد جالسا على المقهى متكدرا ، يفكر فى الوضع الراهن ؟

ويرد الشاهد بسؤال :

ـ من الذى قال مثل هذا القول ؟

ـ ان هذا الكلام قد جاء فى أوراق القضية ، فى واحد من تقارير المراقبة التى كتبها واحد من المخبرين ·

وهنا تظهر ثغرة اخرى . أحد المواطنين يجلس على المقهى ، ذلك امر رآه المخبر ، وكان هذا الشخص متكدرا ، ذلك أمر آخر رآه المخبر ايضا · لكن ، كيف عرف ما يدور فى ذهنه ؟ كيف عرف ان كدره يرجع الى تفكيره فى الوضع الراهن ؟ ! ·

وهكـــذا ·

شـــهود النفى :

جاء شهود النفى بعد شهود الاثبات مباشرة · كان منهم كمال رفعت ، خالد محى الدين ، محسن لطفى ولطفى واكد · تناولت شهاداتهم ، فى الأساس ، دخول الشيوعيين بورسعيد اثناء العدوان الثلاثى · قالوا

ان الشيوعيين هم اول من دخل بورسعيد بعد احتلالها ، وانهم كانوا مسئولين عن المقاومة وانهم وطنيون • وهنا قال عبد الله هلال : « لا أحد هنا يشكك فى وطنية المتهمين أو وطنية الشيوعيين » • ثم رفع صوته عاليا ، متسائلا : « هل هنالك يا اساتذة من شكك فى وطنية الشيوعيين ؟ » • وحدد الشهود أن عبد المنعم شتلة هو أول من دخل بورسعيد •

كما استشهد الدكتور فؤاد مرسى باثنين من اساتذة الجامعة منهم الدكتور كيرة فحضرا واديا شهادة مشرفة للغاية •

المتهمون ودفاعاتهم السياسية :

انتهت مهمة الشهود وبدأت دفاعات المتهمين •

يقول حلمى ياسين ، « فى تلك الاثناء كنـــا قـد انتهينا من صياغه دفاعاتنا السياسية • كتب كلا منا دفاعه وحفظه عن ظهر قلب • بعض الدفاعات ، التى خرجت عن غير طريق الحزب ، الى الخارج ، لم تكن مطابقة للدفاعات التى ألقيت فى المحكمة • كانت اكثر حرارة • واكثر جـــرأة •

كان المتهم الأول هو الدكتور فؤاد مرسى • لم يعترف بالعضوية ، الا انه قدم دفاعا جيدا للغاية . دفاعا هو ابرز الدفاعات فى المحاكمة • كان قصيرا ، لكنه كان قويا جيد الاعداد ، دار حول الوضع السياسى فى البلاد وقضية الديمقراطية ، وأن المعركة مع الاستعمار لم تنته بعد ، كما تناول ايضا مسألة الوحدة • كان عرضا عاما للموقف دون ان يخص الشيوعيين او يذكرهم فى دفاعه • اى يمكن القول ، انه كان دفاعا ديمقراطيا قويا ومتماسكا ، جيد العرض والترابط » •

ويقول الدكتور فؤاد مرسى ، « تحدثت فى دفاعى السياسى ، باسم الحزب بالكامل • ابتدأت باستعراض الموجودين فى القفص ، قيـادات الطبقة العاملة ، قيادات العمال مثلا ، قيادات المثقفين ، قيادات الاساتذة ، قيادات الطلاب ، قياداته فى داخل البلد ، بدأت بذكر يوسف المدرك ومحمود العسكرى ، عبد العظيم انيس ، محمود العـالم واسماعيل صبرى .. وهكذا . وقلت أن هؤلاء هم الذين أراهم فى القفص . أنا لا ارى مصطفى أمين ولا فؤاد سراج الدين ولا اعداء ثورة يوليو ولا الخونة ولا الجواسيس • اذا فلماذا يوجد هؤلاء هنا ؟ انهم موجودون بتهمة قلب نظام الحكم المصرى • وانا جاءوا بى الى هنا بصفتى المتهم الأول على كل هؤلاء • انا فى الحقيقة لست هنا متهما ، بل انا الذى اتهم ، انى اتهم جمال عبد الناصر بأنه قام بانقلاب على السياسة الوطنية التى اقرتها القوى الوطنية طوال ٥٦ ،

٥٧ ، ١٩٥٨ ، وأنه قد بدأ فى ضرب هذه القوى الوطنية من داخل مصر وفى خارجها ، فى العالم العربى ، فى سوريا والعراق • وأنه يرى بتأثير من أعداء بلدنا الأمريكيين والاستعماريين فى العالم ، أن المعركة الوطنية قد انتهت • (وهنا قدمت التحليل السياسى للحزب بالكامل . وكان خطه السياسى ، هو الخط الذى قلنا به فى الخارج مستبعدين فكرة الاحتكار وشبه الاحتكار • متخذين فكرة البورجوازية الوطنية وخط الوحدة والصراع) . وبالتالى • فاننى اتهم جمال عبد الناصر بانقلابه على نظام الحكم ، ولست أنا الذى يقوم بالانقلاب ولا هؤلاء الموجودين فى القفص • وبالتالى نطالب بالعودة الى الاوضاع السليمة ، الاوضاع التى هى وحدة القوى الوطنية ، والتى فيها الطبقة العاملة والحزب الشيوعى . وطرحت لماذا الحزب الشيوعى وضرورته وأهميته ودوره . وانتهيت بالدعوة الى تصحيح الخط السياسى للنظام والعودة الى خط الوحدة الوطنية التى تنطوى على الوحدة والصراع » .

ويكمل حلمى ياسين ، « لقد قال الدكتور فراد مرسى ، اثناء اعداد الدفاعات ، أن دفاعه فيه اعتراف ضمنى بالعضوية ، الا ان الزملاء ، أعضاء اللجنة المركزية بالداخل ، لم يقبلوا منه ذلك . وكان رأيهم أن الدفاع واضح فى هذه النقطة تمام الوضوح ، وأنه لم يشتمل على الاعتراف بالعضوية لا تلميحا ولا تصريحا » .

ثم جاء دفاع الدكتور اسماعيل صبرى . وقد تناول دوره فى التخطيط فى المؤسسة الاقتصادية مع صدقى سليمان • كان الدفاع فى أساسه عرضا لما قام هو به من أعمال • أما الجانب السياسى فى الدفاع فقد كان محدودا •

ثم جاء دفاع سعد زهران • وكان يشتمل على كلام سياسى عام ، عرض بطريقة تهكمية ساخرة ، لكن دون تحديد واضح .

ثم جاء دورى وكنت المتهم الرابع • كان كل الزملاء يعرفون اننى ساكون أول معترف بالعضوية أمام المحكمة • أما المحامون فلم يكن لديهم أى علم بذلك ، وكذا كانت المحكمة • وقد تعرضت اثناء وجودى فى قفص الاتهام لعمليات ضغط وشد • كان البعض يقول : حرام ان تعترف بالعضوية وامامك فرصة الخروج • انت لم يضبط لديك شىء ، أى شىء . كان البعض ، من خارج اللجنة المركزية ، قد ناقشنى من قبل فى ذلك الامر ، باعتبار ان قرار الاعتراف بالعضوية قرار احمق . فالمفروض أن

خرج جميعا من السجن لا أن ندخل فيه . وكان رأيي أن ما نواجهه الآن هو قضية سياسية . وكما كان القبض قرارا سياسيا ، فان الخروج ايضا سيكون قرارا سياسيا . لس هنالك ما يمكن تسميته بخروج البعض وبقاء البعض الآخر . وانه لخطأ فادح ان نقع فى تفكير المتقسمين ، والقائل بان الاعتقال قد تم خطأ ، أو أن الذين امسكوا بنا لا يفهموننا ، وأن ما نحن فيه مسألة مؤقتة . وكان ممن شاركوا فى الضغط اعضاء مركزيين وأعضاء غير مركزيين . كان هذا هو الوضع داخل القفص ، حتى نودى على اسمى .

كانت تلك هى أول جلسة استماع لدفاعات المتهمين . وكنت المتهم الرابع . وكانت آمال الزملاء الموافقين على الاعتراف بالعضوية ، وهم الغالبية الساحقة ـ معلقة بموقفى الذى سيكون أول دفاع عن العضوية .

بدأت دفاعى بقولى : أن ما أراه امامى غريب للغاية . الشيوعيون يحاكمون بعد أن كانوا فى الشوارع . اننا نقول بأعلى صوت اننا شيوعيون ، واننا كنا نؤيد حكومة عبد الناصر ونتعاون معه ، تعاونا لم يكن فى السر أو الخفاء . لقد كان لنا دورنا فى شتى المجالات ، فى الانتاج وعلى الجبهة . لقد دافعنا عن عبد الناصر ، وكنا على استعداد لحمايته . ان نقدنا لعبد الناصر لم يكن نقد هدم ، لكنه كان نقدا بناء للحكم وتصحيحا للثورة . انصب دفاعى على ماهية الديمقراطية والجانب البرنامجى لها ، البرلمان المنتخب ورئيس الجمهورية المنتخب ... الخ .

كنت اثناء دفاعى اقاطع كلما ذكرت كلمة شيوعيين . بدأ رئيس المحكمة يسأل ، « ما لك انت والشيوعيين ؟ » وكنت اجيبه بانى سأوضح ذلك فى كلمتى . فكان يعود الى المقاطعة ، « يا سيدى مالك انت ومال الشيوعيين ؟ افهمنى ان كان لك بالشيوعيين علاقة ؟ هل أنت شيوعى ؟ هل انت عضو فى الحزب الشيوعى ؟ ما علاقتك بالحزب الشيوعى ؟ لماذا تدافع عنه ؟ » . وكنت اقول له اننى سأقوم بتوضيح كل ذلك فى دفاعى . سأوضح لسيادتك الأسباب التى تجعلنى ادافع عن الحزب الشيوعى . سوف اشرح كل شىء لسيادتك . فقط اعطنى الفرصة لاكمل دفاعى . الا انه اخذ فى مقاطعتى كل جملة أو جملتين « اوقف الكلام . اما ان تخبرنى لماذا تدافع عن الحزب ، أو امنعك من الكلام . لقد طلبت منى الانتظار عدة مرات ، وحتى الآن انا لم افهم شيئا . لماذا تقدم انت هذا الدفاع عن الحزب الشيوعى ؟ » . فقلت له ، المسألة يا افندم اننى اتشرف بكونى عضوا فى الحزب الشيوعى المصرى .

لحظة ان نطقت هذه الكلمة ، ثبتت صحة موقف الحزب فى الخارج ٠ ان تقييمى هذا لا يصدر عن موقف متعصب منى ، أو لموقفى واعترافى بالعضوية ٠ لكننى احدده طبقا لردود الفعل التى احدثتها هذه الكلمة فى منصة المحكمة ، فى قفص الاتهام بين الزملاء ، فى القاعة وبين المحامين ، بين رجال المباحث العامة ، وبين كل من تواجد فى المحكمة ٠ اذ لو فجرت قنبلة فى ذلك الوقت ، لما احدثت ذلك الذى حدث فى تلك اللحظة ، هنالك من بين المحامين من خبط الملفات امامه ، ومن وضع يده فوق جبهته . اما هيئة المحكمة فقد ذهلت ، فى الوقت الذى تحول فيه الزملاء الى عمالقة .

قال رئيس المحكمة :

ـ هل يا ابنى يوجد فى مصر حزب شيوعى ؟

ـ نعم ، يوجد فى مصر حزب شيوعى ٠ وهذه المحكمة منصوبة لمحاكمة هذا الحزب ٠

ـ أين هذا الحزب ؟ قل لى ، أين هذا الحزب ، ومن هم اعضاؤه ؟

ـ الحزب الشيوعى يا افندم موجود فى كل مكان يتواجد فيه الناس . موجود فى الحقول ، فى المصانع ، فى الجامعات والمدارس وفى اوساط المثقفين ٠ فى كل مكان من هذه الاماكن سوف تلتقى والحزب الشيوعى ممثلا فى اعضائه المنتمين لهؤلاء الناس والموجودين فى وسطهم ٠

قال :

ـ اجلس ٠

قلت ـ لكننى لم انه دفاعى بعد .

قال ـ اجلس ٠

ثم امر بقفل الميكرفون الذى امامى ٠

كان الزملاء يحيون بعضهم البعض ٠ اما رئيس المحكمة فلم تعد هنالك نقطة دم واحدة فى وجهه ، ثم قال ، « المتهم الذى يليه » ٠

كان المتهم الخامس هو فؤاد عبد المنعم شحتو (العامل بشبرا الخيمة وقتذاك) . وقف فى جدية ٠ وكان قد اعد دفاعا جيدا للغاية يعتبر واحدا من احسن الدفاعات المكتوبة على الاطلاق . كان عن الحركة النقابية ٠ بدأ دفاعه بقوله ، « ان سياسة معاداة الشيوعية سياسة خاطئة وضارة

بمصالح الوطن عامة والطبقة العاملة خاصة » . وهنا قاطعه رئيس المحكمة ، « وانت ايضا لك علاقة بالحزب الشيوعى المصرى ، يا سيدى ؟ » . وهنا لم يناور فؤاد شحتو محاولا كسب الوقت وعرض دفاعه ، انما قال على الفور ، « ايوه طبعا ، واتشرف بكونى عضوا بالحزب الشيوعى المصرى » . فقال رئيس المحكمة غاضبا ، « انتهى دفاعك ، اجلس . رفعت الجلسة » .

وقام اعضاء المحكمة الثلاث فى فزع ومعهم نائب الأحكام . وسمعنا من ناحية المنصة جملة واضحة تقول : « ايه الغم دا » . وأخذ بعض المحاميين يضرب كفا بكف ، وأخذ البعض الآخر يقول : « هل جننتم ؟ » . « ما هذا الذى فعلتموه ؟ » ، « هل تنوون قلب الدولة ؟ » . فقلت لهم ، « لا دخل لاحد بهذه المسألة » . ثم اعدنا الى السجن . اما معنويات الرفاق فقد تعالت حتى الذروة . وكنا قد اتخذنا من قبل قرارا ، الا تثار اية مناقشات حول ما يدور فى المحكمة ، والا يتم أى تقييم الا بعد نهاية المحاكمة ، حيث ان التقييم خلالها قد يترك حزازات لا داعى لها .

كان الرفاق الذين يرفضون الاعتراف بالعضوية ما يزالون على موقفهم . وكانوا يرون ايضا ان دفاع الدكتور فؤاد مرسى افضل من دفاعى . والحقيقة انه لو لم يكن هنالك ضرورة للاعتراف بالعضوية ، لكان دفاعه افضل بالفعل . الا ان القضية كانت تتحدد فى الدفاع عن الحزب وحقه فى الوجود . ومعنى ذلك فى رأيى ، اننى لو وقفت اجيب بالنفى او الصمت على كل الاسئلة الموجهة الى ، حتى اذا ما سألنى القاضى ، هل تعرف الحزب الشيوعى ؟ فاجبته بنعم وانى عضو فيه ، لو فعلت ذلك فقط ، لكان هذا الموقف انتصارا عظيما جدا للحزب الشيوعى . حقيقة كان يمكن لدفاعى عن نضال الشيوعيين وعلاقتهم بعبد الناصر ان يكون اقوى ، لو كنت اقل حماسا واقل اندفاعا مما كنت عليه . الا ان الدفاع عن الحزب والاعتراف بالعضوية كانا ابرز نقاط الدفاع ، وكانا نقطة التحول فى القضية كلها .

فى اليوم الثانى للمحاكمة اخذنا قرارا بضرورة اصرار فؤاد شحتو على الكلام . فطلب عند بداية الجلسة ان يتكلم . قال لرئيس المحكمة .

ـ سيادتك منعتنى من الكلام بالامس .

قال رئيس المحكمة :

ـ لا . لقد دافعت عن نفسك .

ـ لم يحدث ذلك .

ـ لقد قلت انك عضو بالحزب الشيوعى المصرى . ونحن لا نبغى اكثر من ذلك . ما دمت عضوا فى الحزب الشيوعى ، فاننا نعرف ما سوف تقول . نعرف مبادئكم .

وتدخل بعض المحامين يطلبون منه الجلوس . الا ان فؤاد اصر على حقه فى الدفاع .

ـ لابد ان اتكلم .

وازاء اصراره قال رئيس المحكمة

ـ عشر دقائق .

قال فـؤاد :

ـ شكرا ، عشرون دقيقة .

ـ كلا ، عشر دقائق فقط .

والقى فؤاد شحتو دفاعه منذ البداية .

ثم توالى الرفاق . محمود امين العالم ، المتهم السادس . وقد تكلم فى قضية الوحدة العربية . وكذلك عبد العظيم انيس فيما بعد . كان دفاع محمود العالم دفاعا قوميا يمكن ان يقوله أى قومى . كان دفاعا عن حق الشعوب العربية فى الوحدة والايمان بالقومية العربية ، وأن تكون الوحدة ديمقراطية ، الا انه لم يربط ذلك بموقف الشيوعيين .

وتناول الرفيقان سعد رحمى وعبد المنعم شتلة دور الشيوعيين فى بورسعيد ، واوضحا انهما قاما بهذا الدور نيابة عنهم وبتكليف منهم ، كذلك تناولا دور الشيوعيين فى مجال النضال الوطنى وتشكيل الجبهة وضرب الانجليز . وهو ما أكده الشهود . وقد اعترف الرفيقان بعضوية الحزب .

كانت المباحث العامة عند ادلائها بشهادتها ، قد ذكرت ان الرفيق لويس اسحق ، شيوعى معروف قام على تربية اخواته تربية شيوعية . وتناول الرفيق لويس هذه القضية فى دفاعه موضحا ان المباحث العامة قد وصلت الى حد من البلاهة جعلها تتخيل انه ما دام المرء شيوعيا ، فلابد وان يولد ابناؤه شيوعيين ايضا . وأن هذا خطأ يكشف عن حقيقة وطريقة

تفكيرهم . اذ معنى ذلك ان أى قريب له لابد وأن يكون شيوعيا وأى زائر او مخالط أو زميل فى العمل لابد وأن يكون شيوعيا . انها طريقة معادية لمصالح الشعب . كما اوضح أن والده قد ترك له بعد وفاته اخوة صغارا قام هو على تربيتهم ، الا ان ذلك لا يعنى انه قد وضع شريطا أحمرا على عقولهم أو دفع بهم فى الطريق الذى اختاره هو ودعاهم الى تعلم الشيوعية . ثم قال انه قد خدم وطنه وآمن بمبادىء ومعتقدات دافع عنها فنكل به . والناس تحترم اخوته وتحبهم لأنهم اخوات رجل يضحى فى سبيل بلده ومبادئه ولا يخشى شيئا فى سبيل هذه المبادىء . وهنا قال له رئيس المحكمة ، « وما هى مبادئك اذن ؟ » فقال له لويس اسحق ، « اننى عضو فى الحزب الشيوعى المصرى » .

واعترف بالعضوية ايضا الرفيق يوسف درويش ، والرفيق عادل فهمى الذى اخذ موقفا جيدا للغاية ، متناولا فى دفاعه دور الحركة الطلابية وتاريخها النضالى . كما اعترف ايضا الرفيق عوض الباز (عامل من شبرا الخيمة) قائلا ، « اتشرف باننى لست فقط عضوا بالحزب الشيوعى ، ولكننى ايضا عضوا قياديا به » . فهجم عليه ضباط الحراسة وجنودها يقبلونه بعد الجلسة .

ان واحدا من افضل الدفاعات السياسية ، كان ذلك الدفاع الذى تقدم به نبيل الهلالى . كان دفاعا غاية فى القوة والجمال . كان قمة فاستفز رئيس المحكمة . لقد دافع نبيل الهلالى عن الديمقراطية وحق الشيوعيين فى الوجود . كما دافع عن الاعمال التى قاموا بها ، وتضحياتهم لوطنهم ، وشهدائهم . كان دفاعه يتسق تماما مع دفاع الذين اعترفوا بالعضوية ، الا انه يتميز بكونه دفاع محام متمرس . ولقد قاطعه رئيس المحكمة اكثر من مرة ، « يا اخ نبيل ، لماذا تدافع انت عنهم ؟ هل انت عضو فى الحزب الشيوعى ؟ » . وكان نبيل يرد عليه ، « انا لا اقول انى عضو فى الحزب الشيوعى ، لكننى اشرح لسيادتكم واقعا مصريا . انتم تقولون انه يوجد حزب شيوعى ، وهو حزب ضار يقوم بكذا وكذا من الاعمال ، وانا أقول لسيادتكم أن هذا الكلام خطأ . انها وجهة نظرى اقولها واتمسك بحقى فى قولها . فانا باعتبارى رجل يعيش فى الحياة السياسية ، يتوجب على أن ادلى بوجهة نظرى فى الحزب الشيوعى المصرى وسياسته » . كان دفاعا عظيما ، وفى اعتقادى أن المحكمة قد اعتبرته ـ بناء على ما جاء فيه ـ اعترافا بالعضوية .

عندما اتخذت الدفاعات السياسية هذا النحو ، بدات حالة من الفزع تسود المحكمة وبذلت محاولات مستميتة لمنع الدفاعات السياسية تماما .

فقد اتصل جاد الحق بعائلة الزميل حسين توفيق طلعت ، والذى كان يدير المؤسسة القومية للنشر والتوزيع حتى يناير ١٩٥٩ ، ليقول لها ، ان وضع حسين فى القضية وضع طيب ، وانه لابد مفرج عنه ، فقط عليه ان يجيب على بعض الاسئلة العادية تماما ، اجابات لا تحرج زملاءه ولا تحرجهم . فلما قالت اسرته بانها لا تستطيع ان تطلب منه مثل هذا الامر ، قال لها ، « اذن عليه ان يلزم الصمت والا يقدم دفاعا سياسيا حيث ان لدينا معلومات تفيد بانه سوف يقدم دفاعا سياسيا حول الدمقراطية وقضية النشر والصحافة » . وافقت الاسرة ان تطلب منه ذلك . وعندما علم والده بهذا الامر قال لأفراد الأسرة ، « ابلغوا حسين بهذا الكلام . وبعد ان تفعلوا ذلك ، قولوا له ايضا ، انك ان قبلت ذلك فان اباك سوف يضربك بالرصاص . انه لو تخلى عن زملائه فى هذه المحنة ، وقبل ذلك الذى يطلب منه ، فانه لن يكون ابنى ، ولسوف اطلق النار بنفسى عليه . فقط قولوا له رسالتكم اولا ، فربما يود أن يأخذ هذا الموقف ، ثم ابلغوه برسالتى) . كان والد حسين رجلا كبيرا فى السن وبورجوازيا كبيرا ايضا . وقد ارسل زوجته ، والدة حسين قائلا لها ، « انا اعرف انك لن تكذبى ، اخبريه برسالتى بعد ان تعرفى رايه فى الرسالة الأخرى » . وذهبت والدة حسين وزوجته لزيارته فى السجن وابلغاه بما جرى . فقال لهما ، « عيب عليكما ان تفكرا فى قول ما قلتما لى ، فهذا هو موقفى دون رسالة والدى » . وقدم بالفعل دفاعا سياسيا عن قضية النشر والصحافة وأهمية التعاون مع الدول الاشتراكية .

كان الرفيق محمود المستكاوى قد عدد — اثناء التحقيق معه — ما قام به من انجازات بوصفه مهندسا يعمل فى مجال المقاولات والكهرباء . تناول مشروعات الانارة التى قام بتنفيذها ، والقرى المختلفة التى زارت الانارة على يديه . ذكر عدد الكيلو مترات من شبكات الكهرباء ، وكذا عدد العواميد ، تفاصيل دقيقة توضح انه قام بعمل خرافى . وفى دفاعه فى مواجهة المحكمة قال ، « انا الذى انجزت كل تلك الأعمال ، انا اعمل فى هذا المجال منذ اعوام طوال ، فكيف يتفق ذلك مع اتهامى بانى انسان مخرب او حاقد أو عديم النفع أو كما تقول النيابة ، انه كان أولى بنا ان نخدم بلدنا ، والا نرفض يدها المحدودة البناءة . كيف تفسر لنا النيابة قيامنا بكل تلك الانجازات واتهامها لنا ، بما هو منسوب الينا من سلوك » .

وتناول الرفيق فكرى رفاعى فى دفاعه ، قطاع التعليم . وكان مدخله الى دفاعه واقعة خطيرة . قال أمام المحكمة ، « لم اكن اتمنى ان اعيش الى اليوم الذى اكتشف فيه أن سلطات الأمن قد اتفقت مع واحد من الطلبة

الذين اقوم على تعليمهم كى يقوم بمراقبتى والتجسس على . لقد تعلمنا فى المدارس ان المدرس له قدسيته . ولذا فاننى عندما اخترت مهنة التدريس ، اخترتها على أساس تقديرى لها انها مهنة شريفة تقوم على تربية الاجيال المتعاقبة ، الا اننى اكتشف اليوم ، ان من قمت على تعليمه وتربيته قد افسدته أجهزة الأمن ليتحول الى شخص يقوم على خيانة مدرسه واستاذه ومربيه . والذى هو فى منزلة الأب منه » . ثم تحدث عن قضايا المعلمين ومعاناتهم والمدارس واوضاعها . وكان الالقاؤه قويا ومتماسكا .

والحقيقة ان جميع أعضاء الحزب دون استثناء قد تكلموا فى مواجهة المحكمة . وقدم الذين لم يعترفوا بالعضوية عرضا لما قاموا به من أعمال تشكل فى مجموعها مواقف الشيوعيين العملية فى كل مجال . وكان ذلك ردا حاسما منا على النيابة فيما ادعته باننا مخربون نعمل فى الجحور .

اما بالنسبة لمجموعة « حدتو » (والتى كنا نسميهم حينذاك بالمنقسمين) . فقد كان الاتفاق بيننا وبينهم اتفاقا تاما . وقد قدم الرفيق عريان نصيف دفاعا سياسيا ممتازا ، دافع فيه عن الديمقراطية ، كما دافع ايضا عن الشيوعيين ونشاطاتهم . كذلك قدم سعد الساعى دفاعا ديمقراطيا ، وقدم خليل الآسى كلمة قصيرة » .

يقول سعد رحمى ، « بدأت المحاكمة يوم ١٥ اغسطس ١٩٥٩ . كنا قد وزعنا الدفاعات السياسية . وكانت النقطة التى ساتحدث فيها هى تفسير معنى العنف الثورى ، اى موقف الجماهير فى مواجهة عنف الدولة ، مع ادانتى للارهاب الفردى . واعددت دفاعا جيدا . وكان ذلك بالاضافة الى اعترافى بعضوية الحزب . لم يمارس أحد من اخوتى ضغطا على ، رغم انى اصغرهم سنا . اذ كان موقفى واضحا لديهم منذ عام ١٩٤٨ عندما اخترت طريقى . كذلك لم يمارس أحد من الزملاء ضغوطا داخلية أو خارجية على .

كانت كلمات المتهمين تأتى بعد افتتاحية النيابة وشهادة الشهود وما الى ذلك . وكان الدفاع سوف يبدأ يوم ٣ سبتمبر . وكان يوم سبت . فى يوم الخميس السابق عليه حضرت زوجتى ، الا انها لم تحضر يوم السبت . وتصورت ان هنالك ما عطلها ، خاصة وهى مدرسة ، وقد بدأ العام الدراسى . الا اننى لاحظت ان الزملاء يعاملوننى بانسانية زائدة ، اكثر مما يجب . وعندما عدنا الى سجن الحضرة ، كنت أنا وشحاته

عبد الحليم وأمين شرف نسكن زنزانة واحدة · وكان من الطبيعى أن يجتمع اعضاء اللجنة المركزية يوميا بعد المحاكمة للمناقشة . الا اننى فوجئت فى هذا اليوم بحضور حلمى ياسين وفؤاد مرسى فقط · وقالا لى ان ابنتك (عزة) قد توفيت . تعبت بعد ذلك صحيا ، ثم اصبت بالملاريا · ولما كنا تحت اشراف المحكمة العسكرية فقد انتدبت طبيبا ضابطا للكشف على واخذ عينة من دمى · وبناء على ذلك تم نقلى الى مستشفى حميات الاسكندرية ، فى حجرة معزولة ومحاطة بالحراسة · وقد رفضت وجود حراس داخل الحجرة · كانت تصلنى اخبار المحاكمة باستمرار · حيث كان للحرس الذى يلازم الزملاء اثناء المحاكمة هو نفسه الحرس الذى كان يقف حول حجرتى بالمستشفى · ولقد حاول حسن المصيلحى فى أحد المرات دخول جرتى مرتديا زى طبيب ومعلقا السماعة فى رقبته ، الا اننى رغم تعبى الشديد تعرفت عليه · وقلت له ، « كيف حالك يا حسن بيه » ، ماستدار وانصرف . ويبدو انه كان قد جاء للتحقق من صحة مرضى .

عرفت من الحراس أن فؤاد واسماعيل وسعد وحلمى قد تحدثوا ، وبذا فان دورى فى الدفاع قد اقترب . طلبت مدير المستشفى فحضر · سألته الخروج من المستشفى فورا · قال الرجل ، انى متعب وانه لا يتحمل طبيا مسئولية اخراجى من المستشفى الآن وأنا فى مثل تلك الحالة ، واننى ان كنت اود رؤية زوجتى ، فانه سيسمح لها بزيارتى · الا اننى قلت له ، اننى اود الذهاب الى السجن حتى أكون مع زملائى .

قال لى ، « فى مثل تلك الحالة ، وقع تعهدا بخروجك على مسئوليتك » · وخرجت بالفعل . اذ انه قام بالاتصالات الضرورية بالمباحث العامة ، والتى يبدو انها لم تكن ترحب بوجودى فى المستشفى ، فوافقت .

غادرت المستشفى وأنا ارتدى منامتى وروبا وشبشبا ، الى السجن ، حيث ارتديت ملابسى وتوجهت الى المحكمة · عندما رآنى عبد الله هلال حاول أن يبدو انسانيا فسألنى عن حالتى ، الا اننى لم أجبه ، وجلست · كنت متعبا · حاول الحديث معى مرة أخرى ، فقلت له ، لو سمحت فسأتكلم وأنا جالس ، لأنى متعب . سألنى ، « هل عولجت ؟ » · قلت . لقد جئت الى هنا باختيارى ، واطلب تسجيل حقى فى الدفاع ، على أن يكون فى اليوم التالى .

عدنا الى السجن وعرفت ما قاله الزملاء فى دفاعاتهم امام المحكمة . ووجدت انهم قد عرضوا الكثير . فحادثت حلمى ياسين على أساس اننى

سأطور حديثى بحيث لا اكرر ما قيل ، وان تنصب كلمتى فى دفاعى حول الاعتراف بالعضوية .

فى اليوم التالى لعودتى قلت فى المحكمة ما معناه ان افكارنا ومبادئنا وبرنامجنا قد اتضح للمحكمة . وان ما أريد اضافته هو كلمة واحدة ، هى أن الشيوعية حقيقة واقعة . كنت امسك حينذاك بقضبان القفص لشعورى بالتعب . الا انى رغم ذلك طلبت الحديث بدون ميكرفون باعتبار ان صوتى قادر على الوصول الى الجميع . قلت ان الشيوعية حقيقة واقعة سواء فتحتم سجونا أو معتقلات أو علقتم المشانق . وهنا بدأ هلال عبد الله مستفزا مستثارا يصرخ بغيظ شديد ، « اقعد ، اقعد » . واستمررت فى كلامى قائلا ، أن كل ما سوف تفعلوه هو تعطيلنا بعض الشىء . فعاد الى الصراخ مرة أخرى . « اود ان اعرف علاقتك بالحزب » . فقلت ، اننى اتشرف بعضوية الحزب الشيوعى المصرى . فقال ، « اجلس » . فجلست . وكنت آخر المتحدثين » .

ويكمل حلمى ياسين ، « من المواقف النبيلة والعظيمة التى حدثت اثناء مرافعة المتهمين ، موقف حسنى بخيت . بدأ كلامه بالمعاملة الشاذة التى يلقاها المعتقلون الشيوعيون ، واعمال الاعتــداء عليهم فى الفيــوم والواحات ، دون أن يتعرض لتعذيبه هـو . قال ، « ان تلك السياســة خاطئة ، فهؤلاء الرجال شرفاء . وانى بكلامى الذى قلت فى تحقيق النيابة قد ارتكبت جريمة لا تغتفر فى حق اناس من اشرف ما انجب هذا الوطن . انى اعلم انه سيحكم على نتيجة موقفى هذا » ، وهنا قاطعه عبد الله هلال قائلا ، « انت رحت الواحات يا حسنى ، شفت الواحات يا ابنى ولا لأ ؟ » . فرد عليه حسنى بخيت « لأ ، ماشفتهاش ، لكن اعلم انى بعد المحاكمة سوف اذهب الى هناك ، لأنه لابد وأن يحكم على . فقال له ، « آه » . ممطوطة تحمل فى طياتها كل صنوف التهديد والوعيد . واستمر حسنى بخيت ، « لقد ضغطوا على وهددونى بالاعتداء على زوجتى التى احبهـــا ولا امتلك فى هذه الدنيا سواها ، لقد ارغمونى ان اقول ما قلت . هــذا الكلام الذى وضعوه على لسانى . وانا اعتقد الآن ، انى قــد ارتكبت بالفعل جريمة . وانه لابد من الحكم على ، لا بناء على اتهامات المباحث العامة ، وقولها بانضمامى الى تنظيم او خلافه ، ولكن جزاء لى على الجريمة التى ارتكبتها فى حق اشرف اناس انجبهم هذا الوطن » .

لقد بكى كثير من الزملاء اثناء دفاعه . كان يعرض مأساته بطريقة رهيبة . كان اثناء المحاكمة معزولا عنا بمفرده فى سجن الاجانب ، حتى

لا يخضع لضغط من جانبنا . وهنالك كان الضغط عليه شديدا من قبل المباحث العامة . الا انه واجه ذلك بشجاعة ، وأخذ موقفه هذا امام المحكمة ، فضموه بعد ذلك الينا فى سجن الحضرة . وقد علق أحد الزملاء على تلك المأساة بقوله ، « اننا امام مأساة شيكسبيرية . مأساة الانسان وتمزقه ، ثم محاولة تصحيح خطئه والخروج من محنته » » .

مرافعة النيابة :

كان على نور الدين هو من قدم مرافعة النيابة . كان حينذاك نائبا عاما يود تقديم نفسه ، متخذا من القضية سبيلا الى موقف يحسب له . كان الرفاق قد قرروا مقاطعته ان اساء لهم أو تناولهم بالسب أو بالفاظ لا علاقة لها بالقانون . كان حلمى ياسين ، بعد اعترافه بالعضوية ، قد اصبح مسئول القضية بصورة عملية . وكان الاتفاق قد تم على عدد من الاسماء ، عليها ان تقوم بصورة متتالية بمقاطعته فى مثل تلك الاحوال . وقد تحدد لكل احتمال ما يلزمه من رد ومقاطعة . فان قال مثلا ، « الشيوعيين عملاء » ، وقف الرفيق المكلف بالرد ليقاطعه ، « لسنا نحن العملاء ، وانما العميل الحقيقى هو من يتهمنا بالعمالة » . وان قال « ان الشيوعيين مخربون » ، تدخل آخر على الفور ، « لسنا نحن من يخرب مصر ، نحن بناتها ، وانتم المخربون » .

يقول سعد رحمى ، « عندما بدأت المحاكمة ، وزعت المسئوليات فيما بيننا . وقد استبعد بعض الزملاء من هذه المسئوليات لعدم ترحيبهم بالموقف الصدامى مع المحكمة . كان هنالك مسئول للقفص يسمى عمدة القفص . واتذكر انى كنت عمدة القفص عندما عمد نور الدين النائب العام إلى التعريض بوطنيتنا . كان هنالك شبه اتفاق بيننا وبين المحكمة بعدم التعرض لوطنيتنا باعتبارها أمرا مفروغا منه ، وليست محل مسائلة . وأن القضية هى قضية الانضمام الى تنظيم غير شرعى . وقد خرق نور الدين هذا الاتفاق ، وهاجم وطنيتنا . فوقفت باعتبارى عمدة القفص وقلت ان هذا لموضوع ليس محل نقاش ، وليس الذى حاكمنا ايام الملك ويحاكمنا ايام الثورة هو الذى يتحدث عن الوطنية . فقال عبد الله هلال ، « كفى ، فقد فهمنا » . فطلبت حذف هذا الكلام من المضبطة ، وتم حذفه بالفعل » .

بدأ على نور الدين بداية هجومية . لم يلجأ الى المقدمات ثم التصعيد . قال ، « هذه الزمرة الخائنة » ، وللحال تصدى له أحد الرفاق ، فاخرج من الجلسة ، فتقدم آخر فأخرج من الجلسة ايضا ، فثالث ، فرابع ،

فخامس • وكان من هؤلاء الرفاق ، يوسف درويش ، عوض الباز ، وأمين شرف . عند كل نصد واعتراض كان رئيس المحكمة يوقف الجلسة ويأمر باخراج الرفيق • وهنا قال على نور الدين ، « آه ، بقى كده ، انا فاهم الملاعيب دى ، طيب أهى » • ثم امسك بورقة فى يده وقال ، « اتحدى الحزب الشيوعى وأعضائه ، من فوق لتحت ، أن يكذبوا هذه الوثيقة • انها تقول بضرورة الصلح مع اسرائيل واقامة علاقات طيبة معها • ها هى الوثيقة ، واتحدى ان يتكلم أى واحد منكم » • كان ما يزال يمسك الورقة فى يده يتحدى ، عندما نهض الرفاق جميعا يصرخون فى نفس واحد . « يا كذاب ، يا حقير ، يا قذر ، يا ابن الكلب » . وفزعت هيئة المحكمه ورجال المباحث العامة . الرفاق جميعا ثاروا وانهالوا عليه سبا ولعنا . وأخد عبد الله هلال يضرب امامه بقبضته • فصمت الجميع • كان الاتفاق ان يتناطعوا ثم يصمتوا . قال عبد الله هلال ، « حلمى ، قم انت ، وقل لنا ، ما رأى الحزب الشيوعى فى قضية اسرائيل » • ثم انجعص يستمع . وكانت تلك قمة من قمم انتصار الحزب فى قاعة المحكمة •• كانت اعترافا منها بالحزب وممثله فى القضية .

بهت على نور الدين • وكان احمد موسى رئيس النيابة حاضرا ايضا • ووقف حلمى ياسين يقول : « اشكر للمحكمة سعة صدرها واهتمامها للاستماع الى وجهة نظر الحزب • وقبل ان اعرض وجهة النظر تلك ، اود ان اقول ، لماذا لم يتكرم النائب العام باخبار المحكمة ، من أين جاء بالوثيقة التى يتقدم بها ؟ أين وجدها ؟ ومع من ؟ نحن معنا ملف القضية وقرارات الاتهام ، ولم يرد لهذه الوثيقة ذكر على الاطلاق فى أوراق القضية . من اين جاء بها ؟ من اسرائيل ؟ أم من اى متهم آخر ، فى قضية أخرى ، لينسبها الينا . نحن مسئولون عن كل الاوراق التى يمكن ان تنسب الى الحزب الشيوعى ؛ اننا نقول اننا اعضاء فى هذا الحزب ، وأى ورقة تحمل اسم الحزب الشيوعى ، وان لم تكن من مضبوطاتى ، فانا على استعداد للقول بانها ورقتى • لكن أن يحضر ورقة ، لا نعرف مصدرها ، فهذا أمر يرجع فيه بها الى المباحث العامة ، حتى يمكنهما التصرف معا . هذه الوثيقة لا تخص القضية ، ونحن نطلب من المحكمة استبعادها ؛ هذا من ناحية الشكل . أما من ناحية الموضوع ، فسياسة الحزب فى هذا الامر معلنة ، وليست سياسة سرية ، وللحزب فى هذه القضية تقارير ثلاث تقول ان اسرائيل دولة عنصرية ، ونرفض التقسيم ، كما توضح كفاح الشيوعيين والكفاح المسلح • اذن فالشيوعيين لا يمكن ان يقولوا بانهاء القضية والاتفاق مع اسرائيل » • ورفع رئيس المحكمة الجلسة •

عاد المحامون يهللون بعد خمس دقائق من رفع الجلسة • قالوا رئيس المحكمة أمر على نور الدين بالسفر الى القاهرة وعـــدم اكمـال مرافعته ، والتى لم تستغرق غير دقائق معدودة .

عادت المحكمة الى الانعقاد ، وجلس أحمد موسى مكان على نور الدين • قال رئيس المحكمة « النيابة تتفضل » • كان أحمد موسى رجلا مهـذبا عف اللسان ، يميل الى استخدام التعبيرات الوصفية ، كان يقول « حلمى ياسين أول المتكلمين وشيخ المعترفين • لا حاجة للكلام عنه امام المحكمة ، فهو رجل وقف امامكم يعلن فى زهو وفخار شديدين عضويته فى الحـزب الشيوعى المصرى ، وانه على استعداد لتحمل كل أوراق الحزب . كما أنه قام بشرح سياسة الحزب للمحكمة . انا لن اتكلم عنه ، فهو قد تكلم عن نفسه » .

على هـذا النحو سـارت دفاعات النيـابة • كان دفاع أحمد موسى خاليا من كل كلمات المهاترة ، كالخونة والعملاء وما شابه • كان دفاعا موضوعيا . ما هى المضبوطات ؟ ما هى الاقوال والمواقف أمام النيابة والمحكمة ؟ التزم جانب الدفاع القانونى حتى انتهى من عرض دفاعه .

المحـــامون :

كان من المحامين الدكتور محمد عبد الله والدكتور محمد عصفور ومختار قطب وماهر محمد على وأحمد البديني وعبد العزيز شرف ومجموعة أخرى كبـيرة .

كما كان هنالك محامون منتدبون • البعض منهم لم يكن يفقه مما يجرى حوله شيئا • كانوا يترافعون وكأنهم يتحدثون عن مشاجرة أو قضية مخدرات على اقصى تقدير .

كان محامى لويس اسحق يضرب المنضدة امامه بجمع يـده ويقول ، « ان الاتهامات الموجهة الى هذا الشاب باطلة . انها توجه لرجل برىء ، قام على تربية اخواته • ثم يتهم اليوم بانه شيوعى ، وعضو فى الحزب الشيوعى » • ومال عضو اليسار على رئيس المحكمة ، « لكن يا افندم ، لويس اسحق معترف بالعضوية ! » وقال له رئيس المحكمـة فى سخرية ، « دعه يتكلم ، دعه يكمل » . ثم توجـه ضـاحكا الى المحـامى ، « اكمل يا استاذ ، اكمل » . كان العرض كوميديا ، ومحامى لويس اسحق يصر على طلب البراءة بناء على دفاعه هو ، لا بناء على الحقائق الموضوعية وموقف لويس اسحق فى القضية أو المحاكمة .

كان عريان نصيف قد قدم دفاعا رائعا امام المحكمة . وعندما حل دور محاميه للدفاع عنه ، بدأ مرافعته بقوله ، « كيف استطيع ان اقول شيئا عن هذا التلميذ ، اذا كان اساتذه الذى يلقنه الشيوعيه واساتذته فى الشيوعية يقفون معه جنبا الى جنب فى قفص الاتهام » . كان يهاجم الدكتور فؤاد مرسى والدكتور اسماعيل صبرى . فانتصب عريان واقفا وقال ، « ارجو من المحكمة ان تمنع المحامى من التدخل فى السياسة . المطلوب منه أن يتناول الجوانب القانونية فقط » اذا لزم ان يدافع » . ورد المحامى قائلا ، « دعنى يا بنى أؤدى واجبى » . ثم عاد يقول ، « هذه الشيوعية .. » فهب عريان واقفا للمرة الثانية موجها حديثه لهيئة المحكمة ، « ارجو من المحكمة ان تلفت نظر المحامى الا يتعرض للشيوعيه أو ما نؤمن به من مبادىء ، عليه ان يقتصر فى دفاعه على الجانب القانونى فقط » . وهنا صاح المحامى ، « يا محكمة لا تلتفتى الى هذا الغر ، انه مضلل » . فقال عريان للمحكمة ، « وانا ارد هذا المحامى وارفض ان يكون محاميا عنى » . قال رئيس المحكمة ، « هذا الأمر لا يصح يا بنى » . فقال عريان فى حسم ، « اننى مصر على موقفى » ، حتى ان ظللت دون محاميا . وعلى المحكمة أن تنتدب آخر غيره » . لقد رفض عريان أن يهاجم محاميه متهمين آخرين أو يهاجم الشيوعية باسم الدفاع عنه وتبرئته .

وكان حسين ابو زيد المحامى ، وهو من كبار المحامين ، موكلا عن نبيل الهلالى ، وكان فى ذات الوقت وكيلا عن الهام سيف النصر . وكان ترتيب الهام فى القضية يسبق ترتيب نبيل الهلالى فى قائمة الاتهام . وكان كلاهما رقيق الجسم . وعندما حل وقت الدفاع عن الهام سيف النصر ، وقف حسين أبو زيد يقول ، « انظروا الى هذا الولد الذى يزن ستة كيلو جرامات . كيف يمكن لهذا ان يقلب نظام الحكم » . كان دفاعه قائما على مثل هذه التبريرات . وقبل ان ينتقل للدفاع عن نبيل الهلالى ، ارسل نبيل اليه يطلب منه عدم المرافعة عنه . ووقف حسين أبو زيد فى حالة شديدة من الأسى والخجل ، ليعلن ذلك أمام المحكمة . لقد رفض نبيل الهلالى أن يهدر هذا المحامى دفاعه السياسى عن نفسه ، بمثل ما قاله عن الهام سيف النصر .

كان هذا نوعا من المحامين ، ونوعا من المواقف النضالية ، مهما كانت نتائجها . اما النوع الآخر ، فقد كان من رجال يحترمون انفسهم ، فلا يقدمون على قول أو عمل يسىء الى مصلحة موكيلهم . حدث ان اعدمت حكومة عبد الكريم قاسم العراقية ، الطبقجلى ورفعت الحاج سرى . وسارت المظاهرات المعدة تطوف الشوارع ، تهتف « الموت للشيوعيين . الشيوعيون اعداء الله ، والطبقجلى حبيب الله » . كانوا يحملون المصاحف .

وكان فى وسع الرفاق أن يروهم وأن يسمعوهم وهم يسيرون تحت نوافذ المحكمة • كان المفروض الا تنعقد المحكمة ، والا تحدث مرافعات ، وأن يدخل أحد المحامين ليعلن أن نقابة المحامين قد قررت الاضراب فى هذا اليوم . الا ان النقابة لم تجد فى هيئة الدفاع من يقبل من المحامين القيام عنها بهذه المهمة ، مهمة تسجيل قرارها أمام هيئة المحكمة ، معلنا أن المحامين لن يترافعوا اليوم حدادا على اعدام الطبقجلى . لقد اتخذوا هذا الموقف دون أن يسألهم ذلك أحد من الرفاق . كانوا يرون أن مثل هذا السلوك ضد ارادة المتهمين ، وربما أساء اليهم وترتبت عليه اوضاع تضر بهم •

ظلت هيئة المحكمة فى حجرة المداولة حتى الساعة الثانية عشر ، وقد جلس المحامون فى القاعة ، والرفاق فى قفص الاتهام • ثم فوجئ الجميع باثنين من الضباط يرتدون الملابس المدنية ومعهم ثالث لا يدرى أحد ان كان ضابطا آخر أم محاميا ، وقد امسك به الضابطان ، كلا من ناحية ، ودخلا به قاعة المحكمة ، ثم جلسا الى جانبيه فى أول الصف . كان الرجل يبدو واجما ، ذاهلا ، اصفر اللون ، لا يكلم أحدا ، حتى التحية لم يتبادلها مع أى من محامى هيئة الدفاع • وهنا دخلت المحكمة القاعة • ووقف هذا الرجل الذى اسموه محاميا ، ليعلن انه قد جاء ليبلغ المحكمة ، أن نقابة المحامين قد قررت الاضراب اليوم ، احتجاجا على المجازر التى تجرى فى العراق ، وعلى اعدام الطبقجلى وزملائه . ووقفت النيابة تشارك « هذا الشعور القومى العظيم » ، وكذا فعلت هيئة المحكمة •

وكان الرفيق سعد رحمى مكلفا باتخاذ موقف باسم الحزب فى هذه المسألة . فوقف رافعا يده ، طالبا الكلمة • ودهش عبد الله هلال • كان يتوقع ان يترك الرفاق الأمر يمر دون تعليق . قال لسعد رحمى ، « فيه حاجة ؟ » • اجاب سعد ، « أود الكلام » . قال له ، « تفضل » • كان عبد الله هلال فى تلك اللحظة متحفزا ، يميل بجسده الى الامام . كان تركى السحنة ، له سنتان بارزتان ، تظهران ان ضحك أو غضب ، فيعلن الذئب الذى فى اعماقه عن نفسه . تقدم سعد رحمى ليقف امامه • فتح الميكروفون وقد ساد القاعة صمت شديد . بدأ كلامه بقوله : « مما لا شك فيه ان للموت جلاله » . وأحدث هذا الاستهلال المؤثر أثره ، فانجعص هلال فى كرسية وكذا هيئة المحكمة • وتنفس المحامون الصعداء . كان مدخل سعد للموضوع مدخلا غير متوقع ، فلما فوجئوا به ، استراحوا اليه • وساد القاعة كلها صمت شديد • كان فى القاعة أكثر من مائتى عائلة من عائلات الرفاق ، بالاضافة الى رجال المباحث العامة والحراس •

الكل صامت وكان الطير قد حل فوق رؤوسهم • صمت سعد برهــة بعد أن قال جملته • وتخيل كل من كان خارج القفص ، أن تلك البداية ، لابد وأن يتلوها تأبين الطبقجلي • الا ان سـعد استمر فقال ، « الا اننــا نشمئز من الطريقة التى تعالجون بها مشاكل الحياة . نشمئز من اسـتخدام الموت وسيلة لتظاهرات رخيصة مبتذلة • نشمئز من تدخلكم فى شـئون العراق الداخلية . وكان الاجدر بنقابة المحامين ان تلتفت الى ما يجرى على أرض مصر ويدور فيها من انتهاك للدستور والحريات والقانون والأفراد والأعراض » • وبدا الصراخ يدوى فى المحكمة ، « اغلقوا الميكروفون » . وساد الارتباك وأخذ الحراس فى جذب سعد ورفع الميكروفون من أمامه . والمحكمة تزعق ، « الجلسة منتهية منذ الثانية عشر » • الا ان سـعد استمر مندفعا يغلى بالحماس ، ينتفض من رأسـه الى اخمص قـدمه ، « لا تتدخلوا فى شئون الغير ، وعلى نقابة المحامين أن تراعى مشاكلها هى ، لا مشاكل الآخرين • ما لكم انتم ان كان شعب العراق قد اختـار الشيوعية طريقا ! » • كان موقف سعد فى هذا اليوم موقفا تاريخيـا رائعا • كان يوما من الايام التى لا تنسى . فالرفاق فى أيدى السلطة ، وفى ظل هذا الجو الارهابى البشع المصنوع ، ومع ذلك يقفون هذا الموقف فى المواجهة يهاجمون •

وكان الدكتور محمد عصفور واحـدا من المع المحامين فى هـذه القضية • كان موكلا عن حسنى بخيت . تناول قانون ٩٨ ، وانتهى الى أن ما جاء فى هذا القانون ، « من تغليب طبقة على طبقة » ، أمر لا يمكن تطبيقه . وجه كلامه الى هيئة هيئة المحكمة قائلا ، « لقد قمتم بثورة وغلبتم طبقة على طبقة • كان هنالك الاقطاع ، وانتم صفيتم هذه الطبقة ؛ كما أن رئيس الجمهورية كثيرا ما يتحدث عن العمال ودورهم . انه طبقا لهذا القانون ، يجب تقديمه امامكم للمحاكمة . هل هذا أمر ممكن ؟ بالطبع كلا ، اذن لابد من صدور قانون جديد . قانون ينص صراحة على ادانة معتنقى الشيوعية أو الداعين لها » •

فى تلك الاثناء كان يمسك بالدستور فى يده ، متوجها نحـو هيئـة المحكمة ، يستخرج صفحاته ويقول ، « هذه المـادة تقول كذا وكذا ، وتلك المـادة تقول كذا وكذا . تحالف الشعب العامل • عدم سيطرة رأس المال على الحكم • ان محاكمة هؤلاء الرجال ، تحتاج الى قانون جديد • ان تطبيق القوانين الحالية عليهم ، تلزمكم بالافراج الفورى عنهم •

اما عن حسنى بخيت ، فانا لن اتكلم عنه كثيرا ، فقد عبر لكم عن مشاعره الحقيقية • هو لم يضرب ، لكنه هدد فى عرضه • قبضوا على

زوجته وهددوه بالاعتداء عليها . وهو لا يملك فى الدنيا سواها ، فعجز عن المقاومة . لكنه أمامكم ، اوضح حقيقة موقفه ومشاعره ؛ ولماذا قال ما قال . أنا لا اطلب له الرأفة . فأنا لا أدافع عمن شهد ضد زملائه . اننى ادافع عمن تعرض لضغط نفسى لم يستطع مقاومته . فعلى هذه الزاوية اقمت دفاعى » .

بعد المرافعة اجتاز القاعة الى قفص الاتهام . جاء الى حلمى ياسين ، الذى لم يكن يعرفه أو تحدث اليه من قبل وقال ، « لقد دافعت عنك فى مرافعتى . انت هنا بلا محام ، ومع ذلك اعترفت بعضويتك فى الحزب الشيوعى ودافعت عنها . انت تفهم لما قلت انا ما قلته . اننى فى الحقيقة ، كنت اترافع عنك انت ، وادافع عنك انت » .

ثم كان الدفاع المشهود للاستاذ احمد البدينى المحامى . كان هو الذى اثار قضية مقتل الشهيد محمد محمود عثمان بالاتفاق مع الرفيق عبد المنعم شتلة . كان عندما يتكلم عن أى من الرفاق يقول ، « صديقى الأستاذ عبد المنعم شتلة » و « استاذى الأستاذ يوسف درويش » . مما حدا بعبد الله هلال ان يسأله : « استاذ احمد ، انت دائم القول ، استاذى يوسف درويش ، ففيما كان يوسف درويش استاذك ؟ فى الشيوعية ؟ » فاجابه البدينى ، « استاذى فى المحاماة ، فقد عملت فى مكتبه . واستاذى فى الوطنية ، فهو مدرسة فيها تتلمذت على يديه وأنا فخور بذلك » . فقال عبد الله هلال ساخرا ، « يا رجل ، لقد اعتقدت انه استاذك فى الشيوعية » . وكان هذا التهديد الواضح يعنى ان أحمد البدينى المحامى الشجاع ، قد وضع فى قائمة الذين يلزم معاقبتهم والتنكيل بهم . ومما جعل هذا الأمر فى حكم اليقين ، ما قاله هو عندما ارسل السوفيت أول صاروخ ينزل فوق سطح القمر اثناء هذه المحاكمة ، اذ وقف البدينى يقول ، « لقد وصل الشيوعيون الى القمر . انهم يضعون هناك اليوم صاروخا يمكنهم أن يتحدثوا معه . ان هذا الامر يقتضى منا ان نفكر بعض الشىء . انهم يملكون من النظريات والعلماء ما مكنهم من الوصول الى القمر . ان هذا الانتصار العظيم يعنى أشياء كثيرة . اشياء يلزم ان نتعلمها وأن نستفيد منها . ان الأمور ليست على هذا النحو من التبسيط . وهؤلاء الرجال الذين يقفون امامنا ليسوا أى رجال . انهم ليسوا بالطائشين أو المجانين كما يحلو للبعض تصويرهم » . ثم تحدث فى موضوع الوطنية ، وما قدمه عبد المنعم شتلة من تضحيات فى بورسعيد . كان مدخله قويا وكانت مرافعته أكثر من رائعة . الا انه اقتيد بعد المحاكمة الى معتقل القلعة حيث أجبروه على مسح بلاطها . ثم نقل الى معتقل المحاريق ، ليوضع فى المنفى وراء القبضبان ، مع من سبق ودافع عنهم .

وكان هنالك محام شاب متميز للغاية ، هو الاستاذ عبد العزيز شرف • كان شجاعا فيا طرحه من نقاش فى مواجهة المحكمة . فيما هو خطأ وفيما هو صواب • تساءل ، « عن هذه الضجة حول انتقاد رئيس الجمهورية ، وماذا ان قال المتهمون بأن الديمقراطية منعدمة ، او أن الوحدة العربية تتم على أساس غير ديمقراطى • أى جريمة فى هذا ، نحن شعب تعداده خمس وعشرين نسمة ، هل يمكن لنا جميعا أن نكون قالبا واحدا ؟ هل نحن من العسكريين ؟ » • كان دفاعا سياسيا ، أهميته الكبرى ومغزاه ، أنه جاء على لسان احد المحامين .

وانتهت المحاكمة . لم تنشر الصحف المصرية عنها شيئا على الاطلاق • الا ان الصحافة العربية والعالمية ، شنت حملة ضخمة حولها • ونشرت بعض الدفاعات السياسية فى الصحف العربية والعالمية • وتحدثت الاذاعات وخاصة العراقية عن القضية ، وطالبت بوقف المحاكمة والافراج عن الرفاق .

لقد انتهت المحاكمة فى الثالث أو الرابع من نوفمبر عام ١٩٥٩ . يوم اربعاء أو خميس • وصدرت جريدة « أخبار اليوم » فى يوم السبت وعلى صدرها عنوان كبير . « النيابة تضبط وثيقة خطيرة » . وتحت العنوان جاءت التفاصيل تزعم أن النيابة العامة قد ضبطت وثيقة خطيرة للغاية • وثيقة تدور حول اسرائيل والصلح معها • وقد قامت بتقديمها فى قضيه الحزب الشيوعى المصرى المتهم فيها فؤاد مرسى حداد وآخرين • ولم تشر الجريدة الى أى شىء يمس القضية الا اسماء بعض المتهمين . لا كلمه عن مواقفهم أو دفاعاتهم أو ما جرى داخل المحكمة ردا على وثيقة الزور تلك تكذيبا وتفنيدا ، مما أدى الى استبعاد النائب العام ، على نور الدين • لا شىء على الاطلاق ، وكأن الواقعة جديدة ، فى حين أن ما حدث ، كان قد حدث منذ قرابة شهر على وجه التقريب .

التقييم المحاكمة :

يقول الدكتور فؤاد مرسى فى تقييم المحكمة والقضية ، « فى اعتقادى ان المحكمة كانت اقرب الينا منها الى عبد الناصر . كانت واسعة الصدر • استمعت لنا طوال شهور ، شهرين أو ثلاثة ، أخذنا فيها راحتنا وقلنا فيها كل ما نريد • وانا اسجل هنا للمحكمة موقفين ، ردت فيهما على المباحث العامة ، على حسن المصيلحى بالذات وعلى النيابة العامة ممثلة فى شخص على نور الدين • نقطتان هامتان : النقطة الأولى انها قالت أن وطنية المتهمين ليست محل شك على الاطلاق ، انما تحاكمهم على موضوع محدد هو تشكيلهم لتنظيم سياسى معين لا يسمح به القانون . النقطة

الثانية ، كانت هي قطع المحكمة بأن مصادر تمويل الحزب ليست مصادر محل شك على الاطلاق وانها فوق الشبهات ، ولا شبهة فيها على الاطلاق .

أما عن القضية فقد كانت ممتازة ، صفحة غاية فى الشرف للشيوعيين المصريين طول تاريخهم ، لمن اعترف بالعضوية ومن لم يعترف ولمن دافع سياسيا . بكل المواقف التى دارت خلال المحكمة ، بممارستنا اسلوب الوحدة والصراع مع المحكمة ، بفضحنا للجوانب الكاذبة والمزيفة والمعادية للديمقراطية ، بتاييدنا للجوانب الوطنية . وقد حلت مناسبات صراع بين امريكا والنظام المصرى واخذ فيها النظام مواقف وطنية مشرفة ، فوقفنا الى جانبها وأشدنا بها . كانت القضية مهرجانا سياسيا رائعا ادنا فيه قادة النظام فى الجوانب السلبية ، وادناه ، ادانة شديدة .

لقد اعتلى الشيوعيون منبر محكمة أمن الدولة العليا مدة ثلاثة شهور ، طرحوا فيها كافة قضايا البلد واظهروا افتئات النظام على الشيوعيين المصريين . كانت مهرجانا ، المحامون الذين حضروا ، الاهالى الذين حضروا ، رجال البوليس الذين حضروا ، رجال الجيش الذين حضروا ، كل هذا فى نهاية المحاكمة يكاد يقول ما الخطأ فى الشيوعيين المصريين ؟ ما الخطأ ولماذا يحاكموا ؟ كان الشيوعيون ندا للحكومة مدة ثلاثة شهور ، ظهرت فيها الحكومة مخطئة لأى انسان عاقل .

كانت الجلسة الاخيرة عبارة عن حفل سياسى فيه طرفين بعد مباراة سياسية رفيعة المستوى بينهما ، الاثنان يسلمان على بعضهما البعض ويقولان كنا سعداء بالمباراة السياسية ، نحن وهم . فى آخر جلسة وقف منا من حيا المحكمة على سعة صدرها وحكمتها ووطنيتها ، وعبرنا عن موقفنا من النظام من جديد موقف الوحدة والصراع . التاييد والنقد . ثم قلنا لهم : لا يهمنا الحكم الذى سيصدر ، لأن صدوره نابع من اعتبارات سياسية أخرى غير المحاكمة . ان ما يهمنا اننا خلال مدة ثلاثة شهور تحدثنا فى مسائل بلدنا معكم ، وانتم جزء من السلطة . وردوا علينا بكلمة طيبة وانتهت المحاكمة » .

يقول سعد رحمى ، « لقد قال سعد عصفور المحامى فى مرافعته ، أن كانت المحكمة مطبوخة سلفا فما الداعى للمحاكمة . كما كنا نقول نحن من داخل القفص عند الاحتجاج على بعض تصرفات المحكمة ، اخرجوا الاحكام من جيوبكم .

اما تقييمى للقضية ، فان وقوف الزملاء والاعتراف بالعضوية والدفاعات السياسية المختلفة ، فى زمن تلك الحملة البشعة ، كان يشكل قمة التحدى للتصفية وتأكيد وجود الحزب » .

ويقول حلمى ياسين ، « ان الاهمية الكبرى لهذه القضية ، هى انها أول قضية يقف فيها الشيوعيون امام المحكمة ويعلنون عضـويتهم فى حزبهم ويدافعون عنها . كان الموقف العام قبل ذلك هو الدفاع السياسى دون الاعتراف بالعضوية . اعتراف المتهمين بانهم شيوعيون أو ماركسيون دون الاعتراف بالعضوية • الا ان الموقف هنا ، كان الاعتراف الصريح بالعضوية فى مواجهة المحكمة ، ولعدد كبير من المتهمين •

لم نكن نلتمس العفو أو الرحمة • ولكنا كنا كما قالت النيابة ، ندافع عن عضوية الحزب فى زهو وفخار واعتزاز ، دون مبالاة بالنتائج القانونية • كانت المعركة بالنسبة لنا ، هى الدفاع عن حق الحزب فى الوجود التنظيمى المستقل ، وكان الاعتراف بالعضوية امام المحكمة ـ بناء على ذلك ـ ضرورة سياسية وتاريخية •

الا ان هنالك سلبيات كشفت عنها المحاكمة • ويمكن تجميع هـذه السلبيات تحت عنوان واحد هو أن الحزب لم يكن موحدا سياسيا . كان من الممكن أن تكون القضية أقوى من ذلك بكثير ، لو وقف أعضاء اللجنـة المركزية جميعا موقفا واحدا واعترفوا بالعضوية . لقد ذهب كثير من الجهد فى الجدل والمناقشات وفى الضغوط على الرفـاق حتى لا يعترفوا بالعضوية ولو كان هذا الجهد قد وجه الى مزيد من الاعداد للقضية والدفاعات السياسية لكانت افضل من ذلك بكثير وأقوى •

ولو كان الدكتور فؤاد مرسى أول المتهمين والذى كانت تنظر اليـه المحمة باعتباره سكرتير الحزب قد استهل المحاكمة بدفاعه السـياسى الجيد مع الاعتراف بالعضوية ، لكان لهذا الموقف وقع آخر ، هام جـدا وخطير جدا ، على سير المحاكمة وموقف بعض المتهمين •

ان عدم دفاع المتهمين الأول الثلاث فؤاد مرسى ، اسماعيل صبرى وسعد زهران عن العضوية قد ترك اثرا سيئا على الرفاق ومدخل القضية • ساعة ان وقفت بعد هؤلاء الزملاء باعتبارى المتهم الرابع ، كان قفص الاتهام فى حالة من الاحباط الشديد ، مما جعلنى متوترا للغاية . كنت اخشى أن يكون خبر اعترافى بالعضوية قد تسرب الى المحكمة ، فامنع بشكل أو آخر من اعلان هذا الموقف . كنت اجلس فى القفص طوال دفاعات الرفاق الثلاث صامتا مهموما أمام الحمل الملقى على عاتقى ، والذى اخشى الا امكن من القيام به • وعندما وقفت وراوغت رئيس المحكمة حتى انتهيت دفاعى السياسى ، ثم أخيرا اعترافى بالعضوية ، احسست فجأة كأن نورا

ساطعا يغمر قاعة المحكمة كلها . وتحول الاحباط الى انفعال عاطفى عارم اجتاح كل الرفاق باستثناء ثلاثة أو اربعة منهم .

ان كان الدكتور فؤاد مرسى هو البادىء بهذا الموقف ، بالاضافة الى دفاعه السياسى وقدراته فى التعبير والالقاء كاستاذ جامعى ، والهالة المحيطة به باعتبار انه السكرتير العام للحزب « رغم انه لم يكن كذلك » لكان الدفع والاثر اقوى بكثير ولصالح القضية من الناحية السياسية .

لقد كانت هذه المسألة نقطة ضعف شديدة ، اذ اصبح واضحا امام الجميع ، أن هنالك خلافا داخل الحزب ، وأن هذا الخلاف قد اصبح الآن معلنا خارجه ، مجموعة تعترف بالعضوية وتتحدى ، ومجموعة تتفادى هذا الموقف . بدا بوضوح أن هنالك اتجاهين داخل الحزب ، وأن هنالك انقساما داخل الحزب ، وأن الموقف فى القضية قد كرس هذا الانقسام واعلنه .

بعد المحاكمة رحلنا الى اوردى ليمان ابو زعبل . كان ذلك فى ٧ نوفمبر ١٩٥٩ . كنا الدفعة الأولى التى افتتحته . ولا يمكن الفصل بحال من الأحوال بين موقفنا اثناء المحاكمة وما جرى علينا هنالك فى تنكيل وتعذيب . اننا بدلا من محاكمة حزبنا كما كانوا يرغبون حاكمنا الحزب الحاكم ، ووضعنا النظام فى قفص الاتهام . ومن هنا كان ابو زعبل محاولة اجرامية لتأديب تلك الزمرة من المعاندين ومحاولة تذكيرهم بحقيقة من يواجهون » .

ويقول الدكتور فؤاد مرسى ، « ابو زعبل كان نتيجة مباشرة للانتصار السياسى الذى حققه الحزب فى المحاكمة . بالطبع هنا الجو العام الذى كان ، جو الصراع السياسى بين مصر والعراق . لكن لماذا تقرر تعذيبنا وتعذيب الشيوعيين المصريين حتى يندموا ويستنكروا شيوعيتهم ؟ كانت هى المحاكمة التى تمت فى الاسكندرية طوال ثلاثة شهور » .

ويكمل حلمى ياسين ، « صدرت الاحكام . وكما كنا نحن بداية أبو زعبل ، كنا نهايته . فوجئنا فى احد الأيام ، بعد ترحيل كل المعتقلين الى الواحات ، باستدعاء الدكتور فؤاد مرسى الى الادارة . لم نكن نعرف سبب الاستدعاء . وعندما عاد قال ، « لقد حكم على بعشر سنوات » . وأخذ الرفاق يهتفون ، « عاش الحزب الشيوعى المصرى » .

استدعونا جميعا طبقا لترتيب قرار الاتهام • كان نائب الأحكام هو الذى يتلو الحكم على كلّ منا فى حجرة قائد الاوردى خارج السجن • كان الواحد منا عند استدعائه ، يدخل الحجرة فيجد نائب الأحكـــام الذى يتلو اسمك والحكم الصادر ضدك • كل ذلك لا يستغرق اكثر من ثانية واحدة • بعد ســماع الحكم ، كان كل منـا يهتف « عاش الحزب الشـيوعى المصرى » .

ويقول سعد رحمى ، « بعد أن ذهبنا الى أبو زعبل ، ثم انتهى أبو زعبل ونحن فيه ، صدرت الأحكـام . كان يعلنهـا جاد الحق نائب الأحكام • يقول صيغة الحكم والمدة المحكوم بها على اى منا • بالنسبة لى نال عشر سنوات اشغال شاقة وغرامة قـدرها ألف جنيـه ومصـــادرة المضبوطات . بعد ان انهى التلاوة نظرت اليه من أعلى اسفل ثم قلت ، ولو » ..

بعد الأحكام باسبوع أو عشرة ايام رحل الجميع الى الواحات . واغلق اوردى ليمان ابو زعبل .

نهاية مرحلة و بداية أخرى

نهـاية مرحلة وبداية مرحـلة

انتهت المرحلة الأولى من سياسة التصفية ومخططها ·

انتهى معتقل قنا · ولم يقض على الرفاق السبعة الذين كانوا رمزا لشباب الحرب كله . لقد هزموا محاولة ترويضهم ثم افسادهم · وغدا ..ولاء المناضلون اليافعون مصدر ذعر وقلق لادارة المعتقل ذاتها · فترسل .. الى منفى الواحات تخلصا منهم واعلانا عن فشل ما استهدفت ، ليشكلوا هم واشقاء لهم قبض عليهم فجر العام الجديد ، باكورة المعتقلين في معتقل المحـاريق ·

وينتهى السجن الحربى ، ذاك المجزر البشرى والسلخانة الجهنمية الى هزيمة ، تشهر عجز وفشل كل مسعى لافتعال قضية وهمية عن انقلاب عسكرى شيوعى ليس له اى وجود فعلى · والصامدون أمام السـوط والمخلب والناب ، يسـحقون باجسـادهم الممزقـة ، وارادتهم الصلبة الصلدة ، ارادة الثوار كل الصلف والعنجهية والبربرية التى يتحلى بهـا سادة السجن الحربى ، واقرانهم فى المخابرات العسكرية حينذاك .

وتنتهى محاكمة قادة الحزب وقياداته ، أمام المحكمة العسـكرية العليا ، الى محاكمة للنظام واعماله ومواقفه وسياسـاته . وتدوى فى جنبات قاعة المحكمة ، اعترافات رجالاته بشرف الانتماء الى الحـزب وعضويتهم به فى فخار وزهو واعتزاز . وتنقلب الآية ، ليصبح قفص الاتهام هو منبر الاتهام الى سادة النظام والحكام · وعندما تعلن المحاكمة افلاسـها السياسى ــ وهو واحد من اهم اركانها ــ وتتحول محاولة التشهير بالشيوعيين الى فضح لاخطاء النظام ، وعرض سجل حافل بنضال الحزب الشيوعى المصرى ، ترحل القضية ــ « تأديبا وتهذيبا » ــ الى معتقل اوردى أبو زعبل ، ليكون قادة الحزب وقياداته ، هم باكورة الداخلين من بوابته ، المحشورين فى زمرته ·

وينتهى معتقل الفيوم . يسحق فيه المناضلون الشيوعيون والوطنيون والديمقراطيون والنقابيون وانصار السلام ، من له انتماء ومن لم يكن له اى انتماء ، سياسة التعذيب النفسى الجماعى والتعذيب البدنى الفردى ، بوحـدة صفوفهم وارادتهم واصرارهم على بقاء كيـاناتهم الآدمية والسياسية . ينجح الثوار فى تمزيق معتقل العزب ، رمز هذه المرحلة من مخطط التصفية وبؤرتها وعين اعصارها · فيدحرون المرحلة فى عقر دارها . ويبعثرون كل الاوهام التى كانت تحلم بتفسيخ المعتقلين وتفريدهم وتحويلهم

الى مجرد ارقام لا نملك من أمر نفسها شيئا ، الا ان تقبع بلا ارادة تحت حذاء الارهاب ونعله الحديدى . انتهى معتقل العزب الى ارتداد سهم البطش الى نحر صاحبه لينحره . وليملك المعتقلون ارادتهم النضالية ، وتفقد الادارة ارادتها الدموية . ويصفى معتقل العزب ، ويحتشد كل من كانوا فيه الى منفى المحاريق أو اوردى ليمان أبو زعبل .

تنتهى المرحلة الأولى من خطة التصفية ، وقد اثبت ابناء الشعب الامناء على قضيته ، المدافعين بحق عن حقوقه ومصالحه ، انهم جديرون بانتسابهم اليه وارتباطهم به . ورغم كل ما عاناه هؤلاء المناضلين ، رغم آلامهم وعذاباتهم ، ظلوا ايضا عند موقفهم المسئول الذى تحكمه الخشية على مصير الوطن . موقف تنبيه النظام وتحذيره من مخاطر السياسة التى ينتهجها ومغبة الدرب الذى يسلكه : مخاطر سياسة العداء للشيوعية والديمقراطية ، ومغبة درب تفتيته القوى الوطنية وتمزيقها ، محليا وعربيا وعالميا . الا ان النظام غلب مصالحه الانانية الخاصة على الصالح الوطنى والقومى العام . وظل على موقفه ، لا يرى فى هؤلاء الذين سقطوا فى اسره وقبضته الا عدوا طبقيا تمكن منه ، ولابد له من سحقه . لم ير فى هؤلاء المناضلين مصريين يشكلون ركنا هاما فى الوطنية المصرية ، ووجدان هذا البلد وتاريخه . رأى فقط سلطته ومصالحه فى اضيق الحدود باقصر قدرات البصيرة وملكاتها . فجرع هزيمة المرحلة الأولى ، ليبدأ المرحلة الثانية على مستو من الشراسة الهمجية اشد وانكى ، وبصورة لم يسبق لها ان حدثت فى مصر أيام احلك عصورها زمن الاستعمار .

بدأت مرحلة أوردى ليمان أبو زعبل ومنفى المحاريق فى الواحات الخارجة .

بدأت المرحلة الثانية من التصفية . مرحلة التعذيب النفسى الجماعى الى أقصى الحدود ، والتعذيب البدنى الجماعى الى أقصى الحدود . مرحلة القتل البطىء والقتل السريع . القتل الفردى والقتل بالجملة . التصفية الجسدية والابادة . مرحلة حياتك أو عقيدتك . مرحلة لا ترى للمعتقل حقا فى أن يحتفظ بحياته وعقيدته معا . انها ترى ذلك كثيرا عليه ، وعبثا يجب ان تريحه من واحدة منهما . لقد غدا شعار المرحلة الثانية ، لا عقيدة لمن اراد الحياة ولا حياة لمن تمسك بعقيدة .

واسترخى الكابوس على صدر مصر ، وارتفعت قبضات الاجهزة الامنية وغدت سطوتها هى العليا ، وما كان المقصود بكل ما يجرى لرجال المحاريق وابو زعبل ، ان يكون الامر خاصا بهم فى ذاتهم فقط ، لكن

المقصود ايضا كان هو الشعب المصرى باكمله ، ان تغلق الافواه وتتلاشى الارادات ويسود الوصاه ٠

بدأت الهجمة الدموية الثانية ، ومعها بدأت المواجهة النضالية ، والاعداد للهجمة المضادة الثانية ٠ وتساقط الشهداء رافعين الرايات ، وتلوثت صفحات ٠ واسود صبح النهار ، وتلطخ وجه التاريخ بالخزى والعار ٠ القتلة مصريون ٠ والقتلى مصريون ، والثكلى والارامل والايتام مصريات ومصريون ٠ باسم الوطنية ذبح الوطنيون ، باسم الاشتراكية ذبح الاشتراكيون ، والاعداء بباب الدار يتربصون ٠ ومصر تتعذب من ابناء لها حكموا باسمها ، لينكلوا باشرف من حبلت واخلص من انجبت ٠ وخلف القضبان والاسلاك الشائكة ترتفع اعلام محمد محمود عثمان ومصطفى شوقى البهنساوى حمراء خضبتها دماء الشهادة ، وتحتها سار المناضلون الشرفاء المخلصون يقسمون يمين الوفاء للحياة والمعتقد ، فلا حياة بلا معتقد ، ولا معتقد بلا احياء ٠

الباب الثالث

رجال ونساء
في
سجن القناطر

(أ) سـجن القناطر ـ رجال

اكـرام محـارب

انور نعمـان

جمـال الشرقاوى

صـابر زايـد

عبد المحسن شاشه

فـاروق ثابت

فـريد رمزى

فـوزى حبشى

فـؤاد مصطفى

نجاتى عبد المجيد

نسيم يوسف

مبارك عبده فضل

محمد يوسف الجندى

الفصل الأول

البـــداية

القناطر الخيرية بناء شامخ ، أمر والى مصر محمد على الكبير باقامته على مجرى النيل قبل ان ينشطر الى فرعين : فرع دمياط الى الشرق وفرع رشيد الى الغرب .

القناطر الخيرية نسمع بها منذ صبانا ؛ كمنطقة حدائق غناء فيحاء ، واسعة ، شاسعة ، كانت ، الى عهد قريب ، وقبل أن تغدو استراحة لرؤساء الجمهورية ، رئة حانية لشعب القاهرة وما حولها ، يلجأ الناس اليها ، شيبا وشبابا ، اسرا كاملة فى الاعياد والمناسبات ، فتمنح العامة راحة العصب ، ومتعة العين بالخضرة والازاهير ، فينطلق الجميع فى فرح صاخب ، تزاحم فيه صوصات الصبية والأطفال شقشقة العصافير ، وغناء الطيور الشادية .

فى هذا المكان الذى أقيم للخير والمتعة ، بنى سبجنان ، سجن للرجال اطلق عليه اسم « اصلاحية الرجال » ، وسجن للنساء ، يقع فى مواجهة السجن الأول . ذلك السجن الأول الذى كنت به نزيلا ، فترة من الزمان (١) .

ففى ٢٩ مايو ١٩٥٤ ، القى الصاغ حسن المصيلحى واليوزباشى محمود مراد ، من المباحث العامة ، القبض على ، فى مدينة طنطا ، بتهمة الشيوعية . كنت وقتها اعمل مدرسا للطبيعة فى أحد المدارس هناك . وحملت فى أحد السيارات ، التى تحرسها سيارة أخرى ، الى القاهرة — وفى مبنى المباحث العامة ، وجدت المناضل محمد محمود عثمان ، والنقابى المناضل صلاح هلال . ومن المباحث العامة ، بعد التحقيقات الاولية معنا نحن الثلاثة ، نقلنا الى تخشيبة قسم الخليفة ، ومنها الى سجن مصر ، سجن قرة ميدان .

كانت الرهبة تتملكنى وانا اخطو عتبة السجن ، اشم آخر انفاس الحرية ، تتقيد أيامى بقيد القضبان ، الى زمان ، لا ادرى او يدرى أحد ، متى تكون نهايته . ما ان دخلت عنبر « ج » ، حيث كان المسجونون الشيوعيون ، حتى انقشعت الرهبة . كان خبر وصولنا قد بلغ الرفاق فى

---

(١) فخرى لبيب .

العنبر ، فأعدو لنا ستقبالا حافلا ، بالاحضان والهتاف والاناشيد . وأطاح دفء المناضلين وحماسهم بكل شعور العجز والغربة . وفوجئت بالعنبر يزدان بصور ضخمة للينين وماوتسى تونج ، واعلام ورايات وزينات وبالونات ر.-ية متعددة الالوان . وخيل الى أنى قد انتقلت الى عالم غير العالم الذى كنت فيه . ففى هذا العنبر من السجن ، اقام الشيوعيون مقاطعة لهم ، خلف القضبان . ووجدت الرهبة ، التى اقشعرت ، يحل محلها التساؤل والفضول عما أرى . كان هنالك من زملائى الذين سبقونى الى السجن ، عبد الله كامل ، منصور زكى ، درويش مصطفى وعمر مكاوى . وعرفت منهم أن اليوم هو الأول من يونيو – عيد الطفولة ، وأن الرفاق به يحتفلون .

جاء المساء ، واغلقت الزنازين . تلك أول ليلة اقضيها فى زنزانة . اول ليلة يغلق فيها باب « مخدعى » من الخارج . كنت وحيدا افكر فى اسياء كثيرة ، تتلاحق أمامى كشريط متصل ، متقطع ، مترابط ، متناثر انا حتى اللحظة ، لم الملم شتات أفكارى . كيف امسك بى ؟ هل فى الامر خيانة ؟ كيف يستمر العمل التنظيمى بالخارج ؟ كيف اخبر اسرتى بالنبأ ؟ ماذا سوف يحل بعملى ووظيفتى ؟ ماذا لدى المباحث العامة من ادلة ؟ ما الاحتمالات ؟ ما الوضع هنا ، وكيف الحياة فى الاسر ؟ افقت على دقات على حائط الزنزانة . ناديت على الرفاق فى الزنزانة امامى . تساءلت من أين تأتى تلك الدقات ؟ وماذا على أن افعل ؟ قالوا ، هذه الدقات « يا كركى » (أى حديث العهد بالسجن) تأتيك من سجن النساء والحائط الذى الى يمينك هو الحائط الفاصل بينك وبينهن انه عنبر « د » . اصعد الى طاقة الزنزانة تعرف ماذا يردن .. وتلاشت كل خواطرى وهواجسى ، وتركزت فى شيء واحد ، هو ذلك الامر العجيب ، سجن للنساء ، فى قلب هذا السجن العادى الملىء برجال ، انقطعت اسباب الحياة بينهم وبين الخارج . وجاءنى الصوت رقيقا ناعما . لا ادرى ان كان حقا كذلك ، ام تلك تهويمات الحبس وأوهامه . قالت : اريد اسبرينه ، عدت انادى الرفاق ، أخبرهم بما تريد ، وهو شيء ليس فى حوزتى . ضحكوا قالوا ، ليس ما تريد مسكنات أو مهدئات ، انها تريد مكيفات ، تريد سيجارة . قلت ، وكيف ارسلها لها وبيننا جدار ؟ قالوا : مد يدك فى قضبان الطاقة ، تلقى عليها « بالتليفون » ، قلت وماذا يكون هذا التليفون ؟ قالوا كيس قماش ، مربوط فى نهاية خيط . مد يدك فقط ، وهى تدرى كيف تلقى به على ذراعك . وقد كان .

كان عنبر « د » هذا هو سجن النساء . الدور الأرضى فيه لمن هن تحت التحقيق والمرضعات ، والدور الثانى ، الذى كان يقابل الدور الذى

اقيم فيه ، هو دور سجينات الآداب ، والدور الثالث للجرائم الخفيفة ؛ كالسرقة والنشل والاعتداء ، وما شابه • أما الدور الرابع ، والاخير ، فقد كان دور المعلمات ، القتلة وتاجرات المخدرات ، وكان فى ذلك السجن ، فى ذلك الحين ، عدد من الآنسات المتهمات بالشيوعية تحت التحقيق . وكذا السيدة تحية كاريوكا فى قضية سياسية •

وفى اكتوبر ١٩٥٤ ، حاول الاخوان المسلمون ، اغتيال عبد الناصر • وكان رد الفعل هجمة ثأرية منه عليهم • وانطلقت أجهزه الامن تجمع ، وتقمع ، وتملأ مختلف السجون • وافرغ سجن قرة ميدان منا ، نحن الشيوعيين . وبدأ ترحيلنا الى سجن ــ الرجال قناطر • كان الوضع الذى يعيشه الرفاق فى سجن مصر قد تحقق نتيجه نضالات متصلة ، من امتناع الى اضراب عن الطعام ، الى حملات للعائلات والاسر . ان هذا الوضع ، الذى بهرنى ، ساعة خطوت الى عنبر « ج » ، لم يكن دلالة على حسن نية الادارة أو أجهزة الأمن . لكنه كان نتاج تضحيات جسيمة دفعهــا الرفاق من اعمارهم وابدانهم ، حتى يصلوا الى ما وصلوا اليه • وكان الانتقال الى سجن القناطر يطرح ، من جملة ما يطرح ، احتمال اساسى وجوهرى : هو العودة الى الصفر والبداية من جديد • أى وضعنا فى ظروف سيئة مليئة بالقيود والحدود ، وعلينا ان نبدأ صراعا جديدا ، من أجــل توفير « ظروف سجنية ، مناسبة للآدميين » . وفى اعتقادى أن هؤلاء الذين كانوا فى سجن مصر ، تحت التحقيق ، ونقلوا الى سجن القناطر ــ رجال ، كانوا أول دفعة سياسية ، على الاطلاق ، تلج باب هذا السجن . ومعنى ذلك ، اننا سوف نلتقى بادارة لا خبرة لهــا فى التعــامل مع السياسيين أو اننا سنوضع فى سجن به اوضاع لا دراية لنا بها . وهكذا دخل اسم سجن القناطر « اصلاحية الرجال » قائمة السجون التى كان عليها استضافتنا •

قضينا جل اليوم فى اجـراءات التفتيش والتسـكين فى الزنازين . لكننا ، على اى حال ، نجحنا فى دخول السجن ، ومعنا احمالا من أوراق وتقارير ، هى مؤونتنا ، وعدتنا الفكرية • وجاء المـأمور وحـوله مجموعة من ضباط السجن وصف ضباطه . كان يقوم بجولة ، ودار معــه نقــاش حول بعض الاوضـاع ، واحتد النقاش ، وفجاة هتف أحد الرفاق الشبان « تسقط الادارة المجرمة » • واعلن المـأمور الا مكان للنقاش ، واننا سوف نرى ، بحق ، ما هى الادارة المجرمة • وعندما اغلقت الزنازين ، فى تمام المساء ، عوت كلاب متوحشة ، تبدو أصواتها هادرة بشبق نهم يشتاق الى للحم البشرى • وساد العنبر صمت رهيب . وسمع صوت المفتاح فى باب

زنزانة ، ثم ارتفعت أصوات الصراع ، والعواء ، والصراخ ، واختلطت . كان من الواضح أن قائد السجن قد دفع بكلابه الوحشية فى الزنزانة ، حيث انقضت على الرفاق العزل ، من كل سلاح وأى سلاح . وانفجر السجن كله بدقات عاصفة تزلزل الأبواب وهتافات تدوى بين الجدران . كان ذلك يعنى أن هدنة سجن قرة مبدان قد انتهت ، وأن الحرب قد اعلنت مرة أخرى .

فى الصباح لم تفتح أبواب الزنازين ، أصبحت تغلق ما يقرب من ثلاثة وعشرين ساعة فى اليوم . لا طوابير شمس ، لا جرائد ، لا مجلات ولا اذاعة . لا زيارات ، لا امانات ، لا تعامل مع الكانتين ولا علاج . الزنازين تفتح واحدة بعد الأخرى ، من أجل الذهاب الى دورة المياه . لا تفتح واحدة ، الا وقد اغلقت السابقة . التفتيش يومى ، عند تمام الصباح ، وتمام المساء . السحب للتأديب والحبس الانفرادى ، الجلد والاعتداء . كان من الواضح أن تلك خطة كانت معدة ، وأن قائد السجن . وصولا لها ، عمد الى الاستفزاز ، حتى يبرر مسلكه ومسئوليته . بدأت التكديرة ، وعدنا الى ما دون الصفر من جديد .

سكان هذا السجن ، الذى يحمل زورا اسم « اصلاحية الرجال » ، خليط غريب من البشر . يحمل البعض منهم ، فوق اكتافه ، أحكاما تصل الى المائة عام . هم فاقدوا أمل فى يوم قريب يجتازون فيه عتبات هذا السجن الى العالم خارجه . أى مشاعر تنتابهم ، وأى حياة يحيون ؟ أى نوع من الادارة توكل اليها مهمة ان تسوس مثل هؤلاء ؟ قيل أن المسجون المكلف بتنظيف حجرة قائد السجن قد سرق بعض نقوده . اقتيد السجين الى التأديب ، حيث علق على « العروسة » ، صلبا . وتبادل اثنان من السجانة جلده ، مع حرمانه من الماء والطعام . كانت التعليمات ان تستمر معه هذه « المحاولة الاصلاحية » حتى يقر بموضع ما سرق . الا انه فى اليوم الثالث مات . واقمنا نحن السجن ، ولم نقعده . اضربنا عن الطعام حتى جاءت النيابة . سجلنا محضرا بكل ما رأينا وسمعنا ، وقال تقرير الطبيب الشرعى ، بعد تشريح الجثة ، ان معدة الرجل كانت خالية ، وأنه قد اصيب بالعمى ، قبل أن يموت . وأن سلسلته الفقرية قد قصمت من الضرب والتعذيب . وجوزى قائد السجن بنقله الى سجن آخر مع ترقيته . من المجرم الحقيقى فى هذا السجن ؟ السجان أم المسجون ؟ القائد أم مصلحة السجون ؟ لقد نقلنا الى سجن ، الانسان فيه بلا ثمن . اصلاحه قتله ، وجزاء القاتل رتبة أعلى .

تحاملت علينا ادارة السجن . أكثر فأكثر ، لفضحنا بشاعة أسلوبها فى التعامل مع السجناء . فزاد التضييق وارتفع معدل الاحتكاك . وقررنا ان نرد على الادارة بمثل أسلوبها . فأى اعتداء يقع على أحد الرفاق لابد وأن يرد الرفيق هذا الاعتداء ، ويكون الرد موجها الى الضابط المصاحب للسجان المعتدى . وتعمدنا أن نلقى فى طرقة العنبر بورقة كتب فيها هذا القرار ، وبالفعل « عثر » سجان الدور على الورقة القرار . ونقلها على الفور الى ادارة السجن . ويبدو أن الادارة رأت ان تتيقن من صحة ما جاء فى هذه الورقة ، فظهر ضابط العنبر تحوطه عصبة السجانة ، وفتحت واحدة من الزنازين . وبدأ الاحتكاك ومحاولة الاعتداء على الرفيق محمود العطار . ولسوء حظ الضابط ، كان هذا السجين الشيوعى ، تحت التحقيق ، طالبا فى كلية الحقوق ، وواحدا من ابطال الملاكمة بالجامعة . وفى لحظات كان الضابط يتلقى اللكمات المتتالية أمام جنوده المصعوقين . وهكذا ، تحققت الادارة ، بالفعل ، من صحة ما جاء فى القرار ، واقتيد محمود العطار الى التأديب .

كانت اوضاع السجن أسوأ من أن تحتمل . فادارة السجن التى اعتادت « اصلاح الرجال » بقتلهم ، ما كان فى وسعها الا ان تكون اداره عاتية ، لا تراعى حرمة قانون أو لائحة ، تفرض قانونها الخاص ولائحتها الخاصة ، تستند الى المباحث العامة ، تدعمها فى موقفها منا ، نحن الشيوعيون . ولذا كان لابد من دخول معركة اضراب عن الطعام . وبدأ الاعداد لها ، داخليا ، فيما بيننا ، وخارجيا بين عائلاتنا والرأى العام المصرى والعربى والعالمى . كان معنا فى السجن رفاق سودانيون واردنيون وفلسطينيون من قطاع غزة ، وبذا كانت المعركة السجنية ذات صبغة « قومية » . وظل الاضراب ثلاثة اسابيع حتى استجيب لغالبية مطالبنا . وكانت تلك المطالب ، فى الأساس ، تطبيق لائحة السجون ، بدلا من لائحة ادارة السجن والمباحث العامة . فهؤلاء الذين يزعمون انهم يحمون القوانين القائمة ، ويضعون المخالفين لها فى السجون ، تأديبا وتهذيبا واصلاحا ، هم أشد الناس عداوة لهذه القوانين ، وخروجا عليها وخرقا لها ، بل وتمزيقها ايضا ، وهم يستثيرون فى السجناء ، كل نوازع القتال ، دفاعا عن بقايا وجودهم الانسانى .

فى هذا السجن ايضا ، وقد تحسنت الاحوال بعض الشىء ، بدأت معركة سياسية من أهم المعارك فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ، وكانت تلك المعركة ، هى معركة توحيد الشيوعيين فى حزب واحد . كان السجن يضم كثيرا من قيادات التنظيمات الشيوعية المختلفة . كانت هنالك الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى « حدتو » ، طليعة الشيوعيين المصريين

(ط ، ش ، م) ، النجم الأحمر ، نواة الحزب الشيوعى ، التيار الثورى (ت ، ث) ، منظمة الحزب الشيوعى المصرى (الراية) ، منظمة الديمقراطية الشعبية (د ، ش) وبقايا المنظمة الشيوعية المصرية (م ، ش ، م) . وقد قبلت الخمس منظمات الأولى دخول هذه المعركة ، فى حين رفضتها كل القوى الأخرى بحجج انقسامية مختلفة . وقد شارك الرفاق الفلسطينيون – وكان على راسهم ، حينذاك ، معين بسيسو وفخرى مكى – فى هذه المعركة ، فى اتجاه تأييد الوحدة ، ومساندتها . كانت هنالك لجنة مسئولة عن مفاوضات الوحدة ومناقشة وثائقها (الاستراتيجية – التكتيك – البرنامج واللائحة) . كانت كل تلك المناقشات الدائرة فى اللجنة ، تعرض على كل الرفاق داخل السجن وخارجه ، فى مجلة تعرض هذه القضايا وتطرحها على الجميع ، ثم كانت هنالك اجتماعات تجرى فيها مناقشات علنية ومفتوحة ، حول كافة نقاط الخلاف والاتفاق . واستمرت هذه المعركة قرابة عام ، وانتهت بتوحيد هذه المنظمات الخمس ، فى ٥ فبراير ١٩٥٥ فى « الحزب الشيوعى المصرى الموحد » . واعلن هذا الحزب ، عند تكوينه ، انه ليس حزب كل الشيوعية فى مصر ، لكنه خطوة هامة وتاريخية ، على طريق الوحدة الشاملة .

كان سجن القناطر – رجال ، هو سجن المقبوض عليهم ، من الشيوعيين ، تحت التحقيق . وبالتالى ، فقد كان من فيه ، فى حركة دائبة ، امام النيابة للتحقيق ، امام المحكمة للمحاكمة . ثم ترحيل المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، بعد التصديق على الأحكام ، الى منفى « جناح » بالواحات الخارجة . كانت هذه الحركة فى صالح المسجونين . فهم أمام النيابة يسجلون كل اعمال القمع والتضييق التى تتخذها ادارة السجن ضدهم ، ويطالبون بتدخل النيابة العامة باعتبارها الجهة المسئولة عنهم . كما ان مثولهم امام المحكمة ، كان يعطيهم الفرصة لفضح كل اساليب البطش والارهاب التى تلجأ اليها الادارة ، بتعليمات من المباحث العامة ، خروجا عن كل عرف وقانون ولائحة سجون . كما كان ترحيلهم من سجن الى سجن ، أو الى المنفى ، مظاهرة صاخبة يعلنون خلالها ، بالهتافات ، موقفهم دفاعا عن الشعب ، ولماذا هم فى أسر الدولة . كانت الحركة بين مختلف السجون ، ايضا ، انطلاقا من سجن القناطر ، بمثابة رسائل شفهية أو تحريرية الى كل الرفاق ، فى أى مكان هم فيه مقيدون ، بآخر الاخبار عن الداخل والخارج ، ايضا .

وهكذا نجح سكان القناطر – رجال ، من الشيوعيين ، فى فرض تراثهم النضالى داخل السجون من أجل تحقيق ظروف شبه آدمية ، فى مثل هذا المكان .

وجاءت حملة يناير ١٩٥٩ ، وما تلاها من حملات ، « ليعمر » السجن ، من جديد ، بالشيوعيين تحت التحقيق ، أو المقبوض عليهم ، على ذمة قضايا شيوعية .

* * *

فى عام ١٩٥٤ ، فى ذات الفترة الزمنية ، على وجه التقريب ، التى انتهى فيها عنبر « ج » فى سجن قرة ميدان من الشيوعيين ، نقلا ، الى سجن اصلاحية الرجال بالقناطر ، أخلى عنبر « د » من النساء ، جميعا ، نقلا ، الى سجن النساء بالقناطر . وانتقلت ، ايضا ، الى هناك ، الرفيقات اللائى كن تحت التحقيق ، ثم حكم على البعض منهن فغدون سجينات . لم يكن العدد كبيرا . كان محدودا ، حتى جاءت حملة يناير ، وما تلاها ، وخاصة حملة مارس . ليرتفع عدد المقبوض عليهن من النساء الشيوعيات للمحاكمة أو الاعتقال ، كما لم يحدث فى تاريخ مصر ، حتى ، فى ظل اشد عهودها اظلاما .

وبدأت مرحلة جديدة ، وافتتح سجل جديد للقناطر . سجل لا يروى الخير أو الزهور اليانعة والطيور الشادية ، لكنه سجل يوثق بشاعة الذى ارتكب بحق المصريين عامة ، والنساء منهن خاصة .

الفصل الثانى

الحملة واعداد القضايا

الحملة ، التى بدأت مع دقات العام الجديد ، ما زالت سادرة هادرة . القناصة الذين أوقعوا بالقيادات فى الأول من يناير . ووجهوا حملة ، استهدفت الجذور ، فى مارس . ما زالوا يحسبون أن الحزب الشيوعى المصرى لم يستسلم . كان ابناؤه ما زالوا يعملون ، ببسالة . دفاعا عن خنادقهم الاخيرة . كانت الظروف قد غدت أكثر مواتاة لاجهزة الأمن . الحملة استهدفت غرس الخوف عند عامة الناس ، واخبار التعذيب ، تروجها أجهزة الأمن ، نفسها ، كواحدة من أدواتها فى فرض الارهاب ، تحت شعار « اضرب المربوط ، بخاف السايب » . الا ان الخوف لم يكن هو الذى تسرب الى من بقى من أعضاء الحزب . كانت الامكانيات تزداد ضآلة ، وامكانات الحماية التى يمكن أن يوفرها الأصدقاء والمتعاطفون تزداد انكماشا . وبذا اصبح من السهل على اجهزة الأمن تحديد مواقع التواجد ، وحصارها . كانت الضربات التى تصيب الرفاق ، تصيب التنظيم الحزبى ، بالضرورة ، وتفرض اتصالات جديدة ، وتشكيلات جديدة . وكان الاتصال مع القيادة المركزية ، ينقطع أحيانا ، ثم يتصل ، ثم ينقطع ، وهكذا . وكانت أجهزة الأمن تترك ، فى بعض الاحيان ، أحد الرفاق الهاربين الذين تم اكتشاف مخبيئهم ، كخيط لها ، تتابع من خلاله خيوطا أخرى . وهكذا يقع رفاق آخرون فى عش العنكبوت .

القاهرة ضربت لجنتها القيادية ، اكثر من مرة ، وانقطع اتصالها باللجنة المركزية ، أكثر من مرة . لكنها كانت تتشكل ، من جديد . القيادة المركزية تقر التشكيل ، وتضيف اليه رفاقا آخرين من الرفاق القياديين النشطين والمعروفين ، تاريخيا . كما تبعث بتحليلها السياسى ، عن الاوضاع الجارية ، الى لجنة القاهرة . الرفيق نسيم يوسف ، والذى كان قد اختير عضوا احتياطيا باللجنة المركزية ، يقوم بتحديد موعد لقاء بينه وبين باقى رفاق لجنة القاهرة : سعد الطويل ، عبد الله الزغبى وأحمد الجبالى ، عند الهرم الثالث . هنالك ، عندما وصلوا ، لاحظوا وجود عدد كبير من العمال قادمين نحوهم ، وعندما اصبح العمال حولهم ، خرج من بينهم اثنان يحملان المسدسات ، آمرين الرفاق بالا يتحركوا . ثم

اقتيدوا الى عربات المباحث العامة التى كانت فى الانتظار ، ومنها الى مبنى المباحث العامة ، فسجن القلعة . كان ذلك فى ١٩٥٩/١١/٢١ · ومن القلعة الى أوردى أبو زعبل ، ومن هناك ؛ فيما بعد ، الى سجن القناطر ، على ذمة قضيـــة ·.

أجهزة الأمن عيون وآذان وقبضات ، مجند فى الجيش يهاجم الحكومه فيلقى القبض عليه . يتعرض لضغوط رهيبة ، وسؤال لابد أن يجيب عليه : هل تعرف شيوعيين ؟ ويحاول الضحية ، أن ينجو بجلده ، فتسعفه الذاكرة ببعض الاسماء ، المهندس فؤاد مصطفى ، محمود أحمد زيان ، عامل بشركة الطويل ومحمود عطيه الساعاتى · الجميع من الاسكندريه . لم يكن لهذا المجند ، ويدعى عبد العزيز ، أى علاقة حزبية · لقد تعرف على هؤلاء الرفاق اثناء انتخابات عام ١٩٥٧ .. وامام الضغط ، اعترف ، كذبا ؛ بأنه عضو فى خلية شيوعية ، وأن مسئولة هو فؤاد مصطفى ، وأنه قد كلفه بتوزيع منشور فى الجيش . ويقـــاد الرفاق الثلاثة ، فى ١٩٥٩/٤/٢٦ ، الى سجن الاجانب بالاسكندرية ، ثم الى سجن مصر بالقاهرة ، ثم الى سجن القناطر ، على ذمة قضية ·

رفيق عامل ، فى التاسعة عشر من عمره ، تتوجه الى منزله ، فى قليوب ، فى حى شعبى ، حملة مضربية · كان ذلك فى ١٩٥٩/٩/٩ . عند مداخل القاهرة ، يضعون على عينيه غطاء ، دافعين برأسه الى اسفل مقعد السيارة · اخذوه الى حيث لا يدرى ، اعتـدوا عليـه بالضرب . كانوا يبحثون عن جمال الشرقاوى ، الذى كان ما يزال هاربا · ربطوا يديه بقيد الى الحائط · هذا النوع من القيد يضيق كلما تحرك ، من هو فى القيد . احدث قطعا فى يديه ، وتمزق لحمه · تركوه هكذا طوال الليل تشويه لمبات كهربية قوية مبهرة مسلطة على وجهه وعينيه ، بلا طعام أو شراب أو نوم . الحجرة بها مرآة عاكسة ، توفر الرؤية لمن هم خارج الحجرة ، فيتابعون من بداخلها · لم يحصلوا منه على شىء ، فانهالوا عليه ضربا وركلا وهو موثق بالقيد الى الحائط · فكوه بعد أن أدموه ، ثم ارسلوا به الى النيابة .

كان الرفيق ، حديث خبرة · أحس بفارق فى معاملة النيابة ، عن المباحث العامة ، فانطلق يدافع عن الاشتراكية ، ويهاجم الرأسمالية وانعدام الديمقراطية ، ادرك وكيل النيابة ، انه قد أمن اليه ، فأخذ فى استدراجه · سأله ، ان كان يريد تغيير نظام الحكم ، فاجاب بالايجاب . سأله كيف ذلك ؟ فاعلن انه سيدعو الناس الى ارائه حتى يقتنعوا بها ، فيختـــارون

للبرلمان ممثلين يعبرون عن هذه الآراء ، ستحقق الأهداف . سأله ، وماذا لو لم تنجح هذه الوسيلة ؟ اجاب فى ثقة « بالعنف اذن ، اذا لزم الامر » . كان يعتقد أنه يبدى رأيا ، لا يحق لأحد ان يعاقبه عليه . احالته النيابة ، مسجونا تحت التحقيق ، الى سجن مصر ثم الى سجن القناطر ، على ذمة قضيــة .

فى سبتمبر ١٩٥٩ ، سقط جمال الشرقاوى ، فى كمين أعد له ، عند كوبرى باغوص . كان جمال ، قد اختفى اثر حملة مارس . استقر به المقام فى الزاوية الحمراء . كان عمله ، مركزا ، بين عمال شرقى القاهرة ، حيث كان النضال العمالى خصبا للغاية . العمال والرفاق معهم ، يبحثون عن اشكال للعمل السرى نصف العلنى . وتشكلت للمصانع لجان قيادية ، بدأ مندوبوها يناقشون فى اجتماعات خاصة ضرورة تنظيم اضراب عن العمل . اعلن جمال الشرقاوى ، فى أحد هذه الاجتماعات ، التى حضرها ، « ان العمال ليسوا وحدهم فى هذه المعركة . ان حزبهم الحزب الشيوعى المصرى ، والذى اتشرف بتمثيله فى هذا الاجتماع معكم » . لم يكن أحد من المجتمعين يعرف هويته السياسية قبل هذا الاعلان ، غير الرفيق الذى رافقه الى الاجتماع . سأله بعد الاجتماع ، كيف جرؤ على اعلان ما اعلن ؟ قال جمال ، « نحن نلتقى بعمال يعدون لاضراب و لايخافون ، فكيف نخاف نحن ! »(١) .

عند القبض عليه ، لم يجد الضابط ، الذى فتشه ، فى جيوبه غير نونة بها محاضرات وخمس مليمات . توجهوا مباشرة ، الى منزله الذى كان مختفيا فيه . عثروا هنــاك على بعض الأوراق الخطيــة وخمســـة جنيهات . ابدى ضابط الحملة دهشته . كيف يسير فى الشارع ، هاربا ، ومعه خمسة مليمات ، بينما فى منزله خمسة جنيهات ! . تساءل ان كانت الأخيرة للحزب فلم يمسسها ؟ استمر الضابط ، وهو من المباحث العامة . يسأل ، وكأنه يود ان يصل ، بنفسه ، الى شىء ما . لماذا تخالفون القانون وتعارضوه ؟ قال جمال : ان النظام هو الذى لا يود ان يســمع غيره . لقد أيدناه ، عن اقتناع ، لكنه مصر على استخدام اســاليب غير ديمقراطية .

قضى الليل فى قسم الخليفة . وفى الصباح ، اقتادوه ، الى مبنى المباحث العامة . تلقاه الضابط محمود مراد ، سأله ان كان شيوعيا . فأجاب :

---

(١) لقاء شخصى معه فى ١٩٨٧/٧/١٧ .

نعم انا شيوعى . لطمه على وجهه ، وهددوه بالويل بعد ان يعود من تحقيق النيابة • أخذه اليها : نفس ضابط المباحث الذى قبض عليه ومعه ضابط آخر للحراسة • كان وكيل النيابة حسن جمعه . ظل معه ضابط الحرس اثناء التحقيق . كان التحقيق سياسيا والرد بيانا برأى الحزب السياسى • قال له المحقق ، « انت متهم بانك عضو فى الحزب الشيوعى المصرى » • فرد عليه ، « انا لست متهما بذلك ، لأننى ، بالفعل ، ولى الشرف ، أن اكون عضوا بالحزب الشيوعى المصرى » .

ضابط الحرس خرج الى ضابط المباحث العامة ، يروى له ما سمع • بعد التحقيق ، قال له ضابط المباحث : « يبدو انك خطير ، هل تؤمن حقا بالشيوعية الى هذا الحد ! وماذا لو اقنعتك بغيرها ؟ هل تقبل بهذا الاقتناع ؟ » . قال له جمال ، « بالطبع ، ان اقنعتنى • وأنت ، هل تقبل الاقتناع بما أؤمن به أنا ، ان اقنعتك ؟ » •

قال الضابط ، « نعم » • قال جمال : « حسنا » •

استمر الضابط .

ــ نبدأ الحوار .

قال جمال :

ــ فك الحديد اولا •

امر الضابط الجندى ، ففك الحديد من معصمه . قال جمال :

ــ الغى القضية التى نتجت عن القائك القبض على •

ــ تلك لا املك فيها سلطة .

ــ اذن ، لا حوار بيننا ، هذا هولب المسألة • المشكلة بيننا وبين عبد الناصر ، انه ليس هنالك حوار • هنالك سجون وقضايا ومعتقلات . الحوار ، هنا ، قضية لا معنى لها •

اعاد الجندى القيد الى يديه .

قال له ضابط المباحث العامة ، انه احتراما منه لموقفه هذا ، لن يعيده الى المباحث العامة . سوف يأخذه مباشرة الى السجن ، اما النقود التى ضبطت معه ، فلن تصادر ، وسيطلب من وكيل النيابة تحويلها امانات له فى السجن • واقتيد جمال الشرقاوى الى سجن مصر ، ثم سجن القناطر ، على ذمة القضية •

مطبعة الحزب ما زالت تعمل ، رغم كل الصعوبات والضربات • كان صابر زايد مسئولا عن هذه المطبعة منذ ما يزيد عن ثمانى سنوات • كان يعيش وهذا الجهاز الفنى الهام والخطير ، حياة أسرية عادية لا تثير حوله ذرة شبهة . وكان استمرار المطبعة المركزية ، تعمل ، مسألة تثير سخط وزير الداخلية على أجهزة الأمن • اذ كان يرى فيها تعبيرا عن عجز هذه الأجهزة ، وقدرة الحزب على حماية بعض مقوماته الأساسية . الا ان تساقط اعداد كبيرة من الكادر الاســـــاسى ، والبعض له علاقة بأجهزة الاتصال والأجهزة الفنية ، اقتضى ، بالضرورة ، توفير أعداد أخرى من الزملاء للقيام بهذه المهام • وهكذا بدأ يقترب ، من هذه الأجهزة الهامة والخطيرة ، رفاق لم يكن لهم سابق عـلاقة بها • وربمـا كانت لهم فى السابق ، أو فى ذات الوقت ، مهام حزبية اخرى ، تعرضهم ، وأمانهم للخطر ، مما يعكس خطرا على كل اتصالاتهم • ومن هنا بدأ يهتز أمان المطبعة ، الذى ظل لسنوات طويلة محكما ومحكوما . وأخيرا سقطت المطبعة ومعها صـــــابر زايد ، وكميـــــاته من الأوراق والكرتون ولوازم الطباعة . وأحيل صابر زايد الى المحقق سمير ناجى • كان التحقيق يجرى فى مبنى المباحث العامة . سأله سمير ناجى ، ان كانت كل تلك المضبوطات خاصة به ؟ فأجاب بالايجاب • سعد وكيل النيابة بالاجابة ، فالاعتراف سيد الادلة • سأله ، كيف تعلل وجود كل تلك المضبوطات معك ؟ • اخرج صابر زايد بطاقته العائلية وقدمها اليه قال ، « انا رجل اتاجر فى الورق والكرتون وجميع لوازم الطباعة ، وتلك بضاعتى اتاجر فيها » . تبخرت سعادة وكيل النيابة وقد احس المهانة • قام من مقعده وامسك بصابر زايد وانهال عليه ضربا . وبدأ المخبرون يتكاثرون عليه ، فتركه لهم ، ووقف يتابع الموقف • أخذ صابر زايد يرد الضرب بالضرب • ووكيل النيابة يسبه باقذع الالفاظ ، واحيل صابر زايد الى سجن القلعة ثم اوردى ليمان أبو زعبل فالقناطر على ذمة القضية •

ان سقوط الجهاز الفنى ، والرفيق المسئول عنه ، كان ، دون شك ، ضربة قاصمه للحزب • ان تعرض الجهاز ، أو جهاز آخر اقل منه كفاءة أمر ممكن الا ان المشكلة الحقيقية ، كانت فى الكادر الذى يعمل فى مثل تلك الأجهزة ، والذى يجب أن تتوفر فيه ، الى جـوار الخبرة والدربة ، اعلى درجات الوعى والصلابة واليقظة •

وازداد الخطر على الحزب . كان الرفيق أبو سيف يوسف ، السكرتير العام للحزب ، ما زال طليقا • وكان استمرار وجوده ، بعيدا عن قبضـة السلطة ، رمزا لاستمرار الحزب ، ووجود قدرة قيادية ، قادرة على العمل

والتعويض ، فى حدود ما تبقى من الحزب ، أو ما استجد عليه من عضوية ٠ لم يكن يعرف مكان الرفيق أو كيفية الاتصال به ، الا عددا محدودا للغاية ٠ وكان معنى سقوط أحد هؤلاء الرفاق ، أو بعضهم ، أن الأجهزة قد اقتربت كثيرا منه ، وفى ذات الوقت ، أن خيوط وخطوط علاقاته بالحزب تتمزق أو تنقطع ٠

وفى ١٩٥٩/١١/١٩ ، سقط أنور نعمان . كان فى ميدان العتبه فى القاهرة ، فالقى القبض عليه ، وحمل على الفور الى مبنى المباحث العامة ٠ طلب منه الضابط الموجود هنالك ، وقتها ، أن يجيب على سؤال واحد . أين عباس « باعتبار أن عباس هو الاسم الحركى للرفيق ابو سيف يوسف » ٠ ورد أنور نعمان ، بأنه يجهل اين من يسأون عنه . واصر الضابط على أنه يعلم ، واصر أنور على انه لا يعرف شيئا ٠ وهنا انقض الضابط البهى ،عليه ، فى عصبية مجنونة ، يلطمه ويركله ٠ ثم امر ان تعصب عيناه ٠ اقتادوه الى عربة حيث دفعوا به الى ارضيتها . كانوا يقولون له ، أنه لا يستحق الجلوس على مقعد ٠ دارت السيارة ثم عادت الى مبنى المباحث ، من حيث بدأت . الا انه لم يكن يدرى اين هو بالتحديد ؟ . وضعوه منفردا فى حجرة ذات جدران عالية ، لا يسمع فيها الا صوت السيارات ، القادم من بعيد ٠ توقع أن يعذبوه حتى الاعتراف ، « لم اكن اتصور ان تنتهى حياتى بهذا الخزى والعار ٠ لم اكن اتوقع سقوطى فى ايديهم ٠ اما وقد وقع المحظور ، فقد غدا جل همى الا اكون السبب فى أى خسائر أخرى . مصيرى ، فى حد ذاته ، لم يكن له . عندى ، ادنى اعتبار ٠ وفى سرعة خطرت على بالى فكرة التخلص من الحياة . وللحال اعملت زجاج نظارتى فى رسغى الايمن ٠ وتدفق الدم يلطخ ملابسى ، والأرض حولى ٠ يلزم ان تنتهى حياتى ، عند هذه النقطة ، وانا ما زالت محتفظا بشرفى ٠ وبذا اكون قد اديت دورى قدر ما اتاحت لى الظروف »(١) ٠

كان القبض على انور نعمان يوم الخميس ، وعثر عليه ، عبد الرحمن عشوب ، صباح الجمعة غارقا فى دمائه . وللحال حملوه الى المستشفى ، حيث اتخذ اللازم لانقاذ حياته ٠

فى ذات اليوم ، الذى قبض فيه على انور نعمان ، قبض ، ايضا : على فريد رمزى . كانا يقيمان معا ، عثر عبد الرحمن عشوب على مفتاح

---

(١) لقاء شخصى معه ٠

الشقة ، المشتركة ، في جيب انور نعمان ، فاستخدمه في مداهمة الشقة وفتح بابها ، والانقضاض على من فيها . عصبوا عيني فريد رمزي ، ايضا ، ووضعوه ، ايضا ، في دواسة السيارة ، حيث ظلوا يضربونه ويركلونه وهو راقد تحت اقدامهم . ودارت السيارة ، ايضا ، دورتها المعهودة ، لتعود الى دهاليز مبنى المباحث العامة . كانت الزنزانة التى ادخل فيها مصمتة ، خلا طاقة في اعلاها . كان في وسعه ، وهو في ذلك المكان ، أن يسمع صوت الترام والآذان ، دق على جدار الزنزانة ، فتلقى دقات مماثلة ، على الجانب الآخر . عرف انه انور نعمان . حاول ان يخبره بوجوده ، فزعق يطلب شربة ماء فانقض المخبرون عليه . واوسعوه ضربا ولطما ، ثم قيدوه الى الحائط . احس ان القيد يكاد يبتر راحتيه ، فركن الى الهدوء ، واقفا . احس بعذاب لا يقل عن عذاب القيد ، وهو يضغط ، متصلا ، على الرسغين .

جاءه عبد الرحمن عشوب ، وبدأ يساومه . كان فريد رمزي في نهائي كلية الطب ، لم يبق امامه غير مادة الجراحة وينهي دراسته ، قال عشوب : « سوف تكمل دراستك في انجلترا ، في لندن . لن يعرف أحد انك قلت شيئا . سوف ندبر هربك اثناء نقلك من مكان الى آخر ، وعندئذ سوف يقال انك هربت الى الخارج من اموال ابيك . اننا ، فقط ، نود ان نعرف مكان أبو سيف يوسف » . تساءل فريد رمزي : « ومن يكون أبو سيف يوسف هذا ؟ » وأجاب عشوب : الرفيق عباس » . فعاد فريد رمزي يتساءل : « ومن هو الرفيق عباس هذا ؟ » وادرك عشوب رد فريد على مساومته ، فأمر باستمرار التعذيب . ملأوا ارضية الزنزانة بمياه قذرة ، بالبول والبراز ، وظلت طوال الليل تعوى ، على باب الزنزانة ، اصوات كلاب شرسة ، وكأنها تهم باقتحام المكان . وضابط يشرف على التعذيب ، يأتيه بين الحين والحين ، ليذكره بمن سبقوه وعلقوا من أقدامهم ، ودفعت الكهرباء في اجسادهم . لا أكل ولا ماء والقيد الى الحائط يحز وينز بالدماء .

في الصباح جاء عشوب . تصنع الدهشة . سأل الضابط المشرف على التعذيب ، كيف يتركه واقفا ، هكذا ، مقيدا ؟ نظر الى الارض وعاد يتصنع الدهشة . في تلك المرة سأل فريد : « كيف تتبرز هكذا فوق الأرض ، اليس هذا عيبا ؟ استمر التعذيب والاغراء ، حتى دوى صوت سيارة اسعاف وضجيج في الطرقة .

اقتادوه الى التحقيق . كان في نفس مبنى المباحث العامة . هنالك التقى بأنور نعمان ، يرتدى منامة غارقة في الدماء ، ويده مصابة ومربوطة .

فوجىء بوجود فريد حداد ، ايضا ، « كنت اعلم انهم سيفصلوننا عن بعضنا البعض . اسرعت اقول لفريد حداد : ان بنكر أية علاقة بنا . وسننكر نحن ايضا أى معرفة لنا به . طلبت منه ان يقف بعيدا عنا تأكيدا لهذا الوضع . عرفت من أنور نعمان أنه حاول الانتحار ، خشية الاعتراف من التعذيب ، فأحضروا له الاسعاف . وتوقف التعذيب ، بعد ذلك ، بالنسبة لنا جميعا » .

الموت واحتمال عذابات تفوق طاقة البشر ، اهون على المناضل من أن يخون اختياره . يخون شعبه وحزبه . تلك كانت هى الرسالة التى حملها فريد رمزى وأنور نعمان فى مواجهة اقبية المباحث العامه ورجالها .

وبدأ التحقيق ، مع كل منهم على انفراد . سأل المحقق فريد رمزى ، ان كان عضوا فى الحزب الشيوعى ؟ فرد عليه ، بانه وطنى ديمقراطى ، ضد الأحكام العرفية والاوضاع الاستثنائية . انه مع الحياة الديمقراطية فى ظل مجلس نيابى . اشار الى المضبوطات ، وعاد يسأله ، ان كانت قد وجدت فى حوزته ؟ نفى فريد ذلك ، تدخل صوت كان يجلس فى مؤخرة الحجرة مبينا انها قد عثر عليها فى حجرة انور نعمان . تساءل فريد رمزى ، عن ذلك الذى يتدخل فى التحقيق . قال وكيل النيابة ، أن هذا الأمر لا يخصه . اصر فريد رمزى على ضرورة اثبات ذلك فى محضر التحقيق . قال وكيل النيابة ، أن هذا الشخص هو معاونة ، وانه لن يسجل اسمه فى المحضر . استمر فى اسئلته ، عن علاقة محمد بدر به . واجهه ببعض المخطوطات . كانا مقالين بعنوان ، « المرحلة الحالية من النضال الوطنى » ، و « الاتحاد القومى والانتخابات » . زعم ان الخط المكتوب بهما المقالين يماثل خطه فى كراساته الدراسية . انتهى التحقيق . رفض فريد رمزى التوقيع ما لم يثبت اسم هذا المعاون المزعوم . رفض وكيل النيابة ذلك ، فاصر فريد على رفضه التوقيع .

فى مساء الجمعة ١١/٢٠ ، نقل الثلاثة الى معتقل القلعة . وضعوا كلا منهم فى زنزانة انفرادية . قرأ أنور نعمان على جدران زنزانته :

جيت يا عيد وانا هنا   بعيد عن أهلى وخلانى

يمكن نعود عشر مواعيد   وانا هنا تانى

« لم اكن ، حينذاك ، اتصور انه يمكن لانسان أن يعيش ، معزولا عن الناس ، شهرا واحدا ، فى مثل هذه الغرفة التى لا تحوى شيئا غير سرير للنوم ، فكيف ، بهذا الشاعر ، يتوقع أن يعيش هنا ، وعلى هذا النحو ، عشر سنوات » .

فى ١٩٥٩/١١/٢١ ، وصل ، الى سجن القلعة ، نسيم يوسف وعبد الله الزغبى وسعد الطويل وأحمد الجبالى . وكان هنالك ايضا ، من قبلهم ، أحمد عبد العال وأحمد البدينى المحامى ، الذى كان يترافع فى قضية الشيوعية الكبرى ، « قضية الدكتور فؤاد مرسى » ، واعتقل بسبب مرافعته وموقفه الرائع اثناء نظر القضية . وكان الحزب قد اصدر بيانا بخصوص هذه الواقعة ، كما كان هنالك عدد آخر من الرفاق ، يصل مجموعهم جميعا الى حوالى ثلاثين معتقلا .

استدعى نسيم يوسف للتحقيق . كان وكيل النيابة ، سمير ناجى ، كما كان عبد الرحمن عشوب متواجدا اثناء بداية التحقيق . رفض نسيم التحقيق ، ما لم يخرج عشوب . احتد المحقق عليه . هدده بانه سوف يتكلم رغم انفه ، اصر نسيم على الرفض ، فخرج عشوب متوعدا . بدأ التحقيق بالاسئلة التقليدية ، الاسم وعنوان السكن والعمل . طالب نسيم يوسف بتسجيل قضايا ثلاث قبل أن يجيب على اية اسئلة . بعد حوار وافق المحقق ، اتهم نسيم المباحث العامة باغتيال المناضل الشهيد محمد محمود عثمان ، وطلب التحقيق فى مقتله ، اعلن ان سياسة الحكومة فى القبض على الشيوعيين والوطنيين والديمقراطيين ، تفتت وحدة الصف الوطنى . اتهم ضابط المباحث الذى القى القبض عليه بسرقته ، اذ انه ايتولى ، اثناء التفتيش على قلم حبر حدد مواصفاته . ثار سمير ناجى وهاج ، الا ان نسيم اصر على موقفه ، وعلى ضرورة استمرار التسجيل . سأله المحقق بعد ذلك ، ان كان عضوا فى الحزب الشيوعى المصرى . رد نسيم يوسف ، بأنه يشرفه كونه عضوا بالحزب الشيوعى المصرى ، « لقد حوكمت من قبل عام ١٩٥٥ فى قضية ، اعلنت فيها انني شيوعى . وانا اليوم اعلن شرف انتمائى للحزب الشيوعى وعضويتى به » واجهه ببعض الأوراق التى كانت أمامه ، فانكر معرفته بها . اغلق التحقيق واعيد الى سجن القلعة ، حيث استدعاه قائد المعتقل ، فى المساء ، ليخبره ان وكيل النيابة قد ارسل له قلما يخصه ، وانه قد وضع له فى الامانات . كان نفس القلم الذى اختلسه ضابط المباحث اثناء القبض عليه وتفتيشه .

فى ١٩٥٩/١١/٢٨ ، رحل الجميع ، ماعدا فريد رمزى ، من معتقل القلعة • واقتيد ، الى أوردى أبو زعبل ، سبعة من الرفاق ، نسيم يوسف ، فريد حداد ، عبد الله الزغبى ، أحمد الجبالى ، أنور نعمان ، سعد الطويل وأحمد عبد العال • وهنالك على عتبات الاوردى وفى فنائه ، اغتيل المناضل البطل الشهيد فريد حداد ساعة دخوله المعتقل •

❋ ❋ ❋

كان فريد رمزى قد رفض التوقيع على محضر التحقيق ، فاعتبر التحقيق معه غير مستوف لاركانه ، فابقوه . عندما احس ان الجميع راحلين ما عداه ، طلب من أحمد عبد العال ، الذى كان فى الزنزانة التى تجاوره ، ان يبلغ الزملاء ، حيثما يذهب ، انه محتجز فى سجن القلعة ، بمفرده ، وانه لا يتوقع خيرا ، حيث انه لا يعرف ، بالتحديد ، سبب احتجـــازه •

اغلقت عليه ، زنزانة انفرادية ، ليل نهار • مر يومان ثم فوجىء بباب الزنزانة ، وقد فتح فى منتصف الليل ، والحارس يستحثه ان يسرع بالخروج ، فالضابط المشرف على المعتقل ، مصاب بازمة قلبيـة • توجس ، فريد ، شرا فرفض مغادرة الزنزانة . الا ان الحارس عاد يلح ، عارضا عليه الادوية التى يتعاطاها الضابط • شرح له ، فريد ، كيفيـة استخدامها . الا ان الحارس اوضح أن أحدا لا يعرف كيف يعالجه • قال له فريد ، انه قد اخبر الزملاء فى كل مكان ، بانه محتجز هنا ، فى القلعة ، بمفرده . طمأنه الحارس ، الا يخشى شيئا مما قد يدور فى ذهنه • صحبه الى غرفة الضابط • كان شابا برتبة ملازم أول ، وكان يمر ، بالفعل ، بازمة قلبية • ظل الى جواره حتى افاق فى الخامسة صباحا . غاب الضابط يومين ثم عاد فى اليوم الثالث ليشكره وليقدم له نفسه • كان ابن اخت حسين الشافعى ، احد قادة ثورة ٢٣ يوليو ، والتى التقت به ، اليوم : فى هذه المتاهة المهلكة • نشأت بينه وبين الضابط علاقة انسانية • قدم له خدمات لا تنكر من الاتصال باسرته ، بل كان يحضر له الجرائد ، خفية .

استدعى للتحقيق مرة أخرى • كان وكيل النيابة فى تلك المرة صلاح نصار • وكان فريد رمزى يعرفه شخصيا منذ ان كانا معا فى حزب الوفد . بدأ صلاح نصار مهاجما ، متسائلا ، ان كان فريد هو الذى يحقق مع وكيل النيابة ، ام ان وكيل النيابة هو الذى يحقق معه ؟ كان يشير بذلك الى التحقيق الذى لم يكتمل • كان ثائرا ، متحديا ، فسأله فريد بدوره ، ان كانوا قد اختاروه هو خصيصا ، للتحقيق معه ، باعتباره رجل سياسة ؟ استفزه التساؤل فانطلق صارخا ، طالبا من فريـد رمزى ، ان يلزم

حدوده • كان التحقيق ، فى جوهره ، سياسيا ، بالفعل . ما رأيك فى التصنيع ؟ ما رأيك فى موقف عبد الناصر من الاستعمار ؟ لماذا لا يتمشى خطكم السياسى مع الحكومة ، رغم وطنيتهما ؟ قال فريد رمزى • « ان عبد الناصر قوة وطنية ، الا ان سياسة التصنيع تسير فى اتجاه خاطىء • انها يجب ان تكون فى اتجاه خدمة احتياجات الشعب ، لا لتصنيع السيارات الخاصة . ان لعبد الناصر موقفا من القضية الفلسطينية ، الا ان موقفه من حركة التحرير العربية ، يقسم الدول العربية : موقفه من سوريا ، موقفه من العراق ، رغم كونه قوة وطنية معادية للاستعمار . ان سياسة التفرقة وبذر الخلافات بين القوى الوطنية ، سياسة تدعم الوجود الاستعمارى » • سأله المحقق : « ان كان عضوا بالحزب الشيوعى المصرى ؟ » اجاب ، بأنه من القوى الوطنية القريبة من الشيوعيين • احتد صلاح نصار قائلا ، « لا يا رفيق فتحى ، انت عضو منطقة ، بل المسئول التنظيمى لهذه المنطقة » • تدخل رجل كان يجلس فى غرفة التحقيق . قال ، ان فريد رمزى كان فى الأصل عضوا فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ، ثم خرج منها فى « التكتل الثورى » الذى خرج به شهدى عطية من « حدتو » . ثم انضم بعد ذلك الى حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى (ع • ف) . تساءل فريد رمزى ، عن صفة ذاك الذى يدلى بكل هذه البيانات ، متدخلا فى التحقيق معه • قال له صلاح نصار ، أن هذا الامر لا يخصه . اصر فريد على ضرورة معرفة هويته ، وضرورة تسجيل تواجد ضابط من ضباط المباحث العامة اثناء التحقيق معه • ثار صلاح نصار ، وأخذ يضرب المكتب أمامه بجمع يده . حاول العودة الى الاسئلة مرة أخرى ، الا ان فريد رمزى قال له فى هدوء ، « لا اجابة » صرخ صلاح نصار متحديا ، « بل سوف تجيب » . واجه فريد رمزى التحدى بالمثل ، « حسنا ، حاول اخراج الاجابة من فمى بالطريقة التى تراها : بالعصا ، بالشومة ، بالكرباج • لكن لا رد عندى حتى تثبت وجود هذا الضابط اثناء التحقيق » • انسحب ضابط المباحث العامة من الغرفة ، وعاد التحقيق حول مضبوطات محمد بدر ، انتهى التحقيق ، ووقع عليه فريد رمزى . اعيد الى سجن القلعة ومنه الى اوردى ليمان أبو زعبل ، وفيما بعد ، الى سجن القناطر ، على ذمة القضية •

لم يكن الحزب الشيوعى المصرى ، وحده ، هو الذى يتعرض لضربات التصفية تلك ، كان تنظيم « الطليعة الشيوعية » ، وهو واحد من تنظيمين لم يدخلا الوحدة الشاملة فى عام ١٩٥٨ ، يواجه ايضا نفس الملاحقات .

وسقط حسنى تمام فى قبضة الاسر • وبسقوطه ارتبكت علاقة التنظيم بجهازه الفنى . كان هذا الجهاز فى حوزة شخص تحوم الشبهات

حوله . وحاول نجاتى عبد المجيد ان يصل الى هذا الجهاز ، الا انه وجد المنطقة محاصرة . وسرعان ما القى اثنان من المخبرين القبض عليه ، بينما كان يحاول الفكاك والهرب . سألاه ان كان هو نجاتى ، الا انه انكر ذلك . أخذاه الى قسم الشرطة ، حيث حاول الهرب من القسم فامسك به مرة ثانية . وانهال المخبرون عليه ضربا . قاوم الضرب بالضرب فاخذاه الى مبنى المباحث العامة . تلقاه عبد الرحمن عشوب سائلا ، اين كان ؟ ومن اين اتى ؟ واين كان مقيما ؟ اجابه نجاتى عبد المجيد ، انه ليس له بيت أو غيط . كان يعمل فى مصنع ، ويبيت فيه . سأله عشوب ، واين هذا المصنع ؟ قال نجاتى ، « لا تحاول معى . لقد أردتنى ؛ وها انا مقبوض على » . امسك بيديه ، فاحس خشونتهما . قال له ، « بالفعل كنت تعمل ، لكنى مازلت اود ان اعرف ، أين بيتك ؟ » قال نجاتى ، « لا بيت لى » . حاول المناورة ، « وا ينزوجتك ؟ » . قال نجاتى فى حسم ، « لا اعرف ، ولن تصل معى الى شىء »(١) .

اقتيد الى سجن القلعة . وكان ذلك فى ١٩٥٩/٧/٢٦ . ومنها الى معتقل العزب بالفيوم ، ثم اوردى أبو زعبل ، وفيما بعد ، الى سجن القناطر ، على ذمة قضية .

كانت الملاحقة تطارد ، ايضا ، اعضاء الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) . كان محمد الجندى مطلوبا مع الدفعة الأولى فى أول يناير ١٩٥٩ ، الا انه كان هاربا ، حيث كان هنالك حكم صادر ضده منذ عام ١٩٤٩ ، أى فيما قبل الثورة . قبض عليه ، ومعه الشاعر محسن الخياط ، بينما كانا يسيران فى طريق كورنيش النيل . اخذوهما الى سجن القلعة . وكان ذلك فى ١٩٥٩/٥/١٢ . استدعى للتحقيق ، حيث حقق معه صلاح نصار ، زميله اثناء الدراسة . كان سيئا معه ، يحاول دفعه دفعا الى القول « بأنهم سيستخدمون القوة لتحقيق افكارهم » ، فى الوقت الذى كانت « حدتو » تتخذ فيه موقف التأييد المطلق للنظام . رحل بعد ايام سبع من القلعة الى سجن مصر ، ومنها الى سجن القناطر ، على ذمة القضية التى عرفت باسم « قضية شهدى عطية » .

*** *** ***

الضربات المتتالية التى وجهت الى الحزب ، اصابته اصابات جسيمة ، خاصة بعد وقوع الرفيق السكرتير العام فى ٢٣ ديسمبر ١٩٦٠ ، والمجموعة القيادية التى كانت معه . اذ تحولت القوى الحزبية المتبقية ، وكانت غالبيتها ، قوى جديدة ، الى جزر متناثرة . ووقع استمرار الحزب ورفع راياته ، على عاتق شباب ، فرضت عليه المعركة ان يكشف عن

---

(١) فى لقاء شخصى معه .

تحركات نضالية حقيقية . كان عليه ان يدبر اجهزته الفنية ، ويقدم الكلمة السياسية ، والرأى والموقف فى القضايا والمشاكل التى كانت تواجهه . كما كان عليه ايضا ان يوفر ، على نحو ما ، اتصالا بأى من القيادات الحزبية السجينة .

وفى قرية زنارة ، أحدى قرى محافظة المنوفية ، بدأ يتبلور نشاط شيوعى ، بعد حملة ١٩٥٩ . بدأ ذلك النشاط فى التعبير عن نفسه ، رغم كل الظروف التى كانت سائدة حينذاك ، فى انتخابات الاتحاد القومى . كان ذلك فى سبتمبر ١٩٥٩ على وجه التقريب ، حيث خاضت المعركة مجموعة من اصدقاء الحزب واعضائه ، فاز تسعة منهم ، فى حين لم ينجح للآخرين غير عضو واحد فقط .

قاد الرفاق نشاطا جماهيريا ، حول مطالب الفلاحين فى الجمعية الزراعية ، حول انتظام دورة الرى ومقاومة دودة القطن . كان عام ١٩٦٠ عام الكارثة ، حيث انخفض المحصول ، بسبب الدودة ، الى حد دفع ببعض الفلاحين الى عدم جمع المحصول ، حيث تجاوزت تكاليف جمعه ، قيمته الحقيقية . كان لابد من كشف الاجهزة التى تقوم بعملية المقاومة ، وفضحها .

يقول عبد المحسن ناشسه ، « اخذنا ، فى احد الايام ، ثمانية من فلاحى القرية ، حفاة الاقدام ، ومعنا شيكارة ، مليئة بالديدان ، تزن حوالى خمسين كيلو جراما . توجهنا الى مكتب المحافظ ، فرفضوا ادخالنا . دارت بيننا وبين الموظفين معركة ، فاستعانوا علينا بالشرطة . صممنا على الدخول ، وجلسنا على سلم المحافظة حتى انقضى النهار . كان كل فلاح يمر علينا ، آتيا الى المحافظة لقضاء شىء ما ، يسألنا عما نفعل : فنقول له « احنا بتوع دودة القطن » ، فيجلس الى جوارنا . ارتفع عددنا الى سبعين فلاح تقريبا . صممنا على مقابلة المحافظ ، ومعنا شيكارة الديدان . كان المحافظ حينذاك ، محمد متولى ، الاستاذ السابق فى كلية الزراعة . اخيرا وافق على مقابلتنا ، كان الفلاح الذى يحمل الشيكارة ، يدعى دسوقى . وكنت قد اتفقت معه على أن يقلب الشيكار لحظة اناديه باسمه . ونفذنا بالفعل ما اتفقنا عليه ، فانطلقت الديدان فى مكتب المحافظ ، فانطلق هو جاريا واغلق الباب خلفه . طردونا من المحافظة . وكل ما حدث بعد ذلك ، ان المحافظ كلف كلية الزراعة بمعاينة زراعات القطن ، والقيام بحملة مركزة لمقاومة الديدان . الا ان اهم ما حدث فى هذه القضية ، ان المحافظ اعلن ، فى اليوم التالى ، فى تصريح له بجريدة الجمهورية ، ان التوكسافين المستورد من المانيا الغربية ، كان من اسباب تكاثر الدودة واتلاف المحصول الزراعى فى مصر »(١) .

---

(١) لقاء شخصى معه فى ١٩٨١/٢/٢٢ .

كما قام الرفاق بجمع توقيعات ، بلغت خمسة آلاف توقيعا على عرائض خاصة بعدم انتظام دورة الرى •

استطاع الرفاق ان يحققوا اتصالا بالحزب • كما قاموا باعداد آلة طباعة خشبية بدائية ، استخدموها فى طبع البيانات والمنشورات ، التى كانت تصل اليهم من سجن القناطر ومنفى المحاريق ، كذا تفاصيل ما يجرى فى داخل السجون والمعتقلات لاستخدامها فى الدعاية الحزبية التحريضية . كان ذلك فى النصف الثانى من عام ١٩٦١ ، حيث اصدروا بيانا خاصا باستشهاد الرفيق فريد حداد عنوانه ، « الى الشعب المصرى والضمير العالمى » ، حيث كانت هنالك حملة حول هذه القضية • كما طبعوا بيانا آخر ، صادر عن القيادة المركزية ، بعنوان ، « الديمقراطية هى الطريق الوحيد » • وكانت هذه المجموعة من رفاق « زنارة » يقومون ، ايضا ، بتأمين هروب ، بعض الرفاق ، الذين يرسل الحزب بهم اليهم .

وفى ١٩٦٢/٤/٢١ ، انقض ضباط الشرطة والمباحث العامة على قرية « زنارة » • حاصروا منزل عبد المحسن شاشه والقوا القبض عليه • وفى ملحق مجاور لمنزله عثروا على اكداس من المطبوعات المعدة للتوزيع والحبر والرونيو الخشبى • كانت تلك أول مرة ترى فيها القرية مثل هذا الهجوم المكثف ، وان كانت لها سابقة خبرة ، عندما قبض على بعض ابنائها مثل فايز علام وعبد الغفار سلام ، وان كان اعتقالهم قد تم بعيدا عن القرية ذاتها •

يقول عبد المحسن شاشه ، « تم القبض على ، بعد ان تسلمت نسخة من خط الاحتكار وشبه الاحتكار ، وفى اعتقادى ان سبب القبض على يرجع الى خلل فى جهاز الاتصال • حيث ان من كان يقوم بالاتصال بنا ، قبض عليه ايضا . اخذت الى القاهرة دون ان يسمح لى بارتداء ملابسى • فنزلت بالجلباب ، وفوقه بلوفر من الصوف . بعد حوالى شهرين ، تم القبض على ثلاثة عشر شخصا آخرين •

فى القاهرة ، فى مبنى المباحث العامة ، كان المكان مزدحما بالناس للغاية ؛ تصورت لأول وهلة ان كل هؤلاء ، انما هم رفاق تم القبض عليهم • كانت تلك أول مرة اذهب فيها الى وزارة الداخلية • كان المخبرون يرتدون الجلاليب والمعاطف ، فاعتقدت انهم ضمن الرفاق المقبوض عليهم • كانت هنالك ايفون حبشى وأم نسيم يوسف وأم محمود العطار . لم اكن اعرف أى واحدة منهن • وكانت الأخيرة تنتفض من البرد • فخلعت

البلوفر وقدمته اليها . اخذنى المخبرون ، بسبب هذا العمل الانسانى الى احدى الحجرات ، وضربونى علقة سـاخنة . لم اكن اعرف اننـا ممنوعون من الحديث مع بعضنا البعض ، اثناء فترة التحقيق » .

كان وكيل النيابة سمير ناجى ، وكان ـ كالعهد به ، والتحقيق يجرى فى مبنى المباحث العامة ـ يدفع بمن يحقق معهم الى ايدى المخبرين يعتدون عليهم بالضرب واللكم والركل والسب وجز شعر الرأس وكل اشـكال القسر والقهر ، حتى يصل الى « الحقيقة » .

كان التحقيق يدور مع : عبد المحسن شاشه ، حسن بيومى ، على بدوى ، ابراهيم فتح الله ، سعيد محمود ، حسين عبد الستار وايفون حبشى . وقد اتفق الرفاق الاوائل الثلاثة ، ان يتحملوا القضية ، اخلاء لمسئولية باقى الرفـاق ، لم يكن لدى أى منهم خبرة بكيفيـة مواجهـة المحققين ، أو ماهية الموقف أمام النيابة . قرب نهاية التحقيق ، اكتشف الرفاق أن على بدوى قد اعترف على الرفيق محمود علام ، والذى كان حينذاك نزيلا فى معتقل الفيوم . بل اكتشـف الرفاق ، ايضا ، ان على بدوى هذا ، سـبق القبض عليـه واطلاق سراحـه ، حيث توجـه الى عبد المحسن شاشة ، ثم تم القبض على الجميع .

يقول عبد المحسن شاشه ، « ظل التحقيق معنا خمسة ايام . كنا ننام فى طرقات مبنى المباحث العامة ، ونستدعى للتحقيق فى أى وقت اثناء النهار أو الليل ، كان يحضر معنا ، اثناء التحقيق ، ثلاثة ضباط من المباحث العامة . وقد لفت نظرى واثار دهشتى ، ان مجموعة ، من ضباط المباحث العامة ، كانت تستعد للسفر الى الولايات المتحدة الأمريكية لتلقى دراسات فى تخصصاتهم ، فى الوقت الذى كانت تعلن فيه الدولة ، موقفا معاديا للاستعمار ، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية . لقد كشف سمير ناجى ، المحقق ، هذا الامر ، دون قصد منه . كان يتحدث مع الضباط حول هذه المسـألة ، مشيدا بعظمة أمريكا والدراسات التى سوف يتلقونها هناك ، وكل يتمنى لمن لم يصبه الدور ، أن يكون له فى هـذا « الخير » نصيب .

اثناء التحقيق معى ، ووجهت بمنشور عن الديمقراطية . قلت ان هذا المنشور لم يكن معى ، الا اننى أرى ان نظام عبد الناصر نظام ديكتاتورى . غضب منى ، المحقق وثار . سألنى ، ان كنت حقا حاصلا على ليسانس الحقوق ، فأجبته بالايجاب . فطردنى ، عندئذ ، خارج الحجرة ، وحيث تلقفنى المخبرون بالركل والصفع واللكم ، ثم حلقوا ، لى ، شعر رأسى » .

انتهى التحقيق ورحل الجميع الى سجن القناطر مباشرة ، على ذمة قضية .

الفصل الثالث

سجن القناطر

كان سجن القناطر ـ رجال ، هو المحطة التى ينتهى اليها ، كل من حقق معهم ، وانتهى التحقيق الى توجيه اتهام ، ما ، اليهم . الا ان البعض منهم ، كان ، قبل ان يصل محط النهاية ، يمر باوردى ليمان ابو زعبل ، تقديرا ، من المباحث العامة ، لخطورتهم . فهم الذين واجهوا اعصار الحملة فى عنفوانها ، وهم الذين ظلوا حاملين راية الحزب ، بعد ان احاطت به ظلمة ، غشيت كل البلاد . كان مرورهم من أوردى أبو زعبل ، حيث يغرس الوحش فيهم أنيابه ، يستهدف اذلالهم ، وبث الخوف فى نفوسهم ، و « تبصيرهم » ، عمليا ، بطبيعة النظام الذى يتعامل معهم .

الا أن التجميع الأساسى لكثير من القضايا ، بدأ فى سجن مصر . سجن قرة ميدان ، واستمر الحال كذلك ، حتى آخر عام ١٩٥٩ على وجه التقريب ، حينما فتحت الزنازين ذات يوم ، وطلب من الرفاق أن يستعدوا للترحيل . اعيدت لهم اماناتهم ، ثم شحنوا فى سيارات اشبه بالزنازين المتحركة ، ولا احد منهم يدرى الى أين المصير . الا انهم اثناء الترحيلة ، تعرفوا على الطريق الذى تقطعه القافلة ، فادركوا انهم فى طريقهم الى سجن القناطر .

كان ذلك فى الصباح الباكر ، والجو مشبع بالبرد والرطوبة . والاحساس بالمجهول الذى يدفعون اليه ، يرفع درجات الاحاسيس المتوترة ، والتوقعات والاحتمالات ، فى استقبال تزعرد فيه العصى والشوم . فى فناء السجن استقبلهم المأمور ، طلب منهم ، بطريقة استفزازية ، أن يجلسوا القرفصاء ، اربعات اربعات . اعلن انه لا وقوف ولا حركة . جاء الحلاق وجز شعر رؤسهم حتى منابتها . احتج بعض الرفاق ، فكان ضابط السجن يأتى الى المحتج ، يخبطه بالعصا فوق كتفه ، بأمره « ان ينفذ التعليمات ، صامتا » . بدأوا ينادون اسمائهم ،

اربعة ، اربعه ، ايضا ، حيث يجرى تفتيش هذه المجموعة ثم تلك ، حيث تقاد بعدئذ الى الزنزانة الخاصة بها • وهنالك على بابها كانت الاسماء مكتوبة . كانت المباحث العامة هي التى اعدت التسكين سلفا . استمرت تلك العملية سبع أو ثمان ساعات ، ظل الرفاق ، اثناءها ، على هذا الحال ، من القرفصاء ، ولا حركة ، حتى كادت ان تشل اطرافهم • وضع الجميع فى دور واحد ، هو الدور الثانى من عنبر اثنين • وكان عدد الرفاق الذين شكلوا هذه الدفعة الأولى ، يكاد يصل الى المائة وخمسين رفيقا •



يتميز سجن القناطر بدرجة عالية من الرطوبة • فجدرانه تقطر ماء ، وكانها تمتص ما فى الجو لتمطر به هؤلاء القابعين خلفها • الاغلاق طوال النهار والليل . والنوم على ابراش مهترئة • وحتى الحشايا التى كانت تمنح للمرضى ، فى مثل تلك الاحوال ، منعت منعا باتا • الابراش والبطاطين يجرى تطبيقها كل صباح ، لتوضع امام الزنزانة ، ولا يترك فى داخلها الا برشا واحدا ، يجلس ، أو يقف عليه ، الرفاق السجناء تحت التحقيق . الخروج الى دورة المياه ، صباحا وعصرا ، فى دفعات منفصلة . كل دفعة ثلث أو نصف ساعة فقط ، ثم يعاد حبس الدفعة لتخرج أخرى ، وهكذا • طاقات الزنازين بلا حواجز ، ينهمر منها الهواء شديد البرودة على الراقدين فوق الابراش ، يلتحفون ببطاطين ، اقرب الى الخيش منها الى أى شيء آخر •

الأكل من خارج السجن ممنوع . المسموح به ، فقط ، « يمك » السجن . وهو فى غالب الاحوال من نبات « الرجلة » بعيدانها وبذورها ، رديئة الطهى ، تعافها النفس • واللحم ، ان قدم ، من عجوز شمطاء ، خالية مما يؤكل ، كلها جلد و « شغت » ، فعزف الجميع عن تناولها •

دام الحال على هذا المنوال ، قرابة شهر • ثم سمح لهم بطابور شمس ، نصف ساعة ، فى الصباح • الا ان المعاملة ، فى عمومها ، اتسمت بالخشونة والغلظة •

كانت الغالبية من رفاق هذه الدفعة الأولى ، شبابا ، جددا ، لا يمتلكون خبرة المواجهة أو كيفية التعامل مع الادارة • الا أنه بتوالى الدفعات و « الايراد » ، من الخارج أو اوردى أبو زعبل أو الواحات ، بدأت تصل الى سجن القناطر ، اعداد من الكادر الحزبى أو الكادر المجرب ، ذو الخبرة السابقة •

كان الدور الذى يشغله المسجونون الشيوعيون ، تحت التحقيق ، مقسما الى نصفين ، نصف يسكنه اعضاء الحرب الشيوعى المصرى ؛ والنصف الآخر ، يقطنه أعضاء الحزب الشيوعى المصرى (حدتو) . وكان يحتل الأول ، رجال من الشرطة أو عسكر من الجيش ، مقبوض عليهم ، تحت التحقيق ، على ذمة قضايا مختلفة · كان كل دور من العنبر به نوعية ما من السجناء وعندما كان يفرج عن أحد السجناء العاديين ، ويقيم له زملاء زنزانته حفلا ، ابتهاجا بهذا الحدث ، تعلو فيه التحية من سجناء هذه الزنزانة ، الى باقى السجناء ، كانوا يشيرون الى الرفاق باعتبارهم « زهرة الحركة الوطنية » .

كان السجناء العاديون ، فى سجن القناطر - اصلاحية الرجال ، يأتون افعالا ، تبدو للرفاق الجدد ، غاية فى الوحشية · كان البعض منهم فى سبيل ان يذهب الى احدى المستشفيات ، يلجأ الى كسر ذراعه ، أو حقن جسده بالجاز ، أو وضع صبغة اليود أو البوتاس فى عينيه · كان هنالك خبراء من السجناء فى هذه العمليات . وكان على السجين ، غير الخبير ، والراغب فى الذهاب الى المستشفى ، أن يجرى اتفاقا مع الخبير المختص ، عن طريق سماسرة متخصصين ، يملكون القدرة على الحركة بين جدران السجن ، اذ ربما كان طرفى الصفقة فى وضع لا يمكنهما من الاتصال المباشر · ثم تأتى الخطوة التالية للاتفاق ، وهى التنفيذ . وتتم تلك الخطوة بان يفتعل طرفا الاتفاق ، كل فى موضعه ، مخالفة ما للائحة السجن ، فيقاد الى التأديب ، وهناك يلتقيان ويقوم الخبير بتنفيذ اللازم ، وتتحقق رغبة السجين فى الانتقال الى المستشفى الخارجى . القضية هنا ، ليست مجرد الرغبة فى تغيير المكان أو « النزهة » · انها فى الحقيقة عمل « جاد » · اذ تكون الفرصة فى المستشفى ارحب للاتفاق على صفقات ، غالبا ما تكون ، ذات علاقة بتجارة المخدرات ، حيث يعود السجين بعد علاجه ، محملا « بالبضاعة » ، يخفيها فى أماكن حساسة من جسده ، يدفع منها أجر الخبير ، ويدبر لنفسه موردا يعينه فى الداخل ، ويعين اسرته فى الخارج · فتجارة المخدرات فى السجون ، تفوق تجارتها خارج السجون . والعائد منها ، يغرى بأى فعل ، مهما كانت بشاعته ·

كما كان يلجأ بعض السجناء العاديين ، الى اساليب أخرى ، لا تقل وحشية ، فى سبيل ان تستجيب الادارة لمطالب خاصة بأى واحد منهم . كان السجين يعلن منفردا الاضراب عن الطعام والشراب والكلام . فيخيط شفتيه ، ويظل على هذه الحال ، حتى تحقق الادارة مطالبه · وهى فى اغلب الاحوال لا تخرج عن تنفيذ لائحة السجون · وكان البعض منهم ، ايضا ، يلجأ الى اسلوب اشد عنفا وافزاعا ، فيمزق بعضا من اطرافه ، ثم يعلق نفسه ، فى سقف العنبر ، مذليا بجسده ، الذى يقطر دما ، فى

الفراغ الذى يصل ارتفاعه الى اربعة ادوار ، مهددا بالقاء نفسه ، ان لم تستجب الادارة لمطالبه · وتدور مباحثات غاية فى الغرابة ، بين الادارة ، مجتمعة ، فى حوش العنبر ، والسجين المعلق كالذبيحة فى أعلاه . وتظل المفاوضات دائرة على هذا النحو ، بين تهديد وترغيب ، من كلا الطرفين ، حتى تستجيب الادارة لمطالب السجين ، فيغادر السقف الى طرقات العنبر ، حيث يكون السجانة فى انتظاره ، لاقتياده الى التأديب ، عقابا له على تقديمه مطالبه « بطريقة مخالفة للائحة السجون » .

ان سياسة « الاصلاح والتهذيب » التى تعالج بها ، ادارة السجن ، هؤلاء الرجال ، قد قتلت الانسان فى اعماقهم ، ودفعتهم الى أن يأتوا افعالا ، تصيبهم بما لا يخطر على بال ، أو يمكن تصوره ·

العمــــل الحزبى :

فى البداية كانت غالبية الزملاء شبابا ، وكان جمال الشرقاوى اقدم الرفاق ، وله سابقة تجربة بالسجن ، فاعتبره الرفاق مسئولا عنهم . كان الاغلاق طوال الوقت ، وفرصة اللقاء لا تتوفر الا اثناء طابور الصباح · اعد الرفيق كورسا تثقيفيا ، كان يعرضه على الرفاق اثناء الطابور · كان يسير ، فيه ، وثلاثة منهم ، حتى ينتهى حديثه التثقيفى ، فينتقل الى ثلاثة آخرين وهكذا · يقول جمال الشرقاوى ، « لقد نجحنا ، فى ذلك الوقت ، فى خلق وحدة فكرية حول خط الحزب · كما تشكلت لجنة قيادية ، منى ، ومن محمود العطار وأحمد عبد الله » ·

ثم توالت الدفعات ، وأعيد تشكيل اللجنة القيادية ، أو لجنة منطقة السجن ، من الرفاق : سامى عجيب ، أحمد الجبالى ، نسيم يوسف ، عبد الله الزغبى وسعد الطويل ، بمسئولية الرفيق سامى عجيب . كانوا جميعا ، قبل القبض عليهم ، اعضاء احتياطيين باللجنة المركزية . وكان هذا هو الاساس الذى تم عليه التشكيل الجديد .

كان التشكيل التنظيمى فى صورة مجموعات ثلاثية أو رباعية · ومن خلال هذا التشكيل كان يتم تبادل الاخبار الداخلية والخارجية ، والحوار الحزبى والاعمال التثقيفية ·

حددت لجنة المنطقة ، لنفسها ، مهامها ، طبقا للظروف الخاصة بهذا السجن ونوعيته · ان سجن القناطر ، فى الأساس ، سجن مؤقت ، فتواجد الرفاق فيه ، وهم جميعا مسجونون تحت التحقيق ، تواجد مرهون بنظر قضاياهم امام المحاكم ، وصدور الاحكام فيها ، والتصديق عليها ·

ثم يتم توزيعهم بعد ذلك ، الى الواحات ، لمن غدا سجيننا صدرت بحقه احكام ما ، والى الواحات ، ايضا ، والفيوم والقلعة كمعتقلين لمن برانهم المحكمة ، واعادت المباحث العامة اعتقالهم . ومن هنا كانت المهمة الأساسية للمنطقة ، هي دراسة ظروف كل قضية ، من الناحيتين القانونية والسياسية ، وتحديد وضع كل رفيق منهم ، فيها . وكانت المهمة الثانية التى تواجه لجنة المنطقة ، هى ضرورة العمل على رفع معنويات الرفاق ، وخاصة الذين صدرت بشأنهم أحكام الافراج ، حيث كانوا يرسلون الى الواحات « للتخزين » الى اجل غير مسمى ، او الى معتقل العزب بالفيوم او القلعة ، لوضعهم فى « محرقة الضمير » ، والعمل على ارغامهم ، ان بالترهيب أو الترغيب ، كى يستنكروا مبادئهم وكل ما آمنوا به • وكانت المهمة الثالثة ، هى دراسة كافة التحليلات السياسية المرسلة من منفى المحاريق بالواحات ، وتقديمها الى الرفاق • كذلك اعداد تحليلات سياسية ، على مسئولية المنطقة ، فى ضوء خط الحزب ، ان لم تتوافر التحليلات القادمة من منفى الواحات • كما كان من مسئوليات لجنة المنطقة ، هذه ، ايضا ، الاشراف العام على سجن النساء ، وامداده بكافة التحليلات التى ترد اليهم ، أو يقومون باعدادها ، كذا محاولة المعاونة فى حل المشاكل التى يمكن ان تبرز هنالك •

ان سجن القناطر — رجال ، بوضعه هذا ، كان سجنا دائب الحركة : من مختلف السجون واليها : من الشارع الى المحكمة • ومثل هذه الاوضاع تقتضى اقصى درجات التركيز على وحدة الحزب ، ووحدة الموقف امام المحاكم . ان أى خلاف سياسى ، داخل الحزب ، ينعكس امام المحكمة ، لابد وأن يضعف القضية سياسيا • كانت الأحكام من الناحية القانونية شبه معدة ، ومن هنا تكون الزاوية السياسية ، أساسية ، فى مثل هذه القضايا •

الا ان قضية الوحدة السياسية للحزب ، كانت من اعقد القضايا فى تلك المنطقة . فقد ارتبط ، الموقف السياسى ، عند كثير من الرفاق ، وفى كثير من الاحيان ، بالوضع الحلقى ، أو الانتماء التاريخى • وهذا الامر امر متوقع طبيعى ، لحداثة تكوين الحزب . اذ ان الثقة فى الحزب كفكرة مطلقة ، او كيان مجرد ، لم تكن هى السائدة . كانت الثقة ما زالت تستمد وجودها من الرموز التاريخية ، أو العلاقات الحلقية السابقة على توحيد الشيوعيين فى حزب واحد • ومن هنا اصبح الانتماء السياسى ، فى كثير من الاحيان ، هو المؤشر الحقيقى للانتماء التاريخى • وهذا يعنى بالتحديد ، أن الفكر الانقسامى ، كان ما يزال قويا . فان اضيفت الى تلك الاوضاع ،

حالة من العزلة عن الشارع ، والجماهير الطبيعية ، غدت المشكلة أكثر تعقيدا . فان اضيفت ايضا ، المواجهة المباشرة ، مع الدولة ، فى محاكمها ، تعقدت المشكلة أكثر فأكثر • حيث يرى كل فريق أن وجهة نظرة ، هى الوجهة الوحيدة الصحيحة ، والتى بدونها لن تعلن كلمة الحزب ، أو « تنجز الثورة » ، وأن وجهة النظر الأخرى ، مدمرة ، تضيع الحزب والثورة معا . ومن هنا احتدم الصراع الداخلى فى تلك المنطقة الى اقصى مداه وابعد حدوده •

ان لجنة المنطقة فى السجن ، أى سجن ، او فى الخارج ، فى اى موقع للحزب ، لا تملك تغيير خط الحزب • انها ملزمة به وبتنفيذه • فالحزب ، أمام الجماهير ، أو فى مواجهة الدولة ، برنامج وموقف سياسى . فان تعددت البرامج والمواقف السياسية ، أمام تلك الجهات ، فقد انتفت وحدة الحزب ، وبالتالى انتفى وجوده • ومن هنا كان موقف لجنة المنطقة فى هذا السجن ، موقفا دقيقا للغاية • يقتضى حكمة بالغة فى السلوك والتصرف قبل الأعضاء تنظيميا ، والالتزام الموضوعى بخط الحزب سياسيا ، وعدم التمييز بين الرفاق جميعا ، بغض النظر عن ارائهم السياسية أو انتماءاتهم التاريخية . الا ان لجنة المنطقة لا يمكن ان تنجز هذا العمل بمفردها ، انه يقتضى من باقى الأعضاء ، ايضا ، وخاصة الكوادر منهم ، نفس القدر من المسئولية . ومع ذلك تظل المسئولية الأولى هى مسئولية اللجنة التى تصدت لقيادة المنطقة .

كان الرفاق الذين يختلفون مع خط الحزب السياسى ، يرون ان لجنة المنطقة تمثل تيارا تاريخيا بذاته ، هو حزب العمال والفلاحين الشيوعى (ع . ف) • ولم يكن ذلك صحيحا • حقيقة ان الاغلبية ، تاريخيا ، كانت من هذا التيار ، الا انه كان هنالك ، ايضا ، رفيقين آخرين ، واحد من (الراية) والآخر من (الموحد) تاريخيا • ان تشكيل المنطقة قام على أساس قاعدة تنظيمية ، بان الرفاق الذين كانوا فى المستوى التنظيمى الأعلى بالخارج ، هم الذين يشكلون المستوى التنظيمى الأعلى بالداخل . وهنا يمكن للصدفة ، ان تشكل المنطقة باغلبية تاريخية ، من هنا أو من هناك ، لكن الشىء الذى لا يمكن أن يترك للصدفة أبدا ، هو الالتزام بخط الحزب السياسى .

يقول عبد المحسن شاشه ، « علاقتى وتجنيدى كان يرجع الى (ع • ف) ، الا اننى ، فى السجن ، وعيت اشياء كثيرة . اتضح امامى ان خط الاحتكار وشبه الاحتكار ، خط ضحل ، لا يصلح لتحليل طبقى

صحيح للواقع المصرى . بل وادركت : أكثر من ذلك ، انه تحليل غير ماركسى · ان الاحتكار هو الاستعمار ، ولم يكن منصورا ان تبدا مصر حلقة فى سلسلة استعمارية ، فى عصر انهيار النظام الاستعمارى · لقد استطعت سياسيا ان احدد موقفى ، ولكننى تنظيميا ، موجود داخل الحزب » ·

القضية ، هنا ، ليست ان يختلف العضو او يتفق مع راى الحزب · فكلاهما أمر طبيعى . لكن القضية الهامة ان يدور هذا الخلاف داخل الحزب ، وفى اطره التنظيمية ، وطبقا لقانونه الأساسى ، الا وهو اللائحة . وحينئذ يكون الاتفاق أو الاختلاف فى الرأى ، طريقا الى دعم أو تصويب أو تغيير وجهة نظر الحزب ، مع تطويره وارساء تقاليد نضالية صحيحة فى مواجهة الخلاف داخله · ليست القضية ان نختلف ، لكنها دائما وابدا . هى كيفية معالجة هذا الخلاف ، بما يدعم الوحدة ، وليس بما يؤدى الى الانقسام والتمزق .

ان الفكر الانقسامى ، ليس بالضرورة صادر عن رفاق انهزاميين ، اى يدبرون ، عمدا ، هزيمة الحزب ، لكنه بالتأكيد فكر دخيل على حزب الطبقة العاملة · فخط الطبقة العاملة هو الوحدة ، حيث ان وضعها الطبقى والاجتماعى ، يجعل وحدتها هى سلاحها الأساسى لتحقيق مطالبها · أما الفكر لانقسامى ، فهو فكر البورجوزية الصغيرة · فكر أصحاب الدكاكين · فالصبى الذى يعمل فى دكان ، أو فى ورشة ، لن يصبح مرموقا يحقق ذاته ، الا أن غدا هو نفسه صاحب دكان جديد أو ورشة جديدة ·

وقد يرفع الفكر الانقسامى شعارات براقة ، كضرورة ممارسة الديمقراطية ، وانتخاب لجنة المنطقة ، حتى تعكس هذه اللجنة ، الغالبية القاعدية بأصولها التاريخية والسياسية · والحقيقة أن اجراء اية انتخابات داخل السجن على هذا الأساس ، مناف لكل ديمقراطية حزبية . ان الاغلبية القاعدية ، المخالفة لراى الحزب ، ان صح ذلك بالفعل ، ليست نتاج موقع نضالى أو انعكاس لارادة الجماهير وتفاعلها مع خط الحزب السياسى من عدمه . انها اغلبية ، ان صحت ، مرة أخرى ، ناتجة على تشكيل قضايا ، وبالتالى هى اغلبية مفتعلة ، عرضة لأن تتحول الى اقلية ، فى أية لحظة ، ان حدثت محاكمات ، ثم ترحيل للمحكوم عليهم من الرفاق ·

واذا افترضنا الاخذ بهذا الطرح ، وتحقق بالفعل ما استهدفه المطالبون به ، اى اصبحت اللجنة القيادية مخالفة لراى الحزب الرسمى ،

فهل كان لهذه الاغلبية ، ان تفرض ، فى هذا المكان ، رأيها الخاص ، وتلغى رأى الحزب ؟ ام انها كانت ستدافع عن خط الحزب ؟ الاحتمال الارجح انه لو تم ذلك ، لحاولت تلك الاغلبية الجديدة ، المخالفة لخط الحزب ، فرض مفهومها المخالف . وهنا تكون قد كشفت عن عدم ايمانها الفعلى بالديمقراطية الحزبية التى تتجسد فى المركزية الديمقراطية ، مهدرة أحد بنودها الأساسية ، الا وهو خضوع المستوى الادنى للمستوى الأعلى . ان هذا الاحتمال ، بالخروج على خط الحزب ، او الانشقاق عليه ، أمر تؤكده مجريات الاحداث داخل هذا السجن . يقول صابر زايد ، « من الناحية السياسية ، كانت هنالك صراعات حول مواضيع مختلفة . كان التناقض أساسا بين « الراية » و « ع . ف » . صراعات حول القيادة . من ينفذ ومن لا ينفذ خط الحزب . كانت الاوضاع سيئة ، حتى ان مجموعة خرجت ، واسمت نفسها « الافق » ، امتدادا « لافق » الواحات ، بعد ان سمعوا بها ــ وكان محمد المستجير وماهر سمعان والمام رفاعى ضمن هذه المجموعة » .

ان هذا التناول من زاوية ، ما كان يجب ان تكون الامور عليه ، او من الزاوية المبدئية ، لا يعنى ان لجنة المنطقة لم تقع فى الخطأ . ان المنهج التنظيمى الذى تتبعه اية قيادة او سياستها التنظيمية تلعب دورا هاما وجوهريا فى الحفاظ على الحزب ووحدته ، او تعميق الخلافات واذكاء روح الحلقية فيه . يقول صابر زايد ، « كنت مضطهدا على أساس اننى انتمى تاريخيا الى « حدتو » . وان هذا الانتماء يعنى انه لا اطمئنان الى ، واننى لابد عائد الى جماعتى التاريخية . كان الوضع الحزبى مفككا ، وهنالك صدامات شخصية . فاضطررت للاقامة مع زملاء من « حدتو » ، مثل فاروق ثابت وعبد السلام الخشان ، على اساس التوائم الشخصى فقط . كانت لديهم نظرية المجموعة الاشتراكية ، وكنت انا ضد هذه النظرية . كنت ارفضها واعتبرها هجصا لا اساس له . وبقيت معهم ، على هذا الاساس ، حتى قدمت للمحاكمة » .

ويقول عبد المحسن شاشه ، « كانت هنالك تصرفات لا مبدئية من الزملاء ، الذين يمثلون خط الحزب الرسمى ، فى مواجهة المعارضة داخل الحزب . لقد حاول بعض هؤلاء الزملاء الاعتداء على الزميل مصطفى عبد العزيز ، وكان ضعيفا ، مريضا بالقلب ، يقيم بمفرده ، وان كان سليطا فى السياسة . فمنعناهم من ذلك وضربناهم . واتخذت لجنة المنطقة قرارا بوقف ثمانية زملاء كنت انا منهم ، ومنصور الاكشر ، ومحمد يوسف ، ومصطفى عبد العزيز ومحمود العطار . ورأى البعض ، نتيجة ذلك ، ان نستقل فى حياة عامة ، غير تلك التى للحزب ، الا اننا رفضنا

ذلك • كنا نرى أن هذه الاخطاء لن تدوم ، وان هذه الاشكال اللامبدئية لا تعبر عن الحزب . فسجن القناطر ليس الحزب • ان كتلته الرئيسية فى الواحات . كان املنا الوحيد ان ننتقل الى الواحات • كنا نستعجل المحاكمه حتى ننال هذا الحق • وعند التأجيل ، كنا نصاب بالضيق الى اقصى حد ، لرغبتنا فى ترك القناطر • كنا نودع الذين يرحلون الى الواحات بالحزن والبكاء لاننا محرومون من الذهاب الى هناك » .

ويقول جمال الشرقاوى : « وقت ان كنت مسئولا عن المنطقة ، كان نهجنا توحيديا • كنا من الخارجين على أصولنا التاريخية ، تحكمنا روح الحزب الواحد . لم نكن هنالك اية مشاكل تكتلية أو شللية او حلقية • بل لقد نجحنا ، فى ذلك الوقت ، فى خلق وحدة فكرية حول خط الحزب . ولقد اثر ذلك على الرفاق تأثيرا ايجابيا ، حتى ان احدهم ، وكان من « الراية » ، تاريخيا ، صرح بان لديه ما يقلقه . ذلك ان « المصرى » أو « الراية » ، كان له فى داخل الحزب تنظيما موازيا للحزب ومستقلا عنه . وان ما رآه من روح توحيدية ، يثقل ضميره ، لارتباطه السابق ، بمثل هذا التنظيم الموازى • (وعندما ذهب هذا الرفيق الى الواحات عومل من زملائه الذين يماثلونه فى الأصل التاريخى معاملة سيئة) . اما المنطقة تحت مسئولية سامى عجيب ، فقد تميزت غالبيتها بالتحجر • لم يكن الزملاء من اصل (ع • ف) يراعون أى قدر من المرونة فى التعامل • كانوا يشكلون ، معا ، جبهة واحدة مما كان يشعرنا بالمرارة والاذى . لم اكن مختلفا مع لجنة المنطقة ، من ناحية الخط السياسى ، لكننى اختلفت معها بشكل أساسى فى أسلوب عملها ، سواء فى ادارتها للصراع السياسى داخل المنطقة أو اسلوبها القيادى .

هنالك رفاق اتخذوا مواقف داخل المنطقة مثل المهندس فوزى حبشى والدكتور مختار السيد ، وفى تقديرى أن مسلكهم ، بشكل عام ، كان مسلكا ليبراليا . كان لديهم جرأة بالغة على تحطيم القرارات وعدم الاكتراث بالتنظيم • أما بالنسبة للزميل محمود العطار ، فكان خلافه سياسيا فى الأساس . وكان أكثر احكاما لحركته التنظيمية . جمود زملاء « ع . ف » وليبرالية بعض الزملاء ، كانا سبب المشاكل فى المنطقة • ولو كانت اللجنة القيادية أكثر حكمة وخبرة ، لما وصلت الأمور الى ما وصلت اليه • كانت القيادة غير مؤهلة ، مفروضة تنظيميا وسياسيا » .

ان غالبية هؤلاء الرفاق الذين اتخذوا موقف العزلة ، بسبب الاحساس بالغربة داخل الاطار التنظيمى الحزبى ، بسجن القناطر ، أو هؤلاء الذين اتخذت منهم اجراءات عقابية تنظيمية ، ورغم ذلك تمسكوا

بعضويتهم فى الحزب ، انما هم ينتمون ، تاريخيا ، الى الحزب الشيوعى المصرى الموحد · وهم جميعا قد رفضوا الموقف الانقسامى الذى اتخذته قيادة « حدتو » ، فى منتصف عام ١٩٥٨ · وهم قد ناضلوا باخلاص واستماتة للحفاظ على وحدة الحزب ، والقتال تحت رايته · وهم بعد الضربات التى اصابت الحزب ، من جراء حملة ١٩٥٩ ، ظلوا قوة توحيدية ، مقاتلة ، تؤكد وجود الحزب فى الشارع ، وتناضل دفاعا عن مصالح الجماهير ، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من نسيج الحزب .

كما ان بعضا من هؤلاء الرفاق ، الذين اتخذت منهم مواقف عقابية ، ينتمون ، تاريخيا ، الى حزب العمال والفلاحين الشيوعى « ع . ف » · اى انهم حاليا ينتمون الى اغلبية اللجنة القيادية . الا انهم يختلفون معها ومع خط الحزب الرسمى . الا ان ذلك لا يعنى موقفا ضد الحزب ذاته ، انه موقف ضد خطه السياسى .

ان الوضع على هذا النحو يكشف عن خلل فى المنهج التنظيمى الذى عالجت به غالبية اللجنة القيادية الخلافات المثارة داخل الحزب . ان الاغلبية فى المستوى القيادى الحزبى ، قد تقع فى خطأ الاعتقاد بانها وحدها المسئولة عن الحزب ، والامينة عليه · وهى ، حينئذ ، لا تضع فى اعتبارها ، ان الاقلية جزء اصيل من الحزب ، يحس بنفس المسئولية ، وثقل الامانة . وان تلك الاقلية ، عند ممارسة المركزية الديمقراطية بصورتها الصحيحة ، يمكن ان تتحول الى اغلبية ، وبالتالى يسود رأيها الحزب · ان التعامل مع الاقلية داخل الحزب ، وفى اطاره التنظيمى (ونحن هناك نتحدث عن الذين يحلون الخلاف بالانشقاق على الحزب ، فهؤلاء قد اسقطوا بايديهم حقهم فى العضوية ، وبالتالى كل حقوقهم الحزبية واللائحية) يجب ان يكون تعاملا رفاقيا · تعامل مع وجهة نظر ، وليس تعاملا مع عملاء فى داخل الحزب . والا فاننا نكون بذلك قد نهجنا نهج البورجوازية ذاتها ، والتى تتعامل مع المخالفين لها باعتبار انهم خارجين على الوطن والوطنية · ان تعامل الاغلبية فى الحزب ، مع الاقلية ، بعقلية الوصاية على الحزب ، وعقلية ان الاغلبية هى وحدها « صاحبة » الحزب ، وأن من يختلف معها ، فقد اختلف مع الحزب ، وربما مع الماركسية اللينينية ذاتها ، انما يعكس بالكامل الفهم البورجوازى لكيفية معالجة الخلاف فى الرأى أو الموقف ، ويناقض جذريا ، واحدا من أهم مقومات المركزية الديمقراطية ، الا وهو احترام الاغلبية لراى الاقلية واعطائها كل الفرص ، طبقا للائحة الحزب ، فى التعبير عن هذا الخلاف ·

ان هذه النظرة ، دون شك ، تعكس عقلية حلقية ، من بقايا الفكر الانقسامى ، وهى ان كل منظمة على حدة ، تمثل التيار الثورى الماركسى

للصحيح ، وأن الآخرين انما هم مجرد انتهازيين ومتمركسين • ومن هنا يصبح معيار الانتماء التاريخى ، هو معيار الاخلاص للحزب . وبذا ينفى المعيار الحقيقى ، معيار الجهد والتضحية فى سبيل بناء الحزب والدفاع عيه فى مواجهة التصفية ، كمعيار موضوعى للحكم على الأعضاء •

ومن الأسباب ، ايضا ، التى فاقمت من ازمة الحزب ، فى هذه المنطقة ، ضعف الوضوح السياسى . فقد قام صراع ايديولوجى ، بعيدا عن الواقع ، الذى هو محك اختبار لصحة الخط السياسى للحزب من خطئه • وبالتالى فقد خندق كل فريق فى مواجهة الطرف الآخر ، وغدا الدفاع عن الفكر ، فى ذاته ، برغم كل ما يحبطه من عوامل القصور وكأنه دفاع عن الذات بكل عزلتها وبعدها عنالواقع العملى .

يقول عبد المحسن شاشه ، « لم يكن الصراع الايديولوجى متبلورا بين وجهتى النظر الموجودتين ، لأن كلا الاتجاهين السياسيين كان عاجزا عن احداث تغيير فى القوى العددية للطرف الآخر ، بمعنى ان المسالة غدت حلقية مصمتة ، لا يمكن التأثير فيها » .

ان عوامل موضوعية وتاريخية وذاتية قد تداخلت معا ، لتجعل الصراع داخل الحزب فى هذه المنطقة ، صراعا عدائيا . صراعا يحمل السمات الانقسامية التى كانت سائدة قبل الوحدة ، لا تلك السمات الواجبة لاعضاء فى حزب واحد • لقد غذى هذا الاتجاه ، دون شك ، وجود نقل ، حقيقى ، عددى وسياسى « لحدتو » فى نفس المكان . فى داخل ذات القوقعة • كانت هنالك قضية « حدتو » الكبرى ، والتى عرفت باسم « قضية شهدى عطية » • وكانت تشتمل على عدد لا يستهان به من كادر « حدتو » التاريخى والقيادى . وهو كادر يمثل الاصحاب الاسباسيين لفكرة « المجموعة الاشتراكية » ، والمنظرين لها • كما كان يملك علاقات تاريخية بالعديد من رفاق الحزب ، والذين كانوا ينتمون فى الأصل الى « حدتو » او الى الحزب الشيوعى المصرى الموحد • كما كانوا يمتلكون باعا طويلا فى مرونة التعامل مع الآخرين وكيفية الاستفادة من التناقضات داخل الحزب ودفعها الى أقصى مداها .

يقول عبد المحسن شاشه ، « لم يكن التنظيم الحزبى تنظيما حديديا • ومن هنا فان كثيرا من خلافاتنا داخل الحزب كانت مطروحة فى طرقات السجن . وقد مكن ذلك « حدتو » من تحديد المختلفين بسهولة والتركيز عليهم • لقد بذلوا معى محاولات ، غير معقولة ، للذهاب معهم . وكان اسلوبهم ، بالطبع ، اسلوبا غير مبدئى . كان من الممكن ان يبدأ بدعوة الى الطعام أو أشياء من هذا القبيل » .

كانت « حدتو » تشكل مركزا ضاغطا يغذى الفكر اليمينى داخل الحزب، كما يغذى ، وبالحاح ، الفكر الانقسامى ، ايضا ، وخطر ذلك انه لا يصدر عن قوة سلطوية ، تضرب الفكر بالسوط والعصا ، ولكنه يصدر عن مجموعة تحمل اسم « الحزب الشيوعى المصرى ـ حـدتو » ، أى تتكلم باسم الشيوعية ، وتضفى على افكارها رداء من نصوص مجتزئة منزوعة من واقعها ، وتحاول فرضها قسرا على الواقع المصرى . أى تحاول ان تناقش الفكرة بالفكر ، مع خلفية توحى بان استمرار الحزب على افكاره « اليسارية المدمرة » ، انما هو السبب الرئيسى لاستمرار السجون والمعتقلات . أى انها تغازل كوامن الضعف ، التى يمكن تواجدها انسانيا ، طارحة فكرها وتنظيمها باعتباره الطريق الى خارج الاسوار .

كل ذلك ، بالتأكيد لعب دورا هاما وخطيرا فى صعوبة الاوضاع الحزبية وتعقيدها وتعثرها فى منطقة سجن القناطر ـ رجال .

ومع ذلك ، يقول جمال الشرقاوى ، « كنا متحمسين ومقتنعين بخط الحزب ، رغم انه ، حسب تقديرنا الآن ، كان خطا يساريا فى بعض جوانبه ، الا انه ، حينذاك ، كان يمثل موقف التشدد امام الضربات التى كانت تكيلها الحكومة للحزب . وكان يعطينا تفسيرا وتبريرا ، اكثر منطقية ، لما تفعله السلطة . وكان يجعل مواقفنا ، نحن ايضا ، أكثر منطقية . كنا قادرين على شد الناس . نخوض معاركنا بحافز وقوة ، مما اكسبنا مكانة وسمعة طيبة امام النيابة والادارة والسجانة . كان كلام « حدتو » متهافتا ، أما نحن فقد كان فى وسعنا أن نجادل ونقاوم ، فى الوقت الذى كان فيه تفكيرهم ، هم ، يضعهم فى موقف الضعف » .

الحيــاة العــامة :

الحياة العامة ، هى اطار حياتى مشترك ، مسئول عن عدالة توزيع الامكانات المتاحة ، والعمل على زيادتها ، وتنميتها ، حفاظا على الحد الادنى ـ على الاقل ـ للمستوى المعيشى والثقافى ، للحياة داخل السجن .

كانت بسجن القناطر ـ رجال حياتان عامتان منفصلتان . واحـدة تضم اعضاء الحزب ، والأخرى تضم اعضاء « حدتو » . وكان الانقسام فى الحياة العامة ، أمرا مقصودا ، من قبل جماعة « حدتو » ، حيث كانوا يسعون للتمايز عن الحزب ، واشهار اعلان هذا التمايز ، فى كل صـورة ممكنة ، وفى كل مناسبة متاحة .

كانت الحياة العامة تقوم فى داخل الحزب على أساس المصـادرة بنسبة ١٠٠٪ . كانت كل الامكانات التى ترد الى اعضاء الحزب تصـادر

لحساب مجموع العضوية ، وتوزع عليهم بالتساوى • وكانت الحياة العامة الحزبية تتأثر ، احيانا ، باشتداد الصراع الداخلى فى الحزب ، حتى أن بعض الرفاق الذين وقعت عليهم عقوبات تنظمية ، فكروا فى اقامة حياة عامة ثالثة ، الا انه من بين الرفاق المعارضين انفسهم ، من كان يتصدى لهذه الفكرة ويرفضها رفضا باتا . وقد أدى هذا الموقف الصحيح ، الى بقاء كل الرفاق الذين أضيروا تنظيميا أو تركوا الحزب ، فى الحياة العامة الحزبية • وكان الرفيقان سامى عجيب وأحمد الجبالى هما المسئولان عن الحياة العامة الحزبية •

وكانت الحياة العامة التابعة « لحدتو » ، تصل ايضا الى هذه النسبة . يقول الرفيق فاروق ثابت ، وكان حينئذ ، مسئولا عن الحياة العامة « حدتو » ، « كل الناس كانوا يعيشون معيشة واحدة • ذلك هام فى الحبسات الطويلة . أما فى الحبسات القصيرة ، فيصعب تخليص الناس ، وخلعهم من بيئتهم الخارجية ، دفعة واحدة . وهنا ، يمكن ان تكون الحياة العامة خمسين فى المائة مصادرة ، والباقى لصاحب الطرد ؛ أو الامانة • فى تلك الحبسة عشنا على الفول والعدس ، حتى اهترأت بطوننا . ولم تكن هنالك فرصة لأن يتميز البعض داخل الحياة العامة » •

بعد ، بداية اوردى ابو زعبل ، والمجازر التى جرت فيه ، وبعد بداية التعذيب والتنكيل فى منفى المحاريق ، انتقلت بعض القسمات التى فى كليهما الى سجن القناطر - رجال • جاء أحد لواءات مصلحة السجون لزيارة السجن . جمع كل المسجونين الشيوعيين . حاولوا ان يثيروا معه الاوضاع السيئة التى يعيشون فيها ، الا انه بادرهم باوضاع اشد سوءا : « منذ اليوم ، لا احذية ، لا ملابس داخلية ، لا زيارات ، لا شىء على الاطلاق » • وانصرف .

وجاء طبيب جديد الى السجن • كان ذلك فى اواخر عام ١٩٦٠ واوائل عام ١٩٦١ • لم يكن طبيب سجون ، اذ كانت الادارة الطبية ، بوزارة الشئون الاجتماعية ، هى المشرفة على الادارة الطبية للسجون • كان طبيبا انسانا ، افزعه ان يرى الحال الذى كان عليه ، الرفاق المسجونون ، تحت التحقيق • كانوا يرتدون ملابس السجن فوق اللحم مباشرة ، يسيرون حفاة ، وينامون مرضى واصحاء ، فوق الابراش • كان المسجون ، تحت التحقيق ، الدكتور جميل حقى هو ممثل الحياة العامة الحزبية ، وكان الدكتور ممدوح الجندى ، هو ممثل الحياة العامة « حدتو » • واتفق معهما طبيب السجن على خطة ، يرتدى ، على اساسها ، الرفاق ، الشباشب والملابس الداخلية . وتقوم هذه الخطة على « الروشتة »

الطبية ، اى ان يقول الطبيب ، ان هذا المسجون سيء الصحة ، بسبب تأثير الرطوبة والحفاء ، ولذا يسمح له بحذاء أو شبشب وملابس داخلية . وفي خلال شهر واحد ، كان الجميع يرتدون الملابس الداخلية ، وشيئا ما في اقدامهم . ثم بدأ في صرف المراتب للمرضى ، كما صرف لهم وبعض الرفاق ايضا غذاء لبن وبيض وعيش فينو وخضار ودجاج . وكل تلك الاشياء كانت تدخل الحياة العامة ، مع صرف الغذاء اللازم للمرضى بالفعل . لم يطالب الرفاق في كلتا الحياتين العامتين ، أو يلحون في طلب تغيير ملابس السجن . فقد كان ذلك يعني شراء منامات وجلاليب للرفاق جميعا ، ولم تكن امكاناتهم تسمح بذلك . اذ كان الامر فوق طاقتهم المادية .

كل ذلك لم يكن استردادا لحقوقهم كسجناء ـ تحت التحقيق ـ طبقا للائحة السجون ـ ولكنه كان موقفا انسانيا ، من طبيب شجاع ، عرف كيف يلتف حول تعليمات المباحث العامة . ومعنى ذلك ان كل هذا الوضع كان وضعا موقوتا بوجود هذا الطبيب ، وانه في حالة تغييره بطبيب آخر ، لا يكون على هذا القدر من الانسانية والشجاعة ، أو ذا علاقة مشبوهة بالأجهزة الأمنية ان تعود الاوضاع الى ما كانت عليه ، طبقا للتعليمات الاساسية الواردة من المباحث العامة .

كانت الحياة العامة ، ايضا ، مسئولة عن تنظيم توزيع السجائر على الرفاق المدخنين ، وكان نصيب الفرد الواحد ، في اليوم الواحد ، سيجارة واحدة .

ولقد حاول الرفاق مواجهة الاوضاع الصعبة التي يعيشونها ، وذلك باصدار مجلة سياسية ، واعداد معرض فني ، كذلك عقد بدوات فكرية وسياسية مفتوحة للجميع .

المجلســة :

اصدرت لجنة منطقة القناطر مجلة سياسية ، اربع أو خمس مرات ، تحت اشراف مسئولها سامي عجيب . كانت المجلة في حجم كف اليد وكان الرفاق يعمدون ، ليلة اصدارها ، الى تدبير التسكين ، بحيث يتواجد كل العاملين فيها ، في غرفة واحدة . كانوا يستخدمون الفتيل العادى للانارة قبل دخول الكهرباء الى السجن . قطعة قطن في زيت اليمك ، وحتى لا يرى السجانة ، نوبطشية الليل ، هذه الاضاءة الباهتة ، كانوا يسدون شبابيك الزنزانة ، وشباك بابها ، وفتحة النظارة بالباب واسفله

بالبطاطين · فلا يبين من الخارج شيئا . كانت تكتب فيهـــا المقالات ، والشعر ، والنكات ، ورسوم الكاريكاتير ، والموتيفات ، والغلاف الملون · كانت شيئا أقرب الى مجلة روز اليوسف · مجلة كاملة تعد طوال الليل ، وفى الصباح تبدأ عملية تداولها بين الرفاق ·

الأعمال الفنيـــة :

يقول اكـــرام محـــارب وهـــو رفيق تحت التحقيق ، فنسان نحـــات : « فى سجن القناطر ، كان لدينا وقت بلا حدود · كنا نجلس هكذا دون عمل ، سواء كانت الزنازين مفتوحة علينا ام مغلقة . رأيت المســـاجين العاديين يصنعون الشطرنج من لبابة الخبز · كانوا يضعون فيها ملحـــا فتكتسب بعض المرونة ، ثم يستخدمون الهباب حتى يكون اللون اسودا » ·

ان الشيء الذى لم يكن يعرفه الرفيق اكرام محارب حينذاك ، أن هذا الذى يفعله المسجونون العاديون ، انما قد تعلموه منا نحن فى حبسات سابقة ، وهم قد استمروا فيه ليأخذه زملاؤنا عنهم فى تلك الحبسة .

بدأ اكرام محارب فى اجراء تجاربه الخاصة ، وجد أن لبابة الخبز خامة معقولة · كان ، بداءة ، يقوم بتنظيفها من « الردة » ، حتى تكون أكثر مرونة ، ثم يحتفظ بها يوما أو يومين أو أكثر فتزداد لدونتها . ثم اخذ فى اعداد الألوان من صيدلية السجن · بدأ بالميكروكروم وصبغة اليود · اكتشف ان الاخيرة يتلاشى لونها بعد يوم أو يومين · فطلب فى احـــدى الزيارات ، أن يرسلوا له من الخارج بلورات صفراء ، وريفلافين وميثيلين بلو · وهكذا اصبح لديه اللون الاصفر والاحمر والاســـود · وكانت اللبابة ، بطبيعتها ، ذات لون اسمر . فان شاء ان تكون بيضاء ، اضاف لها معجون الاسنان ، فتصبح ناصعة . غدت العجينة المصنوعه من لبابة الخبز مادته ، يشكلها كيف شاء ، يخففها بالمـــاء أو الغراء أو ايـــة مادة لاصقة ، اذا خففت أكثر ، اصبحت نشاء ، يشبع به الشاش الطبى ، فيصبح شاشا ملونا منشيا ، يقصقصه ، يصنع منه اشكالا مختلفة . استخدم الصابون « السانلايت » ، ايضا ، كان يقطعه الى قطع مناسبة ، ثم يقوم بتلميعه واستخدامه كقواعد تبدو وكانها من الرخام ·

يقول اكـــرام محارب ، « كان الصبر امرا هاما جـــدا فى مثل تلك الأعمال . كما يلزم الداب لتحقيق نقش ادق من اطراف النمل . الشىء الواحد يصنع على مراحل . الوردة ، مثلا ، تنفذ فى يوم ، ثم تترك حتى

تجف ، ثم يأتى العنق فى يـوم آخـر ، ثم اوراق الفرع فى يوم ثالث ، والقاعدة ، أخيرا ، فى يوم رابع . كنـا قد اعددنـا مخابئـا نضـع فيها الانتاج ، حتى نتمكن من تهريبه ، فيما بعد ، الى خارج السجن • ثم بدأت فى عمل اشياء مجسدة . رأس حصان أو رأس حمار • كنت اقوم بعملها من عشرات القطع ، ابدأ بصف الاسنان ثم اللزقه فى الفك ، ثم صف اسنان ثان واللزقه فى الفك الثانى ، ثم لسان ملون بين الفكين ، ثم لحام الفكين ، ثم الاذنين ، فاللجام والعرف والشراشيب ، وكل الاجزاء الأخرى • هذا العمل كله لا يتجاوز سنتيمترات معدودة • صنعت ايضا حمامة الســلام وطيور أخرى مختلفة •

كانت الادوات المستخدمة فى هذه الأعمال الفنية هى : نصف شفرة حلاقة ، ابرة ، قطعة زجاج ، وعدد من زجاجات البنسلين بها الالوان • كنت اصنع كميات من العجين ، وألوانها ، واخزنـها ، واسحب منها حسبما اشـــاء .

كان من أهم القطع التى صنعتها ، بابا نويل • كانت قطعة كبيرة ، ذات قاعدة مكونـة من قطعتين من الصابون ، الى جوار بعضـهما البعض . والقطعة عبارة عن حصان يجر عربة كارو ، ويسوق بابا نويل الحصـان • كان فوق العربية شجرتى عيد الميلاد . وكان الحصـان كاملا : ذيله وشعره واذناه ، وما يوضع عليه من لباس وزواق ، حتى حوافره ، صنعت بكـل تفاصيلها . ثم العربة ، العريش ، العجلات ، الاكسات والمحاور . ولم يكن ظهر العربة قطعة واحدة ، كان قطعا لصقت متجاورة ببعضها البعض ، كذا الطوق الحديدى حول العجلات ، وقد استخدمت فيه الورق الفضى لعلب السجائر ، والفانوس معلق ، يتحرك فى مؤخرة العربة ، بكلّ اجزائه والوانه ، بحيث يبدو وكأنه مضاء ، وذلك باستخدام الألوان المتدرجة • كان حجم هذا الفـــانوس ، بكل ما فيـــه ، لا يزيد عن حجم رأس عــود الكبريت ، الا قليلا • وبابا نويل ، بذقنه وشفتيه وحاجبيه وعينيه ويديه الصغيرتين للغاية ، واظافره التى كان بها طلاء الاظافر ، « اكلادور » . كنت لم استطع عمل بعض التفاصيل ، فاستعضت عنها بمؤثرات لونية ، تعطى الانطباع المطلوب • وكان بابا نويل يمسك ، بيده الصغيرة تلك ، لجام الحصان » •

كان الرفاق يتابعون تلك الأعمال ويجرون حولها دراسات فنية ، وربما كانت سياسية ايضـا •

وقام اكرام محارب برسم لوحة ، لفتاة تطل من نافذة ، ذات ضلفة مفتوحة • الشيش واضح ، وكذا الخروم فى الخشب ، وستارة ووردة •

يوم ان انتهى من هذه القطعة الرقيقة ؛ كانت تذاع لأول مرة ، اغنية « ساكن قصادى » ، فاطلق عليها نفس الاسم · الا ان الرفاق انتقدوه ، قائلين ان هذه اللوحة ، تعكس مزاجه الوردى ، فهو نائم مسترخ فى السجن ؛ يرسم « خواجاية » ذات « ببيونات » فى شعرها ؛ وستارة ايضا . إشياء كلها « بورجوازية » . فقام اكرام بتكرار القطعة ، صانعا غلاحة تلبس عقدا من الكهرمان ؛ والى جوارها مصباح جاز ؛ وبذا اصبح العمل الفني « ثوريا » ، ورضى عنه الرفاق « النقاد » · صنع اكرام العشرات من هذه التماثيل .

وبدأ عدد من الرفاق يبدون رغبتهم فى المشاركة أو القيام بمثل تلك الأعمال الفنية . فشكل منهم اكرام مجموعة فنية ، برز فيها الرفيق صابر زايد الذى كان يبرم العجينة الى ما يشبه الحبال الرفيعة للغاية ، ثم يصنع منها سلالا . واستخدم بعض الزملاء الصابون فى نحت تماثيل الوجوه ، كما بدأ البعض الآخر أعمالا تقوم على الرسم . وبذا تجمع لدى الرفاق ، عدد كبير من القطع واللوحات ، تمكنهم من اعداد معرض فنى · واقيم المعرض بالفعل فى احد الزنازين ، حيث قدمت فيه أعمال ثلاثة او اربعة من الرفاق · وكانت كل المعروضات من المنمنمات وقطع الصابون المنحوتة .

بدأت ادارة السجن ، بعد هذا المعرض ، تبدى اهتماما خاصا بالاعمال التى يقوم بها الرفاق · كان مأمور السجن يعلق فى سيارته ؛ راقصة بالية ، من صنع اكرام · وقد حل ، هذا الاهتمام ، لاكرام كثيرا من المشاكل التي كان يمكن ان يتعرض لها · اذ كانت تعتبر كل الادوات التى يستخدمها ؛ ممنوعات ، تعاقب عليها لائحة السجون · وغدا تفتيش زنزانته ، تفتيشا شكليا . بل ان احد الجنود ، عثر ، فى فترة من فترات الشد مع الادارة ، على تمثال بابا نويل ، فقام باخفائه ؛ واعادته اليه مرة اخرى ، بعد ذلك ·

طلبت ادارة السجن من الرفاق تجميل حجرة الزيارة بالسجن · كانت حجرة قديمة ، بشعة المنظر ، حجرية المقاعد · ضمت ادارة السجن حجرة اخرى اليها . وبدأ الرفاق العمل . ازيل الحائط المشترك وكذا المقاعد الحجرية . رسم اكرام محارب لوحة كبيرة للغاية تشبه تمثاله « ساكن قصادى » . فتاة ذات ضفائر ، تقف فى نافذة ، نصفها مفتوح ، وقفة ، الانتظار . ثم تم تغيير دهانات الحوائط من الجير الى الزيت ، وغدا لكل حائط لون مختلف ، عن باقى الحوائط · كما وضعت ستائر ملونة ، بطول

الحوائط ، تم اعدادها من اقمشة السجن بعد تلوينها • ثم بدأت اعمال الديكور ، وكانت كلها من اسلاك « مجلفنة » ، ثم تشكيلها ، باستخدام كاوية ولحام وموقد وحامض واقراص خشبية ثلاثة مختلفة الاحجام ، وكذا بنسة او كماشة . كان التقطيع والتشكيل يتم فى زنزانة داخل العنبر ، ثم يثبت على الحوائط : وجه سجين يرتدى كاب السجن . أحد السجناء فى استقبال زوجته ، وآخر يمسك بخطاب يفتحه • الاشكال كلها من واقع السجن ، وحياته اليومية • كما تم صنع قاعدة تمثال ، يمكن ان تستخدم فيما بعد ، واعداد مكان مناسب لضابط الزيارة • وجاء دور الاثاث فكان بسيطا ، جميلا ، موزعا بطريقة منسقة •

ما ان انتهى الرفاق من اعداد حجرة الزيارة ، حتى طلب المأمور من الرفيق اكرام الاشراف على اعداد استراحة الضباط ، خارج مبانى السجن • ومنذ ذلك الوقت اصبح للرفاق ، فى العنبر ، زنزانة خاصة بالأعمال الفنية ، زنزانة تكاد ان تكون « اتيليه » . وطلب اكرام طينا اسوانليا ومنضدة وجردل وخيش لصناعة التماثيل ، فاحضرتها الادارة • ثم طلب فرش ألوان ، والوان ، وزيت ولوحة وحامل ، فاحضرتها الادارة ايضا .

ولم يقف الامر عند هذا الحد • كان الرفيق فوزى حبشى ، ضمن المسجونين احتياطيا ، تحت التحقيق . فعرض عليه مدير المنطقة ان يصمم له فيلا من ثلاثة ادوار . كان المطلب شخصيا ، الا ان الرفاق وجدوا فيه منفذا للحركة ومخرجا لقضاء الكثير من حاجياتهم . يقول فوزى حبشى ، « ابديت موافقتى واستعدادى ، الا ان مثل هذا العمل يحتاج الى زنزانة انفرادية خاصة ، تدخلها الكهرباء ، كذا لابد من توافر امكانيات مثل الورق والقلم والمحاة وادوات الرسم ومنضدة . وبالفعل اعدت زنزانة ، احضرت فيها كل تلك الاشياء ، وهى الممنوعة علينا وعنا منعا باتا • بدأت باعداد رسومات الفيلا • وكان لابد من عمل « ماكيت » لها ، وهو جهد يحتاج الى معاونة رفاق آخرين . وبالفعل اشترك فيه اكرام محارب وصفوت عباس وصابر زايد ، الذى كانت يده جيدة فى صناعة الماكيتات ، والذى حدد اربعة عشر رفيقا للعمل معه . استمر العمل فى هذه العملية قرابة عام • كنا نتحرك فيه انا وستة او ثمانية رفاق ، داخل السجن فى حرية تامة • اذ كان يلزم ان تذهب الى الورش لتنفيذ بعض المطلوبات • واخيرا انتهى « الماكيت » من الخشب الابلكاش . وكان

مفرغا من الداخل ، حيث قام احد مهندسى مصلحة السجون بتوصيل الكهرباء اليه لاضاءته · ووضع فى معرض مصلحة السجون لهذا العام . وكانت المصلحة فخورة به للغاية » ·

الأعمال التثقيفية :

فى الشهور الأولى لعام ١٩٦٣ ، تلاحقت الأحداث ، كان ذلك بعد معركة الاضراب عن الطعام والتى خاضها رفاق الحزب ، داخل السجن ، فى اواخر عام ١٩٦٢ . وقع انقلاب عبد السلام عارف ، ضد عبد الكريم قاسم ، ثم انقلاب ٨ مارس فى سوريا . كانت المجلات المصرية والاجنبية وجريدة الموند مترجمة تصل الى الرفاق ، كما وصلتهم رسائل زوجة سلام عادل ، سكرتير الحزب الشيوعى العراقى ، وأخبار مؤتمرات الشغيلة فى الاتحاد السوفيتى ، ومؤتمر الاتحاد النسائى الدولى . واستغرقت الاحداث الرفاق ، فعقدوا ندوة دائمة مفتوحة لكل المسجونين السياسيين لمتابعة الاحداث فى العراق وكذا احداث امريكا اللاتينية . كذلك كانت هنالك مجموعة محاضرات فى الاقتصاد السياسى والقضايا العامة · يقول عبد المحسن شاشه ، « فى ذات هذا الوقت ، كانت « حدتو » تعقد ندوة اسبوعية ، اسمها « سوفيتات » · كان الاسم ، بالطبع ، مشوقا ، لكن مضمون ما كان يجرى فيها ، كان تحليلا لاجراءات عبد الناصر ، بدءا بالاصلاح الزراعى حتى السد العالى ··· الخ ، كان كلامنا نحن اكثر جذرية ، وأكثر فهما للقضايا . وكان المشاهد لهم ولنا ، يستطيع ان يحدد ، من هم الشيوعيين فى هذا المكان » .

كان فى وسع الرفاق فى ذلك الوقت ، ادخال كتب الى السجن · وهكذا اصبحت لديهم مكتبة خاصة بهم . كان مسئولها الرفيق عبد المحسن شاشه . وانتعشت حركة ثقافية ، تعرض هذه الكتب وتناقشها · وغدت فترة ، ما بعد الاضراب ، فترة غناء فكرى وثراء ثقافى ·

الفصل الرابع

الاضراب عن الطعام

الاوضاع المعيشية فى سجن القناطر ـ رجال ، اوضاع سيئة للغاية • الجميع يرتدون ملابس السجناء تحت التحقيق ، والغالبية منهم ، دون غيارات داخلية . معظم الرفاق حفاة . التغذية رديئة نوعا ؛ وقليلة كما • اليمك هو الطعام الأساسى ، من الاعشاب خضراء ، لا يستطيع المرء التعرف على نوعها ، اللحم دهون وجلود ، تعافها النفس • الناس تأكل مجبرة ، حفاظا على حياتها • لا يسمح بادخال الطعام من الخارج او مع الزيارة • الرفاق يعانون مجاعة حقيقية • لا تعامل مع كانتين السجن ، وان سمح بذلك ، احيانا ، ففى حدود جنيهين فقط ، كل شهر ، للمسجون الواحد . غالبية الرفاق ، بلا قدرات مالية . ظروفهم وظروف أسرهم عسيرة للغاية . المدخن يحصل ، ان حصل ، على سيجارة واحدة فى اليوم ، يقطعها الى خمسة اجزاء ، ليدخن خمس مرات ، تكاد تكون المرة ، شهقة واحدة . لا علاج البتة • كل ما يصرف للجميع هو الاسبرين • هنالك حالات مرضية مزمنة ، بلا سرير أو مراتب او غذاء طبى . كان اثنان فقط لديهم سررا ، وقد تحقق لهما ذلك بقتال مرير ، كالامتناع عن الطعام ، والصدام مع الادارة . الجميع ينامون على الأرض ، على الابراش المشبعة بالرطوبة ، والحوائط تنشع ماء • الزنازين تمرح فيها الحشرات وخاصة البق ، والادارة لا تستخدم المبيدات الحشرية ، وعلى الرفاق أن يجهزوا عليها بقتلها • نوافذ الزنازين ، أو الاصح ، تلك الكوات المتواجدة فيها بلا مغاليق ، مفتوحة صيفا وشتاء ، تصب عليهم صقيعا ، يفرى الاجساد . الحبس فى الزنازين طوال اليوم ، والخروج منها ساعة فى الصباح وأخرى فى المساء ، من أجل قضاء الحاجة فى دورة المياه وغسيل الاطباق وتفريغ جرادل البول والفضلات وملء جرادل المياه • فى الاحوال العادية كانت الزنازين تفتح معا ، على الا يتواجد احد خارجها • اما فى أحوال الشد مع الادارة ، وتلك هى الاحوال الغالبة ، كانت الزنازين تفتح واحدة اثر الأخرى ، أو ربع الدور معا ، أو نصفه ، طبقا لدرجة الشد والجذب ، وادارة السجن تتخذ من هذه العملية مجال احتكاك لا يتوقف بينها وبين الرفاق ، انها دائما تحاول العودة بالاوضاع الى درجة الصفر ، اى العودة الى الاغلاق طوال اليوم • الحمام مرة واحدة فى الاسبوع . الرفاق يحشرون فيه بطريقة لا انسانية . الجميع معا ، عرايا ، تحت مياه تتراوح ما بين السخونة الى حد الغليان ، ثم البرودة الى درجة شديدة

الانخفاض . لا طابور شمس او رياضة ، لا تعامل مع مكتبة السجن : لا اذاعة ، لا كتب ، لا جرائد ، لا أوراق ، لا اقلام ، الزيارات الاسبوعية ، أى زيارة السلك ممنوعة ، المسموح بها فقط ، زيارة خاصة ، وهى زيارة شهرية ، لابد ان يتم التصريح بها عن طريق النيابة . والزيارة الخاصة مجال شد وجذب بين العائلات الزائرة والادارة . انها تسمح للزائرين ، احيانا ، ان يدخلوا وما معهم من غذاء ، على ان ياكله الرفيق اثناء الزيارة ، ولا يأخذ منه شيئا ، معه ، الى العنبر . واحيانا يمنعون شيئا ويسمحون بآخر . وأحيانا يحاولون منع الزائرات من الدخول بحقائبهن الخاصة ، وتغدو الزيارة شجار واحتجاج وغم وعذاب . يقول حسام ابن الرفيق فوزى حبشى « كنت اكره يوم الزيارة كراهية الموت . لم اكن أحب هذا اليوم ابدا . كان يوما مثيرا للضيق والقرف . اذ كان علينا ، وكنا حينذاك صبية صغارا ، ان ننتظر فى الخارج مع زيارات تجار الحشيش وغيرهم . وكان علينا ان نستمع طوال الوقت ، الى بذاءاتهم . كانت جدتى هى التى تأخذنا الى الزيارة . وكانت سيدة مسنة ، تضيق انفاسها من كل هذا الذى تراه . كنا نذهب لزيارة والدى ، عادة ، يوم الاحد . وكان الواحد منا يحمل هم هذا اليوم ، ابتداء من اليوم السابق عليه » . وتضيف نجوى فوزى حبشى ، « الا اننا رغم كل ذلك ، كنا ننام ونسهر ، نحلم بهذا اليوم ، ونفكر فيه » .

الادارة فى حالة هجوم متصل . تحاول دوما ان تنفى عن الرفاق اى حق من حقوق السجناء الجنائيين العاديين . بل وهى قد وضعت لهم لائحة خاصة ، موصى بها من المباحث العامة . ويعتبر الخروج على هذه اللائحة ، والتى هى فى حد ذاتها خروج على القانون ، أمرا يستوجب العقاب وارسال الرفاق الى التأديب . وغدت الاوضاع السجنية فوق طاقة البشر ، ولم يعد هنالك أمام الرفاق الا الاضراب العام عن الطعام . ويبدأ ، بالفعل ، الاعداد للمعركة .

فى اغسطس ١٩٦٢ ناقشت لجنة المنطقة ضرورة الاضراب عن الطعام . طرح الامر على رفاق الحزب ، ونال موافقة اجماعية من الأعضاء . لجنة المنطقة هى التى تقرر من ، من الرفاق سيدخل الاضراب . كان ألاختيار سياسيا ، أي أن يكون المضرب قادرا على احتمال الاضراب حتى نهايته ، يتميز بالنضالية والصلابة ، بغض النظر عن اتفاقه أو اختلافه مع خط الحزب السياسى الرسمى ، وكان على الدكتور جمال حقى أن يحدد مدى القدرة الجسدية على احتمال الاضراب ، ايضا . وبذا لابد

أن يتوفر ، فيمن سيدخل الاضراب : تحت راية الحزب ، القدرة القتاليـة والقدرة الجسدية معا · فواحـدة منهمـا لا تكفى ولا تعطى ، منفردة ، لصاحبها حق دخول المعركة ·

تحددت مطالب الاضراب ، فى الافراج الفورى عن الرفاق والرفيقات فى سجن النساء . والى أن يتم ذلك ، يجب السـماح للرفاق ـ تحت التحقيق ـ بارتداء الملابس الملكية أو الخاصة ، التعامل مع كانتين السجن ، وجعـل الامانات بلا حـد اقصى ، تحسـين طعـام السجن والسماح بدخـول الطعـام من الخـارج ، السـماح بالزيـارة الاسـبوعية من السـلك ، والزيـارة الخاصـة دون تعقيـد ، بمعنى ادخـال كـل ما يحمله الزائرون من اغذية أو مـلابس أو ادويـة ، العلاج والرعاية الصحية ، الجرائد والمجلات والاذاعة ، السماح بالكتب ، طابور الشمس وفتح الزنازين طوال النهار ·

وتحددت دفعات الاضراب فى دفعات ثلاث ، بين كل دفعة والأخرى يومين . الدفعة الأولى مكونة من عشرة رفاق ، والثانية مثلها ، والثالثة من خمسة رفاق ·

بدأ الاعداد للاضراب بحملة تعبئة بين عائلات الرفاق وأسرهم · كذا ارسال رسائل الى كل النقابات العمالية والمهنية والشخصيات العامة ، وكل المنظمات الدولية الديمقراطية ·

اعدت الشرب اللازمة لتناولها قبل دخول الاضراب مباشرة ، تنظيفا للبطون وتفريغها من اية فضلات · بدأت الدفعة الأولى الاستعدادات اللازمة . وكان ذلك فى شهر سبتمبر ١٩٦٢ .

فى اليوم المحدد للاضراب ، توجه الرفاق مسئولو الحياة العامة الى ادارة السجن طالبين مقابلة مأمور السجن . ابلغوه بالمطالب ، فرد عليهم بانه سيقوم بتوصيلها الى الجهات المختصة · طالبوا بحضور النيـابة العامة فرفض . اعلنوه بالاضراب ، فارسل بهم الى التأديب · وللحـال اعلنت الدفعة الأولى دخولها المعركة ·

بدأ الاضراب ، وتصادف ، مع بدايته ، انعقاد « مؤتمر شتورة » بلبنان · اعلنت جماعة « حدتو » انها ترفض الاضراب وتدينه . اعتبروا وقوعه فى تلك الظروف ، احراجا للنظام · توجه مندوبون عنهم الى ادارة السجن ليبلغوها ادانتهم للاضراب . وأن القصد منه « احراج النظـام

والحكومة الوطنية » ، وأن البعض فى « مؤتمر شتورة » سوف يستند الى هذا الاضراب ليدينوا « حكومة مصر الوطنية » بالديكتاتورية » • وانهم يرون فى الاضراب خطأ جسيما طبقا لتقديراتهم السياسية • كان هذا الموقف من جماعة « حدتو » طعنة ، لا شك فيها ، فى ظهر المضربين الذين يخوضون معركة ، سوف تعود عليهم هم انفسهم بتحسين اوضاعهم المعيشية السجنية • كان يعنى بالتحديد تمايزا وانقساما ، فى قضية مشتركة • والنتيجة التى لابد واقعة ، ان يطول امد الاضراب ، ويزيد العبء الواقع على الرفاق المضربين ، ويتكثف الى اضعاف مضاعفة .

كان السجناء العاديون ينظرون الى الرفاق المضربين ، على انهم يقومون بعمل لا جدوى منه ، وأن تصور امكانية تغيير الكون السجنى خرافة ، عائدها المهاتة ، ولا جديد .

كان فى الدفعة الأولى : سعد الطويل ، جمال الشرقاوى ، سيد سالم وسامى عجيب وكان هو مسئول الاضراب . اقتيد المضربون الى التأديب ، حيث وضعوا كل اربعة منهم فى زنزانة . هددتهم ادارة السجن بانها سوف تفض اضرابهم بالقوة ، الا انهم لم يبالوا بتهديدها • كان الوضع الذى تسلكه ادارة السجن ، مع السجناء العاديين ، ان اضرب احدهم ، ان يمسك به اربعة من الجنود ويفطروه قسرا باعطائه حقن الجلوكوز •

دخلت الدفعة الثانية فالثالثة . استمر العزل فى التأديب سبعة ايام ، منذ بدأ الاضراب • ثم جاءت قوات حرس السجون وحملت الرفاق المضربين الى مستشفى السجن • كانت الادارة تملؤ دلوا باللبن الحليب وتتركه فى العنبر طوال الليل . وفى الصباح كان الضباط يحضرون لمعرفة ان كان أحد قد شرب منه شيئا ، ام لا • كان الرفاق يسخرون من هذه الالعاب الصبيانية • كانت الادارة ، ايضا ، تلقى ، بصورة تبدو عفوية ، ليمونة هنا ، وليمونة هناك ، كان الرفاق ، فى هذا الاضراب ، قد منعوا ، حتى استخدام الليمون كمطهر • لم يكونوا يتناولون غير الماء القراح •

اصدر الرفاق الذين لم يدخلوا الاضراب مجلة ناطقة على الهواء . كان ممن شاركوا فيها : أحمد عبد العال ، صبرى عبد العال ومصطفى عبد العزيز . كانت مجلة دعائية ، تدور حول مطالب الاضراب ، وتركز هجومها على جماعة ، « حدتو » باعتبارها القوى المباشرة التى تواجه الاضراب ، والتى يفترض فيها أن تتخذ موقفا ، عكس ما اتخذت .

نشاط العائلات فى الخارج ، عارم لا يهدأ ولا يتوقف . تلغرافات الى كل المسئولين ، وفود تتحرك ما بين الصحافة والنقابات والجهات

الوزارية · المباحث العامة تطاردهم ، تهـــددهم ، تضغط عليهم ، ولكن بلا طائل أو جدوى .

فى بداية الاضراب ، كان الرفاق المضربون ينشدون الاناشيد ، يلقون الخطب والكلمات السياسية ·

جاء مدير الشئون الطبية بمصلحة الســـجون ، ومعه اثنين من الممرضين وجند من حراس السجن · كان ينوى اعادة الكرة ، محاولا ارغام الرفاق على الافطار · كان أقرب السرير الى باب العنبر فى مستشفى السجن ، السرير الذى يرقد عليه رفيق شاب عامل ، هو عمر عبد الرحمن · كان دائم التصدى لكل محاولات الادارة للضغط عليهم ، فى هذا اليوم كانوا يقصدونه هو بالذات ، ليبدأوا به عملية الافطار القسرى . انتظر حتى غدا مدير الادارة الطبية فى مرمى قـدمه ، ثم قام بركـلة بعنف فى صدره · سقط الرجل على ظهره ، ثم اسرع ومن معه ، فارين من العنبر ، يسبون المضربين والمعتقلين جميعا . وكانت تلك هى آخر محاولة لفض الاضراب بالقوة .

كان طبيب السجن ، فى ذاك الوقت ، يدعى حسين كاظم ، كان رجلا متقدما فى السن ، تقليديا ، امينا مع نفسه . يأتى كل يوم ويقوم بالكشف الظاهرى ، يعاين النبض والوزن ودرجة الحرارة . ويلقى عليهم محاضرة أو موعظة ، تدور حول شبابهم والمستقبل الذى ما زال امامهم ، واهلهم الذين احوج ما يكون اليهم · ثم يسجل فى تقـريره ، الذى كان يتســم بالصدق ، « ونصحناهم أن يعدلوا عن الاضراب فلم ينتصحوا » · ومع تقدم الاضراب ، بدأ يضيف الى تقاريره « وتفوح رائحة الاسيتون من افواه البعض منهم » . وكان معنى ذلك ، أن الجسد يتحـلل ، وتلك الرائحة هى الانذار الذى يرسله ويعلنه ·

الاطباء يناقشونهم فى عدم جدوى ما يفعلون . كان الطبيب يضع يده على بطن الواحد منهم ، فتغوص بكاملها . انخفضت أوزانهم بصورة ملحوظة · علق مأمور السجن ، فى واحدة من جولاته ، ان وزن البعض منهم قد غدا مثل : « وزن دجاجة أو ديك أو عنزة على أكثر تقدير » · قال الاطباء لهم ، ان كثافة الدم بعد اليوم العشرين من الاضراب سوف تتغير ، وان وظائف الكلى لابد ان تتأثر ، وربما تحدث اشياء اخـرى غير متوقعة ·

الرفاق صامدون . بعد اليوم الثانى عشر بدا البعض غير قادر على النهوض من مرقده · كان الرفاق القادرون يعاونونهم لقضاء حاجتهم · مع

تقـدم الاضراب ، بدأت تظهر حالات من الاغماء المتقطع ، وامتلأ عنبر المستشفى برائحة الاسيتون • كان الرفيق عبد العزيز رشوان مصـابا بالسكر ، مما كان يعرضـه لحالة من الاغماء الطويل •

كانت هنالك بعض حالات ، محدودة ، من الضعف المعنوى • يقول عبد المحسن شاشـه ، « كان للرفيق جمال الشرقاوى دورا هاما للغاية فى هذه المرحلة • كان ينتقل من رفيق الى رفيق يمر بمرحلة الضعف تلك ، ليناقشـه ويثبته فى المعركة . كان هذا امتدادا لدوره الرائع فى عمليـة تنظيم الاضراب ، والتزامه الهائل ومواقفه المبدئية القوية ، حتى اننى اكاد اقطع ، انه كان القائد الحقيقى للاضراب » .

ظهرت النيابة فى اليوم السـادس من الاضراب . كانت نيابة قليوب التى يتبعها السجن اداريا . جاءت بناء على التلغرافات التى ارسلتها اليها عائلات المضربين ، باعتبار انها بلاغات يلزم التحقيق فيها . كان الرفاق ما زالوا فى التـأديب ، لم ينقلوا بعـد الى مستشفى السـجن • كان عبد المحسن شاشـه هو أول من حققت النيابة معه • جلس على عتبـة زنزانة التـأديب ، يجيب . بعـد البيانات الاوليـة عن الاسـم والسن وما شابه ، سأله وكيل النيابة ، لماذا هو مضرب ؟ بدأ اجابته بالحديث عن الأسـباب السياسية العـامة ، عن الاوضـاع المنافيـة للديمقراطية واضطهاد الطبقات الشـعبية وممثليهـا من الشـيوعيين والديمقراطيين والنقابيين الشرفاء وأنصار السلام ، ثم انتقل الى الاوضـاع فى داخـل السـجن ، وانتهى الى المطالبـة بالافراج عن المعتقلين والمسـجونين السياسيين ، واطلاق الحريات السياسية العامة • شغل التحقيق معـه حوالى ست صفحات ، فقد اصر عند بدايته ، ان تسجل كل كلمة يقولها • كان الرفيق سامى عجيب حاضرا اثناء التحقيق • ثم والت النيابة بعـد ذلك حضورها مستمعة الى اقوال ست رفاق آخرين •

كان الرفاق سامى عجيب وسعد الطويل واحمد الجبالى هم الذين يقومون باجراء المفاوضات حول مطالب المضربين • لم تسفر تحقيقات النيابة عن شىء ذى بال . تركزت المفاوضات مع ادارة السجن • كان الرفاق يذهبون لمقابلة المـأمور ، الا ان الاخير كان كثيرا ما يحضر هو اليهم مع تقدم ايام الاضراب . كان اسمه عبد العزيز وكانت سلوكياته مع الرفاق تتسم بالطيبة والتهذيب .

فى صبيحة اليوم العشرين ، بدأت حالات الاغماء التى تصيب بعض الرفاق تمتد الى ساعتين وثلاث وخمس ساعات • الكل غدا فى حالة .

أقرب ما تكون الى حالة انعدام الوزن . فى هذا الصباح وصلت المفاوضات مع الادارة الى نهاينها . طالب مأمور السجن الرفاق بأن يوقفوا الاضراب ، فالحكومة لن تستجيب لهم ، وهى تحت هذا الضغط ، وهو من ناحيته . يعدهم ، بشرفه العسكرى ، ان يحقق لهم كل مطالبهم المعيشية . طرحت اللجنة المسئولة عن الاضراب ، على الرفاق المضربين ، قضية أن يحل الاضراب ، عند هذا الوعد ، أم يستمر ؟ تصدى للموقف جمال الشرقاوى وعبد المحسن شاشه ، وسعيد سالم ، ومعظم الرفاق المضربين رافضين حل الاضراب ، على مجرد وعد . لابد قبل الحل من اجابة كل المطالب المعيشية ، وهى الحد الأدنى للاضراب . استمر الاضراب لليوم الواحد والعشرين . جاء مندوب عن الدولة ، على مستو سياسى عال . وعد بتنفيذ كل المطالب المعيشية ، مع وعد ، ايضا ، بالنظر فى أمر الافراج عن الرفيقات . دار نقاش حول هذا الوعد باعتباره صادرا من جهة سياسية تملك التنفيذ ، وليس من جهة الادارة ، التى لا تملك ، فى الحقيقة ، من أمرها شيئا . اختلف الرفاق حول هذا التقدير ، الا ان اللجنة القيادية رأت أن هذا الحد من الحلول مقبول . وبناء عليه اتخذت قرارها بوقف الاضراب ، وكان ذلك فى مساء اليوم الواحد والعشرين منذ بداية الاضراب .

حدد الاطباء للرفاق ، الذين كانوا مضربين ، نظاما متدرجا فى التغذية . اعطى الكثيرون حقن كورامين وفيتامينات . بدأوا بالشاى وعليه نقاط من لبن الحليب . اعطى كل رفيق كوبا من مرق اللحم . ثم قدم الفول بعد ذلك . اصيب بعض الرفاق بالبواسير وقرحة المعدة . كان الكثيرون منهم قد تحولوا الى هياكل عظمية .

عندما عادوا بعد الاضراب الى العنبر ، استقبلهم السجناء العاديون بالزغاريد والتهليل والتكبير . عادوا وقد اثبتوا انهم ، بارادة المناضلين ، قد غيروا اوضاع السجن تغييرا حقيقيا .

بدأت مرحلة جديدة ، تمام الجدة ، داخل السجن . استجيب لكل المطالب المعيشية التى تقدم بها الرفاق . علق ضابط السجن ، نصر جرجس بان « الشيوعيين هكذا دائما ، تفاوضهم على شبر ، فيأخذون منك متر » . ادخلت الكهرباء لأول مرة فى الزنازين . بدأ استعمال السخانات الكهربية . اصبحت زيارة السلك الاسبوعية وكانها زيارة خاصة . اما الزيارة الشهرية الخاصة ، فقد طلب الضابط محمد سعد الدين أن يكون مسئولا عنها . ولم يعد يمنع اى شىء من الدخول الى السجن ، بعد انتهاء الزيارة .

الاضراب كان معركة ناجحة تماما ، من حيث الاعـــداد والادارة والنتائج . يقول اكرام محارب « لقد اعدت اللجنة القيادية للاضراب اعدادا جيدا » . ويقول عبد المحسن شاشـة ، « كان الاضراب منظمـا وجيدا . ورغم أى عيوب كانت فى المنطقة الحزبية ، الا انه كان هنالك قدر كبير من الطاعة والانضباط عند اكثرية الزملاء . لقد تمكنا ، بسبب هذا ، من تحقيق اشياء كثيرة للغاية ، منها ، مثلا ، المكاسب المعيسـية واحترام الادارة لنا . كان التحضير صحيحا وكان التوقيت ، ايضـا ، صحيحا . النقص الوحيد ، فقط ، كان فى تجهيزات فك الاضراب . كان الاضراب موقفا نضاليا ، عدل من مواقف الزملاء . انتظمت الاجتماعات ، وسـاد السجن جو نضالى . فشلت كل محاولات « حدتو » فى التقليل من قيمة ما كنا نفعله . اصيبوا بعد نجاح الاضراب بصدمة عنيفة ؛ كان موقفهم سببا فى اطالة امد الاضراب ، لكنهم فى نفس الوقت ، نالوا كل مكاسبه » .

❋ ❋ ❋

تم اضراب آخر عام ١٩٦٣ ، من أجـــل الافراج عن الرفيقـــات المسجونات بسجن النسـاء . كان شعاره الافراج أو الموت . دخله ثمانيه من الرفاق كان منهم : محمد السيد ، جمال الشرقاوى ، أحمد الجبالى ، سعد الطويل وعبد المحسن شاشـه . اثناء الاضراب جاءهم نبأ الافراج الفعلى ، عن الرفيقات ، فاوقفوا الاضراب .

الفصل الخامس

قضـــايا ومحاكمـات

كل سكان سجن القناطر ، من الرفاق ، مسجونين احتياطيا ، تحت التحقيق . ومن هنا كانت احد المهام الأساسية للجنة المنطقة دراســة القضايا ، المقدم رفاق الحزب اليها ، خاصة بعد صدور قرار الاتهام ، وتحديد وضع كل من المتهمين ، موقفه ودوره . كانت تجتمع بكل رفيق مقدم الى المحاكمة ، ثم بناء على المناقشة معه وقرار الاتهام الصـــادر ضده يتحدد وضعه القانونى والموقف الذى يلزم اتخاذه ، ثم تجرى المنطقة الاتصال بالمحاميين فى الخارج ، لتشكيل هيئة الدفاع عن هذه القضيــة أو تلك .

بعد تحديد الموقف القانونى ، يأتى تحديد الموقف السياسى أمام المحكمة . وكان الخط العام ، بالنسبة لهذه النقطة ينقسم الى شــقين اساسيين . الشق الأول مرتبط بالرفاق المعروفين جماهيريا ، والمعروف عنهم انهم شيوعيون ، وكان على هؤلاء أن يتقدموا أمام المحكمة بدفاعات سياسية بغض النظر عن وضعهم القانونى . والشق الثانى مرتبط بالرفاق غير المعروفين جماهيريا ، وليس هنالك ما يدينهم قانونيا ، كالمضبوطات مثلا ؛ وكان على هؤلاء التزام الدفاع القانونى فقط .

كانت الجماهـيرية لا تعنى ، فقط ، جمـاهيرية الرفاق فى مجـال عملهم ، ولكنها تعنى ، ايضا المستوى الحزبى القيادى ، اى رفاقا يشكلون رموزا للحزب على النطاق المحلى أو القومى أو العالمى . وتم تقسيم الدفاع السياسى الى مراتب ثلاث : دفاع عن العضوية ، دفاع عن الشيوعية ، دفاع سياسى عام حول الاوضاع الديمقراطية السائدة . وكان الموقف من الالتزام باية مرتبة من مراتب الدفاع السياسى ، اختياريا . بمعنى ان الرفيق الذى ليس لديه استعداد للدفاع عن العضوية أو الشيوعية ان يقدم دفاعا عاما . كانت لجنة المنطقة تبدى رأيها دون اصدار قرار أو تكليف حزبى ، وعلى الرفيق أن يختار اقرب الاوضاع اليه .

يقول نسيم يوسف ، « من المشاكل التى واجهتنا فى تلك الايام ، موقف المنقسمين « حدتو » . كان موقفهم مضاد تماما لموقفنا من الدفـــاع السياسى أمام المحكمة . وبالتالى كانوا يلعبون على العناصر الضعيفة

لدينا ، والتى يمكن كسرها ، على اساس عدم اتخاذها أى موقف سياسى امام المحكمة » .

ان القضايا التى سنتناولها هنا ، هى ليست كل القضايا التى قدمت باسم الحزب ، لكنها القضايا التى اتيح لنا ان نستمع الى شهودها .

قضية نسيم يوسف وآخرين (١) :

كان المتهمون فى هذه القضية هم الرفاق : نسيم يوسف ، أحمد الجبالى ، سعد الطويل وعبد الله الزغبى ، وكان الرفيق عبد الله الزغبى قد انضم لجماعة « حدتو » اثناء نظر القضية . وكانت لجنة المنطقة قد اتفقت ، بناء على دراسة القضية ، ان يقدم كلا من نسيم يوسف وأحمد الجبالى دفاعا عن عضوية الحزب القيادية ، وأن يقدم سعد الطويل دفاعا عن الحريات السياسية العامة ، دون الدخول فى اية تفصيلات . كما قررت لجنة المنطقة ، ايضا ، ان يكون الرفيق نسيم يوسف هو مسئول القضية امام المحكمة .

ترافع ، فى هذه القضية ، الاستاذ أحمد مجاهد ، عن عبد الله الزغبى . والاستاذ محمود عزمى ، النائب السابق ، عن سعد الطويل . واثنان من المحامين المنتدبين عن نسيم يوسف وأحمد الجبالى . عندما بدأت المحاكمة توجه الاستاذ احمد مجاهد ، الى نسيم يوسف ، وكان يعرفه من قبل ، وقال له ، انه قد درس القضية كلها ، وانه سوف يترافع عنه ، ايضا . وكان هذا موقفا منه ، يستحق الشكر والتقدير .

فى بداية أول جلسة ، طلب نسيم يوسف ان يسجل كلمة ؛ الا ان رئيس المحكمة رفض ذلك ، فأصر نسيم يوسف على مطلبه . وقال ، ما قاله ، فى النيابة من قبل ، عن الشهيد محمد محمود عثمان والشهيد فريد حداد ، وغيرهما من الرفاق . ثم عرض للتعذيب الذى كان يجرى فى أبو زعبل والذى ما زالت اثاره واضحة على جسده . طلب احالته الى الطبيب الشرعى . استمع رئيس المحكمة لكل ما قاله ، لكنه لم يسمح بتسجيل شيئا .

امتلأت المحكمة بالعائلات . شغلت كل المقاعد واحتلت النوافذ . ترافد الناس العاديون المتواجدون فى المحكمة ، حينذاك ، لرؤية ما يجرى ، ولم يعد هنالك موطىء لقدم .

---

(١) على لسان نسيم يوسف ، فى نفس اللقاء الشخصى معه .

طلبت النيابة ، على لسان ممثلها سمير ناجى ، سرية الجلسه ، الا أن نسيم يوسف ، وقف ليعلن رفض السرية • تداولت هيئة المحكمة ؛ ثم ابدى رئيس المحكمة استعداده للموافقة على استمرار العلنية ، شريطة أن يلتزم الرفاق بالمحافظة على النظام ، فوافقوا على ذلك •

بدأت المحاكمة بشهادة الشهود ، وكان اولهم عبد الرحمن عشوب • قدم شهادة تقليدية • اتهم الرفاق بانهم من مؤسسى الحزب الشيوعى ، وانهم اعضاء باللجنة المركزية وانهم محترفون هاربون • ثم قدم عرضا عاما عن تاريخ الحزب الشيوعى المصرى والاحزاب الشيوعية • كان كلامه عاما ، يكشف افتقاره الى المعلومات الحقيقية الدقيقة • اعلنت النيابة انه ليس لديها اسئلة للشاهد ، وكذلك قال المحامون • طلب نسيم يوسف أن يوجه اليه بعض الاسئلة ، فسمح له رئيس المحكمة بذلك .

(١) نسيم يوسف : اود أن اعرف ماذا كانت وظيفة الشاهد الأول قبل عام ١٩٥٢ ؟

لا رد من الشاهد •

رئيس المحكمة : لما لا ترد ؟ ما هى وظيفتك قبل عام ١٩٥٢ ؟

لا رد من الشاهد •

نسيم يوسف : سارد عنه يا سيادة الرئيس • فقد كان يعمل بالقسم المخصوص فى خدمة السراى والاقطاع •

عشوب : كنت ضابطا فى وزارة الداخلية .

رئيس الجلسة : كنت نعمل فى القسم المخصوص ؟

لا اجابة من الشاهد •

(٢) نسيم يوسف : ما رأيه فى أعمال التعذيب فى معتقل أبو زعبل • ومسئوليته عن مقتل الشهيد محمد محمود عثمان ؟

تلعثم الشاهد دون اجابة •

رئيس المحكمة : لماذا لا ترد على السؤال ؟

عشوب : يا افندم انا ضابط فى المباحث العامة ، دورى فى المباحث العامة فقط ، وليس لى علاقة بالمعتقلات •

رئيس المحكمة : اليس لكم اشراف على المعتقلات ؟
صمت الشاهد ولم يجب •

(٣) نسيم يوسف : يقول الشاهد انى كنت من المحترفين بالحزب الشيوعى المصرى . وأنا على استعداد لأن اتقدم الى المحكمة بما يثبت عملى بالعلاقات العامة باحدى الشركات ، فما رأيه ؟ .

ولم يجب عشوب .

تكلمت النيابة بعد الشهود . استمرت مرافعة سمير ناجى جلستين . تعرض اثناء مرافعته للشيوعية والشيوعيين ، متهما اياهم بالعمالة . اعترض عليه الرفاق ، واحتجوا . قال رئيس المحكمة ، انه سيضطر ، ازاء ذلك ، الى سرية الجلسة ، وأن المتهمين ، سوف يمنحون فرصة الكلام ، وبالتالى ، لا داعى للاخلال بالنظام . رد عليه نسيم يوسف ، بانهم يحافظون على النظام بالفعل الا ان ممثل النيابة هو الذى يوجه الاهانات لا الاتهامات وعليه أن يوقفها هو ، حفاظا على نظام الجلسة .

انتهت النيابة وبدأ الدفاع ، كانت هنالك مضبوطات خطية لدى الرفيق سعد الطويل ، فعرض نسيم يوسف عليه ان يتحملها عنه خطا وحيازة ، اذ انها لن تضير كثيرا وضعه القانونى . رفض الاستاذ محمود عزمى ذلك ، قائلا ، « لا يمكننى من الناحية المبدئية الموافقة على ذلك ، بل ولا اسمح به . فالقضاء قضاء » . كان موقفا مهنيا متمكنا وشريفا . تناول فى دفاعه مسألة الخطوط ، وقدم فيها بحثا فقهيا عميقا . وانتهى الى الاعتراض على اية تهمة ذات علاقة بالخطوط ، فهى غير قاطعة ، على الاطلاق ، ثم دافع عن شخص سعد الطويل .

أما الاستاذ أحمد مجاهد المحامى ، فانه لم يدافع عن عبد الله الزغبى ، وحده ، أو نسيم يوسف ، كما وعده ، وانما دافع دفاعا شاملا عن الحزب الشيوعى والشيوعية . تكلم عن النظرية الماركسية ، واستخدام القوة من عدمه . تكلم عن التقدم فى الاتحاد السوفيتى والبلدان الاشتراكية . تكلم عن الموقف من الدين ردا على تعريض وكيل النيابة بهذه المسألة . كان يدعم كلامه بالحجج والاسانيد والمراجع . تكلم عن الحريات السياسية وقانون الاحزاب ، الذى كان موجودا ايام النظام الملكى ، وألغته ثورة ١٩٥٢ . قال ان الغاء الاحزاب لا يعبر عن الواقع ، فالحزب الشيوعى موجود بالفعل . ثم تكلم بعد ذلك عن عبد الله الزغبى ونسيم يوسف . استغرقت مرافعته ثلاث أو اربع جلسات . وهى قد جذبت ، بعمقها واعدادها الجيد ، عددا كبيرا من المواطنين العاديين ، ظلوا مواظبين على الحضور ، طوال القائها . يقول نسيم يوسف ،

« ان علنية الجلسة ، وهذا الحشد الشاهد على ما يجرى فيها ، وموقفنا الصلب فى قفص الاتهام . كانت من العوامل التى جعلت الاستاذ أحمد مجاهد يجهز على وكيل النيابة ومرافعته . كان الدفاع الذى قدمه ، دفاعا قديرا مقتدرا » .

كان المحامى المنتدب عن نسيم يوسف يدعى نسيم ، ايضا ، وكان من محافظة الفيوم . كان رجلا قد تجاوز الخامسة والستين ، مصابا ببقايا شلل ما . اتصل به نسيم يوسف فى المحكمة ، قبل بداية المحاكمة . اطلعه على ظروفه وموقفه ودفاعه . طلب منه الرجل أن يتريث . الا ان نسيم اوضح له انه انما يبين له الجوانب المختلفة لمجرى الأمور ، حتى لا يتعارض معه ، والا فانه سوف يرفض مرافعته عنه . حدث نفس الشيء من أحمد الجبالى لمحاميه المنتدب . فوعد كلاهما الا يدخلا فى أى تعارض مع الرفيقين . كانت مرافعة الاستاذ احمد مجاهد بمثابة دفعة قوية للمحامين المنتدبين ، منحتهم قوة هائلة . وجاء دور الاستاذ نسيم المحامى ، وكان السوفيت فى ذلك الوقت ، قد اطلقوا صاروخا به رائدة الفضاء فالنتينا . بدأ الرجل مرافعته بقوله :

انما الامم الأخلاق ما بقيت فان همو ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ثم تساءل ، كيف يمكن لدولة بلا أخلاق ، ان تصل الى هذه الدرجة العلمية المتقدمة للغاية ، وان تطلق اليوم صاروخا به فالنتينا . قدم دفاعا رائعا عن الاتحاد السوفيتى . ثم تحدث عن الرفاق المتهمين ، فاشار نحوهم قائلا ، أن موقع هؤلاء الابطال ، اليوم ، يجب ان يكون فى مقدمة الصفوف للدفاع عن ارض الوطن . ان مكانهم ليس السجن أو قفص الاتهام . تكلم فى بلاغة وقوة وحماس ، حتى أن الرفاق كان يجرفهم تيار عام بالتصفيق له ، الا أن وجودهم فى قفص الاتهام منعهم من ذلك . وان كانت عائلاتهم المحتشدة فى قاعة المحكمة اخذت تحييه ، فالتف رجال المباحث العامة حوله ، فصاح فيهم « افعلوا بى ما تشاؤون » .

بعد المحامين جاءت مرافعات الرفاق . عندما سال رئيس المحكمة سعد الطويل ، ان كان عضوا بالحزب الشيوعى (وكان المفروض الا يعلن عضويته بالحزب) اتخذ سعد موقفا نضاليا ، فلم ينف عضويته ، لكنه قال بانه سيجيب على هذا السؤال فى دفاعه السياسى . أما نسيم يوسف وأحمد الجبالى ، فقد اجابا على السؤال ، عندما وجه ألى كل منهما على حدة ، « انى اتشرف بكونى عضوا فى الحزب الشيوعى المصرى » . وعندما

سالت المحكمة كل منهما ، بعد هذه الاجابة ، ان كان عضوا مركزيا بالحزب ، اجابا بانهما سيردان على هذا السؤال فى دفاعهما السياسى ٠

بدأ دفاع المتهمين ، بدفاع عبد الله الزغبى . كان دفاعه السياسى شفاهيا متسقا مع خط جماعة « حدتو » ، فى الدفاع عن الحكومة وخط التحالف معها ٠ ثم تحدث سعد الطويل عن الحريات السياسية العامة ٠ جاء دور نسيم يوسف ، وكان دفاعه محددا بتناول طبيعة الحكم ، والاوضاع المعيشية وارتباطها بالظروف السياسية ٠ دارت بينه وبين رئيس المحكمة مناوشات ٠ المحكمة تحاول تحديد دفاعه فى الجوانب القانونية ، وهو يحاول ان يكمل دفاعه السياسى ٠ استمر دفاعه ثلاثة ارباع الساعة ، واختتمه بتحية ذكرى الشهيد سلام عادل سكرتير الحزب الشيوعى العراقى ٠ ثم جاء دفاع أحمد الجبالى حول الحركة العمالية والحريات النقابية وعلاقتها بالحريات السياسية ٠ حاول أحمد الجبالى تقديم أكبر جزء من دفاعه السياسى ٠ ثم قدم نسيم يوسف وأحمد الجبالى دفاعيهما السياسيين مكتوبين الى هيئة المحكمة .

جاء تعقيب النيابة بعد الدفاعات السياسية ٠ كان قد مضى أكثر من عشرة أيام على نظر القضية ٠ وفى جلسة التعقيب تلك ، لم يكن الاستاذ أحمد مجاهد قد حضر الى الجلسة بعد . كانت النيابة قد بدأت تعقيبها ٠ وفى ذلك التعقيب قال وكيل النيابة عن دفاع المحامين ، « انى أربأ بالاستاذ أحمد مجاهد ان يقول ما قاله فى الدفاع ٠ لقد وضع نفسه ، بذلك ، تحت طائلة القانون » ٠ وهنا قاطعه نسيم يوسف ، « ان الدفاع مهدد بالاعتقال . اننى كمتهم ادافع عن الدفاع » ٠ فى تلك الاثناء دخل أحمد مجاهد القاعة فوقف نسيم يوسف ينبهه لما جرى صائحا ، « ان الدفاع مهدد بالاعتقال ٠ ان الاستاذ أحمد مجاهد مهدد بالاعتقال » . توقف أحمد مجاهد فى وسط القاعة ، واتجه ببصره ناحية قفص الاتهام فاستمر نسيم يوسف يروى كل ما قاله وكيل النيابة . استمر احمد مجاهد فى سيره ، حتى بلغ موضعه فجلس فيه . رفع رئيس المحكمة الجلسة للاستراحة ٠ استدعى النيابة والاستاذ احمد مجاهد لاجراء صلح بين الطرفين ، ثم خرج ليعلن تأجيل الجلسة الى اليوم التالى ، الا ان عضو اليمين أصيب بذبحة صدرية ، فتأجلت القضية الى الدورة التالية .

جاء الاستاذ أحمد مجاهد لزيارة الرفاق فى السجن ٠ علموا منه ان المباحث العامة قد هددته بالاعتقال ، ان هو استمر فى الدفاع ، وأنه مصر على الاستمرار فى الدفاع ٠ شكره الرفاق على دوره ومجهوده ، الا

انهم طلبوا منه عدم الاستمرار فى هذه القضية ، فقد أدى ما عليه واكثر ، واستمرار وجوده فى الخارج للدفاع فى قضايا سياسية أخرى ، أهم بكثير من وجوده داخل المعتقل . اصر فعادوا يلحون حتى قبل ، مرشحا الاستاذ ماهر محمد على ليحل محله فى القضية ، ووافقه الرفاق على ذلك .

اعيد النظر فى القضية من جديد • وعادت كل الاجراءات من البداية . كانت الجلسات علنية ، الا انها لم تكن بالصورة التى كانت عليها فى الدورة الماضية • ثم جاء النطق بالحكم . وكان مفاجأة للجميع • خمس سنوات اشغال شاقة لكل من نسيم يوسف واحمد الجبالى ، وثلاث سنوات لكل من سعد الطويل وعبد الله الزغبى . كان التوقع ان تصل الاحكام الى عشر سنوات . وللحال هتف الرفاق بحياة الحزب الشيوعى المصرى ، ورددت قاعة المحكمة الهتاف معهم ، واخذت العائلات فى اطلاق الزغاريد •

استمر الرفاق فى سجن القناطر ــ رجال ، حتى تم التصديق على الحكم ، ثم رحلوا الى سجن الوادى الجديد ، الى منفى المحاريق .

قضية عبد المحسن شاشة وآخرين (١) :

نوقشت القضية فى لجنة المنطقة وتحدد حسين عبد الستار مسئولا عنها ، « باعتباره من المدافعين عن وجهة النظر السياسية الرسمية للحزب » ، كما يرى عبد المحسن شاشه .

ضمت القضية بالاضافة الى الرفيقين عبد المحسن شاشه وحسين عبد الستار ، كلا من الرفاق حسن بيومى ومحمود علام ، كما قدم فيهما ابضا على بدوى ، وكان معترفا على زملائه اثناء التحقيق ، بل وكانت تدور حوله بعض الشبهات ايضا •

كان من المحامين الذين ترافعوا فى القضية الاستاذ احمد مجاهد والاستاذ عادل امين •

وكان رئيس المحكمة المستشار سليمان مراد •

بدات المحاكمة فى الجزء الأخير من عام ١٩٦٣ ، واستمرت خلال النصف الأول من عام ١٩٦٤ • واستغرقت المحاكمة حوالى خمس جلسات •

---

(١) على لسان عبد المحسن شاشه ، فى نفس اللقاء الشخصى معه •

كان الرفاق عندما يذهبون الى المحكمة ، يفاجأون باعداد غفيرة من الاهالى فى انتظارهم . وكانوا ساعة يغادرون عربة الترحيلات ، يهتفون بحياة الحزب الشيوعى المصرى حتى يدخلون القاعة . كان الاهل ، ما ان يرونهم ، حتى يطلقوا الزغاريد . وكان والد حسن بيومى ، وهو رجل طويل للغاية ، مهيب المنظر ، يرتدى الجبة والقفطان ، وعمامة التجار ، حيث كان تاجر غلال ، ويحمل نبوتا ضخما للغاية ، ما يكاد يراهم يغادرون السيارة حتى يناديهم ، يشد من ازرهم ويهتف معهم بحياة الحزب الشيوعى المصرى . فيجتمع الجنود حوله ، فيصرخ فيهم « كلكم اولاد كلب ماعدا جمال عبد الناصر » ، وكان عندما ينشب عراك بين الرفاق والحراس ، يتجه الى السيدات مناديا « صوتوا يا ولاد » . وللحال تصرخ النساء ، ويتجمع كل من فى الشارع ، وتعلو الهتافات على كل الضجيج .

كان الرفاق يهتفون بعد الجلسة ايضا وهم فى طريقهم الى شاحنة الترحيلات ، والعائلات تهتف وراءهم . ثم تتجه السيارة الى السجن والهتاف طوال الطريق . وتتجه العائلات بزعامة والد حسن بيومى الى المجلس التنفيذى « مجلس الوزراء » ليقابلوا اى مسئول هناك . كانوا يحاولون طردهم ، الا انهم كانوا ، فى اغلب الاحوال ، ينجحون فيقابلون على صبرى أو صدقى سليمان ، ليعرضوا عليهم ظروف ابنائهم ، مطالبين بالإفراج .

كان الرفاق يهتفون داخل الجلسة ، ايضا ، وهنا كان يقول رئيس المحكمة ، « اما ان تصمتوا او اغادر القاعة » . الا انهم كانوا يستمرون فى الهتاف . فيعود يقول ، « خمس دقائق والا اخرجتكم انتم من الجلسة » . كان ما أن يفتح ملف القضية أمامه ، حتى تبدأ التسجيلات . تسجيل عن قضية الوحدة مع سوريا ، تسجيل عن حزب البعث العراقى ، تعليق على المذبحة ضد الشيوعيين العراقيين بعد انقلاب عبد السلام عارف . ادانة الحكومة المصرية لاعتقالها الشيوعيين والديمقراطيين والنقابيين وانصار السلام . وفى احد المرات اخذوهم الى الجلسة وهم مضربون عن الطعام . كان الاضراب قد مضى عليه ثلاثة ايام ، احتجاجا على عدم محاكمتهم ، فانزلوهم للمحاكمة . فى هذه الجلسة ذكر عبد المحسن شاشه المحكمة بما سبق أن قاله أمامها ، وتحققت صحته . علق رئيس الدائرة سليمان مراد بأن « احدا لا ينكر بعد نظر الشيوعيين » . بعدها صفق الرفاق وهتفوا .

كان موقف المحامين ممتازا ، وخاصة الاستاذين احمد مجاهد وعادل أمين . قامت معظم الدفاعات عن الظروف التى تتغير . كان الوقت أواخر

١٩٦٣ واوائل ١٩٦٤ ، والصحافة العالمية تتحدث عن قرب الافـراج عن الشيوعيين المصريين • قدم الاستاذ عادل امين للمحكمة أوراقا تثبت علاقة على بجوى بالمباحث العامة . اقام دفاعه القانونى كله على هذه النقطة . ضمت المضبوطات التى عثر عليها معه فى أول مرة تقبض عليه فيها ، ثم افرج عنه ، الى هذه القضية .

كان والد حسين عبد الستار قد وكل عنه محاميا يدعى حسين اباظة ، من اسرة الاباظية • وطلب الرفاق من حسين عبد الستار أن يرفض هذا المحامى الاقطاعى • الا انه طلب التروى حتى يرون ماذا سيفعل أو يقول • وعندما بدأ حسين اباظة مرافعته ، استهلها بقوله ، « هذه الشيوعية السوداء » • وللحال وقف الرفيق حسين عبد الستار وقال « لا اريد أن يترافع عنى هذا المحامى » • ونظر حسين اباظة ناحية الرفاق مستفسرا ، فصرخوا فى وجهه ، « اخرج ايها الاقطاعى » . فرد عليهم قائلا ، « لعن الله اباءكم ، يا أولاد الكلاب . انتم لا تستأهلون الدفاع عنكم » ، فسبوه سبا مهينا ، فغادر المحكمة على الفور .

تكلم حسن بيومى فى الجلسات المختلفة مسجلا مواقفه . كما القى عبد المحسن شاشه دفاعا سياسيا . كان محوره الأساسى دفاعا سياسيا ديمقراطيا •

وفى ٧ يوليو ١٩٦٤ اصدرت المحكمة أحكامها • سنتان لعبد المحسن شاشه ، وثلاث لحسن بيومى ، وسنة واحدة لحسين عبد الستار وبراءة محمود علام . كما حكم ، ايضا ، على على بجوى بثلاث سنوات ، وربما يرجع هذا الحكم الى المضبوطات الأولى وعلاقته بالمباحث العامة .

وقد خرج الجميع فى ذات اليوم ، حيث كانوا قد انهوا مدة الحكم عليهم ، سجناء تحت التحقيق . خرجوا جميعا الى الشارع حيث كانت المعتقلات قد اغلقت فى ١٩٦٤/٤/٤ •

قضية فؤاد مصطفى وآخرين (١) :

كانت القضية مكونة من الرفاق فؤاد مصطفى ومحمد احمد زيان ومحمود عطيه الساعاتى •

---

(١) فى لقاء شخصى مع فؤاد مصطفى ١٩٨٠/٩/١٨

بعد حوالى اربعة شهور من القبض عليهم ، تحدد موعد المحاكمة . كان رئيسها المستشار محمد كامل البهنساوى . وشاهد الاثبات الأول فيها ضابط مباحث بنى سويف الذى حقق مع مجند يدعى عبد العزيز ، والذى اعتبر معترفا عليهم . ظهر عبد العزيز ، هذا ، لأول مرة فى المحكمة .

بدأت النيابة مرافعتها بسرد كل ما لديها من أقوال المباحث العامة . وكان عبد العزيز ، والمفترض فيه انه شاهد اثبات ، يقاطع مرافعة وكيل النيابة قائلا ، « هذا الكلام غلط يا بيه ، لقد ضربونى وعذبونى وجعلونى اكتب كلاما لا اعرفه ، ولا اعرف له اصلا . ثم اجبرونى ان اوقع عليه » .

وكان محمد كامل البهنساوى يزجره ويمنعه كلما تدخل فى المرافعة . كما كان يمنع الرفاق من مقاطعة النيابة والرد عليها ، مما اوصلهم الى نتيجة ان هذه المحاكمة صورية ، لا أكثر ولا أقل ، وأن الحكم معد من قبل .

كان المعروف عن البهنساوى شدته وصرامته فى مثل هذه المحاكمات . الا انه فى هذه المحاكمة تصدى هو شخصيا ، للمباحث العامة والنيابة العامة .

سأل وكيل النيابة .

ـ هل هنالك مضبوطات ؟

وكان رده .

ـ لا مضبوطات .

سأله .

ـ لابد أن تكون هنالك مضبوطات للمحاكمة ، والا فما الذى تستند اليه فى اتهامك ؟ .

وكان رده .

ـ تحريات المباحث العامة وأقوالها .

وجه البهنساوى سؤاله الى ضابط المباحث .

ـ يبدو فى شهادتك كثير من التغير . لماذا قال عبد العزيز كلاما فى اول التحقيق ، ثم غيره فى آخره ؟

وكان رده :

– عندما ضيقنا عليه الخناق .

وهنا ضحك البهنساوى وهو يشير الى رقبته قائلا

– تعنى عندما خنقتموه · ماذا فعلتم به ؟

لم تستغرق مرافعة المحامين دقائق ، وانتهت المحكمة فى سرعة · وصدر الحكم ببراءة الرفاق جميعا ، والحكم بسجن عبد العزيز عاما ، حيث نقل بعد ذلك الى السجن الحربى .

أما الرفاق الثلاثة الذين برأتهم المحكمة فقد اقتيدوا الى سجن مصر ، ومنه الى سجن المحاريق كمعتقلين ، كى يظلوا هنالك فى اسار المنفى حتى نهايته ».

قضية سامى عجيب وآخرين (١) :

ضمت هذه القضية اثنا عشر رفيقا منهم سامى عجيب ، جمال الشرقاوى ، اكرام محارب ، صابر زايد ، مصطفى عبد العزيز ، محمد مهران السيد ، وليم زكى قلدس ، نبيه قلدس وآخرين .

تقرر اعداد دفاعات سياسية مكتوبة ، حتى اذا لم تتح الفرصة لالقائها ، سلمت الى المحكمة لتصبح جزءا من أوراق القضية ، كما تقرر ان يعترف سامى عجيب وجمال الشرقاوى (وكان قد اعترف بالفعل بالعضوية أمام النيابة) بالاعتراف أمام المحكمة · كانت الدفاعات السياسية عامة تتناول شعار الاشتراكية الديمقراطية ، المرفوع حينذاك ، وتوضيح انه شعار ، يفرغ الاشتراكية الحقيقية من مضمونها ، ولا يقدم أكثر من ترديد افكار بالية ، ظهرت منذ أكثر من قرن من الزمان ·

دخل الرفاق المحكمة يهتفون ، مما استثار هيئة المحكمة ، وخلق جوا من التوتر · كان محامى جمال الشرقاوى قد اطلع على محضر النيابة ، وفيه وجد اعترافه بالعضوية . كان من رأيه أن يسحب هذا الاعتراف الخطير · الا ان جمال رفض ذلك ، وحذره من اللجوء الى هذه اللعبة ، والا فانه سيضطر الى رفضه امام المحكمة كمحام عنه . تساءل المحامى عما يتوجب عليه فعله أمام وضع كهذا ، طرح عليه جمال ، أن يتناول دفاعه قضية « قلب نظام الحكم بالقوة » . قال له ، اننا نسعى بالفعل الى قلب نظام الحكم ، ولكن بغير القوة ، « اننا لن نلجأ للعنف الا ان

---

(١) فى اللقاء الشخصى السابق مع اكرام محارب ، وصابر زايد ·

لجأوا هم اليه ، أى اننا لا نقصد استخدام العنف ، لكننا نضطر له أمام الضرورة » • وبالفعل التزم المحامى بهذا الدفاع •

قدم سامى عجيب دفاعه معترفا بالعضوية وكذا فعل جمال الشرقاوى . قدم رفاق آخرون دفاعات سياسية ، تجح البعض منهم فى ذلك ، ومنع رئيس المحكمة الباقيين .

بعد انتهاء المحاكمة ، فى الجلسة النهائية التى اعلنت فيها الاحكام وكانت جلسة علنية ، والقاعة مليئة بعائلات الرفاق ، وعائلات المتهمين الجنائيين (فى قضايا أخرى فى نفس الجلسة) ، هتف الرفاق بحياة الحزب . كانوا داخل قفص الاتهام ، دون قيود فى المعاصم ، حاول رجال المباحث العامة ، سرعة اخراجهم من القفص الى طرقة سجن الاستئناف ، الكائنة خلف المحكمة • بدأوا فى الاعتداء عليهم ، فرد الرفاق الضرب بالضرب • ادخلوهم احدى حجرات المحكمة وحاولوا وضع القيود فى ايديهم حتى يتمكنوا منهم ، الا انهم قاوموا ذلك مقاومة شديدة • أصروا على انهم لن يغادروا هذا المكان الا اذا كان معهم وكيل النيابة • نجحوا بالفعل فى فرض تدخل وكيل النيابة فى مواجهة المباحث العامة . اعلن ضباط الترحيلة ، انهم ، هم ، المسئولون عنهم ، وعليهم وحدهم تقع مسئولية أى شىء يصيب الرفاق • فشلت محاولات المباحث العامة وغادر الرفاق المحكمة الى سجن القناطر .

كان ذلك فى اوائل عام ١٩٦٣ • ظلوا هناك حتى تم التصديق على الاحكام . ثم رحل الجميع الى منفى المحاريق بالواحات الخارجة . وكل منهم يحمل على عاتقه مددا تتراوح من خمس الى سبع سنوات .

قضية ابو سيف يوسف وآخرين (١) :

ضمت القضية كل من الرفاق : أبو سيف يوسف (سكرتير عام الحزب الشيوعى المصرى) ، محمد بدر ، أحمد سالم ، فريد رمزى ، أنور نعمان ، اسماعيل المهدوى ، شوقى مجاهد ، عبد الحكيم قاسم ، عبد السلام زكى مبارك ، رؤوف مسعد ، حسين شعلان ، سامى خشبة ، شوقى خميس ، ميلاد عبد السيد ، محمد كريم الدين ونور •

كان فريد رمزى وانور نعمان ومحمد بدر بأوردى ليمان أبو زعبل ، فاقتيدوا من هناك الى سجن القناطر - رجال ، حيث كان هنالك بقية

---

(١) على لسان فريد رمزى أساسا ، وأنور نعمان .

الرفاق • كانوا ، فى البداية ، فى نفس العنبر الذى به باقى رفاق الحزب المسجونين احتياطيا ، على ذمة قضايا اخرى ، الا ان الادارة نقلت القضية برمتها ، الى عنبر آخر ، بغرض عزلهم . كانت الانظار مركزة عليهم • التفتيش يومى ، كل صباح ومساء • الزنازين مغلقة ، طوال الوقت ، دون طابور شمس • الخروج ، فقط ، لدورات المياه • الزنازين الخاصة بهم ، موضوعة تحت عملية مراقبة متصلة • ورغم كل ذلك ، نجح الرفاق ، الذين كانت لهم زوجات فى سجن القناطر ـ نساء ، من الاتصال بهن ، عن طريق السجناء العاديين •

يقول فريد رمزى : « عندما بدأ التحضير للقضية ثارت بينى وبين الزملاء ، خلافات ، كان لى موقف من محمد بدر لايمانى بانه قد اهمل فى أمان الحزب ، وتسبب بذلك فى الاضرار به ، مما استلزم أن تصدر القيادة الحزبية ، بعد القبض عليه ، قرارا بانزال اقصى عقوبة بـه ، ماعدا الفصل • كما اختلفت ايضا مع أبو سيف يوسف واسماعيل المهدوى ، لرغبتهما فى أن يعترف ، أكبر عدد من الزملاء ، بعضوية الحزب امام المحكمة • كان هنالك بعض الزملاء من كلية الآداب ، وكانوا قد اعترفوا على بعضهم البعض • ولم يكونوا اصلا جزءا من هذه القضية . وكان الزميلان يريان أن وضع هؤلاء فى قضية سكرتير عام الحزب ، انما قصد به التقليل من شأن القضية ، وبالتالى يكون الرد ، هو اعتراف اكبر عدد من أعضاء الحزب بعضويته • وكنت انا ضد هذا الرأى . وكانت وجهة نظرى أن يكون الاعتراف بالعضوية فى اضيق الحدود . ولم أقبل اعترافى ، انا ، بالعضوية ، عارضا استعدادى لتقديم دفاع سياسى ، اتناول فيه تاريخى ودورى فى المقاومة الشعبية " وتقرر ان يعترف بالعضوية كل من : أبو سيف يوسف ، اسماعيل المهدوى ، محمد بدر وشوقى مجاهد • وقد اعترضت على تكليف محمد بدر بالاعتراف بالعضوية ، على اساس ان ذلك تقديم له ، على عكس ما يجب أن يكون عليه ، الموقف المبدئى الصحيح .

« طلب منى الزملاء توكيل محام كبير فى القضية ، مثل الدكتور محمد عصفور ، أو من فى مستواه ، حيث لا يوجد لدى احد من الزملاء ، امكانيات مادية . توجه والدى الى الدكتور عصفور ، فطلب سبعمائة وخمسين جنيها ، معلقا قبوله النهائى على دراسة القضية ، والتعرف على وضعى القانونى . بعد اطلاعه على القضية ، اعلن ان دفاعه عنى لن يأتى بفائدة تذكر • وانه لابد محكوم على بمدة تتراوح ما بين الست والعشر سنوات • ابلغه والدى انه مقتدر ماليا ، وانه على استعداد لدفع المبلغ كله ،

مقدما ، سواء كسبت القضية أم خسرت • الا ان الدكتور عصفور اوضح أن المسألة بالنسبة اليه ، وهو الاستاذ الجامعى ، الحريص على سمعته ، ليست مسألة النقود ، لكنها مسألة النتيجة التى سيحققها • وأن مثل قضايانا ، قد صدر الحكم فيها ، علينا ، مسبقا . واقنع والدى والاسرة ، أن الحكم الذى سوف يصدر ضدى ، بعد المحاكمة ، معروف ، منذ الآن ، للمباحث العامة والجهات الحكومية المعنية . وبالتالى لا داع لمصاريف ، لا جدوى من ورائها • الا اتفقنا ، فى القضية ، على ان يحل الاستاذ ماهر محمد على مكانه • فطلب اربعمائة وخمسين جنيها ، دفعها له والدى مرة واحدة ، حتى لا يكون هنالك مجال للاخذ والعطاء » .

جاء الاستاذ ماهر محمد على لزيارة الرفيق فريد رمزى فى سجن القناطر ، وذلك لمناقشة خطة الدفاع • ابلغه فريد رمزى انه يجب الاتفاق وقبل كل شىء ، على عدم توجيه اية اهانة للشيوعية ، والا فانه سوف يردها اليه ويطلب تنحيته • كذلك فان اية اساءة للحزب ، وأى تعريض بزملاء القضية مرفوض تماما ، وان يقتصر دفاعه فى جانبه السياسى على وطنية المتهمين • طمأنه الاستاذ ماهر محمد على ، من ناحية موقفه ودفاعه ، الا أنه طلب منه ضرورة التحدث ، فى ذلك ايضا ، مع محامى الجدول ، أى المحامى الذى تنتدبه الحكومة للدفاع عنه • وقد طلبه الرفيق فريد رمزى حيث حدد له مرافعته فى اطار مسألة التعذيب فى اوردى ليمان ابو زعبل ، وضرورة تسجيل هذه القضية فى المحكمة ، كما ابلغه ايضا ان باقى جوانب الدفاع ، سيقوم بها الاستاذ ماهر محمد على •

رحلت القضية الى الاسكندرية تمهيدا للمحاكمة . قيد كل اثنين من الرفاق معا ، ثم وضعوا كل ثمانية فى سيارة كبيرة مليئة بضباط وجنود الحراسة • كانت السيارات مكشوفة الظهر ، وقد غادروا السجن قبل ان ينبلج الفجر • كان الوقت عتمة ، والضباط لا يكفون عن التهديد والتحذير ، بان اية حركة أو محاولة للهرب ، سيكون الرد الوحيد عليها ، هو الضرب المباشر بالرصاص •

سارت عربتا اللورى ، التى بداخلهما الرفاق ، وامامهما سيارة نجدة ، وخلفهما سيارة كبيرة محملة بجند الحراسة شاكى السلاح ، وعلى الجانبين ، موتوسيكلات وسيارات من محافظة القاهرة ، تحرس الموكب حتى حدود المحافظة التى تليها • استقبلتهم محافظة القليوبية ، لتسلمهم الى محافظة الغربية ، وهكذا على طول الطريق الزراعى • على حدود كل محافظة ، كان هناك ضابط لواء على رأس قوات الأمن الخاصة بالمحافظة ،

فى انتظارهم ، وهنا تعود سيارات وموتوسيكلات المحافظة التى انتهت ، وتبدأ قوات المحافظة الأخرى ، الاحاطة بالموكب ، كحملة خارجية ، اضافية ، تدعم قوة حراسة الترحيلة الاساسية . الموتوسيكلات كانت تطلق طوال الوقت سارينانها والحملة مندفعة ، فتبدو المسألة وكأنها زفة هائلة ، مما كان يجعل الرفاق يضحكون من كل هذا الذى يجرى حولهم . بلغوا أول نقطة لحدود محافظة الاسكندرية . وكان نفس الاستقبال جاهزا فى سجن الحضرة . واتخذ العرض ، هنا ، اشد الارهاب اشكالا . افرغت الشوارع من الناس . اقيم حول ساحة السجن كردون هائل من رجال الشرطة ، ادخلوا السجن ، ورغم ان الساعة كانت حوالى الثامنة صباحا ، الا ان الزنازين كلها ، كانت ، ما تزال ، مغلقة . تفرغت لهم كل قوة السجن من ضباط وسجانه وحراس . اوقفوهم الى جوار بعضهم البعض . كان هنالك قرار حزبى بمقاومة العنف بالعنف ، ورفض اية اهانة توجه اليهم . بدأ استدعاؤهم طبقا لترتيبهم فى القضية . استدعى أبو سيف يوسف حيث جرى تفتيشه ، ثم اسماعيل المهدوى الذى ما أن بدأوا تفتيش حقيبته واستخراج ما بها حتى زعق فيهم وصاح ، الا يضعوا حاجياته فوق الأرض . بدأ الرفيق اسماعيل المهدوى الهجوم . طلبوا منهم ان يجلسوا القرفصاء ، حاول الجنود التحرش بهم ، فاظهر الرفاق استعدادهم للرد عليهم . جاء ضابط من ضباط السجن ، زكى وهبه . كان يعرف الرفيقين فريد رمزى وميلاد الشوان ، حيث كان يسكن الى جوارهما فى حى شبرا بالقاهرة ، سلم عليهما ، سألهما عن أحوالهما . ابدى دهشته لوجودهما فى هذا المكان . طلب منهما ان يحاولا لم الأمور . قالا له ، أنه لن يحدث لهما ، هنا ، اكثر مما حدث لهما فى أماكن اخرى . ان أى اهانة سوف تقاوم بالعنف حتى لو أدى ذلك الى القتل . ان كل ما تتخيل الادارة ، فعله بهم ، هم على اتم الاستعداد لمواجهته ومقاومته . وعدهم الا تصل الأمور الى هذا الحد ، وانها سوف تسير فى طريقها الصحيح . طلبا منه أن يفعل شيئا ان كان ذلك فى وسعه ، فهم على استعداد لأى احتمال ، اليسر باليسر ، والعسر بالعسر والعنف بالعنف ، والمقاومة حتى النفس الأخير . توجه الضابط الى مأمور السجن وتحدث اليه مبصرا أياه بالمخاطر الحقيقية التى يمكن حدوثها . جاء المأمور الى الجنود ، وسبهم طالبا منهم التفتيش بطريقة مهذبة والا يضعوا الملابس التى يجرى تفتيشها فوق الأرض . وبالفعل تم التفتيش كما أمر .

بعد التفتيش ، ادخلوا عنبر السجن ، حيث وضعوا فى الدور الأول منه ، وهو دور من هم تحت التحقيق . وضع كل رفيق فى زنزانة انفرادية . طلبوا منهم ارتداء ملابس السجن فرفضوا . اعلنوا انهم سجناء تحت

التحقيق ، ومن حقهم ارتداء الملابس العادية ، كما من حقهم دخول الطعام الخاص اليهم ٠

قالت ادارة السجن ، ان التعليمات الخاصة بهم ، ترد اليها من هيئة المحكمة التى تنظر قضيتهم ٠ اصروا على موقفهم ، وانتهى الامر الى ارتداء ملابس من هم تحت التحقيق وليس ملابس السجناء ٠

فى اول صباح لهم ، سجناء بهذا السجن ، اخرجوا خارج الزنازين ٠ حاولت الادارة ان تفرض عليهم الجلوس قرفصاء اثناء التفتيش ٠ رفض الرفاق ، فبدأ الحراس الزعيق ٠ رد الرفاق عليهم بالزعيق ايضا ٠ اطل سكان الادوار العليا من العنبر ، وهم من السجناء العاديين ٠ كان امامهم ستة عشر شيوعيا ، فقط لا غير ، يواجهون الادارة بكل ارهابها ٠ حاول احد الجنود دفع احد الزملاء ، فرد عليه الدفع بالدفع ٠ كاد الرفاق أن يضربوه ٠ توتر الجو وزاط وتأزمت الامور ، فحضر المأمور ومعاونة ٠ قال ، أن النظام هنا أن يجلس الرفاق القرفصاء ساعة التفتيش ٠ رد الرفاق بانهم سياسيون ويرفضون الانصياغ لهذا الامر ٠ تدخل الضابط ، زكى وهبه ، مرة اخرى لتهدئة الامور ٠ وعاد التفتيش عاديا ٠

كان الحبس الانفرادى للرفاق وفرض الرقابة عليهم ، عملية مرهقة للادارة ٠ ومن هنا قامت بتسكين كل ثلاثة منهم فى زنزانة واحدة ، بها سرير من طوابق ثلاثة ٠ وبذا اصبح الرفاق فى ستة زنازن بدلا من ستة عشر زنزانة ٠

كانت ابواب الزنازين مغلقة طوال اليوم ، ولا تفتح الا للذهاب الى دورة المياه صباحا وبعد الظهر فقط ٠ لا طوابير ، لا كتب ، لا جرائد ، لا اذاعة ، لا أوراق أو أقلام ٠ والغذاء هو يمك السجن ٠

حاول مأمور السجن مناقشة الرفاق فى ضرورة الجلوس قرفصاء عند تفتيش الزنازين ، باعتبار أن ذلك هو قانون السجن ٠ رد عليه الرفاق بانه يطالبهم بتنفيذ بند واحد من لائحة السجون ، فى حين انه لا ينفذ هو اى بند آخر من تلك اللائحة ٠ وهم كسياسيين يرفضون الخضوع لأى قانون يهين آدميتهم ٠ يقول فريد رمزى « وللحقيقة ، كان اسماعيل المهدوى ، هو الذى يتصدى لمثل كل تلك القضايا ، وكنا نحن نؤيده » ٠

المحكمـــة :

كانت المحكمة عسكرية برياسة هلال عبد الله هلال ٠

اعترض الرفاق ، فى اول جلسة ، على تقديمهم أمام محكمة عسكرية باعتبار انهم مدنيون • سألهم هلال عبد الله هلال ، ان كان لأى منهم

اعتراض على اشخاص المحكمة • ردوا ، أنه لا اعتراض على الاشخاص ، اذ لا خصومة خاصة بين أحد من الرفاق واشخاص المحكمة ، انما ينصب اعتراضهم على المحكمة العسكرية ذاتها •

قرأ قرار الاتهام ، وكان الرفاق قد اطلعوا عليه فى سجن القناطر ، ثم نودى عليهم طبقا لترتيبهم فى قرار الاتهام : أبو سيف يوسف ، اسماعيل المهدوى ، محمد بدر ، شوقى مجاهد ، فريد رمزى وهكذا • ثم السؤال التقليدى ، هل انت مذنب ام غير مذنب ، والاجابة « غير مذنب لاننى وطنى » • الى ان جاء دور الرفيق انور نعمان ، فقال ايضا غير مذنب ، الا ان رئيس المحكمة على ما يبدو ، سمعها « مذنب » ، فعاد يسأله : « تقول انك مذنب ؟ » • فقالها انور نعمان ، مرة أخرى ، « غير مذنب » ، باللغة العربية الفصحى ، حتى تكون واضحة ، فضج الجميع بالضحك •

طلب المحامون التأجيل ، حيث ان القضية كبيرة ، والملفات ضخمة ، ولم يتم التحضير بعد . تقدم الرفاق الى المحكمة ، يطلبون السماح لهم بالجرائد والاذاعة والمجلات والأوراق والاقلام حتى يكتبوا دفاعاتهم السياسية . كذلك السماح لهم بارتداء ملابسهم الخاصة ، وجلب الغذاء الخاص من خارج السجن •

عاد الرفاق الى سجن الحضرة • مر يوم واثنان ولا جديد • فقرروا دخول اضراب عن الطعام • كانت الدفعة الأولى مكونة من الرفاق . أبو سيف يوسف ، اسماعيل المهدوى ، محمد بدر ، شوقى مجاهد فريد رمزى ، حسين شعلان ، سامى خشبة ، محمد كريم الدين وميلاد الشوان • والدفعة الثانية من باقى الرفاق وكان بهم بعض المرضى ، مثل أنور نعمان وشوقى خميس •

كانت قد نشأت علاقات طيبة بين الرفاق والنزلاء العاديين • كان الاخرون ينظرون الى الرفاق نظرة تقدير واحترام ، يعتبرونهم ابطالا فى وسعهم ان يفعلوا ما يعجزوا هم عن فعله . ورأت الادارة فى ذلك ، وفى وجود هؤلاء الرفاق الستة عشر فى العنبر ، ما يهدد باثارة الزوابع والقلق الشديد فى العنبر كله • فشرعت فى اعداد التاديب مقرا لهم ، ثم نقلتهم

اليه • كان التأديب مكونا من زنازين معزولة تمام العزلة ، تقع فى أحد اركان السجن البعيدة • الا انها رغم ذلك كانت تتميز بقربها من المساكن الشعبية المجاورة ، مما مكن للعائلات فرصة رؤية الرفاق والتخاطب معهم ، منهما •

جاءت النيابة ، بعد عدة ايام ، استمعت الى اقوال الرفاق وعاينت الحالة التى يعيشون فيها • اتصلت بهيئة المحكمة ، فوافقت على السماح لهم بالاكل الخاص والملابس الداخلية فقط ، وارتداء الملابس الخاصة عند التوجه الى المحكمة • كما سمحت ايضا بالاذاعة وطابور الفسحة • الا انها لم توافق على الجرائد أو الورق والاقلام • استمر الاضراب ثمانية ايام ، وانتهى الى هذه المكاسب الجزئية ، الا ان المكسب الهام الذى حققه هو الاثر الذى تركته وحدة الرفاق وصلابتهم على ادارة السجن •

استأنفت المحكمة جلساتها • كان الرفاق اثناء ذهابهم الى المحكمة ، يقيد كل واحد منهم الى واحد من جنود الحراسة ، ثم يأخذون فى عربة ، كالعلبة ، مغلقة تماما ، لها باب عليه حارس • وعندما يصلون الى المحكمة ، كانوا يمرون من باب العربة حتى باب قاعة الجلسة ، بين صفين من الجنود الملتصقى الاكتاف كل بالآخر • كانت العائلات تتجمع ، الا ان منظر هذا الحشد من الجند وكل تلك الاجراءات والاحتياطات ، كان يشد انتباه المواطنين العاديين ، فيأخذون فى التجمع ايضا ، فان اضيف الى ذلك عائلات مسجونين عاديين آخرين ، تنظر قضاياهم فى نفس المبنى ، فان الساحة أمام المحكمة تكون ملأى بالزحام والبشر ، خاصة بعد أن أصبح معروفا ، فى الاسكندرية ، ان الشيوعيين يحاكمون فى هذا المكان •

كان يسمح للاهل والاقارب بدخول قاعة المحكمة • كان قفص الاتهام الذى يوضع فيه الرفاق أقرب الى الشرفة ، بلا حديد أو حواجز • كما كان به صفان من الدكك الخشبية ، للجلوس عليها • كان الرفاق يدخلون اطفالهم ، معهم ، الى داخل القفص ، الا ان المباحث العامة أخذت تحتك بهم بحجة أن هؤلاء الاطفال يستخدمون فى الاتصال ، فى حمل الرسائل الى الخارج والى الداخل • وبدأت المباحث العامة اجراءات تخيف الاطفال ، فاحتج الرفاق • الا ان رئيس المحكمة قال ، بأن وجود الاطفال فى القاعة ، أفضل من وجودهم فى القفص • وأن تلك المهمة تخص المباحث وحدها • حيث يمكن بالفعل ، من وجهة نظرة ، ايضا ، استخدام الاطفال كوسيلة للاتصال ، وبالتالى ، فان السماح لهم ، بادخال الاطفال فى القفص مرهون بتفتيش هؤلاء الاطفال قبل دخولهم القفص أو الخروج منه •

كان الرفاق يهتفون دوما ، وهم فى طريقهم من السجن الى المحكمة ؛ وكذا فى القاعة داخل القفص . كانت هتافاتهم تدور حول الديمقراطية والحريات السياسية . الا ان المحكمة نتيجة ذلك ، ونتيجة بعض الصدامات معها ، اذ كثيرا ما كان يقف اسماعيل المهدوى ، مقاطعا رئيس المحكمة ؛ اتخذت قرارا بان يمثل امامها فقط ، رفيقان فى كل يوم . المتهم الأول والثانى فى أول يوم ، ثم الثالث والرابع بعد انتهاء المحكمة من الأول والثانى وهكذا . وكان عند وصول هذين الرفيقين الى مبنى المحكمة يتم احتجاز أحدهما فى غرفة خارجية ؛ ويدخل الآخر الى المحاكمة . أى غدت المحاكمة فردية . يحاكم الرفاق الذين فى قضية واحدة ، فرادى ، فى ذات اليوم ، أو اليوم الذى يليه .

كان أول صدام للرفاق مع المحكمة ، عندما اعلنوا اعتراضهم على المحكمة العسكرية . الا انهم ظلوا معا ثلاث أو اربع جلسات ، كانوا يثيرون فى كل منها ، اعتراضهم هذا . وفى آخر جلسة مشتركة ، قال اسماعيل المهدوى ، أن الحكم معد سلفا . فاعتبرت المحكمة قوله ، هذا ، اهانة لها وانذرته . ثم اتخذت قرار بتجزىء القضية ، أو تمزيقها .

بدأت المحاكمة فى شهر اغسطس ، ثم جاء الانفصال السورى فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ، فتوقفت فترة ، ثم عادت الى الأنعقاد . تناولت الدفاعات السياسية ، بالاضافة الى الاعتراف بالعضوية ، الدفاع عن خط الحزب السياسى ، كما جاء فى دفاع أبو سيف يوسف . أو دور الحزب فى العمل الجماهيرى ؛ كما جاء فى دفاع اسماعيل المهدوى . او دور الحركة النقابية ، كما جاء فى دفاع محمد بدر . أو دور الطلبة فى الحركة الوطنية كما جاء فى دفاع شوقى مجاهد . او الحركة العمالية كما جاء فى دفاع أحمد سالم . قدم سامى خشبة دفاعا سياسيا حول قضية التعليم فى مصر . اما انور نعمان ، فقد روى أمام المحكمة ما حدث فى الاوردى من تعذيب . أما الرفاق الذين كانوا قد اعترفوا على بعضهم البعض ، فقد ادانوا هذا الاعتراف امام المحكمة ، انكروه واستنكروه . واعلنوا أن هذا الاعتراف انما قد انتزع منهم قسرا وزورا تحت وطأة التعذيب ، وانه لا صحة لما جاء فيه .

بعد انتهاء المحاكمة ، ظل الرفاق فى سجن الحضرة حتى شهر اكتوبر ١٩٦٢ فى انتظار صدور الأحكام . وذات يوم استدعوا واحدا بعد الآخر . الى مبنى الادارة ، حيث تليت عليهم الأحكام الصادرة ضدهم . وهتف

الرفاق فى مواجهة الأحكام بحياة الحزب الشيوعى المصرى • كان الحكم الصادر ضد أبو سيف يوسف واسماعيل المهدوى ومحمد بدر وشوقى مجاهد ، عشر سنوات من الاشغال الشاقة ، وغرامة قدرها ألف جنيه مصرى . وحكم على أنور نعمـــان بتسع سنوات وفريد رمزى بثمـان سنوات •

وفى احدى الليالى ، بعد صدور الأحكام ، سمع الرفاق فى زنازين التاديب ، على غير المعتاد ، صوت موتور سيارة ، داخل مبنى السجن • وكان ذلك حدثا غريبا • الا ان الغرابة سرعان ما زالت ، فقد توالت أوامر الترحيل • كانت مع الرفاق وثائق عدة ، فاسرعوا الى تأمينها . سيارة الترحيلة مكشوفة السقف ، المغطى ، فقط ، بشبكة من السلك . كان من الواضح ، ان ذلك ، أمر مقصود ، فالبرد شديد والرفاق لا يملكون غطاء أو بطاطينا ، اخذوهم فى العاشرة مساء وعليهم اردية خفيفة • ظلت اجراءات الترحيل متصلة حتى الثانية عشر ، حيث غادروا السجن وقـد تكوموا وتكدسوا فى مقدمة صندوق السيارة ، خلف كابينة السائق ، فى محاولة ، يائسة ، لمواجهة هذا الصقيع . وصلوا الى سجن مصر ، سجن قرة ميدان حوالى الخامسة صباحا • ظلوا فى هذا السجن يومين ، داخـل زنازين مغلقة طوال الوقت • كانت معاملة الادارة فى سجن مصر معاملة همجية حتى أن انور نعمان فقد كل ملابسه • ومن سجن قرة ميدان تم ترحيلهم الى سجن أسيوط ، ومن هنالك مبـاشرة الى منفى المحـاريق بالواحات .

قضـايا الحزب الشيوعى المصرى « حدتو » :

ليس فيما يلى ، بالتاكيد ، كل القضـايا التى حوكم فيهـا رفاق « حدتو » • ولكن هنالك اهم قضية نظرت ، واهم محاكمة تمت لهم ، وهى تلك التى اشتهرت بقضية « شهدى عطية » . وقبلها سـنتعرض لقضية أخرى نظرت أمام محكمة مدنية •

قضية فاروق ثابت وآخرين(١) :

يقول فاروق ثابت ، « كانت محاكمتنا غريبة للغاية . كنا ثلاثة عشر شخصا ، منهم ، اسعد حليم ، عبد السلام الخشان ، احمـد حجـازى وغيرهم ، كانت المحاكمة عام ١٩٦١ • عندما نزلنا الى المحكمة ، كان

---

(١) على لسان فاروق ثابت •

رئيس الدائرة والد الفنان صلاح جاهين . وكان كلما رآنا ، أجل القضيه حتى انتهت الدورة . تأجلت محاكمتنا من ١٩٦١ حتى ١٩٦٣ .

« نزلنا بعد ذلك امام مستشار آخر . كان يسألنا : انت شيوعى ؟ وكنا نقول ، نعم شيوعى ، أؤيد السلطة ولا اعارضها ، فلماذا تحبسوننا ؟ لمطالبتنا بالتأميم . وها هو التأميم يحدث . على أى شىء تحاكموننا . ان مواد القانون الذى نحاكم به ، لا ينطبق علينا ؛ ولكنه ينطبق على السلطة . هذه هى وجهة نظرى ومبادئى ، وانا حر فيها ، الا ان موقفى العملى هو التأييد .

« كان ذلك هو محور الدفاع السياسى الذى قدمه الثلاثة عشرة متهما . لم يسألنا رئيس المحكمة فى مسألة العضوية . ولم يكن لنا هذا الموقف أصلا . موقف الاعتراف بالعضوية . كان موقفنا ، أنت شيوعى ؟ نعم . انت عضو فى الحزب الشيوعى ؟ لا . « وعندما سألنى رئيس الدائرة ، انت شيوعى ؟ واجبت بالايجاب ، وبدأت دفاعى السياسى ، ونحيت على منصور المحامى المترافع عنه لاقول كلمتى . رفع المستشار الجلسة . ويبدو انه كان يعرفنى عن طريق أحد اقاربى . وعاد ليعلن الأحكام .

« كانت المحكمة مدنية . وهى كلها لم تستغرق اكثر من ثلث ساعة » .

قضية شهدى عطية وآخرين (٢) :

عرفت القضية ايضا بقضية الثمانى والاربعين ، حيث انها ضمت ثمان واربعين زميلا من الحزب الشيوعى المصرى « حدتو » . وكان منهم : شهدى عطية ، مبارك عبده فضل ، محمد يوسف الجندى ، ابراهيم عبد الحليم ، أحمد الرفاعى ، كمال الشلودى ، حمدى مرسى ، محمود السكران ، عبد الحميد السحرتى ، صنع الله ابراهيم ، سعد بهجت ، ابراهيم المانسترلى ، نور سليمان ، جمال غالى ، محمد عباس ، عادل حسين ، طاهر البدرى ، أحمد القصير ، محمد على عامر ، سيف صادق ، محمد أحمد الزبير ، سيد عبد الوهاب ندا ، عثمان فهمى عبد اللطيف ، سعد الدين عبد المتعال ، محمد الليثى ، أحمد على خضر ، أحمد سليم ،

---

(٢) على لسان مبارك عبده فضل (١٩٨٢/٢) ومحمد يوسف الجندى فى لقاءات شخصية معهما .

على نجيب ، محمود غريب سليمان ، مصطفى بهيج نصار ، محمد محمود مراد ، صلاح هنداوى ، محمد حجازى ، عطية الصيرفى ، محمد يونس ، محمود أبو شوشة ، رشاد خليل الشلودى .

كان الجميع ، تقريبا ، قد قبض عليهم فى حملة يناير ١٩٥٩ ، حيث إودعوا سجن القلعة ، ومنها الى سجن المحاريق بالواحات ، ثم الى بسجن - مصر ، سجن قرة ميدان بالقاهرة ، حيث ظلوا هنالك حوالى عشرة ايام ، إنتظارا للترحيل الى الاسكندرية للمحاكمة أمام نفس المحكمة العسكرية ، برئاسة الفريق هلال عبد الله هلال ، والتى كانت مشغولة حينئذ بنظر قضية « فؤاد مرسى وآخرين » ، والتى ما ان انتهت محاكمتها ، حتى رحلت قضية « شهدى عطية » الى سجن الحضرة بالاسكندرية .

الاعداد للقضية :

اتخذ الاعداد للقضية شقين : الشق القانونى ، والشق السياسى .

يقول مبارك عبده فضل ، « نظمنا ما يسمى بقضية الدفاع . كل واحد يأتى له محاميه ، الامكانيات كانت محدودة . فالقى على عاتق كل محام ، مجموعة للدفاع عنها . مثلا ، كان عادل أمين مسئولا عن مجموعة . وكذا ابراهيم طلعت ، ومحام من الاسكندرية يدعى جوجو . كان الاستثناء ، المحدود ، هو أن يترافع المحامى عن فرد واحد ، وكان من هؤلاء شهدى عطية باعتباره المتهم الأول ، وكان محاميه الاستاذ محمد عبد الله باعتباره رجلا قديرا فى الجنائى . ولقد قدم بالفعل دفاعا عاما عن القضية كلها . كان دفاعا قانونيا وسياسيا مجيدا للغاية ، وترافع ايضا الاستاذ جمال العطيفى عن محمد الجندى . كان هؤلاء المحامين المشتركين يأخذون مبالغ بسيطة جدا . كان بعضهم منتدبا ، وكنا نعطيه فى حدود عشرين جنيها . ولقد طلب الاستاذ عادل أمين ، اما زيادة المبالغ واما التخلى عن القضية . وكانت مجموعته مكونة من نور سليمان ومحمد على عامر وزملاء من العمال . وضعهم أمام الامر الواقع ، اما الدفع واما عدم الترافع - فعرضنا عليه الاختصار ، بمعنى ان المبلغ الذى سيأخذه عن اربعة زملاء ، يأخذه عن اثنين فقط ، وعلينا أن نبحث للآخرين عن محام آخر . كان دفاع الاستاذ عادل أمين ، دفاعا قانونيا . من المحامين الذين اتخذوا موقفا جيدا للغاية ، الاستاذ عبد الله حسن ، وكان موكلا عن حمدى مرسى ، الا انه اخذ معه عددا آخرا من الزملاء . ولقد

اخذ أمام المحكمة مواقف جيدة وجريئة ، وكذلك كان الاستاذ ابراهيم طلعت ، والذى كنت انا المتهم الرئيسى فى مجموعته . المبالغ التى قدمت للمحـــامين ، كانت تدبر من الاهالى ، بالاضــــافة الى تبرعات بعض الاصدقاء والشخصيات التى يمكن ان تتبرع لمثل هذا الموضوع . كان الاهل يحضرون لنا باستمرار . وكانت مشكلة التفاهم معهم ، وخاصة الترتيبات اللازمة للقضية صعبة للغاية ، حيث كانت المحكمة ملأى برجال المباحث العامة ، ولذا استخدمنا اللغة النوبية فى التخاطب فى أى تبليغ ، حتى لا يفهم أحد من المباحثيين شيئا .

« من الاشياء البارزة والمعروفة ، فى هذه القضية ، اعتراف كمـال الشلودى . لقد قفز فجأة من قفص الاتهام واعلن اعترافه . وهذا الموضوع له قصة وبداية . كنا قد لاحظنا ، ونحن فى سجن الحضرة بالاسكندرية ، ان كمال الشلودى متعب . كان من الواضح أنه (مخوخ) ؛ يعانى من حالة انهيار ما . كان عضـوا فى الجنة المركـزية ، لكننا لم ندرك ان هذا التعب أو الانهيـار ، يمكن ان يؤدى به الى القفز فى المحكمـة والاعتراف . شىء لم يكن متوقعا أو متصورا على الاطلاق . حدث قبـل اعترافه بيوم واحد ، ان اعتدى على احمد القصير ، اعتداء فظيعا ، لا يصدر عن ادارة السجن ذاتها . ومن المحتمل أنه قد فعل ذلك ، حتى يستند اليه فى تبرير موقفه . استفزت فعلته كل الناس ، فاجتمع الزملاء المركزيين ووجهوا اليه لوما أو توبيخا ، شىء من هذا القبيل . عقوبة لا يمكن أن تؤدى الى شىء . ولكن يبدو اننا كنا ما نزال شبابا يفتقد الحصافة . لم نكن ندرك ان الامر قد وصل به الى هذا الحد . ابلغ بالقرار ، وخرج معنا ، وجلس فى قفص الاتهام معنا ، وفجأة قفز خارجه ، وتحول من متهم الى شاهد ملك . قال فور ان قفز ، « انا عندى اعترافات ، عندى كلام فى القضية » . فرفع الرئيس الجلسة عشر دقائق أو ربع ساعة ، ثم وضعوه فى موضع آخر ، وبدأ اعترافاته . قال كل ما كان يعرفه داخل السجن أو خارجه ، لم يترك شيئا البتة . واستغرق اعترافه يوما أو يوما ونصف . كان الرفاق قد كلفونى بترتيبات تمويل القضايا ، وكان شرط قبولى لهذه المسئولية ، الا يسألنى أحد عمن تبرع من الاصدقاء كنوع من الامان . وضعت هذا الشرط للاحتياط ، لعدم بعثرة الكلام ، لم يكن فى بالى بالطبع موقف كمال الشلودى . ولو كان قد عرف بهذه المسألة لجرجر اناسا لمجرد انهم قد ساهموا او تبرعوا للدفاع عنا . وضعوه بعد ذلك فى سجن الاجانب . كان يأتى اثناء الجلسة ، ويعود الى هنالك فى آخـر النهـــار » .

وكان الشق الثانى من الاعداد ، هو الاعداد السياسى للقضية .

يقول مبارك عبده فضل ، « لم تكن خطتنا فى القضية نقوم على خط الاعتراف بالعضوية ، مثل القضية الأولى (يقصد قضية الحزب الشيوعى المصرى) • كانت خطتنا أن يقول الزملاء كلاما سياسيا ، وليس كل الزملاء ايضا • كانت الدفاعات السياسية تقوم على أساس خطنا السياسى ومحوره أن عبد الناصر والقوى الموجودة قوى وطنية ، لكنها مخطئة فى حق الشيوعيين • وأن هذه الاجراءات ضدنا غير سليمة . لم يكن خطنا خط التخوين « أى اتهام النظام بالخيانة » ، ومن هذا المنطلق كانت دفاعاتنا قائمة على أساس عرض تاريخ الشيوعيين وما قاموا به من أعمال • كان الخط هو خط التأييد . قدم شهدى عطية دفاعا سياسيا عاما ، وتناولت أنا موضوع الجبهة ، وتاريخ الشيوعيين عامة . اعطى رئيس المحكمة فسحة من الوقت ، الى حد ما ، لشهدى عطية ، وربما كان ذلك بسبب محاميه الاستاذ محمد عبد الله ، الا انه بالنسبة للآخرين ، كان كثير المقاطعة ، كثير التضييق • كان يحاول التقفيل قدر الامكان • ولم نكن ننظر الى عملية التقفيل تلك ، على أنها ، رغبة من هلال عبد الله هلال لتخفيف الأحكام ، أو اعطاء أحكام بالبراءة أو ما شابه ذلك ، وانما نعتقد ان هذه المقاطعة والتضييق ترجع الى دفاعنا عن تاريخ الشيوعيين ، مما فرض علينا عمليات المراوغة منه ، حتى يمكن للواحد منا أن يقول الجزء الذى يريده من كلامه •

الحدث السياسى الوحيد الذى اذكره ، اثناء المحاكمة ، كحدث غير عادى أو مألوف ، هو تأميم بنك مصر . كان ذلك فى فبراير ١٩٦٠ • فوقفنا فى المحكمة وايدنا تأميم بنك مصر » •

ويقول محمد الجندى ، « عقدنا فى الاسكندرية كونفرنسا ناقشنا فيه تقييمنا للوضع السياسى القائم • وواصلنا مناقشاتنا التى كنا قد بدأناها قبل دخول السجن . كنا قبل دخول السجن نعتبر ان السلطة فى يد البورجوازية الوطنية ، التى هى ليست فئة واحدة ، لكنها تمثل فئات يمينية ، وفئات أكثر تقدما • كنا نعتبر أن عبد الناصر ومجموعة معه ، تمثل القوى المتقدمة فى البورجوازية الوطنية • وكنا نسعى لقيام تحالف مع عبد الناصر ومجموعته فى السلطة • كنا نعتبر أن فى السلطة قوى يمينية نحاول ضرب هذا التحالف ، وتحاول ايضا جر عبد الناصر والحكومة ككل بقيادته الى الاتجاه اليمينى •

« فى الكونفرنس ، وكان شهدى موجودا فيه ، قبل الذهاب الى أبو زعبل ، قلنا أن هنالك مجموعة فى السلطة ، هى ليست كل السلطة ، مجموعة اسميناها بالمجموعة الاشتراكية . لها افكار اشتراكية ، لكنها

غير علمية ، غير الماركسية اللينينية • الا انه يجب العمل مع هذه المجموعة لتحقيق وحدة العمل من أجل الاهداف الوطنية والديمقراطية • وقلنا انه يمكن حدوث تطور فكرى لهذه المجموعة ، والمفروض علينا أن نبذل جهدا فى اتجاه التقارب من الاشتراكية العلمية .

« فى القضية ، كان الدفاع الأساسى الذى قيل هو الدفاع الذى قام به شهدى عطية • كان دفاعا طويلا ، تحدث فيه عن الموقف من الاستعمار ، عن موقفنا من عبد الناصر كرجل وطنى ، تحدث فيه ، ودافع ، عن دور الشيوعيين داخل التحالف الوطنى ودور الشيوعيين الوطنى الديمقراطى ، بل وحتى دافع عن الشيوعيين والشيوعية . دورها واهدافها . وتكلم ابراهيم عبد الحليم عن الكتب التى اصدرتها دار الفكر • وتكلمت أنا عن موقفنا منذ قبل عام ١٩٥٢ ضد الاستعمار . والقضية التى حكم فيها على بالسجن خمس سنوات • ومن هم الذين كانوا يحاكموننا ، ومن كانت النيابة من أمثال « قاويش » ، وما هى مواقفهم بعد ذلك • وكيف ظهر انهم كانوا متعاونين مع الاستعمار • وكيف ان موقفنا اليوم هو استمرار لهذا الموقف ضد الاستعمار والسراى • لم تطرح فى المحكمة مسألة المجموعة الاشتراكية لانها لم تكن قد اقرت بعد . طرحنا مسألة التحالف » .

كان الوضع فى سجن الحضرة ، اثناء وجود قضية « حدتو » به ، عاديا الى حد ما • الزيارات مسموح بها • وادخال الطعام مسموح به ، وفتح الزنازين طوال الوقت حتى المساء . كانت الامور جيدة ، باستثناء خناقة وقعت بين حمدى مرسى وعلى نجيب من جهة ، وضابط العنبر من جهة أخرى • واراد هذا الضابط الانتقام فجرد حملة فتحت الزنازين على الرفاق ، واعتدوا عليهم بالضرب . خلعوا ملابسهم العادية ، والبسوهم ملابس السجن . شجت رأس محمود السكران ، وكان رجلا فوق الستين من عمره ، كذلك اصيب عدد آخر من الزملاء • تمت عملية الضرب اثناء المحاكمة ، وذهب الزملاء الى المحكمة ومحمود السكران ملفوف الرأس . حاولوا تقديم شكوى الى المحكمة ، الا انها لم تلتفت لهذا الموضوع •

انتهت المحاكمة وقد استغرقت وقتا طويلا • استمر من أوائل عام ١٩٦٠ حتى منتصفه ، ثم جاء الترحيل الى أبو زعبل •

يقول مبارك عبده فضل ؛ « فوجئنا بعد انتهاء المحكمة بيومين أو ثلاثة ، بالزنازين تفتح علينا ، من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل • طلب منا ان نلبس ملابسنا ، وأن

نجهز انفســـنا . كان هنـــالك استعجال شــديد جــدا . وبالفعــل جهزنا حاجياتنا فى سرعة · وكالعادة نظمنا مسئولا عن الرحلة ، وعليه هو أن يحدد المسائل والمواقف . كان ترحيلنا فى سيارتين ، فاخترنا شهدى عطية لواحدة منهما ورفيق آخر للسيارة الأخرى . عندما خرجنا الى حوش السجن ، كان هنالك الحلوانى مأمور السجن وكمية ضخمة من البوليس والحراس · وعرفنا ان الحلوانى سوف يصاحب الترحيلة . وكان هذا أمرا غريبا ، اذ أن مأمور السجن ، عادة ، لا يصاحب ترحيلة تغـادر سجنه الى سجن آخر . كان الحلوانى استفزازيا للغاية اثناء عمليـة الخروج · وكانت قد حدثت مشكلة واحتكاك بينه وبين حمدى مرسى سجلناها فى المحكمة . وقد جعلته هذه الواقعة فى حالة استفزاز ، رغم اننا سمعنا ، انه كان يتعامل مع الدفعة التى قبلنا ، معاملة طيبــة · ركبنا السيارتين وغادرنا السجن ، لا ندرى الى أين ، كانت التخمينات التى وردت على اذهاننا اننا فى طريقنا الى سجن مصر أو ليمان طره ، الا أن موضوع أبو زعبل ، لم يكن وارد فى ذهننا ، باعتبار ان أبو زعبل مكـان للمعتقلين · لم نكن نعرف أن قضـية فؤاد مرسى قد ذهبت الى أبو زعبل · كما لم نكن نعرف الاوضاع هناك . ان ما رأيناه فى أبو زعبل أو سمعنا به فيما بعد ، لم يكن ، فى الحقيقة ، واردا فى اذهاننا على الاطلاق · كنا نتصور نوعا من التضييق ، نوعا من الاهانة البسيطة ، أما هذا التعذيب المنظم ، فلم يكن فى ذهننا آنذاك .

فى لحظة ما ، ادركنا اننا نتجه الى أبو زعبل . ربما كان ذلك بعد أن دخلنا طريق أبو زعبل ـ كنا قد غادرنا الاسكندرية حوالى الثالثة والنصف فجرا ، وبلغنا أبو زعبل حوالى السابعة صباحا · أنا لا اعرف بالتحديد جغرافية أبو زعبل · لكننى اعرف بالتحديد اننا جلسنا فى مكان خلوى بعيد عن الاوردى . أول ما نزلنا من السيارات وجدنا ضجيج وعساكر وفرسان وعصى وأشياء فظيعة للغاية . أجلسونا كل اربعة فى صف واحد ، كنا حوالى خمسة واربعين ، كلنا ذهبنا ، ما عدا كمـال الشلودى · كانوا قد عزلوه بعد اعترافه فى سجن الاجانب بالاسكندرية . ظللنا جالسين هكذا حوالى ثلاث ساعات · بدأ الزملاء يتململون . كـل حركة يأتيها زميل ، كان يضرب بسببها · كنت وقتها سمينا للغاية · وكانت مثل هذه الجلسة عسيرة على ، لا احتملها . ولذا تحركت كثيرا ، ونلت كمية فظيعة من العصى والشوم على رأسى · كان مفروضا الا تنظر حولك أو أمامك · بدأوا يأخذوننا صفا صفا · عندما جاء دور الاربعة الذين انا معهم ، كنت منهكا للغاية . ربما كان ذلك من الضرب الفظيع الذى إنصب على رأسى . كنا نجري بين صفين من الجند ، وصف من

الفرسان خلفنا • ان توقفت ضربوك • اتذكر اننى وقعت أكثر من مرة • عندما وصلت باب الاوردى ، كنت قد انتهيت تماما . بمعنى انى لم اعد قادر على الحركة فاصبت بالاغماء أكثر من مرة . غمرونى بالماء حتى افيق • خلعوا ملابسى ، لا ادرى كيف . كان هنالك جدول مياه واشجار • حلقوا شعرى ودخلت • اذكر انى كنت اصاب بالاغماء ، وأن هنالك من كان يحملنى ، اثنين من اليدين ، واثنين من الرجلين • وكان هنالك من يضربنى على ظهرى وبطنى . كانوا يقلبوننى وانا عريان ، منهك للغاية ، اصاب بالاغماء ، فاعاد الى وعى كى اضرب من جديد • عندما وصلت باب العنبر ، كنت ازحف على رجلى عاجزا عن المشى • دخلته وفقدت الادراك بكل ما حولى . اصابتنى حالة من الاغماء المتصل . كنت افيق لحظات فاطلب ماء واشرب ، فتزيد حالتى سوءا . احسست انى أموت ؛ وان موضوع العمر قد غدا دقائق معدودة • احسست بتومرجى السجن يغرس فى جسدى حقنة كورامين • وربما تكون تلك الحقنة هى ما انقذ الموقف . عرفت بهذا فيما بعد . وحسبما سمعت ، فانهم عندما مات شهدى وعرفوا ان هنالك آخرين متعبين فى العنبر ، فزعوا وجاءوا لاعطاء الحقن • بعد أخذ الحقنة وبعد ان افقت قليلا نقلت الى حجرة ، ووجدت معى فيها جمال غالى ونور سليمان ومحمد عباس فهمى وعادل حسين . كنا ننام فى سرر عالية من ناحية الرأس ومنخفضة من ناحية الاقدام • سألنا الطبيب عن حقيقة ما نحن فيه ، فقال اننا مصابون بصدمة عصبية ، وكنت انا أسوأهم حالا ، قال الطبيب ، أنه لابد من عدم الحركة وعدم شرب المياه مدة ٢٤ ساعة • كانت تلك هى مرحلة الخطر التى لو اجتزناها ، عشنا ، وان عجزنا عن عبورها ، فاننا معرضون للخطر الشديد ، حيث أن الصدمة العصبية ، كما قيل لنا ، يمكن ان تقتل الواحد منا فى اية لحظة • كانت تعليمات الاطباء وقتها ، منعنا من شرب الماء ، وفى حالة الشعور بالظمأ ، كانوا يحضرون لنا قطعة قطن بها ماء يقطر فى الفم نقطا لبل الريق .

عرفنا أن شهدى قد مات من أحد الزملاء ، لم نسمع بذلك فى العنبر ، سمعنا به ونحن فى حجرة المستشفى • أحد الزملاء الذين كانوا يقومون بجمع القمامة ، وربما كان شندى ، هو الذى شرح لنا الوضع فى العنابر الأخرى . فوجئنا بالتحقيقات التى جرت بعد يوم أو اثنين ، بعض الناس كانت تتذكر اسماء من ضربهم ، أو تتعرف عليهم من وجوههم ، والبعض لم يكن يعرف . وانا شخصيا لم اعرف احدا ، اغلب الضرب وقع على ، وانا فى حالة اغماء أو عدم وعى بما يجرى حولى • كما أن منظر الزملاء فى العنبر ، بعد الاعتداء عليهم ، كان منظرا غائما تماما ولا اذكر منه شيئا .

من الاشياء التى سمعتها فيما بعد ، أن أحمد خضر وزملاء آخرين ، كانوا يخطرفون أى كلام ، بسبب ما أصابهم من عدوان . كان شهدى عطية ، فى الغالب ، فى دفعة قبلى ، وان كنت غير متأكد من ذلك . ومما يرويه الزملاء ، انهم ظلوا يضربونه حتى مات ، وكان يقول ، « أنا شيوعى » . واعتقد ان مجموعتنا كانت أكبر مجموعة تعرضت للتعذيب قبل دخولها الاوردي . كنا نسحل حتي العنبر ، ولا اذكر انى قد سرت على قدمى . فاما انهم كانوا يجرونني ارضا ، أو انني كنت ازحف زحفا . وفى اعتقادي أن ما حدث لنا ، لابد كان نتيجة توصيات بسبب المحاكمة .

بعد التحقيقات ، والتى استمرت حوالى الاسبوع ، نقلنا الى سجن القناطر . وهنالك احسسنا بالمأساة التى نحن فيها . كل الناس مضروبة . والملابس ملتصقة بالابدان ، ورفعها عنها مؤلم اشد الالم . عندما وصلنا سجن القناطر ، كانت حالة السجن متوترة ، مضطربة للغاية ، والناس جميعا فى زعل شديد ، طبيب السجن واسمه صادق ، كان انسانا للغاية . استقبلنا وكشف علينا فور وصولنا . كان يبكى وهو يفعل ذلك . لكنه صرف لنا جميعا غذاء كاملا . لا ندرى ان كان ذلك بسبب تعليمات صدرت اليه ، أم بدون تعليمات وعلى مسئوليته ، صرف لنا لبنا وسكرا وليمونا وبطاطينا . هنالك فى سجن القناطر عرفنا بما فعله أهل شهدى ، والمأزق الذى واجه عبد الناصر فى مجلس النواب اليوغسلافى ، ووقوفهم هنالك حدادا عليه ، ورسالة عبد الناصر بضرورة التحقيق .

جاءت الأحكام ونحن فى سجن القناطر . كنت حينذاك فى مستشفى القصر العينى لاجراء عملية . احسست ان الادارة فى حالة اضطراب ، ثم أخذونى الى سجن القناطر ، وهنالك اعلنونى بالحكم ، عشر سنوات مع الاشغال الشاقة . الاغلبية حكم عليها ما بين ثلاث وعشر سنوات . واحد فقط اخذ سنتين والبعض اخذ براءة مثل عبد الحميد السحرتى » .

ويقول محمد يوسف الجندى ، « .. دخلت السيارات طريق أبو زعبل . كانت تأتي لنا اخبار عن هذا المعتقل ، الا اننا لم نكن نصدقها . كنا نسمع أن هنالك تعذيبا دون تفصيلات أو تأكيد . لم نكن نعرف بمقتل فريد حداد . عندما وصلنا كان الضباط فى انتظارنا ، وبدأت اشياء ، من قبيل ، « انزل يا ابن الكلب » ، « انزل يا ولد » ، « اقعد على قرافيصك » . كانت هنالك خيل وقوات ، جلسنا على قرافيصنا .

بدات اعمال التحرش بنا • كل من يتململ أو يتحرك يضربه الضابط بالشومة فوق رأسه وهو يصرخ فيه « انت بتتحرك ليه يا ولد » . بدأنا نغادر هذا المكان فى اربعات ، قيل لنا ان نجرى حتى المكان الذى سنخلع فيه ملابسنا • وان الذى يجرى اسرع ، لن يناله الضرب • بدأ النداء على الاسماء اربعات ، وبدأ الجرى . بالطبع لم يفلت أحد من الضرب • عند مكان كان يتجمع فيه الضباط ، بدات مرحلة أخرى من الضرب المميت ، « اقلع يا ابن الكلب » ، ثم حلاقة سريعة ، واسمك والاجراءات الادارية ، واثناء ذلك الضرب القاتل ، فى كل مكان ، على الرقبة ، على الرأس ، دون تمييز •• ثم يحضرون لكل منا ، وقد غدا عاريا وحليقا ، برشا وبطانية . وعليه ان ينام بظهره على الأرض ، وقد وضع البطانية والبرش على بطنه ، ويمسك أحدهم باحدى رجليك من ناحية ، ويمسك آخر بالأخرى ، ويبدأ السحل حتى العنبر • كان عبد اللطيف رشدى ، أحد ضباط السجن ، يقف فى مكان ما قبل العنبر • وهنا تبدأ مرحلة أخرى من الضرب المميت • « انت شيوعى يا ابن الكلب ؟ » ، « قل أنا امرأة » • والضرب يشتد لا يتوقف • ابتداء من هذا المكان ، حتى العنبر ، حيث كان على كل واحد منا ، أن يقف رافعا يديه الى الحائط • كان الذى يشرف على هذه العملية ، أحد صولات السجن . وهو يستقبلك فى العنبر بالضرب الشديد ايضا • لقد سحلنا جميعا ما عدا عبد الحميد السحرتى وصنع الله ابراهيم ، وسعد بهجت وابراهيم المناسترلى • كان عليهم توصيات • جعلوهم يخلعون ملابسهم ، واعطوهم الابراش والنمر ، واجلسوهم القرفصاء ، ليروا تعذيب كل الآخرين •

الضابط يونس مرعى ، أو أحد الضباط سأل ، « أين شهدى عطية ؟ » فقال شهدى « أنا هو » • فانهالوا عليه ضربا بطريقة غير معقولة . كانوا يغرقونه فى ترعة الى جوار الطريق الذى نجرى فيه ؛ ثم يخرجوه ليضربوه ، ثم يعيدون اغراقه فى الترعة ، ثم اخراجه وضربه من جديد وهكذا . ظلوا يضربونه حتى مات • لكنى لا أعرف اين مات بالضبط • ولكن يبدو أن شهدى قد انفردوا به فى نهاية الترحيلة أو ما قبلها بقليل •

عندما ادخلنا جميعا الى العنبر ، واغلق بابه علينا ، كان البعض منا يضحك مما آل اليه حالنا . كنا جميعا مصابين ، وكانت هناك اهرامات فى رأس ابراهيم عبد الحليم ، من ضرب الشوم عليها • الضابط يونس مرعى يقتحم علينا العنبر ، وهو يزعق « قف يا ولد يا ابن الكلب » . جاء التومرجى بالميكروكروم وجاء الطبيب ايضا ، واتصل الضرب أمام الطبيب .

كان هنالك اربعة زملاء فى حالة خطرة : مبارك عبده فضل ، نور سليمان ، جمال غالى ومحمد عباس . بعد قليل من الاغلاق ، وعدم ظهور شهدى بدأنا نتساءل اين شهدى ؟ فى وقت الغروب سمعنا أصوات غريبة « تش تش » . كانت كالموسيقى . عرفنا فيما بعد انها اصوات القوايش على الزملاء ، فى العنابر الأخرى ، وهم يلفون للتفتيش . فى اليوم التالى فتح العنبر فجأة ، ودخل من يسأل « من فيكم كان مع شهدى فى عربة الترحيلة » . كان السائل هو رئيس النيابة . لم استطع تبينه جيدا . كنت قد فقدت نظارتى اثناء الجرى والسحل ، ولم أعد أرى جيدا . كان رئيس النيابة كما عرفت ، فيما بعد ، هو زوج اختى . هو عرفنى ، لكننى لم اتبينه أو اتعرف عليه . قلنا ردا على سؤاله ، « كلنا كنا معه » . فى هذه اللحظة تأكدنا ان شهدى قد مات .

بدأ تحقيق النيابة . وكان الضابط يونس مرعى ما يزال يدخل العنبر وينادى « يا ولد » . حاول عندما بدأت النيابة عملية عرض للضباط الذين شاركوا فى هذا التعذيب ، أن يدفع الزملاء الذين لم يضربوا الى الشهادة بأقوال مخالفة ، الا انهم قالوا نفس الكلام الذى قلناه . قلنا كل شىء ، واخرجنا الضباط فى عملية العرض القانونية وتعرفنا عليهم ، ظللنا فى أبو زعبل اسبوعا ثم نقلنا الى سجن القناطر – رجال » .

ويقول فاروق ثابت ، « عندما ذهبنا الى سجن القناطر ، لم يكن هنالك عدد كبير من زملائنا . كان هنالك زملاء القضية بعد مقتل شهدى فى اوردى ليمان أبو زعبل . كان اربعة منهم فى حالة خطرة ، لقد وجدوا مبارك عبده فضل على أرضية عنبر المعتقل ، ظهره على الأرض وكذلك بطنه . كان نصفه السفلى مقلوبا . ولا صوت ولا حركة » .

ويكمل محمد يوسف الجندى ، « فى سجن القناطر جاءتنا اخبار تقول ان التحقيق الذى يجرى بشأن شهدى عطية قد تم بناء على أوامر عبد الناصر . وأن والد شهدى كان قد ارسل اليه ببرقية . بعد التحقيق نقل اللواء همت وضباط الاوردى .

« فيما يختص بالكونفرنس السياسى ، اكملنا المناقشة فى أبو زعبل . لم نكن نخرج الى الجبل . تركونا فى العنبر . كنا بالليل نتكلم مع العنابر الأخرى ، وبذا عرفنا ما الذى حدث .

واصلنا المؤتمر والمناقشات فى سجن القناطر . كانت تلك الفترة قبل اجراءات يوليو ١٩٦١ ، وظهر اتجاهان ، اتجاه ، يمثله عادل

حسين ، يقول اننا فى مرحلة الثورة الاشتراكية ، باعتبار ان هذه المجموعة الاشتراكية يمكن ان تتطور وتصبح ماركسية • وكان هنالك اتجاه يرفض فكرة المجموعة الاشتراكية ، مثل محمد عباس ، طاهر البدرى وعبد الحميد السحرتى • الا ان الكل كان يعتبر عبد الناصر رجلا وطنيا . استمر الكونفرنس سبعة اشهر ؛ ابتداء من الاسكندرية ، قبل المحاكمة مباشرة • بعد ذلك أصدرنا قرار المجموعة الاشتراكية والذى يقول : انه بتأثير الحركة الشيوعية فى مصر والمواقف الوطنية لهذه المجموعة « مجموعة عبد الناصر » ، وصدامها مع الراسمالية الداخلية ، واتجاهها الوطنى والاستقلالى عن الامبريالية العالمية ، وتأثير الافكار الاشتراكية فى العالم • كل ذلك قد أدى الى وجود اتجاهات اشتراكية غير علمية ، ثم تصل الى الفكر الماركسى اللينينى • وأن ذلك قد نشأ خلال الاتجاهات التجريبية لهذه المجموعة • وأن موقفنا منها هو وحدة العمل من أجل الاهداف الوطنية الديمقراطية ، وفى الوقت نفسه العمل على دفعها فى اتجاه الاشتراكية العلمية ، وكان فى تقديرنا أنه توجد ظروف موضوعية تسمح بدفعها فى هذا الاتجاه ، اتجاه تبنى الماركسية اللينينية • وأن هذه المسألة يمكن ان تحدث او لا تحدث ، الا ان لنا دورا فى اتجاه هذه المحاولة . وكان تقديرنا أن فكر عبد الناصر يتطور الى الامام وليس الى الوراء ، يتطور مقتربا من الماركسية وليس مبتعدا عنها .

كان ذلك هو القرار الذى اتخذ فى القناطر ـ رجال • كنا اثناء المناقشات على اتصال بزملاء الواحات • الا ان فكرة المجموعة الاشتراكية ظهرت فى الكونفرنس ، ونحن الذين أرسلناها لهم ، وهم قبلوا بها .

عندما أعلنا هذا الموقف ، حدث بالطبع هجوم شديد علينا بدءا بالخيانة وعملاء السلطة .. الخ ودافعنا ، نحن ، بالطبع عن خطتنا .

فى هذه الفترة وصلت الأحكام . وكانت تصل الى عشر سنين • سقط شهدى من الأحكام • مبارك عبده فضل وابراهيم عبد الحليم وآخرين عشر سنوات • حكم على أنا ونور سليمان بالبراءة • نقلنا الى ابو زعبل للمرة الثانية ، كمرحلة انتقالية ، حيث حدثت تأميمات يوليو ١٩٦١ • ثم نقلنا الى الواحات • من حكم عليه لتنفيذ الحكم ، ومن برىء للاعتقال • كان وضع المسجونين أفضل من وضع المعتقلين . وكان قد حكم على فى قضية سابقة بخمس سنوات . فطالبت بتنفيذ الحكم ، الا انهم تجاهلوا الرد ، وظللت فى أبو زعبل حتى اغلق ، ثم حولت الى الواحات » •

قضية الطليعة الشيوعية ووحدة الشيوعيين (١) :

ضمت هذه القضية الرفاق الاساسيين لمنظمتين ظلتا خارج اطار وحدة الحركة الشيوعية ، فى مجملها ، فى ٨ يناير ، وهاتان المنظمتان هما الطليعة الشيوعية « ط . ش » ووحدة الشيوعيين « و . ش » .

يقول نجاتى عبد المجيد ، « كنت وحسنى تمام ومحمود المانسترلى فى اوردى أبو زعبل . ثم ترحيلنا الى سجن القناطر ومنه الى سجن الحضرة بالاسكندرية .

« كان فى القضية ، من زملاء الطليعة الشيوعية ، شعبان حافظ ، فوزى جرجس ، محمود المانسترلى ، حسنى تمام ، محسن الخياط ، نجاتى عبد المجيد ، مهدى الحسينى ، ماجد عمر ومحمود عزمى . وكان من زملاء وحدة الشيوعيين ، ابراهيم فتحى ، على الشوباشى ومحام من المنصورة يدعى أحمد .

« نظرت القضية امام مجلس عسكرى ، برياسة الفريق هلال عبد الله هلال ، وكان قد رقى من لواء الى فريق فى بداية محاكمتنا ، خلال الفترة يوليو — سبتمبر ١٩٦٠ .

فيما يختص بالاعداد للقضية ، ناقشنا مسالة الدفاعات السياسية . ولقد طرح تساؤل ، فيما بيننا : اذا ما كانت هذه المرحلة هى مرحلة الدفاعات السياسية ؟ وكانت هنالك اجابة ، بأن هذه الدفاعات أمام المحكمة يمكن للقوى السياسية المنظمة ، خارج السجن ، أن تستخدمها ، بنشرها ، بين صفوف الطبقة العاملة . لم يكن هنالك دفاعات سياسية بالمعنى السياسى الواضح . لم يعترف أحد على الاطلاق بالعضوية التنظيمية ولقد قام هذا الموقف على أساس دراسة ظروف كل واحد منا على حدة .

« فوزى جرجس لم يكن لديه اية أوراق أو مضبوطات ، وكذلك شعبان حافظ باستثناء وضعه التاريخى ودوره فى الحزب الشيوعى عام ١٩٢٤ . وايضا لم يكن لدى محسن الخياط اية اوراق أو مضبوطات . كان لدى حسنى تمام بعض المضبوطات فحدد موقفه على أساس دفاع مرتبط بقضية الديمقراطية ، لكنه ليس دفاعا عن العضوية ، أو خط التنظيم

---

(١) على لسان نجاتى عبد المجيد .

السياسى . اما بالنسبة لماجد عمر ، فقد كانت لديه مضبوطات كثيرة ، وكان من رأيه ضرورة تقديم دفاع سياسى ، على أساس اننا نحاكم امام مجلس عسكرى ؛ والأحكام فى القضية معدة وجاهزة . كان الفريق هلال عبد الله هلال ، من أقرباء ماجد عمر ، وعندما دخلت والدته المحكمة اصيبت بالاغماء . ولقد قيل لماجد عمر ؛ لا داعى للدفاع السياسى ، لأن ذلك سوف يزيد الطين بلة ، ويضع هلال عبد الله هلال فى وضع حرج ، وربما يمنعه ن القدرة على التصرف . أما بالنسبة لى ؛ فقد اعلنت انني سأقدم دفاعا سياسيا ، عن قضية الطبقة العاملة ، باعتبار انى واحد من ابنائها . وهذا الدفاع يختص بالقضية النقابية ؛ ولكن ، لا اعتراف بعضوية التنظيم . اعددت دفاعى ، على اساس الحرية النقابية ، وحق تكوين اتحاد العمال . كانت هنالك لجنة تحضيرية لهذا الاتحاد ، ثم ضربت . كان الدفاع فى اطار العمل النقابى . كان ترتيبى الثالث ، فى قرار الاتهام ، بعد فوزى جرجس ومحمود المانسترلى . قبل أن أبدأ دفاعى طلبته ان اسجل كلمة عن حياة المعتقلين الشيوعيين فى اوردى ليمان أبو زعبل ، خلال اربع وعشرين ساعة . سألنى هلال عبد الله هلال ، ان كنت اواجه الآن أى شيء ؟ قلت ؛ الآن لا ، لكن العبرة أن تلك اشياء قد وقعت ويمكن أن تتكرر . ولقد كان من نتائج هذه السياسة الفاشية ، والتى لا تعتمد على اى اساس ، غير الاساس الفاشى المعادى للانسانية ، اننا قد ضحينا بخيرة من ابناء الشعب المصرى مثل فريد حداد وشهدى عطية ، والذى كان لكل منهما مجاله وقدراته التى يحتاج الشعب اليها اشد الحاجة . لذا ارجو السماح لى بتسجيل هذا الموضوع . سألنى هلال عبد الله هلال ، ان كنت مصرا على ذلك ؟ قلت ؛ بالطبع انا مصر على ذلك . فلقد كنت واحدا ممن عاشوا هناك ، وعانوا من كل ما جرى . وانا الآن أول من يخرج من أوردى أبو زعبل ، وخلفى ، هناك ، زملائى المعتقلين الذين لم يجرى معهم أى تحقيق ، ولم توجه ضدهم اية تهمة ، ولم يصدر بشأنهم أى قرار . انهم مجردون من الملابس الملكية ، لا تطبق عليهم لائحة السجون التى تطبق على القاتل والسارق ، بينما هم معتقلون سياسيون ، تحكمهم معاهدة حقوق الانسان ، والتى تعطى للمعتقل السياسى حقوقا ، جردنا منها جميعا . لقد كنا نقوم بكسر البازلت دون محاكمة ، ودون أن تصدر ضدنا اية احكام بذلك . ان تلك المسألة لم تمارس الا فى ظل النازية . سألنى ، عن الحكمة من هذا التسجيل ؟ قلت ، انه واقع يلزم تسجيله . هؤلاء الرجال يعذبون الآن . اليسوا على أرض مصر ؟ انهم ما زالوا كما تركتهم . ما زالوا يخرجون فى الثامنة صباحا الى بطن الجبل ، ليعمل البعض منهم فى تفجيره ، والبعض فى كسر الكتل الكبيرة والبعض فى كسر

البازلت الى قطع صغيرة ، بمقطوعية ثلاثة مقاطف فى اليوم واحد . انهـا الاشغال الشاقة التى تمارس فى مصر ، رغم توقيعها على اتفاقية حقوق الانسان عام ١٩٦٠ ، الا انها لا تلتزم بها ولا نطبقها . ولهذا ؛ كله . فاننى اصر على تسجيل اربع وعشرين ساعة فى حياة المعتقلين الشيوعيين المصريين فى اوردى ليمان ابو زعبل . كان من المحاميين المترافعين فى القضيـة الاستاذ زهير جرانه وكذلك الاستاذ محمد عزمى ، النائب العام السابق ، ووالد زميلنا ، فى القضية ، محمود عزمى . فوقفا وتضامنا معى قائلين ، أن هذا حق طبيعى لى ، وأن صدر سيادة الفريق سوف يتسع لما اقول حيث ان ذلك واقع حقيقى ، وأن هؤلاء الرجال قد امتهنت كرامتهم ، ولابد من تسجيل هذا . وبالفعل بدأت التسجيل . وبدأت بمسـألة « لف للتفتيش » ، وقمت بتمثيل طبيعى لاجرائها ، كان هلال ، بوجهه التركى الأحمر ، ينظر مشدوها ، ويسألنى ، هل حدث هذا حقا يا نجاتى ؟ فقلت له ، ان سيادتك لم تر غير التمثيل ، فما بالنا بالحقيقة . ثم اكملت عرض لما يجرى . فكان يسألنى ، ما هى مشية الاوزة ؟ وما هى حركة شادية ؟ فاوضحت له أن الأولى تعنى المشى وأنت جالس القرفصاء ، أما الثانية فتعنى النوم على الظهر وفتح الساقان وضمهما الى أعلى . ثم تناولت مقتل فريد حداد وشهدى عطية . وكان الذين فى قاعة المحكمة يبكون حينا ويضحكون سخرية حينا آخر .

كانت المضبوطات التى احاكم عليها ثلاث مقالات معدة للنشر فى المجلة النقابية « صوت العامل » . وقد عثروا عليها عند تفتيش المنزل فى بدايـة الحملة فى ٢٨ مارس ١٩٥٩ . وهى مقـالات علنيـة وعليهـا توقيعى . كذلك كان هنالك تقرير المباحث العامة والذى يقول انى احمـل اسمين ، واحد للجنة المركزية ، وآخر لما هو دون اللجنة المركزية . (كان معنا فى اللجنة المركزية حمدى حمدان ، ولم يقدم للمحاكمة . وقد ثبت ، فيما بعد ، انه عميل للاجهزة الامنية) . كانت المقالة الأولى عن حقيقة الموقف العالمى فى الجمهورية الرابعة لحكم ديجول ، والفاشية التى تطل برأسها من جديد . والمقالة الثانية عن « قمر السلام » ، بمناسبة اطلاق الاتحاد السوفيتى أول قمر صناعى . وقد لفتت هذه المسألة نظر هلال عبد الله هلال ، حيث كنت العامل الوحيد فى القضية ، فقال ، « انا افهم ، ان تتكلم عن مشاكل الطبقة العـاملة ، لكن ما الذى يدعوك للكلام عن الاتحاد السوفيتى ؟ » . قلت ، « ان الطبقة العاملة المصرية ليست بمعزل عن حركة الطبقة العاملة العالمية . وان ما يحدث هنالك ، يؤثر فينا هنا . حيث لا توجد حواجز تحجب هذا التأثير . سألنى ، « هل تحب الاتحـاد السوفيتى ؟ » ، قلت ، « بالطبع ، اذ لولا النظام السوفيتى ما استطاع

العلماء هنالك من اخضاع الطبيعة للانسان » • قال ، « هكذا اذن ؟ ؛ قلت ، « بالطبع » . قال ، « ومن أجل ذلك ، أنت اشتراكى ؟ » • قلت ، « بالطبع ، الاشتراكية ، هى الحل الوحيد لى كعامل » • وهنا علق الدكتور زهير جرانه والاستاذ محمود عزمى بقولهما ، « اننا لأول مرة نرى عاملا بسيطا ، غير مؤهل دراسيا ، وله فهمه الذى نحييه عليه ، اذا استطاع ان يقول شيئا ، كان المفروض أن نقوله نحن • اننا نحييه ونضم صوتنا الى صوته » •

« انتهت جلسات الاسكندرية ، وتم ترحيل القضية الى سجن القناطر فى انتظار الأحكام بعد التصديق عليها • انتظرنا هنالك حوالى شهرين . وكان زملاء « حدتو » ، موجودين معنا فى سجن القناطر ــ رجال •

« فوجئنا فى أحد الايام ، باغلاق الزنازين . وعرفنا أن نائب الأحكام . كان ينادى على كل واحد منا ، على حدة ، فيخرج ويسمع الحكم الصادر ضده ، ثم يعود مرة أخرى الى العنبر ، ويعلن فى زنزانته ، أنا فلان الفلانى ، افراج ، أو خمس سنوت . وكانت الأحكام كالتالى : فوزى جرجس براءة . محمود المانسترلى سبع أو خمس سنوات ، ثم تخفيضها الى ثلاث سنوات ، مع وقف التنفيذ ، اذ تمت اتصالات علوية ، باعتبار أنه من أبناء حركة يوليو ، ومن رجال الصف الثانى ، مثل كمال رفعت • قامت عائلته بهذه الاتصالات ، ويقال أن كمال رفعت وخالد محى الدين لعبا دورا فيها . المهم انه كان فى حكم المفرج عنه ، ولم يرحل معنا الى الواحات • حكم على بسبع سنوات اشغال شاقة ، وشعبان حافظ ، خمس سنوات ، ولم يكن لديه غير نبذة تاريخية • حسنى تمام ، عشر سنوات . محسن الخياط ، افراج • وكان حاصلا على الميدالية الذهبية من المجلس الأعلى للفنون ، وقد ركز محاميه الاستاذ جوجو اثناء الدفاع على هذه النقطة ، كما لم تكن لديه مضبوطات • مهدى الحسينى ، خمس سنوات ، وقد أخذ فى المحكمة موقفا سياسيا ، وتحدث بافضل ممن يكبرونه ، محمود عزمى ، عشر سنوات ، وكان ذلك تأديبا لوالده محمود عزمى النائب السابق ، والذى تصدى لضابط المباحث العامة عندما اقتحم منزله ، وسبه وسب عبد الناصر ، وقال لهؤلاء المقتحمين ، هل فقدت مصر مثقفيها ، حتى يحكمها مجموعة من العسكر • وكان الاستاذ محمود عزمى ، هو الذى لعب دورا هاما فى تفجير قضية الاسلحة الفاسدة ايام الملك فاروق . كان رجلا وطنيا ليبراليا ، فارادوا تأديبه فى ابنه • وحكم على ماجد عمر بعشر سنوات . وحكم على كل من ابراهيم فتحى وعلى الشوباشى بعشر سنوات • وأحمد المحامى بالبراءة .

« ثم رحلنا بعد ذلك الى الواحات » .



مغزى المحاكمات والموقف منها :

ان المحاكمات التى اجريت للشيوعيين تحتاج الى دراسة خاصة متكاملة . ان ما تناولناه هنا ، والذى اشتمل على المئات ، لا يخرج عن كونه ، عينات من القضايا التى شكلت ولفقت . وصورية المحاكمات قضية واضحة . فالدوله ذاتها لم تلتزم بأحكامها ، حتى أحكام المجالس العسكرية التى شكلتها هى بمعرفتها . كان المحكوم عليه بالبراءة يواجه نفس مصير ، المحكوم عليه بسنين عشر . كلاهما ذاهب ، بعد صدور الأحام ، الى منفى المحاريق بالواحات . من سقط فى قبضة النظام ، فلا مخرج له الا بقرار سياسى من النظام . فان كانت المحاكمات على هذا النحو الصورى ، فلماذا اذن انعقدت ؟ قد يبدو أن سبب انعقادها ، هو أن تبدو الدولة عادلة . الا اننى اعتقد أن قضية العدالة ، لم ترد على ذهنها أصلا ، والا فانها ما كانت تقدم ، على ما اقدمت عليه ، من بشاعات التعذيب ، حتى القتل ، لن لم تكن تملك ضدهم اية ادانة . العدالة أصلا تقتضى حكما محايدا . تقتضى ما اصطلح على تسميته فى كل بلدان العالم المتحضرة بالقاضى العادى أو الطبيعى . اما عسكرة القضاء ، أى أن يصبح العسكر قضاة فى غير مجالهم العسكرى وخاصة للمدنيين السياسيين ، فليس من العدالة فى شىء . ولا ينبىء ، على الاطلاق ، بان فكرة العدالة ، قد حومت ، ولو مرتجفة ، حول مفاهيم الحزب الحاكم وحملته الرهيبة ضد الشيوعية .

اننى اعتقد أن المحاكمات ، كانت جزءا من الحملة الارهابية . كانت بمثابة اعلان للجميع ، بانه لا مكان ، لمن تراهم الدولة عصاة عليها « مؤيدين ومعارضين » الا زنازين السجن والمنفى . كانت المحاكمات بيانا للكافة ، أن يكفوا عن التفكير ، أن يلغوا ارادتهم ، وأن يتركوا تلك المهام « الثقيلة » « للقائد » وحده ، وأن يضعوا على أفواههم ، بايديهم ، اقفالا من حديد ، والا ، فالمأوى خلف قضبان ، والمثوى خلف الشمس الى أمد مجهول .

الا ان هذه الرؤية ، عالية ، لم تكن واضحة لكل الشيوعيين بنفس القدر . بل كان البعض منهم ، يرى فيها ، « يسارية بعيدة عن الواقع ، احادية الجانب ، منطلقها العداء للنظام ، ومن هنا افتقدت صحة التحليل والاستخلاص » . كانت الرؤية عالية ، أقرب الى رؤية غالبية الاعضاء والرؤية الرسمية للحزب الشيوعى المصرى ، والذى كان يرى ، ان النظام القائم نظام وطنى ، يتخذ اجراءات سياسية واقتصادية واجتماعية متقدمة ، الا انه نظام معاد للديمقراطية والشيوعية ، وأن عداءه هذا ، لن

يقود الا الى تقوية القوى اليمينية والرجعية ، مهددا كل المكاسب التى حصل الشعب عليها بنضاله اجيالا سابقة على عام ١٩٥٢ ؛ وان ما يجرى الآن ، انما هو محاولة جادة من النظام لتصفية الحزب الشيوعى المصرى والاجهاز عليه . ومن هنا انعكس فهمه هذا ؛ على موقفه أمام المحاكم ، دفاعا عن حق الحزب الشيوعى فى الوجود ، بل حق كل القوى الوطنية فى تشكيل احزابها ، التى تكون فيما بينها الجبهة الوطنية الديمقراطية . ومن هنا حول الحزب ايضا ، محاكمات اعضائه ، الى ساحات اعلان تجهر بوجوده ، وتجسد هذا الوجود ؛ عضوية وتاريخا ومواقعا . كان الحزب فى ذلك الوقت ، هو القوة الوحيدة ، دون منازع ، التى تصدت للنظام ، رغم تاييدها العام له ، للدفاع عن الشعب وحقوقه . وكانت على استعداد لتحمل نتائج هذا التصدى . ومن هنا ايضا ، **كانت دفاعات الأعضاء السياسية انما هى بمثابة رسائل موجهة من الحزب الى الشعب .**

اما الحزب الشيوعى المصرى « حدتو » أو جماعة « حدتو » ، فهى التى كانت ترى يسارية هذا الموقف . كانت ترى فى النظام مجموعة اشتراكية ، تقترب من الماركسية ، وأن المحاكمات والتعذيب والقتل ، انما هى اخطاء ، لابد وأن تصحح ، وتعود المياه الى مجاريها . وأن تصويب هذه الاخطاء ، يقتضى ، اعلان « حدتو » فى كل مكان وخاصة أمام المحاكم ، ابراز خط التأييد المطلق للنظام والتحالف معه ، كذا ابراز خط التمايز عن الحزب الشيوعى المصرى . وبناء على ذلك كان الموقف أمام المحاكم هو عدم الاعتراف بالعضوية . فذلك بالتأكيد « استفزاز وتحد للحليف لا مبرر له » . حيث يكون ذلك جهرا ، بما لا « يرضى الحليف عنه ، أو يقبل به » . ثم عرض لما قام به الشيوعيين « اى جانب حدتو » من اعمال تبرز دورهم فى مجال العمل الوطنى والسياسى والثقافى والاجتماعى ، باعتبارهم القوة القادرة على « تمثيل » اليسار ، فى الحلف مع النظام . اى يمكن القول ان **دفاعاتهم السياسية فى مجملها ، كانت دفاعات فى اتجاه تأكيد التأييد سبيلا للتحالف ، ووسيلة لفض « سوء التفاهم » القائم ، أى انها كانت ، فى الأساس ، رسائل موجهة الى النظام .**

اما منظمتى الطليعة الشيوعية ووحدة الشيوعيين ، وقد كانتا سياسيا على يسار الحزب الشيوعى المصرى ، الا اننا عند التعقيب على محاكمتهما كما جاءت على لسان الرفيق نجاتى عبد المجيد ، فاننا نجد انفسنا فى الحقيقة أمام عقلية اقرب ما تكون للعقلية القانونية فى العمل السياسى .

اذ عند الاعداد للقضية يطرح تساؤل ، « هل هذه المرحلة هى مرحلة الدفاعات السياسية ؟ » وهذا التساؤل نفسه يثير تساؤلا آخر ، « منذ متى كانت الدفاعات السياسية ، تشكل مرحلة من مراحل النضال ، تقتضى توافر شروط خاصة ؟ » • منذ متى كان الدفاع عن المبدأ ، ونحن الذين نطالب بحرية التعبير ، فى كل زمان وأى مكان ، يقتضى شروطا خاصة ؟ » • أمامنا اتجاه واضح للدولة ، لاستئصال الحركة الشيوعية ، والاجهاز على أى بصيص من حريات سياسية عامة ، وبعض قادة هذه القضية يتساءلون ، ان كانت تلك مرحلة الدفاعات السياسية أم لا • والسؤال الذى ، لابد وأن يثور ، أيضا ، ان لم تكن تلك المرحلة « النضالية » هى الآن ؟ فمتى هى اذن ؟ وتنتهى المناقشات الى استبعاد : الدفاع عن عضوية التنظيم ، استبعاد الدفاع عن الخط السياسى للتنظيم • ومعنى ذلك بالتحديد ، استبعاد أى دفاع يقوم على أساس شيوعى من قريب أو بعيد • « لقد قام هذا الموقف على أساس دراسة ظروف كل منا على حدة » • وهذا يعنى بالتحديد ، دراسة الموقف القانونى ، لكل على حدة • هل معه مضبوطات ؟ وما مدى خطورة هذه المضبوطات من الناحية القانونية ؟ وهنا افتقدت القضية ، فى اطار الاستبعادات السابقة ، وحدتها السياسية • اى انها لم تعد قضية سياسية • اصبحت قضية مضبوطات ، مخالفة للقانون • فقط ، هذه المضبوطات سياسية النوع • وعلى حامل كل مضبوط أن يتحمل « وزر » ما حمل • ومن هنا ، وفى اطار هذه العقلية القانونية ، يصبح على كل رفيق منهم ، أن يواجه المحكمة ، اى ان تكون رسالته موجهة الى المحكمة بحثا عن عدالتها ، فى اطار القانون ، أو ربما ، اطار القرابة ايضا ، وما لها من حق الشفاعة •

ورغم هذا الاتجاه العام ، ظهرت اجابة عن التساؤل الاساسى المطروح تقول بأن ، « هذه الدفاعات امام المحكمة يمكن للقوى السياسية المنظمة خارج السجن أن تستخدمها ، بنشرها بين صفوف الطبقة العاملة » • ومع ذلك ، « لم تكن هنالك دفاعات بالمعنى السياسى الواضح » • والنتيجة هى اختزال أى دفاع سياسى ، الى مجرد دفاع نقابى أو سياسى عام ، اى فى الاطار القانونى ايضا •

ان هذه القضية كانت تخاطب المحكمة فى الأساس • وان كانت قد تخللتها بعض الدفاعات ، التى كان يمكن ان تكون جيدة ، لو كانت فى اطار سياسى عام ، يكمل بعضه بعضا • وهى ان عبرت عن شىء ، فانها كانت تعبر عن محاولات فردية ، املتها علاقات جماهيرية والتزامات طبقية ، لم يكن لاصحابها الا ان يعلنوها ، بصورة ما ، أمام المحكمة ، كموقف نضالى •

***

وتأتى احكام المجالس العسكرية ، بأحكام تصل الى عشر سنين ، لمن اعترف بالعضوية التنظيمية أم لم يعترف • لمن قدم دفاعا سياسيا شيوعيا ، أو لم يقدم • لمن علا صوته ولمن همس • لتؤكد ان المحاكمات ، كانت فى الأساس ، محاكمات سياسية • تدين الفكر وتدين الارادة المستقلة • هى محاكمات تتم فى الأساس ، بناء على تقارير رجال الأمن ، وليس على ما تم ضبطه من أوراق • بل هى محاكمات ، تضح فيها قولة اسماعيل المهدوى عند نظر قضيته ، « احكام معدة سلفا » • قبل أن تبدأ المحاكمة •

وتأتى الخطوة التالية للمحاكمات ، لتؤكد صحة هذا الفهم السياسى • فالذين برأوا ؛ كالذين ادينوا ، كلاهما فى قيد من حديد الى منفى المحاريق • اى حتى أحكام البراءة ، والتى لابد من وجود بعضها فى كل قضية ، اظهارا « للعدالة » ، نسفت نسفا بعد اعلان الأحكام والتصديق عليها • والغريب فى الأمر ، ان الذى يصدق على الأحكام ، ومنها أحكام البراءة ، هو نفسه الذى يوقع امر اعتقال من براه المجلس العسكرى ، الآمر هو بتشكيله ، ايضا • اى انه يشكل هيئة المحاكمة ، ثم يصدق على احكامها ، ثم ينفى هذا التصديق ، وكأن لم تكن هنالك محاكمة • الا يعنى ذلك ، انه لم تكن هنالك جدية ، على الاطلاق ، فى البحث عن الحقيقة ، حتى فى اطارها القانونى الضيق • اطار « انت مذنب أم غير مذنب » ، والذى تبدأ به المجالس العسكرية اعمالها ، كسؤال تقليدى !!

المؤيد للنظام بنسبة مائة فى المائة ، والمؤيد بنسبة سبعين فى المائة ومعارض بالثلاثين الباقية ، المؤيدون والمعارضون ، انصبت عليهم جميعا أحكاما بلغت مئات السنين • وحمل الجميع نفس القطار الذى يخترق الصحراء الغربية ، الى نفس المنفى ، فى صحراء الواحات الخارجة • اى أن النظام لم يكن يشغله موقف التأييد أو المعارضة ؛ فى ذاته ، وانما كان يشغله أن هذا الموقف او ذاك ، يصدر عن تنظيمات قامت على ارادة اعضائها • وهى أن ايدت فتلك قناعتها ، وأن عارضت فتلك قناعتها ايضا • أى أن كل هؤلاء الذين حوكموا ، كانوا رموزا لقوى ، ارتكبت جميعها ، خطيئة الارادة المستقلة ، بعيدا عن ساقية النظام واطره • انهم جميعا قد خرجوا عن قانونها « الخاص » ، قانون التفرد المطلق بالارادة ، وليس اى قانون آخر •

وهذا يؤكد تماما صحة موقف الحزب للشيوعى المصرى ، ووضوح رؤيته لطبيعة الصراع الذى دار فى تلك المرحلة •

***

وكان سجن المحاريق ، أو منفى الواحات ، هو المثوى الذى بدأت تجمع فيه الدولة كل الشيوعيين ، مؤيديين ومعارضين ، محكوم عليهم بعشرات السنين ، أو براءتهم المحاكم المدنية والعسكرية . من دخل باب القيد فلن يخرج حيا ، اما أن تأكله الرمال أو تأكله محرقة الضمير أو مذبحة الارادة . باب المنفى مفتوح ، وتذكرة العبور ورقة . ورقة استنكار لازهى ما فى الانسان ، أن يكون له معتقد وايمان . اركع ، اخضع ، ذلك كان شعار النظام . وبدأت مرحلة جديدة هى المرحلة الثالثة من خطة التصفية ، مرحلة الحصاد . حصاد ما زرعته الشوم والكرابيج فى ابو زعبل والمحاريق . وكان رد رجال المنفى المناضلين : حقا مزقت الاجساد ، لكن أبدا لن تمزق الارادة .

(ب) سجن القناطر ـ نســـاء

انتصــار خطــاب

انجى افلاطون

ايفــون حبشى

ثريــا ادهــم

ثريــا شاكر

فاطمــة زكى

ليلى الشـــال

الفصل الأول

الحملة

الموقف من المرأة فى أى مجتمع ، وفى أى عصر ، انما هو معبار للقدر الحضارى الذى بلغه ذلك المجتمع ، فى ذلك العصر . فالموقف من المرأة هو موقف من نصف المجتمع ، موقف من الأم ، من الاخت ، من الزوجة والابنة . فان حدث موقف همجى من المرأة ، فانما هو يعكس موقفا همجيا من الصق مكونات الأسرة ، موقفا همجيا من المجتمع كله .

كان للمرأة حرمتها ومكانتها الخاصة ، حتى فى احلك الظروف التى مرت بها مصر ، الى أن جاء الحزب العسكرى الى السلطة ، فأصبح اقتحامه للمنازل فى هجمات الليل والفجر ، كالهجمات العسكرية البربرية ، التى يستبيح فيها الغزاة بعضا مما ليس مباحا . استباح اقتحام الخدور وجر النساء الى المجهول فى قلب الليل البهيم . استباح سحب المريضة والحامل والمرضع ، الى حيث لا علاج ولا رعاية . استباح تمزيق الاسرة وتشتيتها . استباح القاء الابناء الاطفال على قارعة الطريق . استباح ما لم يجرؤ الاستعمار على استباحته لنفسه ، زمن أن كان الحكم للعدو الأجنبى ، وليس للوطنى المصرى .

فى فجر ٢٨ مارس ١٩٥٩ ، بدأت الهجمة « المصرية » على المرأة المصرية ، ممثلة فى رموزها المناضلة من أجل حقوقها وحقوق الشعب المصرى فى الديمقراطية والعدالة الاجتماعية . فى ذلك الفجر الذى جلله السواد ، انقضت جحافل المباحث العامة على « العدو » ، « تأمينا لمسيرة الثورة وحماية لها » .

ولنعد الى الوراء قليلا الى عام ١٩٥٨ ، حيث كانت الحركة النسائية فى مصر تمارس نشاطا توحيديا تاريخيا . كانت الخطى حثيثة من أجل تكوين جمعية اطلق عليها « الاتحاد النسائى القومى » ، تضم كل الجمعيات النسائية فى مصر ، وكل نشاط نسائى له وزنه فى مجال العمال الجماهيرى . لم يكن هذا الاتحاد يضم النساء التقدميات فقط ، بل كان يضم أيضا سيدات ليبراليات ، لهن دورهن المؤثر فى الحركة النسائية .

كان قد تم عقد الجمعية التأسيسية لهذا الاتحاد ، والتى ضمت من الرفيقات ، انجى افلاطون ، فاطمة زكى وعنايات ادهم . وجرى انتخاب مجلس ادارة ، واختيرت السيدة سيزا نبراوى رئيسة لهذا الاتحاد ، كما

انتخبت السيدة انجى افلاطون ، وهى المعروفة بشيوعيتها ، بالاجماع عضوا فى مجلس الادارة ؛ الذى انتخبت فيه ايضا ، السيدة نفيسة الغمراوى ، والسيدة حكمت أبو زيد وعدد من السيدات من الجمعيات الأخرى .

وتم تسجيل الاتحاد فى وزارة الشئون الاجتماعية ، الا انه لم يمض اسبوعان حتى جاء خطاب من وزارة الداخلية يعلن ان هذه الجمعية ممنوعة من مزاولة نشاطها ، لأسباب امنية .

تقول انجى افلاطون ، « بعد حملة بناير ، كنت اتوقع سياسيا حملات أخرى ، فقررت فى اوائل مارس ١٩٥٩ ، ان اقوم بعمل معرض فنى . كنت احس ان هـذا المعرض هو آخر معرض فنى لى ، لفترة قادمة . والقى عبد الناصر ، اثناء المعرض ، خطابا هاجم فيه الشيوعيين بصورة عنيفة ، واحسست أن هنالك حملة جديدة قادمة . وانهم فى هذه المرة لن يخجلوا عن اعتقال السيدات ، وأن ذلك سوف يكون أول اعتقال للمرأة فى مصر . كان هذا التوقع قائما على اساس نشاط الحركة النسائية ، واتجاهها الى توحيد صفوفها فى اتحاد نسائى قومى ، ودورنا فى هذه الحركة ، كذا دورنا فى الحركة الشيوعية . وللحال جمعت لوحاتى من المعرض . وكانت هنالك مسابقة فنية تجريها وزارة الثقافة والاعلام فى متحف الفن الحديث ، فاشتركت فيها بلوحتين . واعدت باقى اللوحات الى منزلى ، حيث كنت قد قررت الهرب . لم ارد ازعاج والدتى ، فاخبرت اختى زوجة الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله ، وكان قد قبض عليه فى حملة يناير ، بأنه من المستحسن أن اترك المنزل فترة من الوقت حتى تتضح الامور . لم يكن اختفاء كاملا ؛ كنت اتردد على المنزل اثناء النهار ، وابيت خارجه فى الليل عند بعض الاصدقاء . واتفقت مع اختى على جملة معينة تخبرنى بها تليفونيا هى أو امينة رشيد ، وكانت حينئذ ، صغيرة ، وتعرف اين انام ، فاكف عن التردد على المنزل واختفى اختفاء كاملا .

فى فجر ٢٨ مارس ١٩٥٩ ، هاجموا المنزل . عندما لم يجدونى قاموا بقطع التليفون ، الا ان والدتى اسرعت وخبأت احدى الوصلات الداخلية ، ومنعتهم بعنف من تفتيش حجرتها . سألوا عنى فقيل لهم أن احدا لا يعرف مكانى ، فانا فنانة ، اذهب الى أماكن كثيرة ومختلفة ، حتى ارسم . وبالفعل ذهبوا للبحث عنى فى بلدتنا ، فى نواحى كفر شكر ، فى حين ظلوا محاصرين للمنزل فى القاهرة ، ثمان واربعين ساعة .

بعد أن انهوا التفتيش وغادروا ، حاولت اختى الاتصال بى ، الا ان التليفون عند الاصدقاء الذين كنت ابيت لديهم كان معطلا . اتصلت

اختى بامينة رشيد التى توجهت على الفور الى مخبأى . كنت اوشك على مغادرة المنزل ، حينما جاءت . عندما رأتنى قالت على الفور تلك الجملة الذى كان عليها ان تقولها بالتليفون ، فدهشت . كانت التجربة جديدة عليها · قلت لها تقصدين ان منزلى قد هوجم ، فاجابت بالايجاب · وكان على أن اغادر هذا المنزل فورا وأن اختفى اختفاء كاملا »(١) ·

وتقول انتصار خطاب ، « عدنا مساء ٢٧ مارس بعد أن افطرنا رمضان خارج المنزل ، انا وزوجى والاولاد · فى الساعة الثالثة ، فجر ٢٨ مارس ، جاء زوار الفجر · كانت زيارة سيئة للغاية ، قلبوا كل شيء . جمعوا كل الكتب · كان الضابط يقول ، خذوا كل ما فيه « اوف » أى كل كتاب مترجم عن الروسية · قال له زوجى صلاح خطاب ، هذه روايات ادبية ، فكان يجيبه ، حسنا سوف اقرأها انا · حاولوا أخذ البطاطين حتى يلفوا الكتب فيها . سرقوا اشياء كثيرة : لعب الاولاد ، اقلام باركر ، الكاميرا بالحامل والفلاش ، كل ما وصلت اليه ايديهم سرقوه · استمر التفتيش والنهب حتى الخامسة صباحا · حاولت وزوجى أن يأخذ كلا منا حقيبة بها ملابسه · رفضوا . قالوا أن المسألة كلها لن تستغرق دقيقتين · ارتدى ولدى عمر (١٤ سنه) وهشام (١٠ سنوات) اردية المدرسة · عندما حاولوا أخذنا تشعلق هشام فى رقبتى · اخذ الضابط فى جذبه . امسك بى عمر ايضا ، والضابط يشدهما بعيدا عنى · قلت للضابط ، ارجوك ، دعنا نأخذ الولدين معنا · نسقطهم أمام منزل جدتهم . انه قريب من هنا ، ثلاثمائة متر او اربعمائة على الأكثر · رفض واصر على الرفض · قال لى عمر ، « أمى لا تخافى علينا ، لدينا فى الثلاجة قلقاسا ولحما وبيضا · وانا قادر على سلق اللحم والبيض · اذهبى وابى ولا تخافى علينا » . قلت لهما « اغلقا الباب وراءنا ، واذهبا الى منزل جدتكما · ونزلنا أنا وصلاح ، وكان الوقت ظلاما » .

ووقف عمر وهشام يرقبان السيارة وهى تحمل والديهما الى المجهول . امسك عمر الدموع فى عينيه ، وهشام ينتفض ممسكا بأخيه · الى أين أخذ الوالدان ؟ لا احد يدرى ؟

وتكمل انتصار خطاب ، « اخذونى وزوجى فى سيارة مرسيدس ، الى منزل حامد الازهرى . كان واضحا انهم لا يدرون الى أين سيأخذون السيدات . ذهبنا الى المباحث العامة · وجدت هنالك واحدا من كتبنا التى استولوا عليها ، وعلى غلافه محضر اجتماع احد الاجتماعات الحزبية · امسكت به وشطبت ما هو مخطوط عليه ، انتزعوا الكتاب

---

(١) لقاء شخصى معها فى نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٧ ·

منى • بعد ربع ساعة من وصولى الى مبنى المباحث العامة ، اصابنى نزيف رحمى • احتار فيه طبيب السجن فيما بعد . كنت اعالج منه باعتباره سرطانا . الا انه اتضح فيما بعد ، انه كان بسبب حالتى النفسية •

عند الظهر تقريبا ، استدعوا صلاح زوجى واخذوه الى معتقل القلعة . وفى الساعة الثالثة أو الرابعة ، استدعونى لاركب البوكس . رفضت ان اتشعلق فيه من الخلف ، وان كنت قد تأذيت فيما بعد عندما عرفت ان الصحفيين فتحى خليل وعبد الستار طويلة كانا هنالك فى البوكس من الخلف • اخذونا جميعا الى سجن القلعة ، على اساس انى ساسجن هنالك • صرخ قائد المعتقل ، ما تلك البلاوى . اين اضعها ؟ كان يقصدنى بذلك ، جرت اتصالات تليفونية ، ارسلونى بعدها الى قسم الموسكى • قدموا لى جراية الحجز فلم آكلها . وزعتها على الصبية الاحداث والسيدات الاخريات . فى تلك الاثناء وصلت احدى الزميلات ، كانت شديدة الغضب • صاحت فى وجهى ، انت هنا تضحكين وكأنه ليس لك ابناء • تلك كانت ثريا شاكر . قلت لها ، وأنا اضحك ، تعالى ، تعالى ولا تحزنى • سألتنى ان كان هنالك غيرنا • قلت ، حتى الآن ، لا . ونحن جالسات ، استدعوا احد الاولاد الاحداث للافراج . كان عمره لا يزيد عن تسع سنوات . سألته ، اين يسكن ؟ • قال ، فى شبرا . سألته ، ان كان فى الامكان اعطائه ورقة يوصلها الى منزلنا هناك ؟ اجاب بالايجاب . كتبت الورقة • قلت فيها اننى فى قسم الموسكى ، واحتاج الى غطاء وطعام ، ان امكن • نحن بخير . صلاح ارسل الى القلعة . حاولت ان اعطى الصبى الحدث نقودا الا انه رفض رفضا باتا . قلت فى نفسى ، انه لن يفعل شيئا • الا انه ذهب بالفعل الى المنزل • دق الجرس . وما ان فتح الباب حتى ألقى بالورقة وجرى ، رافضا ان يأخذ منهم أى شىء »(١) .

فرسان الظلام نهبوا كل ما طالت ايديهم • المدججون بكل سلاح وبكل سلطة الدولة القاهرة ، حققوا نصرا مؤزرا على مناضلة وزوجها . دفعوا بهما الى غياهب المجهول ، ولم يكن لهما من سلاح غير نور الحقيقة ، وارادة مصر فى أن تشق الطريق الذى تختار لحساب شعبها ، لا لحساب هؤلاء الذين انفردوا بالسلطات فيها . فرسان الظلام سرقوا ، من ضمن ما سرقوا ، ضياء الفجر ، سرقوا رعاية الأب وحنان الأم • الأب فى القلعة ، والأم تنزف ولا تدرى الى اين . عمر وهشام يمسك كل منهما بالآخر وحيدين ، فى مواجهة مستقبل داكن وايام تنضح بالعلقم •

فى السابع والعشرين من مارس ، كانت السيدة ثريا شاكر ، زوجة المناضل فوزى حبشى ، تقيم حفل العيد الثامن لميلاد ابنهما الاكبر ،

---

(١) لقاء شخصى معها فى ١٩٨٠/٦/٦.

ممدوح . انتهى الحفل وانصرف الاطفال اصدقاء بنيها • لم يكن زوجها بالمنزل فى تلك الليلة او ما سبقها من ليال ، منذ بدأت حملة راس العام الجديد • كان يأتى كل صباح ليطل على شرفة المنزل من بعيد ، فان وجد منشفة وجه معلقة ، اطمئن الى أن المنزل لم يهاجم ، فينصرف الى عمله •

فى تلك الليلة دق الباب فى الواحدة والنصف بعد انصراف الصبية ، وتوجست ثريا شاكر شرا • تقول ، « فتحت الباب لارى امامى شخصا يسأل عن زوجى ، باعتباره صديقا له يحتاجه فى أمر هام . قلت ان زوجى على سفر • قام بتسليمى رسالة تزعم ان عبد المنعم شتلة قد قبض عليه ، وهو الآن فى قسم الشرطة ؛ وأن هذه الرسالة منه الى فوزى . عندما دق الباب للمرة الثانية فى الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل ، تأكدت ان من جاء فى المرة الأولى كان مباحثيا ، وانهم الآن بالباب . اسرعت امزق الورقة التى سلمها لى ، اتخلص منها ، اذ لابد انه اعطاها لى حتى تضبط معى ، كما اسرعت الى الشرفة ، ارفع منشفة الوجه ، فقد وقعت الواقعة ، وهاجم زوار الفجر المنزل •

عندما فتحت الباب ، اندفعوا يملأون المكان . سألنى الضابط ، ما اسمك ؟ قلت ، ثريا . قال ، وأبوك ؟ قلت ، شاكر • كانت معه ورقة مكتوب فيها ثريا فقط . فاضاف اسم ابى اليه • لم يكونوا يعرفون اسمى • بدأ التفتيش . فتحوا كل حقائبى • حاولوا دخول غرفة الاولاد لتفتيشها • كانوا ينامون مجهدين من الحفل • وكانوا بدون غطاء ، فأسرعت الى داخل الحجرة ، انشر الغطاء فوقهم . حاول المخبرون الدخول الا ان الضابط منعهم • كان ذلك موقفا انسانيا منه . قال ، تفضلى معنا • قلت ، لماذا ؟ قال ، نصف ساعة وتعودين ، فقط اسرعى قبل أن يستيقظ الاولاد . كانت ابنتى نجوى ، تبلغ من العمر ، حينذاك ، عاما واحدا • كانت ما تزال رضيعة .

اخذونى الى مبنى المباحث العامة • وصلت اثناء انتظارى هناك ، فتاة عاملة من شبرا الخيمة • كان اسمها سيدة (كما عرفت فيما بعد) • كانوا يعتدون عليها بالضرب والصفع . احضر الضابط أمر اعتقال • كتب فيه إسمى ووقع عليه • قلت له ، « هذا اعتقال ، وأنت أخبرتنى انى سأعود الى منزلى وابنائى بعد نصف ساعة » ، قال ، « معلهش • » قلت ، « اعيدونى الى المنزل أحضر ابنتى . » قال الضابط ، « انصحك ان تتركيها حيث هى » • قلت ، « كيف ذلك « هى رضيعة وشقيقاها طفلان • لابد أن

ارجع وآخذها » . قال مرة اخرى ، انصحك ان تتركيها . فى الصباح مشوا مكتبى فى الشركة ، وهنالك اثاروا زوبعة عاتية . ارسلونى الى قسم الموسكى حيث قابلت فى تلك الاثناء انتصار خطاب ، والصحفى فتحى عبد الفتاح »(١) .

فى الصباح استيقظ ممدوح وحسام ونجوى . جابوا المنزل ركنا ركنا بحثا عن امهم دون جدوى . صرخة « ماما » فى الدار خرســـاء ، لا تجيب ولا صـــدى . أكبرهـم فى الثـامنة وصغراهم رضيعة بلا أم ولا مرضعة . اين الأم ؟ اين ذهبت ولما اختفت ؟ والأب ايضا لن يعود ، فقد رفعت منشفة الشرفة ، وغدا مطلوبا مطاردا .

فرســان الفجر القاتم ، مدججون باسـلحة الاكذوبة والخديعة ، وحرمان الأم من اطفالها ، والأطفال من الأم ، « المغاوير » ، « الاشاوس » ، نفذوا قرارا بانهاء ارادة الانسان ، وعلو « هامة » السجان .

فى فجر أول يناير عام ١٩٥٩ ، قبض على المناضل نبيل الهلالى . واصبح على زوجته المناضلة فاطمة زكى ، أن تكمل المشوار . تقول فاطمة ، « عندما قبض على زوجى كنت مسئولة فى منطقة الجيزة . وكنت احس ضرورة عمل نشاط حزبى وبناء أجهزة فنية ، فالحزب ما زال مستمرا فى المعركة . تركت المنزل . بعد ثلاثة شهور احتجت الى بعض الملابس ، فتوجهت اليه لآخذها . كان ذلك خطأ منى ، فالمنزل بالضرورة مراقب . بينما اخطو عتبته ، رأيت البواب جالسا والى جواره احـد الاشخاص . انتابنى احساس بانه احد رجال الشرطة . اسرعت الى الشقة . كانت معى اشياء يلزم التخلص منها . نجحت فى ذلك . اغلقت الشقة واسرعت الى أعلى . رآنى البواب فلحق بى هو والشرطى . كان لصاحب العمارة شقة يستخدمها مكتبا . حاولت دخولها لاهرب من سلم الخدم . امسكا بى وانا افتح باب المطبخ الخلفى . سألتهما ان كانا يحملان أمر قبض أو تفتيش .

كانت معركة عنيفة على سلم المنزل ، الا اننى لم استطع الهرب . اخذت الى قسم عابدين ، حيث جاء معى ضابط بدون أمر تفتيش ، وقام بتفتيش الشقة . كنا قد تزوجنا منذ ستة شهور فقط . والشقة جميلة ونظيفة . اعجبت الضابط ففكر فى الاستيلاء عليها . سألنى عن مفتاحها ليأخذه . قلت له انى سأسلمه الى اخوتى . عدنا الى قسم عابدين . وجدت هنالك اجلال السحيمى مع الاولاد الاحداث . كان الحجز قذرا

---

(١) لقاء شخصى معها فى ١٩٨٠/٨/٥

والاكلان نشسـطا ؛ ودورة المياه مفتوحة بلا باب ولا حاجز ، والالفـاظ النابية تترامى هنا وهناك . حاولت بعض النســاء من اللائى كن فى التخشيبة فرش شيء من ملابسهن لنا ، الا اننا جلسنا القرفصاء دون أكل أو ماء حتى آخر النهار »(١) .

وفى منزل ليلى الشال شمنوا المراتب ، ومزقوا كل ما طالته ايديهم كانوا آية فى الاستفزاز . اخذوها الى قسم مصر القديمة ، حيث كان الفنان حسن فؤاد مقبوضا عليه . لم تكن لدى مأمور القسم اى فكرة ، أين ترسل المعتقلات ، فرحلوها مع حسن فؤاد الى سجن القلعة ، الا ان قائد السجن رفض ادخالها ، باعتبار أنه لا مكان للنساء فى سجنه ، فاعيدت الى المباحث العامة (٢) .

وفى أول يناير ايضا قبض على المناضل حلمى ياسين . وجاءت زوجته المناضلة ثريا ادهم من الاسكندرية تتقصى اخبار زوجها . تحاول ان تعـرف ان كان ما يزال بسـجن القلعـة أم تم ترحيله الى الواحات الخارجة . لم تكن هنالك أى اخبار تطمئن الاهل عما آل اليه مصير من قبض عليه فى حملة رأس العام . وفى القاهرة اصيبت ثريا ادهم بالتهاب رئوى . كانت ترقد مريضة فى منزل حماتها بباب الخلق ، عندما حل فجر الثامن والعشرين من مارس . تقول ثريا ، « فى فجر هذا اليوم ، هاجمت المباحث العامة منزل باب الخلق بغرض القبض على صفوت ياسين شقيق زوجى . لم يكن صفوت موجودا حينذاك . كان هاربا . قاموا بتفتيش المنزل ، وعندما دخلوا الغرفة التى ارقد فيها ، رآنى ضابط المباحث فتعرف على . وللحال قال ؛ « انت هنـا ، ونحن نبحث عنك فى منزلك بروض الفرج » . وللحال فرض على الحراسة حيث انا ، نظرا لسوء حالتى الصحية . اتصل بالمسئولين لنقلى الى المستشفى ، حيث ان حالتى لا تسمح بنقلى الى المعتقل . وبالفعل ، ظللت بالمنزل طوال النهار تحت الحراسة ، معتقلة فى المنزل ، ممنوعة من الاتصال بأى احد .

اخبرونى ، قرب مدفع الافطار ، انى سأنقل الى المستشفى ، بعد الافطار . اصروا ، عند نقلى ، على ضرورة ترحيلى الى المعتقل ، فورا ، رغم ارتفاع درجة حرارتى . وبالفعل ، اخذنى ضابط ، ومعه بعض رجال المباحث الى مقر المباحث العامة »(٣) .

---

(١) لقاء شخصى معها فى ١٩٨٠/٩/٧
(٢) من شهادة ليلى الشال فى لقاء شخصى معها فى فبراير ١٩٨٩
(٣) لقاء شخصى معها فى ١٩٨٠/٩/٧

ولم نقف عمليات القبض عند حد المريضة التى تحتاج الى رعاية صحية واجبة ؛ بل لازم عمليات القبض وسبقها اعمال الضغط والارهاب والتنكيل .

كانت تعمل مدرسة فى قرية الدلجمون ، التى تبعد حوالى ثلاثة كيلو مترات عن كفر الزيات . وكان جزءا من عملها الذهاب الى سجن طنطا لتدريس المسجونات أعمال الخياطة والاشغال ومحو الامية . وفى يناير ١٩٥٩ ، وبينما كانت تقوم بعملها قالت لها السجانة ، هنالك مخبران أمام السجن يراقبانك . انا اعرف الشيوعيين ، فقد كنت فى سجن مصر ، من قبل ، هم اناس طيبون ، الا انهم يعيشون داخل السجون حياة صعبة للغاية . ثم فتحت احدى الزنازين ، وقالت لها ، انظرى ، هنا سوف تسجنين . كان المكان شديد الرطوبة ، سميك الجدران ، اشبه بالقبو .

فوجئت فى منتصف يناير باستدعاء المباحث العامة فى طنطا لها . كان رئيسها ، حينذاك ، أنور منصور . قال لها ، ان هنالك اناسا هاربين ، ذكر اسماءهم ، ثم طالبها بالارشاد عن اماكنهم . قالت ، انها لا تعرف ، واصر هو على انها تعرف . استدعى أحد المخبرين ، وطلب منه احضار الكرباج . احضر المخبر كرباجا سودانيا قصيرا . اخذ الضابط يلوح به فى الهواء . اصرت على انها لا تعرف ، فاحضروا مقصا وبدأوا فى قص خصلات شعرها . الا ان أنور منصور لم يصل منها الى ما يشتهى . فاستدعى والدها . وانهالوا عليه تأنيبا وتقريعا ، كان ابنه ، شقيقها ، ضابطا من ضباط الشرطة . هددوا الاب بانهم سيكلفون ابنه بالقبض على هؤلاء الهاربين ، وتكون تلك مسئولية يحاسب عليها . انهال الاب على الابنة سبا وشتما . ظل هذا الوضع المأساوى ، على الاب والابنة ، حتى نهاية اليوم . ثم تركوها تذهب الى منزلها .

تقول ايفون حبشى ، « قبل القبض على باسبوع ، توجهت ناظرة المدرسة ، وكانت من الاخوات المسلمات ، ومعها بعض المدرسات ، من ضعيفات النفوس ، الى قسم الشرطة فى كفر الزيات . قالت للضابط ، لدينا فى المدرسة ، مدرسة شيوعية . كان ذلك بتأثير حملة الصحافة ، وخاصة اخبار اليوم ، ايام عبد الكريم قاسم . قال الضابط لها ، انه ليس ضابطا بالمباحث العامة ، ولذا فان هذا الامر ليس من اختصاصه . ان هذه المدرسة زميلتهن ، وليس هنالك من يفعل فعلتهن على الاطلاق . انها شقيقة أحد الضباط زملائه ، وانهم يعرفونني ، وان كان هنالك ما يؤخذ على ، فلابد ان تكون المباحث العامة على علم به ، فهم يعرفون ماذا اكل فى منزلى . ان هذه المهمة ليست مهمة مربية تعمل ناظرة لمدرسة ، انها مهمة مخبر فى المباحث العامة ، وعليها ان تريح نفسها تماما من هذه المسألة .

« وفى فجر ٢٨ مارس ، الساعة الثالثة والنصف ، هاجم أنور منصور بنفسه ، ومعه ضابطان واربعة مخبرين منزلى . انقضوا مباشرة على حجرتى بعد ان سألوا عنى . قاموا باجراء تفتيش دقيق . تصفحوا كل الكراسات والكتب . الحجرة مشتركة بينى وبين اختى الطالبة فى معهد الخدمة الاجتماعية . انزعجوا من مقررات المعهد . طلبوا منى ارتداء ملابسى على عجل . هددوا بانى ان لم اسرع فسوف يقتحمون الحجرة على . توجهنا الى مبنى المباحث العامة . كانت الساعة قد بلغت الرابعة والنصف . كان هنالك زملاء فى الحجرة المجاورة . لم ارهم ، لكننى سمعت اصوات الضرب والصفع والكرابيج والسباب والشتائم . هنا فى هذا المكان قتلوا الشهيد محمد محمود عثمان . ارسلونى الى قسم طنطا . وهنالك وجدت طابورا طويلا من الرفاق وقد وضع الحديد فى ايديهم . وضعوا الحديد فى يدى . ثم وضعونا فى سيارة مكشوفة ، وقاموا بترحيلنا الى القاهرة » .

* * *

لم يكن مدفع الافطار قد انطلق ، عندما بدأت سيارة « البوكس » فى جمع حصاد الحملة من اقسام الشرطة المختلفة . كانت الرفيقات اللواتى سبقن الى السيارة يستقبلن كل من تلحق بهن من كل قسم بالزغاريد والاناشيد . كانت فاطمة زكى واجلال السحيمى لهما سابق خبرة بالسجن . وبذا لم تكن العملية الجارية تثير فيهما خوفا أو رهبة . وقد لعبتا ، وخاصة فاطمة زكى ، دورا هاما فى كسر حدة الوضع وتسجيع كل الرفيقات اللواتى كن يمررن بالتجربة لأول مرة . وبدت سيارة « البوكس » المتجهة الى سجن القناطر - نساء ، وكانها سيارة رحلات ، تموج بالنكات والقفشات والضحكات والهتاف والاناشيد . وغمرت الدهشة جند الحراسة وضباط الترحيلة . انطلق مدفع الافطار وهن فى الطريق . وصلن السجن وقد حل الظلام .

الحالة (ج) ، حالة الطوارىء القصوى معلنة بالسجن . كل العنابر مغلقة . المأمور فى انتظارهن فى مكتبه . والباشسجانة فى حالة تيبس عسكرى فى الاستقبال . كانت ترتدى الملابس البيضاء والطرحة البيضاء ، مثل حاجة بيضاء الوجه مشرب بالحمرة . كانت قبضتها ، رغم هذا المنظر ، فولاذية . ان وضعت يدها على واحدة من النزيلات . احست كان كلابه حديدية قد امسكت بها . السجن فتح بابه الصغير ، كشدق بتلهف على التهام القادمات الجديدات . عندما هبطت الرفيقات امامه ، كن مازلن يهتفن وينشدن . « فى ثورة على الطغاة والكادحون حولنا » ، « بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى » ، « اسلمى يا مصر » . كانت الادارة قد اعدت لهن استقبالا استفزازيا ، مشيعة حولهن جوا من

الرعب والفزع ، حاولت السجانة تنتيشهن تنينيا ذاتيا ، الا انهن قاومن ذلك . كانت هنالك احتكاكات وشتائم ، « يا كفرة ، يا ملحدين » . اخذوا منهن كل الاشياء حتى خواتم الزواج .

خصصوا لهن عنبرا ، كان ، كما تقول ليلى الشال ، عنبر الدعارة ، ثم سمى ، فيما بعد ، بعنبر الشيوعية . هو مبنى يبلغ طوله عشرة أمتار ، وعرضه خمسة أمتار . كان به سبعة سرر فى صفين . وكل سرير مكون من ثلاثة طوابق . لا توجد على السرر حشايا ، ولا اية مفروشات أخرى . فقط على كل سرير بطانية واحدة . وبالعنبر جردلين . عندما دخلت الرفيقات العنبر ، لم يكن لدى البعض منهن اية فكرة عن استخدام هذين الجردلين . قالت السجانة ، واحد للمياه ، والآخر للحاجة . واحد تشربن منه ، والآخر تتبولن فيه . سألتها انتصار خطاب ، وماذا لو اخطأت واحدة منا فى استخدامها ؟ قالت السجانة ، تستظرفين وتدعين خفة الظل . الا يكفيكن انكن كفرة ، مخربين وعملاء ؟ سألتها عن الوسائد . قالت ، تضع كل منكن ذراعها اسفل راسها . واغلقت عليهن باب العنبر ، فجلسن يتعرفن ببعضهن البعض .

كن من وصلن الى السجن ، حتى الآن ، سبعة عشر رفيقة ، منهن : فاطمة زكى ، انتصار خطاب ، ثريا شاكر ، ثريا ابراهيم ، ليلى الشال ، ليلى شعيب ، ليلى عبد الحكيم ، اجلال السحيمى ، نوال الحملاوى ، محسنة توفيق ، سيدة حسن ، زينب من بنى سويف ، وهى فتاة صغيرة ، ظنت كثيرات من الزميلات انها ابنة واحدة منهن . كانت قصيرة ، صغيرة ، رفيعة الصوت . كل ما فعلته ، انها شاركت فى الدعاية الانتخابية للرفيق شبل اسماعيل (وكان صاحب المدرسة التى هى فيها) ضد عضو فى الاتحاد القومى . كل أماناتها كانت كتبها المدرسية ، التى احضرتها معها . ثم جاءت ايفون حبشى ، جنيفيف سيداروس . كانت الرفيقات تهللن كلما ظهرت معتقلة جديدة ـ بنى سويف وصلت ، طنطا وصلت ، الاسكندرية وصلت . الرفيقات اللواتى جئن من الاقاليم ، جئن مصفدات الايدى بالقيود الحديدية . ثم جاءت اسماء البقلى ، حبلى توشك على الوضع ، سعاد الطويل ، سميرة الصاوى ، عايدة بدر ، زينات الصباغ واميمة أبو النصر . ثم جاءت انجى افلاطون بعد شهرين ، حيث كانت هاربة ، ثم داود مترى .

وقت ان وصلت الرفيقات الى سجن القناطر ـ نساء ، كانت الكثرة منهن بلا ملابس للاقامة . اذ لم تمكنهن المباحث العامة من اخذ أى شىء ، بزعم انهن مطلوبات لخمس دقائق ، فقط ، ثم بعدن من حيث جئن . كانت

الرفيقات اللواتى لهن ســـابق خبرة وتجربة بالسجن قد احضرن معهن ما يفيض عن حاجتهن ، فاقتسمن جميعا هذه الملابس ، معا ٠

عندما سكن الضجيج والزياط ، غشى الصمت المغبر . لا صــوت مدة ساعة ٠ كانت كل منهن تفكر فيمن تركته خلفها ، لا يدرى عن مصيرها شيئا ، ولا تدرى هى عما آل اليه حاله ، تفكر فى الاسرة ، فى الزوج ، فى الابناء ، فى الولد والبنت .

فى صباح اليوم التالى للايداع بسجن النساء ، توجهت ثريا شاكر الى مأمور السجن لتخبره انها ام لطفلة رضيعة عمرها عام واحد ، وانها ترغب فى احضارها للاقامة معها ٠ الا انه نصحها الا تحضرها ، مبقاؤها فى الخارج مع أى احد ، افضل كثيرا من وجودها فى جو السجن ٠ تقول ثريا شاكر ، « كانت المسألة بالنسبة لى مزعجة وقاسية ٠ تركت اطفالى الثلاثة ، ولا ادرى عنهم شيئا » ٠

عندما وصلت ثريا ادهم محمولة لمرضها ، كانت هى آخر من وصل فى اليوم الأول تقريبا ٠ تقول ثريا ادهم ، « وجدت هنالك من اراها لأول مرة ٠ كانت هنالك ايضا من اعرفها منذ مدة طويلة ٠ معتقلات من كل المدن ٠ رأيت نوعيات متعددة ، عاملة ، مثقفة ، مدرسة ، موظفة ، ربة بيت وسيدات عاديات ، كل التهمة الموجهة اليهن ، انهن كن يدافعن عن ازواجهن أو اخوتهن بعد اعتقالهم ٠ كن يقمن بتنظيم الاسر للدفاع عن حقوقهم كمعتقلين سياسيين » ٠



الفلاحة الهاربة :

هربت انجى افلاطون ، وهى الفنانة المعروفة ، المطلوب القبض عليها ٠ كان عليها ان تختفى اختفاء كاملا حتى تستطيع مواصلة عملهـا السياسى . كان ذلك يستلزم بالضرورة صورة من صور التنكر ٠ واستقر الراى ، مع الزملاء ، على أن يكون تنكرها فى صورة فلاحة ، ممن يعشن فى المدن : المنديل والطرحة فوق الراس ، والكردان على الرقبة . كان عليها أن تضع الكحل فى عينيها ، وبذا تغير شكلها تماما ٠ اســتأجر الزملاء لها مكان اقامة فى شبرا ٠ كان ذلك مع عجوزين ظروفهما المـالية صعبة ، باعتبار انها زوجة هاربة من بيت الطاعة ، وانها ستقوم بالانفاق عليهما مقابل اقامتها ٠

كان اختفاء سيدة بمفردها فى حى شعبى ، مشكلة فى ذاته ، خاصة اذا كانت هذه السيدة من اصول تركية ، لها قدر من الجمال وافر ، واكثة

فى الحديث متميزة • كانت ان جلست فى شرفة المسكن ، تعرضت لمضايقات الشباب • وكان عليها ، الى جوار مهامها السياسية والاجتماعات الحزبية . أن تمارس فنها . ونجحت فى احضار ادواتها . وكان عليها ، وهى ترسم ، ان تغلق الحجرة عليها ، تماما ، اذ لا يتسق رسم اللوحات الفنية مع الفلاحة الهاربة . ورسمت مكونات حجرتها فى لوحتين ، اطلقت على واحدة منهما اسم « حجرتى فى الاختفاء » • واستمرت فترة الهرب الجزئى السابقة على طلب القبض عليها ، وفترة الهرب الكلى اللاحقة على أمر اعتقالها ، حوالى ثلاثة اشهر ونصف . تقول انجى افلاطون عن فترة الهرب تلك انها ، « كانت فترة توتر للغاية • فترة اصعب من السجن ذاتـه » •

تم قبض عليها فى ١٩٥٩/٦/١٩ . كانت فى احد الاجتماعات ، وهنالك فوجئت باحد الزملاء ، الذين لم يحضروا الاجتماع ، يرسل لها تقريرا عن اضرابات عمال الترام ، ملحا على ضرورة أن تحمله معهمـا لقراءته للاهميه . تقول انجى افلاطون ، « كانت تلك أول مرة احمل فيها تقريرا بمثل تلك الخطورة . اخفيته فى « الكورسيه » الذى كنت ارتديه • غادرت المنزل ، واستوقفت سيارة تاكسى • لم اكن استخدم الا سـيارة فى حالة حركة • ما ان وقف التاكسى حتى انقض على رجال الأمن • وضعونى فى داخل السيارة ، واحاطوا بى من الجانبين . كان ذلك ، بالتأكيد ، كمينا معدا • اصاب السائق رعب عظيم • أمروه بالوقوف ، حتى جاءت سيارة أخرى مليئة باناس وقد ربطت اليها دراجة • عرفت ، فيما بعد ، انها لشقيق احد الزملاء ، وهو قهوجى لا علاقة له بالسياسة • كان قادما لاحضار نقود لأخيه ، فى ذات الوقت الذى قبض عليه فيه . فامسكوا به ، ايضا ، هو ودراجته ، وظل فى السجن عاما كاملا يصيبه الاغماء كلما انتابه الخوف •

« كان معى ، وقت القبض على ، كيس ورقى بداخله حاجياتى وبعض النقود ، كذا ورقة مكتوب فيها رموز اسماء بعض الزملاء واشتراكاتهم الحزبية • كان فى وسعى التخلص منها ، الا اننى فكرت فى أن تركها فى موضعها ، سوف يحول الانظار اليها ، بدلا من التقرير الذى اخفيه •

« فى سرعة جنونية توجهت السيارتان الى وزارة الداخلية • طل الضابط حجازى بمجرد رؤيته لى ، وغدا سعيدا للغاية عندما وجد الورقة فى الكيس . تساءل عما هو مكتوب فيها ، فقلت انى سارد على ذلك امام النيـابة . حـاول التفتيش الذاتى فرفضت ، بشـدة ، فتراجع •

صوروني حوالى مائة صورة لتوفير دليل على هربي وتنكرى · استطعت ، فى تلك الاثناء ، ان اتخلص من التقرير ·

« فى اليوم التالى جاء وكيل النيابة · كان احمد موسى ، وكان رجلا مهذبا للغاية · سألنى ان كنت هاربة ، فاجبته بانى كنت ، بالفعل ، هاربة . هنالك أمر اعتقال غير قانونى ، وانا لست على استعداد للذهاب الى السجن ، كما حدث لزوجى ، والذى توفى بعد خروجه من السجن . كان هو ، ايضا ، وكيلا للنيابة ، ويعرفه أحمد موسى . قلت ان من حقى الا اسلم نفسى للاعتقال · سألنى ، ان كنت متنكرة . فقلت ، انى فنانة احب رسم الفلاحين ، واننى ، وانا هاربة ، كنت البس هذا الزى واقف امام المرآة لارسم نفسى · ضحك أحمد موسى ، بشدة ، من اجابتى تلك · سألنى عن الرفيق الذى قبض عليه ، وكان اسمه رؤوف ، وكذا عن البيت الذى كنت فيه ، فانكرت كلاهما · سألنى عن المكان الذى كنت اختفى فيه . فقلت ، كنت عند اناس عاديين · قال ، معنى ذلك انك تعرفين اناسا غير عاديين ؟ قلت ، اقصد اناسا لا علاقة لهم بالسياسة . سألنى عن المفاتيح التى معى · فقلت له ، لا تجهد نفسك فانى لن اقول شـــيئا .

« انتهى التحقيق · كان ضابط الحرس المسئول عنى انســانا جيدا · حذرنى بالانجليزية بان احـــد المقبوض عليهم ســـوف ينهـار ويعترف . سألته ، لماذا ؟ قال ، لأنه شديد الخوف ، كثير الاغماء . كان يقصد القهوجى . قبل أن يتركنى ، سألنى ان كنت اريد شيئا ؟ كنت ، بالفعل ، اود اخبار اسرتى بأمر القبض على · اخبرته بذلك وبرقـم التليفون · وبالفعل قام الرجل بهذه المهمة · فاسرعت اختى الى مكـــان اختفائى ، واخذت كل حاجياتى ·

« فى الليل جاء حسن المصيلحى ، وحوله عدد كبير من ضباط الأمن · كنت اجلس على كرسى واريح قدمى على كرسى آخر . لم اتحرك عندما دخل . كنت متعبة للغاية · قال لى بالفرنسية ، اليس حراما ان تتعرض سيدة مثلك ، من اسرة كبيرة ، نفسها لكل هذه البهدلة · قلت ، ولم اتحرك من موضعى ، هذا أمر يخصنى ، ولا يخصك · كست الدهشة وجوه من معه ·

« ظللت فى الداخلية يومين ونصف . عندما اخبرونى بانى راحلة الى السجن ، شعرت بسعادة فائقة ، وصحته الحمد لله . فبدت هـذه السعادة غريبة على من سمعنى » ·

وصلت انجى افلاطون سجن النساء وقت طابور الصباح . اثناء تسليمها الامانات ، كانت تنظر الى جوش السجن تشير الى الزميلات ، الا أن واحدة منهن لم تستجب لها . كان جلبابها البلدى قد غدا رثا ، كما ساح الكحل الذى فى عينيها على وجهها ، فبدى شكلها غريبا ، يصعب التعرف عليها . اثناء وجودها فى وزارة الداخلية ، احضروا لها كل ما طلبت ، من مأكل أو غيره ، ما عدا الصابون . كانوا يبغون الابقاء على تنكرها كما هو حيث كانوا يقومون بتصويرها من وقت لآخر ، وهكذا تفاقم التنكر لتتحول من فلاحة بالمدينة الى متسولة تقاد الى سجن النساء . كانت هنالك سجانة تدعى « علية » ، وما ان تعرفت على اسمها حتى اسرعت الى الرفيقات وهى تعلن ، « اخيرا وصلت انجه الانفلوطى » .

فى العنبر رحبت بها الزميلات . تساءلن عن هذا الذى هى عليه . اثناء ترحيلها من وزارة الداخلية الى سجن النساء ، كانت تحس السعادة إن انتهى عبء الهرب ومتاعبه ، الا ان هاجسا كان يجوم حولها : « هل حقا فى وسعى ان اتحمل السجن . سبق وتعرضت لتحقيق المحققين كثيرا ، الا ان تلك هى أول مرة اسجن فيها . انها تجربة جديدة تماما فى حياتى . اللهم دعنى اكون فى مستوى التجربة » . فى العنبر اغتسلت . إرتدت ملابس من تلك التى لباقى الزميلات . سقطت مخاوفها على باب العنبر . وبدأت مشوارها خلف الاسوار .



فلسطينية فى المنفى :

لم يقف حد القبض على النساء عند حدود مصر . بل تجاوزتها حكومة الحزب العسكرى الى خارج الحدود ، الى غزة ـ فلسطين . هنالك امسكوا بصهباء البربرى خطيبة المناضل الشاعر الفلسطينى معين بسيسو .

تقول ايفون حبشى ، « عندما جاءت صهباء الى سجن ـ النساء بالقناطر ، بعد ثلاثة شهور ، لم تكن تعرفها أى واحدة من الزميلات . تحزينا عنها حتى عرفناها . هى خريجة الجامعة المصرية ، كلية الآداب . قسم الاجتماع . كانت زميلة الاخصائية الاجتماعية للسجن . كانت نحيلة ، رقيقة ، رشيقة ، فنانة تملك مهارات يدوية رائعة . قالت لنا انه قبض عليها وعلى خطيبها فى ضربة رأس العام ١٩٥٩ . كما قبضوا ايضا على اخوة معين بسيسو الثلاثة . وعندما بكت امه لهول ما اصابها فى بنيها ، قال لها معين :

لك الجماهير ابنـاء بلا عـدد

فلست وحدك يا أمى بلا ولد

« عندما وضعوا الحديد فى يديها من غزة الى القاهرة ، اصرت ان توضع فى قيد واحد هى وخطيبها . قالت لنا ، « كنت اود الا ينتهى الطريق الى القاهرة • فانا الآن الى جوار معين ، ونهاية هذا الطريق ، سـوف تكون نهاية هذا الجوار . وفجاة وجدنا انفسنا امام السجن الحربى » .

« وضعوها فى زنزانة فى الدور الثالث . ووضعوا اسفلها اناسـا كانوا يقومون بتعذيبهم طوال اليوم ، كانت تصك اسـماعها عذابات المعتقلين • الزعيق والصراخ ونباح الكلاب وآهات الالم والعذاب •

« وضعوا على باب زنزانتها قفلا ، وامامه وقف شـاويش بشـع الخلقة • كانت الزنزانة فارغة ، لا سرير ولا مقعد ولا جردل بول أو مياه • لا شىء على الاطلاق • ثم فجأة يقتحمون الباب ويملأون الزنزانة بفاخر الفراش . سرير ، منضدة ، تواليت ، فازة ، اناء ماء وكوب ، ستائر وجرائد • وتصبح الزنزانة وكانها غرفة نوم فى فندق من فنادق الدرجـة الأولى . وتمضى نصف ساعة ، ثم ينقضون على الزنزانة ، يحملون منها كل شىء ، ويتركونها فضاء خربا كما كانت • ثم ساعة أخرى ، ويعيدون فرشها باجمل مما كانت عليه . ثم ساعتان ويرفعون كل ما كان . استمر الوضع هكذا ثمان واربعين ساعة ، والحارس الكريه يعرض عليها هذين الخيارين ، الضيق والعذاب ، أو الراحة المقيدة ، والثمن ان تطلب من معين بسيسو أن يعترف • انه هنالك يضربونه حتى الموت ، انه يقطن اسفلها ، وفى وسعها أن تنقذه •

« كان السجن وضعا لم تعرفه من قبل ، كما كانت عديمة خبرة باساليب التعذيب البدنى والمعنوى . كان يمر امام الزنزانة اناس يهرولون وكانهم فى عجلة من أمرهم • البعض يقول ، قطعوا يد معين ، مات معين • هو الآن معلق فى اسلاك ، هو الآن مصلوب على عروسة الجلد والتعذيب • واصبحت كل صرخة عذاب هى صرخة معين ، وكل آهة الم هى آهة معين •

« وكان على صهباء أن تعانى وتتعذب وتصمد ، حتى رحـل خطيبها الى الواحات • واحضروها هى الى سجن القناطر » •

الفصل الثانى

الحياة فى السجن

ان وضع الرفيقات فى سجن القناطر ـ نساء ، يختلف ويتشابه مع وضع الرفاق فى سجن القناطر ـ رجال . يختلف فى انهن جميعا فى عنبر واحد غير معزولات عن بعضهن البعض ، ليس هنالك تقسيم للاقامة طبقا للاصول الحزبية . وبالتالى فان ظروفا أكثر مواتاة ـ للتآلف ولتدبير حياة عامة واحدة ـ كانت متوفرة . كانت ظروف سجن النساء ، وجود عدد من الرفيقات اللواتى لهن خبرة وتجربة سابقة بالسجن ، وكذا وجود الحنكة القيادية ، عوامل هامة فى تحقيق قدر جيد من وحدة الموقف فى مواجهة الادارة ، ووحدة الحياة المعيشية ، فالجميع يعشن فى اوضاع متقاربة أو شبه متماثلة ، مما يحافظ على وحدة الرفيقات بشكل عام ، ويوفر أهم قاعدة من قواعد مواجهة الادارة ، بل ومواجهة عملية الاحتجاز ذاتها . تقول فاطمة زكى : « كان هنالك تيارات سياسية مختلفة . كان هنالك الحزب وحدتو ، ومن لا ينتمون لأى تنظيم ، بل وكان هنالك ايضا عناصر معادية سياسيا . الا ان موقفنا جميعا كان واحـدا فى مواجهة الادارة . نختلف داخل العنبر ، لكننا موقف واحد امام الادارة » . وتضيف ثريا ادهم ، « الشىء الذى ميز السيدات ، والذى نفخر به على الدوام ، انه رغم انتماء البعض منا الى تنظيمات شيوعية مختلفة ، الا ان العلاقة الشخصية بيننا جميعا ، كانت طيبة للغاية . ان اى واحدة منا كانت تجد الجميع حولهـا ان مرت بظروف صعبة أو ازمـة شخصية أو صحية أو عائلية » . أى ان الظروف الذاتية بين السجنين كانت تختلف .

أما اوجه التشابه ، فقد كانت فى الظروف الموضوعية . كان موقف الادارة من الرفيقات المعتقلات مرتبطا تمام الارتباط بالظروف الخارجية السياسية ، فان اشتدت خارج السجن ، شددت الادارة داخله ايضـا . الا انه لا يمكن الربط آليا بين ما يمكن ان يتبع فى سجن الرجال وسجن النساء ، رغم ان السجنين ، فى نهاية الامر ، خاضعان لقيادة منطقـة واحدة . اذ ان التضييق على السـيدات ، كان فى التركيز على تحطيم المتزوجات منهن بحرمانهن من رؤية ابنائهن . كانت هنالك العديدات من المعتقلات اللواتى تركن ابناءهن فى اعمار تبدأ من العام الواحد حتى سن المراهقة . والاب ، ايضا ، مسجون أو معتقل . وكثير من هؤلاء الابناء بلا مورد يعيشون منه . كان التعذيب هنا تعذيبا معنويا ، غاية فى القسوة والبشاعة . كان التعذيب النفسى للامهات ، يصيب الجميع . الفتيات

والزوجـات اللواتى لم ينجبن بعـد ، بنفس الاثر • نفس الألم ونفس الاحاسيس • تقول ثريا ادهم ، « كنـا ان جلسـنا نسـمع المخياع ، وعبد الحليم يغنى ، نبدأ الجلسة سعداء • الا ان بعض الامهات يأخذن فى البكاء ، لأن ابن واحدة منهن أو أكثر كان يغنى هذه الاغنية • وبالحال يتقلب الجو الى غم شديد ، لأن الاحسـاس بعذاب الامهات ، كان يؤثر فينـا جميعا » •

العنبر مغلق طوال اليوم • يفتح فقط للذهاب الى دورة المياه الموجودة بمستشفى السجن صباحا وعصرا • وطابور الشمس قاصر على نصف ساعة فى الصباح، تنقص الى ربع ساعة عند التشديد• الامانات المسموح بها جنيهين اثنين كلّ شهر • الكتب ممنوعة• ، الجرائد ممنوعة ، الورق والاقلام ممنوع ، اجهزة الراديو ممنوعة والزيارات ايضا ممنوعة • مسموح باستلام الخطابات الواردة من الاهل ، بعد مرورها على رقابة المباحث العامة • الخطابات تلغرافية : « نحن بخير • صحتنا جيدة ، كيف حالك •• السلام عليك » • كما كان مسوحا بكتابة خطاب الى الاهل كل شهر • تكتب الخطابات تحت اشراف « مراقبة السجن » • تجلس المعتقلة الى حوارها على المنضدة • الورق والقلم من عندها • ويكتب الخطاب امامها لتقرأه • ثم يقرأه مأمور السجن ، ثم المباحث العامة للتأشير عليه • فان كان مرسلا الى الواحات الى زوج أو خطيب أو اخ معتقل أو مسجون • يقرأه مأمور سجن الواحات ، ثم الضابط النوبطشى ، ليصل أخيرا الى المرسل اليه •

التغذية رديئة وسيئة • المفروض ان القائم عليها متعهد بقدر يومى سبعة عشرة قرشا للمعتقلة الواحدة • ولقد استطاع هذا المتعهد ، خلال فترة اعتقال الرفيقات ، والتى دامت لاكثر من اربع سنوات ، بناء عمارة من هذه القروش ، مما يوضح حقيقـة ما كان يقـدمه من مواد غذائيـة والاستغلال البشع الذى تعرضن له • كان الطعام بلا لون محدد ، كريه الطعم ، تثير رائحته الغثيان • الخضار يصعب تحديد نوعه ، والارز بما احتوى من قش واحجار ، بل وفضلات الفئران ايضا • اما عن اللحم ، فهو بعيد تماما عن هذا المسمى •

الرعاية الطبية شبه معـدومة • الطبيبـة المشرفة ، دكتـورة ايـدا ابراهيم ، ورئيس القسم الطبى وحكيمباشى مستشفى السجن ، دكتـور بقطر ، كلاهما كان حسن التعامل مع الرفيقات • قدما كل ما فى وسعهما من تسهيلات وعون • الا ان الاكل السىء لا يتغير ، وعدم وجود الادوية لا يعالج ، ومنطقة القناطر نفسها تتميز بالرطوبة الشديدة ، ولا يمكن لمن يعيشن فيها ، الا ويصاب بالروماتيزم • كان الطبيب يرى ان الطقس فى هذه المنطقة خطر للغاية ، وانه يلزم أن يكون الغطاء عند النوم كافيا • الا انه

لم تكن هنالك اغطية كافية ابدا • كما ان الاغلاق المستمر ؛ وجردل مياه الشرب الى جانب جردل البول ، وتكدس حوالى ثلاث وعشرين معتقلة فى عنبر واحد ، كل ذلك شكل عوامل متكاملة متضافرة لظروف صحية سيئة •

ادارة السجن تعمد الى تغيير السجانة المشرفة على العنبر بصورة دورية شهرية ، خشية ان تنشأ بينها وبين المعتقلات علاقات انسانية • السجانات كن معتادات على سوء ادب المسجونات العاديات وبالتالى سوء معاملتهن • كانت هنالك سجانة عجوز سمينة سمراء تدعى ام عفيفى • كانت هذه السجانة ، خلال نوبطشيتها ، تغلق الباب عليهن بصورة مستمرة •

الهيبة والرهبة ، من القوائم الاساسية التى تقوم عليها قبضة الادارة على المعتقلين والمعتقلات ، المسجونين والمسجونات • وهى تحاول ان تتخذ من اية مشكلة ، ذريعة لاعلان وجودها وهيلمانها • تقول ثريا شاكر : « فى اوائل دخولنا السجن طلبنا كتابة خطابات لذوينا • كنا نكتب على باب العنبر • وكان المأمور يمر وقتها ومعه بعض ضيوفه • وقفت السجانة وقفة انتباه • اما نحن فلم نعر الامر التفاتا • المسألة لا تخصنا • السجانة موظفة بالسجن ووضعها يقتضى هذه الوقفة عند مرور الضابط ، أما نحن فمعتقلات ، نكتب خطابات • فوجئنا بالمأمور يستشيط غضبا • كنت انا المتحدثة عن المعتقلات ، فارسل فى طلبى • قال فى ثورة عارمة ، لا يعجبنى ما فعلتن اليوم • لم اكن ادرى أى جرم ارتكبنا • فسألته ، لماذا ؟ وماذا فعلنا ؟ قال ، الا تعرفين انه من المفروض وقوفكن عند مرورى ؟! كل من فى هذا السجن يجب أن يقف عند مرورى • انكن جلسن وكانكن فى بيوتكن • قلت ، نحن لا نعرف هذا • نحن لم نسجن من قبل • ومنذ الآن ، وعند مرور سيادتك ، سوف نقف ونعظم ايضا • قال ، لا داعى للتعظيم • بقفن فقط • قلت ، حاضر ، سوف نفعل ، وان كنت اعتقد ان الامر لا يقتضى كل هذا الغضب • اننا اعتدنا ، كما نعرف ، الا تقف السيدة للرجل ، حتى ان حيته ، فهى تفعل ذلك وهى جالسة • ولكن ما دمنا مسجونات وسيادتك المأمور واقف ، فلسوف نقف فى المرة القادمة » •

انها المحاولة التى لن تتوقف ، بهدف غرس شعور بأن الامر قد تغير بالنسبة لهن • الخارج شىء وداخل الجدران شىء آخر •



تلك المظاهر من الرهبة والهيلمان ، قد لا تؤثر فى المناضل أو المناضلة ، كثيرا أو قليلا • الشىء الهام الا تغوص الى الاعماق ، فنفعل فعلها وتأتى ثمارها ، نخرا كالسوس فى النفوس • فان كان التنظيم الحزبى ضرورى فى الخارج ، فهو أشد ضرورة فى الداخل • انه السياج الذى يربط ويحمى ، يحصن ويصلب ، يدعم الانتماء ويحقق القبضة الواحدة والاراده الواحدة ، فى مواجهة كل صنوف الترهيب والترغيب . ومنذ اللحظة الأولى كانت الرفيقات على بينة من تلك الحقيقة • ولذا تشكلت للحال ذيادة حزبية لسجن ــ النساء من الرفيقات : ثريا ادهم ، فاطمة زكى وانتصار خطاب . وعندما اعتقلت انجى افلاطون ، انضمت الى القيادة باعتبار انها كانت عضوة باللجنة المركزية عند تأسيس الحزب ، وكذا بعد ضربة يناير . وعندما رؤى الاكتفاء بثلاث رفيقات قياديات ، تركت فاطمة زكى اللجنة القيادية •

وكان على هذه اللجنة القيادية ان تواجه عددا من المسائل :

(١) مواجهة ظروف الاعتقال واوضاعه ،

(٢) مواجهة الظروف الحياتية والمعيشية (الحياة العامة) ،

(٣) مناقشة القضايا واعدادها للمحاكمة •

١ ــ مواجهة ظروف الاعتقال واوضاعه :

ان الظروف التى احاطت باللائى قبض عليهن عام ١٩٥٩ ، كانت ظروفا مختلفة عن تلك التى واجهتها الرفيقات اللواتى سبق لهن ومررن بتجربة السجن من قبل • كما انها كانت انتقالا رهيبا من الشارع الى خلف القضبان ، بالنسبة للرفيقات اللواتى تحتجز حريتهن لأول مرة . وكانت النوعية الاخيرة هى النوعية الغالبة • فان اضيف الى حدة التجربة ، صغر السن عند البعض ، والامومة عند البعض الآخر ، والبعد عن العمل السياسى الحزبى عند فريق ثالث ، برزت ضخامة المسئولية التى وقعت على عاتق الرفيقات المسئولات والرفيقات اللواتى لديهن خبرة سابقة •

كانت البداية ضرورة كسر هيبة السجن ورهبته ، حتى لا تترسخ فى نفوس المعتقلات كحقيقة لا مفر من الرضوخ لها . كان على الاكبر سنا وخبرة ووعيا ان يعملن على مساعدة الجدد لتقبل هذه الأوضاع ومواجهة تلك الظروف الصعبة التى لم يعتدن على مثلها • تقول فاطمة زكى : « اتفقت انا وثريا ادهم وسعاد الطويل واجلال السحيمى على ضرورة عمل شىء ما . فى اليوم الثانى ، ساعة طابور الصباح ، صحت فى الجميع

ان يتجمعن لنبدأ معا تمارين رياضية • شكلنا دائرة وبدات التمارين : واحد ، اثنين ، الرأس واليدين ، البطن والرجل • ثم رقص ايقاعي ، خطوة لليمين وخطوة لليسار • والمسجونات العاديات يتساءلن عن هؤلاء اللواتي يرقصن داخل السجن • بعد هذا الطابور الرياضي توجهنا للاغتسال في دورة المياه ، ثم تناولنا الافطار • بدا الامر وكاننا في معسكر خاص بنا • كان الامر الهام هنا هو تحطيم رهبة السجن » •

وكان من الضروري ايضا ، اعداد الزميلات نفسيا وصحيا لحبسة طويلة الامد • كان ذلك يحتاج الى جهد حقيقي • تقول انجي افلاطون • « عندما وصلت في شهر يونيه ، كانت معنويات الزميلات هائلة • يتصرفن وكانهن في رحلة ، لعب وغناء ، حتى اذا جاء شهر يوليو ، وانتشر جو الافراج والعفو في السجن ، دخلت الزميلات في هذا الجو ايضا • ولذا ناقشت مع اللجنة القيادية خاصة والزميلات عامة ، ضرورة تجهيز انفسنا للحفاظ على صحتنا ومعنوياتنا ، لاننا سنظل في السجن مدة طويلة • كنت قاسية ، الا ان هذا كان لازما ، حتى ان بعض الزميلات تضايقن ، وقلن بانني متشائمة • الا انني لم اكن متشائمة • كنت واقعية • اوضحت ان الجو العام في الخارج ، عسير للغاية ، فالارهاب قائم ، والحملات ضد الشيوعية قائمة ، والاوضاع توحي بعامين في السجن أو ثلاثة • لم نكن قد سمعنا عن التعذيب بعد • كان من اللازم ان نكون مؤهلين لهذه الاحتمالات • نحافظ على صحتنا واعصابنا ، ان في السجن اكثر من الف امرأة تزعق وتصرخ وتتكلم ، وبالتالي يلزم ان نكون نحن هادئات ، والا اصابنا الانهيار • لابد من تنظيم حياتنا ، ومنها اطفاء الانوار في الحادية عشر • من شاءت ان تنام نامت ، ومن شاءت ان تستريح ، تستريح • جعلنا ايضا ساعة هدوء فيما بعد الظهر » •

وكان لابد ايضا من تحديد كيفية التعامل مع الادارة • تم الاتفاق على ان يكون الكلام مع مأمور السجن منظما ، بمعنى تحديد الرفيقة التي تتحدث اليه ، دون ان يكون اسلوبها في الحديث استفزازيا • الا ان عدم لجوء الرفيقات للاستفزاز ، لم يكن يعني الصمت امام أي سلوك يمكن أن ينال من كرامتهن • ان الرفيقات ، رغم كونهن معتقلات ، في سجن تحكمه لائحة السجون التي تحدد علاقتهن بالادارة ، وأحد قواعد هذه اللائحة ، الا يدخل رجل إلى عنبرهن ، الا ان مأمور السجن كان يقوم بالتفتيش ، التفتيش اليومي • كان يفتح الحقائب ويحقق تحقيقا شديدا • وذات يوم جاء مدير مصلحة السجون لزيارة السجن • ومر خلال ذلك على عنبر المعتقلات • وطرح السؤال التقليدي ، الذي يلقى به دائما في مثل تلك الاحوال : هل تردن شيئا ؟ وللحال تصدت له انتصار خطاب : نعم ، نريد • قال ،

ماذا نردن ؟ قالت ، هل تقبل حضرتك بان يطلع رجل غريب على ملابس زوجتك الداخلية؟ قال ، ماذا تعنين بذلك ؟ قالت ، ان مأمور السجن يقوم بفتح حقائبنا والامساك بملابسنا الداخلية . وهذا أمر مرفوض تماما • اذ ما الداعى اذن لوجود سجانات من السيدات ؟ قال المأمور ، هل انا افعل ذلك يا مدام ؟ وصرخت انتصار خطاب فى وجهه ، نعم تفعل ذلك ، تمسك بتلك الملابس ، بل وتقوم بفردها ايضا • بعد تلك الزيارة ، كان المأمور ان دخل العنبر ، يولبهن ظهره اثناء التفتيش ناظرا من نافذة العنبر . دام هذا الوضع مرتين أو ثلاث ، ثم توقف التفتيش على هذا النحو •

كما حددت الرفيقات موقفا من السجانات ايضا . وقام هذا الموقف فى الاساس ، على أن يكون سلوكهن متسما باحترامهن لانفسهن أولا . لم يكن يقعن فى أى خطأ امام السجانات والمسجونات العاديات ؛ كن يلجأن الى المناقشة الموضوعية • فاصبحن محل احترام الجميع ، حتى ان كبار المسجونات ، من تاجرات الحشيش ، كن ينادين اصغر معتقلة سياسية بكلمة « ابله » ، تعبيرا عن احترامها لها • تقول فاطمة زكى ، « السجانة مهما كانت قاسية ، فهى فى نهاية الامر امرأة . ففى لحظات القسوة الشديدة التى كنا نمر بها ، كنا نرى السجانة العنيفة منهن وهى تبكى ، أو تمتلىء عيناها بالدموع • انهن مهما كن قاسيات ، الا ان نواحى الامومة تؤثر فيهن كثيرا • كن يتعاملن معنا كسيدات • وكان ذلك راجعا الى اسلوب تعاملنا نحن معهن . فلكل فعل رد فعل • كان سلوكنا صحيحا ، ولم ندخل معهن فى عراكات صبيانية ، باعتبار انهن مجرد موظفات تؤدين عملهن • لم نخض معهن عراكا الا فيما يستحق • كان نطالب ، فى وقت تكديرة ما ، بفتح الباب علينا • مجرد فتحه حتى تدخل الشمس .. وتلك كانت حينذاك نعمة كبيرة . كانت رؤيتنا للمسجونات العاديات ، وهن يمررن امامنا ، تعطينا احساسا بالارتباط بيننا نحن اللواتى داخل العنبر ، وهاته اللواتى خارجه ، وان كنا جميعا داخل السجن » •



حديث الرئيس ومعركة السحل :

لم يكن قد مضى على وجود الرفيقات فى المعتقل اقل من شهرين ، عندما اعلن الرئيس جمال عبد الناصر تصريحه المشهور للصحفى الهندى المعروف ، كارينجيا : « انه ليس فى مصر معتقلين أو معتقلات » • قرأت الرفيقات هذا النبأ « العظيم » فى احدى الصحف التى كن قد نظمن تهريبها الى داخل السجن • بدت المسألة ، أول الامر ، مدعاة للسخرية • اذ لو

ان هذا الكلام صحيح ، فانهن فى غير سجن النساء دون أن يدرين ، أو انهن فى الحرية دون ان يدركن ذلك . الا ان المناقشة اتخذت سمة الجدية ، على أساس ان التصريح صادر عن رئيس الجمهورية ، لصحفى له شهرته الدولية ، ولا يمكن ان تصدر كلمة عن الرئيس دون ان تكون محسوبة بدقة . واكد الاحتمال الجدية ، ما رددته ثريا شاكر ، عن حدث مماثل وقع لزوجها فوزى حبشى عام ١٩٤٨ ، عندما كان معتقلا ، واعلن مصطفى النحاس انه لا توجد معتقلات ، وبالفعل خرج الجميع الى الشارع فى ظهيرة نفس اليوم ، « فكلام الملوك لا يرد » . ساد التفاؤل . وبدأت جميعهن فى اعداد أمورهن ، فقد حانت لحظة الخروج الى الحرية . اذ ربما صدر قرار الافراج بالفعل ، الا انه لم يصل بعد الى ادارة السجن .

تم الاتفاق على أن يتوجهن جميعا الى ادارة السجن ، بعد طابور الصباح . وأن تكون لحظة التحرك نحو مبنى الادارة ، هى لحظة ان تعلن السجانة انتهاء الطابور بقولها : « يله يا ستات » . حينئذ يتم التوجه الى بوابة السجن ، بدلا من التوجه الى باب العنبر . استبعدت السيدات الحوامل من هذه المعركة تحسبا لأى احتمال . كما تم الاتفاق على أن تكون ثريا ادهم هى المتحدثة باسمهن .

ما ان انتهى الطابور ، وحلت لحظة الصفر ، حتى توجهن نحو مبنى الادارة ، الى مأمور السجن مباشرة . صاحت السجانة تسألهن ، الى اين من ذاهبات ، الا انها لم تتلق اية اجابة . رآهن مأمور السجن من نافذة حجرته ، وهن يتقدمن نحوه . خرج مسرعا متسائلا ، ماذا هناك ؟ تصدت ثريا ادهم للمواجهة . « لقد صرح رئيس الجمهورية بانه لا يوجد فى مصر معتقلين أو معتقلات . اننا نطالب بحضور مندوب عن الدولة لمناقشة حقيقة الامر معه . اذ كيف يصدر مثل هذا التصريح ، ونحن مازلنا معتقلات . اننا لن ندخل العنبر حتى يأتى هذا المسئول ، لاجلاء هذا التعارض بين هذا الاعلان وواقع الحال » .

كان طلب مندوب رسمى عن الدولة ، يستهدف الاحتمالين : احتمال تنفيذ الافراج تصديقا لكلام رئيس الجمهورية ، وان لم يكن ذلك صدقا . فمناقشة هذا المسئول فى حقيقة أسباب اعتقالهن والمطالبة بتحسين الاوضاع فى السجن ، وخاصة ضرورة منح المعتقلات الامهات حق زيارة ابنائهن ، كذا السماح للمعتقلات عامة بالصحف والمجلات والكتب والورق والاقلام ، وتحسين نوعية الطعام ، وعدم اغلاق العنبر عليهن ، أى ، بصفة عامة ، تحسين ظروف السجن واوضاع المعتقل .

وحددت ثريا ادهم ، « تلك مطالبنا ، ونحن مصممات على عدم دخول العنبر الا بعد حضور هذا المسئول ورؤية اوضاعنا على الطبيعة . اذ ربما ان شكاوانا لا تصل الى أحد » .

كان مأمور السجن حينذاك هوالرائد حسن الكردى . وكان بشكل عام رجلا انسانا يحاول ان يخفف عنهن اوضاع الاعتقال ، قدر ما يستطيع . قال المأمور لهن ، « ليس هنالك مثل هذا الكلام الذى تقلن . تعقلن وعدن الى العنبر » . اعلنت الرفيقات ان اعتقالهن على هذا النحو ، وطبقا لتصريح الرئيس . لابد وأن يكون من وراء ظهره . وانهن لهذا السبب يتمسكن بضرورة المندوب الرسمى . طلب المأمور منهنى أن يكتبن احتجاجات أو شكايات ، ووعد من جانبه أن يقوم بتوصيلها الى المسئولين ، الا أن الرفيقات اعلن تمسكن بموقفهن ، أعلن التصميم وعدم التراجع .

وأمام ذلك ، وأمام تطور الاوضاع الى هذا المدى ، اتصل مأمور السجن بمدير المنطقة ، العميد عباس قطب . وبدأ الأخير قيادة المعركة . أعلنت حالة الطوارىء القصوى فى السجن وفى المنطقة . وفرض الحصار فى الخارج بقوة من حرس سجن الرجال . أدخلت المسجونات العاديات الى العنابر ، ووقفت السجانات وبعض مسجونات التأبيدة ، من تاجرات المخدرات والقاتلات ، عميلات الادارة خلفهن . كانت هاته النسوة « فتوات » يجدن الضرب والعدوان . وبدا واضحا ان الغرض من استخدامهن هو اظهار أن الامر ، أمر هياج فى السجن بين المسجونات وبعضهن البعض .

فتحت بوابة السجن الرئيسية على مصراعيها . بدأ الجند المسلحين « بالتومى جن » يتقاطرون منها . اصبحت الرفيقات محاصرات من امام ومن خلف . صدرت الاوامر لهن بضرورة العودة الى العنبر والا فستطلق عليهن النيران . اشهرت الاسلحة فى وجوههن . لم يتحركن من اماكنهن . ضحك البعض منهن غير مصدق لما يجرى أمامه ، أو ان الادارة يمكن ان تقوم بهذا العمل الجنونى . اغلق باب السجن الرئيسى . انطلق البروجى يعلن بداية المذبحة .

تقول فاطمة زكى ، « اصبحنا كالسندوتش ، فى معركة غير متكافئة . نحن سياسيات نجيد استخدام اللسان والكلمة . وهاته النسوة يمتلكن خبرة الشجار . كل واحدة منا اصبحت فى مواجهة عشرة منهن ومن السجانات . بدأت المعركة ، نحن نضرب فى الهواء بطريقة عشوائية .

وهن يمسكن الواحدة منا من شعرها ، ثم بقمن بليه فتقع على الأرض ، وتنهال اللكمات والركلات . لم يمض وقت طويل حتى غدت كل المعتقلات على الأرض . انني اتذكر منظر ثريا ادهم جيدا . كانت امامى فرأيت كل ما حدث لها . كانت السجانة تجرها من شعرها ، وهى تنهال على ظهرها ضربا بالعصى . سحلنا على الرمال سحلا رهيبا ، من امام الادارة حتى العنبر » .

وتقول ثريا ادهم ، « ظلت أجزاء من رأسى دون شعر شهور عدة . لقد انتزعت تلك الاجزاء وهم يسحلننى ويجرجرننى فوق الأرض » .

وتقول ثريا شاكر ، « كنا بينهن كالعصافير . امسكت كل ثلاثة او اربعة منهن بواحدة منا ، وانهلن عليها ضربا . وانا فى طريقى الى العنبر ، كان الاعتداء ما يزال مستمرا ، فبدأت فى الهتاف ، تسقط سياسة الكذب والنفاق . أخذنا نهتف جميعا حتى العنبر . فاطمة زكى نالت ضربا شديدا حتى اننا خفنا ان تكون ضلوعها قد كسرت » .

وتقول انتصار خطاب ، « كان الضرب بالشوم . كانت عايدة بدر من أكثر من أصبن . كانت ابنة بلد ، تعرف كيف تتعامل معهن . دخلت المعركة بكل عنفوانها ، ضرب وشد شعر ايضا . كذلك ضربت ثريا أدهم ضربا شديدا ، سحلوها ، وكاد عمودها الفقرى أن ينكسر من كثرة ما ضربت عليه بالعصى والشوم ، كذلك فاطمة زكى . انا لم اضرب . ربما لانى كنت اكبرهن سنا . احتضنتنى احدى السجانات وتظاهرت بضربى » .

وتقول ايفون حبشى ، « نزلت علينا السجانات ، وسجينات المخدرات والقاتلات ، بالاحذية والجلد والخيرزان والخشب . لم ادر بشىء ، الا وانا اطير فى الهواء . امسكت بى اصابع كالحديد . اصبحت فى حالة غيبوبة كاننى احلم بكابوس . حالة من فقدان التوازن وانعدام الوزن . وجدت نفسى ملقاة فى العنبر وشعرى يغطى وجهى . بدأ توافد الزميلات المضروبات . فاطمة زكى كانت رياضية ، قاومت الا انهم كسروا لها حوضها . ثريا ادهم كانت مريضة ومتعبة . ضربت بالعصى وسحلت . ثريا شاكر كانت تهتف فى وسط الحوش ، تسقط سياسة المعتقلات ، تسقط سياسة الظلم والارهاب ، فانهالت اللكمات عليها . كان باب العنبر يفتح لتلقى السجانات والسجينات بواحدة من الزميلات كالكورة . كقالب الطوب . كانت كل الزميلات فى حالة من البهدلة شديدة ، وقد امسكت كل واحدة منهن بشعرها » .

دفعت آخر سجانة بآخر رفيقة الى داخل العنبر • واحست ليلى شعيب بانها لم تأخذ حقها كما يجب . كانت ليلى شعيب صغيرة الجسد ، والسجانة طويلة جدا ، عريضة جدا . رفعت ليلى شعيب نفسها على اطراف اصابعها ، وصفعت السجانة على وجهها وهى تغلق باب العنبر . وللحال اتجهت السجانات وسجينات التابيدة الى ضرب الرفيقات بالرمال من نوافذ العنبر . اهترأت ملابسهن وتمزقت ، فعلقت البعض منهن على « ضرورة الاحتفاظ بهذه الملابس لوضعها يوما ما فى متحف الثورة » .

كانت الرفيقات ، رغم ما هن فيه ، تهتفن • واخذت اسماء البقلى تنشد •

علشان بنحب الشعب بيودونا المعتقلات
من الطور للهاكستيب للقناطر للواحات
علشان باحبك يا بلادى . بروحى ودمى بافادى
فى سبيل الشعب مهما نلاقى من صعوبات

بعد خمس دقائق من اغلاق العنبر ، بدأت قبضات تدق على بابه ، والسجانة تنادى ، « فاطمة زكى ، ثريا ادهم ، لمقابلة مأمور السجن » • كانتا فى حالة يرثى لها ، عاجزتين تماما عن الحركة ، فاحضرت السجانات بطانية لكل واحدة منهما ، وضعوها عليها ، ثم رفعتها اربع سجينات من اركانها الاربعة . وهكذا حملتا الى حجرة المأمور ، حيث اعلنت ثريا ادهم ، انها لن تتكلم معه فى اى شىء ، وتطالب بحضور النيابة فورا لتسجيل ما وقع عليها من اصابات • لقد اعتدت الادارة عليها وهى مريضة ، وهى تحملهم مسئولية كل ما حدث وما يمكن ان يحدث للمعتقلات • ارسلت الادارة بهما الى التأديب باعتبار انهما هما اللتان اعتدتا على ادارة السجن ، معاقبة اياهما بالحبس الانفرادى ، دون وجبة عشاء ، مدة ثلاثة عشر يوما .

وجاءت طبيبة السجن الى التاديب لرؤية الرفيقتين . ورأت ضرورة نقل ثريا ادهم الى مستشفى السجن لسوء حالتها الصحية • الا ان ثريا رفضت ذلك واصرت على بقائها فى التأديب ، حتى تتحمل ادارة السجن مسئولية ما قامت به حتى النهاية • وفى العنبر ، تم تكدير العنبر كله طوال الثلاثة عشر يوما . اوقف طابور الصباح ، ومنعت عنهن وجبة العشاء ، كعقاب جماعى •

فى اليوم الأول للوجود فى التاديب ، جاءت الباشسجانة ، التى كانت تقود المعركة ضد الرفيقات ، الى ثريا ادهم . حاولت استرضائها معتذرة ،

« لقد ضربتك »، لا تؤاخذيني ، وسامحيني » . الا ان ثريا ادهم طلبت منها الخروج من الزنزانة ، « نحن نرفض الحديث معك ٠ ان موقفنا منك وعلاقتنا بك ، سوف تتحدد على اساس الهجوم والاعتداء الذى قمت به » ٠

وبدأت السجينات اللواتى شاركن فى المذبحة ، ابداء التعاطف مع الرفيقات الى اقصى حد ، عندما وجدن انهن لم يتخذن منهن موقفا معاديا . كن يحضرن لهن الشاى واشياء أخرى ٠ وبدات علاقة انسانية تنشأ فيما بينهن ٠

اثناء التكديرة جاءت بعثة للتفتيش على السجن ، الا ان الادارة وضعت الرفيقات فى حجرات خلف السجن ٠ اغلقوا عليهن النوافذ ودقوا شيشها بالمسامير ٠ ظللن يصحن من الداخل الا ان احدا لم يسمعهن . كانت فى تلك البعثة سيزا نبراوى ، وقد جاءت لزيارتهن فيما بعد ، وقدمت لهن بعض الاشياء التى احضرتها معها .

كان حديث رئيس الجمهورية البعيد عن الواقع والحقيقة مفاجئا للرفيقات ، ففرض عليهن معركة مفاجئة ايضا ٠ الا انها كانت تجربة هامة وخطيرة ، حيث وقفن جميعا صفا واحدا يواجهن العدوان الباطش والسحل والقتل المؤكد ٠ وترى ثريا ادهم ان ، « المعركة » من ناحيتنا ، لم تكن معدة اعدادا جيدا . لم نكن قد حددنا بشكل سليم ، ابعادها واحتمالاتها » ٠

وتقول ليلى الشال ، « فى وقت السحل اشتركت مع الزميلات ، رغم ان هذا كان يمكن اعتباره مخالفا لخط الحزب « حدتو » . وبالفعل وجه الى نقد حزبى بهذا الخصوص . ان اشتراكى فى هذه المعركة ، يؤكد ان الطابع "الانسانى ، كان هو الطابع الغالب على العلاقات فيما بيننا » ٠

***

الأمـان :

كانت حماية الورقة والقلم والمخطوطات التى تحمل افكارا أو انتاجا من ابداع الرفيقات معركة دائبة لا تتوقف ٠ الادارة لا تكف عن مهاجمة العنبر تبحث عن أوراق ، اى أوراق . الكلمة هى اخطر الممنوعات ، والفكر هو ابشع المحظورات ٠ لا تكف الادارة عن المحاولة للايقاع ، ولا تكف الرفيقات عن الحماية .

كانت انتصار خطاب هى مسئولة الأمان ٠ وكان توفير مخبأ فى عنبر مكشوف ، يتواجد فيه الجميع ، بغض النظر عن عدم وجود ايـة

شكوك ، فى اية واحدة منهن ، مسألة صعبة ومعقدة للغاية . ولقد تعرضت الرفيقات ، بسبب عملية الأمان والتأمين تلك ، الى مفارقات غريبة . كان المعروف أن التفتيش الروتينى يتم صباحا ، الا انهم قاموا ، ذات مرة ، بالتفتيش ليلا . تقول انتصار خطـاب ، « كانت قد وصـلتنا الدفاعات السياسية التى قدمها الرفاق فى القضية الكبرى . كانت مكتوبة على ورق البفرة . وكنت انا المسئولة عن اخفاء المطبوعات . وضعت الدفاعات كلها فى علبة من علب الفيتامينات المصنوعة من الصفيح . وفجأة سمعت كلمـة تفتيش ، فخبأتها فى صدرى . ودخـــل مأمور السجن ، وكان اســـمه الليثى ، ومعه ملاحظة السجن كى تقوم بالتفتيش الذاتى ، أى المرور على الجسد من الخارج . وبينما هى تفعل ذلك معى سقطت العلبة . فاسرعت آخذها . جريت الى باب العنبر ومنه الى حوش السجن . كنت أجرى والسجانة خلفى والمـأمور يصيح ، وراءها ، وراءها . فتحت العلبـة وانا اجرى . اخذت فى أكل محتوياتها من دفاعات سياسية . كان البعض ســـهل البلع والبعض عسيره . العلبـــة كما رآها المـأمور ، والملاحظة ، علبة ادوية . وانا ابلع ما فيها ، فتصوروا انى اتناول دواء بغية الانتحار . كانت السجانة وهى تجرى خلفى تقول ، لا تخافى ، لن افعل لك شيئا . وهاصت الزميلات . وعندما وجدت انى قد اكلت اغلب اوراق الدفاعات السياسية ، باستثناء القليل عسير المضغ ، عدت الى العنبر وناولتها لليلى شعيب . وللحال القت بها تحت قدمها وهرستها فى الرمال » .

وتقول ايفون حبشى ، « افرج عنى فى ٢٤ يوليو ١٩٦٠ ، ثم اعيد القبض على فى ٢٥ ابريل ١٩٦٢ ، تحت التحقيق ، على ذمة قضية . وضعت فى عنبر آخر غير عنبر المعتقلات . كانت حجرة مارى باباد وبلو ، وهى محكوم عليها بخمس سنوات ، تسبقنى ، وحجرة نوال الحملاوى ، وهى محكوم عليها بعامين ، أمامى . بدأ التفتيش بعد التمام . فتشوا حجرة مارى ثم حجرة نوال ، ثم جاءوا الى حجرتى . وما ان بدأوا التفتيش حتى اصيبت نوال بالاغماء ، فتركوا حجرتى دون ان يتموا تفتيشها . بينما ارفع مرتبة السرير وجدت خطابات وصورا ومنشورا ونقودا . أفاقت نوال الحملاوى ، فأخذت فى سبهم . كنت حائرة بالاشياء التى وجدتها ، اود ان تكف نوال عن السباب حتى لا يعودوا مرة أخرى . كنت احس الدماء ترتفع الى قمة رأسى كلما سمعت وقع اقدام تقترب . كنت افكر اين اخفى هذه الاشياء التى وجدتها . وضعتها فى شراعة الشباك الا اننى سرعان ما قدرت انهم عندما يأتون للتفتيش فى الصباح ، سيكون الشباك اول ما يقع عليه بصرهم . وضعتها بين الشماعة والحائط ، الا ان نفس

التخوف انتابنى · وضعتهم اسفل جردل البول ، الا ان هذا المخبأ شائع معروف · اخيرا احسست ان اعصابى قد ارهقت وتفتت ، فقررت ان الصق النقود وكانت ثلاثة عشر جنيها بالبلاستر فى اسفل قدمى · اما باقى الاشياء ، فقد وضعتها اسفل الوسادة ، وسقطت نائمة · استيقظت فجأة ، وفجأة ايضا تذكرت انه بالامس كانت معى اشياء قمت باخفائها ، الا اننى نسيت تماما اين اخفيتها . اخذت ابحث فى انفعال شديد ؛ فى شراعة الشباك ، بين الشماعة والحائط ، تحت جردل البول ، ولكن عبثا ؛ اذ انى لم اعثر على شىء . رفعت الوسادة فعثرت على ما وضعته تحتها ، أما النقود فقد نسيت مكانها تماما · مضت ساعة وانا ابحث فى عصبية قاتلة · اخيرا قررت ان اجلس فى هدوء ، وان استرجع شريط الامس . كنت اثناء البحث ، والسير فى الحجرة هنا وهناك ، احس بشىء ما فى باطن قدمى . قلت لنفسى ربما اصبت دون ان ادرى ، سوف ارى هذه الاصابة فيما بعد ، بعد عثورى على النقود · عندما جلست استعيد ما حدث ، مددت يدى ، بصورة تلقائية ، الى باطن قدمى · هنالك كانت النقود تحت البلاستر . فى الصباح الباكر هربت كل ما معى الى عنبر المعتقلات » ·

وحدث ان افرج عن دفعة من الرفيقات ، من انتصار خطاب ؛ ليلى شعيب ، ليلى الشال ، ليلى عبد الحكيم واسماء البقلى · وقامت انتصار خطاب قبل الافراج عنها بتسليم المخبأ الحزبى الى انجى افلاطون · وهاجمت المباحث العامة العنبر فى مساء هذا الافراج . كانت تستهدف اثارة الشك بين هؤلاء اللواتى افرج عنهن . تقول انتصار خطاب ، « كانوا يودون بذلك ان يوقعوا بيننا وبين الزميلات فى المعتقل ، وكاننا نحن الذين افشينا سر الامان . الا انهم لم يعثروا على المخبأ ابدا · فقد كان معدا اعدادا جيدا » .

افرج عن هذه الدفعة فى سبتمبر عام ١٩٦٢ · وحل ، بالعنبر بعد خروجهن ، مزيج من الفرحة والكآبة . الفرحة بالافراج والكآبة لخروج خمس رفيقات ، فقط ، بعد ثلاث سنوات ونصف من الاعتقال ، وليس هنالك من سبب خاص يجعلهن يخرجن قبل الباقيات · كانت الدفعة الأولى قد خرجت فى يوليو ١٩٦٠ ، مما طرح انطباعا باحتمال خروج دفعة كل عامين · قررت الرفيقات اقامة حفل سمر ، احتفالا بالافراج عن هذه الدفعة ، ورفعا لمعنويات الباقيات فى المعتقل · تم شراء اللوازم من مطبخ السجن ، كما تم تهريب الرفيقات المحكوم عليهن بالسجن ، والمقيمات فى مستشفى السجن ، وذلك بالاتفاق مع السجانة النوبطشية لقضاء

لليلة مع الرفيقات المعتقلات فى عنبرهن . كما تم تهريب « وابور جاز » - وهو من الممنوعات - الى العنبر ، لزوم أعمال الطبخ والاعداد ٠

كانت الليلة هى الموعد الذى تكتب فيه بعض الرفيقات خطاباتهن الى من لهن من اخوة أو ازواج أو ذوى قربى من الرجال المعتقلين أو السجناء بمنفى المحاريق بالواحات الخارجة ٠ ورأت الرفيقات ان ينتهين من الخطابات قبل ان يبدأ الحفل . وهكذا جلسن يكتبن ٠

فى حوالى التاسعة فتح باب العنبر ، وفى ظلمة المدخل ظهر وجه السجانة ، يحمل تعبيرات مأساوية . قالت لها بعض الرفيقات ، من باب المداعبة ، هل هو افراج آخر ؟ فاشاحت بوجهها ، كانما تقول ، ان العكس صحيح . فجأة دفعت بها من الظلام يد مجهولة ، ثم اندفع الى العنبر زحام من الرجال ، انقضوا على العنبر فى أول حدث من نوعه فى تاريخ سجن النساء ٠

كانت المسجونات العاديات قد لاحظن اعدادا كبيرة من الرجال تتسلل داخل السجن ، وهذا أمر ممنوع تماما . خيل اليهن انها « كبسة » موجهة ضدهن ، فانشغلت كل منهن فى حرق ما لديها من ممنوعات : نقود ، مخدرات ، ارز ، اكل ، أى نوع من أنواع الممنوعات وهى كثيرة ٠ كانت خسارتهن جسيمة ، خاصة بعد ان اكتشفن ان الحملة التى اطاحت بكل مخدراتهن ، انما هى حملة موجهة ، فقط ، الى عنبر الشيوعيات ٠

اندفع الى داخل العنبر عشرون ، واحاط به ثلاثون ٠ فى ثوان معدودة كان العنبر قد امتلأ بهم ٠ فى ثوان ، ايضا ، كانوا قد قفزوا على السرر ، واحتلوها ، يقلبونها ، يفتشونها ، يثيرون كل فوضى ممكنة فى العنبر كله . كانت ثريا ادهم تكتب خطابا للسيدة حكمت ابو زيد ، وزيرة الشئون الاجتماعية ، والتى كانت ، عام ١٩٥٨ ، تعمل مع البعض منهن لتكوين « الاتحاد النسائى القومى » ٠ ٠ فابتلعت ثريا ادهم خطابها . وجدوا ممنوعات عادية ، كالشاى ، والاقلام ، واوراق بيضاء ، وبعض الخطابات ، الا انهم لم يعثروا على المخبأ الحزبى ٠ وكان مليئا بالوثائق . تقول انجى افلاطون ، « لو كانوا عثروا على المخبأ الحزبى ، لاثار ذلك شكا ، دون شك ، فيمن افرج عنهن » . اثار ضباط الحملة الليلية مسألة ضبطهم الممنوعات لديهم . فاعلنت الرفيقات انهن سيستخدمن كل ما يسمونه ، هم ، بالممنوعات ٠ ثم بدأن هجوما شديدا ضد حرمانهن من الزيارة ، والجرائد ، وطرحن كل مطالبهن . كان مع الحملة بعض السيدات ٠ وكان

ذلك يعنى ان هنالك نية لتفتيش الرفيقات ، تفتيشا ذاتيا . فاعلن انهن لن يقبلن بهذا التفتيش ، وسيلجأن الى مقاومته ، فتراجع المسئولون عن هذه الخطوة .

وفى اليوم التالى ارسلت الرفيقات الى سجن القناطر — رجالا وكل السجون التى بها رفاقا معتقلين أو مسجونين ، تفصيل ما حدث . كما قمن بارسال تلغرافات الى المسئولين فى الدولة بان حرمة المعتقل والسيدات المعتقلات قد انتهكت .

تقول انجى افلاطون ، « كان تحليلنا للاسباب الكامنة وراء هذه الكبسة ، ان المباحث العامة تود الايقاع بيننا وبين زميلاتنا المفرج عنهن ، كما انها تشك فى ان سجن النساء يشكل حلقة وصل بين مختلف السجون والمعتقلات ، بل انها تشك فى ادارة السجن ذاتها ، فقامت بهذا العمل الذى لم يحدث له مثيل ، من قبل » .

* * *

٢ — مواجهة الظروف الحياتية والمعيشية « الحياة العامة » :

الحياة العامة ، هى الحياة المشتركة داخل العنبر ، وما تقتضيه هذه الحياة من علاقات بالادارة . ويمكن تقسيم هذا العنوان العام الى مفردات ثلاث رئيسية :

(أ) الاوضاع المشتركة فى العنبر ، وتدخل فيها ظروف الاقامة والتغذية ؛

(ب) الجوانب الثقافية ؛

(ج) والنواحى الترفيهية .

أ — الاوضاع المشتركة فى العنبر :

كان على الرفيقات المعتقلات ان يواجهن الظروف المفروضة عليهن دون الخضوع لها . فالغذاء الردىء يجب تحسينه . والطعام المحدود يجب توزيعه بعدالة حاسمة . والحرمان من القراءة والكتابة ، يجب الاستعاضة عنه بكل ما لدى الرفيقات من خبرات وقدرات . والحرمان العاطفى ، يجب تعويضه بالأعمال الترفيهية . تقول انتصار خطاب ، « كان علينا ان تخضع الاوضاع القائمة لارادتنا ، ولا ننساق للخضوع لها » .

ونجحت الرفيقات فى اقامة حياة عامة واحدة للجميع بغض النظر عن الاصول الحزبية أو عدمها . وهذا النجاح مسألة يلزم التنويه بها

وابرازها ، حيث نجحت الرفيقات فيما لم ينجح فيه الرفاق فى عنابية السجون والمعتقلات • اثنتان فقط لم تشتركا فى الحياة العامة ، هما اسماء حليم وسميرة الصاوى • تقول انجى افلاطون ، « لم نكن أى من اسماء البقلى أو سميرة الصاوى عضوة فى أى تنظيم حزبى • واعتقد ان اعتقال الأولى ، كان انتقاما شخصيا ، لأنها كانت تقول ، فى الماضى ، اننا بعد انتصار الثورة ، سوف نعلق حسن المصيلحى فى ميدان العتبة • لم يكن لها منذ فترة طويلة اى نشاط سياسى • أما سميرة الصاوى فقد اعتقلت لنشاطها بين العائلات ، حيث كان زوجها أحمد طه ، مسجونا بالواحات » •

تقول فاطمة زكى ، « كان مسموحا لنا نحن المعتقلات المصريات بالتعامل مع كانتين السجن فى حدود اثنين من الجنيهات فقط للواحدة منا خلال الشهر الواحد • فى حين كان مسموحا للجاسوسة الاسرائيلية « مارسيل » بالتعامل حتى عشرة جنيهات • كانت نقود الامانات التى لأى واحدة من الزميلات ، تقسم الى قسمين ، نصف للحياة العامة ، اى لكل العنبر ، ونصف للحياة الخاصة أى لصاحبة الأمانة • ومن لا تأتيها نقود من الخارج ، تنال نصيبها بالتساوى فى الحياة العامة ، كما كانت تأخذ جزءا من الحياة الخاصة ، تتصرف فيه بالطريقة التى تراها » •

وتقول ثريا ادهم ، « كانت الحياة الخاصة موجودة للجميع ايضا ، لاستخدامها فى الاتصال بالأهل تليفونيا ، وارسال خطابات لهم ، كذلك فى شراء حاجيات وهدايا رمزية ترسل للاهل ايضا ، كذلك شراء أى شىء غير موجود فى الحياة العامة كالبسكويت ، مثلا • وهذه واحدة من النقاط الهامة التى لم تكن موجودة فى سجن الرجال » •

وتقول انتصار خطاب ، « لم تكن ، للكثيرات منا ، اية نقود كامانات على الكانتين • كانت عائلتى معادية ، تماما ، للشيوعية • وبذا لم يرسلوا لى شيئا • وان حدث وجاءنى اثنان من الجنيهات ، فان ذلك يعنى فرجا عظيما • كنت انا وعايدة وزينب وسيدة ، لا تسمح ظروفنا المالية والعائلية بوصول امانات لنا ، وكذلك بعض الزميلات الاخريات • كانت تصل امانات لفاطمة زكى وثريا ادهم وانجى افلاطون وغيرهن • والحقيقة ان الزميلات اللواتى كانت تصل اليهن امانات ، قد تحملن باقى الزميلات طوال فترة الاعتقال • كانت المصادرة الفعلية تكاد تصل الى ١٠٠٪ من الدخل • كانت الظروف المعيشية صعبة للغاية ، كنا نعانى حرمانا شديدا • كنا نقسم كل شىء يصل الينا الى واحد وعشرين قطعة ، هى عددنا • وحتى

الموجودات منا فى المستشفى ، بعيدا عن العنبر ، يجب عمل حسابهن وارسال نصيبهن اليهن مهما كان محدودا · وكانت سعاد الطويل ، هى أخصائية التقسيم . تستطيع تقسيم اى شىء الى هذا العدد · كنا واحدة وعشرين فى العنبر ، ونوال الحلاوى وزينات الصباغ فى المستشفى وكذلك وداد مترى » .

وتقول فاطمة زكى ، « كان ان جاءنا باكو شوكلاته ، مثلا ، نقسمه بالتساوى على جميعنا ومعنا سجانة العنبر ايضا . كانت القطع صغيرة جدا . وعندما كنت اعطى السجانة نصيبها ، كانت تضحك وتقول ، انا اعرف ذلك ، فتلك قسمة الشيوعيين · أى ان الكل يأخذ بالتساوى مهما كانت الكمية . كانت هذه السجانة مشهورة بقسوتها وشدتها · وكان المقصود من وضعها علينا ، ارهابنا والتضييق علينا ، الا انها ، نتيجة لسلوكنا معها ، وعمق حبنا لبلدنا ، غدت متفاهمة معنا للغاية ، فقامت الادارة باستبدالها » .

لم تحدد للحياة العامة مندوبة ثابتة للرفيقات عند الادارة . كان لديهن من تسمى بمندوبة اليوم · واحدة من الرفيقات يتم تحديدها بالتناوب · وكانت مسئوليتها تتحدد فى استلام الطعام من المتعهد ، واحضار ما يحتجن اليه من كانتين السجن . كما كانت هنالك رفيقة أخرى مسئولة عن نوبطشية نظافة العنبر ، وتلك مهمة كانت تقوم بها المسجونات العاديات ، كذلك ملأ جردل المياه وتفريغ جردل البول ، واعداد مياه ساخنة للاستحمام .

كان الطعام الذى يحضره متعهد السجن رديئا وسيئا للغاية · تقول انتصار خطاب ، « كان على ان اقوم بطبخ هذا الطعام من جديد . فالارز مثلا كانت به فضلات الفئران · يجب تنقيته وغسله جيدا واعادة طهيه بقطعة من الزبد أو قليل من الزيت نشتريه خلسة· امتنعنا عن اكل الحلاوة الطحينية ، فقد كنا نستخدمها كوقود ، وذلك قبل ان نستخدم زيت المطبخ فى اشعال « التوتو » » ·

وتقول انجى افلاطون ، « لم يكن الاكل الذى يحضره المتعهد سيئا فقط ، بل كان غير كاف ايضا . كان دكاترة سجن النساء يساعدوننا ، بأن يمنحوننا ، كعلاج ، أصنافا من المواد الغذائية · كانت هذه المواد تصرف لنا بالتناوب واحدة بعد الأخرى . وكان اكل المتعهد ومخصصات العلاج ، توزع على الزميلات المعتقلات ، والزميلات المسجونات ، والسجانة النوبطشية ، والسجينة النوبطشية · كنت ارى اننا يجب أن نأكل كل شىء حتى نستطيع

المقاومة . في أحد المرات كنا نأكل سبانخا . اثناء الاكل وجدت دودة، فاخفيتها . بعد الاكل قلت للزميلات ، ان السبانخ كانت جيدة ، الا اننى وجدت فيها دودة . اصاب القرف بعض الزميلات . سألتنى واحدة منهن ، لماذا اخفيتها ؟ قلت ، حتى نأكل السبانخ . كان والدى عالم حشرات ، ومنه عرفت أن الدودة لا تأكل غير الخضروات ، وبالتالى لا ضرر منها . كان علينا ان نتحمل ، وأن نصمد ، وأن نقاوم » .

الحرمان فى السجن لا يعرفه ، ابدا ، الا من كابده وعاناه . قد تبدو بعض الحاجيات تافهة جدا للناظر من الخارج . لكنها ، لمن يعيش بين الجدران ، مذاقا يشتهى أو ذكرى ترتبط بعادات انقطعت وتقطعت على بوابة السجن . قد تكون رائحة ما ، أو طعما ما ، أو نوعا ما من المأكولات ، اتصالا لما انقطع . ربما خيط واه سرعان ما يعاود الانقطاع ، الا أن الومضة التى يشعلها فى ظلام العزلة تظل زادا ، يمسك المسجون به ، يقتاته ، كذكرى عذبة ، تبعث الحنين والحنان فى جنباته .

تقول ايفون حبشى ، « كانت تلك أول مرة اسجن فيها . لم اكن اعرف كيف تتحول نقود الامانات الى الكانتين . كانت هنالك ضجة فى العنبر . الكل تطالبن بشراء « التوست » . لم اكن اعرف ما هو « التوست » ، فجلست اتأمل ما يجرى امامى ، المسئولة عن الكانتين تعلن أن « التوست » ، سوف يصل الى الكانتين ، قريبا . مر اسبوع ، عشرة ايام ، شهر و « التوست » لم يحضر . والكل تتساءلن ، متى يجىء « التوست » . حتى حدث فى أحد الايام ان عادت ليلى شعيب ، تعلن فى حماس شديد ، « وصل التوست » . وتناولت فى همة شنطة قماشية ، واسرعت الى الكانتين . هاص الكل وزاط وكأن نبأ الافراج قد جاء . عادت ليلى شعيب تحمل الشنطة القماشية مليئة « بالتوست » . ما ان ذاع الخبر حتى هرعت كل الزميلات ، من أى مكان هن فيه ، الى العنبر . قالت ليلى شعيب ، « التوست » على المنضدة . كنت اود ان اعرف ماهية هذا الشىء ، الذى اثار كل هذا الحماس . اود ان اعرف دون ان اكشف عن جهلى ، حتى لا يضحكن منى . كنت اقول لنفسى ، أنت لم ترين فى بلدك غير « الجاتوة » ، وهنالك يسمونه « بسطة » . لابد ان الامر اعظم من ذلك واخطر . اقتربت مثلهن من المنضدة ، فلم ار غير خبز مقدد . وانفجر كل التهييب الذى فى اعماقى . قلت لهن ، شهر باكمله ، ولا حديث لكن غير هذا العيش المحمص . عليكن اللعنة . فى بلدنا نضع مثل هذا الخبز للدجاج ، بعد نقعه فى الماء . ثم حكيت لهن عن الصراع الذى عانيته طوال هذه الفترة بسبب جهلى بهذا « التوست » ، الذى كنت اتصور انه يضارع ما لم تره عين أو تسمع به اذن . ومن يومها اسميت ليلى شعيب ، ليلى توست » .



لم تكن الظروف المعيشية تقف ، فقط ، عند حد الطعام ، كانت هنالك الاوضاع داخل العنبر المغلق طوال اليوم ، باستثناء التوجه الى دورة المياه صباحا وعصرا وطابور الصباح • كان الاغلاق يصل الى ثلاثة وعشرين ساعة فى اليوم . وكان لابد من تغيير تلك الظروف المفروضة عليهن •

تقول فاطمة زكى ، « كانت خطوتنا الأولى هى ان نحارب حتى نحصل على بطانية اضافية ؛ نصنع منها ساترا حول جردل البول ؛ وقد نجحنا فى ذلك ، ثم تمكنا بعد ذلك من احضار منضدة نأكل عليها داخل العنبر . ثم دكتين خشبيتين للجلوس عليهما . ثم دولاب للخزين والملابس معا • ثم احضرنا من المستشفى شاشا ، وصنعنا منه ستائرا وضعناها فوق النوافذ . وحصلنا على مراتب للمريضات منا . كنا نشترى المرتبة ، من السجينات العاديات ، بوجبة أكل من طعام المتعهد أو علبة سجائر • وكانت السجينات تجمعن زهور « ذقن الباشا » الموجودة فى السجن ويحشونها فى كيس . ليصنعن منه حشية أو وسادة • وبذا اصبح لدينا جميعا حشايا ووسائد • اما الملاءات فقد حصلنا عليها من السجن أو قمنا بتهريبها من منازلنا • ثم احضرنا مرآة • كل ذلك تم على مدة زمنية تكاد تصل الى اربع سنوات . وبذا استطعنا توفير بعض الضروريات •

« القلم قيمة كبيرة ، بالداخل ، لكتابة رأى ، خطاب ، عمل أدبى ، أى شيء • انه جوهرى بالنسبة لنا • ولذا كان لابد من الحصول عليه بأى ثمن . اهتدينا الى طريقة نحصل بها على الاقلام من مأمور السجن نفسه . كنا نذهب اليه ، ثلاثة من المعتقلات ، واثناء الحديث معه ، تكون واحدة منا قد استطاعت « تطفيق » القلم من أمامه .

« ثم نجحنا فى تهريب راديو ترانسستور الى داخل المعتقل • كنا نسمع عنه ونراه لأول مرة فى حياتنا . وكان لتهريب هذا الجهاز الجديد العجيب قصة . لقد تعهدت واحدة منا على أن ترسل تطلبه من اسرتها • واتفقنا على ان تقوم عائلتها بزيارة مسجونة عادية ، حيث يمكن ادخال الجهاز ، عن طريقها ، بوضعه داخل البطة . وعلى باب السجن دخل الاكل مع الزيارة • وكان ابن زميلتنا ، الصبى الصغير ، مع الزائرين • وما أن رأى الباشسجانة حتى قال لها ، « يا تانت ، الراديو الصغير فى البطة » . كان ذلك عند البوابة • وكان الطعام وفيه البطة قد وصل الينا فى العنبر • اسرعنا نفتح البطة الا اننا لم نجد داخلها شيئا • واسرعت الباشسجانة الى العنبر كى تتأكد مما قاله الطفل • الا اننا عرضنا عليها البطة لتراها ، واقسمنا لها ، محقين ، اغلظ الايمان ، بان شيئا من ذلك لم يصل الينا . كان من حظنا أن

الاهالى ، وهم قادمين للزيارة ، تراجعوا عن فكرة وضع الراديو فى البطة ، وسلموه لاحد المسجونات النوبطشيات عند البوابة ، وهكذا وصل الينا ، فيما بعد . وكاد هذا الصبى ببراءته ، وتصوره ان كل امرأة هى « خالة » ، وانه لا يمكن لامراة ان تكون سجانة امه أو قيدا عليها ، ان يفضح كل شىء .

« وكانت علاقتنا بالسجانة النوبطشية على عنبرنا ، حسنة . فوصلنا معها الى اتفاق ، ان تحتفظ به لنا معها ، خشية العثور عليه معنا ، مما يعرضها للعقوبة . كنا نسلمه لها اثناء النهار ، وتسلمه هى لنا اثناء الليل . كان راديو السجن يذيع الاغانى والاخبار ثم يغلق فى ساعة مبكرة . واحيانا كانت تمتد الاذاعة ، ان كانت هنالك سهرة ، الا ان ذلك كان يتوقف على الضابط النوبطشى . ولذا كان مذياعنا الخاص ، يحقق لنا قضاء سهرة حوله . كنا حينذاك ، نعد العشاء ، ونطفىء نور العنبر ، حتى نعيش كل منا انفعالاتها براحتها . لم اكن ، قبل الاعتقال ، احب ، على الاطلاق ، سماع ام كلثوم ، الا ان السجن جعلنى اعيش معها كل نغمة ، كل كلمة وكل همسة .

« كانت علاقتنا بالمسجونات العاديات ، عموما طيبة ، وأحيانا طيبة للغاية . كن يحضرن لنا ما نشاء من اشياء ، بل وتخفين لنا الممنوعات لحين الحاجة اليها . كن يخفين لنا الاشغال اليدوية التى نصنعها ، اذ كانت الادارة تمنع عنا الابر وخيوط الاشغال اليدوية . كن يأخذنها منا فى الصباح . ويعدنها لنا فى المساء . كما كن يأخذن الكتب من مكتبة السجن باسمائهن ويحضرن هذه الكتب لنا ، لنقرأها خفية » .

تقول انجى افلاطون ، « من الطريف انه كان بالسجن مكتبة ، والمسجونات لا يقرأن . كنا نستأجر منهن الكتاب بنصف علبة من السجائر ، وقد وجدت ان عددا كبيرا من هذه الكتب ، مكتوب عليه محمد محمود ابو العلا ، وهو اسم زوجى الذى كان سجينا فى سجن القناطر ـ رجال ، وكنت انا التى تحضر له هذه الكتب حينذاك » .



ب ـ الجوانب الثقافية :

الكثرة من المعتقلات شابات . والثقافة فى السجن مسألة حيوية للغاية ، فأمام العزلة المتعمدة ، والمقصود بها تحويل السجينة السياسية الى سجينة عادية ، بتفريغها مع الوقت والزمن ، لابد من برامج ثقافية . وبدأت كل قادرة تعطى ما عندها فى صورة محاضرات : فاطمة زكى فى

العلوم ، اسماء البقلى فى التاريخ ، ثريا ادهم فى اللغة ، جنيفيف سيداروس انجليزى ، انجى افلاطون فرنسى ، كما كانت هنالك دروس تقوية فى اللغة العربية وهكذا • محاضرات الجغرافيا اشتركت فيها غالبية الرفيقات • بدأت المحاضرات بالقارة الافريقية • كان على كل رفيقة ، على دراية بفرع من المعرفة ، ان تقدم بلدا أو اثنين أو ثلاثة ، طبقا لما تجيده من معلومات . كما استطاعت الرفيقات الحصول على كتاب يحكى عن تاريخ الحزب الشيوعى البلغارى ، كان الكتاب باللغة الانجليزية ، فقامت جنيفيف سيداروس بعمليتى الترجمة والعرض •

ولم تقف الجوانب الثقافية على المحاضرات أو دروس اللغات ، وانما امتدت ايضا الى اعداد مجلة مسموعة ، على غرار مجلة الهواء • وكانت انجى افلاطون واسماء البقلى هما المسئولتان عن هذه المجلة . كانت مقدمة المجلة تقول ، « انها تسمع ولا تقرأ • تستمر الى ما لا نهاية ، حيث اننا لا ندرى متى تتوقف » • كانت المجلة تشتمل على برنامج اطلق عليه اسم « بساط الريح » • وكانت كل رفيقة تروى فيه ، صورة من الحياة عاشتها . قدمت فيه اسماء البقلى ، فترة هروب زوجها ، اسعد حليم ، الى باريس ، وكانت هى معه . تطورت المجلة فاصبح لها غلاف • كان على واحدة من الرفيقات ان تقوم بتمثيل صورة الغلاف • وعند تنفيذ أول غلاف ، ضحكت الرفيقات من رفيقتهن التى جسدت الغلاف • وكانت تلك هى المرة الأولى والأخيرة لصفحة الغلاف المجسدة .

ومن ابرز الاعمال الثقافية ــ الفنية فى سجن القناطر ــ نساء ، لوحات الفنانة المعتقلة انجى افلاطون • احست ، انجى بعد شهرين أو ثلاثة من اعتقالها ، بانه يلزم لها ان تمارس فنها . كانت على قناعة بان الحبسة طويلة ، وان السجن بالنسبة للفنان ، فرصة عمر ليسجل أو يعبر عن احاسيس يمكن ان تخرج الكثير من اعماقه •

كان مأمور السجن ، حينذاك ، حسن الكردى ، فحاولت اقناعه بان يسمح لها بان ترسم • وكانت ، وهى هاربة ، قد حصلت على الجائزة الأولى فى مسابقة وزارة الثقافة والاعلام ، وكان ذلك تعزيزا لمكانتها . واخبرها حسن الكردى ان الرسم ممنوع طبقا لتعليمات المباحث العامة • فعرضت عليه أن ترسم لصالح السجن • أى تقوم هى برسم اللوحات ، ثم تسلمها للادارة لتبيعها لحساب السجن • ووافق المأمور على ذلك • الا انه عندما رأى رسومها ــ فيما بعد ــ قال ، انها كئيبة للغاية ، وان احدا لن يشتريها . كان ، فى الحقيقة ، خائفا . فاللوحات تصور

السجن ، وهو يريد منها ان ترسم الطبيعة . عرضت عليه انجى ، باسم الزميلات ، ان يقمن هن بشرائها • وهذا ما حدث بالفعل ، حيث تراوح ثمن اللوحة ما بين جنيهين وثلاثة جنيهات . في تلك الاثناء ، اتصلت انجى بشقيقتها ، كى تحصل لها على تصريح رسمى بالرسم . وبالفعل قامت الشقيقة بجهد خارق تلغرافى وحركى ، حتى حصلت لها على التصريح اللازم ، شريطة ان تحضر المواد اللازمة للرسم على نفقتها ، عن طريق ادارة السجن • كما ترسل اللوحات الى مصلحة السجون ، فالمباحث العامة ، للتصريح بخروجها خارج السجن .

وفى احد الايام جاء واحد من كبار ضباط مصلحة السجون للمرور على سجن ـ النساء • ورأى لوحات انجى افلاطون ، فسألها ، لماذا! لا ترسم الحياة فى السجن ؟ فقالت ، ان السيد المأمور يخشى من مثل هذه الرسومات • وللحال قال الضابط ذو الرتبة الكبيرة لمأمور السجن ، ان هذه فرصة لا تعوض ، فوجود فنانة مثل انجى افلاطون فى سجنه أمر لا يتكرر ، وعليه ان يدعها ترسم ما تشاء . وللحال ، ايضا ، سمح لها حسن الكردى بذلك ، فرسمت الطابور والمغسلة والعنابر • بدأت تحكى خطوطها وتسجل مأساة سجينات سجن القناطر ـ نساء •

ثم جاء مدير المنطقة كلها ، عباس قطب ، لزيارة السجن • واعجب باعمال انجى افلاطون ، فسمح لها بأن ترسم فى حوش السجن . وادى ذلك الى فتح باب عنبر المعتقلات طوال الوقت منذ الصباح حتى التمام . ولم يقف حد اعجاب عباس قطب بلوحاتها عند السماح لها بالخروج الى حوش السجن ، بل امتد هذا الاعجاب الى أخذ ما يعجبه من لوحاتها . وكان معنى ذلك حرمانها من بعض اهم لوحاتها • فان امتنعت عن اعطائه ما يريد ، ادخلها العنبر واغلق الباب • وهنا كانت تتعرض انجى افلاطون ، لضغط الزميلات ، حتى تتنازل ليعاد فتح باب العنبر . وعباس قطب هو الذى سمح لها ايضا بالرسم فى عنبر الغسيل ، وهو اشبه بورشة عالية يمكن عند الصعود فوقها رؤية المراكب السابحة فى النيل خارج السجن • كانت الاجزاء العلوية من الاشرعة وفوقها الرجال يشدونها ، تبدو فى لوحة الطبيعة ، وكانها تختال داخل اسوار السجن • المنظر كله حركة ، والفنانة مقيدة • كانت الطبيعة الساحرة السائرة ، فى ريشة الفنانة الحبيسة ، قيمة جمالية وانسانية بلا حدود •

حلت مشكلتى التصريح الرسمى بالرسم وحرية الحركة للفنانة المعتقلة . وطفت للسطح مشكلة ارسال لوحاتها الى الخارج ، الى منزلها • كانت الدفعة الأولى لوحات ثلاثة ، مرت من مصلحة السجون والمباحث

العامة ، حتى وصلت الى مستقرها ، فى دارها • وكانت الدفعة الثانية احدى عشرة لوحة ، صادرتها المباحث كلها ، وارسلت الى ادارة السجن خطابا مختصرا ، بان المباحث سوف تحتفظ بهذه اللوحات لاسباب امنية • تقول انجى افلاطون ، « بعد خروجى من المعتقل ، لم احاول استرداد هذه اللوحات ، حتى لا ادخل باب المباحث العامة اسأل عنها • كان بها لوحة هامة ، « بورتريه » ، لواحدة محكوم عليها بالاعدام ، وقد نفذ الحكم فيها ، بالفعل ، فيما بعد . اصابنى الرعب بعد ذلك ، وغدا من الضرورى أن الجأ الى تهريب اللوحات بعيدا عن طريق المباحث العامة » .

كانت عملية تهريب اللوحات عملية معقدة للغاية ، مصحوبة بكل المخاطر ، فهى ليست خطابا أو جريدة ، أو أى شىء من هذا القبيل . وكان سقوط لوحة لا يعنى ضياعها فقط ، وانما يعنى ايضا حرمانها من حق الرسم • كانت تهرب اللوحات ، واحدة بعد الأخرى ، مع السجانة • وتظل تعانى القلق والرعب حتى يهل الصباح ، وتطمئن الى سلامة وصولها • تقول انجى افلاطون ، « كان الرسم ، بالنسبة لى ، هاما للغاية ، فنيا ومعنويا . كانت هذه الفترة ، من الناحية الفنية ، فترة نضوجى الفنى والانسانى • انا فى حياتى الطبيعية ارسم الشعب والفلاحين • انهم ، فى اعتقادى ، الحياة الحقيقية • وكان السجن بالنسبة لى قرية صغيرة ، مقفولة . بؤرة بها كل عيوب المجتمع • فى السجن ، حيث الوقت لا ينتهى ، لم يكن لدى وقت • كنت باستمرار مشغولة بهذا العالم امامى • كنت احس وكانى قد منحت تفرغا للرسم ، عندى الوقت والتركيز . كنت اود ان اعبر ، قدر المستطاع ، عن هذا الوضع وهذه المأساة فى السجن .

« كنت فى فترة مشمئزة من المسجونات بسبب فظاظة الفاظهن . كانت هذه الفترة ، فترة تمصير لى • فلجأت الى الطبيعة ، من وراء القضبان ، ارسم الشجر • كنت ارسم نفس الشجرة ، الواقفة الى جانب سور السجن ، خلال الفصول الاربعة • رسمت وردة « بنت » القنصل ، من وراء الاسلاك ، وغروب الشمس من خلف القضبان ، وهكذا » .

وجاء الى سجن النساء مأمور جديد • كان اسمه عبد القادر فهمى ، كان متشددا للغاية • مر السجن فى زمنه بأسوأ فتراته • كان يأتى ، وانجى ترسم ، ليتفرج • هو لا يأخذ لنفسه شيئا ، لكنه يراقب ، ويراقب بدقة . يطبق نظام السجن بصورة حادة • احست انجى افلاطون بالخوف • فهى ان هربت واحدة من لوحاتها ، فان هذا المحقق الصارم ، لابد وان

يكتشف غياب هذه اللوحة أو تلك . كان دائب السؤال . فاخذت فى اعداد نسخة من كل لوحة ترسمها . تهرب الاصل وتحتفظ بالنسخة . تقول انجى افلاطون ، « اصبحت اقلد نفسى . وكان ذلك يضايقنى اشـــد الضيق » .

وجاء عباس قطب لزيارة السجن . ووجدها ترسم صورة صبية ، هى ابنة واحـدة من السـجينات ، وقد امسكت برتقـالة ، وجاءتهـا الباشسجانة ، بعد الزيارة ، تطلب الصورة ، فقد ارادها عباس قطب كالعادة . الا ان انجى رفضت . والحت عليهـا الزميلات ان تقبـل ، والا تعرضن لغضبه ، وكدرهن . واصر عباس قطب على أخذ الصورة .

كانت هذه الطفلة ابنة واحدة من تاجرات المخدرات ، محكوم عليها بربع قـرن من الزمـان . دخلت الطفلة عنبر الرفيقـات المعتقلات ، فى الصباح ، فاعطينها برتقالة . واخذت الطفلة فى اكلهـا . كانت انجى تراقبها ، فتأثرت وانفعلت بهذا المنظر امامها . وللحال بدأت فى رسمها ، وخرجت اللوحة تنطق بالاحساس المتدفق الذى عانته وعاشته . كانت تحس بها جزءا من كيانها .

تقول ثريا ادهم ، « اوقعنا اصرار العميد عباس قطب ، على أخـذ الصورة ، فى مشكلة . حاولنا جميعـا الاشتراك فى حلهـا . ووصلنا الى ضرورة احتفاظ انجى بهذه الصورة العزيزة عليها ، ذات القيمة الانسانية والفنية العالية ، على أن تقوم انجى برسـم نسخة منها تعطيها لمدير المنطقة ، حتى لا يتشبث بموقفه ويحرمها من الرسم » .

وتقول انجى افلاطون ، « الفنان دائما لا يصنع نسخا لاعماله ، ولذا كنت مغتاظة من نفسى ، ومن الدنيا كلها . وبالفعل اعددت النسخة ، وسلمتها للباشسجانة عناياته ، وقلت لها ، هذه نسخة من الصورة الاصلية . ذهبت اليه وعادت تطلب الأصل حتى يراه . اعجبته النسخة فاخذها . الا ان السجانة عادت بعد اسبوعين ومعها النسخة . قالت ، أن عباس بيه يشكرك ولا يريدها ، واستفزنى هذا الامر كثيرا . بعـد العذاب ولا يريد ، سيادته ، اللوحة » .

تقول ثريا ادهم ، « أخذ مدير المنطقة اللوحة النسخة ، بعد ان قدر ثمنها بجنيه واحد لا غير . الا أنه اعادها لانها لا تصلح . انها ليست فى مسـاحة برواز لديه . وطلب منها ان ترسـم له لوحـة أخـرى ، نغطى

مساحتها مساحة بروازه الفارغ . وكانت تلك فرصة سعيدة لى ، فقد أخذت اللوحة المرفوضة ، من سيادته ، ودفعت الجنيه الواحد الذى قدره لنفسه » .

* * *

٤ ـ النواحى الترفيهية :

الأعمال الترفيهية بين المعتقلات أمر ضرورى . اذ كيف يمكن كسر تلك الاسوار والقضبان ، وتوفير لحظات تخرج فيها المعتقلات ، من ملل الايام التى تتكرر ، وقتامة العزلة التى يمكن لمن لا يحتويها ان تجهز عليها .

تقول فاطمة زكى ، « كنا ننتهز اية فرصة ، عيد ميلاد اية معتقلة منا ، عيلا ميلاد ابنها أو زوجها أو خطيبها ، لنعمل حفلة ترفيهية : نرتدى فيها الجيد من ملابسنا ، ونعد انفسنا كاننا فى الخارج تماما » .

وتقول ايفون حبشى ، « كنا نعد برامج ترفيهية متنوعة . من هذه البرامج ، برنامج الاراجوز . كنا نضع ستارة فى ركن العنبر ، بعد ان رفعنا جردلى البول والمياه . كنا نستخدم اصابعنا للتعبير عما نشاء . قدمنا ضمن ما قدمنا اراجوز عسكرى المرور . هنالك سيدة تسير على الرصيف ، وتصعد ، من الشارع ، سيارة تدهمها فوق الرصيف . ويأتى عسكرى المرور ، فترشوه السياره . وعندئذ يؤنب العسكرى السيدة المصابة ، لانها تسير على الرصيف والشارع بالغ الاتساع .

« كنا أيضا نقيم حفلات تنكرية ليلة رأس السنة . وقد تنكرت ليلى الشال، ذات مرة ، فى زى غاندى . كان جسدها ، من الناحية الفنية ، يساعدها على ذلك . وتنكرت معها زينب فى صورة عنزة غاندى .

« كنت انا متخصصة فى تقليد الزميلات . كان البرنامج لا يتعدى خمس دقائق . الا أن التعليق عليه كان يستمر نحو الساعة ، كلها ضجيج وضحك واحتجاج وتهديد . حتى جاءت زينات الصباغ فقلدتنى . أضحكت الجميع على ، ونالت الجائزة « ابرة وابور » . كان لانجى افلاطون قبقابا خشبيا غاية فى الأناقة ، غاية فى العلو ، حتى يمكنها الدخول به الى دورة المياه . وكانت انجى نفسها تطلق عليه اسم « المعدية » . وكنت انا انتظر تركها له حتى البسه داخل العنبر ، اتمشى به جيئة وذهابا ، فأبدو طويلة للغاية . والتقطت زينات هذا المنظر واجادت تقليده .

« كانت القفشة والنكتة والضحك جزءا من أساليب مقاومتنا لما نحن فيه » .

وتقول انتصار خطاب ، « كنت ، وأنا فى الخارج ، كثيرا ما أذهب الى المسرح ، وخاصة مسرح الريحانى ، ومن هنا بدأت ، فى الداخل ، كتابة هذه المسرحيات ، قدر الامكان ، من الذاكرة . كنت اقوم بعد ذلك بتوزيع الادوار والاخراج . لم اكن اعرف شيئا عن التمثيل . كانت محسنة توفيق وليلى الشال وليلى عبد الحكيم وفاطمة زكى هن اللواتى يقمن بالتمثيل .

« ولقد قدمت داخل العنبر مسرحيات الدلوعة وقسمتى وعبد السلام افندى . أما على نطاق السجن كله ، فقد قمت بتأليف بعض الاشياء ، وكنت اقوم ايضا باخراجها . كنت اصمم الرقصات ، وكانت فى السجن سجينات من فتيات الكباريهات ، يجدن الرقص ، ويحفظن كثيرا من الاغانى ، ويقدمن فى هذا المجال مساعدات كثيرة . كانت معنا سجانة ايضا ، صوتها نشاز وبشع للغاية ، لكنها قدمت فى احد المرات اغنية جديدة اعجبتنا فاستمعنا اليها بانصات شديد .

« قبيل الافراج عنى ، اعددت حفلة للسجن كله . صرحت الادارة لى بنوتة وقلم حتى اكتب الادوار . اخترت الفتيات ، واخرجت العمل . وجاء يوم العرض ، وحضره مدير السجون ، الا اننى ، بعد كل هذا الاعداد ، منعت من الحضور ، طبقا للوضع الذى كان مفروضا على المعتقلات » .

وتقول ثريا ادهم ، « شكلنا فريقا للتمثيل داخل العنبر . كانت معنا الفنانة الكبيرة محسنة توفيق . كانت محسنة بالطبع هى البريمادونا . تتصرف دائما كبطلة ، لابد لها من وقت طويل للاستعداد قبل أن تخرج للتمثيل . هى اصلا حائزة على الجائزة الأولى للتمثيل فى الجامعة . كان تمثيلها رائعا وجميلا للغاية . كانت تلعب الدور الرئيسى والاساسى فى كل عمل تقدمه . كانت تمثل امامها ليلى عبد الحكيم وليلى الشال واميمة ابو النصر ، وكانت الاخيرتان تقومان بتمثيل دور الرجال . كانت انتصار خطاب هى التى تتولى عملية الاخراج . كنا نعد الملابس وكل الاشياء بايدينا . قدمت الفرقة تمثيليات عالمية وكذا تمثيليات محلية ، مثل « الناس اللى تحت » . كان ذلك فى عنبرنا ، ولنا وحدنا كنوع من الترفيه عنا .

« لم تكن محسنة توفيق ممثلة فقط ، بل كات مغنية ايضا • كانت كثيرة الدلال • صوتها جميل جدا جدا جدا • كل ليلة نطلب منهـا الغناء ، الا انها لم تكن تستجيب عند اول طلب لنا • كان لابد من الالحاح عليها ، خمس أو ست مرات ، حتى تعلن قبولها وتأخذ فى الغناء • كان دلال محسنة توفيق يثير قلق انجى افلاطون • فانجى تحتاج الى ساعة من الهدوء التام قبل أن تنام • ودلال محسنة توفيق ، يقود الى تأخير نومها • ولذا فانه ما أن تبدأ محسنة دلالها حتى تبدأ انجى فى استعطافها . وهنا تقول لها محسنة ، سوف ابدأ ، من أجل خاطرك . فانا اعلم انك ؛ بعد ان ننتهى ، سوف تحتاجين لوقت طويل حتى تنامى • وتبدأ محسنة فى الغناء • كانت تغنى لام كلثوم وعبد الحليم حافظ وسيد درويش ، وكذا الاغانى القديمة لعبد الوهاب . كنا نطفىء النور • وتعيش كل منا فى عالمها الخاص • كانت تلك من اللحظات العذبة فى حياتنا المعذبة » •

الا ان كل ذلك ، ما كان ليذهب بذلك الحرمان العميق الدفين للامهات المعتقلات المحرومات من رؤية ابنائهن • كانت تلك العاطفة العاصفة التى لا تقاوم ، هى التى تعتمد المباحث العامة عليها ، أداة للضغط وفرض الضعف والانهيار •

الفصل الثالث

اطفال السجون

أطفال السجون انواع . اطفال داخل السجن وأطفال خارجه ٠ هنالك أطفال المسجونات العاديات ، هؤلاء الذين دخلت بهم أمهاتهن ، وهم دون الثانية ، او هؤلاء الذين ولدوا داخل السجن ، وهؤلاء يظلون مع امهاتهن حتى يبلغوا من العمر عامين ، ثم يتحتم خروجهم الى أهلهم ، ان قبل الأهل ، أو الى الاصلاحية ان رفضوا ٠ والطفل السجين يتحمل مع أمه وعنها ، نصيبا من الحكم الذى عليها تنفيذه .

وهنالك اطفال المعتقلات ؛ هؤلاء الذين دخلوا المعتقل فى بطون امهاتهم ، وخرجوا الى الدنيا ليروها ، من خلف القضبان ، سجنا وسجانا . وهنالك أطفال الرفيقات المعتقلات والذين استيقظوا ذات يوم فلم يجدوا أبا أو أما . أو هؤلاء الذين رأوا والديهم يخطفون بليل ، ثم يختفون فى المجهول ٠ وكان على هؤلاء الاطفال وأمهاتهم ، أن يخوضوا كل صنوف المعارك والمراوغة والتحايل حتى ترى الأم وليدها ، أو يرى الطفل أمه .

وهنالك ابناء السجانات ٠ هؤلاء الرضع الذين تحضرهم أمهاتهن معهن الى السجن ٠

وهنالك ايضا اطفال ضباط السجن ، هؤلاء الذى يسكنون فى مبناه ٠

سجن القناطر ــ نساء ، ليس سجنا للنساء فقط ؛ لكنه ، ايضا ، سجن للاطفال ٠ هذا السجن الذى تختنق فيه العواطف ، تشكل الامومة فيه خيطا غير مرئى يربط بين الجميع بصورة لا تتوافر فى أى مكان آخر ٠

تقول انتصار خطاب ، كان علينا سجانة ، فظة غاية الفظاظة ٠ وكان باب العنبر ، فى بداية الاعتقال ، مغلقا ، علينا ، ليل نهار ٠ فى احد المرات ، وكان قد مضى علينا ايام ثلاث أو اربع ، كنت اطل من نافذة العنبر ، فرايت السجانة تجلس على العشب أمام العنبر ، ترضع ابنتها ٠ تعطيها ثديها ، وتلعب لها فى رأسها ٠ كانت أمامى مجرد أم عادية . فذهبت للحال رهبتها . مسحت ، تماما ، وكانها لم تكن .

وكان عبد القادر فهمى ، مأمور السجن ، يقيم هو وأسرته فى بناء السجن . وكان لهذا المأمور طفلة . ولم تكن تلك الطفلة تحب اللعب

مع احد غير الطفل ياسر ابن اسماء البقلى ؛ المعتقلة . كانت الطفلة تطل من اعلى ، حيث يفتح باب سكنها على الطريق العام خارج السجن ، والطفل ياسر معتقلا يعيش أسفل داخل السجن . كانا يقضيان الوقت ينظران الى بعضهما البعض ، والطفلة تبكى ، تطالب اباها بأن يحضر لها ياسر ليلعبا معا » .

والطفل ياسر اسعد حليم قصة فى ذاته . اعتقلت والدته اسماء البقلى وكانت حينذاك حبلى فى آخر ايامها ، تعانى مصاعب ومتاعب حقيقية ، حاول طبيب السجن معاونتها حتى تلد فى معتقل مستشفى القصر العينى بالمنيل ، حرصا على الطفل ، حتى يقال أنه ولد بالمستشفى ولم يولد بالسجن . ساعة الوضع كان هنالك جندى فى حراستها ، يقف على راسها ، وهى تصرخ وتعانى . عندما حاولت الامساك بشىء ما ، وهى تتألم ، امسكت بيد الجندى الحارس ، فأخذ فى البكاء والسباب . ظلت الام وياسر شهرا بالمستشفى ثم عادا الى السجن . واصبحت دنيا ياسر هى دنيا السجن والمعتقل . تقول ثريا ادهم ، « كان ياسر صبيا لطيفا فأحببناه . كان كالبسمة لنا جميعا . كان يسرى عنا . وكانت كل منا تمارس فيه أمومتها وحنانها المختزن وشوقها الى اولادها . كان ياسر رمز كل الابناء فى الخارج . اشتركنا جميعا فى تربيته والعناية به . كان بالنسبة لنا ، شيئا ثمينا ، غاليا ، ظل معنا مدة سنتين » .

وتقول فاطمة زكى ، « كانت صلة ياسر بالعالم الخارجى هى المتعهد فقط . كان يخرج معنا طابور الصباح ، ثم يحضر مقابلة المتعهد ، الذى كنا نطلب منه أن يحضر له شيكولاته ، وأن يستبدل اللبن بكويكر اوتز . كان ينطق اسمى « كاك بكى » . وفى أحد المرات كنا نجلس ندردش معا ، عندما سألنى ، « كاك بكى ، انت عندك اولاد ؟ » فقلت له ، « لا يا حبيبى » . قال ، « اطلبى من المتعهد أن يحضر لك وادا » . كان يسمى انتصار خطاب « زوس » وسعاد الطويل « بوبس » وثريا ادهم ، « احتم » » .

وتقول ليلى الشال ، « منح ياسر أمه شعورا بالتميز . كانت هى لها طفلها ، ونحن ليس معنا مثيله . كما اننا جميعا كنا نحب مداعبته وملاعبته . كانت أحيانا تحابينى ، فتمنحنى هذا الحق ، كما كان ياسر يعطيها حق توجيهنا ، كأن تقول مثلا ، لا تتكلمى امام الطفل هكذا يا فاطمة او يا ليلى » .

عندما عادت الأم وياسر من القصر العينى ظلا فى حجرة مستقلة . كان الغرض من ذلك الا يؤثر عليه جو السجن ؛ كما أن الرفيقات ، الشابات المعتقلات ، كن كثيرات الصخب والضجيج ، الا انه مع ذلك لم يكن بعيدا عن العنبر · كانت الرفيقات يحضرنه من حجرته ، الى العنبر ، نقضى معهن بعض الوقت ، ثم يعدنه الى الغرفة . وعندما غدا فى وسع ياسر ان يسير ، كان يحضر الى العنبر بمفرده . كانت الرفيقات وقد غدا واحدا منهن ، يستخدمنه فى عمليات الاستكشاف · كانت ادارة السجن تبدل السجانة كل شهر ، وكانت الرفيقات تحاولن معرفة السجانة الجديدة القادمة . كانت هنالك السجانة أم عفيفى القاسية ، والتى كان يعتبر شهرها ، سجنا داخل السجن · وكان ياسر فى العنبر يوم التغيير الشهرى هذا ، فاخرجته الرفيقات من حديد نافذة العنبر ، ليستكشف الاوضاع عند الادارة · وعاد ياسر من حيث خرج ، وسألته الرفيقات عن السجانة القادمة ، وللحال اجاب ، « يا خبر اسود . دى أم عفيفى » . ومن يومها اصبح « يا خبر اسود » هو الاسم الجديد لتلك السجانة · لقد غدا ياسر ، فى هذه السن المبكرة للغاية ، محركا للاوضاع التى يعيشها المعتقل .

وفكرت اسماء البقلى ، فى ضرورة اخراج ياسر من السجن . كانت الظروف غير مناسبة البتة ، ولانه بدأ يتعلم اشياء ، من عالم ليس بأى حال هو عالم الطفولة . كان استمراره فى السجن أمرا ضارا به وبتكوينه النفسى · الا ان اخراجه من السجن كان مشكلة ايضا . فياسر لا يعرف أحدا من اسرته · لا اخوته أو جدته · وكان ابوه فى سجن القناطر — رجال ، على بعد خطوات من سجن النساء ، لكن المباحث العامة رفضت رفضا باتا أن يرى الاب وليده .

لم يكن القرار سهلا على الام · كانت مرتبطة به ارتباطا كليا · وكان خروجه يعنى حرمانها من رؤيته مدى لا يعرف احد حدوده . الا ان مصلحة الطفل ، كما أن الحين كان قد اوشك أن يحين ، من زاوية اللوائح والقوانين ، كانت تحتم ضرورة اخراجه من السجن . وانتهى تفكير المعتقلات ، وكلهن ام لياسر ، الى اهمية مرحلة انتقالية ، تمهيدية ، تقضيها الام وياسر فى مستشفى القصر العينى ، حيث يمكنها من هناك ان تحاول تعريفه باخوته خارج المعتقل ، وباهلها الذين سوف يعيش معهم عند خروجه . وبالفعل نجحت المحاولات فى نقلها الى مستشفى القصر العينى ، فى ديسمبر عام ١٩٦١ . ومن هناك بدأ الطفل يتعرف على اسرته واهله ، شيئا فشيئا . كان معتقل المستشفى مكونا من

جزأين . الدور العلوى وبه بعض الرفاق ، والدور السفلى وكانت بـه الأم ، اسماء البقلى . كان باسر يطلب باستمرار ان يصعد الى الدور العلوى، فهنالك يستطيع ان يفتح للنافذة دون أن يرى الحراس وقد سدوا عليه كل المنافـذ .

ويوم أن جاء اخوته لأخذه ، يوم ان غادر المعتقل ، انطلق يجرى ويجرى دون ان يتوقف . لم يستدر للخلف ابدا ولا حتى التفت وراءه . لم يبادل أمه كلمة . لم يقبلها قبلة الوداع . انطلق يجرى هاربا من كل تلك الاشياء التى شكلت حياته السابقة . ورفض فيمـا بعـد ، ولمدة طويلة ، ان يزور امه أو يراها . كان يخشى قضبان الحجرات والحراس . ارتبطت امه فى ذهنه بكل ما عاناه . وعادت أسماء البلقى من معتقـل المستشفى ، الى معتقل سجن النساء وحيدة .

***

كان تعذيب الامهات بحرمانهن من ابناءهن هو واحد من اشـد الاساليب الهمجية التى لجأت اليها الدولة عند التعامل مع المعتقلات . وكانت ثريا شـاكر قد تركت ابنـاءها الثلاث ، ليلة عيـد الميلاد الثامن لكبيرهم . وكانت صغراهن رضيعة لم تتجاوز العام الأول من عمرها . كان زوجها فوزى حبشى قد القى القبض عليه ايضا . وعاشت ثريـا شاكر كل تجربة العذاب والمقـاومة . كانت رمـزا للامومة الدافقـة ، وكانت ، ايضا ، رمزا للعناد والصلابة ، فى مواجهة محاولات الاخضاع والاذلال . بذلت كل ما فى وسعها من حيل ومخاطرات .

صباح يوم زيارة ، وجدت الرفيقات المعتقلات ، الصبى عبد القادر احمد طه ، ابن المعتقلة سميرة الصاوى ، وأحمد طه المعتقـل بمنفى المحاريق ، يدخل السجن ويصل حتى عنبر المعتقلات . كان مجرد ظهوره فى العنبر ، مصدر تفجير لمشاعر المعتقلات الفياضة ، فانهلن عليه تقبيلا . رأت ثريا شاكر فى هذا الحـدث منفذا يمكن ان ترى من خـلاله أبناءها . سألته ان كان فى وسعه الذهاب الى منزلها ورؤية ابنائها ، فاعلن الصبى استعداده . طلبت منه التوجه الى السيدة والدة الشهيد محمد محمـود عثمان ، وكانت جارة لعبد القادر يعرفها ويعرف الطريق اليها ، وهى لابد ستعرف كيف تتصرف . وجاء يوم الزيارة ، وجاء ابناء ثريا شاكر وقـد البسهم الاهل لباسا انيقا . ولذا ما ان دخلوا السجن وظهـروا فيـه حتى ذاع نبأ وصولهم . كانوا قد دخلوا ، كما فعل عبد القادر ، مع زيارة المسجونات العاديات . لم يدخلوا فناء السجن مباشرة مثلمـا دخـل عبد القادر ، فامسكت بهم السجانات على الفور . ورأتهم امهم عن بعد ،

فأخرجت راسها من حديد نافذة العنبر ، فانحشرت بين القضبان . تقول ثريا حبشي ، « رأيت الثلاثة ، فاخذت ارجو السجانات أن يتركوهم ؛ الا انهن رفضن رؤيتي لابنائي رفضا باتا . واخذن في الاحتجاج حول كيفية مجيئهم وكيفية دخولهم الى السجن ومن الذى ادخلهم . وكانت تلك اول محاولة » (٥) .

ايفون حبشي المعتقلة تحولت الى مسجونة ، وبذا اصبح من حقها ان يزورها اهلها . وبدأت ثريا شاكر تفكر في الاستفادة من تشابه الاسماء ، كان ابنيهما يحملان اسماء ، ممدوح حبشي وحسام حبشي . اتفقت مع ايفون حبشي أن تتمارض ، وبذا تنقل الى مستشفى السجن ، حيث يمكن لثريا شاكر أن تذهب الى هنالك وترى ابنيهما في زيارة « قريبتهما » ايفون حبشي . الا انها فوجئت يوم الزيارة باغلاق السجن واستدعائها . فادعت انها بدورة المياه في مستشفى السجن . الا ان ضابط المباحث وضباط السجن احتلوا الحجرة التى توجد بها ايفون حبشي ، وجلسوا هنالك في كمين في انتظار قدوم الطفلين . دخل الصبيان الحجرة ومعهما قريبة لهما كانت ترعى الاطفال الثلاثة وتهتم بهم . اخذ الضباط والسجانات يدقون باب دورة المياه واحدهم ينادى ، « اخرجي لترى ابناءك » . قالت ، وهى ما تزال داخل دورة المياه ، « انهم ليسوا باولادى » . كانت تخشى عليهم وعلى قريبتهم . قال الضابط ، « وكيف عرفت انهم ليسوا باولادك وانت لم تريهم بعد ؟ فخرجت متحدية ، « نعم ، انهم اولادى ، وحذار ان يتعرض لهم أى واحد منكم . لسوف افعل ما لا يخطر لكم على بال » . ثم أخذت تسبهم سبا عنيفا . كانت في حالة سيئة للغاية ، حتى ان الضابط نفسه تأثر لحالها فقال لها ، افعلى معهما ما تشائين ، جالسيهما ، قبليهما ، افعلى ما تريدين » . وللحال هجمت عليهما تحتضنهما وتقبلهما . كانت غاية في التوتر ، وكذا الطفلان . حاولت المباحث العامة بعد هذا اللقاء ، احتجازها وقريبتهما بتهمة « زيارة بدون اذن » . الا ان مأمور السجن تدخل لمنع هذا الاحتجاز ، كما كانت الزيارة من الناحية الرسمية والشكلية صحيحة ، من حق ايفون حبشي .

مضى اسبوع ، وحضر الى السجن طاقم من كبار الضباط ، ذوى الكابات الحمراء . تحلق الجميع حول منضدة . تشكلت هيئة محكمة داخلية ، قضاتها « جنرالات » مصلحة السجون . اسرعت السجانة ، وهى تنتفض ، رعبا ، تستدعى ثريا شاكر . عندما دخلت ثريا ، الحجرة ، ورات كل هذا « الهيلمان » ، أمامها ، ادركت النية المبيتة لها ، فتملكها

شعور عارم بالتحدى . طلبت ان يسمح لها بالجلوس ، فرفض طلبها . اعلنت انها ، بدورها ، ترفض اى حديث معهم . احضروا لها مقعدا ، فجلست . سالها كبيرهم ، كيف دخل ابناؤها الزيارة ؟ فلم تجب على السؤال كما يلزم أن تكون الاجابة . صرخت فى قضاتها ، كيف تأتى لكل هذه الرتب ان تحضر هذا المكان ، لمحاكمة أم رأت ابناءها؟ كيف يزعمون انهم بشر ، يقولون بالديمقراطية ، ويفعلون هذا الذى يفعلون ؟ « الا تحسون بالخجل » .

كانت منفعلة غاية الانفعال ، فتحول السادة المحاكمون ، من ثائرين فى وجهها ، الى مهدئين لها . الا انه كان عليهم استيفاء تلك المحاكمة المهزلة . سالوها مرة أخرى ، من الذى انبأ ابناءها بالزيارة ؟ وعادت ثريا الى ثورتها من جديد ، « من يدرينى وأنا المحبوسة قيد المعتقل ، أو ربما تسعون الى محاكمة الصغار ، لانهم حاولوا رؤية أمهم ؟ . اية عقول ، واية عواطف ، واية مشاعر تلك التى حملتكم الى موقفكم هذا ؟ السنم آباء ؟ اليس لكم ابناء ؟ الا يعرف أحدكم معنى الابوة أو الامومة ؟ الا تحسون بالعار وقد واتتكم الجراة على محاكمة أم ، كل جريمتها انها سعت لرؤية ابنيها ؟ الا ترون انكم اوجب بمحاكمة انفسكم لحرمانكم ام من بنيها؟ »

وانقلبت المحاكمة . كانت ثريا شاكر تتكلم وهى تحت وقع المفاجأة المذهلة التى كان عليها مواجهتها ، كما كانت ترزح ، ايضا ، تحت هذا العبء الثقيل من الحرمان العنيف لها من امومتها والاطمئنان على بنيها . كان هنالك من يكتب كل ما يقال وما يدور . وانتهى الامر الى لا شىء .

مرت الايام وفوجئت ثريا شاكر ، مرة اخرى ، بمأمور السجن يستدعيها : « وجدت هنالك طفلة صغيرة تجلس على مكتبه . كانت جميلة كالقمر . وقفت امامها اتاملها ، امعن فيها النظر ، واتساءل ان كانت تلك هى ابنتى نجوى . كانت الطفلة تنظر الى ايضا دون ان تعرفنى . لم اكن قد رأيتها منذ عامين . قال مأمور السجن ، الا تعرفين هذه الطفلة ؟ وللحال تحول شكى الى يقين . هذه الجميلة هى ابنتى ، اختطفتها ، انهلت عليها تقبيلا . قال حسن الكردى ، مأمور السجن ، « لقد جاء بها عمها هذا الصباح ، قال لى « ان الطفلة تريد رؤية امها . لقد استيقظت اليوم تتساءل عن صورة امها ، تود ان تراها . انا لا ابغى زيارة الام ، لكن ها هى الطفلة امامك ، انها تريد ان تتعرف على امها ، ومرجع الامر الى

انسانيتك » . وانا كأب لم استطع ان امنعها من رؤيتك ، رغم مخالفة هذا للوائح والقوانين » .

« كنت احتضن ابنتى وابكى . وهى الطفلة الذاهلة لما يجرى حولها ، أخذت فى البكاء ايضا . قال مأمور السجن ، « هذا يكفى » . ثم اخرج من درج مكتبه علبة ملبن ، ناولها للطفلة قائلا ، « خذى هذه فهى من ماما » . الطفلة كانت خائفة واجفة ، وانا اقول لها ، انا امك ، متجيبنى ، « وانا اريد جدتى » .

« فتح المأمور باب حجرته ليخرج الطفلة الى عمها ، رأيته فحييته شاكرة ، الا ان المأمور طلب منى الا افعل ذلك ، فالامر كله على مسئوليته الشخصية . شكرته اجزل شكر . قلت له ان ما فعله اليوم كان موقفا انسانيا ، لن ننساه له ابد الدهر » .

اقترب أحد الاعياد . وكان مسموحا ، فى مثل هذا اليوم ، ان ياتى ابناء السجينات العاديات لقضاء اليوم مع امهاتهم . سألت الرفيقات الباشسجانة ، ان كان فى وسعهن ، هن ايضا ، ان يرسلن فى طلب اطفالهن لقضاء العيد معهن ، فوافقت . وللحال ارسلت كل واحدة الى اسرتها تطلب منها ارسال الابناء للزيارة . وحضر ، فى اليوم الموعود ، ابناء ثريا شاكر وثريا ابراهيم وانتصار خطاب وسميرة الصاوى . دخل الابناء جميعا ومعهم طعام العيد والزيارة . وضعتهم الباشسجانة فى غرفة ما ، وطلبت من الرفيقات أن يقضين وقتهن مع ابنائهن دون ضجة ، اذ لو عرف المأمور بما فعلته فانه « سيخرب بيتها » . لكن الاحتمال الاكبر أن المأمور كان يعرف . كان هو الانسان حسن الكردى ايضا . الا انه كان من الضرورى أن يبدو وكانه لا يعرف . وقضت الرفيقات يوما من اسعد ايامهن . لم تكن الزيارة قاصرة على الامهات . شاركت فيها كل الرفيقات . تقول ليلى الشال ، « كانت المشاعر الانسانية ، فيما بين الزميلات ، هى الغالبة . كنا يوم حضور بعض ابناء الزميلات للزيارة ، نحضر شيكولاته للاطفال ، ونقوم جميعا بعمليات التسريب والتهريب . كان اليوم ينقضى فى جو طيب ، ثم ينقلب العنبر بعد الزيارة الى محزنة » .

كان مستشفى القصر العينى منفذا هاما للزيارة أو لرؤية الامهات ابنائهن ، أو المعتقلات لذويهن . الا انه كان ، ايضا ، مصيدة رهيبة للمباحث العامة ، ومجالا من مجالات ارهابها وتكديرها للرفيقات المريضات .

ذهبت ثريا شاكر الى المستشفى للعلاج . كان والدها يعلم بيوم ذهابها ، فقرر ان يأخذ ابنتها نجوى اليها ، فيرى الأب ابنته المعتقلة . وترى ابنته المعتقلة ابنتها الطفلة . عندما رأت ثريا شاكر ابيها اشارت له ان يبتعد ، الا ان المخبر المرافق لها ، تنبه الى اشارتها ، فسألها ان كانت تلك الطفلة ابنتها ، فانكرتها . الا انها كابنة وأم ، لم يكن فى وسعها الا ان تنظر ناحية ابيها وابنتها . وتظاهر المخبر بالابتعاد ، فانقضت ثريا شاكر على الطفلة تحتضنها . وللحال ظهر المخبر ، والقى القبض على الأب والحفيدة ، واقتادهما الى المباحث العامة . كان الرجل فى الخامسة والستين والطفلة فى الثالثة من عمرها . وفى المباحث العامة ظلوا يدورون حول قضية واحدة ، فى عدد من الاسئلة . كيف عرف الاب بذهاب ابنته الى القصر العينى ؟ وما الذى دعاه للذهاب الى القصر العينى ؟ وحاورهم الرجل وداورهم بدعوى الصدفة ، حتى جف ريقه . وفى ساعة متأخرة من الليل اطلق سراح الرجل الكهل والابنة الطفلة .

وحدث نفس الامر لاخيها ايضا . امسك به اثناء محاولته رؤيتها فى نفس المستشفى واقتيد الى المباحث العامة . وهنالك التقى بأحمد صالح داود ، رئيس مكتب مكافحة الشيوعية .

ومرت الايام ، والتقى الأخ بأحمد صالح داواد مرة أخرى . كان ذلك فى الجزائر . الاخير كان مرافقا لجمال عبد الناصر ، والأول كان مدعوا باعتباره خبيرا فى المعارض . قال له أحمد صالح داود ، « اتذكر انى قد رأيتك من قبل . لكننى لا اتذكر اين » . وقال له الآخر ، « حقا لقد التقينا من قبل ، لكننى اتذكر اين » . وكانت الجزائر فرصة لشقيق ثريا كى يدعو أحمد صالح داود الى نزهات طيبة ، وأن يقدم له بعض الهدايا التذكارية ، وتوطدت العلاقة بينهما فصارحه الأخ بحقيقة لقائهما الاول ، وما تعرض له فى المباحث العامة من مهانة . فقال له صالح داود ، بان ما حدث قد حدث له ، لأنه حاول رؤيتها دون أن يراه قبل ذلك . اذ لو جاء اليه ، لسمح له بزيارتها كيف شاء . ولم يكن هذا الكلام صحيحا ، بأى حال من الأحوال . الا ان تعارف الجزائر ، هو الذى طرح مثل هذا العرض السخى .

تقول ثريا شاكر ، « كان ذلك فى أواخر ايام المعتقل ، وأنا لا ادرى عن قصة الجزائر شيئا . سعيت للذهاب الى القصر العينى ، حتى استطيع رؤية الاولاد . كان المستشفى ، رغم كل شىء ، هو المنفذ لرؤية ابنائى واهلى ولو عن بعد . وتمت الموافقة على ذهابى الى القصر

العينى على أن اعود فى نفس اليوم . ارسلت الى اسرتى اخبرها بذلك ، ذهب أخى ـ كما عرفت فيما بعد ـ الى أحمد صالح داود . قال له انى سأذهب الى المستشفى غدا . سأله ، كيف عرف ذلك ؟ فاجابه ، « عرفت وفقط . وها قد جئت حسبما قلت لى اطلب زيارتها دون متاعب » . قال له ، « حسنا . سأرسل معك اثنين من المخبرين ، ولسوف تراها . ليس هذا فقط ، بل ولسوف نبقيها فى القصر العينى ، حتى يمكن للاولاد ان يذهبوا لزيارتها » .

عندما وصلت الى مستشفى القصر العينى ، لم اكن ادرى شيئا عن كل ذلك . فوجئت بعربة امن فى مدخل معتقل المستشفى والى جوارها وقف مخبران . كنت انا قادمة بعربة الترحيلة ومعى ضابط وجند للحراسه . عندما رأيت ما رأيت ، قلت لنفسى ، هذا كمين آخر ، فلا تظاهر بانى لا اعرف أحدا . كان الاولاد هناك ، وكانوا يعرفون كل شىء ، ومن هنا ، ما أن رأوانى ، حتى اندفعوا يصيحون ، ماما ، ماما . الا انى ادرت وجهى بعيدا . كنت أواجه فى اعماقى صراعا عنيفا ، بين رغبتى فى ان اضم ابنائى الى احضانى ، وبين خشيتى عليهم من بهدلة المباحث العامة . تقدم الى ضابط من المباحث العامة وقال ، « سلمى على ابنائك » . قلت ، هم ليسوا ابنائى ، واحذركم من المساس بهم . قال ، « ما داموا ليسوا ابناءك ، فلماذا تحذيرنا من المساس بهم ؟ » . قلت ، انا لم اتحدث الى أى واحد منهم . عاد يلح فى أن اتقدم واسلم عليهم . قلت ، تودون ان افعل ذلك حتى تمسكوا بهم . اننى مرة اخرى احذركم من فعل ذلك . فى تلك الاثناء رأيت أخى رمزى يتقدم نجوى ، فصحت فيه ان يبتعد ، الا انه ظل يتقدم ، واندفع ابنـاءى الثلاثة نحوى . قلت لنفسى ، اذن فليحدث ما يحدث . وتلقيت الاولاد فى احضانى ، وحينئذ سمعت مخبر المباحث العامة ، يقول جملة غريبة ، « نحن هنا بالامر يا سيدتى . ولسوف تستريحين منذ الآن ، وتدخلين القصر العينى » . قلت ، انا قادمة من أجل علاج اسنانى ، فكيف اقيم بالقصر العينى ؟ . قال ، « لا تهتمى بذلك . فقط ، قولى انك مصابة بمغص أو شىء من هذا القبيل ، ودعى الباقى علينا ، سوف ندخلك معتقل القصر العينى . وبذا تستطيعين رؤية ابنائك على الدوام » .

لم اكن اعى أو اصدق كل هذا الذى اسمع . دخلنا بالفعل عند احد الاساتذة بالمستشفى . قال له رجل المباحث العامة ، « ارجو محصها . هنالك سلطات تريد بقاءها فى القصر العينى » . صرخ فيه الاستاذ ، « لا احد هنا يأمرنى ، بمـا يجب على أن افعـل » . قال له المخبر ،

« لا تغضب نفسك هكذا • سوف نرى غيرك » • وبالفعل وجد غيره . كنت اسير كالمذهولة . لا اتصور حقيقة ما يجرى امامى . واحتجزت فى معتقل مستشفى القصر العينى » •

***

وكانت انتصار خطاب ، ايضا ، تعانى من حرمانها من ابنائهما وامومتها • ذهبت الى القصر العينى للعلاج ، بسبب وجود اشـتباه ان تكون مصابة بالسرطان • كان ضابط الحرس الذى رافقها من السجن انى المستشفى شابا صغيرا ، رتبته ملازم أول ، قالت له ، « أود الذهاب الى بيتنا • مضى على عامان ، ولم ار احدا من ابنائى أو اسرتى » • قال الضابط الشجاع دون تردد ، « واين تسكنين ؟ » • اخبرته بعنوانها ، فأمر السائق بتغيير طريق السيارة والتوجه مباشرة الى العنوان • وضع السيارة البوكس فى شارع جانبى ، واصطحبها الى منزل والدتها • دخلت حجرة اخيها ، وكان قد رزق طفلا حديث الولادة • كان الضابط الشاب يلازمها خطوة بخطوة ، داخل المنزل وهو يعتذر . كانت والدتها تصنع فطيرا ، فطلبت منه ان يأكل ، الا انه رفض بأدب . جلست مع ابنائها بعض الوقت ، ثم غادرا المنزل . تقول انتصار خطاب ، « كان هذا الضابط انسانا بحق وشجاعا بحق ايضا . فقد فعل ما فعل ، فى وقت كانت فيه الحملة المعادية على اشدها ، والتعذيب ، فى ابو زعبل والواحات ، على اشده ايضا » •

كان معتقل مستشفى القصر العينى خاضعا لمأمور قسم مصر القديمة . وكان المأمور ممن يتسمون بالجبن والسوء • كان يصر على ضرورة وجود جندى الحراسة ، داخل حجرة المعتقلات ، فوق رأس المعتقلة ، وكان جنود الحراسة لا يفعلون ذلك ، فيتعرضون لعقابه •

كانت علاقة الرفيقات بالاطباء والممرضات والمريضات بل وجنود الحراسة علاقة طيبة • وكان هشام خطاب ، يزور والدته ، انتصار خطاب ، يوميا فى هذا المستشفى • فان حدث مرور من قسم الشرطة أو المباحث العامة ، كانت المريضات والممرضات هن اللواتى يقمن باخفائه • كن يضعنه فى اية حجرة ، ويغلقن عليه بابها ، فتصبح سوداء مظلمة ، يقبع فيها مرعوبا ، كاتما انفاسه ، حتى ينتهى المرور •

وحدث ، ذات مرة ، اثناء المرور ، ان رأى الضابط ، عمر خطاب ، وهو يغادر حجرة أمه فى المستشفى ، فاشتبك معه • كان عمر قد بلغ السابعة عشرة من عمره • فانهال على الضابط ضربا • امسكوا به ،

فاسرعت انتصار خطاب ، تستنجد بالزملاء المعتقلين ، تستغيث بهم ان ينقذوا ابنها ؛ حتى لا يعتقل بجريرة ما فعل . حضر ضـــابط حرس المعتقلين وتدخل فى الأمر .

يقول هشام خطاب (الابن الاصغر) : « كثيرا ما حبست داخل هذه الحجرات المغلقة ، اخفاء لى ، حتى ينتهى المرور . كانت حجرات كئيبة حالكة ، لا استطيع ان اتحرك فيها أو افتح نافذة او اطل من شرفة . وحدث ذات مرة ان هربونا ، انا وعمر من نافذة احدى الحجرات . الا ان الضابط رآنا وهو يمر ، فضبطنا . وحدثت خناقة ، فضربه عمر وجرى ، الا انهم لحقوا به وامسكوه واقتادوه الى كشك الشرطة فى القصر العينى ، وهنالك انهالوا عليه ضربا مبرحا . عندما رايت ذلك انطلقت اجرى دون توقف . الا انه حدث بعد عدة اشهر ، ان رأيت نفس الضابط يعاين حادثة ما فى شبرا . كنت وقتها خارجا من المدرسة ، ومعى عدد من التلاميذ ، فأمسكنا بالاحجار واخـــذنا فى القائهـا عليـه ، ثم فررنا مبتعدين » .

عادت انتصار خطاب الى سجن القناطر — نساء . ومضت اشهر ، الا ان الايام كانت تدخر لها من الاحزان ابشعها . فوجئت بخطاب من ابنها عمر يقول فيه ، « انت وزوجك (يقصـــد امه واباه) ، تتركـان اولادكما ، فى حين ان الامر لا يحتاج منكما لاكثر من التوقيع على ورقة ، فتخرجان من السجن . رشاد خميس وقع على هذه الورقة وخرج الى اولاده . هذا الخطاب انذار . انني متعب للغاية . حيث تسبكما جـدتى وتشتمكما على الدوام . اذا استمر موقفك على الرفض ، فهذا آخر خطاب منى اليك ، لانى سوف انتحر ، سوف احرق نفسى » .

كان ذلك فى اوائل عام ١٩٦٢ . وكان لابد من اتخاذ موقف ، فى وقت كانت فيه امكانيات الاتصال بخارج السجن غاية فى الصعوبة . تقول انتصار خطاب ؛ « احسست بالفجيعة . كان على ان احاول العودة الى القصر العينى ، لمقابلته ، ومناقشته ، وتوضيح الامور له » .

كان لابد ان توضح الام لابنها ، انها غـير راغبـة فى السجن ، ولا راضية عنه ، فان أحدا فى الدنيا لا يقبل القيد بارادته . الا ان الورقة المطلوبة ، اشد هولا من السجن ذاته . ان ، على المرء فيها ، أن يخط بيـده استنكارا لكل ما آمن ويؤمن به . انها ليست مجرد ورقة وتوقيع عليها ، انها الرصاصة التى يقتل الانسان بها ارادته وذاته ، ومعنى ذلك

ان تنتهى كانسانة . وهو أمر لن يتقبل به لامه . تقول ثريا ادهم ، « كان الامر قاسيا عليها للغاية . ام مقيدة ، تسمع من ابنها انه سوف ينتحر . وهو فى سن يمكن للمرء فيه ان يفعل أى شىء . انها سن المراهقة » .

لقد تعرض ابناء الرفيقات المعتقلات الى ضغوط شديدة تتجاوز طفولتهم ، أو اعوادهم الخضراء الغضة . الحملة فى الشارع يقودها رئيس الجمهورية ، جمال عبد الناصر ، شخصيا . حملة لا ضابط لها ولا رابط . والاذاعة والصحافة والمسئوليين والمنافقين والمعاديين ، جوقة لا تمل من ترديد معزوفة العداء للشيوعية ، واهالة كل الموبقات على رأسها . وكان لهذه الحملة ، التى اتسمت بالسعار ، آثارها المدمرة . صارت الشيوعية سبة يعاير بها ابناء الشيوعيين .

يقول هشام خطاب ، « عندما كانت تنشب معركة بيننا وبين الاولاد فى الشارع ، كانوا يعايروننا بأن أمنا وابينا من الشيوعيين السجناء .

ورغم كل ذلك ، كنا نذهب لزيارة أمى . كنا نكتب الزيارة باسماء مسجونات عاديات وندخل مع السجانة الى حيث أمى . كانت تلبس احسن ما لديها من ملابس ، وتستعد لاستقبالنا . وفى أحد المرات ، كتبت فى اوتوجراف كان معى قصيدة لا انساها :

بوسة بوسة وبوسة كمان
بوسة شقاوة وبوسة حنان
بوسة تخلى الدنيا تزغرد
وترقص كل الجدران
بوسة عشان تكبر وتجينى
بايد ملانة وقلب ملان
مهما كبرت ، صغير اولادى
ولا تكبرش على الاحضان
بوستك من بوسة الحرية
وحبك من حب الاوطان »

الفصل الرابع

معتقـــل النســـاء
بمستشفى القصر العينى

كان معتقل مستشفى القصر العينى ، الذى يرســـل اليه الرفاق والرفيقات المرضى ، كان فى الاصل عنبرا لمرضى السكر ، انه مكون من ثلاث حجرات : واحدة للمعتقلين الرجال ، وواحدة للمعتقلات ، والحجـرة الوسطى للحراس · ينام فيها ضابط الشرطة ومعه اثنين من المخبرين .

العنبر مغلق ، والحراسة على كل منافذه . حارس على كـل باب أو شباك طوال الاربعة والعشرين ساعة ، كما كانت هنـــالك دوريات تفتيش من قسم الشرطة التابع له المستشفى . كذلك هنالك « كبسات » المباحث العامة على العنبر ، للتفتيش أو لممارسة الضغوط على المعتقلين او المعتقلات المرضى ، بهدف الوصول معهم أو معهن الى كتابة استنكارات أو تعهدات بعدم الاشتغال بالسياسة . تقول فاطمة زكى ، « جاء حسن المصيلحى بنفسه ، ذات مرة ، وقضى مع الهام سيف النصر قرابة الثلاث ساعات فى حجرة الحكيمة وهى ملغقة عليهما · كما كان هنالك ضغط ، ايضا ، على زينات الصباغ المعتقلة معنا ، والموجودة بالمستشفى ، حتى تنفصل عن زوجها ، اسماعيل المهدوى ، والذى كان مسـجونا سياسيـا فى ذلك الوقت » .

وجاءت عايدة بدر الى المستشفى المعتقل · لم تكن لعايدة بدر ايـة علاقة تنظيمية أو فكرية بقضية الشيوعية · كانت كل جريمتها ، انهـا تصدت للمباحث العامة ساعة داهمت منزلهم للقبض على شقيقها احمد بدر . وكان كل ما توصلت اليه وهى فى المعتقل ، ان الشيوعيين اناس طيبين وجيدين · وجاءها حسن المصيلحى وضباط المباحث العامة ، اكثر من ثلاث مرات . كانوا يضغطون عليها ، بهدف الوصول الى استكتابها استنكارا ، الا انها رفضت تماما كتابة أى استنكارا أو تأييد · بـل اتخذت مواقف متحدية . سألوها ، ان كانت شـــيوعية ؟ فأجابت ، « نعم ، انا شيوعية » · سألوا ، أن كانت تحب الشيوعية ؟ فاجابت ؟ « نعم ، احبها » . كان موقفها ، ذاك ، يتسق تماما مع طبيعتها كابنـة بلد لا تخون العشرة ، أو كما يقال « لا تخون العيش والملح » . وكانت بالاضافة الى ذلك لا تكف عن مساعدة المرضى من المعتقلين ، تقدم لهم الطعام والشراب ·

كان الذهاب الى معتقل مستشفى القصر العينى للعلاج معركة · اذ لم يكن يسمح لأى رفيقة معتقلة بالذهاب الى هناك ، الا بعد موافقة

المباحث العامة ، وكانت واحدة من قوائم خطة المباحث العامة للتصفية ، اتخاذ المرض حليفا لها ، يمكن من خلاله ان نحقق ما تهدف اليه • فالمعتقلة المريضة ليست ، فقط ، مصدر الم لنفسها ، ولكنها ، فى ذات الوقت ، مصدر عذاب لكل من يحطن بها • ان المخاطر التى تهدد حياتها ، تصبح نموذجا لما يمكن ان يصيب اية معتقلة أخرى • لقد اتخذت ، المباحث العامة ، من الأمراض ، وخاصة الخطيرة منها ، وسيلة للضغط الفردى والجماعى •

اصيبت ليلى شعيب بالمرض • فبذلت جهود هائلة ، من خارج المعتقل وداخله ، حتى تمت الموافقة على ذهابها للقصر العينى . كشف عليها الاخصائيون ، وقرروا ان لديها ورما يجب استئصاله • وكان لابد من معركة أخرى ، شارك فيها الاطباء انفسهم ، للحصول على موافقة الأمن لاجراء جراحة لها . الا ان الاطباء ، بعد العملية الجراحية ، لم يستطيعوا تحديد طبيعة الورم ، وقالوا باحتمال عودته اليها ، ومن هنا يلزم حضورها شهريا للمتابعة واجراء الفحوص اللازمة ، واعيدت الى سجن القناطر •

الا ان المباحث العامة رفضت حضورها الشهرى للفحص . وبدات حالتها تسوء مرة اخرى • بدات تعانى من جديد ، واخذ وزنها فى التناقص بصورة ملحوظة ، وخاضت والدتها خارج المعتقل معركة ، وخاض المعتقلون والمعتقلات معارك ، حتى يتم اعادة فحصها . وطالب الاطباء بضرورة تنفيذ توصيتهم بالمتابعة الشهرية . واخيرا امام كل هذه الضغوط ، وافقت المباحث العامة على ذهابها الى القصر العينى •

كانت ليلى شعيب تهتم حقا بما تعانيه ، لكنها فى ذات الوقت ، كانت تهتم ايضا بما يجرى فى معتقل المحاريق بالواحات الخارجة ، حيث حشد الرفاق هنالك تحت التعذيب وعمليات الابادة • كان خطيبها رجاء طنطاوى معتقلا فى هذا المنفى ، وكانت تود الاطمئنان عليه • ولذا فقد قررت منذ وصولها الى القصر العينى ، ضرورة الاتصال بالرفاق المعتقلين بالمستشفى ، رغم ان ذلك كان ممنوعا ، وكانت ليلى تدرك مخاطر تلك المحاولة ، واحتمال اعادتها دون علاج • ولقد نجحت بالفعل فى زيارة قسم المسالك البولية ، حيث كان هنالك ثلاثة رفاق من منفى المحاريق • الا انه حدث مرور للمباحث العامة على المستشفى المعتقل فى نفس اليوم ، فضبطت واعيدت الى سجن النساء ، فى اليوم التالى ، دون فحص أو كشف . كان الكل يودعها حزينا مواسيا ، الا انها كانت سعيدة غير نادمة على ما فعلت ، فقد اطمأنت على ما يجرى هنالك فى تيه الصحراء •

لم يكن تعسف اجهزة الأمن ، يقف عند حد التحكم فى علاج المعتقلة المريضة من عدمه . وانما كان يمتد هذا العسف الى داخل غرفة العمليات ذاتها ، كان لأجهزة الأمن عجائبها وغرائبها ، الا ان اعجب تلك العجائب واغربها ، كان ضرورة ملازمة الحارس للمعتقلة داخل حجرة العمليات ، اثناء اجراء الجراحة لها .

اصاب الألم الشديد ليلى الشال ، واتضح انها الزائدة الدودية . نقلت الى سجن القصر العينى ، لاجراء العملية لها . عندما ادخلت الى حجرة العمليات ، اصر حارسها على الدخول معها . رفض الاطباء على اساس أن الحارس غير معقم . وامام اصرار الجندى الحارس واصرار الطبيب الجراح ، سمح للحارس بأن يطل من الطاقة الزجاجية للغرفة . طوال العملية . وبذلك تابع حراستها ، حتى لا تهرب وقد فتحت بطنها .

والى جانب عسف الأجهزة الأمنية ، كانت هنالك انسانية الاطباء ، تقول انجى افلاطون ، « بعد أكثر من عام من اعتقالى ، ارسلت الى القصر العينى ، بعد جهود مضنية ، وكان الفضل فى ذلك للدكتور عبد المنعم المفتى . فى عنبر المعتقلات ، وجدت الجو فظيعا شديد التوتر ، حتى اننى فكرت فى العودة الى سجن القناطر . فى تلك الاثناء قمت برسم الضباط والعساكر والمعتقلين . وكان ممن رسمتهم ، أحد الزملاء العمال القادمين من معتقل الفيوم ، واسمه سيد . كان مصابا بقرحة متقدمة ، وفجاة ، بعد فترة ، اصيب بازمة حادة ونزيف توفى على اثره . كان ذلك فى أواخر عام ١٩٦٠ . لقد بذل الاطباء جهودا خارقة لانقاذه دون جدوى . وعندما توفى حضر الاطباء الينا يقدمون لنا العزاء » .

الفصل الخامس

الاضراب عن الطعام
ديسمبر ١٩٦٢

الظروف التى وضعت فيها الرفيقات ، ظروف لا تحتمل ، ســوء الاحوال داخل العنبر والسجن ، والقيود المفروضة عليهن • التغذية رديئة . العلاج تقف دونه المصاعب والمتاعب . الدواء غير متوفر • الحرمان المطلق من رؤية الازواج الذين كان البعض منهم على بعد امتار فى سجن القناطر ـ رجال • تجريم رؤية الابناء • العزلة عما يجرى ، فلا صحافة ولا ورقة ولا قلم • التفتيش الارهابى والاستفزازى ، واقتحام حرمة المعتقلات •

ولم تقف الرفيقات مكتوفات الايدى امام تلك الاحوال التى وضعن فيها . قاومن ببطولة كل محاولات التمزيق الاسرى ، ومحاولات انهاء كياناتهن الانسانية • وحققن اشياء ، الا ان كل ما حققنه ، كان ما يزال فى اطار المحظورات التى يمكن ان يطيح بها مجرد تغيير شخص مأمور السجن أو حتى حارسة العنبر . ومن هنا كان لابد من دخول معركة حاسمة فى مواجهة كل تلك الاوضاع ، والعمل على فرض الحد الادنى الذى تتمتع به القاتلة وتاجرة المخدرات والعاهرة ، ذلك الحد الذى يتمثل فى تطبيق لائحة السجون عليهن • كان لابد من دخول معركة اضراب عن الطعام ، هى بمثابة اعلان للكافة ، للرأى العام المحلى والعالمى ، بان هؤلاء المعتقلات يرفضن ما هو مفروض عليهن ، ويعلن المقاومة ، حتى وان كانت الحياة هى الثمن •

بدأت معركة الاضرابات ، فى سجن النساء ، باضرابات جزئية . كان الرفاق فى معتقل الواحات قد دخلوا معركة اضراب عن الطعــام فى يوليو عام ١٩٦١ ، ودخلت اربعة رفيقات ، اضرابا لمســاندة رفاق الواحات • كان فيهم الزوج والاخ والخطيب • كان ذلك بعد اليوم الخامس عشر لاضراب الواحات • وقد شاركت فى هذا الاضراب ، انتصار خطاب ، ليلى الشال ، ليلى شعيب وسعاد الطويل ـ جاءت النيابة بعد اربعة ايام من اضرابهن • وسجل وكيل النيابة محضرا بكل ما قلنه • فى تلك الاثناء كان سجن المزه فى سوريا على اشده ، وغدت سمعته الرديئة الى حد البشاعة ، عالمية • وقالت الرفيقات فى محضر النيابة أن عبد الناصر يشبه سالازار ، وتردد كاتب النيابة فى ان يكتب ، فأمره وكيل النيابة أن يكتب كل كلمة يقلنها •

ثم جاء اضراب الرفاق فى سجن القناطر ـ رجال • ودخلت انتصار خطـاب وليلى شعيب اضرابا تضـامنيا معهم ، كما اضفن الى الموقف التضامنى ، طلبا بتحسين اوضاعهن فى سجن النساء . استمر الاضراب اسبوعا ، ثم جاءت النيابة ، وسجلت الرفيقتان محضرا كاملا باهداف الاضراب • ولم تفك الرفيقتان اضرابهما الا عندما فك الرفاق اضرابهم فى سجن القناطر ـ رجال •



كانت اكثر من ثلاث سنوات قد مرت على الرفيقات المعتقلات ، ومن تحت وطأة هذا التعذيب المتصل • كتبن رسالة الى السيدة زوجة الرئيس جمال عبد الناصر ، حملتها عنهن اليها السـيدة سـيزا نبراوى • قالت الرفيقات فى هذه الرسـالة ، انهن يخاطبن السيدة زوجة الرئيس ، كأم لابد تعرف معنى الأمومة • وأن النساء المعتقلات يعشـن ظروفا بالغـة السوء ، وقد تركن اطفالهن دون عائل أو راع ، بل ان هنالك من تركن رضعا لم يتجاوزن العام الأول من عمرهم • وفى ذات الوقت الذى ارسلت فيه هذه الرسالة الى زوجة الرئيس ، ارسلت ايضا الى الاتحاد النسائى الديمقراطى •

ناقشت الرفيقات الظروف التى سوف يجرى فيها الاضراب • كان تقديرهن أن الظروف مهيأة وموانية . فهنالك تغييرات سياسية كبرى ، تجرى فى الواقع المصرى ، كما ان الحكومة قد بدأت الافراج عن البعض منهن ، وأنه يمكن بضغطهن ، تحقيق مكاسب فعلية • كان عـدد المعتقلات قد غدا محدودا • ومن هنـا ظهرت ضرورة دخـول الجميع الاضراب ، باستثناء الحالات المرضية الحادة • وكان دخول الجميع يعنى ، دخـول الرفيقات المنتميات الى الحزب الشيوعى المصرى ، وكذا « حدتو » ، وايضا اللواتى ليس لهن انتماء حزبى • كانت وحدة المعتقلات ، كمعتقلات يعانين نفس الظروف ، بغض النظر عن أى انتماء ، مسألة ضرورية وجوهرية • تقول ليلى الشال ، « ان تجربة سجن القناطر ـ نساء ، فى نفـديرى تجربة انسانية فى الأساس ، لقد كانت القضايا التى تثار فى سجن الرجال أو الواحات تثير لدينا بعض الاجواء ، الا انها سرعان ما تنتهى • كان لكل تيار ، مثلا ، اجتماعاته . وكنت انا اقوم بحراسة الزميلات الاخريات اثناء اجتماعهن ، بان اقف على الشباك اراقب أى مرور لادارة السجن » • وهكذا تقرر الاضراب بالاجماع •

ناقشت الرفيقات ، ايضا ، مخاطر الاضراب واحتمالاته ، والتجارب السابقة التى خاضها الرفاق • كانت بينهن رفيقات متعبات صحيا ، ويمكن

لحالهن ان يزداد سوءا ، ان تدخلن المعركة . كما كانت هنالك احتمالات رد المباحث العامة على الاضراب بارسالهن الى التأديب . ناقشن طبيب السجن فى هذه المسألة . قال الطبيب بان فى التأديب مريضات بالجذام ، ولا يمكن وضع المعتقلات معهن فيه . وعلى هذا الاساس ، بدأ الرجل فى اعداد المستشفى لهن . نظف العنبر وفرش السرر بالحشايا .

عندما اخطر الرفاق فى سجن القناطر — رجال ، باعتزام الرفيقات دخول معركة الاضراب ، رفض الرفاق فكرة الاضراب . كان تقديرهم ان الوقت غير مناسب . دار جدل طويل بين السجنين . انتهى الجدل الى اعلان الرفاق فى سجن الرجال ، اصرارهم على عدم الموافقة ؛ مع ترك القرار النهائى فى يد الرفيقات وعلى مسئوليتهن . وان حدث ودخلن الاضراب ، فلسوف يقدم الرفاق كل جهد مستطاع .

وعندما اخطرت الرفيقة المعتقلة ، زوجة كانت ام اختا أو خطيبة ، زوجها أو اخاها أو خطيبها ، المعتقل او المسجون ، بقرار الاضراب . كانت الردود تحيى هذا الموقف ، لكنها ، فى ذات الوقت ، تطالبهن بتحكيم العقل وعدم الاندفاع وراء العواطف .

أما العائلات ، فقد رفضت غالبيتهـا فكرة الاضراب . وقلن ان المباحث العامة سوف تترك الرفيقات حتى الموت ، دون ان يدرى بهن احد . ورغم ذلك ، فما أن بدأ الاضراب حتى كانت العائلات شعلة من الحركة التى لا تهدأ . لم يتوانين لحظة عن ارسال التلغرافات وتشكيل الوفود الى الجهات المختلفة ، ومنها وزارة الداخلية والمباحث العامة .

حددت الرفيقات مطلب الاضراب « بالافراج أو الموت » . كان هنالك اصرار على رفع هذا الشعار ، وفى ذات الوقت كانت هنالك المطالب الاحتياطية : تحسين الظروف المعيشية ، حق الرفيقات فى طهو طعامهن بانفسهن ، الكتب ، الجرائد ، الخطابات ، الطرود ، التعامل مع الكانتين ، فتح باب العنبر والزيارة . تقول انجى افلاطون ، « كان الاضراب دفاعا عن اوضاعنا نحن ، وليس مجرد اضراب تضامنى مع زملاء معتقلين أو مسجونين فى أماكن أخرى » .

تم الاتفاق على دخول ثلاثة عشر رفيقة فى هذه المعركة : انجى افلاطون ، فاطمة زكى ، ثريا شاكر ، ثريا ابراهيم ، سعاد الطويل ، جنيفيف سيداروس ، عايدة بدر ، زينات الصباغ ، أميمة أبو النصر ، سميرة الصاوى ، زينب ، سيدة ، ايفون حبشى .

اعفيت ثريا ادهم من الاضراب لمرضها ، ولم تدخله اسماء البتلي ، أما نوال الحملاوي فكانت قد تحولت الى سجينة .

انتصار خطاب ، محسنة توفيق ، ليلى عبد الحكيم ، ليلى الشال ، ليلى شعيب كان قد افرج عنهن ، وكذا وداد مترى .

استعدت الرفيقات للاضراب ، فاخذن مسهلا وحقنا شراجية لافراغ كل ما في بطونهن من فضلات ، ماعدا جنيفيف سيداروس ، مما سبب لها ، فيما بعد ، متاعبا جمة .

بدأ اعلان الاضراب برفض الرفيقات المعتقلات استلام الطعام . رفضت الباشسجانة اخطار الادارة . كانت حزينة ، وكذلك كانت الرفيقات وكل المسجونات ، فقد ماتت سجانة عنبر المعتقلات - وكانت امرأة محبوبة تتسم بالطيبة - وهي تلد في اليوم السابق على الاضراب . قالت الباشسجانة لهن ، انه عيب عليهن ان يضربن عن الطعام في يوم حزين كهذا اليوم . لم تكن هنالك فرصة للتأجيل بعد كل هذا الاعداد . توجه منهن وفد لمقابلة مأمور السجن ، سأل ، من المضربات ؟ قلن ، جميعا . تساءل مندهشا ، كلكن حتى « حدتو » ؟ قلن ، نحن لا نعرف عما تتحدث . قال ، حسنا ، لقد نجحتن فيما لم ينجح فيه الرجال . نصحهن بالعدول ، الا انهن اخبرنه بان الاضراب مستمر حتى الافراج او الموت - اخطرت ادارة السجن ، المباحث العامة بالاضراب ، فأمرت الأخيرة بوضعهن في التأديب . رد طبيب السجن بان بالتأديب مريضات بالجذام ، وانه غير مسئول عن ارسال اى واحدة من المضربات الى هنالك ، ما لم يصله أمر كتابى بذلك . لم يصل هذا الامر الكتابى أبدا . ظلت الرفيقات في العنبر . كانت المسجونات العاديات ، غير مصدقات لحقيقة ما يجرى أمامهن . كان عامود المتعهد يصل الى العنبر ، ليظل في موضعه حتى يحل موعد الوجبة التالية .

تقول ثريا حبشي ، « كنت اتذكر ما كان يقوله زوجي فوزى حبشي عن الاضراب ، وكيف ان صعوبته تكون في الايام الثلاثة الأولى ، الا اننى وجدت الامر يزداد صعوبة يوما بعد يوم . ومع ذلك كانت المعنويات عالية » .

سار الاضراب . لا شيء غير الماء المضاف اليه بعض الليمون كمطهر . كانت نوال الحملاوي تقوم بتقديم هذا الشراب صباحا وظهرا ، واطلقت المضربات على ذلك ، من باب « الترفيه » والسخرية ، وجبة الافطار والغداء . كانت ايفون حبشي تقوم ايضا على خدمة المضربات ،

وتعمل على تسليتهن واضحاكهن ». حتى حان موعد دخولها الاضراب ، ملحقت بباقى الرفيقات فى اليوم العاشر · كان قد افرج عنها فى يوليو ١٩٦٠ ، ثم اعيد القبض عليها فى ابريل ١٩٦٢ على ذمة قضية . وبالتالى فقد كان وضعها وضع من هن تحت التحقيق ، وليس وضع المعتقلات .

سعت ثريا ادهم حتى تم نقلها الى مستشفى القصر العينى . وهنالك نظمت حركة الاتصال بين الرفيقات المضربات فى سجن النساء وبين العائلات فى الخارج ، وكذا الاتصال بسجن القناطر ـ رجال · تقول ثريا ادهم ، « كان الاتصال بالمضربات ، يكاد يكون يوميا لمتابعة الحالة ، وكذلك الامر بالنسبة للاهالى للتعرف على جهودهم وتحركاتهم . وبذا كان يتم التعرف على جهود الاطراف المختلفة يوميا وبالتفصيل » .

جاءت النيابة فى اليوم الثالث ، بعد ان وضح للادارة اصرار الرفيقات على الاستمرار · جاء وكيل النيابة الى العنبر ، يرافقه شخص آخر · عندما بدأ سؤاله عن أسباب الاضراب ، تصدت له فاطمة زكى ، سألته عن هذا الذى يصاحبه ، ومن يكون ؟ اصابته الدهشة فتساءل ، ولماذا ؟ طلبت فاطمة زكى الاطلاع على بطاقته الشخصية . تجهم وكيل النيابة وسألها ، ان كانت ستجيب على اسئلته أم لا ؟ اصرت على معرفة شخصية مرافقه ، والا فلا اجابة · احتد النقاش ، فانسحب رجل المباحث العامة · بدأ وكيل النيابة اسئلته التقليدية : الاسم ، العنوان ، السن ثم المطالب · شرحت كل واحدة من الرفيقات أحوالها ، ووجودها فى هذا السجن منذ ما يزيد على ثلاث سنوات دون سبب واضح . تكلمت البعض منهن كلاما سياسيا ، وتقدمت البعض بمطالب الاضراب .

نقلت الرفيقات بعد هذا اللقاء الى عنبر فى مستشفى السجن ، تحت المراقبة . احسسن بالراحة هناك ، فلأول مرة منذ اعتقالهن تنام الواحدة منهن على سرير مستقل ، وليس جزءا من طوابق ثلاث .

كان مأمور السجن حينذاك حسن الكردى · كان الرجل متأثرا غاية التأثر من هذا الاضراب · كان يأتى يوميا ليتابع حالة المضربات ، ويرسل بالتقارير الطبية فورا الى المباحث العامة · تقول ايفون حبشى ، « كانت زوجته ايضا فى غاية التأثر ، تسأل عنا يوميا ، وتتساءل عن الداعى لكل هذا الذى يجرى » .

مضت ثمانية ايام على الاضراب ، وبدأت أول محاولة جادة لتحطيم الاضراب · كانت نقطة الضعف عند أى من المعتقلات الامهات هى

امومتها . ومن هنا بدأ الهجوم واتخذت المباحث العامة من الابناء سلاحا لها . اختاروا من الامهات ، اكثرهن انفعالا بسبب حرمانها من رؤية ابنائها . وبدأت المحاولة بثريا شاكر . جاء أبوها وابناها ممدوح وحسام لزيارتها بموافقة المباحث العامة . دار حديث والدها حول اقناعها بضرورة الا يكون لها علاقة بباقى زميلاتها ، لانهن السبب فى الاضرار بها . قال انها ان أفطرت الآن وخرجت من الاضراب ، فان لديه وعدا قاطعا بالافراج عنها فورا . هددها بانها ان لم تطعه وتستجيب الى ما يقول ، فانه سيغضب منها . ظل طوال الزيارة يضغط ويلح الحاحا عنيفا . قالت له ثريا ، ان هذا الكلام كله لا جدوى منه ولا طائل من ورائه . تلك محاولة مجدبة ، والجدل حولها لن يؤدى الى اية نتيجة . كان ممدوح وحسام يبكيان طوال الوقت ، يتوسلان الى امهما ان تكف عن الاضراب حتى تستطيع الخروج لهما . تقول ثريا شاكر ، « قلت لهما ، انهم يكذبون عليكم ، فلا تصدقوهم . نحن نضرب حتى نخرج . ولو كانوا حقا يريدون اخراجنا ، فما الذى يمنعهم من ذلك ؟ . ولماذا هم قد فعلوا بنا ما فعلوا . كنت انا الام المتلهفة على رؤية ابنائها ، اتمنى انتهاء تلك الزيارة » .

ويقول حسام حبشى (وقد صار الآن شابا) ، « كنت فعلا فى هذه الزيارة . اتذكر جدى وهو يتوسل الى أمى بالحاح كى تخرج من الاضراب ، الا انها رفضت وكذبت وعودهم . كان جدى رجلا طيبا للغاية ، فصدق وعودهم » .

كان حسن المصيلحى ، المسئول الأول عن مكافحة الشيوعية فى مصر ، هو القابع وراء تلك المحاولة ، بوعودها الكاذبة . وفشلت المحاولة فشلا ذريعا ، فالاولاد الذين هم نقطة ضعف الأم ، لحنانها المفرط ، هم ، ايضا ، نقطة قوتها وصمودها : فالمناضلة الأبية فى ثريا شاكر رفضت ان تلوث الأم وتهزمها . فغدا يكبر الابناء ، وتسقط الأم ، من عيونهم ان هى اليوم هوت وضعفت فسقطت . وبفشل هذه المحاولة النوعية مع « اضعف حلقاتها » ، كما توهمت المباحث العامة ، فانها لم تكررها مع اية رفيقة أخرى .

كان موقف طبيب السجن ، دكتور صادق ، وطبيبة السجن ، دكتورة ايفا ، ممتازا مع الرفيقات . كان الطبيب يزورهن يوميا ، ويكتب تقريره عن سوء حالتهن الصحية بل وخطورة حالة البعض منهن . شحب لون انجى افلاطون ، واشتد التعب بثريا شاكر ، فاطمة زكى وجنيفيف سيداروس . كان ذلك بعد اليوم الثالث . الا ان المعنويات كانت عالية .

ويأتى اليوم العاشر ، وتنتشر فى عنبر المستشفى رائحة الاسيتون ، ويقول الطبيب ان المواد الغذائية المختزنة فى الجسم قد استنفذت ، وبدأت الدهون فى الاحتراق ، وبمعدلات سريعة • بدأ كبد ثريا شاكر متعبا ، وبدأت جنيفيف سيداروس تصاب بالنزيف . حاول الطبيب النوبطشى حقنها ، الا انها رفضت وكذا الرفيقات • اصر الطبيب النوبطشى على رأيه ، فوقع صدام بينه وبين الرفيقات ، فطلبن منه مغادرة العنبر ، وعدم دخوله ، مرة اخرى . ذهب الطبيب الى الضابط النوبطشى يشكو له ما حدث • حاول الضابط اثناء الرفيقات الا انه فشل • قال ، ان ما تهدف اليه الادارة ، هو الا تتعرض حياتهن للخطر . طلب منهن الا يغضبن من الطبيب ، فما استهدف الرجل الا انقاذ واحدة من زميلاتهن ، وأن عليهن مساعدته فى ذلك • قلن له ، انهن مضربات حتى الموت ، وتنفيذ ما يقول يعنى كسر الاضراب ، وهن لن يفعلن ذلك أو يسمحن به • كتب الاطباء عن فاطمة زكى ،نها قد اصبحت « Earthy Colour » أى بلون التراب ، وهى فى عرفهم حالة الموت • ظلت الرفيقات كذلك ، حتى اليوم السادس عشر • وارتفعت نبرة التقارير الطبية تنذر بالخطر الحال • هنالك ثلاث حالات مشرفات على الموت • كانت حالة فاطمة زكى أكثر الحالات خطورة ، تليها جنيفيف سيداروس ثم ثريا شاكر •

فى اليوم السابع عشر ، جاء رجلان من المباحث العامة ، بهدف انهاء الاضراب • قال احدهما ، « اود ان تحادثنى واحدة منكن فقط » .

قالت الرفيقات معا ، « كلنا سوف يتحدث » •

جلس فى وسط العنبر . امسكت فاطمة زكى بالدفة الأساسية للحديث، رغم سوء حالتها الصحية •

قال ، « ما هى مطالبكن ؟ » •

قلن ، « الافراج » •

قال ، « لا افراج . لا توجد دولة تحترم نفسها ، وترجع عن موقفها لأن عددا من الرجال أو النساء قد اضرب عن الطعام • لا افراج ، وبذا ننتهى من النقطة الأولى » •

كان يتحدث بطريقة استفزازية .

قلن له ، « حسنا ، لا افراج من جانبكم ، ولا كلام من جانبنا • ما الداعى لحضوركما ، اذن ، اذا كان هذا هو الموقف • نحن نريد النيابة » •

قال المباحثى الاستفزازى ، « لا نيابة ايضا . فى وسعنا ان نتركك هكذا حتى تمتن دون ان يشعر بكن أحد » ٠

حاول ان يتدخل الآخر تخفيفا لحدة المناقشة ٠

قالت الرفيقات ، « نحن لم نطلب حضوركما . فلماذا جئتما أذن ؟ » ٠

قال الأول ، « لا افراج . دعونا نتحدث فى المفيد » ٠

استمر الجدل حول قضية الافراج قرابة الساعتين ٠

قال الرجل فى النهاية ، « ننهى هذا الموضوع بوعد بالافراج » ٠

قالت الرفيقات ، « متى ؟ حدد لنا موعدا » ٠

قال ، « لا ، لا ميعاد . فى اقرب وقت » ٠

قلن ، « وماذا تعنى باقرب وقت هذا ؟ ربما كان بعد عام ، عامين ، خمسة عشر عاما ٠ من يدرينا ! ؟ » .

قال ، « انه وعد من رئاسة الجمهورية » ٠

انتقلت المفاوضات الى المطالب ٠

قال ، « قراءة الجرائد مسموح بها ، فى حدود جريدة الاهرام فقط » ٠

طالبت الرفيقات بقراءة كل الجرائد ، فاصر على « الاهرام » وحده .

قال ، « توافق على تحسين الطعام » ٠

قالت الرفيقات ، « نحن سيدات ، نعرف كيف نعد الطعام . نتسلم اللحم والخضار ، ونطبخ لانفسنا » ٠

قال فى تعال وضيق ، « تلك مسائل داخلية . تحل مع مامور السجن » ٠

قال مامور السجن ، « حسنا ، حسنا . سوف احل هذه المشكلة ٠

رفض الزيارة ، ورفض قراءة الكتب حتى من مكتبة السجن . وافق على خطاب من كل منهن الى اهلها مرة كل خمسة عشر يوما ، بدلا من خطاب كل شهر ٠ طلبت الرفيقات ان يكتبن وقت يشأن . رفض واصر على كل خمسة عشر يوما ٠ نبه على المأمور ، مؤكدا هذه النقطة ٠ وافق على زيادة الامانات لكل معتقلة من جنيهين الى اربعة ٠

قال ، بعد ان تم الاتفاق على كل شيء ، « احضروا الطعام حتى اراكن تأكلن قبل ان اغادر » .

اصرت الرفيقات على فك الاضراب بمحضر ، تسجل فيه كل الاتفاقات التى تم التوصل اليها ، كذا التنبيه على مأمور السجن بالتنفيذ • نص فى المحضر على وعد بالافراج ، تم التوقيع على المحضر .

فكت ايفون حبشى الاضراب فى النيابة ، باعتبارها ، تابعة لها ، تحت التحقيق • سألها وكيل النيابة بعد انهاء الاضراب وتسجيل محضر بذلك ، « لماذا انت شيوعية ؟ » • قالت له ، « ولماذا انت وكيل نيابة ؟ » • اغلق المحضر الا انه اصر على ضرورة البقاء ، حتى يراها تشرب الحساء امامه •

احضر مأمور السجن ، من منزله ، حلة نحاسية ضخمة مليئة بالحساء ، وكمية هائلة من الليمون . بدأ فك الاضراب بتناول الحساء والسوائل • احتفلوا ، فى نفس هذا العنبر ، برأس السنة • كتبن على النوافذ بالقطن ، « كل عام وانتم بخير » .

تقول ثريا شاكر ، « عندما بدأ فك الاضراب ، تذكرت ما كان يقوله زوجى ، فوزى ، من أن اخطر ما فى الاضراب هو حله • جلست اتفلسف على الزميلات واحذرهن من مخاطر الافطار بعد فك الاضراب • شربنا عصيرا ولم نأكل شيئا . الا ان واحدة من المسجونات العاديات ، اعدت لنا وليمة . كانت من الفول الأخضر ، والملوخية والبلوبيف • ونسيت كل ما كنت انصح به الزميلات • رائحة الملوخية الشهية ، دفعت بكل المحاذير الى الخلف . اكلت كأنى لم آكل ، فى حياتى ، من قبل • كان وزنى قبل الاضراب ٧٣ كيلو جرام ، فغدا ، الآن ، ٥٦ كيلو جرام • كنت مجرد جلد على العظم . الا انه بعد وجبة الملوخية والبلوبيف ، أخذ جسدى كله فى الانتفاخ • انتفخ وجهى ، انتفخت رجلى ، انتفخت بطنى ، وغدت حالتى خطيرة • اصيبت الزميلات بالفزع ، مما اضطرهم الى فتح السجن ليلا • قال الطبيب ، ان الاضراب قد اصابنى بنقص شديد فى البروتين فى الدم ، وأن هذا الطعام الذى أكلته ، عندما وصل الى الدم ، احدث فى جسدى صدمة . حاول اعطائى حقنة ضد الحساسية ، الا ان عروقى ، فى تلك اللحظة ، اختفت تماما . ظللت هكذا عشرة ايام بعد الاضراب ، حتى شفيت . سخرت منى الزميلات • قلن ، كنت تتفلسفين علينا ولا تلتزمين بكلامك • لم تموتين من الاضراب والجوع ، لكنك كدت ان تموتى من الافطار والطعام » •

بعد الاضراب ، اصبح باب العنبر مفتوحا طوال النهار • سمح لهن بموقد جاز ، بصورة رسمية • كن يشترين له الجاز من الامانات • استأمن الخضار واللحمة ليقمن بطهيها بانفسهن داخل العنبر . قسمن عملية الطهى فيما بينهن ، واصبح على كل واحدة منهن ، ان تقوم بهذه العملية يوما • كن يذهبن الى غرفة الموسيقى ويلعبن هناك • كان التليفزيون قد ظهر ، وكان مسموحا لهن برؤيته ، يوما واحدا فى الاسبوع ، الا انهن كن يشاهدنه كل يوم • تقول فاطمة زكى ، « كنا نرى برنامج نافذة على العالم • لن انسى منظر المسجونات العاديات ، وهن يرقصن على موسيقى مقدمة البرنامج • هن يرقصن عند سماع اية موسيقى • بعد الساعة الخامسة كنا ندخل العنبر . كنا نرى السينما مرة كل شهر . كانت المسجونات يجلسن على الأرض ، اما نحن فقد كانت تحضر لنا دككا نجلس عليها . كنا نذهب الى السينما ، بعد أن نعد شعورنا ، ونلبس الفستان اليتيم ، والاحذية ذات الكعوب ، ونعد الشاى والساندوتشات • كنا نحاول صناعة جو انسانى ، ونتفرج على السينما ، بينما نأكل السندوتشات ونشرب الشاى » •

لقد بدات ، بعد الاضراب وبسببه ، انفراجة سجنية طيبة •

الفصل السادس

التحقيق والمحاكمات

التحقيق والنيابة :

كانت المهمة الثالثة للجنة القيادية بسجن القناطر ـ نساء ، هى مناقشة الرفيقات اللواتى كان يتم استدعاؤهن للنيابة للتحقيق .

فى عربة البوكس خرجت الرفيقات من السجن الى نيابة امن الدولة ؛ كن ينشدن ويهتفن طوال الطريق · أخذ ضباط الحراسة فى سبهن . أمروا السائق بعدم السير فى الشوارع الرئيسية ، واللجوء الى الشوارع الضيقة والحوارى حتى وصلت السيارة الى باب الخلق . هنالك وهن يصعدن سلم المبنى ، رأت انتصار خطاب زوجها صلاح خطاب يقوده الحراس الى التحقيق · افلتت من حرسها وانطلقت نحوه · قال لها فى سرعة ، « قولى كما اتفقنا · كل ما وجد فى المنزل يخصنى انا » · عندما رأت ثريا شاكر ، صلاح خطاب ، أخذت فى الصياح تسأل عن زوجها ، فوزى حبشى · طمأنها صلاح خطاب ، بانه قادم لتوه من القلعة ، ولم يصل فوزى اليها بعد · (عندما عاد صلاح الى سجن القلعة ، وجد فوزى حبشى ، وكان قد قبض عليه فى نفس اليوم) ·

استدعيت ثريا شاكر للمثول أمام وكيل النيابة . كان أحمد على موسى . سألها :

ـ ما رأيك فى نظام الحكم ؟

اجابت .

ـ لا علاقة لى بالسياسة ، فأنا ربة بيت .

اعاد السؤال مرة أخرى ، بصورة أخرى ، أجابت .

ـ شعار الدولة يقول بالاشتراكية ـ الديمقراطية ـ التعاونية (وأكدت على كلمة ديمقراطية اثناء نطقها لها) · ولو كانت كلمة ديمقراطية تلك منفذة ، لما رأيتنى هنا أمامك . وأمنيتى حقا ؛ أن تنفذ الدولة شعارها ·

قال :

ـ وتقولين الا علاقة لك بالسياسة ! ماذا تقرأين من كتب ؟

ـ اقرا ، اساسا ، كتبا اجتماعية ٠

ـ حسنا ، تقرأين الكتب الاجتماعية ، أساسا ، فماذا تقرأين فرعا ؟

ـ كلمة « اساسية » تلك لازمة لى فى كلامى ٠ أنا أقرأ الكتب الاجتماعية والادبية ٠

***

ومثلت ، ايضا ، انتصار خطاب أمام وكيل النيابة ٠ كان يجلس الى جواره الكاتب وشخص ثالث ٠ سألت انتصار خطاب ، وكيل النيابة ، عن هوية هذا الثالث ٠ قال ، مباحث عامة . اعلنت انها لن تتكلم حتى يأمر باخراجه . أخذا يتهامسان ، ثم نهض ضابط المباحث قائما ، الا انه جلس خلفها . كان من الواضح ان وكيل النيابة عاجز عن اخراجه . سألها وكيل النيابة عن الكتب التى عثروا عليها فى منزلها ، اجابت بان كل ما أخذ من المنزل يخص زوجها ٠ قال ٠

ـ حسنا ، ربما قلبت فى هذه الكتب ، أو قمت بترتيبها .

ـ كلا ٠ لم يحدث ٠

ـ الا تعرفين عنها شيئا ؟

ـ كلا ٠ لا شىء البتة .

ـ فيما تتحدثين انت وزوجك عندما تكونا على انفراد ؟

ـ تماما ، فى نفس ما تتحدث فيه انت وزوجتك عندما تكونا على انفراد ٠

ـ ما موقفك من نظام الحكم ؟

ـ من حقى أن اعترض على نظام الحكم ، الا اننى لست منضمة الى أى تنظيم سياسى ٠

ـ اذا من تكون « الهام » تلك ؟

ـ لا اعرف .

ـ هل لديك أقوال أخرى ؟

ـ نعم ، زوجى صلاح خطات بالخارج هنا ٠ اطلب التصريح لى بمقابلته .

وافق على التصريح ، ومنحها اياه ٠ الا ان المباحث العامة منعتها ، وكأن النيابة لا وجود لها .

***

ايفون حبشى ، قبض عليها فى حملة مارس ١٩٥٩ ، وافرج عنها فى ٢٤ يوليو ١٩٦٠ ٠ عملت رسامة فى أحد مصانع النسيج بشبرا الخيمة ، واقامت هناك .

فى الساعة الواحدة والنصف ، بعد منتصف الليل ، فى ٢٥ ابريل ١٩٦٢ هاجم حسن المصيلحى ومعه قوة من المباحث العامة حجرتها • فتشوا كل ركن فيها ، حتى بلاطها كانوا يدقون عليه • اخذوها الى مبنى المباحث العامة ، حيث وضعوها فى احدى الطرقات ، وتركوها بلا طعام أو شراب • رأت فى الطرقة اشباح بعيدة ، اناسا جالسين على الأرض • والمخبرين فوق الكراسى يراقبون • كانوا رفاقا امسك بهم فى نفس الحملة •

انزلوها الى حجرة بالطابق الأرضى ، وهنالك سمعت فى الحجرة المجاورة لها ، صوت سيدتين مسنتين ، كانت احداهما تسب وتلعن ، فهى مريضة ، بلا دواء ولا تستطيع الجلوس • كانت تدعو الله ان يخرب بيوتهم كما خربوا بيتها واعتقلوا ابناءها •

كان وكيل النيابة المحقق ، هو سمير ناجى • وكان استفزازيا كعهده فى كل تحقيق اجراه . سألها ان كانت تعرف الاشخاص المقبوض عليهم ، فنفت معرفتها بأى واحد منهم .

غضب وثار مؤكدا اعتراف الجميع عليها • اكدت نفيها ، « فليعترف من يعترف كيف شاء • ان اعتراف الآخرين أمر لا يخصنى » •

قام بعملية عرض بينها وبين المقبوض عليهم « حسن بيومى ، ابراهيم فتح الله ، عبد المحسن شاشه ، على بدوى وعبد الستار » ، فلم تتعرف عليهم أو يتعرفوا عليها . قام بعملية عرض أخرى مع السيدتين المسنتين ، بالصوت والرؤية المباشرة ، الا انهما لم يتعرفا عليها • فارسل بها الى سجن القناطر ـ نساء ، تحت التحقيق •

* * *

كانت السيدتان اللتان تمت معهما المواجهة هما ام نسيم يوسف السجين بسجن القناطر ـ رجال ، وأم أحمد ومحمود العطار السجينين بسجن المحاريق بالواحات الخارجة . كانت السيدتان من اصلب المناضلات فى قيادة عائلات وأسر المسجونين والمعتقلين الشيوعيين • وكان القبض عليهما ، وتعريضهما لكل صنوف الضيق والمهانة ، يستهدف بث الذعر فيهما وفى باقى العائلات ، حتى يتوقف نضالهن ، والذى كان يسبب للسلطات أشد القلق والازعاج •

أم محمد محمود عثمان ، أم مصطفى عباس ، أم العطارين وام نسيم ، اسماء مدوية فى عالم العائلات • سيدات مسنات ، امتلكن الارادة

الفولاذية والقدرة القيادية التلقائية ، فقدن حركة العائلات فى اشد الظروف اظلاما وارهابا • بدأت كل منهن كأم لمعتقل أو أكثر ، لمسجون أو أكثر ، ومع الايام غدون ، حقيقة ، أمهات لكل المسجونين وكل المعتقلين .

كانت أم نسيم يوسف ، انسانة بسيطة للغاية ، لا تجيد القراءة او الكتابة • يقول ابنها نسيم يوسف ، « بدأ تحرك أمى ، عندما قبض على فى منتصف الخمسينيات . كان تحركا عائليا فى الأساس . وعندما انعقد مؤتمر حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى ، منحتها اللجنة المركزية ، عضوية الحزب ، تقديرا لجهودها ونشاطها • ومنذ تلك اللحظة بدأت تتحرك سياسيا وتنظيميا • بعد حملة ١٩٥٩ والقبض على ، اصبحت انا وكثير ممن تعرفهم من الرفاق ، خلف القضبان • واصبح تجميع الزملاء فى الخارج وحماية الحزب ، هو الطريق أمامها لحمايتنا فى الداخل ، والطريق الى خروجنا ايضا » .

٢١ مارس ١٩٦٠ ، يوم عيد الأم ، علم الرفاق فى اوردى ليمان أبو زعبل ، بأن سيدة قد وصلت اليوم الى باب المعتقل • وأن حسن منير قائد المعتقل قد رآها ، فأمر بقوة حملتها الى خارج المنطقة • كما أمر بتكدير عزبة السجانة ، فقد كانت ، هذه العزبة ، قرب المعتقل ، كما انها الممر الوحيد الذى يؤدى اليه . وكان لتلك الواقعة اصداؤها فى المنطقة كلها •

لم تكن تلك السيدة ، التى بلغت باب الاوردى ، غير أم نسيم • كانت قد عرفت بوجود الرفاق ، ومعهم ابنها ، فى أوردى ليمان أبو زعبل ، فقررت أن تصل الى هناك ، بأية صورة من الصور ، لعلها تسمع عنهم شيئا ، أو تعرف حقيقة ما يجرى معهم . ارتدت ملابس بلدية ، وتوجهت الى عزبة السجانة ، باعتبارها دلالة تبيع القماش بالتقسيط • تجمعت حولها نسوة السجانة ، وكل واحدة منهن ، تطلب منها ، ما تحب من أقمشة . كان الوقت ظهرا ، فتناولت غذاءها معهن • سألتهن ، أثناء تناول الطعام ، عن طبيعة هذا المكان ، فبدأت حكايات النسوة عما يجرى داخل المعتقل . غادرت على أن تعود الى المجىء • وجاءت يوم ٢١ مارس • كان من عادتها أن تزور ابنها ورفاقه ، اثناء ان كان سجينا ، فيما سبق ، فى مثل تلك المناسبة . ذهبت الى عزبة السجانة فارغة اليدين ، واعتذرت لنسوة السجانة بانها احضرت القماش المطلوب معها ، الا ان اخريات أخذنه منها فى الطريق ، ووعدتهن باحضار كل حاجاتهن فى

الاسبوع المقبل ، ثم غادرت · الا انها بدلا من ان تغادر فى الاتجاه الذى جاءت منه خارج العزبة ، اتجهت من العزبة الى اوردى أبو زعبل حتى بلغت البوابة ، وهنالك حدث ما حدث · الا ان مجرد وصولها الى باب الاوردى ، كان بمثابة رسالة الى الرفاق المعتقلين خلف جدرانه . رسالة تقول لهم : « نحن معكم · اننا نفعل المستحيل من أجلكم » ·

وجاءت قضية ٢٥ ابريل ١٩٦٢ . فكانت فرصة للمباحث العامة كى تزج بها فى هذه القضية · وفى التحقيق الذى أجراه سمير ناجى بحضور حسن المصيلحى ، اتهمها بانها تقوم بتمويل الحزب الشيوعى المصرى وتعمل على تجميع رفاقه · وردت أم نسيم عليهما ، « كيف بى انا الفقيرة التى لا تستطيع تدبير حياتهما ، ان تمول حزبا سياسيا ! اننى لا اعرف أحدا غير ابنى »

لم تجد النيابة أمامها الا ان تفرج عنها . وقال لها حسن المصيلحى وهى تغادره ، « لقد خرجت هذه المرة على قدميك · أما فى المرة القادمة ، فلن تخرجى الا على ظهرك » · ابقوها عدة ايام فى اقسام الشرطة ، ارهاقا وتنكيلا ، ثم خرجت الى الشارع مرة أخرى ·

* * *

افرج عن ايفون حبشى للمرة الثانية فى ١٣ فبراير ١٩٦٣ ، ثم اعيد القبض عليها فى ٢٥ ديسمبر ١٩٦٣ ·

توجهت ، بعد الافراج عنها ، الى المصنع الذى كانت تعمل به · كان لها بقية من أجر . الا انهم اعادوها للعمل لكفاءتها السابقة ، وحاجتهم اليهـا ·

دق الهاتف فى حجرة عملها · قال السائل ، عندما تحقق من شخصيتها ، انه من طرف اصدقاء مشتركين ، وانه يود لقائها لأمر هام . حدد الموعد ، وذهبت بالفعل الى لقائه · اخبرها انه قادم من طرف أحد الرفاق ، وهو فى حاجة الى جنيهات خمس ، كما أنه قد ارسل لها معه خطابات واوراق ، سوف يحضرها فى الموعد القادم . كان الرفيق الذى يتحدث عنه سجينا بمنفى الواحات ، فسألت ، هذا الوسيط ، كيف امكنه الاتصال به ؟ فأخبرها أنه الآن فى سجن مصر . انتابها الشك فى امره ، « كانت هيئته اقرب الى المخبرين منها الى هيئة الرفاق وتصرفاتهم » . حصلت على الجنيهات الخمس من شقيق الرفيق السجين · حذرها ، عندما سمع باحداث القصة ، من هذا الرجل . اذ لو كان أخوه

قد جاء من سجن الواحات الى سجن مصر ، لكان بالضرورة قد علم هو بذلك . ذهبت فى الموعد المحدد • الشك يساورها بقوة ، الا انها تختشى ان يكون شكها فى غير موضعه • اخذ الرجل النقود ، وناولها الأوراق ، عادرت المكان ، وبينما تهم بركوب الاتوبيس ، انقضت عليها المباحث العامة ، وسقطت فى الكمين •

عندما رآها ، أحمد صالح داود ، سبها سبا بذيئا ، مقزعا • فردت عليه سبابه • أمر بنقلها الى قسم الخليفة ، حيث عوملت اسوأ معاملة • تركوها بلا طعام ، حتى جراية المحتجزين ، حرموها منها • دقت باب التخشيبة ، فاتاها ملازم ثان . سألها زاعقا ، ماذا تريد ؟ طلبت طعاما . سألها مرة أخرى ان كان معها نقودا ، فاعطته كل ما معها . اخذ النقود ولم يعد ، ولم يرسل لها طعاما •

بعد ايام سبع أخذوها للتحقيق ، كان وكيل النيابة طويلا ، عريضا ، يجلس الى مكتب حشر فيه حشرا . جلس حوله ضابط مباحث وآخرون • سألها المحقق ، ما اسمك ؟ قالت ، لن اجيب ، حتى يغادر هؤلاء الذين حولك ، الحجرة فورا . سألها ، لماذا عيناك حمراوتان ؟ قالت ، لن اجيب الا ان خرج هؤلاء • قال ، ليس هذا الكلام فى صالحك . سألته ، اى مصلحة تعنى ؟ قال ، مصلحة التحقيق • ولسوف اسجل لك كل ما تشاءين • اصرت على موقفها فغادر الضابط ومن معه الحجرة • بدا الارتياح على وكيل النيابة • عاد يسأل مرة أخرى ، ما اسمك ؟ طلبت ، قبل أى شىء ، ان يسجل كل ما حدث لها ، ففعل . اختتمت تسجيلها بقولها ، « وهكذا ترى سيادتك ، لماذا احمرت عيناى » . ثم طلبت أن تأكل من مالها الخاص ، ذلك الذى استولى عليه ضابط قسم الخليفة .

سألها وكيل النيابة ، عن من جاء الخطاب منه ؟ فاجابته بانه خطيبها • كان الخطاب يتحدث عن عيد ميلادها وهديته لها بهذه المناسبة . كان قد مضى على عيد ميلادها قرابة اربعة شهور . وكان معنى ذلك ، ان هذا الخطاب قد وقع فى ايديهم منذ فترة طويلة ، وانهم قد احتفظوا به ليخرجوه لها الآن ، كدليل اتهام • ظل وكيل النيابة ، يدور باسئلته حول هذه النقطة حتى الثالثة صباحا . كيف كانت ستتسلم هدية عيد ميلادها ؟ ومن من ؟ وهل تعرف هذا الذى سيوصلها اليها أم لا تعرفه ؟ وعندما لم يصل الى نتيجة من وراء كل تلك الاسئلة ، اخرج لها مجموعة أخرى من الخطابات ، كانت قد ضبطت معها فى المرة السابقة • فاخبرته بانها قد ووجهت بهذه الخطابات من قبل ، وانتهى التحقيق معها •

حينذاك ، الى لا شىء • انهم يسعون الى تلفيق قضية لها ، تدور حول اتصالها بالسجن •

فى الخامسة صباحا ، انهى وكيل النيابة التحقيق ، وارسل بها الى سجن القناطر ــ نساء • فى سجن النساء ، وضعوها فى عنبر تاجرات المخدرات • لم يضعوها فى عنبر المسجونات الشيوعيات • كان العنبر خاليا تماما ، لا تشغله غير السرر الثلاثية الادوار ، وكمية هائلة من البق والبراغيث والقمل . طلبت مقابلة مأمور السجن فرفض ، كانت كل ارفيقات المعتقلات قد افرج عنها فادركت انها الآن بمفردها ؛ مكدورة ردا على ما حدث منها مع أحمد صالح داود .

لم يكن معها ملابس ، فقد امسك بها من الشارع ، فاحضرت السجانة لها « شول » المسجونات العاديات • قالت لها ، انها تحت التحقيق ، وهذا رداء المحكوم عليهن . قالت السجانة ، انها الاوامر • سوف ترتدين الشول وكذا طرحه المسجونات . الباب سوف يغلق على الدوام ، والطعام طعام السجن • نظرت من شباك العنبر ، والذى كان يطل على المكان الذى تتخذه السجينات « سوقا » لاعمالهن التجارية ، ففوجئت بملابس تلقى اليها ، قميص نوم شتوى ، ومأكولات ، من بسكويت ومعلبات وسجائر . تأثرت للغاية بما فعلت السجينات العاديات ، فطلبت منهن أن تعرف من اللواتى تدمن لها تلك الاشياء ، فرفضن الاجابة . وطلبن منها الحذر ، فالاوامر ، ضدها ، مشددة •

فوجئت بان سجانة العنبر ، هى نفسها تلك السجانة التى كانت تعرفها فى سجن طنطا ، عندما كانت تقوم بزيارة السجن ، كجزء من عملها ، قبل أن يقبض عليها أول مرة • عندما تعرفت السجانة عليها ، دقت صدرها وشهقت • قالت ، ارأيت ما وصل اليه حالك ؟

قضت فى هذه التكديرة من الحبس الانفرادى ، سبعين يوما • وفى ٣ مارس ١٩٦٤ أفرج عنها بين تهليل السجينات العاديات وضجيجهن . وكان ذلك هو الافراج الثالث .

فى سراى المحكمة ، بباب الخلق ، التقت ايفون صدفة ، بوكيل النيابة الذى حقق معها آخر مرة . حياها الرجل فى حماس ، قال لها ، انه كان ذكاء منها تفنيدها لمسألة الخطاب ، واثبات انه من مضبوطات

السجن ، وليس من مضبوطاتها هي · لقد كان لهذه النقطة أهميتها ، حيث نبهته الى أن هنالك ما يدبر لها ويحاك ، اعتذر لها عن خشونته · لقد فعل بعض ما فعل خشية ان يذهب هو ايضا « وراء الشمس » . وطلب منها الا تحزن ، فقد كانت شجاعة .



القضايا والمحاكمات :

انجى افلاطون وآخران :

بينما كانت انجى افلاطون فى معتقل مستشفى القصر العينى ، جاءها فجأة اعلان بقضية . حضرت اليها شقيقتها وكذلك الدكتور محمد عبد الله المحامى · كان بادى الضيق · قال أن جلسة نظر القضية قريبة الموعد ، فى حين أن دوسيه القضية ، والذى يلزم الاطلاع عليه ، ضخم للغاية · ثم اخبرها ، ان ضابط المباحث المتواجد فى معتقل المستشفى ، سوف يتواجد معهما اثناء مناقشتهما القضية · احتجت انجى على ذلك ، الا ان المحامى طلب منها ان تتحمل ذلك ، فالوقت ضيق ، ويلزم له الاتفاق معها على كل شىء ·

جلس الثلاثة فى حجرة صغيرة . بدأ المحامى حديثه لانجى بالفرنسية . قال لها أن مركزها فى القضية ليس سيئا ، انما السىء هو ما تتمتع به من سمعة كشيوعية . تدخل ضابط المباحث متحدثا بالفرنسية ، ليفهمهما بطريقة لبقة ، ان الحديث بالفرنسية ، لن يمنعه من ممارسته لعمله . كانت النقطة التى تهم انجى فى حديثها مع المحامى ، هى رغبتها فى تقديم دفاع سياسى · كان هذا الموضوع ، من وجهة نظرها ، شديد التعقيد ، تدور حوله الكثير من الخلافات الحزبية · استقر رأيها على تقديم دفاع عن تاريخ الحركة النسائية الديمقراطية ، ودورها ، هى ، فى الدفاع عن حقوق المرأة . كان من رأى المحامى الا تقدم أى دفاع سياسى ، وان فعلت ذلك فليكن دفاعها باللغة الفرنسية أو بعربية مهشمة . اوضح لها انه انتوى ان يقيم دفاعه القانونى عنها ، باعتبار انها قد تربت تربية فرنسية ، وانها بالكاد تعرف العربية . وانها لو قدمت دفاعا سياسيا بالعربية الصحيحة ، فانها بذلك تنسف أساس دفاعه كله · تقول انجى افلاطون ، « وجدت اننى لو فعلت ما اشار به على ، فسوف ابدو ، فى المحكمة ، كالبهلوان · وامام ذلك أخبرته باننى لن اتكلم · خاصة وان القضية صغيرة العدد للغاية ، ولن يكون هنالك من يعلن عن هذا الدفاع · الا اننى أوضحت له ، أن هنالك ضجة عالمية من

أجلى ، يثيرها اتحاد النساء الدولى الديمقراطى ، وانه لو حدث وحضرت المحاكمة ؛ مراقبة من الاتحاد ، فلابد ان اقدم دفاعا سياسيا عن تاريخ الحركة النسائية وكفاح المرأة المصرية . وكان من رأى المحامى ، ان هذا الدفاع ، لو حدث ، فسيزيد الامور تعقيدا بالنسبة لى ، .

الا ان مندوبة عن الاتحاد النسائى لم تحضر . كانت المحكمة زاخرة بقضايا جنائية عادية أخرى . والقاعة مليئة باهالى المتهمين الصاديين ، ويثير الجميع ضجيجا عنيفا . كان ترتيب قضيتها فى نهاية الجلسة . الا ان هيئة المحكمة بدأت بها . كان المدعى سمير ناجى ، وكان موقفه ، كالمعهد به ، سيئا للغاية ، مصابا بحالة تشنج عصبية ، يهاجم وكأن الامر ، امر شخصى . تناول فكر الحزب ، وما يفهم من الأوراق المضبوطة ، بان عبد الناصر يمثل الاحتكار ويستعمر سوريا . الا ان الدكتور محمد عبد الله قاطعه متهما اياه ، بانه ، بما يقول ، يهاجم عبد الناصر بكلام خطير فى جلسة علنية ، بما يدين المدعى نفسه ، حيث ، انه بما يقول ، يسب ذاته الرئيس ويشتمه . فتوقف سمير ناجى ، ولم يكمل على النحو الذى بدأه . الا انه لجأ الى الهجوم التقليدى ، الهجوم على الشيوعية وأنها بلا دين أو اسرة .

ثم قدم سمير ناجى مجموعة الصور التى اخذتها المباحث العامة لانجى افلاطون بعد القبض عليها ، وهى ما زالت متنكرة ، للتدليل على خطورتها . الا ان ر دالفعل ، عند المحكمة ، كان عكسيا .

ثم تقدم المحامى بدفاعه ، طبقا لوجهة نظره .

واصدرت المحكمة حكمها بالسجن سنتين لانجى افلاطون ، وثلاث سنوات لكل من الزميلين الآخرين . واعيدت انجى الى معتقل القصر العينى ومنه الى سجن القناطر – نساء ، حيث وضعت فى مستشفى السجن مع باقى الرفيقات المحكوم عليهن .

انتهت مدة الحكم فى ١٩٦١/٦/١٩ ، فوجب الافراج عنها ، الا أن الأمر الذى كان متوقعا ، الى حد اليقين ، هو انها سوف يعاد اعتقالها مرة أخرى . جلست انجى فى حوش السجن ، فلا هى الآن مسجونة أو معتقلة . انها مفرج عنها فى انتظار أمر الاعتقال . وجاء الامر بالفعل ، فانتقلت الى عنبر المعتقلات مرة أخرى .

ورأت ادارة السجن ان هذا الاعتقال ، اعتقال جديد . وبالتالى فهو يسقط التصريح السابق لها بالرسم وعليها ان تطلب تصريحا جديدا .

بعد فترة وجيزة ، قضتها انجى فى نحت الصابون ، جاءها التصريح الجديد .

***

ثريا ادهم وآخرون :

شكلت القضية من خمس وعشرين متهما ومتهمة ، هى خليط من سجن القناطر ـ نساء ، وسجن القناطر ـ رجال . كما كانت خليطا ، ايضا ، من مختلف الانتماءات التنظيمية الشيوعية : الحزب الشيوعى المصرى ـ حدتو ـ الطليعة الشيوعية ـ ووحدة الشيوعيين .

كان فيها من النساء ثريا ادهم وثريا ابراهيم :

تقول ثريا ادهم ، « قضيتى من اغرب القضايا . تركزت حول خطابات متبادلة بينى وبين زوجى حلمى ياسين ، والذى كان قد قبض عليه فى حملة ينساير ١٩٥٩ ـ الحرز الأول فيهما كان عنوانه « حبى الكبير » ، والحرز الثانى فيها كان عنوانه « زوجى الحبيب » . وكلها فقرات مأخوذة من خطاباتنا الشخصية . فى واحد من هذه الخطابات كان مكتوبا ، « .... اعتقد ان زواجنا ، سوف يكون دافعا لكل منا ، لمزيد من التضحية فى سبيل القضية التى آمنا بها ، الا وهى قضية تحرير البشرية » . قيل ان قضية تحرير البشرية تلك ، لا يمكن ان يتحدث فيها غير الشيوعيين . وحيث انى قد تزوجت من حلمى ياسين ، وهو من قيادات الحزب ، وقد حكم عليه بعشر سنوات ، اذن لابد وأن تكون الشيوعية هى المقصودة بالحديث عن التضحية فى سبيل القضية .

« كان معى ايضا ثريا ابراهيم ، زوجة الدكتور مختار السيد ، وكان هو ايضا معنا فى القضية . كان لديهما طفلة اسمها « مير » أى « السلام » . واعتبرت هذه التسمية من قرائن الاتهام ضد ثريا ابراهيم » .

« كانت التهمة الموجهة الى الجميع هى العضوية ، دون تحديد مستوى تنظيمى يربط فيما بين المتهمين . وكانوا جميعا ممن قبض عليهم فى ٢٨ مارس ١٩٥٩ .

تقول ثريا ادهم ، « كان اعضاء الحزب الشيوعى المصرى منقسمين على انفسهم . البعض منهم موافق على الخط السياسى لقيادة الحزب ، والبعض الآخر غير موافق ، مما ترتب عليه انه لم يكن هنالك موقف اتفاقى

واحد بالنسبة لخط الحزب والدفاع عنه أمام المحكمة · كان موقفى القانونى جيدا ، الا ان موقف الزملاء ، وفكرة البعض منهم ، على قصر دفاعهم فى حدود الدفاع القانونى ، وضعنى امام ضرورة ان انبرى انا للدفاع عن وجهة نظر الحزب أمام المحكمة » .

وقد ترافع عن ثريا ادهم ، عمها الاستاذ صفوت « باشا » ادهم المحامى · وقد انصبت مرافعته ؛ على أن المحكمة تحاكمهم طبقا للقانون ٩٨ ، وهو القانون الذى يدين تغيير الحكم باستخدام القوة ، فى حين ان ثورة ١٩٥٢ نفسها قد غيرت الحكم باستخدام القوة · ثم تناول ما يقول به المتهمون ، وهو أكثر مما جاء فى الميثاق بعض الشىء ، الا انه لا يتضمن أى تغيير لأسس نظام الحكم · ومن هنا فان ركن الاتهام غير ذى موضوع ·

ودافعت ثريا ادهم على نفسها : اوضحت ان القوانين التى تطبق حاليا ، انما هى قوانين مستمدة من برتغال سالازار · وأن قضية الديمقراطية هى القضية التى تشكل نقطة الخلاف الأساسية · واوضحت أن النيابة تعتبر أن قضية تحرير البشرية قضية شيوعية ، وهذا تفسير خاص بالنيابة ومن عندياتها ، « أما عنى ، فلى الشرف أن يكون هذا الطريق طريقى ، ولسوف اظل اناضل فيه . تلك هى حياتى وتضحياتى ، افخر بها واسجلها · انكم لا تملكون أساسا لمحاكمتى ، لكنكم تحاكموننى لآرائى السياسية » ·

كانت المحكمة تحاول اخراج كل رفيق يأخذ فى الكلام . قاطعت ثريا ادهم وهى تدافع عن نفسها ، الا ان ثريا قفزت وفق المقعد داخل القفص ، والقت كل دفاعها السياسى ، وقد عجزت المحكمة عن اخراجها من الجلسة .

الدفاع السياسى الذى القته

ثريا سعيد ادهم

« ابدأ كلمتى بأن اقدم من وراء القضبان ، تحياتى الحارة ، وتهانى القلبية الى شعب الجزائر الباسل وزعمائه الثوار ، للنصر المجيد الذى روته دماء مليون شهيد عربى ، سقطوا ، بشرف ، فى ميدان القتال . وبوصفى امرأة عربية اشتركت فى كل معركة خاضها شعبنا البطل ، خلال كفاحه الطويل ضد الاستعمار ، وضد الملكية ، وضد الرجعية ، احنى رأسى ، اجلالا وتقديرا للبطلة المجاهدة الجزائرية ، جميلة بوحيرد ، التى رسمت

بتضحياتها البطولية اسطورة شعبية ، تلهب حماس الملايين فى شتى انحاء الوطن العربى ، ليهب يخلص بلاده من نير الاستعمار وحكامه الخونة العملاء •

« سيدى الرئيس ، حضرات السادة المستشارين

« انى انظر حولى ، للمجموعة ، الموجودة معى فى قفص الاتهام ، فالاحظ انها تضم عناصر من خيرة ابناء هذا الوطن . تضم عمالا نقابيين ، كرسوا كل حياتهم لخدمة قضية زملائهم ، تضم مثقفين احرارا ، اشتركوا فى كافة مراحل الكفاح الوطنى ضد الاستعمار ، نضم نساء قدمن ، بشجاعة ، اغلى التضحيات ، لتأكيد دور المرأة المصرية فى الحركة الوطنية والاجتماعية • انها مجموعة مكانها الطبيعى أن تخرج ، فورا ، الى الشارع ، تساهم ، بكل قواها ، فى معركة شعبنا الكبرى ، من أجل حياة حرة ديمقراطية ، يرفرف عليها السلام •

« سيدى الرئيس ، حضرات السادة المستشارين

« لقد سبق ان اوضحت ، عند اعتقالى ، منذ ثلاث سنوات ، ان معركتنا مع الاستعمار عدونا اللدود وربيبته ، اسرائيل ، لم تنته ، وانه ما زال قابعا فى تحصيناته العسكرية القائمة فى قلب البلاد العربية . يتربص بكافة شعوب المنطقة ، يضرب المجاهدين العرب فى عمان ، وفى المحميات ، وفى عدن • يقتل ويذبح المواطنين ، فى بنزرت ، والمغرب ، ووهران ، ويعتدى على حدود سوريا الشقيقة ، ليسترجع مراكزه الاستراتيجية والاقتصادية الحيوية ، التى فقدها فى كل من مصر وسوريا والعراق • قلت ، ايضا ، أن الاستعمار لن يتوانى ، لتحقيق اغراضه الدنيئة ، عن استخدام مختلف السبل والمناورات فى تصدير المؤامرات ، الى مساندة عملائه الحكام العرب الخونة ، الى حد الاعتداء على الحدود •

« ان خبرة العدوان الاستعمارى الغاشم على بلادنا ، عام ١٩٥٦ ، اثبتت ، بالدليل القاطع ، ان الشعب تمكن من صد المعتدين فى بورسعيد ، لأنه كان يتمتع ببعض الحريات النسبية ، وعلى راسها حرية حمل السلاح ضد المستعمرين الغزاة ، وحرية كفاح الشعب ، وتعبئة الجماهير فى هذا السبيل • وأنه ليشرف هذه المجموعة ، الواقفة اليوم فى قفص الاتهام ، انهم لعبوا جميعا دورا رئيسيا فى تكوين وقيادة هذه اللجان • ان اهم درس استخلصناه ، من معركة بورسعيد ، هو أن الشعب الواعى

المنظم فى تنظيمات جماهيرية واسعة ، هو القوة الوحيدة التى يمكنها أن تدافع عن بلادنا وتحمى استقلالها • وان هذا لن يتأتى الا عن طريق اطلاق كافة الحريات السياسية ، والديمقراطية ، لجميع القوى الوطنية بما فى ذلك حق تكوين الاحزاب الوطنية ، دون ادنى تدخل من جهاز الدولة ، أو تنظيماته •

« لكن الحكومة ، بدلا من السير قدما فى هذا الطريق ، شنت منذ أول يناير ١٩٥٩ ، حملة ضد اشرف العناصر الوطنية ، واصلبها ، من نقابيين وشيوعيين ومثقفين وانصار سلام ، رجالا ونساء ، والقت بهم فى معتقلات أبى زعبل والواحات والفيوم ، للتعذيب البربرى ، حيث سقط منهم عشرات من الشهداء ، نتيجة سياسة التعذيب والقتل المباشر • واليوم ، بالرغم من فشل هذه السياسة ، نجد أنه ما زال هناك فى الجمهورية العربية المتحدة ، مئات المعتقلين ، رجالا ونساء . وفى سجونها مئات أخرى حكم عليها بأحكام تزيد عن الألف سنة . وانهم ما زالوا محرومين من ابسط الحقوق الانسانية ، معرضين ، كل يوم ، للموت البطىء ، من جراء سوء التغذية وأعمال السخرة وانعدام العلاج الطبى ، مما أدى الى استشهاد الشهيد شعبان حافظ فى معتقل الواحات ، فى ١٤ مارس الماضى .

« واستمرت الحكومة فى هذه السياسة الخاطئة ، وأخذت تضيق ، أكثر وأكثر ، فى الحريات ، وتحرم الشعب من ابسط حقوقه الديمقراطية ، وتفرض عليه نظاما ديكتاتوريا يجعل من أجهزة المباحث العامة اعلى سلطة فى الدولة ، مما أدى الى مزيد من السخط والتذمر بين الجماهير الشعبية •

« ثم جاءت قوانين يوليو ١٩٦١ ، تلك القوانين الوطنية التقدمية ، التى دفعت بعجلة الاقتصاد المصرى الى الامام ، وخلصته من بعض الجيوب الاستعمارية الاقتصادية التى كانت تعرقل تطوره ، وما صاحب هذه القوانين من اجراءات ، تتطلب ضرب القوى الرجعية فى البلاد • لكن الحكومة نسيت انه لا يمكنها ان ترفع ، بيد ، شعار ضرب الرجعيين ومكافحة الاستعمار ، وتضرب ، باليد الأخرى ، القوى الشعبية وطليعتها • وأن المكاسب الحقيقية التى حققتها تلك القوانين للجماهير الشعبية ، ستبقى ، رغم ضآلتها ، حبرا على ورق ، لا يستفيد منها العمال والفلاحون ، الا اذا كانت لديهم تنظيماتهم السياسية والنقابية ، المنبثقة منهم ، والتى تدافع عن مصالحهم وتمثلهم تمثيلا ديمقراطيا صحيحا •

« سيدى الرئيس ، حضرات السادة المستشارين

« ان فشل الوحدة المصرية ــ السورية ، وما يمثله ذلك من انتكاس فى حركة التحرر العربى ، ليعكس المخاطر الجسيمة التى تهدد بلادنا

واستقلالها السياسى والاقتصـادى ، من جراء استخدام السياسة الديكتاتورية التى تسير عليها الحكومة ، والتى تحرم الجماهير الشعبية من قيادة اخلص ابنائها ، وتتركهم يتخبطون فى الظلام ، بلا قيادة ، ولا تنظيم ، ولا توعية . انه ليس هنالك سوى طريق واحد ، للمحافظة على استقلال البلاد وتدعيمه ، وهو طريق حل ازمة الديمقراطية ، التى تمسك بخناق البلاد ، وهذا يعنى :

أولا : اطلاق كافة الحريات السياسية والنقابية لجميع القوى الوطنية ، بما فى ذلك حق تكوين الاحزاب الوطنية ، ويتضمن هذا الغاء القانون رقم ٨ لعام ٥٨ ، والخاص بتدخل الاتحاد القومى فى تكوين وترشيحات النقابات .

ثانيا : الافراج عن جميع المعتقلين السياسيين ، رجالا ونساء .

ثالثا : وقف محاكمات الشيوعيين ، والافراج عن المسجونين .

رابعا : عقد جمعية تأسيسية منتخبة ، على أساس ديمقراطى واسع ، تبدأ فورا ، فى وضع دستور للبلاد .

خامسا : الكفاح ، بلا هوادة ، لتصفية الاستعمار وعملائه الخونة ، نهائيا ، من منطقة الشرق العربى والدعوة الى الوحدة العربية الديمقراطية . بين كافة البلدان العربية المتحررة .

سادسا : رسم سياسة اقتصادية تكفل القضاء على الازمة الاقتصادية التى تمر بها البلاد ، وتضمن التغلب على العجز الدائم فى ميزاننا التجارى مع بلدان المعسكر الراسمالى الغربى ، واقامة مزيد من العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية مع بلاد المعسكر الاشتراكى وبلدان آسيا وأفريقيا .

سابعا : حماية السلام العالمى ، ومنع استخدام القنبلة الذرية ، وتأييد كفاح الشعوب المستغلة ، المضطهدة فى كل مكان ، من اجل تصفية الاستعمار ، تصفية نهائية .

ثامنا : تطبيق سياسة الحياد الايجابى وقرارات مؤتمر باندونج والدار البيضاء ، على اوسع نطاق .

تاسعا : تنفيذ برنامج عاجل للانعاش الاقتصادى للجماهير الشعبية ، يخفف من حدة الغلاء ، ويرفع مستوى الأجور ، ويحد من الضرائب غير المباشرة ، المتزايدة .

« سيدى الرئيس ، حضرات السادة المستشارين

« هذه هى آرائى ، وهذه هى اهدافى فى الحياة .

« وليس لدى ما أقوله سوى انه يسرفنى باننى ، منذ عام ١٩٤٦ ، وانا اقدم كل ما املك بلا تردد ، ولا مقابل ، فى سبيل قضية بلادى العزيزة وشعبها الحبيب . لقد اشتركت فى مذبحة كوبرى عباس ، فى ٩ فبراير ١٩٤٦ ، وكذا ٢١ فبراير ١٩٤٦ ، وكنت عضوة فى لجنة العمال والطلبة . اشتركت فى اضرابات عام ١٩٤٧ . ونتيجة لنشاطى الوطنى ، ابان العهد الملكى البائد وارهاب ابراهيم عبد الهادى عام ١٩٤٩ ، حكم على بالسجن . وفور خروجى اشتركت فى معركة الكفاح المسلح فى القنال ، عام ١٩٥١ . واستمر نضالى الوطنى بعد الثورة ، وساهمت فى كل معارك شعبنا . ففى ١٩٥٦ كنت عضوة فى لجنة المقاومة الشعبية بكفر الدوار ، وفى ١٩٥٧ كنت عضوة فى لجنة التوعية الانتخابية . وفى ١٩٥٨ قمت بدورى فى توعية الشعب بأهمية الوحدة العربية الديمقراطية ، واهميتها بالنسبة لكفاح شعبنا وكافة الشعوب العربية .

« وانا اليوم ، بعد ثلاث سنوات من الاعتقال ، بعد كل ما قاسيته وما اقاسيه من تدهور سريع فى صحتى يكاد يودى بحياتى ، بعد كل التعذيب الوحشى الذى لاقاه زوجى ، محمد حلمى ياسين ، فى معتقل اوردى ابو زعبل ، اعلنها مدوية ، انى افخر واعتز بنضالى وتضحياتى من أجل بلادى . وانى مستعدة ، اليوم وغدا وفى كل وقت ، أن اقدم حياتى حتى آخر قطرة من دمى فى سبيل مصرنا العزيزة وشعبها الباسل المجيد » .

***

وانتهت المحاكمة فى ٢٢ يونيه عام ١٩٦٢ . وحكم على ثريا ادهم بالسجن ثلاث سنوات ، وكذا على ثريا ابراهيم بالسجن سنتين ، رغم عدم وجود أى دلائل ضد أى منهما .

وانتهى حبس ثريا ابراهيم فى اليوم التالى لصدور الحكم ، كما انتهى حبس ثريا ادهم بعد اسبوع من صدور الحكم . كانتا كلتاهما قد قضت المدة معتقلة . انتهت مدة الحكم والمصاريف والاشغال والغرامة . وبدلا من الافراج عنهما ، حولت كلتاهما ، بعد ان تم الافراج عنهما على الورق ، فقط ، الى معتقلتين ، مرة أخرى .

وفيما بعد حوكمت نوال المحلاوى ، وحكم عليها بالسجن سنتين ، كانت قد انهتهما ايضا ، فحولت الى معتقلة ، مرة أخرى .

بعد صدور الحكم والتصديق عليه ، رحل الرفاق ، الذين كانوا مع ثريا ادهم ، فى نفس القضية الى الواحات . من صدر ضده حكم غـــدا مسجونا ، ومن برىء غدا معتقلا • وهنالك فى الواحات روى الرفاق ما حدث فى القضية . كانت تلك أول قضية ، خلال هذه الفترة ، تقدم فيها سيدات الى المحاكمة . وكذلك كانت اول مرة تتقدم فيها سيدة بدفاع سياسى . واقام الرفاق فى السجن حفلا ، احتفاء بهـذا الحـدث والموقف ، كانت خلفيته بطانية سوداء كبيرة ، مرسومة عليها صـــورة ثريا ادهم بطول البطانية • رأسها فى اعلاها وقدماها فى اسفلها ، تطل من عل ، على حاجز قفص الاتهام ، الذى لم يتجاوز فى الصورة ركبتيها ، تلقى دفاعها السياسى . ويقف زكريا محى الدين ، وزير الداخلية ، بطول لا يزيد عن طول حاجز القفص ، فى حالة فزع شديد ، وهو مرتد ملابس شرطى • وفى أعلى اللوحة جملة ، بعرضها ، تقول ، « انفى ادافع عن اشرف قضية » •

وقد القيت فى هذا الحفل كلمات الترحيب بالزملاء الجدد القادمين من سجن القناطر ــ رجال • وتم التنويه بدور الرفيقة ثريا ادهم ، ودفاعهـــا السياسى ، ووجهت التحية لها ولكل الرفيقات الموجودات بسجن القناطر ــ نســـــاء •

الفصل السابع

الافـــراج

افرج عن الرفيقات المعتقلات على دفعات ثلاث .

الدفعة الأولى ، فى ٢٣ يوليو ١٩٦٠ ، وفيها افرج عن كل من . اجلال السحيمى ، محسنة توفيق ، ايفون حبشى ، سيدة حسن وزينب . وكانت صهباء البربرى قد خرجت ، قبل ذلك بحوالى اسبوعين ، الى غـزة . كما كان قد افرج عن وداد مترى فى آخر نوفمبر ١٩٥٩ .

الدفعة الثانية ، فى سبتمبر ١٩٦٢ ، وفيها افرج عن كل من : انتصار خطاب ، ليلى الشال ، ليلى شعيب ، ليلى عبد الحكيم وأسماء البقلى .

الدفعة الثالثة ، فى ٢٤ يوليو ١٩٦٣ ، وفيها افرج عن كل من : انجى افلاطون ، فاطمة زكى ، ثريا ادهم ، ثريا شاكر ، ثريا ابراهيم ، سعاد الطويل ، نوال الحملاوى ، اميمة أبو النصر ، سميرة الصاوى ، جنيفيف سيداروس وزينات الصباغ .

* * *

عندما جاء الافراج لدفعة سبتمبر ١٩٦٢ كانت انتصار خطاب فى مستشفى سجن القناطر . كانت ما تزال تعانى من ذلك النزيف الذى اصابها ليلة القبض عليها . فوجئت بالسجانة تبحث عنها وهى تصيح ، افراج ، افراج . اذهلتها المفاجاة . كانت شديدة الوقع عليها . اسرعت الى العنبر تعد نفسها للخروج ، وتودع الرفيقات .

كان من الضرورى مرور المفرج عنهن ، على المباحث العامة ، قبل خروجهن الى الشارع مرة أخرى . وهنالك تبدأ محاولات الشراء : « انت والاولاد تحتاجون الى نقود . اتصلى بنا ان احتجت لأى شىء . هاك رقم التليفون . نحن على استعداد لأية خدمة » ! الكلمات الناعمة هى المعبر الزلق الى الانزلاق . تساءلت انتصار خطاب فى دهشة ، « هل وقع حدث خطير ، يستدعى الافراج عنى ؟ هل توفيت والدتى ؟ هل اصيب أحـد الاولاد ؟ » قيل لها ، « كلا ، رأينا انك مريضة . وان صحتك لست على ما يرام فقررنا الافراج عنك » !

كانت هنالك اخـريات من الرفيقات ، مريضات ايضا ، الا ان المباحث العامة لم تفرج عنهن . كانت انتصار خطاب مريضة ، واصاب مرضها الاطباء بالحيرة . كانت شكوكهم تدور حول احتمال اصابتها بالسرطان -

ومن هنا كان الافراج عنها ، يستهدف التخلص من مريضة يحتمل وفاتها . ولم يكن الافراج اشفاقا ولا رحمة .

الخروج الى الشارع يلقى فوق كاهل الأم ، المفرج عنها ، باحمال ثقال . لا عمل ، والابناء يتوقعون ان تعوضهم امهم عن كل الحرمان الذى عاشوه . هم يتصورون ان تلك الأم العائدة ، قادرة على أن تحضر لهم النجوم من كبد السماء .

يقول هشام خطاب ، « عندما كان والدى ووالدتى معتقلين ، كنت انا واخى نشترى الصندل اوسع من اقدامنا ، حتى ان كبرنا ، وكبرت معنا أقدامنا ، ظل صالحا للاستخدام . ولما خرجت امى من المعتقل ، طلبنا منها ان تشترى لنا احذية من الكاوتشوك . كان ثمن الحذاء اثنين وثلاثين قرشا ، فقط ، الا انها رفضت ، حيث لم يكن معها أى نقود » .

وتقول انتصار خطاب ، « بدأت تنهال على طلباتهما ، وأنا عاطلة بلا عمل أو نقود ، وظروف البيت سيئة للغاية . كنت اتقن صناعة المناديل اللينو « بالآجور » . كان المنديل يكلفنى سبعين قرشا ، ويستغرق يوم عمل بأكمله ، وابيعه بثمانين قرشا . أى ان دخلنا اليومى كان عشرة قروش فقط » .

اخذت تبحث عن عمل ، حتى عاونها احد الاصدقاء لتعمل فى فندق شبرد « شيف » بالمطبخ . كان من حقها ، الى جوار مرتبها ، ان تتناول وجبتين غذائيتين فى اليوم . كانت لا تأكل طوال اليوم ، لتأخذ نصيبها معها الى المنزل ، وهنالك كان يتلقفه الوالدان بسعادة غامرة .

أعمال السرقة فى مطبخ الاوتيل تجرى على قدم وساق . كانت انتصار خطاب تدقق فى عملها ، مما ضيق على الآخرين . بعد شهرين قال لها : انت انسانة جيدة ، ولذا سوف ننقلك الى فرع الفندق بالمطار . هناك جعلوها رئيسة قسم التنظيف ، بل وزادوا أجرها ، جنيهات عشر فى كل شهر .

ظلت كذلك حتى عرفت المباحث العامة بعملها . كان احمد صالح داود وراء تلك التحريات . جاءها ضابط أمن المطار . سألها ، هل انت مدام انتصار خطاب ؟ اجابت بالايجاب . سحب منها ترخيص العمل داخل المطار ، وأخبرها أن القائد يريدها . للحال ادركت ان النهاية قادمة . فى مكتب القائد طلب منها الا تحضر منذ الغد . فقد تم الاستغناء عن خدماتها . سألته عن السبب . قال ، جاءنا الأمر بذلك ، ولا اعرف سببا . كل ما اعرفه الا تحضرى من باكر الى هنا . امسك بها خمسة من الرجال

ليخرجوها من المنطقة الجمركية كلها • كان منظرا مسيئا لها • تقول انتصار خطاب ، « الخارج على هذا النحو لابد وأن يكون لصا او مهربا • قررت الا اصمت . اخذت فى الزعيق بأعلى صوتى : أنا شيوعية ، وزوجى شيوعى ايضا . انا خارجة ، لتوى من السجن • وزوجى ما زال بالسجن • تجمع الناس ، وأخذوا يلومون الحرس المحيط بى : لماذا تفعلون بها هذا الذى تفعلونه ؟ الا تعرفون العيب ؟ بل ان البعض منهم أخذ فى البكاء •

خرجت من منطقة الجمرك وكأنى امبراطور ايران • القائد والضباط يشكلون كردونا يحيط بى ، حتى خارج المطار ، ومنه الى الشارع ، عاطلة بلا عمل ، مرة أخرى » .

* * *

فى ١٣ فبراير ١٩٦٣ افرج عن ايفون حبشى للمرة الثانية ، ارسلوا بها الى قسم شرطة الظاهر • سألها الضابط النوبطشى (وكان يعرف شقيقها الضابط) ان كان احدا قد ضايقها • قالت ، فتش الجنود حتى حقيبتى ، وبها ملابسى الداخلية ، رغم انه قد تم تفتيشها وانا خارجة من السجن . ان فى هذا التصرف ، امتهان لكرامتى . قال لها الضابط . الا تغضب . ثم اصدر اوامره بان تقضى الليل فى حجرة مأمور القسم • وهى حجرة واسعة للغاية ، نظيفة للغاية ، يغلق بابها غلقا جيدا ، ويقف عنده شرطى نوبطشى طوال الليل • فى الصباح ، عندما يأتى مأمور القسم ، كانوا يرسلون بها الى المباحث العامة . حيث تستبقيها المباحث طوال اليوم دون سؤال أو جواب ، ثم تعاد الى قسم الشرطة عند المساء ، وهكذا •

قال لها ، مأمور القسم فى أحد الايام ، « انتم يا ابنتى اناس من الفلاحين • كيف يكون شعورك والدك الآن وأنت هكذا ؟ ، من أجل هذا الأب ومن أجل خاطرى ، وافقى على ما تطلبه منك المباحث العامة • وافقى على أى شىء واخرجى » . سألته ، « أى شىء ، مثل ماذا ؟ » قال ، « ان توقعى ، مثلا ، على ورقة » • قالت ، « لا يوجد فى الدستور نص يحرم على الانسان المصرى أن يعمل بالسياسة » . قال ، « لا تكونى صلبة الرأى ، ارجوك ، افعلى ما يطلبون منك » . ظل الرجل يناقشها هكذا ، بطريقة ناصحة ، يلح عليها ان تقبل توقيع الورقة وتخرج ، دون جدوى . وعندما تيقن من ذلك ، فتح درج مكتبه ، واخرج منه كتابا ، يرسل بقارئه الى السجن على الفور ، وقال لها ، « انظرى ماذا أقرأ • لست وحدك التى تتحمسين لوطنك . كل منا لديه افكاره • كل منا لديه ما يثير ضيقه مما حوله • لكنك ما زلت صغيرة . ارجوك من أجل خاطر والديك

وخاطرى ، وقمعى واخرجى » . ولم تقبل ولم نوقع · وفى اليوم العاشر افرجوا عنها ، لتعود الى طنطا بلدها ·

***

فى ٢٢ يوليو ١٩٦٣ ، وصل احمد صالح داود الى المعتقل المستشفى بالقصر العينى · كانت به حينذاك : ثريا شاكر ، جنيفيف سيداروس ، سميرة الصاوى وزينات الصباغ . اجرى مع كل منهن مناقشة منفردة · عندما حل الدور على ثريا شاكر ، قال لها احمد صالح داود ، أن لها أخا كالسكر . وانه قد تعرف عليه فى الجزائر ، وسمح له بزيارتها ، وادخلها القصر العينى ، من أجل خاطره هو وليس من أجلها هى . وتساءل ، كيف يكون اخوها على هذا النحو الجيد ، وكيف تكون هى ابنة عائلة طيبة ، وتفعل ما تفعل ، وتدخل السجن .

تقول ثريا شاكر ، « كنا ننظر اليه كالبلهاء · ما الحكاية ؟ كنا قد سمعنا اخبارا عن الافراج ··سألناه ، « لماذا اتيت اليوم لزيارتنا ؟ هل هنالك افراج أم لا ؟ » قال ، « هنالك افراج بالفعل ، لكنه ليس لكن جميعا » . سألناه مرة أخرى ، « ولماذا ؟ » قال ، « عليكن ان تكففن عن كونكن مسئولات عن غيركن . فلتكن كل واحدة منكن مسئولة عن نفسها ، فقط · لا تتحدث الا عن نفسها ، وفقط » · ثم انتقل الى الحديث عن مشاعر المباحث العامة نحونا ، وكيف ان رجالها اصدقاء لنا ، يرغبون فى خروجنا الى الحياة العامة ، نشرفهم ، ونرفع رؤوسهم ، بأن تقتصر الحياة بالنسبة لنا ، على بيوتنا » .

ظل يتحدث قرابة النصف ساعة ، واحست الرفيقات نحوه باللامبالاة . كان السؤال الذى يشغل بالهن ، هل هناك ، حقيقة افراج ، أم أن ما يحدث الآن مجرد واخدة من مناورات المباحث العامة المعهودة ؟ وانهى احمد صالح داود حديثه ، بنعم ، هنالك افراج ، الا انه لن يكون افراجا لجميعهن ·

مر ٢٣ يوليو ، دون افراج ، وعاد الشك والتساؤل فى حقيقة ما قاله احمد صالح داود . مر ٢٣ يوليو كئيبا ، مشحونا بالتوتر والاحتمالات الغامضة ·

وجاء ٢٤ يوليو وانقضى حتى السادسة مساء ، وهى ساعة يكون اليوم فيها منتهيا بلا توقعات . ودق الهاتف طالبا ضابط الحرس · وكان النداء بلاغا بالافراج عن كل الرفيقات فى المعتقل المستشفى . واغلق

الضابط الهاتف ، واتصل بالمباحث العامة : حيث ابلغهم بالمكالمة التى تلقاها منذ حين ، فقيل له انها مكالمة صحيحة . والحال صاح ضابط الحرس ، افراج ، افراج • وسألنه الرفيقات الاربع ، عن مصير معتقلات سجن القناطر ـ نساء ، فقال لهن ، الافراج للجميع • وأن زميلاتهن قد غادرن السجن بالفعل ، منذ الصباح ، وانهين اجراءات المباحث العامة • وانهن ، هنا ، فى القصر العينى ، سوف تنهى اجراءاتهن فى معتقل المستشفى، حيث يغادرن الى الشارع مباشرة • .

اتصلت ثريا شاكر بأخيها ، كى يحضر اليها ، لاخذها • كان يعلم بالافراج •• وكان قد اخبر الابناء ، بهذا النبأ العظيم .

يقول حسام فوزى حبشى ، « انا لا اجيد الحكى والرواية ، لكنى الآن وامى تروى ما حدث ، يدور شريط الماضى بصورة الغريبة للغاية • اتذكر نجوى ، اختى ، كانت مريضة ، فتركناها بالمنزل . وانتظرت انا وممدوح على رأس الشارع . كانت سيارة خالى حمراء ، فكنا نزعق ونقفز كلما مرت سيارة حمراء » •

وتكمل ثريا شاكر ، « هكذا وجدتهما على الناصية ، عندما وصلنا الى اول الشارع الذى نسكنه فى حوالى التاسعة مساء . وانطلقت الزغاريد فى الشارع والمنزل . زغاريد ، زغاريد . لم اكن اتوقع كل ذلك • امتلأ المنزل بالناس فى ثوانى معدودة . وانهالت التهانى ، وأخذ الجيران فى توزيع الشربات •

كانت نجوى مريضة ، ترقد بالفراش ، مصابة بحمى روماتيزمية . البسوها وقالوا لها ، امك الآن قادمة • الا ان نجوى كانت ترانى غريبة • ظلت فترة طويلة لا تناديني « يا ماما » • كانت احيانا تقول لى ، « يا تانت » • وأحيانا أخرى ، ان شاءت منى أمراً ، قالت لاخيها حسام « قول لها » • كانت تطلب من اخيها ان يكون وسيطا بينى وبينها . استمرت كذلك مدة طويلة . كان سنها عندما خرجت من المعتقل يقترب من السادسة » .

***

٢٣ يوليو بسجن القناطر ـ نساء • افرج فى هذا اليوم عن عدد من المسجونات العاديات بمناسبة عيد الثورة . ولم يفرج عن رفيقة واحدة من المعتقلات •

السادسة صباح ٢٤ يوليو ، وحقات عصبية على نافذة عنبر المعتقلات . كان الباب ما يزال مغلقا ، وسجينة تصيح ، فى لهفة ،

« افراج يا ستات ، افراج » . نهرتها الرفيقات على فعلتها تلك : كانت بعض السجانات تفعلن مثل هذه الفعلة ، حتى ان ضج العنبر بالفرحة ، اتضح كذب ما قلن .

حل موعد استلام الطعام ، غادرت فاطمة زكى وانجى افلاطون العنبر لاستلامه . قابلتهن الباشسجانة فى حوش السجن . صاحت . « افراج يا ستات . هذه المرة افراج حقيقى » . سألتاها ، « ومن من المفرج عنهن ؟ » قالت ، « جميعكن . وها هى المفاتيح معى لاعداد اماناتكن » . اسرعت الرفيقات الى العنبر . وانتشر الخبر فى السجن كله وذاع .

تقول انجى افلاطون ، « ومع ذلك لم يكن لدينا اقتناع ، مائة فى المائة ، بأن الافراج حقيقى . الا ان السجن كله هاص وزاط . الضباط والسجانات والسجينات . كان الكل فرحا للغاية . لم يكونوا بقادرين على استيعاب أسباب اضطهادنا ، الى هذا الحد . عندما تيقنت ان الافراج حقيقى ، سابت رجلى ، فجلست . كانت المشكلة التى اواجهها هى لوحاتى ، فتطوعت واحدة من المسجونات اللواتى كن يحببننا بجمعها لى » .

بدأت الرفيقات فى اعداد حقائبهن . وفجأة دخل العنبر عدد من المسجونات العاديات . انقضضن عليه كالجراد . حملوا الحشايا والملاءات والستائر والمنضدة والاطباق والطعام والسكر والشاى . تقول فاطمة زكى ، « كان المنظر ، كما حدث فى فيلم زوربا اليونانى تماما ، تحول العنبر فى خلال خمس دقائق الى بلاط عار من كل شئ . وعند استلامنا الامانات ، وجدنا نصفها مسروقا . الا اننا لم نهتم بأى من تلك الاشياء . كنا فى طريقنا الى الخارج ، الى الشارع » .

فى الطريق من سجن القناطر – نساء الى وزارة الداخلية ، توقفت سيارة الترحيلة . كانت هنالك حادثة على الطريق . غادر ضابط الترحيلة السيارة . بدأ يسأل وكأنما يجرى تحقيقا . ضاقت الرفيقات بما يفعل . توجهت اليه انجى افلاطون متسائلة ان كانت تلك مسئوليته ، أم ان مسئوليته هى الترحيلة واخذهن فورا الى وزارة الداخلية . حقا لقد صبرت اربعة اعوام ، لكنهن ، الآن ، لسن على استعداد للصبر ولو دقيقة واحدة . عاودت السيارة سيرها الى وزارة الداخلية .

فى مبنى المباحث العامة ابقوهن ، طوال اليوم ، دون سؤال أو جواب . كان الهدف هو التأثير على اعصابهن . قالت بعض الرفيقات ،

انهم ربما يطالبونهن بكتابة استنكار • انتهى تحليل الجميع الى أن رجال المباحث العامة يحاولون الضغط عليهن ، بكل الصور ، لعلهم يخرجون منهن بأى شىء . الا انه عليهن الرفض والصمود فان هذا الافراج نهائى ، ولا تملك المباحث العامة التلاعب فيه • أخذت الرفيقات فى الانشاد . فأخرجوهن الى الممر ، فافترشن الأرض ، وأخذت كل منهن تعد نفسها للخروج • تقول فاطمة زكى ، « حقا ، نحن مناضلات ، لكننا أيضا سيدات » • بدأ النداء عليهن واحدة فواحدة • جرى أخذ البيانات : الأسم . اسم الأب . اسم الجد ، إسماء الاقارب . الصور المعتادة ، جانبية وامامية •

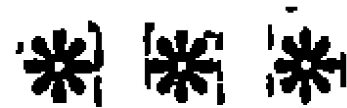
وكانت المرحلة الأخيرة ، هى مرورهن على حسن المصيلحى • كانت انجى افلاطون ترغب فى أن تحصل على صورة من تلك الصور التى اخذوها لها وهى متنكرة فى زى الفلاحة ، عندما قبض عليها . قالت لحسن المصيلحى ، « انا ارغب فى واحدة من الصور التى اخذتموها لى وانا متنكرة • صورة للذكرى » • وللحال تهلل حسن المصيلحى وقال ، « هذا هو الصواب ، وأنا اهنئك على هذا ، الذى يسعدنى للغاية » • اندهشت انجى افلاطون لما يقول ، فقالت ، « انا لا افهم مقصدك مما تقول ! » • قال ، « بل تفهمين ، فانت لا ينقصك الذكاء » . قالت ، « لا اسمح لك بمثل هذا الكلام . فما هو قصدك بالضبط ؟ » . قال ، « عندما تقولين للذكرى ، فانت تعنين ان ما حدث قد غدا ماضيا » •كان يقصد انها عندما تتحدث عن هروبها وتنكرها ، كذكرى ، فكأنما هى تقدم له وعدا بانها ستكف عن العمل السياسى . قالت له ، « لقد فهمت كلامى بطريقة خاطئة تماما . انا بالفعل اريد واحدة من تلك الصور . الا انه لا علاقة البتة ، بين طلبى هذا ، وما يجرى فى رأسك من افكار » • قال ، وقد استفزه ردها ، « انت من اسرة كبيرة ، وفنانة ، والمفروض فيك ان تكونى بعيدة عن مثل تلك الاشياء • الا تكون لك بها اية علاقة ، لكن يبدو انه لا فائدة منك . اخرجى بره » •

وهكذا خرج الفوج الثالث الى الشارع •

وكان هذا الفوج هو آخر فوج للمعتقلات فى سجن القناطر ـ نساء •

وفى ٤ اغسطس ١٩٦٣ ، سافرت فاطمة زكى وثريا ادهم ونوال الحملاوى الى ازواجهن فى سجن المحاريق بالوادى الجديد •

وعاد نضال الزوجات ، من جديد ، من أجل الإفراج عن أزواجهن وكل المعتقلين والمسجونين الشيوعيين •



عندما خرجت انجى افلاطون ، نجحت فى أن تخرج معها كل لوحاتها المتبقية معها فى السجن . كان الشارع بالنسبة لها ، فى بادىء الامر ، غريبا ، « بعد هذه الحبسة الطويلة ، كنت فى حاجة للتأقلم . كنت اخاف المشى فى الشارع . كنا قد نسينا اشياء كثيرة ، نسينا ، حتى ، كيف نلبس » .

توجهت انجى ، بعد الافراج عنها بشهر ، الى بلدتها فى الريف ، حيث بدأت ترسم . وفى مارس ١٩٦٤ اقامت اول معرض لها بعد خروجها من السجن . كان ذلك « بقاعة اخناتون » ، فى شارع قصر النيل . كانت معظم الصور واللوحات عن السجن والريف ، من بعده . كانت تخشى مصادرة اللوحات ، فاعطتها اسماء جديدة . « غروب الشمس فى كفر شكر » ، كانت هى بعينها ، « غروب الشمس فى السجن » . « صلاة الجمعة » ، كانت هى بعينها « اليامخانة فى السجن » . « القرفصاء » . كانت هى نفسها ، « طابور المسجونات » . كما وضعت فوق اللوحات تواريخ ترجع الى ما بعد خروجها من السجن . تحدثت الصحافة عن المعرض ، فجاء احد ضباط المباحث العامة ـ مكافحة الشيوعية ، ليلقى على المعرض نظرة . الا انه لم يجد ما يستطيع ان يأخذه عليها . وكتب احمد بهاء الدين ، يرحب بعودة انجى افلاطون ، بعد غيبة طويلة . ويلمح الى ان لوحة الشجرة ، خلال المواسم الاربعة ، تعطى ايحاء بالسجن . نجح المعرض نجاحا كبيرا . كانت انجى تحتاج نقودا بعد الافراج فباعت بعض اللوحات ، « الا انها كانت قليلة والحمد لله . اذ احسست فيما بعد بأهمية ان تظل تلك المجموعة ، هى مجموعتى الخاصة » .

وقبل يونيه ١٩٦٧ ، بقليل ، اقامت انجى أول معارضها خارج مصر . كان ذلك فى روما ثم باريس . وأخذت معها اهم لوحات هذه المجموعة ، كان الاقبال شديدا ، والرغبة فى شراء هذه اللوحات عارمة ، «الا اننى رفضت للبيع تماما . فهذه المجموعة جزء منى ومن تاريخ بلدى ، وهى ليست مطروحة للبيع او الشراء » .

وفى عام ١٩٧٥ ، اقامت انجى افلاطون معرضها الشامل ، الذى يعرض كل مراحل حياتها الفنية . كان ذلك فى مجمع الفنون فى مصر واحتل المعرض طابقين ، شغلت لوحات السجن ، باسمائها الحقيقية ، مكانتها فى تاريخ انجى الفنى والنضالى . اشتمل المعرض على لوحات عن الكفاح الوطنى ، تأميم قناة السويس ، السد العالى ، المقاومة الشعبية ، الريف

المصرى والسجن ؛ « كانت هنالك فترة لم نكن نتحدث فيها عن السجن . أما الآن ، فلا · فهو بالطبع جزء من تاريخنا نفخر به » .

ترك المعرض أثرا كبيرا على المشاهدين ، وعلق عليه أحد النقاد ، « ان انجى افلاطون ، بفنها ، شاهد على عصرها » .

وغدا نضال الرفيقات وتضحياتهن ، فى سجن النساء ، جزءا لا يتجزا من نضال الشعب المصرى ؛ من أجل حماية الاستقلال والديمقراطية والتقدم الاجتماعى . غدا جزءا لا يتجزء من تراثه البطولى ، من ملحمة ماضيه وحاضره ، من أجل مستقبل افضل تتحطم فيه كل القيود وكل الاسلاك وكل القضبان ·

ملحق رقم (١)

حـول الاتحاد القومى

رد على السيذ انور السادات

حـول الاتحاد القومى

رد على السيد

انـور الســادات

الحزب الشيوعى المصرى ـ المكتب السياسى

ادلى السيد أنور الســادات ، السكرتير العام للاتحاد القومى ، بحديث هام لبعض الصحف حول حقيقة الاتحاد القومى ، بمناسبة تكوين لجانه التنفيذية فى انحاء مصر . وكانت التصريحات التى اختص بهـا الدكتور يوسف ادريس ، مندوب « جريدة الاهرام » ، هى ، بلا شك أهم ما ادلى به السيد الســادات ، نظرا لخطورتها وصراحتها ، سواء فى وضع كثير من المسائل ، أو فى التطبيق ، مثل مشكلة الدخول فيه وعلاقته بالتنظيمات الأخرى ومصير الديمقراطية معه . ومن الطبيعى ان يهتم المواطنون بهذه التصريحات ، بالنظر الى المكانة التى يحتلها السيد انور السادات ، على رأس الاتحاد القومى وفى داخل الحكم الوطنى ، فتصريحاته ، بهذه الصفة ، تصريحات مسئولة ، تماما . ومن الطبيعى ، ايضا ، ان تقــابل تلك التصريحات بالاهتمام الشــديد ، ليس فقط فى مصر ، وانمــا كذلك فى سوريا ، حيث تجرى المحاولات تلو المحاولات لتكوين الاتحاد القومى ، بل وفى البلاد العربية الأخرى ، وبخاصة العراق ، حيث تطرح الآن ، بالحاح ، قضية اتحاد الجمهورية العراقية الفتية مع الجمهورية العربيـة المتحدة ، وحيث يناقش ، بقلق بالغ ، مستقبل الديمقراطية فى ظل الوحدة العربيـة .

وقد كنا نتوقع ان تجىء تصريحات السيد أنور السادات لتبدد كثيرا من التساؤل لدى الاغلبية الساحقة من جماهير الشعب والمثقفين ، حول الاتحاد القومى ، ما هو ، وما أهدافه ، وما تكوينه ، وما علاقته بالاحزاب السياسية ، حاليا ومستقبلا ، غير ان تصريحات السيد الســادات لم تضف ، فى هذا الشأن ، جديدا كان يجهله المصريون ، فهو ، حتى الآن ، حريص على التأكيد ان الاتحاد القومى ليس حزبا ، ولا نظاما للحزب الواحد ، ولا جبهة وطنية ولا هيئة تحرير أخرى ، ولا جهازا حكوميا . ولابد ، بعد هذه التأكيدات ، ان يتساءل الوطنيون ، بالحاح : واذن ، فماذا يمكن ان يكون هذا الاتحاد القومى ؟ الا ان السيد أنور الســادات لا يعنى كثيرا بهذا التساؤل الطبيعى ، ويكتفى بالقول ، « بأن جوهر الاتحاد القومى هو جمال عبد الناصر الرمز » . ولا نحسب هذا الجواب الأخير يمكن ان يجلو الغموض الكثيف الذى يحيط بطبيعـة الاتحـاد القومى ، وعلى

العكس ، فهى انما تزداد غموضا وليس من شأن هذا كله أن يقترب الاتحاد القومى من الجماهير ، ومن حق الجماهير بعد ذلك ان تزداد تساؤلا عن حقيقة هذا الاتحاد القوى ، الذى عجز حتى قادته عن تحديد كنهه ، واستجلاء مكنونه · ولكن عندما تخلى السيد أنور السادات عن غموضه ، وأخذ يتناول عددا من المسائل الجدية ، بالصراحة الواجبة ، بدأ حديثه يتسم بطابع الجدة والاهمية الخاصة ، وكان ذلك حين عرج السيد أنور السادات على من أسماهم « ذوى الافكار المعينة » . ولقد ظل يدير الحديث عنهم ، حتى نهايته · وكان من الواضح ان السيد أنور السادات انما يقصد الشيوعيين بهذه التسمية الغريبة ، حقا . فالسيد أنور السادات لا يمكن ، بحكم مركزه ، الا ان يعرف الشيوعيين ، ويعرف غير الشيوعيين · ومن الطبيعى أن يكون الشيوعيون ذوى افكار ، ايا كانت هذه الافكار ، ولا ندرى لماذا عمد السيد أنور السادات الى تمييز الشيوعيين بأفكارهم المعينة عن سائر الناس ، مع أن أفكار الشيوعيين انما تعبر عن افكار ومصالح اوسع الجماهير الشعبية عن عمال وفلاحين ومثقفين ، فليس للشيوعيين أفكار ولا مصالح مستقلة عن أفكار ومصالح الشعب · ولذا ، فان افكار الشيوعيين يجب وضعها فى الاعتبار ، تماما · غير أن مناقشة السيد أنور السادات للشيوعيين لم تلبث أن اتخذت سبيل الطعن والتجريح ، وأسرف السيد أنور السادات ، اسرافا ملحوظا ، فى تقدير الشيوعيين ، فوصفهم بانهم جامدون وجهلة ! ومضللون وشكليون وأنانيون · ولم تسلم حتى وطنيتهم من تجريح السيد أنور السادات ، وبالطبع ليس الطعن والتجريح سبيلا مجديا لمناقشة القضايا الاساسية لشعبنا ، ولذلك ننحيها جانبا ، لنناقش القضايا الشعبية ذاتها . تلك القضايا التى كانت ، فى الحقيقة ، مثار حملة السيد أنور السادات الجائرة .

ان القضية الاساسية التى تختفى وراء تلك الحملة هى قضية الفشل فى تكوين الاتحاد القومى ، قضية انفضاض الجماهير الشعبية عن دخول الاتحاد القومى · لا يملك السيد أنور السادات الا ان يعترف ، ضمنا ، بهذا الفشل الواقع ، ومع ذلك فهو لا يريد ان يعترف بالسبب الحقيقى لفشل الاتحاد القومى ، ألا وهو فرض الاتحاد القومى على الشعب مع حرمان الشعب من تكوين أحزابه . ان السيد السادات لا يريد ان يواجه قضية الشعب الأساسية التى يثيرها الاتحاد القومى ، وهى قضية الديمقراطية ، غير انه يكتفى بالتلميح الى ان الشيوعيين هم وراء فشل الاتحاد القومى ، ليثبت نظرتهم الجامدة عن الديمقراطية ، التى لا تتحقق عندهم ، على حد قوله ، الا فى وجود الاحزاب ، والسيد أنور السادات قاطع فى رفض هذه النظرة ، وقاطع فى القول بأن « فكرة القومية التى يقوم الاتحاد القومى عليها تتنافى ، اساسا ، مع فكرة الحزبية الضيقة أو على الاقل ·

نتعارض معها » وباختصار فأن السيد السادات يرفض وجود الجبهة الوطنية ، كما يرفض وجود الاحزاب ، وهى الأساس الذى يمكن ان يقوم عليه اتحاد قومى راسخ البنيان • ولما لم تكن هناك احزاب ، الى جانب الاتحاد القومى ، سوى الحزب الشيوعى ، فليس لنظرية السيد أنور السادات سوى معنى بديهى ، هو رفض دخول الشيوعيين فى الاتحاد القومى ، وهنا يعلن السيد السادات نظريته الخاصة من أن « الاتحاد القومى اتحاد مواطنين ، وليس اتحاد اتجاهات » . ولابد ان يغضى به فشل هذا المنطق الى نتيجته المحتومة ، فيرفض انضمام الشيوعيين ويقبل انضمام « حتى هؤلاء الذين كانوا اعضاء فى الاحزاب المنحلة » •

وهكذا تتبين منذ السطور الأولى فى حديث السيد أنور السادات ان الفكرة الأساسية التى تدور حولها تصريحاته ، هى أن الاتحاد القومى اتحاد افراد لا اتحاد اتجاهات ، وعندما يكون اتحادا فوق الجبهات ، لا اتحاد جبهة وطنية فلا يمكن ، عندئذ ، الا ان يكون حزبا من الاحزاب ، ولابد أن يخدم اتجاها معينا ووجهة نظر معينة • وبالتالى يكون الاتحاد القومى حزبا ، بينما يحظر تكوين الاحزاب وتلك ، فى رأينا ، هى القضية الأساسية فى كل متاعب الاتحاد القومى ، وهى بالتالى جديرة بالمناقشة المستفيضة •

ان السيد أنور السادات يسلم معنا بحقيقة اولية هى أن فى مصر طبقات وطنية عديدة ، وأن هذه الطبقات يجب ان تتحد لتواجه العدو الواحد وهو الاستعمار من غير ان ننسى التناقضات الداخلية فيما بين تلك الطبقات ، بمعنى ان هذه الطبقات المتحدة ضد الاستعمار نتصارع فيما بينها حول مصالحها الطبقية الخاصة . هذه الحقيقة الاولية لا غنى عنها والا لم يعد هناك أمل من أى مناقشة تدور حول الاتحاد القومى • ولحسن الحظ لا يوجد بيننا ، اليوم ، من يستطيع أن يزعم انه ليس فى مصر طبقات ، وليس فيها صراع طبقات • وهكذا يحسن ان نؤكد جميعا حقيقة تعدد الطبقات فى مصر ، وحقيقة قيام الصراع الطبقى فيما بينها • وليس الصراع الطبقى من اختراع الشيوعيين ، وانما هو حقيقة موضوعية فى المجتمعات ، ما بقى فيها تعدد الطبقات • وقد لا يعلم البعض أن الشيوعيين هم أشد الناس حرصا على الغاء الصراع الطبقى . غير أن الشيوعيين يعلمون ان الغاء الصراع الطبقى لا يكون الا بالغاء الطبقات ذاتها ، وهم يعلمون ايضا ان ذلك لن يتحقق الا عن طريق الاشتراكية ، وهذا هو بالضبط ما يكافح من أجله الشيوعيين • غير أن رغبتنا فى الغاء الطبقات مستقبلا لا تنفى وجودها حاليا وقيام الصراع فيما بينها • وكل طبقة كما قال السيد أنور السادات تدافع عن مصالحها ضد أعداء طبقتها ومن ثم تقيم تنظيماتها المهنية والسياسية وتكون حزبها الذى يقود

صراعها . فالاحزاب طلائع لطبقاتها تمثل مصالحها وافكارها وأساليب عملها • وطالما وجدت الطبقات ، وجد الصراع الطبقى ووجدت الاحزاب • ومثلما لا يتوقف وجود الطبقات على رغبة أو استياء فرد من الافراد ، كذلك لا يتوقف وجود الاحزاب على الرغبات والاعتراضات ، وانما يتوقف ذلك على وجود الطبقات ذاتها .

ولقد اتخذت الطبقات فى مصر احزابا لها ، فى الماضى ، كما ظهر الحزب الشيوعى ، الذى يمثل أحدث الطبقات الاجتماعية ، وهى الطبقة العاملة وجمهرة الكادحين • فالطبقة العاملة المنظمة فى المصانع ، طبقة لها مصالحها المتميزة • ولقد ناضلت ، منذ نهاية القرن الماضى ، فاحسنت النضال من أجل مصالحها الخاصة ومصالح الوطن كله ، وهى ، اليوم ، طبقة واعية حسنة التنظيم لا ينكر أحد وجودها ، ولا يجهل أحد نضالها ، ولقد وجد حزب الطبقة العاملة ، على الرغم من جميع العقبات والعراقيل التى وضعت ، باستماتة ، فى طريقها • وفى ظروف بلادنا التى يجب ان نتحد لمواجهة العدو الواحد ، لا يمكن ان يكون وجود الحزب الشيوعى ، ونجاحه فى تمثيل طبقته ، ونضاله لتوحيد صفوفها مصدرا لاستياء أحد من الوطنيين • فالمفروض فى كل حزب انه يوحد طبقته ، ومن ثم ، فالاحزاب الوطنية توحد الطبقات الوطنية ، ونعتقد ، اعتقادا راسخا ، ان وجود الاحزاب الوطنية انما يساعد ، بالفعل ، على توحد الطبقات الوطنية • ولهذا نرحب بقيام الاحزاب الوطنية ، ونعتقد ، اعتقادا راسخا ، ان وجود الاحزاب الوطنية انما يساعد ، بالفعل ، على توحيد صفوف الوطنيين • وبعبارة أخرى ، فان الطريق الطبيعى والبسيط لاتحاد الوطنيين انما هو اتحاد الأحزاب الوطنية ، فيما نسميه بالجبهة الوطنية . وذلك ، أيضا ، هو الطريق الديمقراطى فى بناء الجبهة الوطنية . وباختصار ، فان الطبقات الوطنية المتصارعة فيما بينها فى مصر متحدة أو على الاقل ، يجب أن تكون متحدة فى معركتها الوطنية ضد الاستعمار ، وهى معركتها الكبرى • فاذا قيل لنا اليوم أن الاتحاد القومى ليس حزبا ولا جبهة وطنية ، واذا قيل انه اتحاد مواطنين لا اتحاد اتجاهات ، واذا قيل لنا بالتالى انه يضم جميع الطبقات ، أفرادا لا طبقات ، فيجب أن نعترف بأن هذا كله لا يعنى ، فى النهاية سوى أمرين واضحين ، كل الوضوح . الأول أن الاتحاد القومى حزب ، والثانى أن الحزب الشيوعى مطلوب منه أن يصفى نفسه •

اما ان الاتحاد القومى حزب فأمر واضح ، تماما ، أولا من الاعتراف المؤكد ، مرارا ، بأنه ليس جبهة وطنية ، وثانيا من الطبقة التى يمثلها ، والافكار التى يتبناها ، والمصالح التى يدافع عنها ، وأساليب العمل التى يتبعها . ونحن نرى أن الاتحاد القومى يمثل طبقة الرأسماليين الوطنيين ،

ويتبنى أفكارهم ، ويدافع عن مصالحهم ، ويتبع أساليبهم فى العمل . ولا يمكن الاحتجاج علينا بان الاتحاد القومى يضم عمالا وفلاحين ومثقفين ، وانهم يكونون اغلبيته الساحقة ، فالعبرة ، فى نهاية الامر ، بقيادة الاتحاد القومى ، التى تشكل سياسته ، وتحدد مصيره . وهذه القيادة توجد ، الآن ، بأيدى طليعة الرأسمالية الوطنية التى يتزعمها الرئيس عبد الناصر ، ولقد كان حزب الوفد يضم أغلبية شعبية هائلة . ومع ذلك لم يعتبره أحد حزبا للعمال أو الفلاحين ، ولا اتحادا قوميا ولكنه كان حزب الرأسماليين والاقطاعيين ، الذين يسيطرون على قيادته وسياسته . وقد يضم الحزب الشيوعى نفسه أغلبية من المثقفين والفلاحين وصغار الرأسماليين ، ومع ذلك ، فهو حزب الطبقة العاملة ، ما دام يمثل تلك الطبقة بامانة ؛ ويتبنى افكارها ، ويدافع عن مصالحها ، ويتوخى اساليبها فى العمل . وبنفس الطريقة ، فان الاتحاد القومى حزب الرأسمالية الوطنية ، ولو كانت أغلبيته من العمال والفلاحين والمثقفين ، ما دامت السيطرة فيه للطبقة المسيطرة فى مصر ، وهى طبقة الرأسمالية الوطنية . ان هذه النتيجة يؤكدها ان قيادة الاتحاد القومى ، التى لم ينتخبها احد ، هى التى تقوم باختيار اعضائه ، وتحظر انتخاب مستوياته القيادية . واذا كان الاتحاد القومى ما زال يتعثر فى سبيل التكوين فما ذلك الا نتيجة لمحاولته أن يكون حزب العمال والفلاحين والمثقفين والرأسماليين ، فى وقت واحد ، وهو أمر مستحيل . ولو حرص الاتحاد القومى على ان يمثل طبقته صراحة لكان حزبا ناجحا . واما الاصرار على تكوين الاتحاد القومى ، بطريقته الحالية ، فلن تكون له سوى نتيجة واحدة هى المزيد من الفشل والانعزال عن الشعب .

ان اصرار الاتحاد القومى على ان يكون اتحاد جميع الطبقات ، واصراره على أن يكون اتحاد افراد لا اتحاد اتجاهات ، ليس له سوى معنى وحد ، هو نفى وجود الطبقات ، ونفى الصراع الطبقى ، ونفى وجود الاحزاب ، الا حزب الاتحاد القومى . فباسم الوحدة الوطنية ، يعلن السيد السادات ان « فكرة القومية التى يقوم عليها الاتحاد القومى تتنافى ، اساسا مع فكرة الحزبية » ، وباسم هذه الوحدة الوطنية ، يطالب بانضمام المواطنين على اختلاف طبقاتهم ، للاتحاد القومى كأفراد ، وبعبارة أخرى ان السيد السادات يطالب باسم الوحدة الوطنية لا بتكوين أحزاب وطنية للطبقات الوطنية ، ولا بتكوين جبهة وطنية ، ولكنه يطالب بانشاء حزب راحد . وهو يحاول ان يغطى هذه النتيجة بقوله « لن ننسى التناقضات فى الداخل » . أى لن ننسى الصراع الطبقى فى الاتحاد القومى . ولو كان ذلك صحيحا ، فكيف يمكن ان نتنكر هذا الصراع ؟ كيف واين ومتى يمكن ان يظهر ذلك الصراع ؟ ان حجة الوحدة الوطنية انما يساء استخدامها ، عن

عمد ، لتكوين حزب واحد ، وفرضه على جميع المصريين . وفى هذا ما فيه من الغاء للوحدة الوطنية . لانه انما يقوم على أسـاس الغاء الطبقـات والصراع الطبقى .

ونصل الآن للأمر الآخر فى حديث السيد أنور السادات ، وهو أن الحزب الشيوعى مطلوب منه أن يلغى وجوده ، ويصفى نفسه ! وهـذا واضح مما اعلنه السيد أنور السادات من أن الاتحاد القومى يتنافى مع الحزبية ، ومن أنه فتوح لكل المواطنين كأفراد وليس كاتجاهات . ولما لم تكن هناك أحزاب الى جانب الاتحاد القومى سوى الحزب الشيوعى ، فليس لنظرية السيد السادات من نتيجة سوى رفض دخول الشيوعيين فى الاتحاد القومى — اللهم الا اذا تخلوا ، كما يقول ، عن طريقتهم الخاصة فى التفكير . وتخلوا عن حزبهم ، ونبذوه ، وخلوا تنظيمهم ، وصفوه ، وتنصلوا ، نهائيا ، من الشـيوعية . وعنـدئذ ، فان عليهم ، كما يشترط السـيد السادات ، أن « يؤمنوا بالاتحاد القومى » ، وان يدخلوه متطهرين ، كأفراد وليس كاتجاه ! والسبب الذى يسوقه السيد السادات فى تبرير نظريته أنه « اذا سمحنا لاتجاه بعينه ان يدخل الاتحاد القومى كاتجاه ، فاننا بهذا ننفي الفكرة من وجود الاتحاد القومى ، اذ انه « ليس قائما ليخدم اتجاها معينا ، أو وجهة نظر معينة » . ومن ثم لا يتردد السيد السادات فى أن يصرح « لأول مرة بأن دخول الاتحاد القومى محظور » فى حالة ، اذا ما ثبت لدينا ان هذا الشخص أو ذاك عضو فى هيئة أخرى غير الاتحاد القومى » . وبغض النظر ان المباحث العامة هى التى تقدم أدلة الاثبات ضد المواطنين ، فمن المقطوع به من تصريح السيد السادات أن الشيوعيين ممنوعون من دخول الاتحاد القومى ، الا اذا تخلوا عن حزبهم ، وتبرأوا من شيوعيتهم . وتلك مسألة خطيرة حقا . فالاتحاد القومى ، الذى يجب أن يكون جبهة وطنية توحد الصفوف ، يجعل أولى مهامه تشتيت الوطنيين المتجمعين فى حزب يشهد له الشعب بالوطنية الصادقة . ان الاتحاد القومى يرفض وجود أى تجمع وطنى سواه ، وهو يشترط لعضويته أن يدخله الوطنيون أفرادا أشتاتا متخلين عن كل اتجاه وعن كل وجهة نظر ، يمكن أن تكون لهم . وهكذا ، فان الاتحاد القومى المسلح بكل سلطان يشـهر على جميع الوطنيين ، وعلى حزبنا بصفة خاصة ، سلاحا خطيرا ، هو سلاح التهديد . وباسم دعوة براقة لنبذ الحزبية ، فانه ، فى الحقيقة ، انما يدعو الشيوعيين للتخلى عن الحزب والشيوعية . وتلك الدعوة انما تحركها ، فى نهاية الامر ، رغبة واضحة فى عزل الحزب الشيوعى ، وفى تصفيته . ولن تكون تصفية الحزب فى مصلحة الشعب ، ولن تكون فى مصلحة الوحـدة الوطنية . ولهذا ، فلا ينبغى أن يخفى على فطنة السيد أنور السادات

ان دعوته هذه لن تلقى صدى لدى الشيوعيين ، وأن جماهير الشعب لن تنفض عن الحزب الشيوعى ، بل سوف تلتف حوله وزيادة ·

ومن واجبنا ان نقول ان الدعوة لنبذ الحزبية ، اليوم ، ليست ، فى الحقيقة ، سوى دعوة لنبذ الشيوعية · وان الخوف من الاحزاب انما يعنى ، فى الحقيقة ، الخوف من الحزب الشيوعى · وليست الحزبية شرا ، فى ذاتها وقد كانت هناك ، قبل الثوره ، احزاب رجعية ، معادية للوطنية والديمقراطية ، وكانت معادية للشعب ، بعماله وفلاحيه ومثقفيه ، وكانت عونا للاستعمار والرجعية ، ولذلك كانت تصفيتها خطوة تقدمية . أما اليوم ، وليس فى مصر أحزاب رجعية خائنة ، فان الدعوة لنبذ الحزبية لا يعنى سوى الرغبة فى التخلص من الحزب الوحيد الموجود ، وهو الحزب الشيوعى ، هـذا الحزب الذى كان له شرف توجيه المعركة ضد الاحزاب الرجعية والخائنة ، حتى النهاية . اننا ضد الاحزاب الرجعية الخائنة ، ولكننا نرحب بالاحزاب الوطنية والشعبية ، ولهذا نرحب بالاتحاد القومى ، وندافع عن وجود حزبنا ، أما القول بان الاتحاد القومى يتنافى مع الحزبية ، وأما الدعوة لنبذ الحزبية ، فهى ، فى الحقيقة ، دعوة لاقامة حزبية من نوع معين ، هى حزبية الحزب الواحد ، حزبية الاتحاد القومى ، فحسب . فالواقع الذى لا شك فيه أن الاتحاد القومى لا يتنافى مع الحزبية ، بل انه يقوم ، اساسا ، على فكرة الحزبية ، وهو نفسه حزب من الاحزاب · الا الاتحاد القومى ، حين يرفض أن يمثل أكثر من اتجاه واحد ، فانه يمثل ، عندئذ ، اتجاها واحدا ، هو اتجاه الراسمالية الوطنية . ومن ثم فليس صحيحا ان يقال أن كل الاتجاهات غير مسموح بها فى الاتحاد القومى · فكل الاتجاهات محظورة ، بالفعل ، الا اتجاه الرأسمالية الوطنية · وهكذا ، باسم الوحدة الوطنية ، وباسم الدعوة لنبذ الحزبية ، تسارع طبقة واحدة ، هى طبقة الراسماليين الوطنيين ، بتكوين حزبها ، وحظر تكوين الاحزاب الأخرى ، وفرض حزبها الواحد على الطبقات الوطنية جميعا · وتلك هى الحزبية الضيقة ، وليست الحزبية الوطنية ، على الاطلاق ·

ولقد كنا نريد الاتحاد القومى جبهة وطنية ، فمصر بحاجة الى جبهة وطنية ، هى ، وحدها ، التى تستطيع ، بتوحيد جميع القوى والطبقات الوطنية لجعل الاتحاد القومى حزبا طبقيا ، يفرض على طبقات الشعب ، الوطنية فيها ، أن تقود بلادنا ، بنجاح ، فى صراعها الجبار ضد الاستعمار والرجعية ، حتى نهايته . غير أن المسئولين عن تكوين الاتحاد القومى لا يعنون ببناء تلك الجبهة الوطنية . ويكتفون باستخدام حجة الوحدة

وبالتالى يحاول أن يطمس صراعها الطبقى . ولم يستطع الاتحاد القومى أن يكون حتى حزبا ، يضم أحزابا أخرى بداخله ، كما كان الكومنتانج قديما فى الصين ، وكما كان حزب المؤتمر الهندى . فقد كان الحزب الشيوعى الهندى ، فى البداية ، جناحا منهما ، معترفا له بوجوده المستقل داخلهما ، أما الاتحاد القومى عندما فلم يقبل حتى ذلك الوضع الاخير ، ولذلك كان الفشل محتوما عليه . وحين يبحث السيد أنور السادات عن سبب هذا الفشل لا يجده فى مشكلة الديمقراطية ، ولكنه يبحث عنه عند الشيوعيين ، فيحاول أن يلقى عليهم تبعة فشل الاتحاد القومى . وتلك حجة سهلة لكنها لا تقنع احدا . والمهم أن السيد السادات قد حاولها ، فماذا قال ؟ لقد حمل على الشيوعيين فى ميدانى الديمقراطية والوطنية ، فاتهمهم بانهم جامدون ، لا يفهون الديقراطية ، كما اتهمهم بانهم يريدون صرفنا عن معركتنا الكبرى مع الاستعمار . ولم يتعرض الشيوعيون لمثل هذه الحملة الجائرة ، منذ سنوات ، ولا هم يفهمون لماذا نطلق اليوم ضدهم(١) (...) ومن واجبهم ان يقلقوا لهذه البادرة السيئة .

ان السيد السادات يسخر من الدعوة التى تحرك أوسع الجماهير الشعبية لتكوين الاحزاب الوطنية ، ويعتبر دفاع الشيوعيين عن حرية تلك الاحزاب جمودا ، وجهلا ، وتضليلا . أما رأيه فيتلخص فى انه « لا علاقة بين الديمقراطية والاحزاب » . وليس الاتهام الذى يسوقه السيد السادات من الانصاف فى شىء . فالشيوعيون هم أول من يدرك أن الديمقراطية ليست هى الحزبية ، دائما . ولقد اعلن الشيوعيون المصريون أن بلادنا التى تحررت من الاستعمار ، وقلمت أظافر الاقطاع ، وحدت من سيطرة الاحتكار بلادنا ، هذه قد تهيأت فيها ، بصفة جوهرية ، جميع الاسس الموضوعية لقيام الديمقراطية ، التى تمارسها أوسع الجماهير الشعبية . لقد أيد الشيوعيين المصريين فرض الاحكام العرفية ، عندما وقع العدوان الثلاثى الغادر على بلادنا ، وكنا ، عندئذ ، من اشد انصار الديمقراطية ، مثلما نحن اليوم ، عندما طالبنا بالغائها ، حين تحولت الى أسلوب دائم للحكم . والواقع ان الديمقراطية لا يمكن أن تقوم اليوم فى بلادنا الا على أساس الاحزاب ، فما دامت لدينا عدة طبقات فلا مفر من قيام الاحزاب ، وعندما تتمتع كل طبقة بحريتها فى تنظيم نفسها بنفسها ، وتدافع بحرية عن مصالحها ، وتكون لنفسها طليعتها القائدة ، فى صورة حزب من الاحزاب ، فتلك هى الديمقراطية . غير اننا لا نطالب بقيام اى ديمقراطية ، ولسنا نطالب بتكوين أى حزب . اننا ندعو الى قيام الديمقراطية الموجهة ، التى تكفل حرية الوطنيين ؛ وتحرم الخونة من كل

---

(١) سطر مفقود فى الصورة التى لدينا .

حربة . اننا نطالب بتكوين الاحزاب الوطنية ، فقط تلك التى تسلك سبيل الوطنية ، وتقف ضد الاستعمار والرجعية ، فأين هو الجمود ، أو الجهل ، أو التضليل ، فيما ندعو له ؟ أم أن السيد أنور السادات يحسب أن منع قيام الاحزاب ، الا حزب الاتحاد القومى ، هو بعينه المرونة ، والعلم ، والامانة ؟ ان السيد انور السادات لا يريد ان تكون هناك احزاب ، لا اليوم ولا غدا ولا بعد غد . وحتى انتهاء مرحلة النضال ضد الاستعمار ، لا يتصور السيد السادات امكان قيام الاحزاب . عندما سأله يوسف ادريس « هل من الممكن ان تنشأ ، حينذاك ، احزاب تقود معاركنا الداخلية ؟ » أجاب بقوله « من الممكن ، حينئذ ، أن يحدث شىء كهذا ، أما انا شخصيا فارجو عندما يأتى ذلك الا يكون هناك داع لان تقوم بيننا معارك فى الداخل » . فأى صراحة تفوق هذا الحديث ؟!! ومع ذلك فلا يلبث السيد أنور السادات أن يستأنف الحملة علينا ، فيقول « ان هؤلاء الذين يريدون الديمقراطية الحزبية ، يريدونها لكى يستعينوا بواسطتها أن يحكموا هم ، شخصيا . فالمشكلة عندهم ليست هى الاستقلال ولا التحرر ، المشكلة هى من يأتى بالاستقلال والتحرر » .

ولا ريب أن هذه حجة مرسلة للمجادلة ليس الا ، فلا يوجد من يصدق ان الشيوعيين يطلبون الاحزاب ليحكموا هم ، شخصيا . ولقد اعلن الشيوعيون اكثر من مرة ، انهم لا يفكرون ، حاليا ، فى الحكم ، وانهم مشغولون ، قبل كل شىء بتوحيد القوى الوطنية داخل احزابها ، لكى تتوحد فى جبهة وطنية ، تقود بأكملها صراعنا الوطنى . ولقد اعلنوا ، مرارا وتكرارا ، أنه لا توجد طبقة واحدة تستطيع أن تواصل الصراع بمفردها ضد الاستعمار . ومع ذلك تصر طبقة واحدة فى الحكم على أن تتفرد هى بالحكم ، وأن تشهر بالطبقات الوطنية الأخرى ، وهى توجد خارج الحكم ، بزعم انها تشتهى الحكم . ويكفينا للرد على هذا الزعم ، أن نسوق فقره أخرى من تصريحات السيد أنور السادات نفسه ، حين يقول « ان الصراع لا يدور بين طبقاتنا حول ايها تستولى على الحكم » . واذن ، ففيم كان التشهير ، ولماذا كان هذا التناقض الصارخ فى الحديث ؟ اننا نطالب بتكوين الاحزاب الوطنية ، ليس ، فقط ، كطلائع مدافعة عن طبقاتها ، ولكن كطريقة فعالة لتوحيد الوطنيين جميعا من أقرب سبيل . وتلك هى الديمقراطية الصحيحة التى تحتاج اليها بلادنا . اننا نطالب للبورجوازية بحزبها ، كما نطالب للشعب باحزابه ، فأى انانية فى ذلك .

على ان براعة السيد أنور السادات لا تقف عند حد . وهو يأبى التسليم بالهزيمة . وعندئذ يشهر فى وجه الشيوعيين اخطر ما فى جعبته ،

وهو انهم بديمقراطيتهم « يحولون معركتنا الكبرى ضد الاستعمار الى معركة صغرى بيننا وبين أنفسنا » وانهم « يريدون تغيير الوسيلة » فى الظاهر »، ولكنهم ، حقيقة ، يريدون صرفنا عن أهدافنا الوطنية ، ربما لانهم ضد هذه الاهداف » . ومن الصعب علينا ان نفهم السر فى هذه الحملة الطائشة التى لا تصيب ، فى النهاية ، غير الوطن والقضية الوطنيه الكبرى . فالجميع يعلمون . والسيد أنور السادات لا شك يعلم — أن الحزب الشيوعى المصرى هو المدافع الأمين عن المصالح الوطنية والديمقراطية للشعب ، وأن المهمة التاريخية التى يحملها على عاتقه هى مهمة النضال فى سبيل صون الاستقلال الوطنى ضد العدوان الاستعمارى وضد النير الاقطاعى . ان الجميع يعلمون ان الشيوعيين يذودون ، ببسالة ، عن الاستقلال الوطنى ، ويناضلون ، بشرف ، فى سبيل تدعيم الاقتصاد الوطنى ، وفى سبيل السلام بين الشعوب . اننا ، نحن الشيوعيين ، نعلم . علم اليقين ، أن خطر العدوان الاستعمارى باق ما بقى الاستعمار ، وأن علينا أن نبرهن على أعظم اليقظة حيال (....)(*) الناجم من الاستعمار . ونعلم أن تعبئة الجماهير الشعبية ... (*) وحريتها فى تنظيم نفسها هى الضمان الفعال لرد المعتدين على اعقابهم . اننا نعتقد ، اعتقادا راسخا ، ان النصر فى نضالنا الوطنى يزداد تأكيدا كلما ازداد تجميع القوى الوطنية . ان الشيوعيين ، عندما يطالبون بالحريات ، لا يتخذون ذلك وسيلة لتحويل انظارنا عن قضيتنا الوطنية الكبرى ، ولا يشغلون السيد أنور السادات بمعركة صغيرة . ولكنهم يفعلون ذلك حرصا على مصير القضية الوطنية . ورغبة فى توفير أصلب ضمانة لصون استقلالنا الوطنى ، ودحر المستعمرين المتربصين . وتلك هى الوطنية .

ان وطنية الشيوعيين لا يمكن أن تكون خافية على أحد . فوطنيتهم تشهد بها بطولاتهم فى حركتنا الوطنية ، سنة ١٩٤٦ ، ويشهد بها كفاحهم المرير ضد ارهاب فاروق ، وتشهد بها تضحياتهم فى معارك الكفاح المسلح ، سنة ١٩٥١ ، وتشهد بها المقاومة الشعبية ، سنة ١٩٥٦ . ان بطولة الشيوعيين قد شهدت بها محاكماتهم العديدة ، وسنوات السجن والاعتقال ، والنفى الطويل ، وأعمال التعذيب الوحشية التى ذاقوها ، والآلام المبرحة التى ما زالوا يتحملونها ، من غير أن يكون لها داع . ان وطنية الشيوعيين تشهد بها مواقفهم العديدة فى تأييد الحكومة الوطنية ، تلك الحكومة التى ما تزال ، حتى الآن ، تضع الشيوعيين فى السجون والمنافى ، وسط الصحراء ، والتى تطارد الشيوعيين الطلقاء فى ارزاقهم ، سواء كانوا عمالا أو موظفين ، وتشردهم ، رجالا ونساء . ومع ذلك

(*) كلمات غير واضحة فى الأصل .

فلسنا نمن على الحكومة الوطنية بمواقفنا الوطنية ، لأننا لم نتخذها بغرض استرضائها ، وانما اتخذناها عن عقيدة خالصة ، وتقديم المصالح الوطنية العامة على المصالح الطبقية الخاصة . لقد اغضينا كثيرا عن آلامنا وعذاباتنا ، من أجل القضية الوطنية الكبرى ولم تكن الجماهير ، أحيانا ، تفهم كيف نهتف بحياة الرئيس عبد الناصر ، ورفاقنا الابطال مكبلون بالاغلال فى السجون ، وفى جوف الصحراء . ولكننا كنا نضرب المثل فى أنفسنا ، كنا ننكر ذاتنا ، من اجل الوطن ، ثم يأتى السيد أنور السادات فيعلن وهو مسئول عن كل كلمة يقولها ، أن الشيوعيين « ربما كانوا ضد الأهداف الوطنية » . وهذا كلام خاطىء وخطير . ان المسألة عندنا ليست ان يحقق أهدافنا الوطنية عبد الناصر أو الشيوعيون . انما المسألة أن تتحقق هذه الاهداف ذاتها . وعندما كانت تتحقق على أيدى عبد الناصر كنا نرفعه فوق رؤوسنا ، لأن فى انتصاره تقدم بلادنا . ولمصلحة بلادنا ، وحدها ، نقف الى جانبه ، ونضم قوتنا الى قوته ، ولسنا بحاجة لتذكير أحد بأن الشيوعيين كانوا أول من وضع الشعارات الوطنية الكبرى ، قبل الثورة ، مثل الكفاح المسلح والجلاء الشامل ، ومقاومة الاحلاف الاستعمارية ، والغاء النظام الملكى ، واقامة الجمهورية ، والغاء الاقطاع ، والاصلاح الزراعى ، وتأميم المشروعات الاستعمارية ، وفى مقدمتها شركة قناة السويس ، والبنوك ، واقامة جيش وطنى ، يحمى الاستقلال ويصون السلام . ولكننــا لا نريد مع ذلك أن نعيش على الذكريات ، بل نكافح ونتقدم ، دائما . وفى كفاحنا نجد الجماهير نفسها ، فليست لنا مصلحة مستقلة عن مصلحة الجماهير .

ان وطنية الشيوعيين فوق كل شبهة ، ان الشيوعيين يعرفون أنفسهم ، والجماهير كذلك تعرفهم . انهم وطنيون صادقو الوطنية ، بل هم اصلب الوطنيين جميعا ، وأكثرهم استقامة ، وابعدهم نظرا ، وأكبر شجاعة . ومن وطنيتهم ، أنهم يدعـون لبحث الخلافات التى تنشب فى صفوف الوطنيين - وليس من مصلحة الوطنيين ، على الاطلاق ، اخفاء تلك الخلافات او التستر عليها ، ومن مصلحة الجميع أن يحرصوا على مناقشاتها وتسويتها ، اذ انها خلافات وطنيين مع وطنيين . ومهما تفاقمت الخلافات ، فهى ، فى النهاية ، قضايا صغرى ، بجانب القضية الكبرى التى لا تحتمل خلافا ولا تصدعا فى الصفوف . وفى أكثر من مرة ، عندما أحدق خطر العدوان الاستعمارى ، برهن الشيوعيون على وعيهم العالى ، وصدق وطنيتهم ، وكانوا ، وهم جزء من الجماهير الشعبية ، مثالا للتضحية ، وانكار الذات . وحتى عندما يبتعد الخطر ، فانهم لا يضعون قضايانا الصغرى قبل قضيتنا الكبرى ، ولا فى مستواها . وهل معنى أنهم يناقشون

الاتحاد القومى ، ويناضلون من اجـــل الديمقراطية ، ويطالبون بتكوين الاحزاب ، أنهم غير وطنيين ؟ ان الشيوعيين لا يقدمون المعركة الداخليـــة على المعركة الوطنية ، غير انهم يرون ان من واجبهم أن يبصروا الوطنيين جميعا ، وفى مقدمتهم الحكومة الوطنية ، بالاخطار التى تهدد الوحـــدة الوطنية . ولقد أصبح الاتحاد القومى ، بتكوينه الحالى وبمواقفه الراهنة ، خطرا على الوحدة الوطنية . فالاتحاد القومى ، بتكوينه غير الديمقراطى ، وبرفضه ان يكون جبهة وطنية ، وباصراره على ان يكون حزبا فوق كل الاحزاب ، حزبا فوق الجبهة الوطنية ، وبسيطرته المفروضة على التنظيمات الجماهيرية النقابية والسياسية ، وبتعاونه الوثيق مع المباحث العـامة ورجال الادارة ، قد تحول ، بذلك ، الى سلاح ضد الجماهير الشعبية ، يحاربها فى حريتها ، وفى ارزاقها ، ولا يمكن بالتالى أن يكون ســـاحة الوطنية ، التى تضم الوطنيين جميعا .

ولا يمكن أن ينهم الشيوعيون بانهم يخربون الجبهة الوطنية ، حين يكشفون عن جوانب النقص الفادح فى تكوين الاتحاد القومى . ان الشيوعيين اشد انصار الجبهة الوطنية ، التى تحتاج اليها بلادنا لتقود كفاحنـــا الوطنى . انهم يناضلون من أجل بناء جبهة وطية حقيقية ، كتلك التى توجد فى اندونيسيا أو العراق ، ولكنهم يرون الخطر ، كل الخطر ، على الوحدة الوطنية ، فيما يقوم به الاتحاد القومى ، وهو حزب ، من محاولات لفرض نفسه على الشعب ، بينما يحرم الشعب من حرية تنظيم نفســه بنفسه . ان الجبهة الوطنية ، التى تضم العمال والفلاحين والمثقفين وصغار الرأسماليين والرأسماليين الوطنيين ، هى اتحاد حر اختيارى ، يضم عدة طبقات ، وهو بالتالى اوسع من أن يكون حزبا . وليس الاتحاد القومى ، باعتراف السيد السادات ، جبهة وطنية . بل هو ، على حد قوله ، « فوق الجبهات » . وبهذا الموقف نجد الاتحاد القومى يرفض تكوين الجبهـــة الوطنية ، ويمنع قيام الاحزاب الوطنية ، ويفرض نفســـه على جميـــع الوطنيين حزبا بالاكراه . وعندئذ فلا مفر من انفضاض الجماهير عن الاتحاد القومى ، ولابد أن يستمر انعزال الحكومة عن الشعب . وليس أمام السيد السادات ، عندئذ ، غير أن يحمل على الشعب ويقول « ان حكومة الثورة هى التى كانت تتولى الى الآن ، مهام الدفاع عنا وقيادتنا . أما نحن كشعب ، فكان موقفنا متخلفا جدا عن موقف حكومتنا » . ان براعة السيد السادات قد قلبت الاوضاع ، وبدلا من ان ينعى على الحكومة موقفها من الشعب ، يتهم الشعب بالتخلف جدا عن الحكومة . فهل يستطيع الشعب أن يقود حكومة لا تثق فيه ، وتحرمه من حريته فى تنظيم نفسه بنفسه ؟

ان قضية الاتحاد القومى هى احدى قضايا الشعب الأساسية ، وفيها تتجمع قضايا لها شأن خطير فى حياتنا السياسية ، الا وهى قضية

الديمقراطية ، وقضية بناء الجبهة الوطنية . واليوم ، حين تطرح قضية الوحدة العربية ، وينظر العرب الى مصر ، التى ينخذونها مثالا لوحدتهم الكبرى ، فمن حقهم أن يقلقوا على مصير الديمقراطية فى بلادهم فى ظل الوحدة . انهم ، بطبيعة الحال ، يتأملون مليا ما آلت اليه سوريا بعد وحدتها مع مصر . فقبل الوحدة كانت الديمقراطية المزدهرة ضمانا قويا لقيادة الجبهة الوطنية ، ولما تمت الوحدة ، وعطلت الاحزاب والحياة الديمقراطية تعرضت الجبهة الوطنية للخطر الشديد ؛ ومن حق العراقيين ، اليوم ، أن يحرصوا على مطلب الاتحاد الفيدرالى ، كوسيلة للمحافظة على حرياتهم .

وبعد ، فتلك اجابة سريعة على المسائل الصريحة التى طرحها فى حديثه السيد أنور السادات ، السكرتير العام للاتحاد القومى ، نأمل ان تكون ذات فائدة . وحرصاً منا ، فى الخاتمة ، على تحديد رأينا ، بدقة ، نحاول هنا ان نجمله فى النقاط التالية :

أولا — ان الشيوعيين المصريين يناضلون لتكوين جبهة وطنية ، تضم جميع القوى الوطنية فى مصر ، على أساس حر اختيارى ، وليس على الاكراه أو التمييز .

ثانيا — ان الشيوعيين المصريين يناضلون من اجل اقامة ديمقراطية موجهة ، لا ديمقراطية على النمط الغربى ، وذلك على أساس السماح بحرية تكوين الاحزاب للطبقات والفئات الوطنية ، وليس للطبقات او الفئات الرجعية والخائنة .

ثالثا — ان الشيوعيين يعتبرون الاحزاب الوطنية هى الاساس الوطيد لتكوين الجبهة الوطنية ، فالاحزاب وسيلة لتوحيد طبقاتها ، ومن ثم فهى وسيلة لتوحيد الوطنيين جميعا فى جبهة واحدة .

رابعا — ان الشيوعيين المصريين يعتبرون ان الاتحاد القومى حزب ، وأنه حزب الراسمالية الوطنية الحاكمة وانه ليس جبهة ، على الاطلاق . وانه بوصفه حزبا وطنيا ، يعتبر حزبا حليفا ، نتحد معه ، ونتصارع ضده ، فى وقت واحد ، نرحب به ، ونناضل للتحالف معه ، وعلاقتنا به لا غموض فيها ، فنحن لا نعاديه ، ولا نخربه . ولا يمكن أن يتهم الشيوعيون بتخريب الاتحاد القومى ، فليست مهمة الحزب الشيوعى دعوة الشعب لتكوين حزب الراسمالية . ومع ذلك ، فان تحالفنا معه يجعلنا نناضل من خارجه ومن داخله ، لتأكيد ضرورة بناء الجبهة الوطنية ، على أساس الديمقراطية .

ذلك موقف الشيوعيين المصريين من الاتحاد القومى ، موقف لا لبس فيه ولا غموض . وهم بذلك انما يعبرون ، بامانة ، عن المهمة التى حملتهم اياها جماهير الشعب . وأن الشيوعيين ليستمدون من الشعب جلدا على النضال ، وثقة ، لا تحد بالمستقبل . وهم لا ينفكون يمدون ايديهم لجميع القوى الوطنية من أجل بناء جبهتنا الوطنية ، على أساس الديمقراطية . ومع جميع القوى الوطنية يقفون صفا متراصا من أجل صون استقلالنا الوطنى ، الذى يتعرض لهجمات ، لا تنقطع من جانب الاستعمار العالمى .

المكتب السياسى

للحزب الشيوعى المصرى

١٩ سبتمبر ١٩٥٨ .

ملحق ٢

قرار الاتهام في قضية مقتل

الشهيد فرج الله الحلو

قرار الاتهام فى قضية مقتل
الشـهيد فـرج الله الحلو

(الصادر عن قاضى التحقيق العسكرى
لـدى المجلس العـدلى فى الجمهورية العربيـة
السورية ، الرائد احمـد زهير صبحى العـادلى)

***

باسم الامـة

نحن الرائد أحمد زهير صبحى العـادلى قاضى التحقيق لدى المجلس العدلى بعد الاطلاع :

على أحكام المرســـوم التشريعى رقم ١٦٩ وتاريخ ١٩٦١/١٢/٦ المتضمن تشكيلات واختصاصات المجلس العدلى ٠

وعلى الشكوى المقدمة من المحامى الاستاذ ميشيل عقل من بيروت بالوكالة عن فرجينى يوسف الحلو ارملة المرحوم فرج الله الحلو بالاصالة عن نفسها ووصيتها على بناتها القاصرات وهن : بشرى ونجوى وندى بحق المدعى عليهم : عبد الحميد السراج ، عبد الوهاب الخطيب ، سامى جمعه وكل من يظهره التحقيق من الموظفين السابقين .. انه فاعل أو مشترك او متدخل او محرض فى جريمة القتل ٠

وعلى الادعاء الأولى رقم ١ وتاريخ ١-١١-٦١ والمتضمن ملاحقـة المدعى عليهم : عبد الحميد السراج وعبد الوهاب الخطيب وسامى جمعـه بجرائم توقيف المواطن فرج الله الحلو بصورة غير مشروعة وايقاع التعذيب الجســـدى به وقتـله وذلك خـــلال الفترة الواقعـــة بين ٢٢-١-٥٨ و ٢٨-٩-١٩٦١ واثناء توليهم وظيفة عامة فى وزارة الداخلية وهى الجرائم المنصوص عليها والمعاقب عليها بأحكام المواد ٣٥٣ ، و ٥٥٦ و ٥٣٤ من قانون العقوبات .

وعلى الادعاء الملحق المؤرخ بـ ٢٥ ـ ١١ ـ ٦١ والمتضمن ملاحقـة المدعى عليهم : أحمد صبحى السراج وزيدان مهنا وعبد القادر سعيد النحام ومحمد طالب السادات بجرائم كتم معلومات فى قضية جنائية وذلك خلال الفترة الواقعة من ٢٢ ـ ٢ ـ ١٩٥٨ و ٢٨ ـ ٩ ـ ١٩٦١ واثناء توليهم وظيفة عامة فى وزارة الداخلية وهى الجرائم المنصوص عنها والمعـاقب عليها بأحكام المواد ٣٩٨ من قانون العقوبات السورى .

وعلى الادعاء رقم ٧٧٢ ق م وتاريخ ١٧ – ٣ – ١٩٦٢ المتضمن ملاحقة المدعى عليهم عبد الحميد السراج وعبد الوهاب الخطيب ونعسان زكار ووجيه الانطاكي وبهجت مسوتي وناصر صالح بجرائم سرقة واتلاف جثة اتلافا كليا بقصد اخفاء الموت وذلك خلال الفترة الواقعة بين ٢٢ – ٢ ١٩٥٨ و ٢٨ – ٩ – ١٩٦١ واثناء توليهم وظيفة عامة في وزارة الداخلية وممارستهم سلطة عامة وهي الجرائم المنصوص عنها والمعاقب عليها بأحكام المادة ٤٦٥ من قانون العقوبات .

وعلى الادعاء رقم ٦٤ ق م ع وتاريخ ٩ – ١ – ٦٢ والمتضمن ملاحقة المدعى عليه نعسان زكار بجرم كتم معلومات في قضية جنائية وذلك خلال الفترة الواقعة بين ٢٢–٢–١٩٥٨ و ٢٨–٩–١٩٦١ واثناء توليه وظيفة عامة في وزارة الداخلية وهي الجرائم المنصوص عنها والمعاقب عليها بأحكام المادة ٣٩٨ من قانون العقوبات العام .

وعلى الادعاء رقم ٧٧٢ ق م ع وتاريخ ١٧ – ٣ – ١٩٦٢ والمتضمن ملاحقة المدعى عليه وجيه انطاكي ورفيق رضا ونعسان محمد زكار وعبد الحميد السراج وعبد الوهاب الخطيب وسامي جمعه بجرائم توقيف فرج الله الحلو بصورة غير مشروعة وايقاع التعذيب الجسدي به وقتله من قبل المدعى عليهم ١ و ٢ و ٣ وجرم اساءة استعمال السلطة والاخلال بواجبات الوظيفة من قبل المدعى عليهم كافة وذلك خلال الفترة الواقعة بين ٢٢ – ٢ – ١٩٥٨ و ٢٨ – ٩ – ١٩٦١ واثناء توليهم وظيفة عامة في وزارة الداخلية وممارستهم سلطة عامة وهي الجرائم المنصوص عنها والمعاقب عليها بأحكام المواد ٣٥٧ و ٥٥٦ و ٥٣٤ و ٣٦٦ و ٣٦٧ من قانون العقوبات العام .

وعلى مطالعة النيابة العامة لدى المجلس العدلي بالاساس رقم ٩٤ وتاريخ ٢ – ٥ – ٦٢ والمتضمن طلب :

١ – اتهام المدعى عليهم : عبد الوهاب الخطيب وسامي ابن محمد جمعه ونعسان بن محمد زجار ووجيه بن أحمد توفيق انطاكي ورفيق أحمد رضا بجناية قتل المغدور فرج الله اسطفان الحلو قصدا مع ارتكاب أعمال التعذيب نحوه المنصوص عنها والمعاقب عليها بأحكام الفقرة ٧ من المادة ٥٣٤ من قانون العقوبات العام بدلالة المادتين ١٨٨ و ٣٦٧ من القانون نفسه .

٢ – اتهام المدعى عليهم عبد الوهاب الخطيب ونعسان بن محمد زكار وسامي بن محمد جمعه ووجيه بن أحمد توفيق انطاكي ورفيق رضا

بجناية حرمان المغدور فرج الله المذكور حريته وانزال التعذيب الجسدى والمعنوى به المنصوص عنها والمعاقب عليها بأحكام الفقرة ب لمادة ٥٥٦ من قانون العقوبات بدلالة المادة ٣٦٣ من القانون نفسه عدا تطبيق المادة ٣٦٧ المذكورة بحق احدهم رفيق ٠

٣ ـ الظن على المدعى عليهم عبد الحميد بن محمد السراج وعبد الوهاب الخطيب ونعسان بن محمد زكار ووجيه أحمد انطاكى وناصر بن محمد صالح وبهجت بن محمود المسوتى بالجنحة المنصوص عنها والمعاقب عليها بأحكام المادة ٤٦٥ من قانون العقوبات بدلالة المادة ٣٦٧ من القانون المذكور ٠

٤ ـ منع محاكمة المدعى عليهم : عبد الحميد السراج وعبد الوهاب الخطيب وسامى جمعه ونعسان بن محمد زكار ووجيه بن أحمد توفيق انطاكى من جناية التوقيف غير المشروع لعدم توفر عناصر الجرم ٠

٥ ـ منع محاكمة المدعى عليهم المبينة اسماؤهم فى البند (٤) من الجرم المنصوص عنه والمعاقب عليه بأحكام المادة ٣٥٣ من قانون العقوبات لعدم توفر عناصر الجرم ٠

٦ ـ منع محاكمة المدعى عليهم : محمد طالب السادات وعبد القادر ابن سعود اللحام وزيدان بن ابراهيم مهنا وأحمد صبحى السراج من جناية كتم المعلومات اثناء تحقيق جنائى لتراجعهم وادلائهم بالحقيقة قبل اختتام التحقيق عملا بأحكام المادة ٣٩٩ .

٧ ـ منع محاكمة المدعى عليه عبد الحميد بن محمد السراج عن جناية الاشتراك بحرمان المغدور فرج الله الحلو حريته وتعريضه للتعذيب لعدم توفر الدليل .

٨ ـ منع محاكمة المدعى عليه نعسان بن محمد زكار من جناية كتم المعلومات اثناء تحقيق جنائى عملا بأحكام المادة ٤٠٠ من قانون العقوبات .

٩ ـ اصدار مذكرات قبض ونقل بحق المدعى عليهم المبينة اسماؤهم فى البندين ١ و ٢ .

١٠ ـ اجراء محاكمة المدعى عليهم المبينة اسماؤهم فى البنود ١ و ٢ و ٣ امام المجلس العدلى ٠

وعلى التحقيقات الجارية فى هذه القضية ٠

وعلى أوراق هذا الملف كافة فقد تبين لنا ما يلى :

فى الوقـــائع

اصدر رئيس المجلس التنفيذى وزير الداخلية فى الاقليم الســورى من الجمهورية العربية المتحدة السيد عبد الحميد السراج (آنذاك) امرا بناء على الامر رقم ٣٨ وتاريخ ٢ اكتوبر ١٩٥٨ الذى يخوله القاء القبض على المشبوهين والمتمردين ومن ينغص صون الأمن العام القبض عليهم بمكافحة الشيوعية فى سورية لا سيما بعد حوادث الموصل فى شهو آذار من عام ١٩٥٩ وكان هذا الامر عاما الى جميع مفارز الأمن الداخلى من المخابرات والمباحث ٠ فشن المسئولون عن الامن حملة عامة فى سورية للتفتيش عن الشـــيوعيين وتوقيفهم بالاســـتناد الى قانون الطوارىء والصلاحيـات المخوله الى وزير الداخليـة من رئيس الجمهورية فى ذلك الحين ٠

وكان ان ذكر صبحى للحبل اثناء التحقيق معه عن نشاطه الشيوعى ان فرج الله الحلو اللبنانى الجنسية واحد ثلاثة مسئولين عن الحزب الشيوعى اللبنانى السورى سيزور وكرا للحزب بدمشق بدار على طريق كفر سوسه فرؤى ارسال مراقبين الى الدار يترصدون حضور فرج الله الى الدار . وارسل شاهر قويناتى وقاسم الشماط بتكليف من سـامى جمعه رئيس احدى مفارز المباحث الى دار صبحى الحبل التى ذكر ان فرج الله سيحضر اليها واطلعه على اشارة خاصة بين فرج الله وصاحب الدار وكمنا هناك الى أن حضر فرج الله وطرق على الباب الاشارة المصطلح عليها ففتح له الباب والقيا القبض عليه وتبين انه دخل الحدود الســورية بهوية ذات اسم مستعار اطلقه على نفسه هو عساف منصــور ولقب نفسه وهو اسمه الحزبى باسم أبو فياض فاتصل شاهر بسامى جمعه وابلغه نبأ اعتقال فرج الله الحلو ونجاح الخطة ٠

ذهب سامى جمعه على راس ثلة مؤلفة من وجيه انطاكى وسعيد مخللاتى وغيرهما بتاريخ ٢٥ ـ ٦ ـ ١٩٥٩ الى حيث كان شاهر قويناتى وزملاؤه قد حجزوا قبل دقائق فرج الله الحلو فشد وثاقه ونقله الى مفرزته فى حى الصالحية بدمشق قرب المستشفى الايطالى واتصل بمدير الفروع السابع للمخابرات نعسان زكار واطلعه على نبأ نجاح خطة اعتقـــال فرج الله الحلو وانه فى قبضته ٠ قابل نعسان زكار مدير الفرع الســابع للمخابرات فرج الله الحلو فى المفرزة المذكورة وتذاكر واياه برهة فقدم له

نعسان فنجان قهوة واخذا يتناقشان فى سياسة الجمهورية العربية المتحدة آنذاك ولاحظ نعسان حلقة تضم عدة مفاتيح فى يد فرج الله الحلو فسأل عنها فلم يجبه بشىء واتهم جمال عبد الناصر بأنه عميل اميركى فصفع نعسان فرج الله وامر ببطحه فى الصالون فمانع فرج الله الحلو فى الخروج وأخذ يحتمى بوجيه انطاكى فاخرج بالقوة الى حيث امر نعسان وتعرض للضرب على قدميه بأمر من نعسان حتى اغمى عليه دون ان يفصح عن سبب وجود المفاتيح المتعددة معه فتركه نعسان بين يدى عناصر المفرزة وانصرف .

علم عبد الوهاب الخطيب رئيس القسم السياسى فى المباحث العامه باعتقال فرج الله الحلو فحضر الى المفرزة المعتقل بها وما ان شاهده حتى بادره بقوله « انك لصيد ثمين » واخذ يحقق معه عن نشاطه الشيوعى وعن المفاتيح التى بحوزته والدور التى يتردد اليها الا ان فرج الله كان يرفض الاجابة أو يحاول التخلص منها . فاستعمل عبد الوهاب العنف والشدة معه ليكرهه على القول وضربه بعصاه حتى تكسرت وصفعه بالكهرباء فى قدميه وكان سامى جمعه يضع سلك الكهرباء فى المآخذ كما يأمره عبد الوهاب الخطيب يوصل التيار ويقوم عبد الوهاب بوضع الطرف الثانى من السلك فى ابهامى قدمى فرج الله ليحمله على الافضاء بما لديه من معلومات وكلما امعن فى الكتمان امعن عبد الوهاب الخطيب فى التعذيب وتفنن فى اساليبه فأمر بوضعه « فلقة » وضربه ضربا مبرحا على قدميه وجسمه وجلده بالسوط حتى ساعة متاخرة من الليل ونفخ بطنه بالهواء بمنفاخ سيارة ثم ضغط بقدمه على بطنه ليخرج الهواء وامر بتعليق وعاء من الماء فوق رأسه تقطر منه قطرات متقطعة من الماء « وعاء لمازوت المدفأة » وتتساقط على وجه فرج الله فى اشد عطشه فعلم سامى جمعه بأن فرج الله مصاب بمرض القلب وقد شاهد معه أدوية منها الكورامين وخشى عليه من الضرب فنهره عبد الوهاب واستمر فى تعذيب فرج الله حتى ينتزع منه معلومات عن نشاطه . وكان رفيق رضا يناقشه فى افكاره السياسية والعقائدية ونصحه ان يعترف ليتخلص غير ان فرج لم يكن ليجيب الا باتهام رفيق رضا بالخيانة وتجلى على عبد الوهاب السخط وخرج سامى جمعه الى حديقة البناء بعد ان نهره عبد الوهاب وبقى حتى عودة وجيه انطاكى . عاد وجيه انطاكى الى المفرزة فى اواخر الليل وفى الساعة الأولى من صباح ٢٦ ــ ٦ ــ ١٩٥٩ فوجد ان عبد الوهاب لا يزال فى المفرزة وقد انهكه التعب فسلمه فرج الله حيث كان فى الصالة وطلب منه ان يعلمه بما سيحدث وخرج الى داره وعاد وجيه الى فرج يستجوبه واقدم على ضربه ثم خرج الى غرفة أخرى فطلب فرج الله قايلا

من المـاء فخرج ياسين حب الله لتلبية طلبه وما ان عاد حتى شـاهده قد مات فذهب فورا واخبر وجيه انطاكى بما جرى فحضر وشاهد فرج الله وقد انقطعت انفاسه فحمله الى غرفة سامى جمعه واتصل بعبد الوهاب الخطيب واطلعه على ما جرى فأمر عبد الوهاب باخفاء الجثة فى غرفة تحت أسفل الدرج حتى لا يراها موظفو المفرزة والشيوعيون الموقوفون ريثمـا يحضر ليتدبر الامر . اتصل وجيه انطاكى بنعسان زكار مدير الفرع السابع للمخابرات العامة واعلمه بالموضوع وبعد برهة وجيزة حضر الى المفرزة نعسان زكار وبهجت مسوتى وناصر صالح وعبد الوهاب الخطيب واخـذوا يتباحثون فى تدبير الامر فامتزجوا مبدئيـا بتقرير مصـيرها وتعددت الاقتراحات وأمر عبد الوهاب الخطيب وجيه انطاكى بان يخفيها فى مزرعـة سامى جمعه قرب دير سلمان واتصلوا بسامى جمعه هاتفيا فحضر ورفض ان تدفن فى ارضه وتعددت الاقتراحات فمن قائل ان تدفن فى قبر مهجور ثم يصب عليها الحمض الازوتى ومن قائل بدفنها فى مزرعة سامى جمعه الى أن حان المساء أمر نعسان زكار وجيه انطاكى ان ينقل الجثة الى قرب مزرعة سامى جمعة ودفنها هناك فقام بنقلها مع عدد من موظفى المفرزة ودفنوها ليلا حيث استقر الرأى واشاع وجيه فى تلك القرية حيث يقيم اخوه حسن انطاكى انه دفن أوراقا شيوعية على درجة من الخطورة وعين ياسين حب الله حارسا عليها خوفا من سرقتها أو اكتشافها . ادعى نعسان زكار انه اتصل هاتفيا بوزير الداخلية آنذاك عبد الحميد السراج فى بيته فلم يجده اذ انه كان خارج دمشق عندما علم نعسان بموت فرج الله وعاد للاتصال به مرة ثانية واعلمه بالنبأ فاستدعاه فى صبـاح اليوم التـالى وبرفقته كلا من بهجت مسوتى وناصر صالح وما ان قابلوه حتى شرح الوضع له نعسان بالتفصيل فاستاء من الخبر وعرضوا عليه احالة القضية الى النيابة العامة للتحقيق وتحديد المسئولية فاجابه وعلى ما بدا لهم انه على علم بالامر من قبل انه لا يرغب فى ذلك حتى لا تحدث هذه القضيـة ضجة عالمية فيما اذا سلمت الجثة الى ذويها ووعدهم بدراسة الموضوع بعد ان كان موظفوا المفرزة قد دفنوا الجثة فى مكان قرب قرية دير سـلمان المؤهلة .

نمى الى نعسان ان سيارة لبنانية تتردد الى مكان مدفن جثة فرج الله الحلو فاقترح نقلها الى قرب قرية فى جبل الشيخ ووضعها فى كهف ثم يصار الى تفجيره وخرج مع جماعة من موظفيه لاستكشاف المكـان فرأى ان الكهف بل الفكرة غير صالحة لئلا يتنبه أهل القرى الى الحادث فعـاد واقترح اذابة الجثة بالحمض « الاسيد » وكلف وجيه انطاكى بتنفيذ المهمة واعطاه امر صرف مبلغ مائتى وخمسين ليرة سورية لشراء الادوات اللازمة لذلك ، فذهب الى محاسب المخابرات النقيب صلاح الدين الايلى واستلم

المبلغ واشترى به مغطسا « بانيو » وحمضا « اسيد » ومنشارا وقطنا وكحولا وذهب برفقة أحمد السراج وعبد القادر اللحام وزيدان مهنا وسعيد مخللاتي وهو متحمس لازالة الجثة من الوجود واجتمعوا هناك بزميلهم ياسين حب الله حيث كان في حراستها ونبش وجيه قبر فرج الله تحت جنح الظلام وهو ثمل واخرج الجثة وكان ان سد فمه وانفه وكذلك رفاقه بالقطن اتقاء لرائحة التفسخ وقطع وجيه بمنشاره الجثة اربا اربا ووضعها في كيس معه وعاد بها الى المفرزة ثم الى بيته في كفر سوسه ووضعها في المغطس الذي اشتراه وصب عليها الحمض الكيماوي « اسيد » ونقعها ثلاثة ايام حسب ارشادات نعسان زكار وتغيب عن المفرزة هذه المدة بعد ان شاع ان جثة فرج الله الحلو ارسلت الى اللاذقية والقيت في البحر طعاما للاسماك . ولما تاكد من نجاح التجربة بنفسه وان عظام فرج الله الحلو قد ذابت في الحمض ابلغ نعسان بذلك فحضر برفقة سامي جمعة وتأكد بنفسه من النجاح فأمر بصب الماء في النهر الذي يجري بالقرب من دار وجيه انطاكي . ولقد نفى عبد الحميد السراج ان يكون على علم بمقتل رفج الله الحلو بدمشق على ايدي رجال المخابرات أو يكون على علم بدخوله سورية حتى ساعة استجوابه عنه وادعى انه لو علم في حينه لما توانى عن اتخاذ الاجراءات القانونية بحق الفاعلين وذكر انه لما اثيرت القضية ، بل قضية فرج الله الحلو على الصعيد الدولي بين خروشوف وعبد الناصر سئل رسميا عن موضوع فرج الله الحلو فسأل بدوره المخابرات العامة عن هذا الشخص فقدمت له قائمة بأسماء الممنوع دخولهم الى سورية وكانت تضم اسم فرج الله الحلو ولم يذكر انه دخل سورية أو طرد منها ، فاجاب الجهة التي سألته رسميا بان فرج الله الحلو لم يدخل سورية وانه ممنوع من دخولها بأمر منه استنادا الى قانون الطوارئ وصونا للامن العام ولم يدر ان رسميا او عاديا ان فرج الله الحلو قد اوقف وحقق معه ومات بدمشق . وادعى وجيه انطاكي ان عبد الوهاب الخطيب ونعسان زكار كلفاه بأخذ تواقيع افراد المفرزة ممن اطلعوا على هذا الحادث على وثيقة تشعر باشتراكهم برئاسته بتعذيب فرج الله الحلو مما ادى به للموت حتى تدخل الرهبة على كل منهم ولا يخبر احد بذلك . فحرر وجيه بخط يده وثيقة تضمنت : نحن الموقعين ادناه وجيه انطاكي ، محمد السادات ، جورج جبور ، سعيد مخللاتي ، عبد القادر اللحام ، ياسين حب الله ، زيدان مهنا ، أحمد السراج وعلى موعد بعد ان قبضنا على الشيوعي اللبناني فرج الله الحلو في الساعة ٤٥ ، ١٩ من يوم ٢٥-٦-١٩٥٩ في دار سرية للحزب المذكور بدمشق وخلال قيامنا مشتركين بالتحقيق الذي كان يرأسه احدنا وجيه انطاكي اذ بنا نلحظ منه حركات جسمانية غير عادية ادت الى موته بالساعة ١٥ ، ٧ من يوم ٢٦-٦-١٩٥٩ واعترافا

منا بهذه الواقعة وباشتراكنا فى هـــذا التحقيق الآنف الذكر وبانتزاع الاقوال من المذكور اسمه فيما سبق فاننا نوقع هذا الاعتراف باختيارنا. نحن بكامل قوانا الجسمانية والعقلية تحريرا فى ٢٦ـ٦ـ١٩٥٩ وقد ضمت تواقيع المذكورين فى مقدمتها .

نفى ان يكون نعسان زكار على علم بهذه الوثيقة كما افاد موقعوها بانهم وضعوا تواقيعهم عليها بناء على طلب وجيه اذ فهموا منه ان نعسان زكار قد طلب ذلك وذكر سامى جمعه انه حصل على نسخة من هـذه الوثيقة بعد مقتل فرج الله الحلو اثر تمنعه عن العمل ومقابلتـه لوزير الداخلية عبد الحميد السراج وطلب منه ما يثبت براءته من هـذا الجرم ليتابع العمل فوعده عبد الحميد السراج بدراسة القضية مع عبد الوهـاب الخطيب ونعسان زكار وقد احتفظ بهذه الوثيقة ثم قدمها الى التحقيق بتاريخ ٦ـ١ـ١٩٦٢ اثناء استجوابه .

فى الادلـة :

وقد أيدت هذه الوقائع بالادلة التالية :

١ ـ افاد ســامى جمعه فى المحضر رقم ١٦ وتاريخ ٦ ـ ١ ـ ١٩٦٢ والمتضمنة ان صبحى الحبل اعترف ان فرج الله سيزور دمشق بتـاريخ ٢٥ ـ ٦ ـ ١٩٥٩ فوضع له كمين ثم ذهب مع وجيه انطاكى من المفرزة الى الدار وعلا بفرج الله الحلو واتصل بعبد الوهاب الخطيب فلم يجـده فأخبر نعسان زكار فحضر وتناقش مع فرج الله الذى كان يحمل هـوية لبنانية باسم عساف منصور واذ قال لنعسان ان عبد الناصر عميل اميركى نصفعه وطلب من وجيه اخراجه الى الصالون فمانع فرج الله فأخرجـه الموظفون بالقوة وطرحوه ارضا وانهالوا عليه ضربا بحضور نعسان زكار وطلب أن يرفع فلقة وصار يسأله عن مفاتيح وجدت بحوزته فلم يعترف وحضر عبد الوهاب وقال انك لصيد ثمين وتناقش مع فرج الله وقذفــه بكأس وصار يضربه بعصا حتى تكسرت ثم امر بوضعه فى الفلقة وارسل عبد الوهاب بطلب الياس أبو طاره ومنير فرح ورفيق رضـــا فحضروا ونصحوه فلم يصغ فركله رفيق رضا بقدمه فاقدم سامى ونصح عبد الوهاب لوجود الكورامين فنهره بكوعه وانه اعلم عبد الوهاب باصابة فرج الله الحلو بمرض القلب لما شاهده ينفخه ويستعمل الكهرباء معه فخرج الى الحديقة وتردد الى الصالة فشاهد ان الضرب ما زال مستمرا فخرج وذهب الى مزرعته وشاهد وجيه يدخل الى المفرزة فذهب الى مزرعته وحضر اليه سعيد مخللاتى واعلمه بوفاة فرج الله الحلو وان النقيب نعسان زكار

يطلبه فذهب الى المفرزة فشاهد ناصر صـالح وعبد الوهاب الخطيب ونعسان زكار وبهجت المسوتى ووجيه انطاكى مجتمعين فطلب اجراء التحقيق عن الوفاة اقترح نعسان ارسال الجثة الى البحر واقترح بهجت اذابتها بالاسيد وانصرفوا ورفض سامى العمل فاستدعاه السراج وطلب منه متابعة العمل ووعده باعطائه وثيقة تثبت براءته وان وجيه انطاكى احضر له ورقة تتضمن ان فرج الله الحلو مات اثناء التحقيق معه من قبله مع عدد من الموظفين فعاد الى عمله وعلم من بعض الموظفين ان جثة فرج الله قد نقلت واخذها وجيه لتذويبها وان نعسان اشرف على ذلك ورأى نعسان وعبد الوهاب يودان الذهاب الى دار وجيه للاشراف على عملية التذويب ·

٢ ـ افادة المدعى عليه سامى جمعه المحضر رقم ٢٠ وتاريخ ٩ ـ ١ ـ ٦٢ والمتضمنة ان نعسان زكار ارتأى نقل الجثة حتى لا ينقلها اللبنانيون لعرضها فى الامم المتحدة ثم نقل الجثة الى دار وجيه لتذويبها بالاسيد ثم ذهب مع نعسان الى دار وجيه واعلم وجيه نعسان بانتهاء العملية ونزل نعسان الى القبو ولم ينزل معه وعاد الى المفرزة ·

٣ ـ افادة سامى جمعه فى المحضر رقم ٦٠ بتاريخ ٦ ـ ٢ ـ ١٩٦٢ والمتضمنة انه برىء مما نسب اليه وانه كان ينفذ الاوامر الصادرة اليه ·

٤ ـ افادة المدعى عليه وجيه انطاكى فى المحضر المؤرخ فى ١٥ـ١١ـ١٩٦١ امام التحقيق العدلى والمتضمنة انه علم من صبحى الحبل ان فرج الله الحلو يتردد عليه من لبنان فذهب مع سامى جمعه واحضره الى المفرزة واذا بالنقيب نعسان زكار ينتظر وأخذ يحقق مع فرج الله ووجد معه حلقة مفاتيح فسأله نعسان عنها فرفض الاجابة أمر النقيب نعسان لاخذه للخارج فأخذ يمانع ويتمسك به فأخرجه الموظفون حضر عبد الوهاب فترك المفرزة وفيها عبد الوهاب ونعسان وعاد فى اليوم التالى فوجد فرج الله ممددا على ظهره مكتوف اليدين وعليه آثار الضرب وترك عبد الوهاب المفرزة وطلب اليه ان يخبره بما سيحدث وكان رفيق رضا حاضرا وامره عبد الوهاب بوضع المغدور على كرسى فشاهد بطنه يرتفع ويهبط واصبح بلا حرارة فاخبر عبد الوهاب فأمر بنقله لغرفة صغيرة تحت الدرج ثم حضر عبد الوهاب وبهجت وناصر ونعسان وتحقق عبد الوهاب من موته فاتصلوا بسامى جمعه فناداه عبد الوهاب وطلب منه اخفاء الجثة فى مزرعة سامى ثم حضر سامى وامره عبد الوهاب بالذهاب لتلك المنطقة فذهب ومحمد السادات وسعيد مخللاتى وزيدان مهنا وآخرين وفهم من عبد الوهاب ونعسان ان الدفن موقت وأمره نعسان بوضع حراسة على الجثة للمراقبة

فعين ياسين حب الله ثم اعطاه مائتي وخمسين ليرة سورية ثمن بانيو لحل الجثة به فاشترى بانيو واسيد واوصلها الى داره واشترى منشارا صغيرا بارشاد نعسان وذهب ليلا ومحمد السادات وزيدان مهنا وسعيد مخللاتي وعلى موعد وفتحوا الحفرة ونشروا الجثة ووضعوها فى الكيس واخذ الجثة الى داره ووضعها فى البانيو وبقيت بماء الاسيد ثلاثة أو اربعة ايام واخبر النقيب نعسان فحضر وسامي وتأكد من النتيجة ثم نقل وجيه ماء الاسيد الى النهر وبتكليف من نعسان شيع ان الجثة ارسلت الى اللاذقية وكلفه نعسان بأخذ توقيع افراد المفرزه على اشتراكهم برئاسته بتعذيبه مما ادى الى الموت ٠

٥ ـ افاد وجيه انطاكى فى المحضر رقم ٦٤ وتاريخ ١ـ١ـ١٩٦٢ والمتضمنة انه دفن الجثة بأمر من نعسان زكار وعبد الوهاب الخطيب وانه ذوبها بأمر نعسان ووفق تعليماته ٠

٦ ـ افادة الشاهد نعسان زكار فى المحضر رقم ٢ وتاريخ ٢٥ـ١٢ـ١٩٦١ والمتضمنة ان سامى جمعه اتصل به واعلمه انه القى القبض على فرج الله الحلو فذهب لمفرزة سامى جمعه اتصل به ولم يجر معه تحقيقا واوصى سامى به خيرا وانصرف وفى اليوم التالى اتصل به وجيه واعلمه بوفاة فرج الله وان عبد الوهاب حقق معه حتى الصباح وضربه اثناء التحقيق فذهب لدار بهجت واتصل بناصر صالح وذهبوا الى المفرزه فشاهدوا وجيه انطاكي وحده فاعلمهم ان الجثة فى مكان آخر ضمن المفرزة حسب تعليمات عبد الوهاب واعلمهم ان رفيق رضا كان حاضرا جزءا من التحقيق فخرجوا دون مشاهدة الجثة فاتصل هاتفيا بمنزل عبد الحميد السراج فلم يجده فعاود الاتصال فى اليوم التالى وذكر له الحادث فابدى دهشته وطلب مقابلة مع ناصر وبهجت واعادوا عليه ذكر الحادث واقترحوا اطلاع النيابة العامة وقال السراج انه كان ينوى اخبار النيابة العامة الا ان ذلك يترتب عليه تسليم الجثة الى ذويها وسيكون ذلك فرصة ذهبية للشيوعية لمهاجمة الجمهورية العربية المتحدة وربما تعرض الجثة فى الامم المتحدة لذلك فانه مضطر لعدم اخبار النيابة العامة واعتبار الموضوع منتهيا وسيدرسه ٠

٧ ـ افادة المدعى عليه نعسان زكار فى المحضر رقم ٦١ تاريخ ٧ـ٢ـ٦٢ والمتضمنة ان توقيف فرج الله الحلو لم يستمر أكثر من عشر ساعات اذ انه مات ولا يعرف كيفية موته ولم يستعمل معه الشدة او العنف .

٨ ـ شهادة سعيد مخللاتي في المحضر رقم ٣ تاريخ ٢٥ ـ ٢ ـ ٦٢ المتضمنة انه سمع سامي جمعه يقول لفرج الله الحلو أهلين ابو فياض والقى القبض عليه وعادوا الى المفرزة وعرضوه على الشيوعيين ثم ادخل الى مكتب سامي جمعه وحضر بنفس المساء عبد الوهاب الخطيب وبيده كرباج وأبو فياض ممدد على الأرض ومجرد من ملابسه وكان عبد الوهاب يضربه وسامي يقف ساكتا وطلب عبد الوهاب أن تعلق بطيخة مازوت مدفأة وفيها ماء وينزل منها الماء نقطة نقطة وان عبد الوهاب عاد وضرب فرج الله ولم يشاهد سامي جمعه ثم نام ولما استيقظ شاهد وجيه يقترب من أبي فياض وقد احمر وازرق جلد جسمه وورم وجهه وكان وجيه يقول لفرج انا جيت أبو فياض شو ما حكيت فسمع ياسين حب الله ينادي وجيه ليرى ما يحصل وشاهد رأس فرج الله متدليا على صدره بدون حراك فطلب منه وجيه ان يذهب لاحضار أحمد السراج فأحضرته واحضرت سامي جمعه فسألته عما اذا كان « الزلمة » مات وعبد الوهاب ووجيه وانهم وضعوا الجثة في حفرة وانه ذهب مع وجيه ووضعوا الجثة في كيس وفهم من وجيه انه سيلقي بالجثة في البحر .

٩ ـ افادة المدعى عليه نعنعسان زكار في المحضر رقم ٢٣ تاريخ ٦ ـ ٢ ـ ١٩٦٢ والمتضمنة انه لم يعط وجيه انطاكي ملابس فرج الله الحلو ولم يعط نقودا لشراء بانيو لتذويب الجثة .

١٠ ـ شهادة محمد ياسين حب الله في المحضر رقم ٥ تاريخ ٢٦ ـ ١ ـ ١٩٦٢ والمتضمنة انه علم من زملائه ان الشخص الموقوف هو فرج الله الحلو وان سامي جمعه كان يصل سلك الكهرباء وعبد الوهاب الخطيب يربطه باصبعي قدمي فرج وكان رفيق رضا ومنير فرح وسعيد مخللاتي ومحمد السادات وآخرون حاضرين التحقيق وان عبد الوهاب طلب من رفيق رضا اقناع فرج الله الحلو للكلام فاسكته فرج الله فضربه عبد الوهاب وانه سمع سامي جمعه ينبه عبد الوهاب الى مرض فرج الله واستمرار عبد الوهاب بالضرب ونفخ فرج الله بأمر من عبد الوهاب وجلده بالسوط وصفعه وصعقه بالكهرباء ، وكان سامي يضع الفيش بأمر عبد الوهاب وان سامي انصرف وبقي عبد الوهاب يتابع الضرب الى ان حضر وجيه انطاكي وان وجيه لم يضرب فرج الله وان فرج الله مات فاخبر وجيه وحضر ضباط لم يعرفهم وان وجيه طلب نقل الجثة الى غرفة بأسفل الدرج ثم نقلها ثم وضعها في حفرة وانه حرسها سبعة ايام ثم حضر وجيه وزيدان والسادات واحمد السراج والمخللاتي واللحام واخرج وجيه الجثة ونشرها ووضعها في الكيس وان عبد الوهاب هددهم بأن مصيرهم

كمصير فرج الله اذا باحوا بالسر وان اشاعة فى المركز روجها ان الجثة القيته فى البحر .

١١ ـ شهادة رفيق رضا فى المحضر رقم ١٠ تاريخ ٢٦ ـ ١٢ ـ ٦١ والمتضمنة انه تلقى هاتفا من سامى جمعه بأن القى القبض على فرج الله الحلو وطلبه الى المفرزة فدخل فشاهد عبد الوهاب وفرج الله الحلو ممددا على الأرض وتبين له انه مضروب واخذه الى الصالون موظفون بأمر عبد الوهاب ثم انصرف ولم يجر الضرب بحضوره .

١٢ ـ شهادة بهجت مسوتى فى المحضر رقم ١٢ تاريخ ٣٠-١٢-٦١ والمتضمنة انه علم من نعسان زكار وناصر بأن فرج الله اوقف وتوفى ى المفرزة وقتله عبد الوهاب الخطيب فذهب الى المفرزة معهما وشاهد وجيه انطاكى ولم يكن سامى او عبد الوهاب وسمع من وجيه ان عبد الوهاب حضر وضرب فرج الله وسمع من وجيه ان عبد الوهاب حضر وضرب فرج الله واتفق مع زملائه باخبار النيابة العامة بعد اعلام السراج وسأل نعسان زكار عن كيفية موته فأجاب مات يلعن ابوه كلب وذهب مع نعسان وناصر الى عبد الحميد السراج فاعلمه بالموضوع فانفعل السراج وأنه لا يود احالة القضية للقضاء حتى لا يستغل الشيوعيون الحادث وانه علم ا‌ں الجثة دفنت فى مزرعة سامى جمعة .

١٣ ـ شهادة جورج أبو سعر فى المحضر رقم ٢٦ وتاريخ ١٥ ـ ١ ـ ٦٢ والمتضمنة انه شاهد نعسان زكار عند وجود فرج الله ى المفرزة وشاهد عبد الوهاب الخطيب وسامى جمعة وسمع صوت الضرب فى الوقت الذى كان فيه سامى حاضرا وشاهد بطن فرج منفوخا ومنفاخا على الأرض .

١٤ ـ شهادة أحمد السراج فى المحضر رقم ٢٩ وتاريخ ١٥ ـ ١ ـ ٦٢ والمتضمنة انه شاهده بداخل البانيو وذهب الى المفرزة واخبر سامى جمعة وعاد الى وجيه وساعده فى تفريغ البانيو وسمع منه ان سامى ونعسان شاهدا نجاح العملية .

١٥ ـ شهادة محمد طالب السادات فى المحضر رقم ٣٤ وتاريخ ١٥ ـ ١ ـ ٦٢ والمتضمنة ان الضرب بدا من قبل عبد الوهاب الخطيب وكان سامى جمعة يضع الفيش بالكهرباء وبأمر من عبد الوهاب الخطيب

وان وجيه قام بتجريده من ملابسه وان ناصر صالح ونعسان زكار وبهجت مسوتى وعبد الوهاب الخطيب اجتمعوا صباح الحادث وانه وقع على الوثيقة لوجيه انطاكى بناء على طلبه .

١٦ ـ شهادة الشرطى عبد القادر اللحام فى المحضر رقم ٣٥ تاريخ ١٥ ـ ١ ـ ٦٢ والمتضمنة ان نعسان زكار كان حاضرا اثنـــاء ما كان عبد الوهاب الخطيب يضرب فرج الله وان أول من انصرف نعسان فوجيه فعبد الوهاب فسامى ثم عاد وجيه ثم مات فرج الله وانه وقع على الوثيقة بناء على طلب وجيه .

١٧ ـ شهادة الشرطى زيدان مهنـــا فى المحضر رقم ٣٦ وتاريخ ١٥ ـ ١ ـ ٦٢ والمتضمنة انه شاهد عبد الوهاب الخطيب وبيده كرباج ولم يشاهد سامى جمعة يضرب فرج الله وانه وقع على ورقة لوجيه انطاكى وان سبب كتمه هذه المعلومات اعتقاده انها سر عسكرى .

١٨ ـ شـــهادة مروان الســـباعى فى المحضر رقـــم ٤٧ وتاريـــخ ٢٠ ـ ١ ـ ٦٢ والمتضمنة انه سمع من عبد الوهاب الخطيب بعد فصم الوحدة ان وجيه انطاكى اذاب جثة فرج الله الحلو بالأسيد وان السراج طلب منه أى الخطيب تنظيم ضبط بالمسئولين الذين اشتركوا فى ضرب فرج الله وسببوا موته .

١٩ ـ شهادة برهان ادهم فى المحضر رقم ٤٣ وتاريخ ٢٠ ـ ١ ـ ١٩٦٢ والمتضمنة انه سمع من نعسان زكار ان عبد الوهاب الخطيب قتـــل فرج الله اثناء التحقيق معه بالضرب والتعذيب .

٢٠ ـ شهادة جورج جبور فى المحضر رقم ٤٦ وتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ٦٢ والمتضمنة ان نعسان كان يتفرج على وجيـــه انطـــاكى حين كان يضرب فرج الله وان عبد الوهاب بعد ذهاب نعسان اشترك معه وجيه فى التعذيب وكان عبد الوهاب يامر سامى جمعة بأن يضع فيش الكهرباء لكهربـــة فرج الله وان وجيه ضرب فرج الله بعد ذهاب عبد الوهاب عدة كرابيج ثم جرى نقل الجثة الى غرفة تحت الدرج وان عبد الوهاب هدده هـــو ورفاقه بالا يتكلموا عن هذه القضية وان وجيه أخذ منهم توقيعا على وثيقـــة بذلك .

٢١ ـ شـــهادة رضـــا النغـــال فى المحضر رقـــم ٤٨ وتاريخ ٢٥ ـ ١ ـ ٦٢ والمتضمنة انه القى القبض مع سامى جمعه ووجيـــه

انطاكى على فرج الله الحلو واخذوه الى المفرزة فوجدوا نعسان زكار فى المفرزة ثم حضر عبد الوهاب الخطيب وتحرى ابا فياض « فرج الله » وان وجيه لكم فرج الله بقبضة يده وان عبد الوهاب ضرب ابا فياض بالسوط ثم وجيه كذلك وان سامى جمعه صفعه كذلك . وان عبد الوهاب خرج سامى وانه شاهد الاضطرابات على وجه وجيه ثم حضر عبد الوهاب واجتمع عبد الوهاب ونعسان فى المفرزة وان عبد الوهاب جلد فرج بالسوط ونعسان يتفرج ووجيه جلده بالسوط وسامى استعمل الكهرباء مع فرج الله بايعاز من عبد الوهاب الخطيب وان رفيق رضا كان ينصح فرج الله بالاقرار .

٢٢ - شهادة نور الدين الادلبى فى المحضر رقم ٥٠ وتاريخ ٢٧ - ١ - ١٩٦٢ والمتضمنة انه شاهد عبد الوهاب الحطيب يضرب فرج الله بالكرباج على قدميه وسامى جمعه حاضر ورفيق رضا ينصحه بالكلام ثم ذهابه مع سامى جمعه وحضور وجيه وانه سمع ان صباط فرج الله وانه شاهد جثة مغطاة بحرام وان وجيه نقلها بعلم سامى الى المخابرات عبد الوهاب ونعسان وناصر كانوا فى المفرزة اثر وفاة مزرعة سامى وانه وقع على ورقة لوجبه وان وجيه قال ان الجثة القيت فى البحر .

٢٣ - افادة المدعى عليه عبد الحميد السراج فى المحضر رقم ٥٦ وتاريخ ٢٩ - ١ - ٦٢ والمتضمنة انه برىء مما اسند اليه .

٢٤ - افادة المدعى عليه بهجت مسونى فى المحضر رقم ٦٣ تاريخ ١٨ - ٣ - ٦٢ والمتضمنة انه برىء مما اسند اليه وانه لم يشاهد فرج الله وان عبد الحميد السراج اطلعه على وفاة فرج الله الحلو .

٢٥ - افادة المدعى عليه نعسان زكار فى المحضر رقم ٦٥ وتاريخ ١٦ - ٣ - ١٩٦٢ والمتضمنة انه برىء مما يسند اليه وانه لا علاقة له باتلاف جثة فرج الله وانه اتصل بالسراج وانه قال له انه مضطر لعدم احالة القضية للقضاء نظرا لما قد تحدثه من تأثير فى الرأى العام العالمى .

٢٦ - افادة المدعى عليه ناصر محمد صالح فى المحضر رقم ٦٧ وتاريخ ١٦ - ٣ - ١٩٦٢ والمتضمنة انه حضر الى دار بهجت نشاهد ذلك من - بل نعسان وعلم ان فرج الله الحلو قد مات فذهب معهما الى المفرزة فشاهد وجيه انطاكى وحدثهم ان عبد الوهاب حقق معه حتى الصباح وبعد خروجه مات وانهم اتصلوا بالسراج واستنكر وانه برىء

مما يسند اليه ولم يسرق جثة فرج الله بقصد اخفائها وان وجيه اشترك فى التحقيق والتعذيب مع عبد الوهاب ولا يتذكر ان كان سامى اشترك وان نعسان طلب من السراج فتح تحقيق فوعد بتدارس القضية .

٢٧ ـ افادة المدعى عليه عبد الحميد السراج فى المحضر رقم ١١ وتاريخ ٣٠ ـ ١٢ ـ ٦١ والمتضمنة انه سئل فى أمر فرج الله فسأل المخابرات فاجيب بانه غير موقوف فى سورية وسئل رسميا فسأل المخابرات فتقدم اليه لائحة الممنوعين من دخول سورية واسم فرج الله فيها فاجاب رسميا بنفى وجود فرج الله فى سورية وان نعسان أو بهجت لم يطلعاه على تعذيب فرج ولا يعرف ان كان فرج الحلو قتل فى سورية وانه لا يعلم باعتقاله ولا بقتله .

٢٨ ـ الوثيقة المحفوظة فى الاضبارة رقم ١٠١ احمر ضمن مغلف المفرزة من سامى جمعه .

٢٩ ـ صورة الامر رقم ٣٨ تاريخ ٢ اكتوبر ١٩٥٨ الصادر عن رئيس الجمهورية .

٣٠ ـ مجمل تحقيقات هذه الاضبارة .

٣١ ـ ظروف وملابسات هذه القضية .

فى القانون

أولا ـ فى جرم التوقيف غير المشروع وحجز الحرية .

المدعى عليهم : عبد الحميد السراج ، وجيه انطاكى ، رفيق رضا ، نعسان زكار ، عبد الوهاب الخطيب ، وسامى جمعه ، لما كان رئيس الجمهورية العربية المتحدة « آنذاك » قد اصدر أمرا برقم ٣٨ وتاريخ ٢ ـ ١٠ ـ ١٩٥٨ يعهد فيه الى وزير الداخلية فى الاقليم السورى بالامر بالقبض على المتمردين والمشتبه فيهم ومن يقتضى صون الامن العام القبض عليهم وحجزهم فى مكان امين والافراج عنهم .

وحيث تبين من أقوال المدعى عليه عبد الحميد السراج ، وزير الداخلية فى الاقليم السورى آنذاك انه اصدر امرا بمنع دخول المغدور فرج الله الى سورية لمقتضيات الأمن وان دخوله بطريق غير مشروع وبدون اذن يشكل مخالفة قانونية تستوجب القاء القبض عليه .

وحيث تبين ان المسئولين فى المخابرات قد اعدوا كمينـا للقبض على فرج الله الحلو اذ تأكد لديهم انه سيدخل باسم عساف منصـور ولقبه أبو فياض والقوا القبض عليـه بتـاريخ ٢٥ ـ ٦ ـ ٥٩ بالجـرم المشهود وحيث ان المدعى عليهما سامى جمعه ووجيه انطاكى ند القيـا عليه القبض تنفيذا للاوامر الصادرة بهذا الخصوص واقتاداه الى مركز المباحث وضمن سلطة عامة فى ذلك الوقت وبوشر التحقيق معـه فـور وصوله وان توقيفه لم يدم اكثر من الاجل المحدد ليصـار الى توقيفـه قضائيا فضلا عن ان الامر رقم ٣٨ المشـار اليه لم يحـدد مدة ومكـان التوقيف المخول لوزير الداخلية •

وحيث ان عناصر المادة ٢٥٧ من قانون العقوبات السـورى لم تتوفر اذ ان التوقيف لم يستمر لاكثر من الاجل المحـدد واوقف حسب نص قانونى باستناد الى قانون الطوارىء ؛ وحيث ان المدعى عليهمـا سامى ووجيه لم يوقفا المغدور فرج الله اضرارا بنفسـه أو بمانه أو بقصد جلب منفعة لهما ولم يحجرا حريته لجلب منفعة شخصية لهمـا الامر الذى يجعل عناصر المـادة ٥٥٦ من قانون العقوبات السـورى العام غير متوفـرة •

وحيث ان المدعى عليهما رفيق رضا ونعسان زكار لم يشتركا فى التوقيف أى فى الفعل المادى مطلقا وانما شاهدا المغدور فى مركز المباحث فضلا عن ان توقيفه كان لامر قانونى مما يتوجب مع ذلك منع محاكمـة المدعى عليهم بالتوقيف غير المشروع لعدم توافر العناصر •

ثانيا ـ فى ايقاع التعذيب الجسدى بالمغدور وقتله •

المدعى عليهم : نعســان زكار وســامى جمعه ووجيــه انطاكى وعبد الوهاب الخطيب ورفيق رضا وعبد الحميد السراج •

١ ـ بالنسبة للمدعى عليه نعسان زكار :

حيث تبين من تحقيقات هذه القضية ان المدعى عليه نعسان زكـار قد باشر التحقيق مع المغدور عن عدة مفاتيح كانت معه وعن الدور التى تستعمل لها هذه المفاتيح فلم يجبه عنها فعذبه بنفسه بواسطة مرؤوسيه بالضرب على قدميه ليدلى باعترافه عن هذه المفاتيح •

وحيث انه لم يثبت ان المدعى عليه كان يقصد قتل المغدور وازهاق روحه وهو ما يميز جرائم عن غيرها من جرائم الايذاء وانما كان ينبغى

انتزاع اعتراف منه حول نشاطه الحزبى وسبب دخوله سورية بطريقة غير مشروعة .

وحيث ان عمله لا يشكل جرم القتل المنصوص عنه فى المادة ٥٣٤ من قانون العقوبات وانما يشكل جنحة انتزاع اقرار معلومات بالعنف المنصوص عنها والمعاقب عليها بأحكام المادة ٣٦١ من قانون العقوبات وحيث ان لقاضى التحقيق ان يبدل الوصف الجرمى الوارد فى الادعاء ويكفيه حسب ما ينطبق النص الاكثر انطباقا على الواقعة .

٢ ـ بالنسبة للمدعى عليه سامى جمعه :

حيث تبين ان المدعى عليه سامى جمعه قد صفع المغدور كفا ليهدئه اثناء التحقيق الجارى من قبل نعسان زكار ولم يضربه لانتزاع اقرار منه عن نشاطه الحزبى أو السياسى او سبب دخوله سورية غير المشروع اذ ان ذلك كان من اختصاص ضباط المباحث الموجودين فى المفرزة آنذاك وكانوا يباشرون التحقيق فعلا بانفسهم وحيث ان وصلة الكهرباء بجسم المغدور وبناء على أمر من عبد الوهاب الخطيب الذى كان يصعق المغدور فرج الله عندما يريد وعندما يطلب منه اثناء التحقيق وفى مواضع معينة من جسم المغدور دون ان يتعدى سامى وصل التيار بالسلك الصاعق الذى كان يستعمله عبد الوهاب الخطيب وحيث ان الموظف الذى يقوم بتنفيذ أمر رئيسه فى امور وجبت عليه طاعته فيها قد منحه القانون سببا لتبرير فعله .

وحيث ان سامى جمعه انما كان عمله تنفيذا لامر صادر اليه من رئيسه لا يجوز له مناقشته لما يربط الطرفين من صفة رسمية ولانه كان ينفذ امر رئيسه فى امور داخلة فى اختصاصه (وهى التحقيق) وجبت عليه طاعته فى المادة ٢٢٥ من قانون العقوبات السورى .

وحيث ان عمله لا يشكل جرم القتل المنصوص عنه فى المادة ٥٣٤ المذكور وانما يشكل جنحة الضرب مستغلا سلطته المنصوص عنها والمعاقب عليها بأحكام المادة ٥٤٠ بدلالة المادة ٣٦٧ من قانون العقوبات العام .

٣ ـ بالنسبة للمدعى عليهما عبد الوهاب الخطيب ووجيه انطاكى :

حيث تبين ان المدعى عليه عبد الوهاب الخطيب قد استعمل ضروبا من العنف والشدة بالمغدور كيما يرغمه على الاعتراف بنشاطه الحزبى

وعن المفاتيح التى بحوزته فاستعمل معه الضرب والجلد والنفخ والكهرباء طيلة فترة غير قصيرة من ليل الحادث وحيث تبين انه نفخه ومن ثم داس على بطنه ليخرج الهواء منه وجالسه مع اشخاص آخرين يحاولون اقناعه واخذ اقرار منه عن نشاطه .

وحيث تبين ان سامى جمعه قد نبه المدعى عليه عبد الوهاب الخطيب الى ان المغدور مصاب بالقلب ويخشى عليه فنهره عبد الوهاب الخطيب وتابع الضرب وقبل بالمناظرة .

وحيث ان المادة ١٨٨ من قانون العقوبات العام قد اوجبت حد الجريمة مقصودة وان تجاوزت بسبب الفعل أو عدت قصد الفاعل اذا كان قد توقع حصولها فقبل بالمخاطرة .

وحيث تبين ان عبد الوهاب الخطيب قد طلب من وجيه انطاكى تنظيم وثيقة وتقرير عن قتل المغدور وطلب منه توقيعها من صغار الموظفين والمستخدمين ليوهمهم بخطورة الامر ومنعهم من البوح لاشتراكهم بالفعل وهددهم بمصير سىء ان اشاعوا شيئا عن ذلك مما يعتبر قرينة قضائية على انه عذب فرج الله وتسبب بموته .

وحيث ان المدعى عليه وجيه انطاكى قد استمر بالضرب والتعذيب بمساعدة عبد الوهاب الخطيب وبعد ذهابه .

وحيث ان تنظيمه الوثيقة التى يعترف بها واستوقع عليها بعض عناصر الشرطة والموظفين فى مفرزة المباحث ان فرج الله قد مات بين يديه اثناء التحقيق معه وبرئاسته لما استعمل معه من ضروب التعذيب والشدة تعتبر قرينة قضائية ايضا على اقدامه مستقلا على ضرب المغدور فرج الله .

وحيث تبين انه اقدم على جلد فرج الله بالسوط بعد ذهاب عبد الوهاب ليدفعه على الاعتراف وقال له شو ما حكيت انا جيت ابو فياض واقدم على ضربه ثم خرج الى غرفة أخرى فمات فرج الله وهو مقيد على الكرسى وحيث ان المدعى عليهما قد استعملا الشراسة والتعذيب بحق المغدور فرج الله الحلو مما اودى بحياته وسبب موته وحيث ان عمل المدعى عليهما يشكل جناية القتل قصدا المنصوص عنها فى الفقرة ٧ من المادة ٣٤ بدلالة المادة ١٨٨ من قانون العقوبات .

٤ ـ بالنسبة للمدعى عليهما رفيق رضا وعبد الحميد السراج ٠

حيث انه لم يقم دليل يثبت اقدام المدعى عليه رفيق رضا على ضرب المغدور وانما تحقيقات هذه القضية تشير الى انه كان يناقشه وحاول اقناعه فحسب دون ان يقدم على ضربه ٠

وحيث ان قول سامى جمعه بانه ركله بقدميه لم يؤيد بدليل ولم يخرج عن كونه عطفا جرميا لم يؤيد بدليل ما ٠

وحيث لم يقم دليل يثبت اقدام المدعى عليه عبد الحميد السراج على ضرب المغدور أو تعذيبه ٠

وحيث ان عدم كفاية الادلة توجب منع محاكمة المدعى عليهما رفيق رضا وعبد الحميد السراج عملا بالمادة ٢٤ من قانون العقوبات العسكرى ٠

ثالثا ـ فى سرقة الجثة واتلافها :

المدعى عليهم : عبد الحميد السراج وعبد الوهاب الخطيب ونعسان زكار ووجيه انطاكى وبهجت مسوتى وناصر صالح حيث تبين ان المدعى عليه عبد الوهاب الخطيب قد امر بوضع جثة المغدور فرج الله تحت الدرج فى مفرزة المباحث فور وفاته خوفا من ان تراها اعين الموقوفين فى المفرزة من الشيوعيين كى لا تحدث ضجة بينهم واخفائها على هذه الحال بقصد اخفاء خبر موت المغدور وكتمه عن الموقوفين ، وحيث تبين ان المدعى عليهم عبد الوهاب الخطيب ونعسان زكار وبهجت مسوتى وناصر صالح قد اجتمعوا فى مفرزة المباحث بعد موت فرج الله وتباحثوا قبل اخبارهم عبد الحميد السراج بأمر دفن الجثة فى مزرعة سامى جمعه موقتا ريثما تتخذ الاجراءات المناسبة وطلبوا من وجيه انطاكى ان يقوم بتنفيذ هذه المهمة ٠

وحيث ان المدعى عليهم نعسان زكار وبهجت وناصر قد اجتمعوا وبانهم قد اعلموا السراج بالحادث ورفض ان يخبر السلطات القضائية بالموضوع خشية احداث ضجة عالمية حول شكل وسبب هذه الوفاة ٠

وحيث ان المدعى عليه نعسان زكار قد ادعى بانه اتصل بالمدعى عليه عبد الحميد السراج هاتفيا فلم يجده لانه كان خارج دمشق حسب

قوله ثم اتصل به ثانية واعلمه هاتفيا فطلب منه مقابلة مع بهجت وناصر ، وحيث ان المدعى عليه عبد الحميد السراج قد نفى علمه بهذا الحادث ونفى اطلاعه من احد من المدعو عليهم على هذا الموضوع وانه سئل رسميا من قبل رئيس الجمهورية العربية المتحدة فسأل المخابرات بدوره فأعلموه بأن المدعو فرج الله الحلو ممنوع دخوله الى سورية بموجب الاوامر المرعية فأخبر رئيس الجمهورية رسميا بان فرج الله الحلو غير موجود فى سورية ولم يدخلها قط ٠

وحيث ان ادعاء المدعى عليهم نعسان وبهجت وناصر وسامى جمعه لم يخرج عن كونه عطفا جرميا يقصد منه القاء التبعة عن كاهلهم لم يؤيد بدليل ما أو قرينة .

وحيث ان عدم كفاية الادلة بحقه انما يوجب منع محاكمته عملا بالمادة ٢٤ من قانون العقوبات العسكرى ٠

وحيث ان لقاضى التحقيق حق حرية تقدير كفاية الادلة لتقرير احالة المدعى عليه الى المحاكمة ٠

وحيث تبين ان المدعى عليه نعسان زكار قد قدم نقودا للمدعى عليه وجيه انطاكى وارشده الى شراء الحمض والمغطس « الأسيد والبانيو » وثم تذويب الجثة تحت اشرافه ٠

وحيث انه لولا مساعدته ما ارتكبت هذه الجريمة وهى تذويب الجثة واتلافها ، وحيث ان عمل المدعى عليه نعسان انما يشكل جنحة التدخل باتلاف جثة بقصد اخفاء الموت المنصوص عنها والمعاقب عليها بالمادة ٤٦٥ بدلالة المادة ٢١٨ من قانون العقوبات ٠

وحيث تبين ان المدعى عليهم عبد الوهاب الخطيب وبهجت مسوتى وناصر صالح قدموا ارشادات وان لم تسلم على اقتراف الفعل ، لاقتراف اخفاء الجثة وتداولوا بالامر فور وقوعه اثناء اجتماعهم بالمفرزة وتباحثوا فى دفن الجثة فى مزرعة سامى جمعه بقصد اخفاء الموت ٠

وحيث ان عملهم انما يشكل جنحة التدخل فى سرقة جثة بقصد اخفاء الموت أو اتلافها المنصوص عنها والمعاقب عليها بأحكام المادة ٤٦٥ بدلالة الفقرة أ من المادة ٢١٨ من قانون العقوبات .

وحيث تبين ان عمل المدعى عليه وجيه انطاكى يشكل جنحة سرقة واتلاف جثة بقصد اخفاء الموت والمعاقب عليها بالمادة ٤٦٥ من قانون

العقوبات العام ، وحيث ان وجيه الانطاكى كان بامكانه ان يناقش مشروعية هذا الامر طالما ان الجثة دفنت لا سيما وانه ليس من صغار المرظفين الذين لا يجوز لهم مناقشة امر رئيسهم فى امور ضمن إختصاصهم فضلا عن ان هذا الامر بفرض ثبوته ليس من اختصاص رئيسه .

رابعا ـ فى كتم المعلومات .

المدعى عليهم ، نعسان زكار ، أحمد السراج وزيدان مهنا وعبد القادر اللحام ومحمد السادات .

١ ـ بالنسبة للمدعى عليه نعسان زكار :

حيث تبين ان المدعى عليه نعسان زكار قد اخفى بعضا من معلوماته فى كيفية موت فرج لله اثناء استجوابه كشاهد حق عام فى هذه القضيه .

وحيث تبين انه ضرب وعذب فرج الله بقصد انتزاع اقرار منه وتدخل فى اتلاف الجثة .

وحيث ان ادلاءه بالحقيقة يعرضه حتما لخطر جسيم له مساس بحرمته مما يجعل له مصلحة فى اخفاء هذه المعلومات وحيث ان الفقرة ١ من المادة ٤٠ من قانون العقوبات تعفى من العقوبة الشاهد الذى يتعرض حتما اذا قال الحقيقة لخطر جسيم له مساس بالحرمة أو ... وحيث ان عمله لا يشكل جرما جزائيا لعدم توفر الركن القانونى مما يستوجب منع محاكمته .

٢ ـ بالنسبة للمدعى عليهم احمد السراج ، زيدان مهنا ، عبد القادر اللحام ، ومحمد السادات .

حيث تبين ان المدعى عليهم المذكورين قد كانوا شرطيين فى مفرزة المباحث وانهم كانوا ينفذون اوامر رؤسائهم وانهم على علم بما فعل رؤسائهم بالمغدور فرج الله الحلو الا انهم لم يستطيعوا ان يخبروا عن ذلك ، وحيث تبين ان عبد الوهاب الخطيب كان يهددهم بالتعذيب ان باحوا بكيفية موت فرج الله الحلو واتلاف جثته وان ليس لهم ان ينشروا هذا الخبر وقد استوقعهم على وثيقة بمعرفة وجيه انطاكى ليرهبهم باشراكهم بالامر وتهويله عليهم لئلا يبوحوا به .

وحيث انهم عادوا وادلوا بالحقيقة اثناء التدقيق قبل ختمه وحيث أن الفقرة ١ من المادة ٣٩٩ من قانون العقوبات تعفى الشاهد من العقوبة اذا ادلى بالحقيقة قبل ختم التحقيق ، وحيث ان عمله لا يشكل جرما جزائيا لعدم توافر الركن القانونى مما يستوجب منع محاكمته منه .

خامسا – فى الاخلال بواجبات الوظيفية واساءة استعمال السلطة :

حيث ان المادة ٣٦٦ من قانون العقوبات تنص : كل موظف اقدم بقصد جلب المنفعة لنفسه أو لغيره أو بقصد الاضرار بالغير على عمل ينافى واجبات مهنته ولم يعين له عقاب خاص فى القانون يعاقب ، وحيث ان المادة ٣٦٧ من القانون ذاته تنص فى ما خلا الحالات التى يفرض فيها القانون عقوبات خاصة عن الجرائم التى يرتكبها الموظفون فان الذين يقدمون منهم بصفتهم المذكورة أو باساءتهم استعمال السلطة أو النفوذ المستمدين من وظائفهم على ارتكاب اية جريمة كانت يستوجبون العقوبات المشددة .

وحيث انه لم يقم دليل يثبت ان المدعى عليهم على هذه القضية قد اقدموا على افعالهم تلك بقصد جلب المنفعة لنفسهم أو لغيرهم او بقصد الاضرار بالغير وانما قاموا بفعل من واجبات مهنتهم وهو التوقيف والتحقيق .

وحيث ان القانون عين عقابا خاصا للجرائم التى ارتكبها بعض المدعى عليهم من انتزاع اقرار بالعنف والقتل وسرقة الجثة مما لا يوجب تطبيق المادتين ٣٦٦ و ٣٦٧ بحق المدعى عليهم لعدم توافر عناصرها ..

فلهذه الاسباب :

وعملا بالمواد ٣ و ١١ و ١٦ و ١٧ من المرسوم التشريعى رقم ١٦٩ تاريخ ١٦ – ١٢ – ١٩٦١ والمادتين ٢٤ و ٢٦ من قانون العقوبات العسكرى ووفقا لمطالعة النيابة العامة لدى المجلس العدلى من جهة وخلافا من جهة اخرى :

فقد تقرر ما يلى :

١ – منع محاكمة المدعى عليهم عبد الحميد السراج . عبد الوهاب الخطيب ، سامى جمعه ، وجيه انطاكى ، رفيق رضا ، نعسان زكار من جنايتى توقيف فرج الله الحلو دون مسوغ قانونى وحجز حريته لعدم توافر عناصر الجرم . رد جنحتى اساءة استعمال السلطة والاخلال بواجبات الوظيفة لعدم توافر عناصرها ما عدا سامى جمعه بالنسبة للمادة ٣٦٧ من قانون العقوبات العام .

٢ – منع محاكمة المدعى عليهما عبد الحميد السراج ورفيق رضا من جناية قتل المغدور فرج الله الحلو لعدم قيام دليل .

٣ – منع محاكمة المدعى عليه عبد الحميد السراج من جرم سرقة واتلاف جثة بقصد اخفاء الموت لعدم قيام الدليل .

٤ ـ منع محاكمة المدعى عليهم نعسان زكار ، احمد السراج ، زيدان مهنا ، عبد القادر اللحام ومحمد طالب السادات من جناية كتم معلومات لعدم توافر العناصر الجرمية .

٥ ـ الظن على المدعى عليه نعسان زكار بجنحة تعذيب فرج الله الحلو لانتزاع اقرار منه المنطبقة على المادة ٣٦١ من قانون العقوبات العام .

٦ ـ اتهام المدعى عليهما وجيه انطاكى وعبد الوهاب الخطيب بجناية ايقاع التعذيب الجسدى بالمغدور فرج الله الحلو حتى وفاته المنصوص عنها بالفقرة ٧ من المادة ٥٣٤ بدلالة ١٨٨ من قانون العقوبات العام .

٧ ـ اصدار مذكرتي قبض ونقل بحقهما .

٨ ـ الظن على المدعى عليه سامى جمعه بجنحة الضرب المنصوص عنها في المادة ٥٤٠ بدلالة المادة ٣٦٧ من قانون العقوبات العام .

٩ ـ الظن على المدعى عليهم نعسان زكار وعبد الوهاب الخطيب وناصر صالح وبهجت مسوتى التدخل في اخفاء جثة بقصد اخفاء الموت المنصوص عنها والمعاقب عليها بأحكام المادة ٤٦٥ بدلالة المادتين ٣١٨ و ٣١٩ من قانون العقوبات العام .

١٠ ـ الظن على المدعى عليه وجيه انطاكى بجنحة اتلاف جثة بقصد اخفاء الموت المنطبقة على المادة ٣٦٥ من قانون العقوبات .

١١ ـ تبليغ كل من المدعى عليهم صورة عن هذا القرار .

١٢ ـ اعادة كفالات تخلية سبيل المدعى عليهم زيدان مهنا ومحمد السادات وعبد القادر مسعود اللحام واحمد صبحى السراج الى دافعها .

١٣ ـ اجراء محاكمة المتهمين والاظناء امام المجلس العدلى وتضمينهم سبع ليرات ونصف رسم القرار .

١٤ ـ اعادة هذه الاضبارة الى النيابة العامة للمجلس العدلى لايداعها مرجعها المختص .

صدر بتاريخ ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩٦٢ حسب الاصول .

الرائد احمد زهير صبحى العادلى

قاضى التحقيق العسكرى لدى المجلس العدلى

ملحق ٣

نقـــد ذاتى

نبيـــل صبحى

« نقـد ذاتي »

حينما طلب منى المؤلف ان أسجل شهادتى لتدخل ضمن مادة كتابه المرتقب ، الضرورى والهام جدا بالنسبة لحركة النضال المصرى فى الحاضر وأيضا فى المستقبل غير المحدود ، فاننى اعتبرت ذلك « شرفا كبيرا » فاننى بحكم معرفتى به كمفكر ومناضل فانه يتميز بالدأب والصلابة والامانة ولذلك فهو لا يجمع مادة كتابه بمنهج عشوائى .

ان ظنى هذا امدنى بثقة مجددة ، ووضعنى امام مسئولية هامة ، وكليهما يتطلبان الأمانة مع النفس ، وفى الحقيقة وكما عبرت على عجل خلال شهادتى ، فاننى اعتقد باننى لا زلت حتى الآن فى موضع من يتعين عليه أن يتحفظ ألف مرة قبل أن يتعرض بالنقد لآخرين ، خاصة النقد الذى يتناول ادانة لافكار أو مناهج او سلوكيات منحرفة وضعيفة . فان من يقدم على ذلك يجب أن يكون مطمئنا الى موقفه هو اولا ، وان آراءه ستكون محل احترام حتى فى حالة الاختلاف معها ، لأن ما يكسب الرأى احترامه هو ان يكون جادا أى متسقا على الاقل مع مواقف صاحبه . وهذا هو بالتحديد ما افتقدته فى لحظة ضعف يائسة . وحينما اتيحت لى فرصة اعادة صياغة شهادتى ، كانت الارهاصات العاجلة لقناعتى بحقيقة وضعى الحالى قد تبلورت الى ضرورة أن ابدأ بهذا النقد الذاتى ، فقد يكون ضمن آثاره أن تكتسب شهادتى قيمة ما ، ولكن ما ارجوه فى المقام الأول الا يقع القارىء لشهادتى فى وهم ان صلابة مناضل ما أمام العدو الطبقى هى شىء رومانسى مطلق لا تحكمه ظروف موضوعية وذاتية ، غير أن تطور نظرة المناضل للعقيدة النضالية ، وتطور تكوينه الذاتى الأمرين الحاسمين اللذين يستوجبان عناية خاصة .

ان القيمة الحقيقية للمناضل الذى انتصر لقضايا شعبه تتمثل فى عنصرين :

الأول : صهر ظروفه الذاتية فى قضية نضاله ، والحذر فى كل كبيرة وصغيرة – وتحت اية مصاعب – من الفصل بين الاثنتين . ولا اقصد بالظروف الذاتية تلك المتعلقة بالحياة العائلية مثلا « فهذه لم يكن لهما فى حالتى أثرا مباشرا على عكس ما يعتقد البعض » ، وانما اعنى اساسا الظروف الذاتية فى حركة النضال نفسها ، من مثل : التأثر بتهاوى بعض من يثق بهم سواء بالاستسلام للعدو أو بالارتداد أمام اغراء أو تهديد او بالصمت غير المبرر أو بهجر الكفاح اما خوفا أو تمسكا بميزة بورجوازية ، وأيضا من مثل انكماش حركة الجماهير فى نفس الوقت الذى

تستثمر فيه السفسطة الكلامية في أوساط المناضلين واجيالهم الشابة بل وتفشى السلبية والانقسامية فيما بينهم رغم تجربة حزب ٨ يناير المماثلة أمامهم من التاسيس الى الحل • مثل هذه الظروف اشد خطرا بما لا يقاس من الظروف الشخصية البحتة ، فهى اذا احاطت بمناضل ما فى فترة ما ولم يكن مسلحا بصفات الشيوعى : التواضع والجماعية المبدئية والتجرد من الانانية والزعامية بالاضافة الى عمق وعيه بحتمية انتصار الشعب عبر التضحيات ، فانه اما أن يقع فى هاوية اليأس ، واما أن ينوهم بأنه « الوحيد المتفرد » بفهم متطلبات النضال أى انه « المنقذ » ، وبالتالى فان ذاته تصبح هى الحقيقة الوحيدة فى الحركة من حوله ؛ وهذا الوهم الأخير غاية فى الخطورة لأنه لا يكون فحسب قد سقط فى براثن « الزعامية البورجوازية » بل يكون المساس أو الايذاء لهذه « الذات المتفردة » معناه انهيار كل شيء •

وهذا هو بالتحديد ما سقطت فيه •

وقد يسأل بعض من يعرفوننى : منذ متى حدث ذلك ؟ ولهم كل الحق فى السؤال . وتكمن الاجابة فيما يلى :

الحل والتحلل : لا شك ان الامر حدث عبر تراكمات صغيرة متوالية على مدى سنوات ، وادت هذه التراكمات الى طغيان النظرة الفردية لحركة النضال • غير أن البداية فى الحقيقة كانت بالصدمة التى تلقيتها بتقرير حل الحزب فى عام ١٩٦٥ ، فقد كان فى اعتقادى ان اية خلافات فكرية فى اطار الحزب أمرا واردا ومحتملا بل ودليل حيوية ، وحسم هذه الخلافات بوسائل مبدئية ـ يقوى ويدعم الحزب ، اما حل الحزب فهذا امر آخر ، وهو غير قابل للنقاش الا فى اطار الردة والاستسلام لبورجوازية (حتى وان كان لاكثر اقسامها راديكالية) •

وليس هنا مجال سرد تفاصيل أو تسجيل ادانة لحل الحزب ، انما ما يهم هنا هو رد الفعل الخاص بداخلى ، والذى يتلخص فيما يلى :

(أ) صدمة مروعة فى عدد من الرفاق الذين ارتبطت بهم تاريخيا ولسنين طويلة وكانوا يتمتعون بمنزلة خاصة لدي . ويلاحظ هنا امران : بقية من حلقية من ناحية ، ومثالية بورجوازية من ناحية أخرى •

(ب) اننى ، فى رفضى لحل الحزب اتخذت موقفا مضللا مناورا تنعدم فيه المبدئية ، فقد صوت فى الكونفرنس ضد التقرير الايديولوجى والسياسى

الذى ينطوى على مبررات الحل ، بينما وافقت على قرار الحل • وبصراحة كان منطقى : ان التصويت بالموافقة على الحل هو أسرع وسيلة للاطاحة باللجنة المركزية للحزب .

ولتنكشف المأساة فى هذا الموقف اللامبدئى ، فاننى أقر بانه تم بالاتفاق مع آخرين فى الكونفرنس ، وبالنظر الى نتيجة التصويت ، فان النتيجة كانت ستختلف لو اننا صوتنا جميعا بمبدئية أى ضد الحل ، أى أنه ما كان مشروع القرار بالحل حصل على الاغلبية ولامكن هزيمة الانتهازية المستسلمة بطريقة مشروعة •

وكان من نتيجة ذلك :

أولا : التردى فى أسلوب المناورة (وظهر بعد ذلك فى مسائل بالغة الخطر فى حركة النضال) وهذا يعكس حقيقة تسلط تلك « الذاتية المتفردة » •

ثانيا : أنه كان من نتائج الصدمة فى هؤلاء الرفاق ، تم من نتائج الحل والتحول من الاحتراف الى الوظيفة الحكومية ، انتى — فى الحقيقة — انغمست لفترة طويلة (بالاضافة الى ممارسة المغامرة فى العلاقات النضالية) فى العمل بهدف أن يكون لى مكان « تحت شمس » المراكز الوظيفية البورجوازية : فصراع من اجل وظيفة اعلى ، واتمام للدراسة الجامعية من وجهة النظر هذه ، وهكذا ••••

ان « بريق » الاستقرار البورجوازى كان يتغلغل محللا صفة المناضل فى داخلى •

« ان حل الحزب ، واسلوب مواجهتى له — كلا الامرين ، كانا بداية المنزلق •

ان المواجهة النضالية تعنى التمسك بالمبدأ عند التصويت ، والتمسك بالمبدا فى التعامل مع الرفاق ، والتوقع الحذر لضربات العدو الطبقى سواء من الخارج أو من الداخل ، وملاقاة تلك الضربات بالتعاون الرفاقى ، وبالروح الجماعية المبدئية ، وبتطويع حركة النضال وفقا للظروف •

ان تغير الظروف الذى أدى الى التحول من الاحتراف الثورى الى الحياة العادية للمواطن فى المجتمع البورجوازى لم استقبله بما يجب من

نضالية ، فالعيب ليس فى الحياة العادية ــ بل قد تكون مطلوبة منذ الافراج وقبل الحل ، ولكن العيب فى هذا الطموح • ان حل الحزب وأسلوب مواجهتى له كان بداية نحلل مرير هو مقدمة طبيعية للانهيار فى لحظة ما غير متوقعة فى توقيتها ، ولكن كان لابد أن تحدث طالما أن « الفردية » حالت دون ان تطرح هذه العيوب الخطيرة التى خلخلت تكوينى النضالى ــ أقول حالت ان تطرح لتكون تحت رقابة ومعاونة الرفاق •



غنى عن البيان ان اسطورية البطولات النضالية تنبع من ذلك الايمان العلمى الخلاق بحتمية انتصار الشعب والطبقة العاملة فى طليعته ، ذلك الايمان الذى يترجم عمليا فى سعى دائم لوحدة العمل الجماعى للمناضلين ، وفى نضال لا يكل من أجل الارتباط بالجماهير وبحركتها ، وفى الوعى بأن كل ذلك سيتم عبر منحنيات مد وجزر كثيرة ، وعبر تضحيات جسيمة • ان هذا يعنى أولا وأخيرا أن قضية النضال لا ترتبط ــ سواء طال المدى أو قصر ــ بفرد أو بظروف ذاتية لأى فرد أو مجموعة من الأفراد ، فالأفراد وظروفهم الذاتية قد يؤثرون لبعض الوقت ولكن على المدى التاريخى ، بل والتاريخى القريب ، هم عنصر طارىء ولا شك ، ومن ثم فان المقياس الحقيقى لصلابة المناضل وجديته هو فى مدى مبدئيته فى علاقاته الحزبية والرفاقية ، وفى مدى مراعاته لأن تجاوز ظرف ما انما يبدأ وينتهى بفكر وعمل جماعيين : أما أن يقع المناضل أسيرا لفرديته ففى هذا دماره .

ان مختلف اساليب الضغط أو التعذيب أو الخداع أو التخدير بالعقاقير المستحدثة ، ثبت علميا وعمليا أنها عاجزة فى نهاية الامر امام ارادة الانسان المناضل الذى انتصر على ذاتيته الانانية وتخلص من ادران فكر وأخلاقيات البورجوازية الصغيرة الانتهازى ، ومن ثم ربط حياته كلية بقضية وطنه وشعبه بثقة لا تتزعزع وبموضوعية مستقلة عن ذاتيته ، وا ضا صهر ذاته فى هذه المصالح العليا لوطنه وشعبه والحزب الذى يمثل هذه المصالح •

وما دام الأمر كذلك فاننى اعتقد ــ الآن ــ بأنه لا اهمية تذكر للخلاف حول وقائع معينة خاصة بالتحقيق هى فى نهاية الامر ثانوية أمام مضمون الموقف برمته فضلا عن ان الاثبات فيها غير متيسر ، وبالتالى فاننى مقتنع تماما باستبعادها كعنصر مخفف . بل اننى استبعد ايضا موقفى فى المحكمة ، وفى السجن ، ورفضى مساومة السلطة لى قبل قرار المحكمة •• اننى استبعد كل ذلك من عناصر التخفيف لأننى اعتقد منذ زمن ــ ولا زلت ــ بأن الشيوعى الحق يأخذ دائما بالمبادأة فيضع جلاديه موضع الاتهام منذ اللحظة الأولى لأنه ــ ببساطة ــ يناضل لتحرير وحرية ورخاء شعبه ، اما أن يتماسك بعد أن يكون قد استسلم فى مرحلة أولى أو ثانية من المواجهه

مع العدو ورضخ لما املى عليه فاوقع بآخرين اجدر منه ، وأصاب حركة النضال بضربة موجعة فى فترة حرجة من نموها فان هذا لانهيار وسقوط مروعين لا يخفف منهما شيء ·

ان حقوقيا بورجوازيا قال ذات المعنى · فحينما طلبت من احد المحامين ضرورة فضح مساومة السلطة لى اثناء المحاكمة وفى الجلسة العلنية ، رد على قائلا : « طبعا » هذا مهم لمحاولة تبرئة الآخرين ؛ لكن يجب ان تعلم ان « الجدعنة » فى التحقيق من الأول » ·

كان معه كل الحق ـ وهو البورجوازى ـ مما يدلنا على مدى الجرم والمهانة معا وما يستحقانهما من عقاب ·

ولذلك فاننى مقتنع ـ ايضا ـ بصواب تنحيتى بعيدا عن خطوط الكفاح برغم ما فى ذلك من مرارة ، ولكن لابد من توضيح اننى اتفهم واقدر أن الاشد مرارة على نفسى ـ وعلى الجميع أيضا ـ ذلك التناقض الفاضح والمشين بين كونى ماركسيا ، واصرارى على ذلك فى التحقيق ، وبين ما احتوته اقوالى وكتاباتى ـ والتى قراتها مؤخرا ـ من خزى يبرأ منه هذا الفكر العظيم الذى يقود البشرية جمعاء فى نضالها المظفر ضد قوى الحرب والاستغلال والذى قدم فى مسيرة هذا النضال اروع امثلة البطولة على مر التاريخ الانسانى ·

ان اطلاعى على التحقيق جعلنى اعذر من اتهمونى ، غير ان كل هذا يعنى بالتحديد بأن ازالة المرارة فى يدى بالدرجة الأولى ·

***

والعنصر الثانى فى قيمة المناضل هو أن يكون أمينا مع نفسه وامام الجميع ولذلك فاننى اذا كنت افتقدت العنصر الأول فى لحظة يأس مشئومة منذ سنوات ، انهارت فيها ارادتى النضالية المعروفة من قبل ككادر صلب وقيادى ، فاننى لا أريد ـ وكجزء من جمع الشتات ـ ان افتقد العنصر الثانى ·

ولذلك فاننى ابدا شهادتى بهذا النقد الذاتى ، لا بمفهوم المطهر الكاثوليكى وانما :

ليكون جزءا بسيطا من الخبرة التى يهدف لها الكاتب بمؤلفه الوشيك . نعم خبرة من سقطة كادر مناضل ، أسبابها ودوافعها حتى يمكن لكل مناضل أن يتداركها اذا طرأت فى طريقه .

وعلى ذلك فاننى آمل أن يتحلى القارىء بقدر من رحابة الصدر والفكر فينظر بموضوعية الى شهادتى ، ويبتعد عن قراءتها متأثرا فى خلفيته بشخص الشاهد ، فاننى اعلم – وبصدق – امانة ومسئولية الشهادة التى أدليت بها للمؤلف .

المراجـــع

احمد حمروش ، ١٩٧٥ — ١٩٧٧ : « قصة ثورة ٢٣ يوليو » الجزء الأول (الطبعة الثانية) الجزء الثانى والثالث (الطبعة الأولى) . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت — لبنان .

الياس مرقص ، ١٩٦٤ : « الاحـــزاب الشـيوعية فى الوطن العربى » (الطبعة الأولى) — القسم الثانى ، ملاحق . بيروت — لبنان .

طاهر عبد الحكيم ، ١٩٧٤ : « الاقـــدام العارية . الشـــيوعيون المصريون : ٥ سنوات فى الســـجون ومعســـكرات التعـــذيب » . دار ابن خلدون . بيروت — لبنان .

عبد اللطيف بغدادى ، ١٩٧٧ : « مذكرات عبد اللطيف بغـــدادى » الجزء الأول والثانى — المكتب المصرى الحديث . ج٠م٠ع .

فتحى عبد الفتاح ، ١٩٧٥ : « شيوعيون وناصريون » . مؤسسة روز اليوسف . القاهرة . ج٠م٠ع .

محمد فوزى ، ١٩٨٣ : « حــــرب الثلاث ســـــنوات — ١٩٦٧/١٩٧٠ . مذكرات الفريق اول محمد فوزى وزير الحربية الاسبق » . دار المســـتقبل العربى . القاهرة . ج٠م٠ع .

مجلة الطليعة ، ١٩٧٥ : عدد نوفمبر .

محضر تحقيـــق النيـــــابة ، فى واقعة مقتل الشهيد محمد محمود عثمان (السبعينيات) .

الجزء الثانى من

« الشيوعيون وعبد الناصر ــ التحالف والمواجهة ۱۹۵۸ ــ ۱۹٦٥ » .
د. فخرى لبيب

تحت الطبع ومن ضمن محتوياته :

* المرحلة الثانية من التصفية : الانهاك النفسى والبدنى تحقيقا للقتل الجماعى .

ــ كيف طبقت الخطة فى معتقل أوردى ابو زعبل ؟ وكيف تمت مواجهتها وهزيمتها ؟

ــ دراسة نقدية للاوضاع الحزبية فى المواجهة . ابو زعبل معتقل البطولات الفردية .

ــ الشهداء : على متولى الديب ، محمد رشدى خليل ، فريد حداد ، شهدى عطية .

ــ كيف طبقت الخطة فى منفى المحاريق بالواحات ؟ وكيف تمت مواجهتها وهزيمتها ؟

ــ مقارنة بين الظروف الموضوعية والذاتية لاوردى أبو زعبل ومنفى المحاريق .

ــ الشهداء : على زهران ــ حسب الله مرسى ــ سيد أمين ــ أحمد البكار ــ شعبان حافظ .

* المرحلة الثالثة من التصفية : غسيل المخ ــ الاستنكار ومحرقة الضمير .

ــ منفى المحاريق بؤرة تجميع لكل الشيوعيين : مصريين وفلسطينيين ، بهدف التآكل من الداخل .

ــ خطة المواجهة ومعركة الاضراب عن الطعام .

— عودة الى معتقل العزب — فيوم واستشهاد عبد القادر مفتاح .
— الواحات تقاوم : الصخر ينبت الزهر ، وحمـــاية عقول المعتقلين من التفــريغ .

— محـــاولات الهرب من منفى المحاريق .

* الافراج وهزيمة خطة التصفية بالقبر والتعذيب .

— استشهاد لويس اسحق .

— ما بعد الافراج : الوضع السـياسى ؛ الوضـــع الحزبى والوضع المعيشى .

— كيف انتصر الشيوعيون فى مواجهة العوامل الخارجية ، وهزموا فى مواجهة العوامل الذاتية والداخلية ؟

— خطة التصفية تنجح . بيد من ؟

— حل الحزب الشيوعى المصرى والحزب الشيوعى المصرى « جدتو » ، كيف ؟ ولمـــاذا ؟ .

— المقدمات والنتائج بالوثائق .

احرص على حجز نسختك من الآن .

الفهـــرس

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

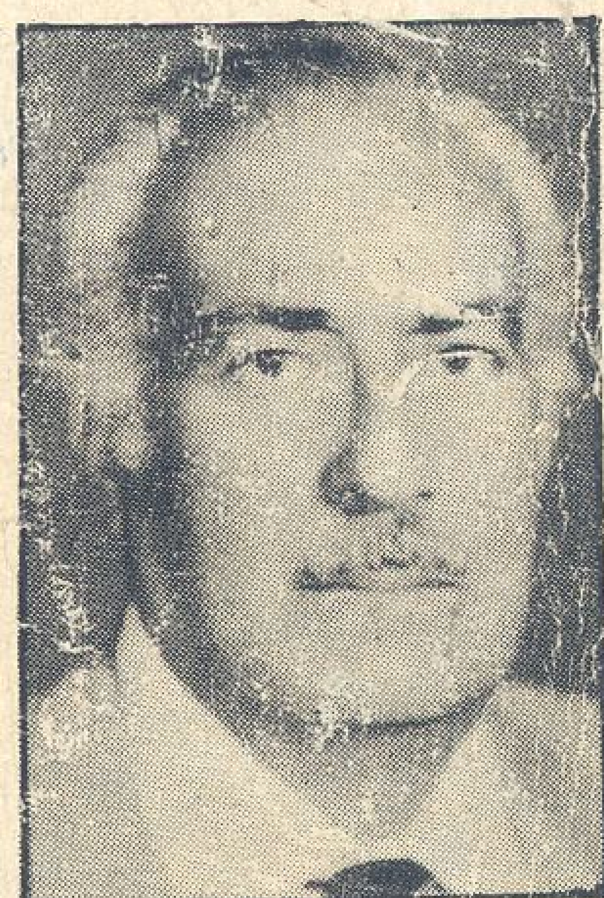
الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

رقم الايداع ٤٥٢٠/١٩٩٠
977 - 00 - 0239 - 9 - I. S. B. N

شركـــة الأمـــل للطباعـــة والنشر
(اخوان موررافيتلى)
١٩ ش محمد رياض ـــ ارض شريف ـــ عابدين
ت ٣٩٠٤٠٩٦

هذا الكتاب



هذا الكتاب لم يصدر تصفية لحسابات أو إثارة لحزازات ، لقد صدر لأنه ضرورة ، بعضا من ذاكرة التاريخ فى مصر . إنه شهادات عن فترة تاريخية فاصلة حفلت بالأحداث والرؤى السياسية والمواقف والمتتاليات ، وما تركته من آثار على مجرى الثورة الوطنية الديمقراطية . إن تجارب الشعوب هى أثمن ما تمتلك من ثروة . إنها ذخيرة الأجيال التالية تتلمس من خلالها الخطأ والصواب لتقوم بدورها التزاما بوطنها . فالماضى والحاضر والمستقبل كل متصل . ونحن الذين سبقنا لا نملك غير أمانة الشهادة ميراثا نسلمه لمن بعدنا ، واجبا علينا وحقا لهم . وكما اخترنا طريقنا فلكل جيل أن يختار . فالانسان ارادة واعية تختار فتلتزم فتتحمل المسئولية . وهذا الكتاب دعوة ونداء إلى كل الأبناء .

د . فخرى لبيب

شركة الأمل
للطباعة والنشر والتوزيع

١٩ شارع محمد رياض - أرض شريف
عابدين القاهرة - تليفون : ٣٩٠٤٠٩٦

تصميم الغلاف : داود عزيز